(الجزء الثالث) ربيع الأول ١٣٢٦ — صدر في اوائل ربيع الثاني (المجلد الحادي عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة عشرون قرشاً صاغاً في القطر المصري والقطر السوداني و ١٨ فرنكاً في الخارج و ١٥ شلناً في الهند و ٧ روابل في روسيا
(والدفع سلفاً)

المنار

١٣١٥

الاشتراك
يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] أو منتصفها [رجب]

﴿ مجلة شهرية ﴾
تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها
السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر الجمعة ٣٠ ربيع الاول ١٣٢٦ — أول مايو (أيار) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٨ : ١١٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٩ : ١١٥) هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٢٠ : ١١٦) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

أثمان مطبوعات المنار مع أجرة البريد مضمونة

٢٠ ٠١٢ تفسير القرآن الحكيم الجزء الثالث ورق متوسط

٢٠ ٠١٧ « « « « جيد

٢٠ ٠١٤ « « الجزء الثاني « متوسط

٢٠ ٠١٩ « « « « جيد

٢٠ ٠٠٣ « الفاتحة ومشكلات القرآن

٢٠ ٠١٧ انجيل برنابا مع مقدمته ورق متوسط

٢٠ ٠٢٢ « « « جيد

٠٢٤ شرح عقيدة السفاريني جزء ٢

٢٠ ٠١٧ أسرار البلاغة ورق متوسط

٢٠ ٠٢٢ « ورق جيد

٢٠ ٠٢٢ دلائل الاعجاز «

٢٠ ٠٠٦ محاورات المصلح والمقلد

٢٠ ٠٠٤ شبهات النصارى وحجج الاسلام

٢٠ ٠٠٤ الاسلام في نظر العقل الصحيح

٠٢٣ تاريخ الاستاذ الامام (جزء المنشآت) ورق متوسط

٠٢٨ « « ورق جيد

٢٠ ٠١٢ « (جزء التأبين والمراثي) ورق متوسط

٢٠ ٠١٧ « ورق جيد

٠٠٠ « (الجزآن معا تنقص قيمتها ٥ قروش)

(تنبيه) هذه الأثمان لنسخ غير مجلدة ومن طلب شيئاً من هذه الكتب مجلداً فعليه أن يزيد أجرة التجليد خمسة قروش لكل جزء ماعدا الكتب الصغيرة وهي ما يقل ثمنه من عشرة قروش

على معنى لا أمنعك نصحاً وهو ما يسمونه التضمين . و« عنتم » من العنت وهو المشقة الشديدة و « البغضاء» شدة البغض

اما سبب النزول فقد أخرج ابن اسحاق وغيره عن ابن عباس قال « كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم هذه الآية » وأخرج عبد بن حميد انها نزلت في المنافقين . وروى ابن جرير القولين عن ابن عباس . وذكر الرازي وجهاً ثالثاً انها في الكافرين والمنافقين عامة قال « واما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية فانه ثبت في أصول الفقه ان أول الآية اذا كان عاماً وآخرها اذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها » وسيأتي عن ابن جرير ترجيح الأول

واما المعنى فهو نهي المؤمنين ان يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف على القول بأن قوله « لا يألونكم » الخ نعوت للبطانة هي قيود للنهي كذا على القول بأنه كلام مستأنف مسوق للتعليل فالمراد واحد وهو ان النهي خاص بمن كانوا في عداوة المؤمنين على ما ذكر وهو انهم لا يألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فهذا هو القيد الأول . والثاني قوله عز وجل « ودوا ما عنتم » أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة . والثالث والرابع قوله « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم . فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها و يعز عليهم اخفاؤها على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها . وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة في الاصلاح ممن يدعونهم اليه وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك اذ لم يكونوا على علم طبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله بذلك ولذلك قال

﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ يعني بالآيات هنا العلامات الفارقة بين من يصح ان يتخذ بطانة ومن لا يصح ان يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته . أي

قال الاستاذ الامام ان الآيات السابقة من اول السورة كانت في الحجاج مع أهل الكتاب وكذا مع المشركين بالتبع والمناسبة وان هذه الآيات وما بعدها الى آخر السورة في بيان احوال المؤمنين ومعاملة بعضهم لبعض وارشادهم في أمرهم يعني ان أكثر الآيات السابقة واللاحقة في ذلك

ثم ذكر لبيان اتصال هذه الآيات بما قبلها ثلاث مقدمات (١) انه كان بين المؤمنين وغيرهم صلات كانت مدعاة الى الثقة بهم والإفضاء اليهم بالسر واطلاعهم على كل امر منها المحالفة والعهد ومنها النسب والمصاهرة ومنها الرضاعة (٢) ان الغرة من طباع المؤمن فانه يبني أمره على اليسر والامانة والصدق ولا يبحث عن العيوب ولذلك يظهر لغيره من العيوب وان كان بليدا مالا يظهر له هو وان كان ذكيا (٣) ان المناصبين للمؤمنين من اهل الكتاب والمشركين كان همهم الاكبر اطفاء نور الدعوة وابطال ماجاء به الاسلام وكان همّ المؤمنين الاكبر نشر الدعوة وتأييد الحق . فكان الهمان متباينين ، والقصدان متناقضين ، (ثم قال) فاذا كانت حالة الفريقين على ماذكر فهي لاشك مقتضية لان يفضي النسيب من المؤمنين الى نسيبه من اهل الكتاب والمشركين وكذا المحالف منهم لمحالفه من غيرهم بشيء مما في نفسه وان كان من أسرار الملة التي هي موضوع التباين والخلاف بينهم وفي ذلك تعريض مصلحة الملة للخبال . لذلك جعل الله تعالى للصلات بين المؤمنين وغيرهم حدا لايتعدونه فقال

﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم

قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ﴾ الى آخر الآيات

« بطانة » الرجل وليجته وخاصته الذين يستنبطون أمره و يتولون سره مأخوذ من بطانة الثوب وهو الوجه الباطن منه كما يسمى الوجه الظاهر ظهارة . و « من دونكم » معناه من غيركم و « يألونكم » من الإلو وهو التقصير والضعف و« الخبال» في الاصل الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالأمراض التي تؤثر في المخ فيختل ادراك المصاب بها أي لا يقصرون ولا ينون في إفساد أمركم . والأصل في استعمال فعل « ألا » ان يقال فيه نحو « لا آلو في نصحك » وسمع مثل « لا آلوك نصحاً »

اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم على ما وصفهم الله عز وجل به فعرفهم المؤمنون بالصفة التي نعتهم الله بها وأنهم هم الذين وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل الكتاب لأنهم لو كانوا المنافقين لكان الأمر منهم على ما بينا ولو كانوا الكفار ممن ناصب المسلمين الحرب لم يكن المؤمنون متخذيهم لأنفسهم بطانة من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم وافتراق أمصارهم ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان له من رسول الله (ص) عهد وعقد من يهود بني إسرائيل » اه

فهذا شيخ المفسرين وأشهرهم يجعل هذا النهي فيمن ظهرت عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ممن كان لهم عهد فخانوا فيه كبني النضير الذين حاولوا قتل النبي (ص) في اثناء ائتمانه لهم لمكان العهد والمحالفة ويمنع ان يكون مراداً به جميع الكافرين أو المنافقين

فهذا حكم من احكام الاسلام في المخالفين أيام كان جميع الناس حربا للمسلمين فهل ينكر أحد له مسكة من الانصاف انه في هذه القيود التي قيد بها بعد منتهى التساهل والتسامح مع المخالفين ؟ إذ لم يمنع اتخاذ البطانة الا من ظهرت عداوتهم و بغضاؤهم للمسلمين ؟ فهم لا يقصرون في إفساد أمرهم و يتمنون لهم من الشر فوق ذلك . لو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل لكان وجه العدل فيها ازهر ؟ وطريق العذر فيها أظهر ؟ فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الاسرار و يستعان برأيهم وعملهم على شؤون الدفاع عن الملة وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ؟ ؟

ما أشبه هذا النهي في قيوده بالنهي عن اتخاذ الكفار انصاراً وأولياء إذ قيد بقوله عز وجل (٦٠ : ٨ لا ينها كم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ٩ إنما ينها كم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم

ان كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الاعداء والاولياء فاعتبروا بها ولا تتخذوا أولئك بطانة

وانت ترى ان هـذه الصفات التي وصف بها من نهى عن اتخاذهم بطانة لو فرض ان اتصف بها من هو موافق لك في الدين والجنس والنسب لما جاز لك ان تتخذه بطانة لك ان كنت تعقل فما أعدل هـذا القرآن الحكيم وما أعلى هـديه وأسمى إرشاده ؛ لقد خفي على بعض الناس هـذه التعليلات والقيود فظنوا أن النهي عن المخالف في الدين مطلقاً ولو جاء هذا النهي مطلقاً لما كان أمراً غريبا ونحن نعلم ان الكافرين كانوا إلباً على المؤمنين في أول ظهور الاسلام إذ نزلت هـذه الآيات لاسيما اليهود الذين نزلت فيهم على رأي المحققين . ولكن الآيات جاءت مقيدة بتلك القيود لان الله تعالى — وهو منزلها — يعلم ما يعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما وقع من هؤلاء اليهود فانهم بعد ان كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الاسلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الاندلس) وكذلك كان القبط عوناً للمسلمين على الروم في مصر فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الابد ؟ ألا إن هذا مما تنبذه الدراية ولا تروي غلته الرواية . فأن أرجح التفسير المأثور يؤيد ماقلنا .

قال ابن جرير يرد على قتادة القائل بأن الآية في المنافقين ويؤيد رأيه الموافق لما اخترناه ما نصه : « ان الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين ان يتخذوا بطانة ممن قد عرفوه بالغش للاسلام وأهله والبغضاء إما بأدلة ظاهرة دالة على ان ذلك من صفتهم . وإما باظهار الموصوفين بتلك العداوة والشنآن والمناصبة لهم فأما من لم يتأسوه معرفة انه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالته ومباطنته فغير جائز ان يكونوا نهوا عن مخالته ومصادقته الا بعد تعريفهم إياهم إما باعيانهم وأسمائهم وإما بصفات قد عرفوهم بها . واذا كان ذلك كذلك وكان إبدا المنافقين بألسنتهم مافي قلوبهم من بغضاء المؤمنين الى إخوانهم الكفار (أي كما قال قتادة) غير مدرك به المؤمنون معرفة ماهم عليه لهم مع اظهارهم الايمان بألسنتهم لهم والتودد اليهم كان بينا ان الذين نهى الله عن

الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عمالا يليق بهم وغضاضة وألما موجعاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر ويوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة .

«يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم : عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم . لا بد ان يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ويراعى ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطئ في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلا وجعل له من هديه مرشداً . واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجدها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

«من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها . هذه فطرة فطر الله الناس عليها . ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عند مايرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار مايؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة

ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقد شرحنا هذا البحث في تفسير قوله تعالى (٣ : ٢٨ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله) (١)

هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب الى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعده على ذلك الى ان نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية الى العربية • وبهذه السيرة وذلك الارشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في إناطة أعمال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الاجانب من النصارى . ومع هذا كله يقول متعصبو أوربا ان الاسلام لا تساهل فيه !! « رمتني بدائها وانسلت » ألا ان التساهل قد خرج عند المسلمين عن حده حتى كتب الاستاذ الامام في ذلك مقالة في العروة الوثقى صدرها بالآية التي نفسرها نوردها هنا برمتها لانها تدخل في باب تفسير الآية والاعتبار بها على أكمل وجه وهذا نصها (نقلا من الجزء الثاني من تاريخه) :

* * *

« قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والاهب الوافرة والاسلحة الجيدة . قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها . ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون

(١) راجع ص ٢٧٦ وما بعدها من الجزء الثالث من التفسير

تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيئ من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

« نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة و يطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة و يضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد لان صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها و يميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

« لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الاسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للاجانب عنهم بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعدما رأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من اجيال بعيدة بعد ماعلمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عزوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير

فعلى ولي الأمر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان و إما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلاً من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه ·

أما الأجانب الذين لايتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل· هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ما عدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه · هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم و براءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي

الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح لا يمكن ان يصوب العقل نظره الى اعلى منه في ذلك؟ بلى ولكن وجد في الناس من ينكر عليه ذلك و يصفه بضده زورا و بهتانا، بل تعصبا خروا عليه صما وعميانا ،

من هم الذين يرمون الاسلام بانه دين بغض وعدوان ؟ لا اقول انهم النصارى الذين كانوا أجدر بحبنا وودنا من اليهود لقوله تعالى في تتمة الآية التي استشهدنا بها آنفا (ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) بل هم قسوس اوروبا المتعصبون على الاسلام من حيث هو دين، وساستها المتعصبون على الاسلام من حيث هو شرع ونظام قامت به دول وممالك . فاوروبا التي تتهم الاسلام — والشرق الأدنى كله لاجل الاسلام — بالتعصب والبغضاء للمخالف هي التي ابادت من بلادها كل مخالف لدينها الا الترك فانها لم تقو على ابادتهم حتى الآن ولولا ما بين دولها من التنازع السياسي لقضت عليهم . فنصارى الشرق ومسلموه وكذا وثنيوه إنما اغترفوا غرفة من بحر تعصب أوروبا ولكنهم لا قوة لهم على الدفاع عن انفسهم أمام اولئك المعتدين

أما قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فمعناه أنكم تؤمنون بجميع ما انزل الله من كتاب سواء منه ما نزل عليكم وما نزل عليهم فليس في نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الالهية او النبيين الذين جاؤا بها ما يحملكم على بغض اهل الكتاب فانتم تحبونهم بمقتضى ايمانكم هذا . وذكر بعضهم ان جملة « وتؤمنون » حالية من قوله « ولا يحبونكم » والمعنى انهم لا يحبونكم مع انكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم فكيف لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحق ببغضهم أي ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم

قال ابن جرير : «في هذه الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعني المؤمنين والكافرين ورحمة أهل الايمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الايمان، كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : قوله « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » فوالله ان المؤمن ليحب المنافق ويأوي اليه ويرحمه ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المنافق منه لأباد خضراءه » . حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني

بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوا،ة والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة ،

« اما آن لامراء الشرق ان يدينوا لاحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم ان يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم ان يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وايدي اعدائهم ، ألا أيها الامراء العظام مالكم وللأجانب عنكم ؟ «هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم ، ولم تبق ريبة في أمرهم ، «ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى ابناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير ، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس اجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا ؟؟ الى متى الى متى إنا لله وإنا اليه راجعون » اه

***

هذا بيان يريك بالحجج الاجتماعية الناهضة ان الغريب عن الملة لايتخذ بطانة للقائمين بأمر الملة ، والغريب عن الدولة لايتخذ بطانة لرجال الدولة ، وان لم يكن هؤلاء الغرباء متصفين بما ذكر في الآية من العدوان والبغضاء فكيف اذا كانوا كذلك يبنت لنا الآية التي فسرناها بعض حال اولئك الذين نهي المؤمنون عن اتخاذ البطانة منهم مع المؤمنين فدونك هذه الآية التي تبين حال المؤمنين معهم :

﴿ ها انتم اولاء تحبونهم ولايحبونكم ﴾ فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفا المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أثر الاسلام وهو انهم يحبون اشد الناس عداوة لهم الذين لايقصرون في افساد أمرهم وتمني عنتهم على ان بغضاءهم لهم ظاهرة وما خفي منها اكبر مما ظهر . اولئك المبغضون هم الذين قال الله فيهم او في طائفة منهم (٥ : ٨٢ لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) الخ يعني اولئك اليهود المجاورين لهم في الحجاز . أليس حب المؤمنين لاولئك اليهود الغادرين الكائدين واقرار القرآن اياهم على ذلك لانه اثر من آثار الاسلام في نفوسهم هو أقوى البراهين على ان هذا

جماعتهم » فليعتبر المسلمون اليوم بهذا لعلهم يتذكرون انه ما حل بهم ما حل من الأرزاء

الابزوال هذا الاجتماع والائتلاف و بالتفرق بعد الاعتصام ﴿ان الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ماتضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ماتقولون في خلواتكم وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك ماتنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم

ثم قال مبينا حسدهم وسوء طويتهم ﴿ ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ المس في الاصل كاللمس والمراد بتمسسكم هنا تصبكم ولعل اختيار لفظ المس في جانب الحسنة والاصابة في جانب السيئة للاشعار بان اولئك الكافرين يسوءهم مايصيب المسلمين من خير وان قل بان كان لا يزيد على مايمس باليد وانما يفرحون بالسيئة اذا اصابت المسلمين اصابة يشق احتمالها . هذا ما كان يتبادر الى فهمي ولكن رأيت صاحب الكشاف يجعلها هنا بمعنى واحد و يستدل باستعمال القرآن لكل منها في موضع الآخر ويقول ان المس مستعار للاصابة . ثم خطر لي ان اراجع تفسير أبي السعود فاذا هو يقول « وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة للايذان بان مدار مساءتهم ادنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة . وإما لأن اليأس مستعار لمعنى الاصابة » والاول هو الوجه وهو من دقائق البلاغة العليا . والحسنة المنفعة سواء كانت حسية او معنوية وأعظمها انتشار الاسلام ودخول الناس فيه وانتصار المسلمين على المعتدين عليهم المقاومين لدعوتهم . قال قتادة في بيان ذلك كما رواه عنه ابن جرير « فاذا رأوا من اهل الاسلام الفة وحماية وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم واذا رأوا من اهل الاسلام فرقة واختلافا واصيب طرف من اطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به " فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محلته" وأبطل حجته وأظهر عورته" فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة »

ثم أرشد الله المسلمين الى ما إن تمسكوا به سلموا من كيدهم الذي يدفعهم اليه الحسد والبغضاء فقال ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾

حجاج عن ابن جريج قال « المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » اه

فهؤلاء أئمة التفسير من سلف الأمة يقولون إن المسلم خير للكافر والمنافق منهما له حباً ورحمة ومعاملة . وكذلك قالوا في السني مع المبتدع كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قالوا ان من علامة أهل السنة ان يرحموا المخالف لهم ولا يقطعوا أخوته في الدين . ولذلك يذكرون في كتب العقائد « لا نكفر أحداً من أهل القبلة » بل كان رواة الحديث من أئمة أهل السنة كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن يروون عن الشيعة والمعتزلة لا يلتفتون الى مذهب الراوي بل الى عدالته في نفسه .

ونتيجة هذا كله ان الانسان يكون في التساهل والمحبة والرحمة لإخوانه البشر على قدر تمسكه بالايمان الصحيح وقربه من الحق والصواب فيه . وكيف لا يكون كذلك والله يقول لخيار المؤمنين « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » فبهذا نحتج على من يزعم أن ديننا يغرينا ببغض المخالف لنا كما نحتج على بعض الجاهلين منا بدينهم الذين يطعنون ببعض علمائهم وفضلائهم ، لمخالفتهم إياهم في مذاهبهم وآرائهم ، أو في ظنونهم وأهوائهم ، والذين سرت اليهم عدوى المتعصبين ، فاستحلوا هضم حقوق المخالفين لهم في الدين ،

ثم قال تعالى شأنه مبينا الشأن طائفة منهم اسندها اليهم في الجملة على قاعدة تكافل الامة وكونها كشخص واحد ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الايمان للنبي (ص) والمؤمنين نفاقا وخداعا ومنهم من كان يظهره ثم يرجع عنه ليشكك المسلمين كما تقدم في آية (٧٢) من هذه السورة(*) وإذا خلا بعضهم الى بعض اظهروا مافي نفوسهم من الغيظ والحقد الذي لا يستطيعون معه الى التشفي سبيلا . وعض الانامل كناية عن شدة الغيظ ويكنى به ايضا عن الندم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ فان الاسلام الذي هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به الا عزة وقوة وانتشارا وقال ابن جرير « موتوا بغيظكم الذى على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف

(*) راجع ص ٣٣٣ من الجزء الثالث من التفسير

الخلاص من ضررهم فانما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما ، والوسيلة المؤدية الى النجاح قطعا ، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح . وهناك وجه آخر وهو أن الخطاب بتعلمون عام للمؤمنين والكافرين جميعا — يعني على قراءة الحسن وابي حاتم «تعملون» بالمثناة الفوقية او على الالتفات — ومن كان عالما بعمل فريقين متحادين محيطاً باسباب مايصدر عن كل منهما ومقدماته ، ونتائجه وغاياته ، فهو الذي يعتمد على ارشاده في معاملة احدهما للآخر ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه في حاضرها وآتيها ما يعرفه ذلك المحيط بعمله وعمل من يناهضه ويناصبه فهداية الله تعالى للمؤمنين خير ما يبلغون به المآرب ، وينتهون به إلى أحسن العواقب ،

وأقول ان الإحاطة إحاطتان إحاطة علم وإحاطة قدرة ومنع وهذا التفسير مبني على ان الإحاطة هنا إحاطة علم لتعلقها بالعمل وذلك من المجاز الذي ورد في التنزيل كقوله تعالى (٦٥ : ١٢ احاط بكل شيء علماً) وقوله (١٠ : ٣٩ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) واما الإحاطة بالشخص أو بالشيء قدرة فهي تأتي بمعنى منعه مما يراد به وهذا ليس يراد هنا وبمعنى منعه مما يريده وبمعنى التمكن منه ومنه الإحاطة بالعدو اي اخذه من جميع جوانبه بالفعل او التمكن من ذلك ومنه قوله تعالى (٢ : ٨١ واحاطت به خطيئته) وقوله (١١ : ٩٢ إنَّ ربي بما تعملون محيط) وقوله (١٠ : ٢٢ وظنوا انهم احيط بهم) كل هذا من باب واحد وان فسر كل قول بما يليق به . فيصح ان يكون منه ما نحن فيه والمعنى حينئذ ان الله قد دلكم يامعشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم فعليكم بعد الامتثال ان تعلموا انه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة تمنعهم مما يريدون منكم بمعونة منه لكم كقوله (٤٨ : ٢١ واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بهـا) فعليكم بعد القيام بما يجب عليكم ان تثقوا به وتتوكلوا عليه ،

ومن مباحث اللفظ في الآيات قوله «ها أنتم أولاء» أصله انتم هؤلاء فقدمت أداة التنبيه التي تلحق اسم الاشارة «أولاء» على الضمير . ويقال في المفرد «ها أناذا» وعلى ذلك فقس . واعرابه : ها للتنبيه وأنتم مبتدأ وأولاء خبره وتحبونهم في موضع النصب على الحال أو خبر بعد خبر . وجوز بعضهم ان تكون أولاء اسم موصول وتحبونهم صلته

ذهب بعضهم الى ان المراد وان تصبروا على عدواتهم وتتقوا اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين لا يضركم كيدهم لكم وهم بمعزل عنكم . وذهب آخرون الى أن المراد وان تصبروا على مشاق التكاليف وامتثال الأوامر عامة وتتقوا مانهيتم عنه وحظر عليكم — ومنه اتخاذ البطانة منهم — لا يضركم كيدهم . و « يضرّكم » بتشديد الراء من الضرر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب « يضركم » بكسر الضاد وسكون الراء المخففة من ضاره يضيره والضير بمعنى المضرة . وقال الأستاذ الإمام ان الصبر يذكر في القرآن في مقام ما يشق على النفس، وحبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه فان من لذات النفوس ان تنضي بما في الضمير الى من تسكن اليه وتأنس به فلما نهوا عن اتخاذ بطانة ممن دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم وعلل بما علل به من بيان بغضائهم وكيدهم حسن ان يذكروا بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم وباتقاء ما يجب اتقاؤه لأجل السلامة من عاقبة كيدهم . ويصح ان يراد بالتقوى الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى في البطانة وغيرها .

أقول ومن الاعتبار في الآية انه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين وباتقاء شرهم ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والإحسان ودفع السيئة بالحسنة ان أمكن كما قال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فان لم يمكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فانه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة بني النضير الذين نزلت الآية فيهم أولا بالذات فإنه حالفهم ووادهم فنكثوا وخانوا غير مرة أعانوا عليه قريشاً يوم بدر وادعوا انهم نسوا العهد ثم اعانوا الاحزاب الذين تحزبوا لإبادة المسلمين ثم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فتعذرت موادتهم واستمالتهم بالمحبة وحسن المعاملة فكان اللجأ الى قتالهم وإجلائهم ضربة لازب

ثم قال ﴿ ان الله بما يعملون محيط ﴾ قال الاستاذ الامام مامثاله: المحيط بالعمل هو الواقف على دقائقه فهو اذا دل على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين والوسيلة

السلطان ، وتحريم الخروج والعصيان ، فأرسلت من خاطب إمامهم بذلك غير مرة فكانت حجة الإمام أنهض ، وحجة رسول السلطان أدحض ، لأن الظلم والبغي بغير الحق حجج عملية ، لا تبطلها الحجج القولية ، ولا تفيد معها شيئاً

وقد عثرنا في هذه الأيام على نص ما أجاب به إمام الزيدية عما وجهه اليه الشيخ محمد الحريري مفتي حماه المندوب الذي أرسله اليه السلطان منذ سنين ومنه يعلم صحة رأينا في هؤلاء القوم وهذا نصه :

المنصور بالله محمد بن يحيي حميد الدين

﴿ عصمتي بالله وما توفيقي إلا بالله ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ أيد دينك القويم بالعلماء العاملين ، واكشف ببركتهم جهل الجاهلين ، وارفع بحميد سعيهم غفله الغافلين ، فهم بحور العلم الزاخرة ، ونجوم الهدى الزاهرة ، وزينة الدنيا والدين والآخرة ، وأهل الفضائل المتكاثرة ، منهم ذو المجد الشامخ المنيف ، والحسب الباذخ الشريف ، والأدب المثمر روضه الوريف ، السيد محمد الحريري الرفاعي الحسني الحموي ، ألبسه الله جلباب التقوى ، وقاده إلى التمسك بالحبل الأقوى ، واعاد على محياه السلام الأسنى ، والإكرام الأهنى ، وصلى الله على محمد خاتم أنبياه ، وعلى آله سفينة النجاة ، وتراجمة الكتاب وقرناه ، وعلى صحابته الذين اتبعوه بعد مماته وفي محياه ،

أما بعد فانا نحمد الله الذي لا يرجى ويخشى سواه ، ولا نعبد إلاّ إياه ، وانه وافانا منك أيها السيد كتاب كريم ، ومسطور رائق فخيم ، افاد معرفة بحقوق العترة النبوية ، والسلالة العلوية ، بما ورد فيهم من الآيات القرآنية ، والاحاديث الصحيحة المروية ، «وان دواعي المحبة اقتضت المراسلة ، و بواعث المودة جذبت الى المكاتبة والمواصلة » وان من لوازم المحبة والايمان ، بذل النصيحة للإخوان ، لا سيما ولاة الأمور ، الذين ناط الله

اليمن

سبب فتنتها وامام الزيدية فيها

إن العرب في اليمن وحضرموت ونجد وسائر جزيرة العرب يحبون الدولة العثمانية محبة صادقة وزادهم حباً فيها وحرصاً على بقائها في هذا الزمن اعتقادهم أن دول اوربا تتربص بها الدوائر وتحاول إزالة سلطتها لإزالة سلطة الإسلام من الوجود وهم على بقاء مميزاتهم الجنسية والوطنية على نحو ما كانوا في القرون الماضية والأجيال الغابرة لم يطرأ عليهم من التغير ما طرأ على أهل الاستانة ومصر والشام والاناطول وغيرها من الاقطار الإسلامية : لاتزال الرابطة الدينية عندهم فوق رابطة الجنس واللغة والوطن لم تعلمهم المدنية الأوربية التعصب للجنس كما علمت الاتراك ولا للبقعة كما علمت المصريين فهم يتمنون لو يجدون من الترك حكاماً يقيمون العدل ويحكمون بالشرع لا يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك

ولكن الذي لا يطيقون احتماله ولا يصبرون عليه هو الظلم والجور والخيانة والغدر لأنهم ورثوا الاستقلال الشخصي والقومي وعزة النفس وإباء الضيم منذ آلاف من السنين

وقد بينت في المنار من قبل ان فئة قليلة من العمال (الحكام) المسلمين العدول العارفين بالشرع المهتدين به يكفون الدولة في اليمن امر هذه الحروب التي طالت عليها السنين فخربت البلاد واضاعت على الدولة من الأموال والرجال ماهي في أشد الحاجة اليه لصيانة استقلالها من عبث أوربا التي تواثبها المرة بعد المرة ، وأضرت بها انواعاً أخرى من المضرات لا حاجة إلى شرحها الآن

الزيدية طائفة من عرب اليمن تدين بوجوب إقامة إمام لها من العترة النبوية فهم بذلك أجدر العرب بعدم الخضوع للدولة العثمانية ولكنهم مع ذلك يتمنون لو تقيم الدولة في بلادهم العدل وتحكم بالشرع ويكون لها منهم ما يريدون فما بالك بغيرهم حاولت الدولة غير مرة ان تقيم الحجة الشرعية على هؤلاء بوجوب طاعة

كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » حتى اذا بلغ الكتاب أجله كان هو الله المنتصر لنفسه

ولم نزل نتوخى ان السلطة القاهرة أعز الله بها الاسلام، اذا رفعت اليها تلك القبائح التي لا يختلف في وقوعها اثنان، أن تأخذها حمية الدين والايمان، على تلافي مافرط من الاضاعة، وتستدرك مافات من حق عترة رسول الله الذين لا تستحق بدون اتباعهم الشفاعة، فلم يزدادوا مع طول المدة الا انسلاخا من الدين، وتوسعا من تأمر الفجرة المعتدين،

فان قلت ايها السيد ان تلك القبائح مباحة في الاسلام، وان فعلها مستحل من أتباع شريعة سيد الانام، فهات الدليل، ولا يقول بذلك الا ضليل، وان انكرت ايها السيد أن ذرية الرسول، هم الحجة في الفروع والاصول، صاح بك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن ذلك هو الفضل الكبير » وقوله تعالى « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي ان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض » وقوله صلى الله عليه وسلم «إن عند كل بدعة تكون من بعدي وليا من ذريتي » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي امان لاهل الارض » وقوله صلى الله عليه وسلم » اهل بيتي كسفينة نوح » وغير ذلك مما لا يتحمله المقام فالظهور أبين للحجة، واوضح للمحجة، لاما خوفتنا به من القتل والنكال، فانا اهل بيت لا تزعزعنا كواذب الآمال، ولا نعد بذل نفوسنا في سبيل الله إلا من اشرف الخصال، ولا نفزع الى غير ذي الجلال، ولا ندعو سواه في البكور والآصال

على ان قومي تحسب الموت مغنما ... وان فرار الزحف عار ومغرم

« امَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون الا في غرور » ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم

بهم صلاح الجمهور ، وافاد اسعده الله انه مستنكر لما جرى بيننا و بين الولاة المرسلين من حضرة الدولة العثمانية، والسدة الخاقانية، من الحرب والاختلاف ، وعدم التوافق والائتلاف ، وانه يرى الخير في إصلاح ذات البين ، ورفع الفتنة التي تؤدي إلى التهلكة والحين ، وانه ورد الحث عليه في السنة والكتاب ، وانه مناط الرضا لرب الأرباب ، وان السلطان الاعظم ممن أقام الله به الدين، وانتظمت به أحوال المسلمين ، وتشرف بخدمة الحرمين الشريفين ، وأقام بجهاد الكفار ، ومنابذة الاشرار، وان رغبته في صلاح الدنيا والدين ، وقمع الفجار المعتدين ، وان القطر اليماني المحروس بالله محل الايمان ، كما ورد عن سيد ولد عدنان ، وان سعيه في ذلك نصيحة دينية، ومحبة ايمانية

فنقول نعم الامر كما ذكرتم مما وقع بيننا و بين من تعلق بالسلطة القاهرة اعز الله بها الاسلام، وقمع بها ذوي الالحاد الطغام ، ولم يكن لنا من الرياسة الدنيوية طلب ، ولا في الراحة البدنية أرب ، ولا نعول على جمع المال ووفرة المكسب، ولا مزيد على ما نحن فيه من الحسب والنسب ، لكنا رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله ، ولا رعوا حرمة ماحرمه الله ، ولا غضبوا يوما على معاصي الله ، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ، و« شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » ، وارتكبوا المعاصي، ورموا اليها الناس باطراف النواصي، وجاهروا الله بشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وظلموا كل ضعيف ، واهانوا كل شريف ، حتى فسدت الذرية ، وارتفعت كلمة اليهودية والنصرانية ، وصارت الاكراد والمجوس تحكم في البرية . « لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة » . ولا تأخذهم في المسلمين رأفة ولا رحمة ، ولما لم نجد عن أمر الله بدا ، استعنا وتوكلنا عليه و بذلنا في الجهاد جهدا ، امتثالا لقول الله عز وجل « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة و يكون الدين لله » وقوله عز وجل « ولتكن منكم يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون» وقوله « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وخوفا مما خوفنا الله به من نحو قوله تعالى «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون*

الله افدنا من كتاب الله ومن سنة رسول الله ودع عنك التخويف بالمخلوقين كما قد قيل

جاء شقيق عارضا رمحه ان بني عمك فيهم رماح

واما اجتماع الكلمة على الحق فمن أين لنا ذلك ، والا فهو عندنا من اعظم المسالك ، حقنا للدماء ، ورفعا للدهماء ، ونسأل الله ان يرفع عن الامة المحمدية السوء والمحن ، ويجعلها على اتباع الكتاب وقرنائه اهل بيت النبي المؤتمن ، وان يعيذنا من نزغات الشيطان الرجيم ، ومضلات الفتن وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان اللائق بحال اركان السلطان الاعظم ان يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار وقد اضربوا عنها صفحاً ، وطووا عنها كشحا ، وما سارعوا لغير مملكة اليمن التي بايدي أولاد رسول الله ، يحكمون فيها بما انزل الله ، ويمنعون محارم الله ، فهلا جعلوا آل الرسول كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم ؟ اللهم اشهد وكفى بك شهيدا » اه

(المنار) تسمع الدولة هذه الاخبار وتقرأ مثل هذا الجواب ثم هي توالي ارسال الجيوش الى اليمن فاذا توالى انكسارهم ارسلت من الرسل السلميين من يقيم الحجة على امام الزيدية ! ! لم نعتبر باخفاق محمد الحريري وحسن خالد الصيادي فارسلت في العام الماضي وفدا من علماء مكة فكانت حجتهم كحجة من سبقهم . ولو سمعت كلامنا نحن الناصحين المخلصين لأرسلت واليا عادلا حكيما وعمالا من اهل الدين والاستقامة فبذلك لا بسواه تنطفئ نار الفتنة ، وتخضع اليمن للدولة ، فاذا اعوز الدولة هذا العلاج ، فلتعلم ان جميع بلاد العرب ستتبع اليمن في الخروج عليها ، او الخروج من سلطتها ،

المؤتمر الاسلامي

سبق لنا قول في المؤتمر الإسلامي الذي اقترحه اسماعيل بك غصبرنسكي القريمي ونقول الآن ان اللجنة التي تألفت للبحث في ذلك وسمت نفسها اللجنة التأسيسية قد وضعت لهذا المؤتمر قانوناً طبعته وأرسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية

من بعده «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم * ونريد ان نمنّ على الذين استُضعِفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين * الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور» فنحن من وعد ربنا على يقين، «والعاقبة للمتقين» وانك لاتجد في خطتنا المنصورة إلا قائما لعبادة ربه اذا اسدل الليل جناحه، او تاليا كتاب الله وذاكرا اذا أطلع الفجر صباحه، ومساجدنا معمورة بالعلم والعمل، وقلوبنا ضالة عن الجبن والفشل، ولا نفتخر كغيرنا بآلات الحرب الفاخرة، ولا بالسيوف المتكاثرة، التي تحت امرنا عائرة، بل نتبرأ من الحول والقوة، ونتمسك باذيال سيرة الامامة والنبوة

مغارس طابت في ربا الفضل فالتقت على انبياء الله والخلفاء
اذا حمل الناس اللواء علامة كفاهم مثار النقع كل لواء

فقد اوضحنا لك ايها السيد طريقتنا، وأبلغنا اليك أفعال أعادينا «فاي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون» ولو يعلم السلطان الاعظم حقيقة الحال، لسارع الى اعانتنا في الحال والمآل، ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية، ولمنعهم عن محاربة العترة النبوية، التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية، ولأوفى جدنا الاعظم اجر تبليغ الانباء المشار اليه «بقل لااسألكم عليه» الآية. ولتباعد عن مشابهة من قال فيهم خاتم النبيين «من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال» وعن الدعوة النبوية في قوله لأهل بيته «انا حرب لمن حاربتم سلم لمن سالمتم» وقد امر الله تعالى بالكون مع الصادقين بقوله تعالى «ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» وثبتهم بقوله «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله واولئك هم الصادقون * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء * وياقوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني إلى النار) فاذا وجدت ايها السيد خلاصا من اوامر

السلفي والشيعي والأباضي . ومن السنية الحنفي والمالكي الخ ومن الشيعة الجعفري والزيدي ، فالذي يجمع بين هؤلاء ويوحد كلمتهم هو كتاب الله والسنن العملية المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي عن آله وأصحابه رضي الله عنهم . وبذلك يكون المؤتمر غير مقيد بالتقاليد الاجتهادية التي تثير النزاع وتفرق الكلمة فلا يمنع أعضاءه مانع من الاعتصام بحبل الله ودعوة سائر المسلمين الى الاعتصام به »

كتبنا هذا لتنبيه لجنة المؤتمر قبل الابتداء بعملها إلى هذا الاساس الذي لا يفيد المؤتمر بدونه شيئاً وكنا نخاف أن يحاول من دخل في اللجنة من علماء الأزهر تقييد المباحث الدينية في المؤتمر بنصوص كتب المذاهب وكان أخوف من نخاف في ذلك رئيس اللجنة الشيخ سليم البشري لانه كان يبلغنا عنه انه ممن ينكرون على المنار الإنحاء على التقليد والاعتماد في مباحثه على الأدلة الشرعية فلما رأيناه الآن ، وافق على قانون المؤتمر الذي جعل أساس مباحثه الدينية الاجتهاد دون التقليد حل الرجاء محل الخوف ووجب علينا ان نثني على الأستاذ الكبير الشيخ سليم البشري أجمل الثناء فحياه الله تحية مباركة طيبة ،

انما قصرنا الثناء على الشيخ سليم من دون سائر اعضاء اللجنة الواضعة لهذا القانون لان معارضة مثل الشيخ سليم من كبار العلماء أصحاب الشهرة والصفة الرسمية في مسألة اجازة الاجتهاد ومنع التقليد تعد عقبة في سبيل الاصلاح وموافقته عليها تعد تمهيدا عظيما لهذه السبيل التي هي سبيل الله وعونا كبيرا للسالكين فيها، ولا نبخس احدا من اعضاء اللجنة حقه ، ولا نظلمه شيئا من فضله ، بل نرجو ان يكثر فينا من أمثالهم الجاهرون بهذه الدعوة كما كثر المعتقدون لها وان لم يصرحوا بها

ان في علماء الازهر كثيرين يعتقدون بطلان التقليد ووجوب اتباع الدليل ولكن يقل فيهم من يجهر بذلك قولا ويندر من يتجرأ منهم على كتابة ذلك في الصحف المنتشرة والدعوة اليه على رءوس الاشهاد . ذلك بان كبراء الشيوخ ذوي المكانة عند الامراء والشهرة عند العامة ينكرون ذلك على قائله ويضطهدونه ان استطاعوا ويبالغون في ذلك مبالغة هي عندي من مثارات العجب . افلا يحق لنا اذاً أن نكبر إجازة الشيخ سليم البشري جعل قبول ما يقدم للمؤتمر من الآراء والمباحث

والتركية والفارسية الى الجرائد الإسلامية في القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية والى من عرفت من أهل الفضل والرأي من المسلمين. وقد جعلت الباب الثاني من القانون خاصاً ببيان موضوع المؤتمر وفيه ثلاث «مواد» نذكرها بنصها وهي:

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ وظيفة المؤتمر هي البحث في الاسباب التي أوجبت تأخر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع والنظر في إزالة تلك الأسباب وفيما يؤدي الى رقيهم

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ لا تقبل الآراء التي تعرض من الوجهة الدينية إلاَّ اذا كان لها سند من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ لا يجوز التعرض في مناقشات المؤتمر وأبحاثه للمسائل السياسية أياً كان نوعها اه

وقد سرنا موافقة الشيخ سليم البشري رئيس اللجنة على المادة الخامسة عشرة سروراً عظيماً وعددناها من بشائر الإصلاح، وأمارات النجاح، ذلك بأن الإصلاح الإسلامي مع التزام المذاهب المعروفة والجمود على كتب متبعيها محال ولذلك جرينا في المنار على اتباع الدليل في المسائل الدينية وترك التقليد وإقامة الحجج على المقلدين، لان المنار كالمؤتمر علم لجميع المسلمين .

وقد قلنا في مقالة طويلة عنوانها (بحث في المؤتمر الإسلامي) نشرناها في الجزء التاسع من السنة الماضية ما نصه (ص ٦٨٠ م ١٠)

« ثم انه ينبغي ان تكون القاعدة الاساسية الاولى للإصلاح الديني في المؤتمر هي المحافظة على المجمع عليه عند المسلمين لا سيما ما كان منه معلوماً من الدين بالضرورة وذلك هو القرآن المجيد وما استفيد منه بالنص القطعي وبعض السنن المتبعة — ونعني بالسنة معناها اللغوي الذي كان يفهمه الصحابة ومنه ماهو فرض أو واجب ككون الصلوات المفروضة خمساً، ركعات كل صلاة منها كذا يقرأ فيها كذا ويركع في ركعة مرة ويسجد مرتين ومنها ماهو مندوب في اصطلاح الفقهاء كما هو معروف —

« ذلك ان المؤتمر الإسلامي عام لجميع المسلمين وفيهم السني السلفي وغير

الرد على اللورد كرومر

(تتمة الكلام في مسألة المعارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المغالطة فى هـذا الفصل فعمل محمـد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة فى فرنجة عـدد معين للوظائف . والانفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لا يجعل مقياسا الوقت يزيد فيـه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا العصر لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقرى دائماً ولما ساغ لانكلترا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الحالكة شر تمثيل ثم هو يجعلها أساساً يبني عليه سياسته في التعليم؟

اللورد قد ذم المتفرنجين في كتابه ذما بليغا وبين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يعذره اذا طلب لبلاده تعليما أنفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المتفرنجين ؟

ومن المغالطة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يعلمون مجاناهم في الغالب اولاد الاغنياء، فإن العدل في ازالة هذا الامتياز بما يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أراده القابضون على أزمتها

الدينية مشروطا بأن تكون مؤيدة بدليل من الكتاب او السنة او الاجماع او القياس ونحن نعلم أنه من أولئك الشيوخ الكبراء بل هو في ناصيتهم وذروتهم اذ هو شيخ المالكية وكبيرهم الآن وكان بالامس شيخ الازهر؟ وقد اشتهر بانه اعلم اهل الازهر الآن بالحديث ولعل الخير جاء من هذه الناحية فأهل الحديث مازالوا أبعد الناس عن التقليد.

ونعود الى مباحث المؤتمر فنقول ان المباحث الدينية قد اشترط فيها هذا الشرط الذي سررنا به على اجماله واما المباحث الاجتماعية فلم يشترط فيها شيء واذا يسر الله واجتمع المؤتمر فاننا سنحتاج الى تحديد ماهو اجتماعي غير ديني وفي ذلك من العسر مافيه لا سيما في المسائل العائلية والمالية بل أقول ان المسألة الجنسية لها علاقة عند المسلمين بالدين وقد كان السيد جمال والشيخ محمد عبده يقولان ان المسلمين لاجنسية لهم في غير دينهم ولكن كثيراً من الاتراك والمصريين يقولون اليوم بجنسية النسب وجنسية الوطن ولا يعدون هذا مما يتعلق بالدين وهذه المسئلة من اكبر المسائل التي ننتظر من المؤتمر — ان اجتمع — حل عقدتها

ذكر اسماعيل بك غصبرنسكي في احد اعداد جريدته «ترجمان احوال زمان» ان أحد اذكياء الترك يريد ان يلقي في المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء امة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة ودينا وسياسة !!! وربما يسمع المصري وغير المصري ممن لا يعرفون الغاية التي وصلت اليها نابتة الترك من التفرنج هذا القول فيرونه عجيبا غريبا ولكن لا يعجب منه من يعلم ان كبار كتاب الترك قد دارت بينهم منافسات طويلة في هذه المباحث استمرت عدة سنين وكان فيهم من كتب مثل هذا الرأي حتى غلا بعضهم فقال انه يجب تطهير التركية مما فيها من مفردات اللغة العربية

نحن نعد هذا شذوذا وغلوا ويوافقنا على رأينا كثير من فضلاء الترك لاسيما المتدينين منهم . واذا انعقد المؤتمر فان جمهور المسلمين من جميع الشعوب سيسمعون من اخبار امراض المسلمين الاجتماعية والدينية مالا يخطر لهم الآن في بال ، ونسأل الله ان يحسن العاقبة والمآل

جرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى غرضه وبرأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين ولوائحا التعليم في نظارة المعارف (بروجراماتها ومنشوراتها) على المجلس ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية (وقد بينا ضعف اقوال الناظر يومئذ في المنار ص ١١٠ و ١٤٩ م ٥)

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجهيزية . وقد ذكر في آخر تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية (دار العلوم) ضعف تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضعيفا فكيف يكون تعليم هؤلاء المعلمين له ؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتبه الشيخ محمد عبده لمسيو جرفيل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكره ـ ان كان ناسيا ـ ان لها أصلا أصيلا مؤيداً بالبرهان والدليل ، ومن العجائب ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية: فمن ذا كتب مايعلم انه لا أصل له ؟ ألشيخ ام اللورد؟اللورد يعرف ذلك اذا لم يكن السخط قد انساه تلك اللائحة التي قدمت اليه وتلك الحجج المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكلها ناطقة بأن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة . فهذا ما نقول في السبب الاول لسخط اللورد على الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

لو كانت الطريقة التي أزيل بها امتياز أولاد الاغنياء على أولاد الفقراء في التعليم المجاني عادلة لكان من العدل ان يمنع الماء عن الاراضي التي كان الاغنياء يميزون فيها على الفقراء في الري حتى لا تزرع منها أرض فقير ولا غني فان العلم حياة النفوس كما ان الماء حياة الارض.

لم يكن الشيخ محمد عبده راضيا عن سياسة التعليم بمصر في وقت من الاوقات . ففي زمن توفيق باشا حمل على نظارة المعارف حملة قلمية منكرة في جريدة الحكومة الرسمية ومقالاته في ذلك مثبتة في الجزء الثاني من التاريخ الذي وضعناه له. وقد حمل ذلك الحكومة على الشروع في إصلاح التعليم والتربية ولكن جاءت الثورة العرابية فأوقفت كل عمل وتلاها الاحتلال ونفي الشيخ من البلاد. وبعد عودته رأى سياسة التعليم غير سديدة فقدم لعميد الدولة المحتلة ــ واياك اعني ايها اللورد ــ لائحة [1] فيما يجب اتباعه في التربية والتعليم فوضعت في زوايا الاهمال ،

لعل اللورد لم ينس ان الشيخ كتب في هذه اللائحة ما نصه «المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة » [2] ثم ذكر غرض محمد علي باشا من انشائه لها وما كان حظها من خلفه الى عهد اسماعيل باشا. ولكن الشيخ ذكر ذلك حجة على فقد التربية والمعارف الحقيقية منها فجاء اللورد يذكره من بعده في تقرير ١٩٠٥ ويجعله حجة على بقاء ما كان على ما كان الا المجانية فانه يري ابطالها بعد انتظام مالية الحكومة وامتلاء خزائنها ! !

مرت الايام على موت هذه اللائحة والشيخ محمد عبده قاض في المحاكم ليس له طريق رسمي الى دعوة الحكومة الى اصلاح التربية والتعليم وقد

«١» ص ٣٦٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام «٢» ص ٣٢٩ منه

ما يحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدّون وينشر بين الناس ولذلك ينتقد بعض أهل الرأي على مستر بلنت ذكر مسائل وخواطر حدثه بها الشيخ محمد عبده فنشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتمني جمال الدين لو يقتل اسماعيل باشا واستحسان محمد عبده لرأيه . على ان هذه المسألة اصغر من القالب الذي وضعها لورد كرومر فيه كما سنبينه

بقي علينا وقد بينا اختلاف قولي اللورد في الاستاذ الامام وسبب هذا الاختلاف ان نبين الحق فيما لمزه به فنقول انه ينحصر بحسب ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

الاولى وصفه بأنه خيالي

قول اللورد في الشيخ انه كان مفطورا على الخيال(١) لا يتفق مع قوله فيه من الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا ـ ومن الجهة السياسية والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرية وان اتباعه اذا نجحوا وسوعدوا على ما اختطه لهم من المبادىء المعتدلة فيهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم كالجيرونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه ـ ومن الجهة العلمية والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن

ما هي الآراء الخيالية التي كان يبديها للورد فيتعذر عليها تنفيذها له لانها خيالية لا عملية ؟ لعله يعني بها تلك اللائحة(٢) التي اقترح بها عليه جعل التربية الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب وبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الاشارة الى هذه اللائحة

افضاء الاستاذ الامام لمستر بلنت بعيوب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقن مستر بلنت جل ما في كتابه (التاريخ السري للاحتلال) من عيوب ادارة المحتلين بمصر[1] فهو مما يعذر فيه فان هذا مما يغيظ السياسي والحاكم المطلق حقيقة. واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعذر حافظي الوقائع التاريخية ورواتها ومدونيها. واللورد في كتابه «مصر الحديثة» مؤرخ لا حاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم إذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتحام القدح في امرائها وعلمائها وعمالها وجميع أهلها بناء على انه مؤرخ يجب عليه إظهار الحقائق - اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق - فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن أعانه على ذلك؟ اليس من العدل العام ، أن يدين المرء كما يدان؟

هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصه ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمد عبده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيما اذا كان مؤلما له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ألا إن منتهى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد، أن يؤاخذ الناس بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقائهم ومحبيهم ،

ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لا يخطر في بال الانسان عند

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فالحاح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزينة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « انني لا أعطي قرشا واحداً للمحاكم الآن» كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « انه هكذا قال لا أعطي بضمير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير يعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها ؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريرا فيه اصلاح لمحاكم شرعية وراء اصلاحها اصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكلترا موت الشرع في مصر وابطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى مطالبته باصلاح المحاكم الشرعية من الخيالات والاوهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيؤن الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟

نعم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يعدها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبا نفسها في يوم من الايام، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علم بها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ «لا أدريا» فانها آمال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رءوس الاشهاد في قوله تعالى « ٢٤: ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

البلاد المصرية وتكون بمأمن حتى من التعصب وفتنه الا بالتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أتم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة (كاقتراحه في مجلس شورى القوانين تعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجهيزية) فلماذا يسيء الظن بدينه وهل تكون هذه الغيرة على الدين لضعاف الايمان أو للاأدريين؟

للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو منتهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية[١] ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدنية ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه معها . ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة لعميد انكلترا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا العميد وبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخيل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على اننا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان منتهى غرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعليم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذا لم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يبعد ان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضاً في نظر اللورد

«١» جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها - راجع ص ٢٢٨ من مجلد المنار العاشر

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الادارة فعهدي ان آراء الاستاذ الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كعدوله عن الغاء النيابة العمومية عملا برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت فيه المناقشة بينهما ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه وان أكثر النابغين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول القبض علي السلطتين فيجعل الامير وعميد الاحتلال معا في يديه فهذا من آراء صاحب المؤيد التى لم تخطر للورد على بال فيما يغلب على ظني

الثانية ظن اللورد انه لاادري

نبز اللورد الاستاذ الامام بلقب « اللاأدري » (*) وهو قد أخذه من ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشى» ان يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من الظن الذى قال الله فيـه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء النابغين من مريدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل ظن لورد كرومر

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التى استنبط منها اللورد كلمته هي من المسلمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

(*) راجع صفحة ٩٤ من الجزء الماضي

لهم » الآية « ان هذه الآية لم يأت تأويلها بعد ولا بد ان يأتي ولو بعد حين وان كان بعيدا » فهل تكون هذه الثقة بوعد في القرآن كهذا (قيل انه قد حصل) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من لورد كرومر فاننا نعرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء محدودة منها بعض الآراء في مصلحة مصر وكان صاحب هذه المجلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان مفطورا على الخيال غير ماذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية واصلاح المحاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجه همته الى اصلاح الازهر ولكن كل ماتشبث به من الاصلاح كان عمليا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مدون بالتفصيل في كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين) ومالم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام بمحل لذكره

نعم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أعلى وأسمى مما تشبث به من مبادئ الاصلاح التدريجية - آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على بيانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، وهداة يهدون جميع طبقات أهله الى ماجهلوا منه، ولكن العوائق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلعا على هذا وإلا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا »

يقولون به لو سئلوا هذا السؤال » . وقال لي مرة « ان كان الاسلام ما تقرره فانا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الاسلام « انني أنا اعتقد هذا فاما ان اكون مسلما واما ان تكون كافرا » . وقال لي مرة «ما اظن ان احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده» ولا يبعد ان يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وماذكرته له من حكمة الصيام واعجابه به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النصارى للغداء في رمضان وعرضوا عليّ القهوة مرارا كثيرة فكنت أقول متعجبا أو نسيتم اننا في رمضان؟ فيقولون او أنت تصوم أيضا ؟ فاقول : أي شيء يبيح لي الفطر ولست مريضا ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النصارى هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهريا وهو يسرّ الإلحاد في قلبه فهل اللورد ملحد ام هو مقلد لستانلي في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يتفق هذا مع شهادته للشيخ محمد بيرم بالايمان والعقل جميعا ؟

قال اللورد بعدماذكرأنه يخشى ان يكون الشيخ محمد عبده لاأدريا «وان كان يستاء من هذه النسبة» فقوله هذا يشعر بأنه ذكرأمامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصريحا او تلويحا فاستاء وامتعض وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لا ينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه اعز شيء عليه وهو الذي جعله لايخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأيوسا منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومداراتهم الاستعانة بهم على خدمة العلم والدين

اثنين متعصبا او ملحدا في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمعها وانا تلميذ مبتدىء وهي « ان النصراني المتعلم ملحد لا دين له فان تعصب لقومه وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » ومما كنا نسمعه من آبائنا وبعض مشايخنا : «ان مما يمتاز به الاسلام على النصرانية المعروفة ان المسلم يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم العلوم مرق من الدين ولذلك كانت مدنية المسلمين وعلومهم في حياة ونمو أيام كان الاسلام حيا في نفوسهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعته عندهم» فالامم والملل تتشابه في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية ويؤيدونه من الجهة الحسية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالالحاد وكثير ما هم. ولما كان النصراني يعتقد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا واعتقادا نظريا ان كان ملحدا كان للملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري ان المسلم العاقل المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا ولا يعدمون من المسلمين المتفرنجين من يجاهرون امامهم بالكفر ويسكرون معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يعلمون ان هؤلاء الذين يظنون انهم قد ألحدوا بعد اسلام لم يعرفوا يوما ما من الاسلام شيئاً

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكليز ذوي التربية العالية فيهم وجرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة يقول «ان ما تقوله معقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

لابسي الجلابيب الزرقاء من فلاحي مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كالسيد جمال الدين الافغاني في قتل أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذله كمحمد عبده المصري لفكرته وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتمدن لهما وللوطنيين المصريين دائما لان تلميذا منهم استحسن من زهاء ثلاثين سنة قتل أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها ؟؟ـ لو سئل الثلاثة هذا السؤال لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس علم المنطق واشهر الفلاسفة المتاخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولا لوم من تلك الفكرة ان فرضنا انها فكرة تنافي المدنية ، وان المنطق يتبرأ ممن يتقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين على مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد عبده في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة حتى كون لنفسه حزبا له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان اسماعيل باشا هو العقبة الكؤد في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد من الغريب عند الامم المدنة ان يتمنى ازالتها اويفكر فيها فينظر العالم المدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزر لان من علمهم السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة ؟؟

ياالله من هذا العالم المدني الذى لم يفكر في مثل هذا قط ؟ ما هو واين هو ؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الامير ليستعين به على اصلاح الازهر ويختلف الى اللورد ليستعين به على اصلاح المحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التي شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسعيه لديه فيها - كان يستجديهما معا لمصر وللاسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى .
فلا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تتضاءل في طمر بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، في موضوع لم يعرفه ،

الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

نقل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا عند مروره على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما [1] اي لم يكاشفا به أحدا لاعتقادهما انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظمها ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجته « ان العالم المتمدن كله ينظر بعد هذا الى الوطنيين شزرا ! ! ويحتقر بالاكثر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضعيفة الاستنتاج والاستنباط بل على أضعف المصريين الذين يعدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفندوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألنا أحد

« ١ » راجع ٩٦ من الجزء الماضي

الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تنالا ما تطلبان عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى اليه وأن الاصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اهـ المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن امثل من اولئك الملوك الذين قتلهم العالم المتمدن وآخرهم ملك البرتغال بل ولا من اولئك الذين ثاروا عليهم وقتلوهم بمحاكمة او بغير محاكمة ومنهم شارل الاول ملك الانكليز الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت بقتله . وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد ، ظالم للعباد ، مضيع للملك ، مهلك للحرث والنسل، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب ، ثم يقتل الملك بعد ذلك بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ماشرحه لورد كرمر في تاريخ «مصر الحديثة» من فظائع اسماعيل باشا كاف في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين ثارت عليهم رعيتهم بتدبير فلاسفتهم وعقلائهم فأين من اسماعيل باشا لويس السادس عشر وشارل الاول

واحدا وعشرين ملكا ورئيسا في مدة لا تتجاوز قرنا من الزمان (* ونعني بالرؤساء رؤساء الجمهوريات الذين تبعتهم اقل من تبعة الملوك

ان خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطانة به قد يكون تمنيا لا يصل الى درجة العزم ، وقد يعزم الانسان على الشيء حتى اذا ام بمباشرته راجع نفسه وثني عزمه فرجع عنه نادما ، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يودون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين يومئذ الى تنفيذ ذلك الخاطر ؟؟

اما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملا سياسيا فهذا مما لا يجهله لورد كرومر ولا أحد من ساسة انكلترا وفرنسا الواقفين على احوال مصر الاخيرة ، وهم يعلمون انه اذا ترك السعي لقتل اسماعيل باشا فانه قد سعى لعزله

قال الاستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد اليه بتأليفه الامير عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل اسماعيل باشا وذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأموراً فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على ذلك ما نصه

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (اي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات فى هذا الامر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو

*) ذكر ذلك في ص ٢٥٥ من جزء المقتطف الرابع الصادر في ابريل الماضي

وإنما يراد بها الظهور بعظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع في بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها ، وعليهم المعوّل في أغلب شؤونها

ـ وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في المعيشة تقليداً للمقربين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما ينفقون في اللذات

ـ وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام في التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى وفقر واستعمالهم اشد العقوبات في سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المرابي المئة بمئة في ثلاثة أشهر ولم يكن يرى في ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان أمامه القدوة العظمى وهي الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بعينه

ـ وبعد ان صار للربويين بذلك سلطة على الاهلين وطمع في اموالهم يفوقان سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسمونهم اكابر البلاد وأعيانها ، أو ذوات الحكومة وأمراءها ، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون في الوقت الذي يريدون متى صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة العرابية حالة مصر التي تركها عليها اسماعيل باشا تمثيلا تلطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب ذلك لحفيده الامير الحالي كتابة حاول فيها الاعلام مع توقي الإيلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة معهما بعقود ووعود عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

– وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي للمالية والآخر فرنساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا

– وبعد ان كادت أحكام المحاكم المختلطة تؤي بتنفيذها الى اشهار افلاس الحكومة ،وأدت بالفعل الى انتزاع املاك كثير من ذوي الثروة من الاهلين

– وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب من حالتهم المعاشية لتعوّد الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا

– وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الغفلة عن مصالح البلاد الى حد انهم كانوا لا يفهمون للوظائف معني الا انها وسيلة لتحصيل النقود من الاهالي بأية طريقة ليدَس منها شيء في جيوب المباشرين للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين به والمقربين اليه

وبعد ان صارت الجندية في البلاد صورة لا يعقد بها دفاع ولا حماية

عن المبالغة في التقبيح والتنفير، فهل يلام من له عقل يفكر، وقلب يشعر، اذا مقت ذلك الامير، وتمنى لو يغتا له احد من اولئك المظلومين المقهورين او استحسن تمني من تمنى ذلك ؟؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهنالك مسألة أخرى عدها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم انهم «أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وأدنى من المصري المغالي في تفرنجه» [1] والحق ان هذه العبارة لا ينتقد منها الا لفظها فهي مدح كتب في حال استياء وامتعاض فجاء شبيها بالذم اذ توهم انهم دون الفريقين في علم او فضل ومعناها الحقيقي ان هؤلاء القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف المتشددين في المحافظة على الرسوم والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المتغالين في تقليد الافرنج الذين اضاعوا دينهم وثروتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم . ولم يرد اللورد بهذه العبارة الا ما اوضحه في تقرير سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده هو الحزب المعتدل في مصر الذي يناط بنجاحه استقلال هذه البلاد الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ في بيان المراد الا ان احداهما كتبت في حال رضى فمثلت المعنى مضيئا واضحا والثانية كتبت في حال السخط فغشي المعنى فيها غاشية من ظلمة الايهام

وقد زلّ قلم اللورد بسوء تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لعله اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صفح

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة ويتصرفون فيهم كما يتصرف الراعي في ما شيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتعود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود العزائم وانطفاء مصابيح الرشد في جميع الطبقات

ـ وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده ، اذا تكلم تتعتع في كلامه ، واذا قصد امرا آخطا اليه على غير هدى ، يتلفت وراءه خوف مفاجأته بما يكره

ـ وبعد ان كانت الفاقة قد شملت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القحط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

ـ وبعد أن صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليمدهم بالمعونة على الخروج مما هم فيه

ـ هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها . هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها العزم الشديد ،» اه المراد مما كتبه هناك

وقد استطرد منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكامهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد سبقت الاشارة اليه ـ وكان كل ذلك من مبادي الحوادث العرابية ومقدماتها ،وان شئت قلت من عللها وأسبابها ، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اسماعيل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الاستقصاء في بيان الحال، فضلا

(٣) كان على علم ونباهة

(٤) كان عدوا للخدويين والباشوات غير الصالحين

(٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله

(٦) انه أسس في مصر مدرسة فكرية

(٧) ان له في مصر حزبا معتدلا يجمع بين أصول الاسلام والمدنية

(٨) ان أتباعهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون الجديرون بمساعدته

(٩) إن له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا

(١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا

فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا معها ظنه انه كان لا أدريا ، ولا جزمه بأنه كان خياليا ،ولا إيهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نعم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطا بين المحافظين الجامدين ، والمتفرنجين المقلدين، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو اقرب الى أولئك، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرنجين والجامدين يجلونه مع احتقار كل منهما للآخر. وقد عرف أصحاب المقطم والمقتطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا بعالم يصرح هو به اذ قالوا في تأبينه بالمقطم (ع ٤٩٥٢)مانصه(١):

« فأول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان عالما يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ما جرى عليه

(١) ص ٤٥ من الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام

عن الشيخ محمد عبده « طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق »[1] وقال في كتاب مصر الحديثة انه عفا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك »[2] فزيادة انقياده لتشديد الانكليز نقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن انقياد لتشديد الانكليز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكليز بل لم يكن هناك حاجة اليه

فاللورد جدير بأن يخجل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جعلت كلامه متناقضا او متعارضا وأبانت انه يحابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما معا كرما وحلما وكرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئا عن تشديد من الانكليز في طلبه لا عن مجرد الطلب فيقال إنه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد اللورد بذلك أن يظهر فضله عليه ، ليثبت أنه أساء الى من أحسن اليه ، بما أظهر عن عيوب سياسة الاحتلال وادارته لمستر بلنت . والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه ، ولا بذمه لمن يسخط عليه ، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء اللورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة اللورد به شهادة جديرة بالاعتبار والايثار وهو يلخص في هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل فى القضاء وأدى الامانة حقها

(٢) كان واسع الرأي

«١» راجع ص ٩٠ من الجزء الماضي «٢» ص ٩٥

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خطوة في ابتداء كلامه «اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر المجلل الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده » الخ ثم فصل اصلاحه للازهر وللمحاكم الشرعية تفصيلا

وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ماخسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده » وقال انه « وصل الى أسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقا بعده » ثم قال:

« سادتي : ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والجمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها . ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز . نفس خلقت على أحسن شكل ، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنتعلم منه » كذا وكذا وذكر بعض مزايا الامام ثم قال « ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في إنسان اجهد نفسه ورباها حتى أرسلها الى اقصى ماتصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتفي في هذه المسألة التي يعرف منها طريق اللوردفي الكلام عن رجالنا وننتقل منها الى المقصد الاهم وهو كلامه في الاسلام والمسلمين فنقول

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائدا للآراء ومديراً للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان القديم لا يغني عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . ونقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان الفقيد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى انفرد فيها او كاد » الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لمجلة المقتطف ما نصه(١) :

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يتهيب الكبراء والعظماء لمجرد ماهم فيه او ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علما يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم ـ وعضدا قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها ، » الخ

هذا رأي أصحاب المقطم والمقتطف سقناه الى اللورد لان مثبتيه غير متهمين عند اللورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده

واذا أراد اللورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرقى الطائفتين (المحافظين والمتفرنجين) فليقرأ ما أبنه به الشيخ احمد ابو خطوة أرقى الازهريين علما وفهما وقاسم بك أمين أرقى المتعلمين في أوربا واللورد يشهد بنبوغه وقد اثنى عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

«١» ص ٣٠١ من ج ٣ من التاريخ المذكور

انه يوجد بين العقبة والبحر الميت مدينة شهيرة عند السائحين تدعى باللغة اليونانية (بترا) أي الصخرة وهي المسماة في العهد القديم بمدينة « سالع » كما في سفر الملوك الثاني (١٤:٧) وفي كتاب اشعيا (١٦ : ١) وكلا الاسمين « بترا » و « سالع » بمعنى واحد لكنهما بلغتين مختلفتين . يحيط بهذه المدينة جبال وعرة أعلاها جبل هور المذكور في سفر العدد (٣٣ : ٣٨) ولذلك كان اليهود يسمون اهلها الأولين بالهوريين ومعناه سكان الكهوف لأن بيوتهم منحوتة في الصخور ومنظر هذه المدينة من اعجب المناظر

فلما رأى بعض سياح الافرنج هذه المدينة وسمع ذكر « الحجر » في القرآن الشريف ظن ان هذه الكلمة ترجمة لفظ « بترا » اليوناني لتوهمه انها بفتح الحاء والجيم « الحجر » وبنى على ذلك ان « الحجر » في القرآن هو « سالع » في العهد القديم. ولما كانت مدينة سالع هذه معروف عنها ماينافي ان اهلها اهلكهم الله بالصيحة ومايدل على انها كانت عامرة بالسكان الى ما بعد الميلاد بقليل اخذوا يطعنون على القرآن الشريف وينسبون اليه الخطأ والجهل بالتاريخ والله يعلم أنهم لكاذبون. اذ لولا تسرع هؤلاء الحمقى وجهلهم لعلموا ان الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم غير بترا او سالع وان احداهما تبعد عن الاخرى بعدا عظيما فان الحجر قرية صغيرة على خط سكة الحديد الحجازية الآن الى جنوب دومة الجندل وتنزل بها حجاج الشام وتسمى بمدينة صالح وهو النبي الذي ارسله الله الى اهلها « ثمود » ولا تزال الى الآن آثار مساكنهم التي كانوا ينحتونها في جبالها المسماة « أثالب » كما قال في دائرة المعارف العربية ويمكن لكل احد ان يذهب اليها والى سالع ليرى بعيني راسه أنهما مدينتان متباعدتان في موضعين مختلفين وان المسافة بينهما تقارب ما بين الاسكندرية والعقبة وان الحجر في الجنوب الشرقي لسالع. ومعني الحجر المكان الذي حوله حجارة وهو غير معنى « سالع » أي الصخرة. وما يزعمه بعضهم ان جميع مانراه فيهما من البيوت كانت قبورا لامساكن لم يقم دليل على صحته كذلك لا يبعد ان بعضها كان كذلك والقرآن لم يقل ان جميعها كانت مساكن ولا ان جميع مساكنهم كانت منحوتة

القرآن والعلم

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

اشتبه بعض علماء الافرنج من المستشرقين وغيرهم الباحثين في الإسلام في آيات كثيرة من القرآن الشريف لم يفهموا معناها الصحيح بسبب ما وجدوه في بعض كتبنا من التفاسير السخيفة والآراء السقيمة . وقد اتبعهم في ذلك دعاة المسيحيين متخذين بعض آراء هؤلاء المستشرقين ذريعة للطعن في الكتاب العزيز ناسبين إليه الجهل والخطأ لتشكيك عوام المسلمين في دينهم القويم . وقد سبق لي ان تكلمت على كثير من هذه الشبهات في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) بما يشفي العلة ، ويروي الغلة ، ولكن فاتني ان استقصيها جميعاً إذ ذاك . فلذا رأيت الآن أن أستدرك ما فاتني خدمة للإسلام وتذكيراً للعلماء كي ينظروا في هذا الدين ويقدروه قدره، فانه ما نظر فيه عالم محقق من اي وجهة كانت الا وجد الحق والصواب عماداً لجميع مبانيه ، والعلم والعقل أساساً لكافة عقائده وأوامره ونواهيه ، وقد رايت أن أذكر الآية أولاً ، ثم أعلق عليها بما يفتح الله به علي حتى يتضح الدليل ، وتستبين السبيل ، فأقول وبالله أستعين:

المسألة الاولى

(الحجر)

قال الله تعالى (١٥ : ٨٠ ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين ٨١ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ٨٢ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) . اعلم

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فيهما أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم فيها وغاية ما سمع منهم تكذيبه في ذهابه إلى هذا المسجد بهذه السرعة العجيبة لا في وجود ما يسمى عندهم بالمسجد الأقصى وإن كان خربا . على ان الظاهر ان القرآن الشريف يريد بالمسجد الأقصى بلدة (أورشليم) وبالمسجد الحرام بلدة (مكة) اي إنَّ النبي سار ليلاً من مكة إلى أورشليم لأن المسجد الحرام ما كان بيتا للنبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه بل كان نائماً في بيت أم هانيء أحد بيوت مكة كما جاء في الروايات الواردة في هذه المسألة . فالقرآن أطلق هنا المسجد الحرام على مكة وأطلق المسجد الأقصى على أورشليم من باب تسمية الكل بالجزء الذي هو اعظم وأشهر شيء فيه

ومثل هذا الاطلاق شائع في العربية وغيرها وكثير في القرآن الشريف ولذلك ورد فيه تسمية الحرم كله بالبيت العتيق كما في قوله تعالى في الذبائح (٢٢:٢٢ لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) مع ان الذبح لا يعمل في نفس البيت وانما يعمل في « منى » بالقرب منه

اما ماورد في بعض الروايات من ان النبي صلى الله عليه وسلم ربط زمام البراق في احدى حلقات بيت المقدس فالاقرب عندي ان هذه الروايات وأمثالها هي مما وضعه الواضعون بعد تعمير بلاد المسلمين لهذا البيت اي بعد فتح عمر لبلاد الشام وإقامة مسجد مكان الهيكل (بيت المقدس) وقد غاب عن هؤلاء الواضعين هذه الحقائق كما هو شأن الكذابين فلم يعرفوا ان مايشاهدونه في زمنهم لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (١)

واعلم ان القرآن الشريف قد ذكر تاريخ بيت المقدس وما لحقه من التخريب فلا يقال اننا فيما قلنا ملفقون أو اننا لاجل دفاعنا عن القرآن ننسب اليه مالم يعرفه ولم يخطر على بال مؤلفه كما يقولون . بل ورد فيه في نفس هذه السورة (الاسراء) بعد الآية السابقة قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الارض مرتين ولتعلنّ علوا كبيرا ٥ فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا) هم بختنصر وقومه الكلدانيون (أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) اليهودية اي

(١) المنار : في ص ٧٠١ م ٦ توجيه لهذه المسألة مبني على صحة الحديث

في الجبال بل قال ان بعض المساكن كانت تبنى على الارض والبعض الآخر ينحت في الجبل كما في سورة الاعراف (٧ : ٧٤ و بوّأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراوتنحتون الجبال بيوتا — الى قوله — ٧٨ فاخذتهم الرجفة فأصبحوافي دارهم جاثمين) فكانت لهم قبورا بعد اهلاكهم وان لم تكن جميعها كذلك في اول أمرهم. ومن ذلك تعلم خطأ ماقاله المستشرق الشهير مرجليوث في كتابه المسمى (محمد) في هذه المسألة

المسألة الثانية

﴿ الإسراء وتاريخ بيت المقدس ﴾

قال الله تعالى (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) المسجد الحرام هو الحرم المكي والمسجد الأقصي هو بيت المقدس • وهذا البيت كان خربه تيطس الروماني سنة سبعين للميلاد وأحرقه بالنار فلم يكن له وجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا آثاراً وأطلالاً فكيف يقول القرآن الشريف إن النبي أسرى بهاليه ؟ الجواب (١) المسجد في اللغة مكان السجود والعبادة ولا يشترط فيه ان يكون محاطا بالبناء ولا ان تكون سقفه مرفوعة على أعمدة اونحوذلك مما اعتاده الناس الآن وما كانت مساجد العرب في مبدإ الإسلام إلاَّ أمكنة بسيطة خالية من الأبنية الضخمة والزخرف والزينة وكل مكان يعبدون الله فيه يسمونه مسجداً لهم بل سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع الأرض مسجدا لصحة العبادة في أي جزء منها فقال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فلا يلزم من قول القرآن إن النبي أسري به إلى المسجد الاقصي انه كان إذ ذاك مبنياً مشيداً كما كان قبل تخريب الرومان له• ولذلك كان العرب يذهبون إلى أورشليم وغيرها من بلاد الشام و يعرفون ما كان عليه المسجد الاقصى من الخراب ومع ذلك لم يسمع من أحد منهم انتقاد على عبارة القرآن الشريف هذه أو تردد في

(١) المنار : راجع ص ٦٩٩ وما بعدها من المجلد السادس

وصاروا خاضعين للكلدانيين ثم الفرس ثم اليونان ثم الرومان

وأما الثانية فقد تمت في سنة سبعين بعد الميلاد وبها تشتت اليهود في انحاء العالم وقضي عليهم قضاءً أبدياً

ومن ذلك تعلم ان هاتين الواقعتين يدور حولهما تاريخ الأمة اليهودية وعليهما يقام هيكله فلولا وحي الله لما أمكن لذلك العربي الأمي العامي الناشئ بين الوثنيين أن يستخلصها من تاريخ الامة اليهودية الطويل العريض وليس في بلاده كتب يرجع اليها بل لا يتيسر له اذا أراد ولم يقم على تربيته معلم وليس له مدارس ومع ذلك قد لخص هذا التاريخ الكبير في كلمة صغيرة هي نهاية الاعجاز وعبرة العبر وحكمة الحكم مع ما فيها من الاشارات الدقيقة إلى الحقائق التاريخية التي يفهمها الراسخون في العلم

هذا وقد كان أسر اليهود الى بابل من اكبر ماحل بهم من المصائب حتى كانوا كل يوم ينتظرون الفرج والخلوص العاجل وقد كان كورش ملك فارس المخلص الاكبر لهم من ذلك وكانوا يسمونه مسيح الرب (أشعياء ٤٥ : ١) فلذا كثر الثناء عليه في كتب العهد القديم لانقاذه اياهم من المحن والبلايا والرزايا التي حلت بهم في بابل التي اطنبت كتبهم في وصفها وتعديدها وانذرهم الانبياء بها قبل وقوعها ثم صاروا يبشرونهم بالخلاص منها . وهذا هو سبب ورود لفظ الخلاص ونحوه كثيرا في كتب العهد القديم ككتاب أشعياء وغيره مما صار النصارى يزعمون أنه رموز إلى المسيح عيسى عليه السلام والحقيقة أنه لا علاقة لأكثره به ولكنهم ولعوا وولع مؤلفو العهد الجديد بذلك من قبل حتى إنهم كانوا ينسبون للمسيح عليه السلام من الحوادث ماينسبون ثم يستشهدون عليها بعبارات في العهد القديم كاستشهاد متى (٢ : ١٥) بكلام هوشع عن خروج بني اسرائيل من مصر (اصحاح ١١:١) وزعمه ان ذلك نبوة عن المسيح عليه السلام وكاستشهاده في الاصحاح ٢٧:٩ بكلام يزعم أن أرميا النبي قاله مع أنه لا وجود له في كتابه وإنما يوجد في كتاب زكريا بعض ألفاظ تشبهه (أصحاح ١١ : ١٣) ولا مناسبة بينها و بين ما يقوله متى في انجيله . وإنما ذكرنا ذلك إبطالاً لدعاويهم العريضة ورداً لكيدهم وتحاملهم

جالوا وترددوا فيها للنهب والقتل والسلب والسبي والتدمير (وكان وعداً مفعولا ٦ ثم رددنا لكم الكرة عليهم) بأن أرسلنا عليهم كورش ملك فارس فدمر مملكتهم وفتح بابل وانقذ اليهود من أسرهم واكرم مثواهم وأحسن اليهم وردهم الى بلادهم فصاروا فيها أعزاء وسادوا على اعدائهم الذين تركهم الكلدانيون فيها تحت رعايتهم فعاد الى اليهود شيء كبير من مجدهم السابق ثم عمروا بيت المقدس الذي كان خربه بختنصر وأحرقه وصاروا يقيمون شعائر دينهم فيه كما كانوا يفعلون من قبل (وامددناكم باموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا) فرجعوا من الاسر باشياء كثيرة من الذهب والفضة وبأمتعة وبهائم وتحف وغيرها كما في سفر عزرا (١: ٤ — ١١) (٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة) العقوبة الثانية (بعثنا عليكم عباد لنا ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد) أي بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) فدخله تيطس الروماني بجيشه ونهبه وأحرق الهيكل ودمره تدميراً كما فعل الكلدانيون من قبل وتشتت اليهود بعد ذلك في العالم ولم تعد إليهم الدولة إلى الآن.

وإنما قال القرآن «كما دخلوه أول مرة» مع ان الداخلين المدمرين للمسجد في المرة الثانية غير الذين دمروه في المرة الأولى لأن الجامع بينهم شيء واحد وهو كونهم جميعاً عباداً لله فانه قال في أول القصة «بعثنا عليكم عباداً لنا» بدون ذكر جنسهم. وهذا على حد قولك «دخل الأوربيون الجامع الأزهر مرة ثم دخلوه مرة أخرى» مع أن الداخلين في المرة الثانية قد يكونون انكليزاً وفي الأولى فرنساويين ولاشتراكهم في الوصف (وهو كونهم أوربيين) كان هذا التعبير صحيحاً ومثل ذلك قوله تعالى مخاطباً ليهود العرب (٢: ٥٥ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) مع أن ذلك لم يحصل لهم وإنما حصل لبني اسرائيل في زمن موسى ولاشتراك يهود العرب معهم في الدين جاز هذا التعبير وهو شائع في جميع اللغات

فمما تقدم تعلم ان القرآن الشريف ذكر أن المسجد الأقصى خرّب مرتين وذكر لليهود عقوبتين الأولى ما أوقعه الكلدانيون بهم والثانية ما فعله الرومانيون أما الواقعة الأولى فقد تمت في سنة ٥٨٧ قبل الميلاد وبها زال استقلال اليهود

حمل على مقيد وتفسيره وتبيينه قال شيخ الاسلام ابن القيم رحمه الله حتى انهم ليسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه وبذلك تزول اشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر انتهى ملخصا — وهل الإنساء والنسخ شيء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب بعض السلف الى الاول والظاهر انه اعم من النسخ اما على قول من قال ان معناه التأخير والإرجاء فهو قبل نزوله واوان ظهوره للتكليف لا يوصف بنسخ ولا عدمه

واعلم ايها القاري انه يتفرع على النسخ بمعناه عند الخلف خلاف بينهم هل يجوز نسخه بالآحاد الصحيحة ام ببعضها دون البعض ؟ اما السلف فلا نعلم عنهم خلافا في جوازه

قال حضرة الدكتور فالنسخ عندنا لا يقع الا في الاحكام (الاوامر والنواهي) ولا يقع في القصص او في القضايا العقلية اذ لا معنى لوقوعه في ذلك

واقول اذا سلمنا ان معنى النسخ هو ما ذكره المتأخرون حيث قالوا في تعريفه « هو ان يدل على خلاف حكم شرعي دليل شرعي متراخ » فلاشك ان المنسوخ لايجوز ان يكون من الاخبار عن الامور الماضية او الواقعة في الحال اوالاستقبال مما يؤدي نسخه الى كذب او جهل — بخلاف الاخبار عن حل الشيء او حرمته ونحوها فانه يجوز النسخ في هذا الاخير وكذلك القضايا العقلية لا يجوز النسخ فيها لإفضاء ذلك الى الجهل وكذلك اذا قيد نصا بتأييد او توقيت فلايجوز نسخه لاستحالة العبث والجهالة

اما اذا فسر النسخ بمعناه عند السلف فلا مانع من وقوعه في كل ما ذكرناه لانهم لم يشترطوا في الناسخ منافاة المنسوخ . ودونك ما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره عنهم بعد قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها » الآية قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ما ننسخ من آية قال ابن جريج عن مجاهد ما نمحو من آية وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد « ما ننسخ من آية » قال نثبت خطها ونؤيد حكمها . حدث به عن اصحاب ابن مسعود رضي الله عنه . وقال ابن ابي حاتم وروي عن ابي العالية ومحمد بن كعب القرظي

على القرآن الشريف مع الجهل والتعصب كما بيناه ونبينه

ولما أصيب اليهود للمرة الثانية بما أصيبوا به من الرومانيين صاروا يترقبون مجيء مخلص لهم ككورش وهم إلى الآن ينتظرون ذلك ! !

هذا شيء من تاريخ اليهود ذكرناه هنا تفصيلاً لتفسير ما جاء في أول سورة الاسراء ومنه تعلم أن القرآن الشريف ذكر تخريب المسجد الأقصى في المرتين فلا يقال إنه أخطأ وجهل التاريخ كما يدعي جهلة المسيحيين افتياتاً عليه ورغبة منهم في تكذيب حادثة الاسراء وهي كما ترى ليس فيها شيء ينافي العلم أو يناقض حكم العقل الصحيح . وما نشاهده من حركات الأجرام الكونية وما اخترعه البشر من آلات البخار والكهرباء يقرب إلى العقل تصور تلك الحركة السريعة التي حصل بها الاسراء إن كان ذلك جسمانياً كما عليه جمهور المسلمين وأما إن كان روحانياً او رؤيا منامية كما عليه بعضهم فلا شبهة عليه والله أعلم (لها بقية)

باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

٢

بحث النسخ

قال حضرة الدكتور «النسخ هو ابطال حكم لبدل اولغير بدل» واقول ماذكره من تعريف النسخ غير كاف ولا واف فانه غير جامع ولا مانع ولا نطيل بالمناقشة فيما يتعلق بالعبارة اذ مراده بذلك الكلام على النسخ المعروف عند المسلمين وهو صريح في اختياره النسخ بمعناه عند المتأخرين — اما هو في عرف السلف فهو زيادة على ماذكره يعم رفع دلالة العام والمطلق والظاهر إما بتخصيص او تقييد او

الكافر ولا محذور في ان يرفع عبارة قد اعتبر وابدلوها ثم يكررها ثانياً لمقتض في قالب عبارة وألفاظ أكمل من الأولى أو أنسب بالحال منها فانه ما من كمال نراه الا وعند الله أكمل منه والكل بالنسبة الينا معجز وكمال كما قال تعالى « نأت بخير منها »

ومما يوضح ذلك ويقر به ماهو واقع في المحكم بين دفتي المصحف من ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة بألفاظ وعبارات متغايرة لفظاً متحدة معنى وقد تراها بزيادة ونقص وما ذلك الا لاختلاف ما يقتضيه الحال لسوقها في الاستشهاد بها ولاختلاف أحوال المتلقين عن رسوله صلى الله عليه وسلم لان منهم من يميل الى التطويل وحفظه ومنهم من يميل الى الاقتصار على الاختصار اما لعدم الفرص أو غير ذلك — فاذ حسن ذكر القصة الواحدة بعبارات وألفاظ متغايرة لفظاً مع بقاء الكل فجوازه كذلك بعد رفع الاول ونسخه أولى واحرى وهذا ظاهر لا غبار عليه — على انه قد يقال لم لا تسلم وتحمل ذلك على ما نزل قبل التحدي بالإعجاز؟

واذا رفع بالنسخ أو الإنساء ما هو كذا فقد قدمنا الحكمة فيه وسببه واذا بقي محفوظاً لأفراد لا يصح ان يثبت بروايتهم آيات قرآنية فما ذلك الا ليتحقق صدق قوله تعالى «ماننسخ من آية أوننسها» الآية وليعرف ان البدل خير من المبدل فيشكروا الله على ما أعطاهم وانظر الى ما روي في الصحيح « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» . فانه كان قرآناً يتلى أي ثم رفع وانسي لفظه وإنما بقي محفوظاً لدى من لا يثبت بروايته آيات قرآنية والعلة التي أدركناها في ذلك ما ذكرناه فاذا تتبعنا المصحف وجدنا ماهو أولى وأظهر مثل قوله تعالى « وتحبون المال حباً جماً » الآية — اما مايذكر في آية « الشيخ والشيخة» الى آخره كما في الصحيح وان ذلك كان قرآنا يتلى ثم نسخ لفظه كذا قالوا فلا يبعد ان يقال ان هذا مما نسخ لفظه وحكمه لان الرجم أول مانزل في أول الإسلام ثم نسخ بنزول حد الزاني وحينئذ قال صلى الله عليه وسلم — في حديث عبادة رضي الله عنه «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة والرجم منسوخ — ثم شرع الرجم مرة أخرى لأنه رجم ماعزا والغامدية

نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء اما ماننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن ابي حاتم يعني ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدي ماننسخ من آية ننسخها قبضها قل ابن ابي حاتم يعني قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » وقوله « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا » وذكر عن ابن جرير مامؤداه اختيار مذهب المتأخرين في تفسير معنى النسخ وانت ترى بعدا بين مافهموه وما فهمه المتأخرون الا ما نقل عن اصحاب عبد الله بن مسعود لكنه محمول على ماهو معروف عن السلف من انهم كثيرا مايفسرون الشي ببعض معانيه نظرا لحال السامع تارة ولما يقتضيه المقام تارة ولظهوره في باقي معانيه الاخرى ولم يكونوا ليحدوا الأشياء بالحدود والتعاريف التي اصطلح عليها المتأخرون فاذا كان النسخ عندهم مفسرا بالرفع والقبض الذي هو أعم منه عند المتأخرين فالله جل شأنه ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم الاحكام في جميع انواع الموضوعات والقصص والاخبار للاذعان والاعتبار وردّا على المعاندين الكفار فاذا قامت الحجة وحصل لرسوله صلى الله عليه وسلم الفلج وعليهم الغلبة فالعقل لا يوجب إبقاء الحجة مسطورة مكتوبة كما انه لا يجب ولا يلزم حبس وابقاء الجيش العظيم على البلد بعد فتحها وكما ان الاحكام تختلف باختلاف حال المكلفين كذلك التعاليم الاخلاقية ونحوها تختلف باختلاف أحوالهم أيضاً — فاذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما شاء من اخبار أو غيرها لمقتض ولمصلحة ثم رفعها على مالها من الاجلال فائزة بالنصر وقهر الاعداء غير منقوضة بريب أو تكذيب لاسيما اذا أحل محلها وأنزل بدلها ماهو أنسب وخير منها لنا فيا ترى أيّ جهل وعبث يلزم فسبحان ربك رب العزّة عما يصفون ،

ثم قال حضرة الدكتور: فلسنا ممن يسلم القول بنسخ لفظ بلفظ كما يتوهمون أو بنسخ لفظ وابقاء حكمه كما يزعمون. واستدل على ذلك باستلزامه الجهل أو العبث

وأقول هذا الاستبعاد من حضرة الدكتور منشؤه عدم الامعان في معاني القرآن لأن الله جل شأنه وعظم سلطانه ذو الكمال وخالق الكمال النسبي وكلتا يديه يمين فهو يعبر لرسوله صلى الله عليه وسلم عن شؤونه بما شاء مما هو كاف في اعجاز مخلوقه القاصر والمعاند

لا يكون الا بعد احراجهم غاية الاحراج بحيث يكونون قد عانوا ماقرب ان يكون خرج عن حد استطاعتهم وهذا لايجوز من واسع الرحمة فكيف يستقيم قول حضرة الدكتور؟ قدمنا ذلك لتعلم ان النسخ لمقتض او لحكمة لاعيب فيه عند العقل الخ لانه يفهم منه ان ابقاء التكليف وعدم النسخ والحالة هذه جائز عقلا وشرعا والذي يقال ان تأخير النسخ الى تلك الحالة ممتنع عقلا وشرعا لقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والنسخ شرعا هو الذي دل القرآن دلالة الكريم عليه وهو تبديل ذي الخير مما اوحي الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو اكثر خيرا منه — وهو من باب التوسيع فيما كثرت فوائده وعمت عوائده وفيه تنبيه هذه الامة لفتح ابواب المعارف والرقي الى مدارج الكمال والاستعداد لكل ماعسى ان ينجم من خير يقدم او بلاء يهجم

فما ذكره حضرة الدكتور من الحكمة في النسخ ليس هو حكمته نعم هو يقرب ويضارع مانصبه الشارع مسوغا للترخص في المحكم لانه ألزم عباده بامتثال ماشرعه محكما بشروط واسباب مالم تعارض ذلك موانع ومرخصات فاذا عرض مانع او مرخص فقد رفع عن العباد الاثم وجاز لهم فعل او ترك مااقتضاه الحال وبذلك قد ينقلب الواجب محرما والمحرم واجبا اوجائزا في حق من قام به مانع والحكم يختلف باختلاف المكلف وتارة يعتبر مع ذلك المكان وتارة الزمان وقد يختلف الحكم بالنسبة الى شخص أو أشخاص باختلاف حال ما احتف به من البشر، وبحاله من صغر وكبر، واقامة وسفر، وضعف وقوة، وامن وخوف، وقد يختلف بالمواسم تبعا للضرورات، اوتوقعها ولو ظنا في بعض الحالات، وللضرورات احكام تخصها ولهذا صح المثل « عند الضرورات تباح المحظورات » قال تعالى « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » وألحق بذلك ماصح عنه عليه الصلاة والسلام انه قال « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

فاختلاف الحكم باختلاف حال المكلف اوالمكلفين — بحيث لايبقى ملائما لطبائعهم بان تكون نسبته اليهم كنسبة مالا يلائم حالة المريض — لايصلح ان يكون علة النسخ وحكمته كما عرفت بل هو باق ومعتبر للترخص في الشريعة المحكمة

بعد ان قال ذلك . انظر ذلك في زاد المعاد لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول: اذا لم يشترط في النسخ المنافاة والمناقضة بين الناسخ والمنسوخ وهو ما يدل عليه كلام عامة السلف وهو ظاهر القرآن حيث جعل متعلق النسخ والإنساء — الآية — ولم يخص بذلك حكمها واذا جاز الإنساء فالنسخ كذلك قال تعالى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

فلا عيب ولا نقص في نسخ ما شاء كيف شاء وسواء في ذلك رفع لفظ بلفظ و رفع لفظ وابقاء حكمه لما تقدم ولانه اذا تفضل بالبدل فهو لا شك يبدله بما هو خير منه لانه اذا وعد بإعطاء احد خيرين فكرمه وكرامته لرسوله صلى الله عليه وسلم تقتضي ان يمتن عليه صلى الله عليه وسلم بأفضلهما واكملهما « ولسوف يعطيك ربك فترضى » او يقال نأت بخير منها او مثلها أي المنسية والله اعلم بمراده

فان قيل ما الحكمة في رفع ألفاظ وابدالها بالفاظ او رفع لفظ بعد نزوله؟ قلت قد بينا ذلك فيما تقدم ولكن نحن مهما جهدنا فلا نستطيع ان نعلل ذلك باصح واحكم مما اجاب الله به منكري النسخ بقوله تعالى « نأت بخير منها او مثلها » اي لما كان المنسوخ قبل نسخه مناسبا للمصلحة ومطابقا للحكمة فاذا نسخناه لمقتض فانما هو لنأتي بخير منه اي اكثر مناسبة واشد مطابقة للحكمة

اما ما استدل به حضرة الدكتور وعلل به جواز وقوع النسخ حيث قال والسبب في وقوعه اختلاف حال المكلفين باختلاف الزمان والمكان فما يلائم البشر في زمن طفوليتهم قد لا يلائمهم في زمن كهولتهم او شيخوختهم ومثل لذلك باختلاف حالة الانسان بالصحة والمرض — فهذا التعليل للنسخ انما اخذه حضرته عن المتكلمين الذين ادعوا لانفسهم الكمال فوق كل احد حتى انهم قد يدعون لانفسهم انهم يعرفون من الدين مالم يعرفه السلف وانهم قد يصلحون منه ما يزعم بعضهم انه ناقص منه ومادرى المساكين ان النقص وصفهم اللازم الذاتي ولله در الشاعر

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

ولو كان لا يكون النسخ في الشرائع الا اذا صار المنسوخ بمنزلة ما لا يلائم حالة البشر بحيث يكون نسبته اليهم كنسبة ما لا يناسب حالة المريض لكان ذلك اي النسخ

وقد احتفل في السادس عشر من هـذا الشهر بتلاوة الوقفية في داره ببلده فأجاب الدعوة إلى هـذا الاحتفال كثير من الوجهاء وأصحاب الصحف العربية والأفرنجية يتقدمهم الأمير أحمد فؤاد وأعضاء لجنة الجامعة

وبعد أن افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من القرآن الكريم تلا حسين رشدي باشا مدير الأوقاف خطبة للأمير فؤاد باشا رئيس لجنة الجامعة بالنيابة عنه وهي تتضمن الثناء على حسن بك زايد وبيان ان الجامعة صارت قادرة بعد هبته هذه على الظهور في عالم الوجود ·

ثم تلا حفني بك ناصف ناموس لجنة الجامعة (سكرتيرها) الوقفية · وقام من بعده الدكتور علوي باشا فألقى خطبة في تقدم الأمم بالعلم والحث على التبرع للجامعة· ولا غرو فقد كان الدكتور ممن اكتتب لها بألف جنيه فهو ما قال الا وقد فعل ·

ثم قام من بعده قاسم بك أمين نائب رئيس اللجنة العامل وألقى خطبة نفيسة أودعها من الفوائد الاجتماعية ما يقتضيه المقام ، وما يناسب الحال العامة بمصر في هـذه الأيام ، ولعلها آخر ما دونه بقلمه من المنشآت الجميلة فقد وافته منيته بعـدها بأيام معدودات ، واننا ننشرها لما فيها من الفائدة وهذا نصها :

أيها السادة

في هذه الايام (١) التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمكاتب والمستشفيات وغير ذلك ولا يمد يديه لمساعدتها وتحمل جزء من مغارمها الاعدد قليل من سكان العاصمة أرى ان عمد البلاد وأعيان الاقاليم هؤلاء الذين يصح أن أسميهم منكوبي المشروعات الخيرية هم أحسن أبناء وطننا ويستحقون ثناء الامة واعجابها ·

وفي الحقيقة ان كل مشروع قام به الافراد في بلادنا كان الفضل في نجاحه راجعا على الاكثر الى سكان الارياف فانهم وهبوا من الحياء الطبيعي ما يجعلهم يخجلون من رفض أي مساعدة تطلب منهم وعندهم من كرم الاخلاق ما يدفعهم

(١) الظرف متعلق بقوله « أرى ان عمد البلاد » الخ وقوله ولا يمد يديه الخ اعتراض ويوشك ان يكون في الكلام تحريف

الثابتة الباقية فكيف يجعل مناطا وسببا للنسخ وقت التشريع لاسيما وقد نص الله في كتابه على سبب النسخ كما قد قدمنا ذلك

ومن تأمل وأمعن النظر فيما ذكرناه اتضح له الحق وعرف منشأ الغلط الذي ارتكبه كثير من جهابذة النقاد والنظار في استبعاد جواز النسخ والتردد فيه وعرف ان منشأه ما أصلوه واصطلحوا عليه مما اوجب لهم الحيرة «وعلى نفسها جنت براقش» وماضيقوه مما وسعه الله فعليهم «لا علينا»

و بما ذكرناه من التيسير والتوسعة في هذا الدين تظهر بعض حكمة بقاء هذا الدين الى آخر الابد ولزوم انه دين عامة البشر وانه وحي يوحى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه شرع على لسان من لا ينطق عن الهوى. اللهم احينا عليه و به وامتنا متمسكين به يا ارحم الراحمين (للكلام بقية)

الجامعة المصرية

﴿ وهبة حسن بك زايد ﴾

نام مشروع هذه المدرسة زمناً طويلاً وشغل الناس عنها ما أصيبت به البلاد من العسرة المالية . ثم اختير للجنة التأسيس الامير أحمد فؤاد باشا رئيساً عاملا فجد واجتهد مع اللجنة فهب المشروع من نومه حتى تقرر ان تفتح أبواب الجامعة في أواخر هذا العام لتدريس آداب اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وتاريخ مدنية الإسلام

وكان احياء هذا العمل بأمرين لولاهما ما تيسر الشروع فيه (أحدهما) أمر الأمير بأن يخصص للجامعة خمسة آلاف جنيه كل سنة من الأوقاف الخيرية (ثانيهما) تبرع حسن بك زايد من أهل الثراء في مديرية المنوفية بوقف خمسين فدانا وكسور من أطيانه الجيدة على الجامعة

أيها السادة : إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولاتعلن عن نفسها عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا أن نقتدي بهم ونهجر القول ونعتمد على العمل

اذا أردنا ان ننفع بلادنا ينبغي علينا قبل كل شيء ان ننظر الى انفسنا ونعرف قيمتنا ونزن قوتنا وندرس اسباب تأخرنا ثم نسعى ونعمل لتحسين حالنا

يجب علينا ان نفهم ان مسألتنا الاجتماعية ليست شيئاً وجد بالصدفة اويتغير بمعجزة بل انها كسائر القضايا العلمية مسألة تحليل وتركيب وان لتكوين ونمو الجمعيات الانسانية أسباباً عديدة ترتبط بالدين والشرائع والاخلاق والاقليم والجنس واللغة وطرق التربية فتغيير الحال الاجتماعية انما يكون بتغيير الاسباب التي اشتركت في تكوينها

فكل ما يكتب ويعمل ويقال في هذا الموضوع هو خير مبارك منتج وما عداه فهو تعب ضائع

أيها السادة : إن من أهمّ اسباب انحطاط الامم وارتقائها طرق التعليم والتربية وإذا نظرنا الى ما يجري عندنا وجدنا ان التعليم الموجود الآن لا يصلح الا لإعداد موظفين او اصحاب فنّ يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التي لا يستغنى عنها كالطب والهندسة والمحاماة وهذا التعليم يوزع في مدارسنا على الطلبة بمقدار معلوم لا يزيد عن الغاية التي وضع لاجلها

تلك هي خطة الحكومة في التعليم وقد حذا حذوها اصحاب المدارس الخصوصية والحكومة تعترف بأن هذا القدر من التعليم غير كاف ولكنها اضطرت الى عدم التوسع فيه للاسباب التي شرحتها في تقاريرها العديدة وأهمها كما تعلمون هي مسألة المال

وفي الحقيقة انه لا توجد حكومة في العالم تستطيع أن تتولى بنفسها أمر التعليم العام بجميع فروعه ودرجاته واذا نظرنا الى ما يجري في البلاد المتمدنة نجد ان القسم الاعظم من التعليم في يد جمعيات علمية هي المؤسسة والمديرة لنظامه وان عمل الحكومة فيها محصور في تعضيدها ومساعدتها على قدر الامكان

الى بذل المال حتى اذا لم يكن في حيازتهم لتعضيد الاعمال النافعة

طبيعة شريفة وكرم جميل وسهولة أخلاق محبوبة ولكن أستسمحكم اذا قلت ان هذه الصفات كانت تفيد اكثر مما أفادت لو كانت الادارة التي تديرها أكثر اعتدالاً في حركتها وأكثر تميزاً في تأدية وظيفتها واذا أردت التوسع أقول ان أهل البر في بلادنا على العموم لا يعرفون كيف يصرفون أموالهم

أيها السادة . ان عمل الخير حسن على كل حال ولكن أحسن منه وضع الخير في محله .

لو كان المحسنون يوجهون ارادتهم الى احياء أمتهم وتعظيم وطنهم اكثر من اهتمامهم بشراء الزهور وتشييد القبور واضاءة الاضرحة — لو كانوا يجودون للاعمال بنسبة الخير المنتظر منها لكانت الجامعة المصرية اليوم كأمثالها في البلاد الاخرى أغنى جمعية في هذا القطر . ولكنها أفقرها جميعاً

من التبرعات الجسيمة التي تحصل سنوياً في هذا القطر على شكل هبة أو وقف من كل هذا المال الذي يصرف في وجوه قليلة النفع او غير نافعة كان نصيب الجامعة شيئاً قليلا لا يذكر

ولولا أن عناية الجناب الخديوي أدركتها ومنحتها مرتبا سنويا قدره خمسة آلاف جنيه لرأينا في هذا العصر الذي تعده الجرائد والخطباء والشعراء مبدأ النهضة الوطنية وتتغنى فيه بمدح الشعور الوطني على نغمة تطرب السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم أيضاً — في هذا العصر الذي نريد ان نجعله حداً فاصلاً بين ماضينا ومستقبلنا ونطلب أن تتحقق فيه أمانينا العزيزة — في هذا العصر لولا ان أدركتها هذه العناية العظيمة لرأينا شيئاً محزنا مخجلا وهو ان أنفع مشروع ظهر في مصر ولد فيها ميتا .

ولكي يكون الاعتراف بالحق تاماً لا استطيع ان امنع نفسي من التصريح بشيء يجتهد دائماً دولة الامير الذي يرأس هذه الحفلة أن يخفيه لشدة تواضعه وهو انه من اليوم الذي قبل فيه أن يشرف لجنة ادارة الجامعة برئاسته لها وصار في مقدمة العاملين فيها تحققنا ان النجاح صار مضموناً ..

مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغا أو عالماً حكيماً أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً

أيها السادة : ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر في إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا حتى في الأشياء التي بطبيعتها يجب ان تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب . وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيراً محسوساً إلا إذا تم اصلاح العائلة المصرية .

هل يجوز أن يؤخذ من اعترافنا هذا اننا نخشى أن الجامعة المصرية إذا فتحت أبوابها لا تجد طلاباً للعلم ؟ سمعت هذا الاعتراض واعتقادي التام انه وهم باطل . نحن اذا كنا نأسف لعدم بلوغ حب التعلم الدرجة التي نتمناها له فليس معنى ذلك أنه مفقود في بلادنا . حب التعليم موجود ووجد في بلادنا من قديم الزمان ولا يزول عن أرضنا أبداً ! وتاريخ مصر الحديث يثبت بأقوى البراهين أن حب التعليم كان ولا يزال ينمو في نفوس أمتنا من عهد المرحوم محمد علي باشا إلى الآن

ولي أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سبباً في ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التي نلاحظها فيها الآن الا انذار مطمن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميداناً تتصرف فيه لتتمتع بالتوازن الملازم لصحتها

هذا هو البناء الفخيم الذي نحب أن الأمة المصرية تشيده بيدها ليبقى أثرا خالداً في هذا القطر وشاهداً على حسن استعدادها للنمو العقلي والرقي الأدبي فكل من وضع حجراً في هذا البناء يخدم أمته أجل خدمة . فشكراً للسابقين وشكراً للاَّحقين في هذا العمل الصالح . واني أرى في الصف الأول من صفوف المحسنين المتبصرين الذين يعرفون كيف يصرفون أموالهم في سبيل الخير رجلين قاما بما يجب عليهما وهما حضرة أحمد بك الشريف وصاحب هذه الدار الكريمة اهـ

هذا هو الذي حمل الحكومة المصرية على استنهاض همة الاهالي لنشر التعليم الابتدائي وهذا ما دعانا أيضا الى ان نطالب من أبناء وطننا ان يفكروا في نشر التعليم العالي وان يبذلوا ما في وسعهم في سبيله ليكمل نظام التعليم في بلادنا ويصبح وافياً بجميع حاجات الامة

ايها السادة : نحن لا يمكننا ان نكتفي الآن بان يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة بل نطمع ان نرى بين ابناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول. فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم. نود ان نرى من ابناء مصر كما نرى في البلاد الاخرى عالماً يحيط بكل العلم الانساني واختصاصياً أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به. وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة . وكاتباً ذاع صيته في العالم . وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

أيها السادة : اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد انهم يعملون على مبدإ « اكسب كثيرا واتعب قليلا » ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذي تحتل شهوة العمل في قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبها. وانما نجد افراداً قليلين جداً يصرفون وقتا قصيراً من حين إلى حين لتكميل معارفهم ولكنهم مجردون عن تلك الحمية تلك النار التي تشعل القلب والشعور والتي بدونها لا تبحث النفس عن تجديد العمل ولا تطلب الارتقاء إلى المراتب السامية

ألا يظهر لكم مثلي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لإحساسه وان أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة • أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون • أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون في

أكثرهم على أثره : مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية القضاء والمحاكم الأهلية فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية ، وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثنيان ، بعد البدء الذي هو الاستاذ الإمام ، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غرو اذا تفاقم بالرزيئة به الخطب ، وعظم على البلاد به الكرب ، فانه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام ، ان الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال ، فللأمة ان تتمثل اليوم بقول ابن النبيه :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول ان هذا البيت من الشعريات ، وصرنا نقول اليوم انه من المشاهدات ، ولا ننسى ان مصر فقدت أيضاً في هذه المدة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر وابراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخر عمره منسياً لحيلولة المرض بينه وبين العمل وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضاً فيا لله ما كان أشأم فقده على هذه البلاد فقد ذكرني بما تتابع بعده من فقد خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)

كمل للأستاذ الامام قوة الفكر والنظر ، مع القدرة والمرانة على القول والعمل ، وكان حسن عاصم أقوى في العمل ، منه (اي من نفسه) في القول والنظر ، وأما قاسم أمين فكان نظرياً ، أكثر مما كان عملياً ، فكان يسبح في بحر لجي من الفكر ، ويطير في جو واسع من الخيال ، فيؤلف بين الحكم العقلية ، وبين التخيلات الشعرية ، فلهذا كان لمكتوبه من التأثير وقوة الجاذبية ، ما جعله في مقدمة كتاب العربية ، على قلة اشتغاله بفنونها ، وتحصيله لها ، وما ذاك إلا ان كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه ، ومعناه يفيض الجمال على صورته ، حتى كاد يكون فكراً مجرّداً ، أو خيالا متوهما ،

كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي فكان ذلك يرفعه أحياناً عن سأم المادة وما فيه النصب واللغوب والمصائب في المال والولد والصديق فيهون عليه

باب الأخبار والآراء

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلق كثير فيخلفهم مثلهم فتمسي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحداً . ولكن في الناس أفراداً امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم فأولئك اذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أمتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ولا يعمل عمله سواه . ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهليـة ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ومؤلف كتابي « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » — اغتالته المنية فجأة (في ٢١ من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سقم بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عدته ، ويأخذوا للمصاب أهبته ، بتوطين النفس على الصبر ، وتوجيه قواها الى الجلد أو التجلد ،

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها

امتاز باستقلال الفكر وجودة الرأي وصفاء الذهن وسعة الخيال وقوة الإرادة والعدل في الحكم والوفاء في الصداقة والإخلاص للبلاد وكان مع هـذا من علماء الحقوق والاخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية وقد وجه همته في السنين الاخيرة الى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن فلم يكتف بكتابيه فيه بل جعله همه الأكبر الى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة فرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو ساعتين

كان قاسم بك أمين يعـد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يعد رجالها على الانامل وهم أصـدقاء بعضهم لبعض ، مات إمامهم وكبيرهم فكر

وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هز مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظه ونقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا الى التصنيف في الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين

ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه فكان دون كتاب تحرير المرأة مادة وفائدة وتحريراً وتأثيراً على انه فوقه صراحة في المقصد وحرية في القول المخالف لرأي الجمهور وميله

وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عمره الاشتغال بتأسيس « الجامعة المصرية » فلم يدخر وسعا ، ولم يأل جهداً ، وكان مناط الأمل ، في إنجاح هذا العمل ، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عند ما يتم استعدادهم ، ويكمل رشادهم ، وتعرف الناس قيمتهم ، ويشرعون في الاعمال الكبيرة ، التي يرجى نهوضهم بها ، وينتظر نجاحهم فيها ؟ ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم

حزن العقلاء على قاسم لذاته وما تحلت به ذاته من المزايا العالية، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال، وما يرقي الامة من الأعمال ، وضاعفه مرة أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم ، وأنشأت النابتة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل

يموت الرجل فيبكيه الاهل ويندبه النساء ولكن قاسما بكى عظماء الرجال ، وأقدرهم على التجلد والاحتمال ، وندبه مثل سعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وإنما ارادا ان يؤبناه فكان تأبينهما ندبا وتعدادا ، وبكاء ونشيجا ، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين ، وذلك مالم يعهد لسواه من الميتين

وجملة القول فيه انه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الامام من أنه لايوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه ،

ما أصابه من ذلك ويفيض عليـه الجلد والصبر ، ويخيل لي ان لو طال عمره ، وقل عمله ، واستراح باله ، لانتهى أمره بفلسفة عالية تظهر على لسانه ، وتفيض من قلمه ، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة ، في غلائل من الشعريات الجميلة ، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر ، من تربية الشعور والفكر ،

على ان مافي هذه الطريقة من الخطإ في الحكم قد يعسر انتزاعه ممن تمكن فيـه فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان ، اتحاداً يقل أن يفيد معه البرهان ، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان ، ومستقبل الانسان ، تعد عند المنطقي من الخياليات ، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات ،

كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخـيرية الإسلامية الأولين ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل ، أما العمل الذي كان يتوق اليـه ، ويتمنى لو يتيسر له ، فهو ان يؤسس ولو بماله — ان وجـد المال — مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى انه يرقي هذه البلاد ،

كان قاسم كنزا مخفيا لا يعرفه الا اصدقاؤه وكان اول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق دركور فيما كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية فرد عليه قاسم باللغة الفرنسية وقد ذكر لنا غير واحد ان عبارته في رده كانت كعبارة كتاب فرنسا البلغاء . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة وقد بين فيه ما للحجاب من الفائدة وشنع على مافي اوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الاعراض

واخبرني قاسم انه كان يوم اطلع على ما كتبه الدوق دركور غافلا عن حال النساء بمصر فالمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة و بعد أن شفى غيظه وارضى غيرته بذلك عاد الى نفسه وفكر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك الى درس هـذه المسألة قائلا في نفسه انه لا ينفعنا اذا كان العيب فينا ان نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته . وطفق يبحث و يسأل و يفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء

ما يرميهم به من خيانة مصر هو كونهم سوريين . فلو كان الامر كما يدعي — وهو ليس كذلك — لكان كل سوري خائنا لمصر او لكان مجموع السوريين كذلك . وهذا باطل لانه مبني على اصل باطل ولكنه سرى في اوهام كثير من الناس لا سيما الاغرار . وهذا ماعناه حافظ بقوله

لولا اناس تغالوا في سياستهم   منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

ونحمد الله ان كلا من المقطم واللواء اللذين يعنيهما حافظ قد رجع ـ مع اصراره على أنه كان حسن النية ـ عن الخطة التي كانت تعدغلوا وكادت تجعل المنافسة بين جريدتين سببا للتعادي بين شعبين كل منهما صنو للآخر وشريك له في كل مقومات الحياة حتى أوشك ان يصدق في ذلك ماقيل من ان سوء التفاهم كثيراً مايكون اضر من سوء القصد

لقد حسن في هذه الفرصة ماقام به سليم افندي سركيس من تأليف جمعية من خيار السوريين علما وأدبا وجمع طائفة من النقود منهم ومن غيرهم من السوريين بالاكتتاب لاجل دعوة جماعة من خيار المصريين علما وأدبا الى الاحتفال باسم السوريين لاكرام حافظ افندي ابراهيم الشاعر المصري الشهير

ولما كان الغرض من هذه الحفلة موادة السوريين للمصريين كانت الخطب والقصائد التي اشرنا اليها في الجزء الماضي ممثلة لذلك احسن تمثيل وقد وقع ذلك موقعه الذي يستحقه فأثنت الصحافة المصرية كلها كالصحف السورية على سليم افندي سركيس وأيدت الغرض من الاحتفال بالكلم الطيب في التأليف بين العنصرين اللذين هما بمنزلة الاخوين

(تصحيح غلط) في السطر ١٦ من ص ١٢٤ « ، وعن » محله قبل كلمة « غمغمة » بينها و بين الواو فتصير « ، وعن غمغمة » قضاعة الخ وفي السطر الخامس من ص ١٢٥ من الجزء الماضي « عدوه غريبا » وقد سقط من قبلها هذه الجملة « عدوه فصيحا وما كان قليل الدوران على ألسنتهم » . وفي هذا الجزء أغلاط مطبعية أخرى مدركة ككلمة « محمده » في س ١٧ ص ٩٣ وصوابه « محمد عبده » ومنها كلمة « اذا » في س ٣ ص ١٠١ وصوابها « إذ »

مصافحة السوريين للمصريين

يوجد في مصر الأوربي من انكليزي وفرنسي الخ والأمريكي والهندي والفارسي والارمني والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي والعثماني من تركي وكردي وعربي ومن العرب الحضرمي واليمني والحجازي والعراقي والسوري . ولم نر صنفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من الأصناف أقرب إلى المصري من السوري فهو جار له في بلاده وموافق له في لغته وأكثر عاداته مع كونه عثمانياً مثله ولكننا على هذا كله لم نر المصري في مناظرة أو منافسة مع صنف من أصناف البشر الذين تضمهم بلاد مصر إلا مع السوري فما هو سبب ذلك ؟

يرى من دقق النظر ان السبب في هذا هو ذلك القرب نفسه فان السوري لما كان صنوا للمصري امتزج به امتزاج الماء بالراح وشاركه في عامة شؤونه من مأكله ومشربه ولهوه وجده وهزله فما من سوري في هذا القطر إلا وله من الأصدقاء المصريين مثل ماله من السوريين أو أكثر. ومن طبيعة المنافسة ان تكون بين الخلطاء مالا تكون بين البعداء فالأفراد ينافسون اخوتهم وأقاربهم وجيرانهم ، وأهل البلد ينافسون أقرب البلاد اليهم وكذلك أهل المديريات فأهل الأقطار فأهل الممالك

قد كانت المنافسة الأولى بين المصريين والسوريين في أعمال الحكومة ثم ضعفت أو تلاشت وخلفتها المنافسة في الصحافة أو السياسة . كانت بين المقطم والمؤيد ثم بين المقطم واللواء. وحقيقة هذه المنافسة انها منافسة أفراد لا أصناف اذ رأي المقطم في السياسة ليس هو رأي السوريين وإنما هو رأي أصحابه وأول من قارعهم فيه صاحب جريدة الاهرام من السوريين . ولكن اللواء كان يرد عليهم من حيث انهم سوريون ودخلاء فكان ذلك من قبيل تعليق الحكم بالمشتق وهو كما قال علماء الاصول يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق . أعني ان رد اللواء على أصحاب المقطم من حيث هم منسوبون إلى سوريا ودخلاء في مصر يفيد أن علة

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقاهم او قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتي يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرمنهن بنفقة تساويهن بأترابهن، من ذوي قرباهن اوجوارهن، فيرون مواراتهن فى التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

الفصل الرابع (*

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦: ٥٨ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ *)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمقى واولو الألباب ، وفيها القساة وأهل المرحمة. فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(* من رواية خديجة ام المؤمنين

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وانى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب، من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة او ان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما اجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حط اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولو قدّ من الجلمود ، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة. ولو تقضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما زيّن لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من التسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان ويثمر أقصى درجات الخسران لرأي انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وحسبك من اشتهرن من العربيات في السياسية منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقة البارقي . وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لاخيك :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (*) ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقدِ الجيوش وسر أمام لوائه ... قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا اميرالمؤمنين « مات الرأس،وبترالذنب ،فدع عنك تذكار ما قد نسي » فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت «صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كانه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته » قال : قد فعلت فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولا مورهم

(*) أخوة الدين

منظور اليه، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*)

فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه » فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكانة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والأمور العمومية، وناهيك أن الحرب التي ظلت مستمرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت اتتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت « اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع اليّ » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والاّ يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاصي ومروان وسعيد بن العاصي فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ماقلوا وماخفي عنك مني أكثر» فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال «مرحباً قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير ياأمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت ياأمير المؤمنين «مات الرأس وبتر الذنب، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر» قال لها أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت «لا والله لا احفظه» قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه» قالت «احسن الله شارتك وأدام سلامتك، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه» قال« أو يسرك ذلك ؟ » قالت« نعم والله » فقال «والله لوفاؤكم له بعد موته، أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبة » قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

مقلّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبسط بسلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسألنا الجليلة، هذا ابن ارطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فاما عزلته فشكرناك، واما لا فعرفناك» فقال معاوية «اياي تهددين بقومك والله لقدهممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذحكمه فيك» فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاّه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكي ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتي يأتي من يقبضه منك والسلام» قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة ام لقومي عامة » فقال « ما

زيت لطيف وماء لطيف

(اختراع جديد مفيد)

المشهود له بالشهادات العديدة التي تدرج بجريدة المؤيد

(تنبيه) له كل زجاجه لم يكن عليها الماركة المسجلة وورقة أخرى عليها ختم المخترع وأمضاؤه بالعربية والافرنكية بخط اليد تكون مقلدة وغير مفيدة

(خواصه) — من خواص هذا الزيت انه يطيل الشعر جداً ويمنع سقوطه وتقصيفه وتجعيده ثم ينبته بعد اليأس من نباته بسبب صلع أو أي مرض آخر في الرأس والذقن ولا يصبغه الا انه بواسطة تقويته للبصيلات جداً يعيد اليها قوتها المغذية الاصلية

وهو يزيل الشيب من الشباب اذ معلوم ان شيبهم عارض ناتج عن ضعف أو تخلخل البصيلات ثم يقتل القمل وجراثيمه كالصئبان وجميع الميكروب المضر بالشعر. ويمنع الحكه والاكلان في جميع منابت الشعر ويزيل القشور من الرأس ويمنع الصداع والدوار ويذهب بما قد يحدث في الرأس وغيره من دمامل وحرارة ونحوهما. ويزيل الالم الذي يوجد في جذور الشعر وقت تمشيطه أوجذبه ويسمنه ولا يضر ابداً انا ما ق بالفم والجلد لخلوه من جميع المواد السمية . ولا فرق في استعماله عند الرجال أو النساء طريقة الاستعمال مبينة بالاعلان الملتف بالزجاجة . ويباع زيت لطيف وماء لطيف

(١) بالمستودع العمومي بادارة جريدة المؤيد بمصر عند حضرة علي افندي

(٢) بدكان حضرة مصطفى أفندي صبري تاجر مني فاتوره بالموسكي (٣) باسكندرية عند حضرة محمود أفندي الباجوري وكيل جريدة المؤيد (٤) وبالزقازيق بأجزاخانة جالينوس ملك حضرة الدكتور محمد أفندي أمين عزب ومن يشتري من غير المحلات المذكورة فلا يلومن الا نفسه وكل زجاجة لم يكن عليها ورقتان الاولى بها العلامة المسجلة والثانية ختم المخترع وفرمته بالعربية والافرنكية تكون مقلدة والأثمان كما يأتي زيت لطيف ١٣ قرشاً صاغاً ماء لطيف ١٤ قرشاً صاغاً زجاجة كبيرة لمن يحب استعماله لزوت زيت لطيف المركز ١٦ قرشاً صاغاً وأجرة البريد قرشين صاغ وعلى الله الاتكال

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، وواليته وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت عليا على حبه المساكين ، وإعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى » ثم قال لها : ياهذه هل رأيت عليا ؟ قالت « أي والله » قال فكيف رأيته ؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست » قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها قالت « أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرةً واحدةً من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية من أخوات سيدتنا القرشية وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا باليسير توطئةً لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

(الجزء الخامس) جمادى الاولى ٣٢٦ ـ صدر في اوائل جمادى الثانية (المجلد الحادي عشر)

المنار

١٣١٥

(قيمة الاشتراك)

عن سنة ستون قرشاً صاغاً في القطر المصري والقطر السوداني و ١٨ فرنكاً في الخارج و ١٥ شلناً في الهند و ٧ روابل في روسيا (والدفع سلفاً)

(تنبيه)

يجب ان يكون وصل الاشتراك موقعاً عليه من منشئ المجلة ومختوماً بختم الادارة

الاشتراك في المجلة يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] أو منتصفها [رجب]

(مجلة شهرية)

تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الشافي لصاحبها الحائز على شهادة ديلوما ووسامات الامتياز من الدولة العثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بمعملها الكيماوي

(أسماء الادوية وبيان منافعها)

غرش أميري

١٢ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ويزيل للالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والنمش ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٠٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٠٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة

٠٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنة والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرماتزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامة المسببة من فقر الدم

٠٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٠٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال الضعفاء ويزيل العقد الخنازيرية

١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة معاً

٢٠ كبسول بارزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزيد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٠٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٠٥ مسحوق للشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويظهر ناعماً لطيف اللمس من غير خطر

٠٥ نشوق صحي ضد الزكام ومزيل النوازل ومنعش للجسم

٠٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل المغص والمستودع العمومي بمعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر الاثنين ٣٠ جمادى الاولى ١٣٢٦ — ٢٩ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(نقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٣٠ : ١٢٥) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣١ : ١٢٦) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣٢)(*) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٣ : ١٢٧) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٤ : ١٢٨) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٥ : ١٢٩) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا

(*) لم تعد هذه آية مستقلة في المصحف الذي طبعه فلوجل بالمانيا

أثمان مطبوعات المنار مع أجرة البريد مضمونة

٢٠	٠١٢	تفسير القرآن الحكيم الجزء الثالث ورق متوسط
٢٠	٠١٧	« « « « جيد
٢٠	٠١٤	« « الجزء الثاني « متوسط
٢٠	٠١٩	« « « « جيد
٢٠	٠٠٣	« الفاتحة ومشكلات القرآن
٢٠	٠١٧	انجيل برنابا مع مقدمته ورق متوسط
٢٠	٠٢٢	« « « « جيد
	٠٢٤	شرح عقيدة السفاريني جزء ٢
٢٠	٠١٧	أسرار البلاغة ورق متوسط
٢٠	٠٢٢	« ورق جيد
٢٠	٠٢٢	دلائل الاعجاز «
٢٠	٠٠٦	محاورات المصلح والمقلد
٢٠	٠٠٤	شبهات النصارى و حجج الاسلام
٢٠	٠٠٤	الاسلام في نظر العقل الصحيح
	٠٢٣	تاريخ الاستاذ الامام (جزء المنشآت) ورق متوسط
	٠٢٨	« « ورق جيد
٢٠	٠١٢	« (جزء التأبين والمراثي) ورق متوسط
٢٠	٠١٧	« ورق جيد
	٠٠٠	« (الجزآن مما تنقص قيمتها ٥ قروش)

(تنبيه) هذه الاثمان لنسخ غير مجلدة ومن طلب شيئاً من هذه الكتب مجلداً فعليه أن يزيد أجرة التجليد خمسة قرش لكل جزء ماعدا الكتب الصغيرة وهي مايقل ثمنه عن عشرة قروش

ما اعتصموا بالصبر والتقوى — وقد كان من موادة المؤمنين لليهود واتخاذ البطانة منهم ان منهم من رابى كما كانوا يرابون وكان البعض الآخر مظنة ان يرابي توسلا لجلب المال المحبوب بسهولة . فكان الترتيب في الآيات هكذا : نهاهم عن اتخاذ البطانة من اليهود وامثالهم من المشركين بشروطها التى هي مثار الضرر ثم بين لهم ما يتقون به ضررهم وشر كيدهم وهو تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك طردا وعكسا بذكر وقعة بدر ووقعة أحد ثم نهاهم عن عمل آخر من شر أعمال اولئك اليهود ومن اقتدى بهم من المشركين وأشدها ضررا وهو اكل الربا أضعافا مضاعفة (قال) وقد كان ما تقدم تمهيدا لهذا النهي وحجة على ان الربح المتوقع منه ليس هو سبب السعادة وانما سببها ما ذكر من التقوى والامتثال

أقول ويقوي رأي الاستاذ الامام ان السياق كان من أول السورة الى نحو سبعين آية في محاجة النصارى ثم انتقل الى اليهود ووردت قصة احد وما فيها من من العبر في سياق الكلام عن اليهود ثم بعد انتهائها يعود الكلام الى اليهود لا سيما فيما يتعلق بأمر المال والنفقات فلا غرو إذا ذكر في أول الكلام في هذه الغزوة شيء يتعلق بالمال وانفاقه وفي آخرها شيء يتعلق بذلك ولكل منهما مناسبة واشتباك بصلة المسلمين باليهود . والحرب مما يستعان عليه بالمال وحال اليهود فيه معلومة . والغرض من هذه الآية الحث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة والامة والتنفير عن الطمع فيه وشره أكل الربا أضعافا مضاعفة ولذلك قدم النهي عن هذا الشر على الامر بذلك الخير تقديما للتخلية على التحلية فقال

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة ﴾ هذا أول ما نزل في تحريم الربا وآيات البقرة في الربا نزلت بعد هذه بل هي آخر آيات الاحكام نزولا . والمراد بالربا فيها ربا الجاهلية المعهود عند المخاطبين عند نزولها لا مطلق المعنى اللغوي الذي هو الزيادة فما كل ما يسمى زيادة محرم . قال ابن جرير « يعني بذلك جل ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة في إسلامكم بعد إذ هداكم الله كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم . وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم ان الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال الى أجل فاذا حل الاجل

اللهَ فاستغفروا لِذنوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغفِرُ الذُّنُوبَ الاَّ اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعلَمُونَ (١٣٦ : ١٣٠) أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِينَ *

اعلم ان وضع هذه الآيات الواردة في الترهيب والترغيب والانذار والتبشير في سياق الآيات الواردة في قصة أحد هومن سنة القرآن في مزج فنون الكلام وضروب الحكم والاحكام بعضها ببعض (ومحل بيان سبب ذلك وحكمته مقدمة التفسير وقد نشير الى بعضها أحيانا في تفسير بعض الآيات) على ان هذه السنة لاتنافي أن يكون لاتصال كل آية او آيات بما قبلها وجه وجيه تتقبله البلاغة بقبول حسن كما علم مماسبق

قال الرازي هنا : اعلم ان من الناس من قال انه تعالى لماشرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم الى الاصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الامر والنهي والترغيب والتحذير فقال « ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا » وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها وقال القفال رحمه الله : يحتمل ان يكون ذلك متصلاً بما تقدم من جهة ان المشركين أنفقوا على تلك العساكر اموالا جمعوها بسبب الربا فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين الى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم فلا جرم نهاهم عن ذلك » اه والاول قول بعض المعتزلة ويقال في الثاني ان المروي في السير ان المشركين انفقوا في حرب أحد ماربحوا في تجارة العير التي جاءت من الشام عام بدر كما تقدم فما اورده الرازي غير وجيه

وقال الاستاذ الامام وجه الاتصال بين هذه الآيات وما قبلها أن ماقبلها في بيان ان الله نصر المؤمنين وهم أدلة وأنهم انما نصروا بتقوى الله وامتثال الامر والنهي ولذلك خذلوا في أحد عند المخالفة والطمع في الغنيمة — وقد جاء هذا بعد النهي عن اتخاذ البطانة من اليهود وبيان انه لا يضر المؤمنين كيد هؤلاء اليهود

وذكر ابن حجر المكي فى الزواجر ان ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور فانه قال بعد ذكر انواع الربا « وربا النسيئة هو الذي كان مشهورا فى الجاهلية لان الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره الى أجل على ان يأخذ منه كل شهر قدرا معينا ورأس المال باق بحاله فاذا حل طالبه برأس ماله فان تعذر عليه الاداء زاده فى الحق والأجل . وتسمية هذا نسيئة مع أنه يصدق عليه ربا الفضل أيضا لأن النسيئة هي المقصودة منه بالذات . وهذا النوع مشهور الآن بين الناس وواقع كثيرا . وكان ابن عباس رضي الله عنهما لايحرم الا ربا النسيئة محتجا بانه المتعارف بينهم فينصرف النص اليه » اه المراد من كلام ابن حجر ثم ذكر ان الاحاديث صحت بتحريم سائر انواع الربا . وما قاله ابن عباس من ان نص القرآن الحكيم ينصرف الى ربا النسيئة الذي كان معروفا عندهم متعين وهو ماجرينا عليه هنا وفي سورة البقرة اذ جعلنا حرف التعريف فيه للعهد . وهو المراد ايضا بحديث الصحيحين « انما الربا في النسيئة » وفى لفظ « لا ربا الا فى النسيئة » وكان غير واحد من الصحابة يبيح ربا الفضل كأسامة وابن عمر ومن حرمه حرمه بالحديث لا بنص القرآن

واما ربا الفضل فانما حرم لسدّ الذريعة كما قال ابن القيم واستدل عليه بحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاتبيعوا الدرهم بالدرهمين فإني اخاف عليكم الرماء » (١)

---

(١) قال ابن القيم بعد ان اورده والرماء هو الربا . وقال ابن الاثير في النهاية : وفي حديث ابن عمر « اني اخاف عليكم الرماء » يعني الربا والرماء بالفتح والمد الزيادة على ما يحصل ويروى « الإرماء » يقال أرمى على الشيء إرماء اذا زاد عليه كما يقال أربى . اه فاما حديث ابن عمر الذي اشار اليه في النهاية فقد رواه مالك وعبد الرزاق وابن جرير والبيهقي وأورده في كنز العمال هكذا « لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلا بمثل ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثلا بمثل سواء بسواء ولا تشفوا بعضه على بعض اني أخشى عليكم الرماء . والرماء والربا » . وعزاه بهذا اللفظ الى من ذكرنا . وأورده بلفظ آخر معزوا الى مالك فقط عن نافع عن ابن عمر عن عمر موقوفا عليه ولفظه هكذا « لا تبايعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق الا =

طلبه من صاحبه فيقول له الذي عليه المال : أخرعني دينك وأزيدك على مالك . فيفعلان ذلك فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه » ثم ذكر بعض الروايات في ذلك فمنها عن عطاء : كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية فاذا حل الاجل قالوا نزيدكم وتؤخرون . وعن مجاهد انه قال في الآية « ربا الجاهلية » وعن ابن زيد قال كان ابي زيد (العالم الصحابي الجليل) يقول « إنما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفي السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه اذا حل الاجل فيقول : تقضيني او تزيدني . فاذا كان عنده شيء يقضيه قضى والا حوله الى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في (السنة) الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا (١) ثم هكذا الى فوق . وفي العين (النقود) يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه في العام القابل فان لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مئة فيجعلها الى قابل مئتين فان لم يكن عنده جعله اربع مئة يضعفها له كل سنة او يقضيه قال : فهذا قوله « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة »

فانت ترى ان هذا الذي فسر به زيد (رضي الله عنه) الآية هو من الربا الفاحش المعروف في هذا الزمان بالمركب وترى ان ماقاله ابن جرير ومن روى عنهم من السلف في تصوير الربا كله في اقتضاء الدين بعد حلول الاجل ولا شيء منه في العقد الاول كأن يعطيه المئة بمئة وعشرة او اكثر او اقل وكأنهم كانوا يكتفون في العقد الاول بالقليل فاذا حل الاجل ولم يقض المدين وهو في قبضتهم اضطروه الى قبول التضعيف في مقابلة الإنساء وما قالوه هو المروي عن عامة اهل الاثر ومنه عبارة الامام احمد الشهيرة التي أوردناها في تفسير آية البقرة (ص١١٤ ج ٣) وهي انه لما سئل عن الربا الذي لا يشك فيه قال « هو ان يكون له دين فيقول له اتقضي أم تربي ؟ فان لم يقض زاده في المال وزاده هذا في الاجل » . وهذا هو المعروف في الشرع بربا النسيئة

---

(١) ابنة المخاض من إناث الابل ما كانت فى السنة الثانية والذكر ابن مخاض وابن الثالثة يسمى ابن لبون وابنة لبون وابن الرابعة حق وحقة (بالكسر) أي استحق أي يحمل عليه وابن الخامسة جذع (بفتحتين كسمك) وابن السادسة اذا ألقى ثنيته ثني وابن السابعة إذا ألقى رباعيته رباع وابن الثامنة سديس وابن التاسعة البازل

انما يكون على المحرم الشديد ضرره كالزنا وأكل الربا المضاعف ويدل على ذلك ان رجلا جاء النبي صلى الله عليه وسلم أسفا تائبا من ذنب ارتكبه وهو تقبيل امرأة في الطريق وسأله عن كفارة ذلك فاخبره بأن صلاة الجماعة كفارة له اي مع التوبة قالوا وفي ذلك نزل قوله تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » ولو كان زنا بها لأقام عليه الحد ولم يرجمه . فقول ابن حجر ان ماورد من الوعيد على الربا شامل لجميع انواعه خطأ فإن منها عنده بيع قطعة من الحلي كسوار بأكثر من وزنها دنانير او بيع كيل من التمر الجيد بكيل وحفنة من التمر الرديء مع تراضي المتبايعين وحاجة كل منهما الى ما أخذه . ومثل هذا لا يدخل في نهي القرآن ولا في وعيده ولا يصح ان يقاس عليه كما لا يصح ان يقال ان خلوة الرجل بامرأة لايشتهيها ولا تشتهيه كالزنا في حرمته ووعيده . وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأنه انما نهى عن ربا الفضل لانه يخشى ان يكون ذريعة للربا الذى حرمه الله فى كتابه وتوعد عليه بذلك فى سورة البقرة ولا ينافي ذلك تسميته في بعض الروايات الأخرى ربا فقد اطلق اسم الربا على المعاصي القولية التي لادخل للمعاملات المالية فيها كالغيبة ففي حديث البزار بسند قوي — كما صرح في الزواجر — « من أربا الربا استطالة المرء في عرض أخيه » اي غيبته . وحديث أبي يعلى بسند صحيح كما صرح به أيضاً « أتدرون أربى الربا عند الله ؟ — قالوا الله ورسوله أعلم قال — فإن اربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٣ : ٥٨ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثماً مبيناً) وفي معناهما احاديث أخرى عند ابي داود وابن ابي الدنيا والطبراني والبيهقي . بل فسر بعضهم الربا في قوله « ٣٠ : ٣٩ وما آتيتم من ربا » بالهدية والعطية التي يتوقع بها مزيد مكافأة

المحرّم لذاته لا يباح الا لضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر وما كل محرم تلجئ اليه الضرورة . والمحرم لسدّ الذريعة قد يباح للحاجة . قال ابن القيم في أعلام الموقعين(١) « واما ربا الفضل فأبيح منه ما تدعو اليه الحاجة كالعرايا(٢)

---

(١) أول ص ٢٠٣ من الجزء الأول من طبعة الهند (٢) العرايا جمع عرية (كقضية) وهو ان يشتري رطب نخلة اوأكثر بما يخرص به من التمر وهو من بيع المتماثلين في الجنس مع ﴿

وقد غفل عن هذا الفقهاء الذين قالوا ان الربا قسمان أحدهما معقول المعنى والآخر تعبدي . اي ان الاول محرم لما فيه من الضرر العظيم وهو ربا النسيئة — وقد بينا وجه ضرر الربا في تفسير سورة البقرة بالتفصيل — والثاني لا يعرف سبب تحريمه لأنه ليس فيه ضرر وهو ما يعبرون عنه بالتعبدي اي انه حرم علينا لنتركه عبادة لله وامتثالا لامره فقط . وهذا غلط ظاهر والصواب ما قاله ابن القيم في اعلام الموقعين وهو :

« الربا نوعان جلي وخفي . فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم . والخفي حرم لأنه ذريعة الى الجلي فتحريم الاول قصد وتحريم الثاني وسيلة . فاما الجلي فربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المئة آلافاً مؤلفة . وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج فاذا رأى المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ، ويدافع من وقت الى وقت ، فيشتد ضرره ، وتعظم مصيبته ، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل اخوه على غاية الضرر . فمن رحمة ارحم الراحمين وحكمته وإحسانه الى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله . ولم يجئ مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ولهذا كان من اكبر الكبائر » اه ثم ذكر عقب هذا كلمة الامام احمد في الربا الذي لا شك فيه وقد ذكرناها آنفا ويعني بذكرها هنا ان ذلك هو الربا الذي يعد من اكبر الكبائر لا الربا الذي حرم لسد الذريعة كربا الفضل فان الفرق بينهما كالفرق بين الزنا والنظر الى الاجنبية بشهوة أو لمس يدها كذلك او الخلوة بها ولو مع عدم الشهوة لأن هذه الاشياء ليست محرمة لذاتها بل لسد الذريعة اي لئلا تكون وسيلة الى الزنا المحرم لذاته والوعيد الشديد

= مثلا بمثل سواء بسواء ولا تشفوا بعضه على بعض إني أخاف عليكم الرماء » وفيه ان نافعاً قال كان ابن عمر يحدث عن عمر في الصرف ولم يسمع فيه عن النبي (ص) شيئاً قال قال عمر . وذكره . واما حديث ابي سعيد الذي عزاه ابن القيم اليه فلا أذكر من خرجه من أصحاب الكتب المشهورة وابن القيم حافظ عدل

ونهى عنه نهيا مؤكدا وورد في الاحاديث الصحيحة تحريم ربا الفضل والنهي عنه فالبحث في هذه المسألة من وجهين (الوجه الاول) النظر فيها من الجهة النظرية المعقولة فنقول: ان كل ماجاء به الاسلام من الاحكام الثابتة المحكمة فهو خير واصلاح للبشر وموافق لمصالحهم ما تمسكوا به. ولكن من الناس من يظن اليوم أن إباحة الربا ركن من أركان المدنية لا تقوم بدونه فالامة التي لا تتعامل بالربا لاترتقي مدنيتها ولا يحفظ كيانها. وهذا باطل في نفسه اذ لو فرضنا ان تركت جميع الامم أكل الربا فصار الواجدون فيها يقرضون العادمين قرضا حسنا و يتصدقون على البائسين والمعوزين ويكتفون بالكسب من موارده الطبيعية كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات ومنها المضاربة لما زادت مدنيتهم الا ارتقاء بينائها على أساس الفضيلة والرحمة والتعاون الذي يحبب الغني الى الفقير ولما وجد فيها الاشترا كيون الغالون والفوضويون المغتالون،وقد قامت للعرب مدنية إسلامية لم يكن الربا من أركانها فكانت خير مدنية في زمنها. فما شرعه الاسلام من منع الربا هو عبارة عن الجمع بين المدنية والفضيلة وهو أفضل هداية للبشر في حياتهم الدنيا

(الوجه الثاني) النظر فيها من الجهة العملية بحسب حال المسلمين الآن في مثل هذه البلاد فانا نرى كثيرين يوافقوننا على انه لو وجد للاسلام دول قوية وأمم عزيزة تقيم الشرع وتهتدي بهدي القرآن لأمكنها الاستغناء عن الربا ولكانت مدنيتها بذلك أفضل فلا اعتراض على الاسلام في تحريم الربا لان شرعه لايمكن أن يبيح الربا وهو دين غرضه تهذيب النفوس وإصلاح حال المجتمع لاتوفير ثروة بعض الافراد من أهل الأثرة. ولكنهم يقولون اننا نعيش في زمن ليس فيه أمم إسلامية ذات دول قوية تقيم الاسلام وتستغني عمن يخالفها في أحكامها وإنما زمام العالم في أيدي أمم مادية قدقبضت على أزمة الثروة في العالم حتى صارت سائر الامم والشعوب عيالا عليها فمن جاراها منهم في طرق كسبها والربا من أركانه فهو الذي يمكن ان يحفظ وجوده معها ومن لم يجارها في ذلك انتهى أمره بأن يكون مستعبدا لها فهل يبيح الاسلام لشعب مسلم هذه حاله مع الاوربيين كالشعب المصري ان

فإنه ما حرم تحريم المقاصد » ثم أفاض القول في حل بيع الحلي المباح باكثر من من وزنه من جنسه وحقق ان للصنعة قيمة في نفسها . ثم قال(١) « يوضحه أن تحريم ربا الفضل إنما كان لسد الذريعة كما تقدم بيانه وما حرم سداً للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة كما أبيحت العرايا من ربا الفضل وكما ابيحت ذوات الاسباب من الصلاة بعد الفجر والعصر وكما ابيح النظر (أي الى المرأة الاجنبية) للخاطب والشاهد والطبيب والعامل من جملة النظر المحرم . وكذلك تحريم الذهب والحرير على الرجال حرم لسد ذريعة التشبه بالنساء الملعون فاعله وابيح منه ما تدعو اليه الحاجة وكذلك ينبغي ان يباح بيع الحلية المصوغة صياغة مباحة بأكثر من وزنها لأن الحاجة تدعو الى ذلك وتحريم التفاضل إنما كان لسد الذريعة . فهذا محض القياس ومقتضى أصول الشرع ولا تتم مصلحة الناس الا به أو بالحيل والحيل باطلة في الشرع » الخ ما قاله وقد اوردناه برمته في المنار (ص ٥٤٠ م ٩)

انما تعرضت هنا لربا الفضل وهو ليس مما تتناوله الآية الكريمة للتفرقة ولأن مسألة الربا قد قامت لها البلاد المصرية وقعدت في هذه الايام واقترح كثيرون انشاء بنك اسلامي وألقيت فيها خطب كثيرة في نادي دار العلوم بالقاهرة خالف فيها بعض الخطباء بعضا (٢) فمال بعضهم الى منع كل ماعده الفقهاء من الربا وأنحى بعضهم على الفقهاء ولم يعتد بقولهم ومال آخرون الى عدم منع ربا الفضل اوما دون المضاعف فغلا بعضهم وتوسط بعض ولم يأت احد بتحرير البحث واقناع الناس بشيء يستقر عليه الرأي وفي الليلة التي ختم فيها هذا البحث القى كاتب هذا خطابا وجيزا في المسألة قال رئيس النادي حفني بك ناصف في خطبته الختامية إنه فصل الخطاب ورغب الينا رئيس النادي وغيره ان ندونه وهذا هو بالمعنى :

ان الله تعالى قد حرم ربا النسيئة الذي كانت عليه الجاهلية تحريما صريحا

= عدم القبض والمساواة لأن التمر يدفع مرة واحدة والرطب يجنى بالتدريج وقد رخص النبي في بيعها (١) اواخر تلك الصفحة (٢) منهم المشايخ عبد العزيز شاويش ومحمد سلامه ومحمد الخضري واسماعيل خليل وعبد الوهاب النجار وكل هؤلاء متخرجون في مدرسة دار العلوم

مثل هذا الأمر الى أولي الامر من الأمة أي أصحاب الرأي والشأن فيها والعلم بمصالحها عملاً بقوله تعالى في مثله من الامور العامة (٤ : ٨٣ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فالرأي عندي أن يجتمع أولو الأمر من مسلمي هذه البلاد وهم كبار العلماء المدرسين والقضاة ورجال الشورى والمهندسون والأطباء وكبار المزارعين والتجار ويتشاوروا بينهم في المسألة ثم يكون العمل بما يقررون أنه قد مست اليه الضرورة او ألجأت اليه حاجة الأمة .

هذا هو معنى ما قلته في نادي دار العلوم

هذا وان مسلمي الهند قد سبقوا مسلمي مصر الى البحث في هذه المسألة وأكثروا الكتابة فيها في الجرائد ولكنهم طرقوا بابا لم يطرقه المصريون وهو ماجاء في بعض المذاهب من إباحة جميع المعاملات الباطلة والعقود الفاسدة في غير دار الاسلام . والاصل في هذه المسألة ان الاسلام لم يحرم الربا ولا غيره من المعاملات الا بعد ان صار له سلطة وحكم في دار الهجرة وكأنهم يرون المجال واسعا للبحث في بلاد الهند هل هي دار إسلام ام لا دون بلاد مصر التي لا تزال حكومتها الرسمية اسلامية بحسب قوانين الدول وان كان كل من السلطان صاحب السيادة على هذه البلاد والأمير والقاضي النائبين عنه فيها لا يستطيعون منع الربا منها ولا غير الربا من المحرمات التي أباحها القانون المصري

والاضعاف جمع قلة اضعف (بكسر الضاد) وضعف الشيء مثله الذي يثنيه فضعف الواحد واحد فهو إذا أضيف اليه ثناه . وهو من الألفاظ المتضايفة أي التي يقتضي وجودها وجود آخر من جنسها كالنصف والزوج ويختص بالعدد فاذا ضاعفت الشيء ضممت اليه مثله مرة فأكثر . قال الاستاذ الامام اذا قلنا إن الاضعاف المضاعفة في الزيادة فقط (التي هي الربا) يصح ما قاله المفسر (الجلال) في تصوير المسألة بتأخير أجل الدين والزيادة في المال وهذا هو الذي كان معروفاً في الجاهلية ويصح ايضاً ان تكون الاضعاف بالنسبة الى رأس المال وهذا واقع الآن فانني رأيت في مصر من استدان بربا ثلاثة في المئة كل يوم فانظر كم ضعفاً يكون في السنة . وقد قال «مضاعفة» بعد ذكر الاضعاف كأن العقد قد يكون ابتداء على الاضعاف ثم

يتعامل بالربا ليحفظ ثروته وينميها فيكون أهلا للاستقلال أم يحرم عليه ذلك — والحالة حالة ضرورة — ويوجب عليه أن يرضى باستنزاف الاجنبي لثروته وهي مادة حياته؟

هذا ما يقوله كثير من مسلمي مصر الآن والجواب عنه — بعد تقرير قاعدة ان الاسلام يوافق مصالح الآخذين به في كل زمان ومكان — من وجهين يوجه كل واحد منهما الى فريق من المسلمين

أما الأول فيوجه الى فريق المقلدين وهم أكثر المسلمين في هذا العصر فيقال لهم ان في مذاهبكم التي تتقلدونها مخرجا من هذه الضرورة التي تدعونها، وذلك بالحيلة التي أجازها الامام الشافعي الذي ينتمي الى مذهبه أكثر أهل هذا القطر والامام أبو حنيفة الذي يتحاكمون على مذهبه كافة ومثلهم في ذلك أهل المملكة العثمانية التي أنشئت فيها مصارف (بنوك) الزراعة بأمر السلطان وهي تقرض بالربا المعتدل مع إجراء حيلة المبايعة التي يسمونها المبايعة الشرعية

واما الثاني فيوجه الى أهل البصيرة في الدين الذين يتبعون الدليل ويتحرون مقاصد الشرع فلا يبيحون لانفسهم الخروج عنها بحيلة ولا تأويل فيقال لهم ان الاسلام كله مبني على قاعدة اليسر ورفع الحرج والعسر الثابتة بنص قوله تعالى (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (٥: ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) وإن المحرمات في الاسلام قسمان. الاول ما هو محرم لذاته لما فيه من الضرر وهو لا يباح الا للضرورة ومنه ربا النسيئة المتفق على تحريمه وهو مما لا تظهر الضرورة الى أكله اي الى ان يقرض الانسان غيره فيأكل ماله اضعافا مضاعفة كما تظهر في أكل الميتة وشرب الخمر أحيانا — والثاني ما هو محرم لغيره كربا الفضل المحرم لئلا يكون ذريعة وسبباً لربا النسيئة وهو يباح للضرورة بل وللحاجة كما قاله الامام ابن القيم وأورد له الامثلة من الشرع فقسم الربا الى جلي وخفي وعده من الخفي (وقد ذكرنا عبارته آنفاً)

فأما الافراد من أهل البصيرة فيعرف كل من نفسه هل هو مضطر أو محتاج الى أكل هذا الربا او إيكاله غيره فلا كلام لنا في الافراد وإنما المشكل تحديد ضرورة الأمة أو حاجتها فهو الذي فيه التنازع وعندي انه ليس لفرد من الافراد ان يستقل بذلك وإنما يرد

بالذكر لأنه يكون عادة اقل من الطول . وقال البيضاوي ان هذا الوصف على طريقة التمثيل . وقال في قوله « أعدت للمتقين » : هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وانها خارجة عن هذا العالم . اه وهو ما احتج به الأشاعرة على من قال من المعتزلة انها ليست بمخلوقة الآن كما في كتب العقائد . قال الاستاذ الامام وقد اختلفوا في الجنة هل هي موجودة بالفعل ام توجد بعد في الآخرة ولا معنى لهذا الخلاف ولا هو مما يصح التفرق واختلاف المذاهب فيه . ثم وصف المتقين بالصفات الخمس الآتية فقال :

١ - ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في حالة الرخاء والسعة كما قال تعالى في بيان حقوق النساء المعتدات (٦٥ : ٧ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها) والسراء من السرور اي الحالة التي تسر والضراء من الضرر اي الحالة الضارة وروي عن ابن عباس تفسيرهما باليسر والعسر

وقد بدأ وصف المتقين بالانفاق لوجهين (أحدهما) مقابلته بالربا الذى نهى عنه في الآية السابقة فان الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل والصدقة اعانة له واطعامه مالا يستحقه فهي ضد الربا . ولم يرد في القرآن ذكر الربا الا وقبح ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٣٩ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) وفي سورة البقرة (٢ : ٢٧٦ يمحق الله الربا ويربي الصدقات)

(ثانيهما) ان الانفاق في السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والاعمال قال الاستاذ الامام ما مثاله : ان المال عزيز على النفس لانه الآلة لجلب المنافع والتلذات ، ورفع المضار والمؤلمات ، وبذله في طرق الخير والمنافع العامة التي ترضي الله تعالى يشق على النفس ، أما في السراء فلما يحدثه السرور والغنى من الاشر والبطر والطغيان وشدة الطمع وبعد الأمل ، وأما في الضراء فلأن الانسان يرى نفسه فيها جديرا بأن يأخذ ومعذورا إن لم يعط وان لم يكن معذورا بالفعل اذ مهما كان فقيرا لا يعدم وقتا يجد فيه فضلا ينفقه في سبيل

تأتي المضاعفة بعد ذلك بتأخير الاجل وزيادة المال

وأقول حاصل المعنى لا تأكلوا الربا حال كونه اضعافا تضاعف بتأخير الاجل وزيادة المال ضعف ما كان كما كنتم تفعلون في الجاهلية فان الاسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة والبخل واستغلال ضرورة المعوز او حاجته ﴿ واتقوا الله ﴾ في أهل الحاجة والبؤس فلا تحملوهم من الدين هذه الاثقال التي ترزحهم وربما تخرب بيوتهم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون فتحابون والمحبة اس السعادة ﴿ واتقوا النار التي اعدت للكافرين ﴾ الذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل فكانوا فتنة للفقراء والمساكين وأعداء البائسين والمعوزين ﴿ واطيعوا الله والرسول ﴾ فيما نهيا عنه من أكل الربا وما امرا به من الصدقة ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ في الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح حال مجتمعكم ، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم ، فان الراحمين يرحمهم الرحمن كما ورد في الحديث المرفوع عند أحمد وأبي داود والترمذي وقد رويناه مسلسلا

قال الاستاذ الامام قوله « واتقوا النار » الخ وعيد للمرابين بجعلهم مع الكافرين اذا عملوا فيه عملهم وفيه تنبيه الى ان الربا قريب من الكفر . وهذا القول بعد قوله « واتقوا الله لعلكم ترحمون » تأكيد بعد تأكيد ثم أكده أيضا بالامر بطاعته وطاعة الرسول فمؤكدات التنفير من الربا اربعة . وقد قلنا من قبل ان مسألة الربا ليست مدنية محضة بل هي دينيه ايضا والغرض الديني منها التراحم المفضي الى التعاون فالمقرض اليوم قد يكون مقترضا غدا فمن أعان جدير بأن يعان .

ثم ذكر جزاء المتقين بعد الامر المؤكد باتقاء النار إتباعا للوعيد بالوعد وقرنا للترهيب بالترغيب كما هي سنته فقال ﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ﴾ المسارعة الى المغفرة والجنة هي المبادرة الى اسبابها وما يعد الانسان لنيلها من التوبة عن الإثم كالربا والاقبال على البر كالصدقة . وقرأ نافع وابن عامر « سارعوا » بغير واو . والمراد بكون عرض الجنة كعرض السموات والأرض المبالغة في وصفها بالسعة والبسطة تشبيها لها باوسع ماعلمه الناس وخص العرض

وكظم القربة ملأها وسد رأسها وكظم الباب سدّه . وهو كظام الباب لسداده · ومن المجاز كظم الغيظ وعلى الغيظ فهو كاظم . وكظمه الغيظ والغم أخذ بنفسه فهو مكظوم وكظيم (٤٨:٦٨ اذ نادى وهو مكظوم) (١٦:٥٨ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) و : ما كظم فلان على جرّته : اذا لم يسكت على ما في جوفه حتى تكلم به . و : غمني وأخذ بكظمي . وهو مخرج النفس و بأكظامي اه . وقال الاستاذ الإمام أصل الكظم مخرج النفس . والغيظ وان كان معنى له أثر في الجسم يترتب عليه عمل ظاهر فانه يثور بنفس الانسان حتى يحمله على ما لا يجوز من قول او فعل فلذلك سمي حبسه وإخفاء أثره كظماً . وقال الزمخشري في الكشاف بعد الاشارة الى اصل معنى الكظم : ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرا . ويروى عن عائشة أن خادما لها غاظها فقالت « لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء »

٣ — ﴿ والعافين عن الناس ﴾ العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قلّ من يتبوأها . فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ اذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة

٤ — وهنالك مرتبة أعلى منهما وهي ما افاده قوله عز وجل ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فالاحسان وصف من أوصاف المتقين ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزا له بكونه محبوبا عند الله تعالى — لا لمزيد مدح من ذكر من المتقين المتصفين بالصفات السابقة ولا مجرد مدح المحسنين الذي يدخل في عمومه أولئك المتقون كما قيل — فالذي يظهر لي هو ما اشرت اليه من انه وصف رابع للمتقين كما يتضح من الواقعة الآتية : يروى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظاً شديداً فهمّ بالانتقام منه فقال الغلام « والكاظمين الغيظ » فقال كظمت غيظي . قال الغلام « والعافين عن الناس » قال عفوت عنك . قال « والله يحب المحسنين » قال اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله . فهذه الواقعة تبين لك ترتب المراتب الثلاث

٥ — ﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم

الله ولو قليلا . وداعية البذل في النفس هي التي تنبه الانسان الى هذا العفو الذي يجده أحيانا ليبذله . فان لم تكن الداعية موجودة في أصل الفطرة فأمر الدين الذي وضعه الله لتعديل الفطرة المائلة وتصحيح مزاج المعتله يوجدها ويكون نعم المنبه لها. وقد فسر بعضهم الضراء بما يخرج الفقراء من هذه الصفة من صفات المتقين وليس بسديد

يقول من لا علم عنده ان تكليف الفقير والمسكين البذل في سبيل الله لا معنى له ولا غناء فيه . وربما يقول أكثر من هذا — يعني انه ينتقد ذلك من الدين — والعلم الصحيح يفيدنا انه يجب ان تكون نفس الفقير كريمة في ذاتها وان يتعود صاحبها الاحسان بقدر الطاقة وبذلك ترتفع نفسه وتطهر من الخسة وهي الرذيلة التي تعرض للفقراء فتجرهم الى رذائل كثيرة ثم ان النظر يهدينا الى ان القليل من الكثير كثير فلو ان كل فقير في القطر المصري مثلا يبذل في السنة قرشا واحدا لاجل التعليم لاجتمع من ذلك الوف الالوف وتيسر به عمل في البلاد كبير فكيف اذا انفق كل أحد على قدره كما قال تعالى « لينفق ذو سعة من سعته » الخ

إذا كان الله تعالى قد جعل الانفاق في سبيله علامة على التقوى أو أثرا من آثارها حتى في حال الضراء وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التي هي سبب دخول الجنة فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم ؟ وهل يغني عن هؤلاء من شيء اداء الرسوم الدينية الظاهرة التي يتمرنون عليها عادة مع الناس ؟

٢ — ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال الراغب الغيظ اشد الغضب وهو الحرارة التي يجدها الانسان من فوران دم قلبه . وقال الاستاذ الامام الغيظ ألم يعرض للنفس اذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال أو المعنوية كالشرف فيزعجها الى التشفي والانتقام ومن اجاب داعي الغيظ الى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه الى البغي فلذلك كان من التقوى كظمه وفي روح المعاني ان الغيظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل ان الغضب يتبعه ارادة الانتقام البتة ولا كذلك الغيظ وقيل الغضب ما يظهر على الجوارح والغيظ ليس كذلك » اه والاقتصار في سبب الغيظ على رؤية ما ينكر غير مسلم . واما الكظم فقد قال في الاساس كظم البعير جرّته ازدردها وكف عن الاجترار ...

كبيرة اصابها المؤمن بجهالة و بادر الى التوبة منها فكانت دائما مذكرة له بضعفه البشري وسلطان الغضب او الشهوة عليه ووجوب مقاومة هذا السلطان ، طلبا للكمال بالقرب من الرحمن ، خير من صغيرة يقترفها المرء مستهينا بها فيصر عليها فتأنس نفسه بالمعصية ، وتزول منها هيبة الشريعة ، فيتجرأ بعد ذلك على الكبائر فيكون من الهالكين ، ورأيت المفسرين يوردون هنا حديث « ما اصر من استغفر وان عاد في اليوم سبعين مرة » وهو حديث ضعيف رواه ابو داود والترمذي عن ابي بكر رضي الله عنه . ومن الجاهلين من يراه فيغتر به ظانا ان الاستغفار باللسان كاف في التوبة ومنافاة الإصرار وان الحديث كالمفسر للآية فيتجرأ على المعصية وكلما اصاب منها شيئا حرك لسانه بكلمة « استغفر الله » مرة او مرات وربما عدّ مئة او اكثر واعتقد أن ذلك كفارة له . والصواب ان الاستغفار في الحديث عبارة عن التوبة لا عن كون اللفظ كفارة . على انه لا حجة فيه لضعفه . وراجع بحث الاستغفار في تفسير قوله تعالى «٣: ١٧ والمستغفرين بالاسحار » (ص ٢٥٣ ج ٣) (*واما الآية فقد فهمت معناها وانها جعلت كلا من الاستغفار وعدم الإصرار اثرا طبيعيا لذكر الله عز وجل بالمعنى الذي بيناه لأهل المرتبتين من المتقين ، وحاسب نفسك هل تجدك من الذاكرين ،

﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ يعني بقوله «أولئك» المتقين الموصوفين بما تقدم من الصفات الخمس وفيه تأكيد للوعد وتفصيل ما للموعود به . وقيل هو خبر لقوله «والذين إذا فعلوا فاحشة» الخ بناء على انهم قسم مستقل وان «الذين» مبتدأ لا معطوف على ما قبله . وقد تقدم تفسير «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها» (٢: ٢٥) فلا نعيده . وأما قوله عزّ وجل ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ فهو نص في ان هذا الجزاء إنما هو على تلك الاعمال التي منها ما هو إصلاح لحال الأمة كانفاق المال ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل وكلها مما يرقي

*) وكذا في ص ٨٨٥ من مجلد المنار العاشر

ومن يغفر الذنوب الا الله؟ ﴾ الفاحشة الفعلة الشديدة القبح ، وظلم النفس يطلق على كل ذنب. قال البيضاوي : « وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة ولعل الفاحشة ما تتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك» وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده أو عقابه او تذكر عظمته وجلاله وهما مرتبتان مرتبة دنيا لعامة المؤمنين المتقين المستحقين للجنة وهي أن يتذكروا عند الذنب النهي والعقوبة فيبادروا الى التوبة والاستغفار - ومرتبة عليا لخواص المتقين وهي ان يذكروا اذا فرط منهم ذنب ذلك المقام الالهي الاعلى المنزه عن النقص الذي هو مصدر كل كمال، ومايجب من طلب قربه بالمعرفة والتخلق الذي هو منتهى الآمال ، فاذا هم تذكروا انصرف عنهم طائف الشيطان، ووجدوا نفس الرحمن ، فرجعوا اليه طالبين مغفرته ، راجين رحمته ، ملتزمين سنته، واردين شرعته ، عالمين انه لا يغفر الذنوب سواه، وانه يضل من يدعون عند الحاجة الا إياه ، لأن الكل منه واليه ، وهو المتصرف بسننه فيه والحاكم بسلطانه عليه ، ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ لا يصر المؤمن المتقي من اهل الدرجة الدنيا على ذنبه وهو يعلم ان الله تعالى نهى عنه وتوعد عليه، ولا يصر كذلك بالأولى، صاحب الدرجة العليا ، من أهل الايمان والتقوى ، وهو يعلم أن الذنب فسوق عن نظام الفطرة السليمة ، واعتداء على قانون الشريعة القويمة ، و بعد عن مقام النظام العام، الذي يعرج عليه البشر الى قرب ذي الجلال والاكرام ، ومثال ذلك من يخضع لقوانين الحكام الوضعية خوفاً من العقوبة ، ومن يخضع لها احتراماً للنظام ، وما ابعد الفرق بين الفريقين. قالت رابعة العدوية رحمها الله تعالى

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظا جزيلا
اولأن يسكنوا الجنان فيحظوا ... بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ ... أنا لا ابتغي سواك بديلا

فالآية هادية الى ان المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيرا كان او كبيرا لأن ذكره عز وجل يمنع المؤمن بطبيعته أن يقيم على الذنب . وقد بينا في مواضع كثيرة من التفسير أن الايمان والعمل بمقتضاه متلازمان. وقد قالوا ان الاصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة وهذا اقل ما يقال فيها ورب

وافتخر عليهم فكان ذلك جل مايغون من حركتهم الجديدة (١)

قامت قيامتهم ولم يكتفوا بما يكيلون كل يوم للشيخ عبد العزيز من الصيعان الكثيرة في مقابلة صاعه بل انشأوا يكتبون في جرائدهم إن المسلمين يريدون بتعصبهم الديني استئصال القبط وجميع النصارى من مصر وانه يجب عليهم ان يوفدوا الوفود الى أوربا للاستغاثة بدولها وامها المسيحية قبل ان يبيدهم المسلمون المتعصبون او يضطروهم الى الجلاء عن بلادهم والهجرة الى بلاد أخرى يأمنون فيها على انفسهم من المسلمين ثم هم يطلبون ايضا معاقبة الشيخ عبد العزيز شاويش الذي أهانوه أضعاف ما أهانهم وان يرد عليه ويتبرأ منه كبراء المسلمين ، ويعقدون الاندية والسمار للبحث في هذه النازلة ويكتتبون بالاموال لها

من علم ان القبط في القطر نحو نصف مليون في نحو أحد عشر مليونا من المسلمين — وان العمال والمستخدمين منهم في الحكومة أكثر من المسلمين — وان المسلمين قاموا منذ سنين يدعون الى الرابطة الوطنية فكان لهذه الدعوة من التأثير في

---

(١) مما كتبوه من التحرش باللواء والحزب الوطني قبل مقالة الشيخ عبد العزيز التي جعلوها تكأتهم في اثبات ذلك الخطر المزعوم من تعصب المسلمين على النصارى ماجاء في العدد ٣٦٩٨ من جريدة مصر الصادر في ٩ يونيو الماضي وهذا نصه :

اللواء والاقباط

« اننا بالنيابة عن جميع الاقباط في كافة انحاء القطر نقابل ماجاء بصحيفة اللواء امس من الوقاحة والسفاهة بالازدراء والاحتقار . فانه اذا بلغ المرء مبلغ اللواء من قلة الادب والحياء نحو شعور امة برمتها لم يجد من الناس من يصغى الى قوله او يلتفت الى وقاحته بل ينبذ نبذ النواة ويترك ينبح نبح الكلاب وليس من يسمع له قولا »

ثم استشهدت جريدة مصر على ان القبط كلهم على هذا الرأي بالتلغرافات الكثيرة لما تكتبه وعبرت عنه بقولها « في خدمة الوطنية والحق اللذين خلق (أي اللواء) لهما عدوا ليخزى هو واتباعه (أي الحزب الوطني وسائر محبي اللواء) اذا كان من القوم المدركين » ولم يكن اللواء كتب شيئا بلسان الحزب الوطني ولا بلسانه

النفس البشرية ، حتى تكون أهلاً لتلك المراتب العلية ، أي ونعم ذلك الجزاء الذي ذكر من المغفرة والجنات أجراً للعاملين تلك الاعمال البدنيـة كالانفاق والنفسية كعدم الاضرار ، وان كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم في التقوى والأعمال ،

المسلمون والقبط

سبق لنا قول في هاتين الطائفتين بمصر بينا فيه ان المسلمين من حيث هم افراد أرقى من القبط في كل علم وان القبط من حيث الاجتماع والتعاضد الملي أرقى من المسلمين فلهـم مجلس ملي وجمعيات وجرائد دينيـة تبحث دائما في مصالحهم العامة من حيث هم قبط وهم يتعاونون ويتحدون في المصالح . وهذا ماحمدتهم واحمدهم عليه واتمنى لو يوفق المسلمون لمثله وان كنت أعلم انه لو أنشأ المسلمون جمعية للرابطة الاسلامية كجمعية الرابطة المسيحية لمـا وجدوا في القبط مثل احمد بك زكي يقوم فيها خطيبا ويجعل عنوان خطابته « مصريون قبل كل شيء » بل يخشى ان يقوموا كما تقوم اوروبا ويقول الجميع ان المسلمين في مصر يحيون التعصب الاسلامي والجامعة الاسلامية ويدعون الى ارتباط بعضهم ببعض لمقاومة النصارى في مصر بل في جميع الارض

لم تـكد تقر شقشقة احمد زكي بك من دعوة المسلمين في جمعية الرابطة المسيحية الى توثيق عقد الاخوة بينهم وبين القبط ويقنعهم بالادلة الدينية والتاريخية ان الاسلام في هديه وسيرة سلفه يوجب عليهم المودة للقبط حتى قام بعض الـكتاب من القبط يكتبون في بعض الجرائد القبطية وغيرها ان حقوقهم مهضومة بين المسلمين وانهم يطلبون المساواة بتعيين المديرين ومأموري المراكز منهم فوافقتهم جرائد المسلمين الـكبرى في مطالبهم فلم يقنعهم ذلك بل تمادوا في الـكتابة حتى جعلوا انفسهم اصحاب البلاد وجعلوا المسلمين من قبيل المحتلين بغير حق واغلظوا القول للواء والحزب الوطني فكتب الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس تحرير جريدة اللواء قولا ثقيلا في الرد على بعض كتابهم سخر فيه منهم وهزئ بهم

رأوا أنه لا سبيل الى تحويل الانكليز عن هذه السياسة الجديدة الا باقناع امتهم بانفجار بركان تعصب المسلمين على القبط وسائر المسيحيين ليقولوا ان هؤلاء اذا جعل لهم رأي نافذ في سلطة بلادهم يهضمون وهم الاكثرون حقوق الاقلين. واني لمعظم لقدرهم بهذا الظن ومعتقد فيهم الحزم والتكاتف وان ترجح عندي انهم ربما أخطأوا في اجتهادهم ، وجاء الأمر على خلاف مرادهم ، وحينئذ يكون شر هذه الحركة اكثر من خيرها ، وإثمها اكبر من نفعها ،

سمعنا غير واحد من أهل الفهم والرأي يقولون إن تعصب القبط بعضهم لبعض وتعاونهم على مصالحهم الملية يعدّ من الأمور الطبيعية في الاجتماع فان الفئة القليلة إذا لم تعتصم بعروة التعصب فانها تذوب وتفنى في الامة الكبيرة التي تعيش معها فالقبط معذورون في سيرتهم التي هم عليها لأنها طبيعية لا بد منها

ونقول نعم إن ذلك طبيعي و بديهي ولكن ما كان كذلك يجب الاعتراف به ويستنكر جحوده فما بالك بادعاء ضده . ثم انه ليس من الطبيعي البديهي أن تكون الفئة القليلة في الأمة الكبيرة مهاجمة في جهادها الاجتماعي فتطلب ما تبغي بالطريقة التي جرت عليها القبط في هذه الأيام الا إذا كان لها حدث جديد، أوأوت الى ركن شديد ،

يعبرون عن أنفسهم في مقام مطالبة المسلمين بما يطلبون بالأمة القبطية ويُدلون بأنهم أصحاب البلاد ، لأنهم سلالة فرعون ذي الأوتاد ، ويجهرون بأن المسلم فيها أجنبي محتل ، وأتاوي معتد ، وينكرون على المسلمين أن يكون لهم فيها حق من حيث هم مسلمون فاتحون ، ولا ينكرون على أنفسهم أن يدعوا الحقوق فيها من حيث هم قبط مسيحيون ، وهم في الحقيقة رعايا ذميون ، فما هو الحدث الجديد الذي أنطقهم بهذا اللسان ، وما هو الركن الشديد الذي يأوون اليه الآن ،

لا يظهر لنا حدث غير ما بيناه من تغير السياسة الانكليزية في البلاد وعزمها على السماح للأمير بتأليف مجلس نيابي فيها يشترك معه فيما يسمونه مسؤلية إدارتها. ولا نعرف لهم ركنا فيما صمدوا اليه الا رغبة السياسة الأوربية عامة والانكليزية خاصة في منع نهضة المسلمين بالتعصب الديني — فهذا ما رأوه من موقع الضعف في المسلمين والقوة لهم . لهذا جعلوا قول الشيخ عبد العزيز شاويش وهو على رأيهم دخيل في مسلمي

نفوس القارئين والسامعين، والاساتذة والمتعلمين، أن صار يفضل كثير منهم القبطي، على المسلم الشامي والحجازي . . . ، بل سمعت غير واحد من المعلمين والمتعلمين يقول لا فرق عندي بين ان يكون أمير البلاد مسلماً أو قبطيا ـ وان المسلمين جعلوا أحزابهم وأنديتهم شرعا بينهم و بين القبط ـ وان القبط يتعصب بعضهم لبعض في كل مصلحة وكل عمل حتى في القضاء — وان المسلمين على شدتهم في انتقاد حكامهم قلما ينتقدون القبط فهم ينتقدون وزير المعارف المسلم على إحسانه في عمله بحجة انه لم يكن فيه مرغما للانكليز ولا معاندا لهم أوانه يجب عليه ان يعمل أكثر مما عمل ولا ينتقدون وزير الخارجية القبطي الذي هو ألصق بالمحتلين و بالاتفاق معه سلخ لورد كرومر السودان من ملك الدولة العلية وملكه للانكليز وكان رئيس محكمة دنشواي التي ظلت الجرائد الاسلامية تعير وتسب العضو المسلم فيها ولم تذكر رئيسها بسوء ـ من علم هذا وأمثاله يتعجب أشد التعجب لهذه الثورة المعنوية التي أثارتها القبط في الوقت الذي يبالغ فيه المسلمون في موادتهم وتوثيق عرى الاخاء بينهم و بينهم . حقا ان في الامر مثارا للعجب ، وقلما رأينا من بحث في حقيقة السبب ،

يقول بعض الناس تبعا لبعض الجرائد أن قطبي الرحا لهذه الحركة اخنوخ افندي فانوس رئيس جمعية الرابطة المسيحية ومجمع الاصلاح القبطي وصاحب جريدة مصر اللذان يسعى كل منهما لجعل ولده مديرا فهما اللذان أيقظا هذه الفتنة لحظ شخصي فكانت فتنة جنسية او طائفية باتباع الجمهور لهما . ومن رأيي أنهما بريئان من هذه التهمة ولو كان ذلك هفوة لهما ، لما خفي على جمهور طائفتهما الحازمة اليقظة ، بل يغلب على ظني ان هذه الطائفة تجل عن أن تتوسل الى تقرير جعل المديرين منها بهذه الوسيلة لان ربح مدير لا يوازي خسارة مودة المسلمين لهم ، ودعوتهم الى مساواتهم ومؤاخاتهم ـ هذه الخسارة التي تعرضوا لها الآن، بمنتهى ماعندهم من الجرأة والاقدام

والراجح عندي ان القوم شعروا بالتغير الجديد في السياسة وعلم بعض كبرائهم بالنبإ الذي نشرناه في الجزء الماضي قبل ان نعلم به ـ وهو عزم الانكليز على السماح لأمير البلاد بإنشاء مجلس نيابي ـ ومن البديهي ان جمهور القبط لا يرغبون في ان يكون في مصر مجلس نيابي ولا أن يقلل المحتلون من سيطرتهم على البلاد . فلما علموا بذلك

رجحانهم عليهم لهذا الفرض . فتبين لهم ان القبط لا يرضون بهذا الاتحاد من كل وجه بل يستفيدون منه ويحولون دون استفادة المسلمين شيئاً منهم ، حتى نفي التعصب عنهم ، ثم يبنون أعمالهم كلها على أنهم أمة ممتازة لا عضو في جسم الأمة المصرية او الشعب المصري ـ وانهم لا يرضون بمقاومة الاجنبي ولا يودون استقلال البلاد دونه ـ وانهم اذا وجدوا فرصة لمواثبة المسلمين واثبوهم من أضعف جانب فيهم كنبزهم بلقب التعصب ومعاداة النصارى في هذه الأيام . فاذا كانت نتيجة دعوة المسلمين الى الوطنية المصرية بلسان جرائدهم وخطبائهم واحزابهم وعد القبطي أخاهم ، والمسلم غير المصري « دخيلا » فيهم ، ان تقوم عليهم جرائد القبط وجمعياتها الدينية وأنديتها القومية ، ترميهم بالغلو في التعصب والتواطؤ على إبادة النصارى فأي فائدة لهم في هذه الوطنية ؟ بل أي غائلة شر عليهم منها ؟؟

أقول إن في هذا خسارا للقبط لأنه ربما يغري المسلمين بمناظرتهم والتشبه بهم في جمعياتهم الدينية وترجيحهم لأبناء ملتهم في جميع الأعمال والمصالح ، واذا دب في المسلمين الشعور بوجوب ترجيح المسلم على القبطي كما تفعل القبط فان ذلك يحرم ألوف من القبط من موارد الرزق السائغة في دوائر المسلمين الخاصة بل ربما يعوزهم ... اذا تمادى وعظم — القيام باستغلال أرضهم كما يستغلونها الآن بمساعدة المسلمين . دع عنك مصالح الحكومة التي اكثر عمالها من القبط ولولا تساهل المسلمين وعدم عنايتهم بالمسابقة والمناظرة لكان الامر على غير ما هو عليه الآن

وناهيك بالخسارة المعنوية التي هي عند أهل الآداب العالية شر من خسارة المال وهي ما يخشى ان يكون من التقاطع والتدابر بين العشراء والخلطاء والجيران والأصدقاء

فالرأي عندي للقبط أن لا يغتروا بترجيع بعض الجرائد الافرنجية لأصواتهم في الشكوى من المسلمين والقول بتعصبهم ولا من سرور بعض الانكليز به ـ ان كان ما قيل من ذلك حقاً ـ فانهم مهما أصابوا من تعضيد في مشاقة المسلمين فهو لا يكون خلفاً صالحاً لمودتهم فيما أرى . فأنصح لهم أن يتوبوا مما فعلوا ويعتذروا عنه ويعودوا إلى سابق شأنهم أو إلى خير منه ان استطاعوا والمسلمون تغلب عليهم سلامة القلب فلا يلبثون

مصر برهاناً على ان في مصر تعصباً إسلامياً لا يلبث ان ينفجر بركانه فيدفن القبط وسائر النصارى معهم تحت مقذوفاته النارية . وقد طلبوا من الحزب الوطني ان يتبرأ من هذا القول ففعل ومن العجب انهم لم يرضوا . ويقال انه قد تجددت لهم صلة ودية برئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية ، وأنه رغب اليهم في الرجوع اليه والتعويل في رغائبهم عليه ،

ولكن فاتهم على حذقهم أن السياسة (لا سيما الانكليزية منها) اذا قررت أمراً أنفذته لا محالة لا يصدها عنه مراعاة فئة صغيرة ولا كبيرة ، ولا مسألة اختراعية كمسألة التعصب الاسلامي ، او حقيقية كإزالة السلطة الشخصية وحماية الحرية القومية، فنبشرهم بأن السياسة الجديدة التي بينها المنار في الجزء الماضي واقعة ما لها من دافع . وأمر مجلس النواب في هذه البلاد صار موكولا الى ارادة أميرها باختيار المحتلين ورضاهم أو كاد . فان نجحت الحركة القبطية فقصارى نجاحها ان تكون سبباً في تأخيره عاما أو أكثر وما ذلك بالربح الكثير في جنب ما يخسرون من مودة المسلمين بما اشتملت عليه مقالاتهم من التهكم بمجد الاسلام الاول والشماتة بزواله كالتعبير عنه « بالعظمة البالية » ورمي المسلمين السابقين بظلمهم وظلم غيرهم ، واللاحقين بالتعصب عليهم وعلى أهل دينهم ، وبمطالبة جميع كبراء المسلمين وكتابهم بأن يعتذروا لهم عن مقال الشيخ عبد العزيز وان كانوا هم البادئين بالعدوان وقد أصرّوا عليه بجعل ذنب الشيخ عبد العزيز ذنباً لجمهور المسلمين ، وبالسعي في جمع كلمة نصارى السوريين والروم والأرمن اليهم لمقاومة المسلمين كما روي لنا ويؤيده ما يكتبون في الجرائد وبترجمة الأقوال السيئة التي يكتبونها ويكتبها الآخرون باللغات الأوربية ، لايهام أوربا ان في البلاد تعصباً ربما يفضي الى ثورة دينية ،

أول خسارة خسروها بهذه المغاضبة هي اعتقاد المسلمين ان دعوة الوطنية التي قاموا بها في هذه السنين قد كانت خسارا عليهم وربحا للقبط وحدهم . فان دعاة هذه الوطنية من المسلمين كانوا يبغون بها ان يتحدوا بالقبط ويتعاونوا معهم على مقاومة السلطة الاجنبية ولذلك رضوا بأن يساووهم ويؤاخوهم مع العلم بأن الحكومة في صفتها الرسمية إسلامية تابعة لخليفة المسلمين باتفاق الدول ، بل غضوا النظر في الغالب عن

أميرها وكيلا لخليفة المسلمين فيجب البحث في تعيينه للقضاة الشرعيين ، ولادارته لأوقاف المسلمين ، ولتعيينه للخطباء وأئمة المساجد ونحو ذلك من المسائل الشرعية هل هي مع ذلك حقوق شرعية له ام هو لا يملكها الآن الا بالتغلب والقوة المستمدة من القبط وغيرهم دون ولاية الشرع لان البلاد خرجت عن كونها دار إسلام ؟ ؟ يهم المسلمين جدا ان يعرفوا ذلك لانه يترتب عليه احكام شرعية كثيرة منها ماهو ديني محض وما هو مدني شرعي

تسمي القبط ماتطلبه الآن مساواة بالمسلمين وهو مساواة من وجه وامتياز عليهم من وجه آخر . فاذا كانت حكومة مصر غير اسلامية وكان المسلمون فيها لا يمتازون بشيء قط فلماذا تكون أمورهم الملية الخاصة كالمحاكم الشرعية والاوقاف والمدارس الدينية تحت سلطة الحكومة المشتركة وتكون امور القبط الملية وأوقافها في أيديها ؟ اليس يكون هذا من امتياز القبط على المسلمين ؟

يغلب على ظني ان زعماء الحركة القبطية اذا فكروا في الأمر من جميع وجوهه فانهم يفضلون السكون والسكوت على التمادي في هذا العدو والصياح الا ان يكون الركن الشديد الذي يأوون اليه قد ضمن لهم ان يكونوا هم الرابحين بشاقتهم للمسلمين وإثارتهم لسخطهم وتعرضهم لمقاومتهم

لو لا أنني اظن صدق الخبر الذي اوردته في الجزء الذي قبل هذا عن السياسة الانكليزية الجديدة بمصر لغلب على ظني ان الركن الذي تأوي اليه القبط في هجتهم هذه هي السر الدن غورست نفسه والوزارة الانكليزية من ورائه أما وانا مصدّق لذلك الخبر فلا يبعد عندي ان يكون ركنهم بعض المحافظين من الانكليز ورئيس اساقفة كنيستهم (كنتربري) والا كانت القبط طائفة حمقاء وما عهدتها الا طائفة كياسة وروية ، وحزم وتدبر ، وستزيّل لنا الايام ، بين الحقائق والأوهام ،

فاذا فازت القبط في سعيها فامتنع الانكليز عن السماح للامير بانشاء المجلس النيابي تقرر بالفعل انه لافرق بينهم و بين المسلمين في الحكومة -- وما ذلك بمحال --

ان يغفروا لهم، وينسوا ما كان منهم، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي « المؤمن غرٌّ كريم » أي ليس بذي نكر ولا مكر ولا خداع . ولولا انني أحب الوفاق لما نصحت لهم بهذا فانني أعلم ان هذه المشاقة لا تزيد المسلمين الا قوة في رابطتهم الاسلامية التي أدعو اليها ، وحفظا لحقوقهم التي أغار عليها ، ولكنني أفضل أن يكون تنبيههم لذلك بغير هذا ، أحب ان يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا وان يكونوا مع ذلك على وفاق ووئام مع من يعيش معهم . وأنصح للمسلمين ان لا يكتبوا شيئاً في الرد على القبط — ولو لم يكتبوا في الماضي ما كتبوا لكان خيراً لهم وأحسن إطفاء لتلك الفتنة وخذلانا لموقظيها - ولكن لا بأس ببيان عدد الموظفين منهم في كل مديرية وذكر الوقائع في تعصب بعضهم لبعض، وتعاونهم الملي المحض ، من باب بيان الحقيقة والاعتبار بها ، بشرط ان يتحرى الصحيح ، ولا تمزج الرواية بشيء من التأنيب والتجريح ، فضلا عن الهجر والتقبيح ،

ومما يحسن البحث فيه ايضاً بيان ان القبط لا يمتازون بحق رسمي على غيرهم من النصارى المتجنسين بالجنسية المصرية من السوريين والأرمن والروم ومن اليهود أيضاً وانما ميزهم المسلمون في مقالاتهم وخطبهم التي يجعلون فيها المصريين عنصرين فقط ويعدون القبط إخوانهم دون غيرهم من الذين جعلوا مصر وطناً لهم ويعدهم القانون المصري مصريين لولادتهم بمصر او لإقامتهم فيها ١٥ سنة او اكثر فالنسب القديم ليس شرطا للوطنية ولا للجنسية عند أحد من الامم ولا في شيء من قوانينها . فاذا كان من الحق مطالبة القبطي بأن يكون مديرا كان من الحق ان يكون السوري الذي تجنس بالجنسية المصرية مديرا ووزيرا ، فالحق انه لا فرق بين ابن اخنوخ افندي فانوس ، وابن يعقوب افندي صروف ، فالوطنية الحقيقية هي المساواة بين جميع العناصر التي تقيم في البلاد وتحكم بقوانينها . الا أن يكون للطائفة الحاكمة بعض المزايا في القوانين العامة وطبيعة الحكومة

فما يبحث فيه هنا طبيعة الحكومة المصرية ودينها الرسمي فاذا كانت لا تزال حكومة إسلامية خلافا لما يقول بعض القبط علم ان طلب هذه الطائفة مساواة المسلمين في كل شيء في غير محله . واذا كانت قد خرجت عن كونها إسلامية وعن كون

في رغبة المسلمين وهي المجلس النيابي وفي رغبة القبط وهي نيل ما بقي من أعمال الحكومة بين الوزارة والقضاء كالمديرية ومأمورية المركز ؟ ؟

اما الأول فمن الجلي الواضح ان ضعف الوطنية ، لا يقتضي ان تبقى حكومة البلاد استبدادية ، لأن حكومة الشورى أبعد من الحكومة الشخصية المطلقة عن الظلم غالباً ، ولذلك فرح مسلمو روسيا بإنشاء مجلس النواب (الدوما) في حكومتهم على قلتهم في جانب الروس المشهورين بالتعصب · على انه إذا فرض ان الحكومة الشخصية المطلقة خير للقبط من جهة التمتع بالوظائف فان ذلك الحظ الذي يصيب افراداً من فئة قليلة في الأمة الكبيرة لا يصلح مرجحاً لعدم ترقية حكومتها لأن ذلك ترجيح للأفراد القلائل على الجمهور الكبير فهو من قبيل ترجيح المصلحة الخاصة على المصلحة العامة

وأما الثاني فإذا فرضنا ان حكومة مصر خرجت عن كونها إسلامية والبلاد عن كونها دار إسلام فمن السياسة والحكمة في الادارة ان لا يكون القبطي الآن مديراً في مديرية فيها مئات الألوف من المسلمين وليس فيها إلا آحاد الألوف أو المئين من القبط وان ينتظر في ذلك تكوّن الوطنية الحقيقية ، التي تمتزج فيها جميع العناصر المصرية ، فلا ينزع احد منها الى الامتياز بجنسه ونسبه ، ولا بدينه ومذهبه ، فان استعجلنا فجعلنا القبط مديرين لامور المسلمين ، والحال على ما نعلم منهما ، او ما يدعي كل منهما ، فاننا نكون قد أثرنا العدوان ، وأرّثنا الأضغان ، ووضعنا في طريق الوطنية سدّاً لا يدك ولا يُظهَر ، وعقبة لا تزول ولا تقتحم ، او قدمنا النتيجة على المقدمات ، وطلبنا الثمرة ، قبل خروج الشجرة ،

فالمعقول إذاً ان تكون حركة القبط الجديدة مبعدة لهم عن مطلبهم الظاهر ، ولكن ربما لا تكون مبعدة عن غرضهم الباطن ، والله أعلم بالسرائر ، وانما نحن نحكم بالظواهر ، وهذا ما رآه الكاتب فيه من الصواب ، فإن تبين له انه مخطئ فيه بادر الى المتاب ، واستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب

فانني اشـــهد للقبط بأنها أرقى طوائف الشرق الادنى في السياسة والاجتماع وجميع مقومات الحياة الملية لا أقرن بها تركيا ولا عربيا سوريا ولا غير سوري ولا أرمنيا بل ولا يهوديا . ويتبع هذه الشهادة انها تكون احق في الواقع ونفس الامر بالحكم في البلاد ، وتُعذر في التشوّف الى الاستقلال ، وتكون مصيبة في تسمية نفسها « امة »، وحقيقة بان تكون في المستقبل ذات دولة ، ويقال انها تطمع في ذلك فان صح ماقيل كان برهانا على علو همتها ، وثقتها بنفسها في وحدتها

وخلاصة القول ان طائفة القبط قامت تطلب مطالب لنفسها من حيث هي امة ومن حيث هي صاحبة الحق في حكم البلاد وظهر انها فيه متكافلة متضامنة متحدة فناقشها افراد من المسلمين بصفتهم الشخصية لا باسم حزب من الاحزاب ولا جمعية من الجمعيات ووافقها بعض آخر كما وافقتها الاحزاب وهي مع ذلك تنسب مناقشة الفرد الى الحزب او الى الامة . وقد استعمل بعض الكاتبين من الفريقين الهجر والسباب ، والتنابز بالالقاب ، فكانوا فيه سواء ، الا ماهو من صناعة البلغاء ، ولكن القبط تطلب ان يعتذر لها الجميع عن الافراد ، وهي لا تعتذر للجميع عما تقول بلسان الجميع ، فاذا قلنا ان الفريقين قد تعادلا في الاهانة فتساقطا فليس لاحد حق في ذلك على آخر بقي معنا انه ليس في البلاد وطنية حقيقية ، وأنه لا يزال يغلب على الفريقين نزعة الرابطة الدينية ، (وان تنصل من ذلك كل منهما) وأن هذه الحركة أضعفت ماقام بعض الأحزاب والافراد ، من الدعوة الى المساواة والاتحاد ، وان القبط أعرق في النزعة الملية ، وابعد عن حقيقة الوطنية ، اذ من مقتضى الوطنية ان لا يطلبوا لأنفسهم شيئا من حيث هم قبط وان لا يسموا انفسهم أمة وأن لا يتعصب بعضهم لبعض في المصالح والاعمال ، كما يعرف كل احد منهم الآن ، وأن يرضوا بما تختاره الحكومة من التدريج في نقل البلاد من حال الى حال ، أو يكتفوا ببث رغائبهم الى وزيرهم الناصح لهم ، الغيور عليهم ، المتفاني في ترقيتهم ، وهو لا يدع فرصة يتمكن فيها من اعطائهم حقا جديدا الا وينتهزها انتهازا ، ويجعلها سيفا في يده لا عكازا

واذا كان الأمر كذلك في الوطنية ، وفي هذه الحركة القبطية ، فما هو تأثيره

أهل العربية على قولهم « من لما يعقل » من غير تجوز في ذلك حتى لو قيل « لمن يعقل » كان لغوا بمنزلة ان يقال : الذي عقل عاقل . فان قيل كان الواجب هنا ان يفرق بما ومن لان مايعقل معلوم انه من ذوي العلم . قلنا نعم لكن بعد اعتبار الصلة أعني « يعقل » . واما الموصول نفسه فيجب ان يعتبر مبهما مرادا به شيء ما ليصح في موقع التفسير بالنسبة الى من لا يعلم مدلول « من » وليقع وصفه يعقل مفيدا غير لغو . ومحصله انك ان لاحظت العاقل من حيث انه عاقل استعملت فيه « من » وان لا حظته من حيث انه شيء مااستعملت فيه « ما » كما تقول : ما الانسان ؟ اه وانت تعلم ان (ما) في السورة ليست لبيان ان مدلولها عاقل او عالم بل لبيان انه شيء معبود فاستعمل فيه اللفظ العام الذي تفسره الصلة

هذا وانني رأيت بعض الناس لا يفهمون معنى السورة وقد سألني غير واحد بالمشافهة عن معنى مافيها من صورة التكرار فأحببت ان اورد هنا ما كتبه الاستاذ الامام في تفسيرها تتمة للفائدة وهو :

« الكافر هو المعاند الجاحد الذي إذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه ، وإذا سمع الحرف من كلمته سد أذنيه ، ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ، ولا يذعن لحجة إذا اخترقت فؤاده ، بل يدفع جميع ذلك حبا فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله ، واستند في التمسك به إلى تقليد من سلفه ، فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه (٨: ٢٢ ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ٢٣ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . بعض هذا الصنف بل الغالب من أفراده يقول للداعي إلى الحق أو يحدث نفسه ليلهيها عن فهمه : الام يدعونا ؟ إلى الله فنحن نعتقد به ؟ إلى توحيده فنحن نوحده ؟ وغاية ما في الأمر نتخذ شفعاء اليه ، نسأله بحقهم عنده أو بمكانتهم لديه ، إلى عبادته فنحن نركع ونسجد له ؟ وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظم أولياءه وأهل الشفاعة عنده ونتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . هذه وساوسهم وهذه أمانيهم فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح مايمكن أن يصرح به فقال له (١ قل يا أيها الكافرون ٢ لا أعبد ما تعبدون) أي ان الاله الذي تزعمون

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

بحث ما ومن وتفسير سورة الكافرين ١٠٦

(س ٥) من محمد حسيب افندي عامر وكيل تلغراف (بلبيس — شرقية)

حضرة العلامة المفضال صاحب المنار

بعد السلام والتحية نرجوكم ايضاح معنى لفظة « ما » وما تشير اليه في قوله عز وجل — لااعبد ماتعبدون ولاانتم عابدون مااعبد — فإني إن أعطيتها حكم غير العاقل كقاعدتها النحوية استحال ذلك على المولى سبحانه وتعالى وان اعطيتها حكم العاقل فالأصنام وما كانوا يعبدون ليست بذي عقل أفيدوني مأجورين والسلام

(ج) قالوا ان لفظ « ما » هنا أريد به الصفة اي «المعبود» واذا أريد بها الصفة تطلق على العاقل وغيره . وجوز بعضهم ان يكون اطلاقها على الله عز وجل بعد اطلاقها على الاصنام من قبيل المشاكلة لاجل التناسق في التعبير . ولعل السائل يعلم انه نقل عن سيبويه وغيره ان كون « ما » لما لا يعقل أغلبي لامطرد والشواهد عليه من التنزيل وكلام العرب معروفة . قال الزمخشري في الكشاف : «وما» عامّ في كل شيء فاذا علم فرق بما ومن وكذلك قول العلماء « من لما يعقل» اه اي فاطلقوا «ما» على العاقل في نفس القاعدة التي ذكروا فيها ان « من » خاصة بالعاقل . وفي حاشية الامير على المغني بعد ذكر عبارة الكشاف : قال التفتازاني اي يصح إطلاق ما على ذي العقل وغيره عند الابهام لاستفهام او غيره فاذا علم ان الشئ من ذوي العلم والعقل فرق بمن وما فتختص « من » بالعاقل و « ما » بغيره . وبهذا الاعتبار يقال ان ما لغير العقلاء . واستدل على اطلاق « ما » على ذوي العقول باطباق

دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) أي لا علاقة بينك و بينهم لا في المعبود ولا في العبادة. وأما ما قيل من غير ذلك فان صح شيء مما ورد فيه فاحمله على معناه مستقلاً عن معنى السورة ولا تغتر بكل ما يقال فأفضل ما تفهم هو أقرب ما يُفهم والله أعلم » اه

النقوط

(س ٦) ومنه :

حضرة العلامة المفضال صاحب المنار الغراء . بعد السلام والتحية — أرشدونا أرشدكم الله : « هل ما يسمى (النقوط) المتعارف والمستعمل بين افراد الأمة المصرية في الأفراح وما شابهها سواء كان ذلك بالنقدية أو ما يقوم مقامها محلل أم محرم وما الدليل أفيدونا مأجورين » :

(ج) كل ما يبذل من المال بالرضا والاختيار تبرعاً فلا حرج على باذله ولا على المبذول له إلا ان يقصد به الاعانة على عمل محرم كالفسق والفساد في الأرض والنقوط لا يقصد به شيء من المحرمات فيما نعلم وانما هو إكرام من قبيل الهدية والاصل في جميع التصرفات المالية الإباحة فالقول بها لا يحتاج الى الدليل وانما يستدل على المحرم لأن التحريم خلاف الاصل

حديث من زار قبر والديه يوم الجمعة

(س ٧) من الشيخ احمد شرف الدين بالازهر

حضرة الاستاذ السيد رشيد رضا المحترم

سلام على حضرتكم و رحمة الله. اما بعد فقد جمعني وجماعة من اكابر علماء الأزهر الشريف مجلس فسمعت منهم حديثاً لم اسمعه من قبل وحيث لم ارعليه بلاغة سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم ولحضرتكم سعة اطلاع على السنة الصحيحة اردت عرضه على مسامع سيادتكم حتى اذا كان صحيحاً أيدتموه ونشرتم ذلك بمناركم المضيء وان كان ضعيفاً او غير حديث اوضحتم سبيله ولكم الفضل والحديث هو (قال صلى

أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده لانكم انما تعبدون ذلك الذي يتخذ الشفعاء أو الولد أو الذي يظهر في شخص أو يتجلى في صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون وانما أعبد إلهاً منزها عن جميع ما تصفون به إلهكم (٣ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي انكم لستم بعابدين إلهي الذي أدعو اليه كما تزعمون فانكم زعمتم أن الذي تعبدونه يتقرب اليه، بتعظيم الوسائط لديه، فتوسلتم بها اليه، وتعتقدون أنه يقبل توسطها عنده، فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبد فلهذا لاتعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره. ثم لما كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم، أو في المعابد التي أقاموها لهم وبأسمائهم، أو يؤدونها لله في المعابد الخاصة به أو في خلواتهم، وهم على اعتقادهم بالشفعاء — عبادة لله خالصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم في شيء نفى أن تكون عبادته مماثلة لعبادتهم وأن تكون عبادتهم مماثلة لعبادته فقال (٤ ولا أنا عابد ما عبدتم) فما هذه مصدرية وليست بالموصولة مثل التي تقدمت أي ولا أنا بعابد عبادتكم (٥ ولا أنتم عابدون ماأعبد) أي ولا أنتم عابدون عبادتي . فمفاد الجملتين الاولين الاختلاف التام في المعبود ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة فلا معبودنا واحد ولاعبادتنا واحدة لان معبودي ذلك الاله الواحد المنزه عن الندّ والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص معين، أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه، الباسط فضله لكل من أخلص له، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه، والذي تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتي مخلصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى فلا تسمى على الحقيقة عبادة فأين هي من عبادتي (٦لكم دينكم) دينكم مختص بكم لايتعداكم إليَّ فلا تظنوا اني عليه أوعلى شيء منه (ولي دينِ «*») أي ديني هو دين خاص بي وهو الذي أدعو اليه، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه، ولا يخفى أن هذا المعنى الذي بيناه هو ما يهدي اليه أسلوب السورة الشريفة خصوصا هذه الآية الاخيرة «لكم دينكم ولي دين» فانها صريحة في ان المراد نفي الخلط المزعوم. وما دلت عليه السورة هو ما دلت عليه آية (٦: ١٥٩ ان الذين فرقوا

(*) لفظ «دين» مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة لاجل الوقف

س « ١ » هل زيارة الحرم المدني سنة وهل كل احد مكلف بزيارته بعد الحرم المكي

س « ٢ » هل ملك الموت قد استأذن سيدنا محمداً في قبض روحه الشريفة وكيف كان ذلك وهل صح انه لم يسبق له أن استأذن على أحد قبله كما يزعمون او يذيعون ؟ هذه هي اسئلتي ياسيدي وقد اقنعت المجادلين لي في السؤال الاول نقلا عن اغاثة اللهفان للامام الحجة ابن القيم فلم يقنعوا واما السؤال الثاني فلم اتكلم عنه بشيء لعدم معرفتي حقيقته ولم اعثر في الكتاب المذكور على شيء بخصوصه وجميع المجادلين لي ابوا ان يقتنعوا حتى ينظروا جوابكم بالمنار لاعتقادهم فيه وهم من الاهالي والمستخدمين . ومن المستخدمين مشتركون في مجلتكم الزاهرة ولكن كلفوني أن اكتب اليكم وعلى اي حال فاننا ممنونين وتجدنا منتظرين بفارغ الصبر افندم

زيارة مسجد الرسول (ص)

أما الجواب عن الاول فهو ان زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مندوب اليه لا مفروض على المسلمين كالحج كما يتوهم العوام . وحسبك في الترغيب فيه قوله (ص) « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام » رواه احمد البخاري ومسلم وغيرهم من حديث ابي هريرة . واحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر وغيره . وقوله « لا تشدّ الرجال الا الى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى » رواه احمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث ابي هريرة وابي سعيد الخدري . ورواه غيرهم عنهما وعن غيرهما

استئذان ملك الموت على النبي (ص)

وأما الجواب عن الثاني فهو أن الحديث في ذلك لا يصح ولا عبرة بسكوت بعض أهل السير عليه ولا بذكره في بعض الخطب التي قلما تحرى أصحابها الصحاح من السنن والآثار بل أولع أكثرهم بالواهيات والموضوعات

الله عليه وسلم من زار قبر والديه يوم الجمعة فكأنما حج ومن زار احدهما فقد أتى بعمرة) واذا صح هـذا فلا لوم اذا على مزاحمة النساء للرجال في زيارة القبور لان كلا يريد ان يحج

(ج) الحديث ظاهر الوضع ولم أر من خرجه بهذا اللفظ وقد علمت ان من علامات الحديث الموضوع بناء الثواب الكبير على العمل القليل • وقال في الفوائد المجموعة حديث « من زار قبر والديه او احدهما يوم الجمعة غفر له » في اسناده وضاع وله شاهد في اسناده ضعف . وروي « من زار قبر ابيه او أمه او عمته او خالته او احد اقاربه كتب له حجة مبرورة » ولا أصل له اه

ولعله يعني بحديث الشاهد « من زار قبر والديه او احدهما في كل يوم جمعة غفر له وكتب برا » لما فيه من الزيارة عزاه في الجامع الصغير الى الحكيم الترمذي عن ابي هريرة وعلم عليه بالضعف وفي اسناده محمد بن النعمان مجهول وشيخه يحيى بن العلاء الرازي البجلي متروك بل قال الامام احمد انه كان يضع الحديث فهو موضوع لا ضعيف ولا شك عندي في ان كل ماروي في هذا المعنى موضوع اختلقه المختلقون بعد اعتياد الناس زيار قبور الاقربين في ايام الجمع ولم يكن ذلك من سنة النبي ولا اصحابه في شيء

زيارة الحرم النبوي واستئذان ملك الموت على النبي (ص)

(س ٨ و ٩) من محمد افندي حلمي الكاتب الاول لمركز المسلمية (السودان)

حضرة سيدي الحسيب النسيب الفاضل الافخم العلامة الكامل السيد محمد رشيد رضا حفظه الله . عليكم منا السلام والرحمة والبركة والاكرام و بعد فأرجو من فضلكم وكرم اخلاقكم المشهورة الاجابة على السؤالين الآتيين وارجو ان كان سبق لسيادتكم التكلم عنهما في مجلدات غابرة ان تجيبوني عليهما واكون ممنونا جداً لو تفضلتم وتكرمتم بدرجهما في أول عدد لاهمية لزومهما عند الجمهور خصوصاً في هذه الاصقاع ولا خلاف بأن فضيلتكم أصبحتم مشهورين بالعلم والفضل في جو علوم العربية بل صرتم لنا من اركان الاسلام والله على ما أقول وكيل وهو حسبي ونعم الوكيل

وهو وسيلة للاتحاد العام بين جميع المسلمين من دلهي الى فاس ومن الاستانة الى زنجبار اذ يتحولون للصلاة نحو منبع دينهم وهو قبلتهم .

«فما هي القواعد الاساسية لهذا الدين الذي أثر تأثيراً عظيماً في الجنس البشري؟ انها مبينه في القرآن الشريف وقد شرحها العلماء من جميع الامم بلغات كثيرة ولكن عظمتها الاصلية وسهولتها لم يبينا بأكثر بلاغة مما بينها به اتباع النبي الاولين الذين انطرحوا عند قدمي ملك الحبشة المسيحي يطلبون حمايته لهم من اعتداء عرب قريش إذ قالوا « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل الى من قبلنا وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله تعالى لنعبده ونوحده ونخلع (أي نترك)ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الاحجار والاوثان وأمرنا ان نعبد الله وحده أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الارحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به »

« هذه هي قواعد الدين الاسلامي . ان العمل بهذه القواعد قد أفاد مئات الملايين من الذين اعتنقوا الاسلام — وخصوصاً الفقراء بينهم — عزاء روحيا فضلا عن النعم المادية من خيرات هذا العالم وأمل الخلود في العالم الآتي . ولا ريب أن الهيئة الاجتماعية الاصلية تستفيد كثيرا من اعتناق الدين الاسلامي . وقد قال السير جون سيلي عما عرفه بقوله « قوة الدين التي تنشئ الممالك » ما يأتي

« أينما وجدت قبيلة بربرية قد رفعت نفسها يوما ما حتى ارتقت عن حالها الهمجية ونالت بعض التقدم تجد أنها فعلت ذلك عادة بواسطة اعتناقها الدين الاسلامي » اه

« ولسوء الحظ نرى ان المصلح العربي العظيم الذي قام في القرن السابع (يريد به محمداً صلى الله عليه وسلم) قد اضطرته دواعي مركزه يومئذ الى القيام بأكثر من تأسيس دين . انه حاول ان يوجد نظاماً اجتماعياً . فكانت النتائج لهذا النظام هي التي وصفها المستر ستانلي لاين بول — وهو الرجل الذي راقب مراقبة دقيقة ما في الاسلام من

روى حديث استئذان ملك الموت على النبي صلى الله عليه وسلم وتخييره بقبض روحه الشريفة الطبراني في المعجم الكبير عن جابر وابن عباس في حديث طويل قال المحدثون انه منكر في إسناده عبد المنعم بن ادريس اليماني القصاص عن أبيه عن وهب بن منبه . قال الامام أحمد كان يكذب على وهب بن منبه . وأبوه إدريس متروك أيضاً قاله الدار قطني . ورواه أيضاً من حديث الحسين بن علي وهو منكر أيضاً في سنده عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث . وقال أبو حاتم متروك

الرد على كتاب اللورد كرومر

صاحب الحق لا يسكت عنه وان طال عليه الامد وانا سننشر في المنار بعض مانكتبه في دفع هجمات اللورد فيما كتبه عن الاسلام ونودع جميع مانكتبه في مصنف خاص . ونعتمد في أقواله على ترجمة المؤيد (مع تنقيح ما في العبارة) فنبدأ بعبارته ثم نقسم القول ونرد على كل قسم منه بالتفصيل

﴿ القسم الثاني ﴾

« كلامه في الاسلام والمسلمين »

قال اللورد في سياق الكلام في المقابلة بين الانكليزي والمصري ما ترجمته :

«قلت فيما تقدم ان التقاليد الدينية هي من جملة الموانع الكائنة بين الانكليزي والمصري فان الانكليزي على كونه أحد أفراد العائلة الاوربية من جهة التمدن العمومي يحاول أكثر من كل أوربي آخر أن يصل الى اسمى درجات الرقي من التمدن المسيحي أي انه يحاول أن يدخل نظام آداب مسيحي صريح (في المعاملة) ويجعله قاعدة للعلاقات بين الرجل والآخر . يحمله على ذلك تلك المبادئ القديمة التي جاءته من أسلافه والدم البيوريتاني الذي لا يزال يجري في عروقه .

«ومن الجهة الاخرى نرى المصري متمسكا كثيراً بدين الاسلام وهو التوحيد الشريف الذي ينوب فيه الايمان الى درجة قصوى عن الوطنية في البلدان الشرقية

(ثالثها) ان الاسلام لا يشجع على الرق ولكنه يتساهل في الاسترقاق. فقد قال السيد (امير علي) « إن محمدا وجد تلك العادة سارية بين الوثنيين من العرب فخفض من هذا الشر » ولكنه عجز من إلغائه تماما أما أتباعه فقد تناسوا عدم تشجيعه واجمعوا على اباحة الرق وجعله عنوانا لسلوكهم . ويليق بنا ان نقول في هذا المقام ان من الامور التي توجب الخجل على المسيحي انه لم يكتف قبل الآن بان يستعبد العبيد بل ارتكب اقبح من ذلك فكان يتخطفهم على ان الديانة المسيحية لم توافق مطلقا على الرق.

« وقد اشتهر أخيرا ان الاسلام دين خال من التسامح وهي شهرة صحيحة من بعض الوجوه ولكن لا بد من تحديد وايضاح لهذه التهمة العامة . نعم ان اتباع النبي شهروا الحرب على الذين اعتبروهم من الكافرين وقد علمهم دينهم انه يجوز استرقاق غير المؤمن متى اخذوه اسيرا في الحرب وزد على ذلك أن الخصام الطائفي كان كثيرا فقام السنيون في وجه الشيعيين واضطهد السنيون الوهابيين بدون شفقة — على أن الخروج عن الاسلام يعاقب عليه بالموت وقد كان هذا العقاب ينفذ فعلا منذ سنوات غير كثيرة . ونرى من الجهة الاخرى أن تواريخ الاسلام لم يشوبها شيء من مثل تاريخ ديوان التفتيش وزد على ذلك ايضا أن المسلم اذا لم تؤثر في نفسه طوارئ خاصة مثيرة لعواطفه فهو لا يتأخر عن أن يعامل اليهودي والمسيحي بتساهل لا يشوبه شيء من الاحتقار . ففي قرى الصعيد لبث الهلال والصليب والجامع والكنيسة جنباً إلى جنب سنوات كثيرة

ومع ذلك نرى الاسلام يميل الى بث روح عدم التساهل وانماء الحقد والاحتقار لا المشركين فقط بل يشرك معهم جميع المؤمنين الذين لا يقولون إن محمداً هو رسول الله

(ثم أخذ يصف الاسلام فقال) : « ان المسلم منذ قرون كثيرة ما برح يؤمر ان ينتقم لنفسه من أعدائه وأن يضرب من يضرب به عينا بعين وسنا بسن وعليه نجد ان الاسلام يختلف عن النصرانية في انه يغرس في العقول ان الانتقام والكره يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والآخر بدلاً من المحبة والاحسان. ثم ان الاسلام يحدث بغضا خاصا للذين لا يقبلون الدين الإسلامي • يقول القرآن (٤٧ : ٤ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق... ٧ يا أيها الذين

وجوه القوة والضعف ـ إذ قال « ان الاسلام عظيم من حيث كونه ديناً وقد علم الناس أن يعبدوا الها واحداً عبادة طاهرة وقد كانوا من قبل يعبدون آلهة كثيرة عبادة غير طاهرة ولكن الاسلام اخفق اخفاقاً كاملاً بصفته نظاماً اجتماعياً »

قال لورد كرومر: ان الاسباب التي اوجبت فشل الاسلام من حيث هو نظام اجتماعي متعددة (أولها) وأعظمها مكانة ان الاسلام يجعل المرأة في مركز منحط جدا . (ثانيها) ان الاسلام بمراعاته التقاليد المحيطة بالقرآن اكثر من القرآن نفسه جمع بين الدين والشرع فجعلهما جزءا واحدا غير قابل للتفريق او التغيير فنتج عن ذلك ان تلاشى من النظام الاجتماعي ما فيه من المرونة . فان المصري حتى الآن اذا لجأ الى الشرع في امور الوصاية فان قضيته يحكم بها بمقتضى المبادئ الضيقة التي وضعت لما يوافق احوال الهيئة الاجتماعية الاولى في شبه جزيرة العرب في القرن السابع

« ومنذ سنوات قليلة أي سنة ١٨٩٠ أوضح مفتي الديار المصرية الاكبر كيف تعاقب عصابات اللصوص التي يثبت ارتكابها لجريمة الاعتداء بالسلاح ليلا على احدى القرى فقال انه يمكن ان يعاقب المجرم على ستة وجوه مختلفة فإما ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ثم يقطع رأسه او يشوه جسمه كما تقدم ثم يصلب بعد ذلك او ان يقطع رأسه فقط او ان يصلب فقط أو أن يقطع رأسه اولا ثم يصلب بعدئذ . وأفاض المفتي في تقريره عن كيفية صلب المجرم وهو ان يربط الرجل الى صليب في شكل معين ثم يوخز بحربة في الجانب الايسر وتبقى الحربة وهي تحز في محل الجرح الى أن يموت

«ثم ان بعض المسلمين قد عمدوا بنية حسنة الى تشويه الشرع المقدس . اذ اقلقوا خواطرهم في اختراع وسائل يريدون فيها ان يبينوا ان مبادئ القرن السابع الشرعية ونظامه الاجتماعي يمكن تطبيقهما على مجربات القرن العشرين المدنية ولكن العادة المبنية على القانون الديني مؤيدة بالمغالاة في اكرام الشارع الاصلي قد قيدت جميع المتعلقين بالاسلام بقيد من حديد لا سبيل الى النجاة منه . ولقد قيل « ان الانسان عاش في القرون الوسطى ملفوفا بقلنسوة الكاهن » فالمسلم الصحيح في الايام الحاضرة ملتف بالشرع اكثر من التفاف الناس بالقلنسوة في القرون الوسطى .

أجنبياً عنه . مهما بذل الانكليزي من وسائط التودد والعقل فهو عاجز عن هدم هذا الحاجز الحصين — (وهنا نقل اللورد قول المستر باتري) « الاسلام هو كل شيء للفلاح وهو يعتبر غير المؤمنين فئة قليلة حقيرة ولا يمنعه عن الفتك بهم وإعلان ميزة الاسلام الا حقيقة مكدرة له هي أنه ليس في الامكان الفتك بهم الآن »

« وليس هذا وحده الحائل بين الفريقين . فانظر إلى البدع الرئيسية وحوادث العبادة الإلهية المقارنة للاسلام وما يعارضها في النصرانية . وابحث في النتائج التي تلي تحقير المرأة وقابل بين الشرقي الاسمر والغربي الابيض في القوى العقلية والادبية والعادات والفنون وعلم البناء واللغة والملبس والاذواق تجد أن الفرق بين الفريقين أبعد مما بين الخافقين . حتى انك لتجد في أقل الامور شأناً في اعمال الحياة باعثاً غير محسوس ولا يعرف سببه من شأنه ان يدفع الشرقي إلى جهة مشاقته للغربي مع اتفاق أحوال الفريقين . فالمسيحي يتعلق باهداب أمل ان يلقى في السماء أولئك الذين رافقهم في الارض وهذا الامل من جمل مظاهر دينه وأكثرها عزاء له وأما اعتقاد المسلم بالخلود فيختلف اختلافاً تاماً عن اعتقاد المسيحي لان الحوريات اللواتي يرجو المسلم نيلهن في الجنة لم يسبق لهن وجود في هذا العالم . والمسيحي يصلي طالباً الحصول على بعض أمور أو ان يتمكن من اتمام أغراض معينة واما المسلم فهو على العموم يلفظ صلاة مرتبة معينة ويندر أن يطلب في صلواته طلباً معيناً

« المسيحي يصلي صلاته اليومية في الخفاء وأما المسلم فانه يصلي جهاراً بين الناس وليس لديه شيء من الخجل الكاذب دون اعترافه جهاراً انه معتمد على الله في جميع أعماله وأموره . قال المطران ستانلي بعد ان درس الاديان الشرقية « ان الله موجود عند المسلمين وجوداً يندر مثله عندنا في وسط العجلة الغربية وما يشوبها من الارتباك »

« ومتى صام المسيحي فهو يعمل باعتدال نهاراً وينام ليلاً واما المسلم فهو في صيامه ينقطع عن الاكل والشرب والتدخين ولكنه اذا جاء الليل تمتع بكل ذلك بدون ضابط

آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ٨ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ... ١٢ ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم)

وقد علق اللورد على الآيات في ذيل الصحيفة قوله — « ومن الجهة الاخرى تجد في سورة البقرة قوله (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين) فالأقوال المتناقضة الكثيرة وغير المتلائمة الموجودة في القرآن لا يمكن التوفيق بينها ولعل السبب في ذلك هو ان تعاليم محمد كانت مبنية في الاكثر على الحوادث الجارية وعلى أحوال شخصية في حياته

« نعم ان محمدا انما أشار في طعنه على الكافرين بوجه خاص الى الوثنيين الذين أقاموا في زمنه في شبه جزيرة العرب ولكن الذين فسروا القرآن بعد ذلك جعلوا تلك المطاعن موجهة الى المسيحيين واليهود وهذا الذي يفهمه الآن جم غفير من المسلمين . أليست كلمة الغازي وهي اسمى لقب يطمع باحرازه أي ضابط في جيش السلطان معناها : من يحارب في سبيل الاسلام والبطل الشجاع الذي يذبح كافراً ؟ ألا نجد ان كل عالم ألقى الخطبة في الجامع يستنزل غضب الله على رءوس غير المومنين بصراحة واضحة في كل زمان وبصراحة تزداد كثيراً عند وجود ظروف تضرم شعلة التعصب ؟ . ألا يجب أن تعتبر كل بلاد غير اسلامية ,, دار حرب ،، فمتى علمنا ان مثل هذه المبادئ ما برحت تغرس في أذهان المسلمين كل القرون الماضية لا نجد باعثاً على الدهشة من نمو روح عدم التساهل فيهم »

ثم قال بعد الامتنان على المصريين باعطاء الانكليزي لهم ما لا طيانهم وترقيته لعقولهم وآدابهم :

« ومع ذلك فان المسلم المصري — مع انه يكره الباشا التركي ويخافه الى حد أنه يدرك الفوائد التي أجزلها له الانكليزي ويعترف بسمو مداركه وكفاءته — فهو على كل ذلك لا يقدر أن ينسى ان الانكليزي يلبس على رأسه برنيطة وهو يلبس طربوشا أو عمامة . ومع انه يقبل المنافع بمزيد الارتياح فهو يذكر دائماً ان اليد التي منحتها ليست يد مسلم وهذا الامر يؤثر في نفسه أكثر من كون الانكليزي

القرآن والعلم

٣

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

المسألة الثامنة

(موت سليمان)

قال الله تعالى « ٣٤ : ٤ فلما قضَينا عليهِ الموتَ (أي على سليمان) مَا دلهم على موتهِ إلا دابةُ الارضِ تأكل مِنسأتَهُ فلما خرَّ تبيَّنتِ الجنُّ أن لو كانوا يعلمونَ الغيبَ مالبثوا في العذابِ المهينِ » إعلم انه كثيرا ما يحدث ان الانسان إذا لحقه الموت فجأة عقب انفعال عصبي ومجهود جسماني يحصل له تيبس في الحال في جميع اجزاء جسمه بحيث يحفظ بعد وفاته هيئته وشكل جسمه قبل المماتويبقى على هذه الحالة من بضع ساعات الى يومين فأكثر وخصوصا اذا كان الجو باردا وتسمى هذه الحالة في كتب الطب باللغة الانكليزية Cadaveric Spasm اي تيبس الموت

ولذا يشاهد في بعض الحروب ان بعض العساكر يموت ويبقى واقفا مستندا على بندقيته كأنه حي الى ان يبتدأ التعفن في الجثة فتزول يبوستها وتسقط

فالظاهر ان سليمان عليه السلام كان واقفا بعد مجهود جسماني عقلي مستندا على عصاه (منسأته) ففاجأه الموت فحصل له مايحصل لغيره وبقي قائما كأنه لم يمت

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

ثم ان الديانة المسيحية تنشط الفنون وتستفيد منها وأما الديانة الاسلامية فانها تكسر الصور والتماثيل وهي تحرم الصور وصناعة النقش والنحت اذا كانت تمثل شخصا حياً واما الموسيقى فلا يسمع لها صوت في جامع

«قد يكون المسيحي نظيفا بعض الاحيان اعتقادا منه ان النظافة نافعة لصحته وراحته وعنده ان النظافة تلي التقوى ولكنه لا يوجد جامعة بين الامرين وأما المسلم فهو نظيف على شكل معين لان دينه يأمره بذلك

«ثم انظر الآن الى صفات الفريقين العقلية والادبية تجد الفرق بينهما ظاهراً»

ثم بين فروقا آخرى بين المصري والأوربي والغربي والشرقي تحتمل المناقشة ولكنه لم يستنبطها من الدين فتركها له الا قوله في انصاف الاسلام :

« وعلى ذكر الشرقي وصفاته ورقة قلبه أقول ان ما يزعج السائح في مصر من معاملة الحيوانات بقساوة لا يزيد على مايرونه في جنوبي أوربا ولعلها كما قال «لاين» في سنة ١٨٣٥ ليست غرسا منتظم النمو ولكنها ناشئة عن معاشرة الطبقات السافلة من الأوربيين فان الدين الاسلامي يوصي بالحيوان خيرا فقد قال بوسورث سميث : لا يوجد دين اهتم بحياة الحيوان أعظم من اهتمام الدين الاسلامي به فقد ورد في القرآن (٦:٣٨ وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)

وكما انصف في هذه جار وظلم في أخرى بعدها لكن عن سوء فهم لا سوء قصد فقد ذكر قدرة الاوربي على التنظيم واخضاع الحوادث ومناقشة الرؤساء ثم قال : « فقابل هذه المزايا بما في الشرق من الضعف في التنظيم واعتقاده بالقضاء والقدر الذي يجعله قابلا لما لا بد منه . وكذلك خضوعه لكل سلطة تتولى اموره »

ثم استشهد على ذلك بمثل حادثة « مفتحجي » سكة الحديد التي ذكرناها في اول القسم الاول من الرد عليه . وذكر ايضا انه سأل شيخ الازهر هل يعلمون الطلبة فيه ان الشمس تدور حول الارض ام العكس فاجاب بانه لا يدري . قال اللورد « وقد منعه أدبه الطبيعي عن التصريح لي برأيه في الكافرين كيلر وكوبرنكوس وتعاليمهما » الخ

(للكلام بقية)

ولكنه لم يلبث الا قليلا ورجع الى الله يستغفره على مافرط منه ويرجوه العفو عن عدم رضائه بما قضاه تعالى وقال « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي » اي حيث إنك لم ترزقني بمن يرثني في هذا الملك فوسعه علي وزدني سلطانا ومتعني بما لا يصل اليه أحد من الملوك بعدي حتى تعوضني بذلك ماحرمتني من النسل الصالح فاستجاب الله دعاءه وسخر له الريح وسلطه على الجن والانس والطير وبعد ذلك رزقه الله تعالى أيضا بمن يرثه (وهو ابنه رحبعام) ولكنه كان ضعيف العقل سيء التدبير رديء السياسة حتى خرجت عليه عشرة من اسباط بني اسرائيل ووقع الانقسام بينهم في عهده

فما تقدم تعلم أن قوله تعالى « وألقينا على كرسيه جسدا » معناه ذاك المولود الناقص وهو أول من رُزقه وقال ألقيناه على كرسيه لأنه بمنزلة ولي عهده كما يقولون الآن وتقول العرب « ألقي الليلة على كرسي الفرس مولود » مثلاً اذا رزق كسرى بالولد الذي يرثه فى ملكه ويجلس على كرسيه من بعده

وهذا التفسير هو الذي كان يفهمه العرب من هذه الآية ولذلك ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها ما يقرب منه ولولا حشو مفسرينا الاسرائيليات في تفسير الكتاب العزيز ما فهم أحد منها خلافه فاحذر مما قالوه ولا تعبأ به فانه مثار الشبهات كثيرة

﴿ المسألة العاشرة ﴾

(اللؤلؤ والمرجان)

قال الله تعالى (٥٥ : ١٩ مرج البحرين يلتقيان ٢٠ بينهما برزخ لا يبغيان ٢١ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢٢ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) فقال كثير من الناس إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر المالح ولا يوجد منهما شيء في البحر الحلو

واعلم أن اللؤلؤ يخرج من كثير من الانهار ويوجد في بلاد أوستراليا أنهار مشهورة باستخراج الصدف واللؤلؤ منها وهاك اسماء بعضها :

نهر هنتر Hunter وكلارنس Clarence وكوك Cook's وكليد Clyde

شاهدت الجن انه لا يبدي حراكا ولا يظهر عليه أنه يتنفس لعدم تحرك صدره فداخلهم شك في حالته وربما اجتمع على وجهه الذباب فلم يطرده عنه فازداد شكهم ثم دخلت فارة (وهي من دواب الأرض) وأخذت تلعب حوله وأخيرا بدأت تقرض عصاه والجن الى ذلك ينظرون فيتعجبون ولكنهم خافوا أن يتركوا أعمالهم المكلفين بها أو أن يظهروا شكهم في حياته ولبثوا على هذه الحالة مترددين بضع ساعات او يوما او يومين

فلما حركت الفارة العصا التي أخذت تقرضها عن موضعها قليلا اختل التوازن فسقط على الارض وبذا أيقنت الجن أنه كان ميتا وان اشتباههم كان في محله · ولو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا لحظة بعد وفاته قائمين باشغالهم الشاقة ولعرفوا الوفاة حين حدوثها بلا تردد · ولفظ لبث يستعمل في الزمن القليل والكثير كقوله تعالى (٢ : ٢٥٩ قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام)

فهذا هو التفسير الصحيح لهذه الآية الذي ينطبق على العلم ولا يوجد في تاريخ سليمان ماينافيه

﴿ المسألة التاسعة ﴾

(الجسد الذى القي على كرسي سليمان)

قال الله تعالى (٣٨ : ٣٤ ولقد فتنا سليمانَ وألقينا على كُرسِيِّه جسداً ثم اناب ٣٥ قال رب اغفر لي وَهب لي مُلكا لاَ ينبغي لاحدٍ من بعدِي إنك أنت الوهابُ » معنى هذه الآية ان سليمان لما ورث أباه داود في ملكه سأل الله ان يرزقه ولدا ليرثه من بعد موته وليبقى الملك في نسله فاختبره الله تعالى ولم يجب دعاءه في اول الامر الا باعطائه ولدا ناقص الخلقة (كأن يكون لارأس له ولا مخ أو نحو ذلك مما يحصل أحيانا لبعض المولودين) ولما كان هذا المولود أقرب الى الميت منه الى الحي المدرك سماه الله جسدا كأنه لاروح له فلما وجد سليمان أن من رزقه الله ليخلفه في كرسيه عدمه خير من وجوده ضجر وتألم ولم يشكر الله على كل حال

أو الفراغ المحيط بنا القريب منا وهو المزين بالكواكب وأما ما وراءه من الفراغ اللانهائي فليس به زينة ولا شيء وجعلناها رجوماً للشياطين بانقضاض الشهب منها لاهلاكهم كما في قوله (٣٧: ١٠ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)وهذه المسألة لا يوجد في العلم الطبيعي الآن ما يصدقها ولا ما ينفيها وغاية الأمر أنها غير معروفة له فنحن نصدقها لإتيان النبي الصادق بها وقد ثبتت نبوته عندنا بالبراهين القاطعة كما أوضحناه في مقالات الدين في نظر العقل الصحيح

وقوله (٦٧ : ٢ خلق سبع سماوات طباقاً) المراد به الأجرام السبعة العلوية المشهورة التي كانت تعرفها العرب وتراها بأعينها وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل . وإنما خص هذه السبعة بالذكر لأنها أكبر ما تعرفه العرب وأكبر ما تشاهده وإلا فالاجرام السماوية العظيمة أكثر من سبعة

وليس في القرآن الشريف ما يدل على الحصر . على أن بعض علماء اللغة قالوا إن العرب إذا أرادت المبالغة في العدد تأتي بلفظ سبعة وما ركب منها كالسبعين والسبعمائة واستشهدوا على ذلك بنحو قوله تعالى في وصف جهنم (١٥ :٤٤ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) فان المقام مقام تهويل لا يناسبه إلا ذكر العدد الكبير . وإن لم يكن لجهنم سوى هذه الأبواب السبعة اقتضى المقام عدم ذكر العدد هنا بالمرة لقلته فلو لم يكن لفظ السبعة يستعمل عندهم في مطلق الكثرة لما ذكره هنا ولذلك قال أئمة المفسرين في مثل هذه المواضع ان العدد لا مفهوم له ومثل ذلك قوله تعالى (٣١: ٢٧ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)

قد يقول قائل ما بالك تذكر هنا في تفسير السموات السبع القمر والشمس مع أن القمر تابع للارض والشمس هي مركز العالم والسيارات تدور حولها ومنها أرضنا هذه . ونقول إن هذه المسائل الفلكية لم يتعرض لها القرآن هنا في مثل هذه الآية وغاية ما ذكره أن الله خلق سبع سموات طباقاً وقلنا إن الاجرام التي خلقها الله هي عالية بالنسبة لنا فهي سموات وهي سبع طباق بعضها فوق بعض بالنسبة لنا أيضاً فلا دخل

وغيرها وهي موجودة في ولاية ويلز الجنوبية الجديدة New South Wales من أوستراليا

﴿ المسألة الحادية عشرة ﴾

(السماء في القرآن)

. السماء من سما أي ارتفع فالسماء في اللغة كل مرتفع فسقف البيت سماء والسحاب سماء والكواكب سماوات والفراغ اللانهائي الذي فوق رءوسنا هو سماء أيضاً وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الشريف بعدة معاني تعرف من السياق وتفسر في كل مقام بحسبه وإن اشتركت كلها في معنى الارتفاع والسمو . وكذلك يوجد في اللغة العربية ألفاظ كثيرة تستعمل في معاني مختلفة لا يعينها إلا السياق . مثلا لفظ نجم يستعمل في الكوكب وفي النبات فمثال الأول (٥٣: ١ والنجم إذا هوى) ومثال الثاني (٥٥: ٦ والنجم والشجر يسجدان) والمقام هو الذي عين كلا من المعنيين ويسمى هذا النوع من الالفاظ بالمشترك

إذا عرفت ذلك فاعلم ن لفظ السماء إذا ورد في القرآن يجب أن يعرف معناه من المقام ويجب أن لا يحمل في جميع المقامات على معنى واحد مثلا في قوله تعالى (١٦: ١٠ أنزل من السماء ماء) معناه السحاب . ولذلك قال في آية أخرى (٢٤: ٤٣ ألم تر أن الله يُزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله كاما فترى الودق (أي المطر) يخرج من خلاله) الاية وفي قوله (٢٢: ١٥ فليمدد بسبب الى السماء) يعني سقف البيت وفي قوله (٥٥: ٧ والسماء رفعها ووضع الميزان) معناه الكواكب والألف واللام هنا للجنس وكذلك في قوله تعالى (٥٠: ٦ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) أي جعلنا أجزاء كل منها متماسكة ثم هي في مجموعها متجاذبة بعضها إلى بعض كالبنيان يشد بعضه بعضا (وزيناها) بأن جعلنا أشكالها جميلة مستديرة وان بعضها مع بعض لها منظر بهيج ثم أضأناها بالانوار الذاتية أو المنعكسة عليها من غيرها (ومالها من فروج) أي شقوق فلا ترى كوكباً منها به كسور أو منشقة أجزاؤه أو متفرقة فهو كتأكيد لقوله بنيناها وفي قوله تعالى (٦٧: ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) السماء الدنيا معناها الجو

...ـالت واضطربت فمعنى الآية أن الله أثقل الارض بالجبال لمنعها من الميدان والتزلزل الدائم وذلك أن الجبال بوجودها في بعض الجهات جعلت ثقل الارض في جميع الجهات متساويا بالنسبة الى المركز فاذا دارت الارض حول مركزها لا يحصل أدنى اضطراب فيها ولو كان بعض جهاتها أخف من البعض الآخر لشعرنا بالاهتزاز يوميا من حركة الارض حول محورها . وأيضاً فان الجبال بثقلها العظيم على الارض وبما امتد من قواعدها من الشعب الصخرية كونت طبقة حجرية عظيمة تقي ما بين الجبال من الوديان من انفجار باطن الارض الملتهب ونسف قشرتها أو زلزالها الدائم ولا يخفى أن أغلب الاراضي المسكونة انما هي في الحقيقة وديان بين جبال . فلولا الجبال لتوالت الزلازل ، ولما هدأ للبشر جميعا بال ، ولما كان حدوث الزلازل نادرا كما هو الآن وحاصلا لبعض البشر دون بعض

وقوله « والجبال أوتادا » هو كقوله بعده « وجعلنا الليل لباسا » أي كاللباس في الستر . فالمعنى أن الجبال كالاوتاد المغروسة في الارض واذا لاحظنا أن الارض تجذبها من جميع نقطها الى مركزها كما تشد الاوتاد بالحبال المربوطة بها أدركنا ما بينهما من الشبه العظيم وفهمنا نكتة هذا التشبيه . وكما شبه الله تعالى الجبال هنا بالاوتاد كذلك شبه الاهرام المصرية بها في قوله « ٨٩ : ١٠ وفرعون ذي الاوتاد »

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾

(تفسير آيات عدم صلب المسيح)

قال الله تعالى (٤ : ١٥٧ وقولهم – أي اليهود – انا قتلنا المسيح) قالوا ذلك تهكما والمسيح معناه عندهم الملك لانهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت عند توليتهم وسمي عيسى مسيحا لانه كملك روحاني استولى على قلوب الناس ونفوسهم وخلصهم من عاداتهم الرديئة ومن أسر التقاليد والاوهام والعقائد السخيفة ورقى نفوسهم وأصلح أمورهم فهو كالملوك العظام الذين كانوا يأتون اليهود فيخلصونهم من الأسر والبلايا ويرقون شؤونهم ككورش ملك فارس الذي تقدم ذكره وكانوا يسمونه هو وغيره من الملوك النافعين لهم بالمسيح وكانوا يتوهمون ان المسيح سيأتي ويرد

ذلك في كون بعضها تابع لغيره (١) فان هذه المسائل لا علاقه لها بتفسير الآية كما لا يخفى على ذي عقل

ويستعمل لفظ السماء في اللغات الافرنجية أيضاً في عدة معاني مختلفة ففي الانكليزية لفظ Heaven قد يراد به السحاب أو الجو أو الذات العلية أو الجنة أو غير ذلك والمقام هو الذي يعين هذه المعاني المختلفة كما هو المعهود في اللغة العربية

(المسألة الثانية عشرة)

(الارض والجبال)

قال الله تعالى (٦٥:١٢ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمرُ بينهن) وقال (١٦:١٥ وألقى في الأرض رواسيَ أن تميد بكم) وقال (٧٨:٧ والجبال أوتادا)

لم يذكر في القرآن أن الأرض سبع الا في الآية المذكورة هنا ولم يذكر فيه مطلقا لفظ الأرض بالجمع ولا في الآية السابقة . بخلاف السماء فانها ذكرت بالجمع في أكثر المواضع فالظاهر أن الأرض شيء واحد ولكنها ذات طبقات سبع فلذا قال هنا « ومن الارض (بالافراد) مثلهن » أي في العدد وهي كونها سبعا وفي كونها طباقا ويجوز أن تكون طبقاتها أكثر من سبع وإنما خص هذه بالذكر لكونها الطبقات الاصلية أو الاساسية فان الآية لاتدل على الحصر فلا مانع من أن يكون بعض هذه الطبقات الاصلية مركبا من طبقات أخرى وقد يكون لفظ سبع لامفهوم له ومستعمل هنا للدلالة على الكثرة فقط كما بيناه سابقا في مسألة السموات

وقوله « وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم » تميد من مادت السفينة أي

---

(١) حاشية — من تذكر أن لكثير من السيارات توابع كالقمر بالنسبة للأرض وهذه التوابع أو الاقمار تضيئها فَهِمَ معنى قوله تعالى (وجعل القمر فيهن نورا) فان الالف واللام هنا تصح أن تكون للجنس لا للعهد والمعنى أن الله جعل الاقمار أنوارا تضيء بها السموات

الظن كما في الحادثة التي سبقت ولذلك اختلفت طوائف النصارى قديماً وحديثاً في هذه المسألة واختلف فيهاما وجدعندهم من الكتب كما بيناه في موضع آخر . ولوكانت حادثة الصلب يقينية لما وقع فيها ما وقع من الاختلاف بينهم

(وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) أي إنه لم يقتل ولكن توفاه الله ورفع روحه إليه وأسكنها عنده في جنات النعيم، كما قال في آية أخرى (٣:٥٥ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا) وكقوله تعالى حكاية لقول المسيح عن نفسه في الآخرة (٥:١١٧ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) فالرفع هنا روحاني معنوي وكذلك ورد الرفع في القرآن في مواضع كثيرة في الامور المعنوية . قال تعالى (٢:٢٥٣ ورفع بعضهم درجات) وقال (٧:١٧٦ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض) فمعنى الآية انهم لم يقتلوه ولكن الله هو الذي قبضه إليه بدون أن تصل إليه أيدي الاعداء بالسوء ورفع روحه إلى جنته واسكنه بجواره وذلك كله على حد قوله في مواضع أخرى (٣ : ١٦٩ ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) أي تتمتع أرواحهم في الجنة . وقوله (٥٤:٥٤ إن المتقين في جنات ونهر ٥٥ في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فكل هذه العبارات « كعند الله » و « رفعه الله اليه » ونحوها مستعملة في معانيها المجازية لا الحقيقية

فالظاهر أن المسيح عليه السلام ذهب الى جهة من الجهات أو جبل من الجبال فتوفاه الله هناك ولما ذهبوا ليقبضوا عليه وجدوا شخصاً يشبهه فاغتروا به فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ولعل هذا الشخص هو يهوذا الاسخريوطي وكان يقصد خيانة المسيح وان يقبض عليه ويسلمه فوقع فيما كان يدبره لسيده فاشتبهوا فيه وأخذوه أخذا وبيلا وأما المسيح فكان قد توفاه الله وأنجاه من مثل هذا العذاب

وذهاب بعض الانبياء الى بعض الجبال ووفاتهم بها امر معهود كما وقع لموسى عليه السلام (راجع سفر التثنية ٣٤ : ١ — ٦)

ثم قال الله تعالى (٤ : ١٥٨ وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) اي ان كل شخص من اهل الكتاب لابد عنده

لهم مافقدوه من المجد والسلطان (عيسى) تعريب لفظ يشوع ومعناه المخلص وهو علم مشهور عند اليهود وسمي به كثيرون قبل المسيح بينهم كيشوع خليفة موسى عليهما السلام وكانوا يتفاءلون بهذا الاسم ويرجون ان يكون لهم بشرى خير لخلاصهم مما كانوا فيه من الرزايا والمصائب (بن مريم . وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم) أي اشتبه عليهم الامر فأخذوا واحدا يشبهه ظانين أنه هو المسيح وصلبوه وقتلوه . واعلم ان وجود اشخاص متشابهين في الخلقة أمر مشاهد معروف وقد يكون الشبه تامًّا بحيث يخدع به اهله وذووه فما بالك اذا كان القابضون على المسيح ما كانوا يعرفونه ولا الذين حاكموه ولا الذين حضروا تنفيذ الحكم فقد فرّ تلاميذه من حوله وهربوا وكل ذلك صريح في نصوص العهد الجديد .

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على انه كثيرا مايحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الاشخاص ويشتبهون عليهم بغيرهم وقد ذكر «جاي» و«فرير» مؤلفا (كتاب اصول الطب الشرعي) في اللغة الانكليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدا لمعرفة شخص يدعى «مارتين جير» فجزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون انه غيره والباقون ترددوا جدًّا ولم يمكنهم ان يبدوا رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محاطا باقاربه وأصحابه ومعارفه لمدة ثلاث سنوات وكلهم مصدقون أنه مارتين ولما حكمت المحكمة عليه لظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا آخرون فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة انه غيره وتردد الباقون وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩ في فرنسا وأمثالها كثير

وقد بلغ شبه بعض الاشخاص لغيرهم أن وجد فيهم بعض مايوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور او الجروح او آثارها وغير ذلك حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض ولذلك جدّ الاطباء في وضع مميزات لاشخاص البشر المختلفين

فاذا كان الأمر كذلك فهل في حادثة المسيح ادنى غرابة ؟

ثم قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع

قريبا) وغلو المسيحيين في بعض معتقداتهم وتأليههم لنبيهم لاينافي انهم مؤمنين به فلذا وصفهم الله تعالى بالايمان في هذه الآية كما وصفهم به في آيات أخرى كقوله تعالى (٥٧ : ٢٨ ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) الآية . فلا منافاة بين الغلو في العقيدة و بين اصل الايمان " (للمسائل بقية)

باب المناظرة والمراسلة

٤

﴿ بحث العمل بالحديث وبحث التواتر ﴾

يقول حضرة الدكتور : أنا لا أنكر ما للأحاديث من الفوائد ثم قال ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ولا يلحقها بالقرآن الشريف ـــ الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص)

ونقول ان الله جل شأنه ارسل رسلا اوجب على عباده تصديقهم واتباعهم في كل ما أرسلوا به وليس من شرط الرسول ان يأتي بكتاب من عند الله ـــ و بعبارة اخرى لم يقل احد من العقلاء بعد ثبوت رسالته انه يجب على الله ينزل عليه كتابا يقرأه او كلاما يتلوه بلفظه ـــ بل عرفوا الرسول بأنه بشر أوحي اليه بشرع وامر بتبليغه سواء كان التبليغ والبيان بالقول ام بالفعل على ان القول مقدم على الفعل ومعرفة الشرع بالقول اكثر منه بالفعل والله جل شأنه لم يخصص طريقا ولا طرقا معينة لحملة الشرائع في تبليغها الى من نأى و بعد مكانا او زمانا ولم يذكر في موضع ما من اي كتاب من كتبه ان من رد ما بلغه من الدين بغير تواتر معذور ولم يقل ذلك احد من رسله او ممن يعول عليه من أتباعهم بل لم يشترط ذلك احد من البشر في شؤون دنياهم الاجتماعية

وانما مدار ذلك والله اعلم هو حصول التصديق بالنسبة الى خصوص من بلغه خبر ولم يقصر في البحث عن صحته وصدقه فحين تصديقه لا يجوز له رده وهذا هو

وفاته ان تتضح له الحقيقة فيؤمن بالمسيح كما جاء به القرآن وليس معناه انهم يؤمنون به عند نزوله يوم القيامة كما هي عقيدة النصارى فان الآية صريحة في أن كل شخص منهم سيؤمن به وأما عند نزوله فلا يؤمن به الا الذين يحضرونه وهو خلاف نص الآية

واعلم أن المسلم لا يجب عليه الايمان بانه سيجيء يوم القيامة والظاهر أن هذه عقيدة سرت من النصارى إلى المسلمين . ولم يأت بها القرآن . والأحاديث لا يؤخذ بها في العقائد الا اذا تواترت وليس في هذه المسألة حديث متواتر

واما قوله تعالى (٤٣ : ٦١ وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمتَرُنَّ بها) فمعناه إنه لدليل على قدرة الله على البعث فان الذي خلقه بلا أب والذي أحيا الموتى على يديه قادر على احياء الموتى يوم القيامة . وهذه الآية كقوله (٢١ : ٩١ وجعلناها وابنها آية للعالمين

ولقائل ان يقول إذا كان المسيح مات وتفرق تلاميذه من حوله بسبب أعمال اليهود وكانوا قليلي العدد فما معنى قوله تعالى (٦١ : ١٤ يا ايها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . ونقول اما في عصر المسيح عليه السلام فقد كانوا مؤيدين بقوة اليقين والايمان ظاهرين على أعدائهم بالحجة والبرهان وبما يظهره الله تعالى على يده من المعجزات والآيات البينات وأما بعد وفاته فقد سلط الله الرومانيين علي اليهود فشتتوهم في اقطار العالم وخربوا مسجدهم المقدس ولم يصب المسيحيين في أثناء ذلك أدنى أذى ثم صاروا ينتشرون في الارض ويزداد عددهم شيئا فشيئا حتى دخل قسطنطين في المسيحية وصارت ديانتهم هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية وبذلك تم لهم الظهور على اعدائهم اليهود ولا يزالون كذلك الى الآن كما قال تعالى (٣ : ٥٥ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة)وانما عبر تعالى بالفاء في قوله (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) مع ان ظهورهم الماضي لم يظهر الا بعد مضي سنين طويلة لان سنيننا هنا هي عند الله كلحظات (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) (انهم يرونه بعيدا ونراه

الآحاد كفر وكذلك من انكر ماهومعلوم من الدين بالضرورة ولم يكن قريب عهد الاسلام اونشأ بعيداً عن العلماء كفر وان لم يكن منقولا بالتواتر المعروف عند التواترية نحن لا ننكر ان بعض أنواع التواتر يفيد العلم ولكن ننكر انحصار العلم الخبري فيه أو فيما باشر الشخص سماعه كما انا لا نسلم ان ماهو متواتر عند اناس يلزم ان يسلم تواتره الآخرون ·

ان من رمى التقليد جانبا وتبرأ من التعصب المشوم وجعل الحق مطلبه والانصاف رائده ونظر في أقوال العقلاء من هذا النوع البشري نظر الناقد البصير علم علماً لا يعتريه شك ان كل ما وجد عندهم من الحق فهو مطابق أو مأخوذ مما جاء به المعصومون عليهم الصلاة والسلام ، عن الخلاق فاطر الأنام ، وحيث كان غرضنا في هذا المقام تحقيق الخبر المسند الى رسول الله (ص) ومايجب قبوله ومالايجب نقول

العلم والطرق المؤدية إليه

الناس تكلموا على العلم وعلى الطرق المؤدية اليه فمنهم من شدد وضيق فلم يجعل إلى العلم سبيلاً غير ما أدركه بأحد حواسه وهذا مع كونه اهمالاً لأفضل ماامتاز به الانسان في اعلامدارج انسانيته هو تعطيل لجميع الارتفاقات والتعاون على تحصيل أنواع العلوم المختلفة المواضيع اذ من المحال ان يقوم الفرد بتحصيل جميع العلوم التي قد حققها وعرفها جميع البشر — فهؤلاء المضيقون غاية معتقدهم تعرية الانسان عن أكثر العلوم والقضاء عليه بالوقوف دون مصاف كثير من الحيوان والبهائم لما عرف من ان إحساس بعضها أقوى من احساس الانسان · ومن نتائج مذهبهم المشئوم ضياع وانحلال عرى التضامن الاجتماعي وارتفاع الوثوق من بين افراد الناس في أشد ضروراتهم — ولذلك ترى هؤلاء المضيقين من أكثر الناس تناقضاً في علومهم وأقوالهم وأفعالهم لأنه من المستحيل عليهم التزام مذهبهم الفاسد ومن تتبع علومهم وأقوالهم وأفعالهم في جميع شؤونهم وجدهم على جانب بعيد وفي غاية المناقضة لما أصلوه مما ذكرناه عنهم

ومن الناس من وسع بعض التوسعة لكنه أنكر حصول العلم من طريق الوحي

الذي دل الشرع والعقل عليه وعليه اتفق اهل الملل قاطبة وهذا مما نجلّ حضرة الدكتور عن مخالفته

بعث الله رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة وهو لا يأمر بالمحال ولا يكلف نفسا الا وسعها فلو أوجب على الامم تبليغ كل مسئلة من شرعه بالتواتر وعلى المبَلَّغين رد غير التواتر لكان ذلك تكليف ما لا يطاق مستلزماً للاشاة الاديان، ومعطلا لسائر المواصلات ومعاملات بني الانسان، والله منزه عن ارادة ذلك فبطل اشتراط التواتر لنقل مسائل الدين

دل القرآن على ان من جاءته الحجة عن الله بتوسط رسله وردها جحدا أو مكابرة أو بماشا كل ذلك ودا ناه فقد كفر بالله وبرسله واستحق العقاب وشديد العذاب

ومن بلغته الحجة عن رسول من رسله حين وجوب طاعته في خصوص تلك المسئلة من طريق لا يردها في جميع شؤونه ولا ينكر صحتها بعد البحث والتنقيب ثم ردما جاء عن الرسول بتلك الطريق تشهياً فلا شك انه معاند ومكابر ومنابذ لطاعة ذلك الرسول وسواء كانت هذه الطريق متواترة او آحادية

فقول حضرة الدكتور ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ـ يعني الاحاديث الصحاح الآحادي ولو كانت مشهورة ومستفيضة ـ ثم قوله « الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص) » يدل بل هو ظاهر في ان من انكر واجباً من الشرع فهو كافر ولذلك احتاط في انه لا يكون الشيء واجبا الا اذا نقل بالتواتر. والحق ان التواتر ليس شرطاً في وجوب الخبر كما ان من أنكر ما دل عليه التواتر قد لا يكفر في بعض الصور بل قد لا يكفر من انكر بعض الواجبات عند غيره كما قد عرفت ان الحصر الذي ذكره غير مسلم وذلك لأن الشيء قد يكون متواتراً عند شخص دون شخص وقد يختلف معنى التواتر وشرائطه عند أناس دون أناس بل التواتر عند بعض الناس لا يفيد العلم وعند بعضهم في بعض صوره وعلى قول الجمهور يمكن ان يوجد تواتر في أمر مّا ويعسر على بعض الناس معرفته وتحقق وقوعه في ذلك الامر بل يمكن ان يوافيه حمامه، قبل ان يبلغ من ذلك مرامه، والحق ان من انكر ما عرف وجوبه من دين الاسلام وصار ذلك معلوماً له ولو بخبر

يقبله في بقية شؤونه الدنيوية ولا يجوز له اتباع هواه والتشهي والترجيح بلا مرجح لم يوجب الله علينا معشر المسلمين التقيد بما اسس بعض الناس بل نهانا عن التقليد واتباع الآباء وأوجب علينا النظر فما وافق ديننا الذي هو الدين المستحيل مخالفته للعقل الصحيح قبلناه وليس من العدل ان نترك مالدينا من الحق ونقتصر على مالدى المخالفين وان دل عليه ديننا اما ما خالف ديننا فلا شك انه مخالف للعدل والعقل

وليس في الدين ولا في القرآن ولا في الحديث الصحيح ما يناقض ما دل العقل الصحيح عليه (١) ومن زعم ذلك فعليه البيان نعم في الدين اشياء لم تستعد بعض العقول لإدراكها وسببه ماقدمناه من تضييق بعض الناس وسد اكثر ابواب الطرق المؤدية الى العلم فاذا كمل لبعض الناس استعداده العقلي وصار انسانا بالمعنى الذي خلق لاجله فلا شك انه يدرك معلومات لا يكمل العقل الا بادراكها فعلى من لم يأت هذه البيوت من أبوابها ان يسأل اهل العلم (للكلام بقية)

شكر المنار على تأبين ذكاء الملك

رسالة جاءتنا من العالم الاديب بدائع نكار ميرزا فضل الله البيهقي مدرس العلوم الادبية في مدرسة طهران السياسية - ورغب الينا ميرزا محمد علي خان نجل صديقنا (رحمه الله) ذكاء الملك ان ننشرها في المنار فنشرناها شاكرين للاديبين فضلهما وهي

هو

جدير ان يوذّن في المنار ... معارف عنونت في المنار (٢)
وكنا في محاق الجهل دهرا ... بغرته سلخنا من سرار
سأجعل شكر منشئها دثاري ... واجعل مدحه ابدا شعاري

(١) المنار : صرح بهذا شيخا الاسلام ابن تيمية وابن القيم وتصديا لبيانه بما كتبه الثاني في أعلام الموقعين من التفصيل البديع (٢) لعل الأصل « معارف عنونت باسم المنار » او « عنونت في ذا المنار » فسقط لفظ « ذا » سهوا

وهؤلاء هم الزنادقة المنكرون لوجود واجب الوجود أو المنكرون للنبوات وهؤلاء يؤول انكارهم الى تنقيصه تعالى شأنه المؤدي إلى نفيه المؤدي الى المحال في الضروريات والقدح في المشاهدات وكون الشيء فاعلا لنفسه أومفعولاً لغيرفاعل

ومن الناس من طلب الحق وتبين له فساد قول هؤلاء وهؤلاء واجتهد في طلب الصواب فسلم بأكثر الطرق المؤدية الى العلوم لكنه أهمل بعضها لاشتراطه لها شروطاً يعسر أو يتعذر وجودها وهذه عدوى سرت اليه من مخالطة من تقدم ذكرهم من الملحدين السابق ذكرهم

فمن اشترط في وجوب قبول الوحي أي الشرع أو اعتبار الاخبار مطلقاً المشافهة والسماع أو بلوغه بالاجماع عملاً أو التواتر فقد نصب في طريقه العقبات، واقام دونه سد المحالات، وشرع في الدين مالم يأذن به الله" ونحن نسأل حضرة الدكتور هل تشترط ذلك في جميع العلوم التي يشتغل بها الناس وفي جميع مايتعلق بشؤونهم الاجتماعية أم لا تشترط ذلك إلا بخصوص بلاغ الاحكام والمسائل الدينية ؟ انا لا أظن انه يلتزم ذلك في الأول ولئن التزمه فالواقع والمشاهدة ترده وهي أعدل حكم بل يلزمه من التناقض ما لزم المضيقين السابق ذكرهم

إذا بطل في الاول اشتراط ذلك ففي الاديان كذلك لما قدمنا من تلازم القدر بالشرع فلا فرق يعتد به

وعليه فالذي دلت عليه الكتب والشرائع السماوية ـ وهوما عليه عامة البشر « فطرة الله التى فطر الناس عليها » - هو أن من ثبت لديه بخصوصه صحة خبر وصدقه وجب عليه قبوله وهو في حقه علم حين تصديقه (١) اللهم الا ان يكون الخبر ينتج ضررا على احد والمخبر معلوم فسقه فيجب التبين والتروي حتى يظهر وينكشف حال ذلك الخبر وكذلك من بلغه الخبر عمن لا يعلم حاله والامر ماذكرناه وجب عليه التنقيب فان صح لديه ذلك الخبر من الطرق الذي يصحح بها مثله وجب عليه قبوله كما انه

---

(١) هذا ماقررناه في الرد على الدكتور صدقي (ص ٩٢٦ م ٩) وقد ذكرناه منذ ايام في ذلك فرأيناه مال الى ترك اشتراط التواتر لان النبي كان يرسل الآحاد دعاة وعمالا فيقبل الناس منهم

ويقيمه على تثقيف الاود من العجم والعرب ، وأن يجعل كتابي هذا عنده مقبولاً ، لا مردود علي مبذولاً ، وأنهي الى تلك الحضرة العالية من أدينا ذكاء الملك بن الذكاء ، أزكى واوفى الثناء ، اختم كتابي معتذرا بذلك الخطاب

لا تنكرن وان اهديت نحوك من　　علومك الغر وأدابك التقا
فقيّم الباغ قد يهدي لمالكه　　برسم خدمته من باغه التحفا

العبد فضل الله بن داود البيهقي المدعو ببدائع نكار
للسدة السنية العلية والعتبة البهية الرضوية على راقدها آلاف الثناء والتحية

البرهان الصريح ، في بشائر النبي والمسيح

(عليهما السلام)

بعونه تعالى سننشر كتاباً فيه بشائر النبي والمسيح عليهما السلام منها للنبي عليه السلام وأمته من نبوة اشعيا ص ٤٠ عدد ٣ وص ٤١ عدد ٢ و ٢٥ وص ٤٢ عدد ١ – ١٦ ونبوة دانيال ص ٢ و ٧ و ٩ الوارد فيها ختام النبوة والحساب من حرب ادريانوس ملك الرومان لليهود سنة ١٣٢ وانتهاء المدة سنة ٦٢٢ وهي سنة الهجرة والاذن بالفتح والجهاد ونبين فيه صحة الترجمة في مواضع منها في التكوين بشأن سيدنا اسماعيل ص ١٦ عدد ١٢ « انساناً وحشياً » قال العالم الاسرائيلي الترجمة انسان بري (يسكن البرية) يده في الكل ويد الكل فيه ولفظه العبراني يبرى آدام أي آدم بري ويده في الكل المراد به سيدنا محمد عليه السلام لانه من اسماعيل ، وفي مزمور ٨٠ عدد ١٧ وابن آدم الذي اخترته أي نبينا ابن أسماعيل عليهما السلام لانه سمي اسماعيل آدم ، وفي التكوين من قول الرب للخليل ص ٢١ عدد ١٣ وابن الجارية أيضاً اجعله أمة لانه نسلك والاصل العبراني أن نسلك هو ولفظه « كي زرعخاهو » اي انه هو زرعك وفيها للمسيح عليه السلام « وخلق الرب له من غير اب » من نبوة ارمياص ٣١ عدد ٢٢ خلق الرب شيئاً حديثاً في الارض انثى تحيط برجل وفي الشروح ان هذا في المسيح وتأييد نبوة ارمياهذه في القرآن الشريف من سورة آل عمران وفي نبوة اشعياص ٤٩ المختصة بالمسيح يحكى بالوحي مايكون للمسيح وفيها ان له مجيئين والاصل العبراني لها عدد ٥ قال الرب جابلي من

وما أنا في رفع خبري الى حضرة مولاي أدام الله بقاءه ابتداءا ، ونصب وجوه أملي لشمول عواطفه رجاءا ، قبل التعرف اليه ببعض المعارف ، والتقرب اليه بطرائف اللطائف ، الا كطالب الإيناس قبل الابساس ، والماتح بلا اسباب وامراس ، ولكني اجلّ سيدي من ان يحتاج العبد الى تقرب به بالوسائل ، ويمتّ اليه بذرائع القبائل ، لان داعي فضله على المنار جهارا ، يدعونا الى نار قراه ليلا ونهارا ، فلا ألام على ذلك الاقدام ان لبيت دعوته ، وصليت قبلته ، وأتيت ناره ، ويممت داره ،

قبيلٌ بممبج مأواه ونائله   في الشرق يسأل عمن نيله سيلا

على اني من آل داود ، ومن عاملي الشكر معدود ، وكيف لا أشكر من مولاي نعمه التي أحيت القلوب ، واماتت العيوب ، وحسّن منا الاخلاق ، وعلق علينا الاعلاق ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ، ورداه عنهم برد الثناء ،

* ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب *

قد وقفت على خاتمة الجزء الثاني عشر من المنار في مدرسة السياسة من طهران ، بعد ما وقفت على فاتحة المجلة في خراسان ،

تنورتها من أرض طوس واهلها   بيثرب أدنى دارها نظر عالي

وقفت على تأبين الفقيد الفريد ذكاء الملك اطاب الله ثراه فأخذني من الأسف ماجربي إلى التلف

فقدنا ذكاء الملك لابل سماءه   وما حال ملك زال عنه ذكاؤه

فقدناه لو ان يفتدي لفديته   ولكن قضاء الله حتم مضاؤه

مضى رحمه الله وأصمى على قلوبنا سهام الهموم ، وأحمى على اكبادنا مكاوي الغموم ، فلولا خلفاه الصالحان ، وفرعاه الباسقان ، وثمراه اليانعان ، وقمراه الطالعان ، لما صبرنا على هذه الرزية ، بل هلكنا من سطوات تلك البلية ؛ ولكن بحمد الله ومنه

وفي الحيّ بالميت الذي غيب الثرى   فلا الملك مغبون ولا الموت غابن

فها انا مع عقدة لساني ، وعجمة بياني ، وضيق باعي ، وقلة متاعي ، ونقصان بضاعتي ، وكلالة يراعتي ، أشكر من مولاي أدام الله بقاءه تأبينه على فقيدنا ذكاء الملك طاب ثراه ، واسأل الله ان يديم ظلال عواطف مولاي على رءوس أهل الأدب ،

وفي نبوة حزقيال ص ٣٧ عد ٢٤ سمي المسيح داود ونبوة زكريا ص ١٢ و١٣ تمت في يهوذا المكابي واخيه يوناثان

وموجود بلد اسمها سامره «شمرون بالعبراني» قبل دخول بني اسرائيل الارض كما في سفر يشوع ١٢ : ٢٠ وفي آثار توتمس الثالث وجود يهود بفلسطين قبل دخول بني اسرائيل

احمد ترجمان

باب الأخبار والآراء

نادي دار العلوم

لا يجهل أحد من المتعلمين في مصر، ان أهل نادي دار العلوم هم عماد النهضة العلمية العربية في هذا العصر، وسيكونون بعد اجتماع شملهم بهذا النادي أنفع للبلاد، واقدر على القيام بأعباء التعليم والارشاد،

فتحوا باب البحث في التعريب والترجمة فأفادوا ما افادوا . ثم فتحوا باب البحث في مسألة الربا عند ما اشتدت العسرة المالية وزعم كثير من الناس أن المسلمين لا يمكن ان يحفظوا ثروتهم ويجاروا غيرهم في الارتقاء الا اذا تعاملوا بالربا وانشأوا المصارف (البنوك) المالية . وان الدين اذا كان يمنعهم من كل ما يعرف عندهم بالربا فهو لا يوافق مصالحهم الاقتصادية والسياسية في هذا العصر

خطب غير واحد من اعضاء النادي ومن غيرهم في الربا فكانت خطبهم ينابيع للفوائد النقلية والاجتماعية والاقتصادية . وقد سلك كل واحد منهم مسلكاً أثار فيه المسألة من بعض جهاتها كما فعلوا في مسألة التعريب والترجمة ولم يتصد منهم أحد للكلام فيها من جميع الوجوه الا الرئيس في خطبة الختام . وقد ألقى صاحب هذه المجلة (المنار) كلمات وجيزة في ذلك أدمجناها في التفسير من هذا الجزء ولم يكن بحث كل خطيب في الموضوع من بعض الوجوه عجزاً عن سائرها وإنما كان ذلك هو المجلي للمسألة والمقرب للصواب من الافهام

ثم بحثوا في مسألة الزواج والعادات في الخطبة والاحتفال في العرس فأجادوا وافادوا

البطن عبداً له لارجاع يعقوب فيضم اليه اسرائيل وثم ترجع بني اسرائيل كما في عدد ٤ أما انا فقلت عبثاً ولمجيئه الثاني عد٦ قال سهل ان تكون لي عبداً لتقيم اسباط يعقوب ورد محصوري اسرائيل واجعلك نوراً لامم لتكون خلاصي الى أقصى الارض. ثم أكد ذلك في عد٨-١٣ وفي عد٦ «واجعلك» قالوا بدلها فقد جعلتك . وما ذكر في اعمال الرسل ص١٣ عد ٤٧ خلاف الاصل العبراني أيضاً لان رسالته كانت لبني اسرائيل ونبوة ميخاص ٥ عد ٣ و٤ تؤيد ان له مجيئين كنبوة اشعيا هذه ص ٤٩ وتؤيدها أيضاً نبوة اشعيا ص ١١ التي هي لمجيئه الثاني لان فيها يرفع راية الامم ويجمع بني اسرائيل من أربعة أطراف الارض وهذا معنى ماورد في نبوة اشعيا ص٤٩ عدد٦ لتكون خلاصي الى أقصى الارض اي خلاص بني اسرائيل كما في ص ١٢ من نبوة اشعيا أيضاً المتممة لص ١١ وهذا في آخر الايام كما في نبوة هوشع ص ٣ عد ٥ ونبوة اشعياص ٤٩ تؤيد مجيء المسيح بمجيئه الاول قبل انتهاء تسلط اليهود على الشعب في ارض فلسطين كما في عد ٧ والرب يحميه منهم كما في عد٣ «في كنانته اخفاني» وعد٨ «وحفظتك» وقد قلعت اليهود من أرض فلسطين سنة ١٣٢ ثم لما دخل الاسلام صاروا في حماه .

ومنها في نبوة اشعيا ص ٥٣ عد٨ « انه ضرب من أجل ذنب شعبي» والاصل «ضربة لهم» ولفظهم بالعبراني «لاموا» لان الكلام في الشعب الذين اخذوا البابل وحضروا منها والنبي ارميا بين كثيراً منه في مراثيه وفي عد ١٠ «فسرّ» والاصل فارادو في عد ١٠ أيضاً «ان جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلا» ولم يكن في الاصل العبراني لفظ ذبيحة والكلام في الشعب لانه ذكر يرى نسلا وفي مزمور ٢٢ عد١٦ : ثقبوا يديّ والاصل «كأسد يديّ» مع انهم اعترفوا في كتبهم باعتماد الاصل العبراني والمسيح ايد نبوات الانبياء كما في انجيل متى ص٥ عد١٧ ولم يؤيد التواريخ . ونبين في الكتاب بعض الآثار المصرية والاشورية التي تؤيد التواريخ الاسلامية الصحيحة ونذكر نبذة في فضائل الاسلام ونطلب منه تعالى العون في البدء والختام

(تنبيه) في نبوة اشعيا ص٤١ عد٢٥ «أنهضته من الشمال» وقبل وضع الحركات التي وضعت بعد قرون كان ينطق بها « أنهضته من مخبأه» وهو الغار وعلى وضع الحركة قام نبينا « ع م» من الشمال وهي المدينة شمال مكة ودخل مكة شرقاً والكلام في مساكن قيدار كما يأتي وفي ص ٤٢ عد ١١ ذكر مساكن قيدار وفي عد ١٣ «خروج الرب كرجل حروب» اشارة للجهاد وقيدار ابن اسماعيل كما في التكوين ص ٢٥ عد ١٣

« ياأخت هارون » وردانهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم حديث صحيح

المستعدين ، فلا نعيد هـذه الصورة وان أمنت العلة الآن ، سداً للذريعة ولو في مستقبل الزمان، بل أقول أيضا ان العلة غير مأمونة في هذه الأيام ، لا سيما عند جماهير العوام ، فلو نصبت التماثيل و بنيت الهياكل الخاصة لبعض القبور، فانها لا تلبث ان تصبغ بالصبغة الدينية بمصر و يتبرك بها او يعبدها الجمهور، وأستدل على ذلك بأقوال دعاتها وافعالهم جاء في مقال « باحثة البادية » ما نصه

« والعامة من أهل مصر بل بعض الخاصة لهم ولع فائق بزيارة الاضرحة واعتقاد راسخ بنفع اصحابها حتى انك لو دفنت حماراً و بنيت له ضريحا وقبة لزاره عدد من الناس يتبركون به وهم يعلمون انه حمار فاذا كان الامر كذلك في الحمار فكيف به في الرجال وكيف به في عظمائهم » اه

ونحن نقول مع الباحثة ان عظماء الرجال يكونون أجدر بهذا التعظيم والتبرك وهذا ما يحرمه الاسلام و يعده معارضاً للتوحيد

ذكر باحثة البادية من الرجال الذين تقترح نقل عظامهم للمدفن الجديد محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين فنقول كيف نأمن ان تعظم اضرحتهم تعظيما دينيا بعدان يتخذ لها مكان خاص يقصد بالزيارة والاول منهم إمام من ائمة الدين وداع من دعاة القرآن ومحام عنه وعن السنة ، واقوى خاذل في عصره للبدعـة ؟ كيف نأمن ذلك والثاني منهم على كونه ليس من رجال الدين في العلم ولا في الارشاد، وليس له مقالة تؤثر في الكتاب ولا في السنة ،ولا في الدفاع عن أصول الاسـلام وعقائده ، ـ قد نحله أشياعه جميع الالفاظ التي يعظمون بها ائمة الدين وأولياءه كقولهم: فقيد الاسلام، رضي الله عنه ، قدس الله سره ، قدس الله روحه. بل قرن بعضهم ذكره بذكر الانبياء وكاد بعضهم يفضله عليهم. وذكر أخوه الصغير في مناجاة ناجاه بها ان روحه مشرفة على العرش يعني انها فوق عرش الرحمن ! ! وذكر اخوه الكبير من أنباء ولادته نحو ماروي في ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من أنه ولد طاهراً مختوناً ، وجعله بعضهم ثاني النبي (ص) في عظمته وكلامه كالانجيل والقرآن. وقال فيه شوقي شاعر الامير

او كان للذكر الحكيم بقية   لم تأت بعد، رثيت في القرآن

هذا وهو يعلم ان القرآن الحكيم لم ينزل منه شيء في رثاء الانبياء والصديقين،

البدع والخرافات والتقاليد والعادات

اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر

نشر في « الجريدة » اقتراح بناءمدفن لعظماء الرجال بمصر تنقل اليه عظام من مات منهم ويدفن فيه من سيموت من بعد

نشر هذا الاقتراح بتوقيع « باحثة بالبادية » وماهو الا خيال باحث في الحاضرة او تمني متفرنج في العاصمة قد استعجل جداً بهدم تقاليد قومه الدينية ونقلهم من مبادي التقاليد الأور بية الى غاياتها

لا أنكر ان بعض العلل التي بني عليها الاقتراح له وجه نظري معروف لمثله وضعت الامم الوثنية من قبل التماثيل والنصب و بنت القبور وشرفتها، وعظمت هذه الآثار الماثلة حتى عبدتها، ولكن كان إثمها اكبر من نفعها، وشرها اكثر من خيرها، ولذلك هدمها الاسلام وحرم نصب التماثيل وتشييد القبور وتشريفها كما في حديث علي كرم الله وجهه في صحيح مسلم وغيره « لاتدع تمثالا الا طمسته ولا قبرًا مشرفا الا سوّيته »

ربما قالت باحثة البادية او باحث الحاضرة ان الاسلام ما فعل ذلك الا ليطمس رسوم الوثنية حتى لا تنازع التوحيد في سلطانه على النفوس وهـذه العلة مأمونة في هذا العصر « عصر المدنية والنور عصر المادّية والعلوم » واذا انتفت العلة انتفى المعلول

لقد قال مثل هذا القول أحد طلاب علم الحقوق من أولاد علماء الدين ونشره في المؤيد ردًّا على من انكر نصب تمثال لمصطفى باشا كامل وسكت له الجمهور على ذلك ولكنهم لم يكونوا بسكوتهم مذعنين

ما أسهل تفنيد هذه الشبهة على الاعتراف بصحة ما قيل من سبب تحريم الاسلام للتماثيل والنصب والقبور المشرفة!! لا اكتفي بأن أقول ان هذه شعائر وثنية منع الاسلام صورتها لأنها تذكر بمعناها ولو بعد حين ، ويخشى ان تعيد روح الوثنية الى نفوس

الفصل السابع(*)

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ماألفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لاتزال أسراره موضوع التفكر ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب . كيف لا وهو السر الاعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع ، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك . فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم . وايما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بدًّا من ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا لاحظّ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كَبُرت سبةً أن يكون قوم «خديجة» على مايظن هؤلاء الذين لا يتاآلف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكَبُر منا تقصيراً ان لا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يميزوا اسرار الخليقة نظرةً تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ، ويجدهو فيهم أهله الكرام

(*) من سيرة السيدة خديجة

بل كل ما قال في شأن موت من أنزل عليه وهو خاتم النبيين ، (٣٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون ٣١ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أي انك يا محمد تموت وهؤلاء المشركون الذين قالوا (٥٢ : ٣٠ نتربص به ريب المنون) يموتون أيضاً وتختصمون جميعاً عند الله تعالى . وقال (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم؟) الآية وقد نزلت عندما افتتن بعض المسلمين فانهزموا في وقعة أحد اذ صاح صائح « قتل محمد »

أفرأيت من يغلو فيه الناس ذلك الغلوّ الذي أشرنا الى قليل مما قرأناه فيه ونحن لم نقرأ الا أقل ما كتب — وسكتنا عما سمعنا من بعض غلاة المارقين وما روي لنا عن بعضهم من مثل قولهم انه كان افضل من الانبياء وانه نفعنا اكثر مما نفعنا الاسلام! — أيستغرب ان يعظم تمثاله وقبره تعظيماً دينيا ؟ ؟

فيا أيها المتفرنجون أربعوا على ظلعكم وخففوا السير واتئدوا بهذه الأمة المسكينة فان مصابها عظيم والخطر الذي يحيط بها أعظم فلا تستعجلوا بهدم ما بقي لها من العقائد والآداب والاحكام الدينية وأنتم لم تبنوا لها ديناً ولا شريعة أخرى أحسن مما جاء به الإسلام ، ولا تستطيعون ان تحفظوا بقية الممالك التي فتحها لكم الاسلام ،

إذا فرضنا ان ما ترمون اليه بالتماثيل ونقل عظام الموتى الى أضرحة عظيمة يزيد في تعظيم أصحابها والتبرك بهم والاقتداء بسيرتهم هو مما يفيد في ترقيتها وفرضنا انه لا يقوي نزعة الوثنية فيها فدعوه الآن لمجرد نصوص أئمة المذاهب التي تنتمي اليها الأمة في تحريم نبش الموتى وتحريم نصب التماثيل مطلقاً وخذوا بالأمة إلى أسباب العزة والقوة التي لا خلاف فيها شرعاً ولا عقلاً وهي كثيرة لا يكاد يدعو اليها داع ، وقلما يجمع لها مال أو يؤلف لها اجتماع ،

أليست المدارس العلمية والدينية ، والكتب التاريخية والفنية ، والجمعيات الخيرية والدينية والادبية ، هي انفع من القبور والتماثيل الوثنية ، فلماذا لا تبذلون لها المال ، وتدعون الى تعميمها في البلاد ، أليست مدرسة مصطفى كامل افضل ما يعزى اليه من الاعمال ، فلماذا لا تبذلون لترقيتها ما جمعتم للتمثال ، أليست آثار الاستاذ الامام ، في اصلاح حال المسلمين والاسلام ، هي افضل ما يحيا به ذكره ، ويرغب في التأسي به ، فلماذا لا تبذلون المال لنشرها ، وتعميم النفع بها ؟ ؟

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أنّ هـذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيـه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا دبّر عديّ بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خلطَ صفرة في بياض　　مثلما حاكَ حائـك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبّهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لوناً فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر . وتشبيههم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هـذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجـدنا حب الجمال قد لطّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ما هو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم، وتناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ،ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعلّ من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعلّ هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان تجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ماذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً : البياض المشرب بحمرة اوالبياض الضارب الى صفرة . قال ذو الرمة احد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين المهرة ، التي لم يرعجها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر ، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كابريق الفضة ، ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقد ان شئت منهما الانامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها — الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها — وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، — فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

ويزين فوديها اذا حسرت　　صافي الغدائر فاحم جعد

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ　　والفرع مثل الليل مسودّ

وجبينها صلت وحاجبها　　شخت المخط أزج ممتد

وكأنها وسنى اذا نظرت　　أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الذين شغفهم الجمال المحسوس، ان يفهموا الجمال المعقول، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذاك ولم يعزّ عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش، والتنقل في المعتدل من الاقاليم، وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل.

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً تجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن، وجودة امعانهن، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال:

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرئ القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لافراط عزّه) وكانت ذات جمال فوجّه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلمّا رجعت قال لها الملك «ماوراءك ياعصام» قالت: رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك، ان أرسلته خلته السلاسل، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان

فما نعلم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً ، ولا أعمر حالاً ، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كلَّ يوم مُذَيقةً (١) وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الناس خِصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند المزاهز
وكم متمنٍّ عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، وإياه نسأل تمام النعمة »

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطةً من المعارف ، وقوةً في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدّهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه مالم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع ، بل اللائق

«١» المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

الفصل الثامن

ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة «خديجة» مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظّ من الثراء ايضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعلّ اباها نحلها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجّاراً، تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤدد، ومنافسة الاقرب والأبعد، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين. ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله: «بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه،[١] وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه، القت[٢] والهبيد[٣] والصليب[٤] والعلهز[٥] والذآنين[٦] والعراجين[٧] والضباب[٨] واليرابيع[٩] والقنافذ[١٠] وربما أكلنا والله القدّ[١١] واشتوينا الجلد،

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ - ٩ - ١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخلة

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر الى ذاك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه، فلأبناء هذه البراري أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عُواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لانفسهم ولجيرانهم انما هو في أن يخفّوا للتجارة لانها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن.

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقتةً في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مجَنّة » وهي موضع باسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّاً وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشرى له

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أنَّ ما أسعى لأَدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنّما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المُؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام ، وكلٌّ منهم له في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغني قومهم عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلّح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير [1] ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير [2] وكثيرون غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل المتاع من هذه البرية وإليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين

« ١ » تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاماً وحضرها مع اعمامه يهيئ لهم النبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومثر كبير وهو من فخذ بني جمح

« ٢ » أمية من فخذ بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي « ص » اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجنده حافظون، وزرّاع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجنده فعسى ان لا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدّ مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في إدراك شأو الأمم والا بتعاد عن البداوة من بعد ان أوشك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

بثمنها من أدم الطائف (١) مايحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتّى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأي بيادره فقال: لله در قيس في أي عش أودع فراخه: يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة «أم القرى»

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

(١) الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهما شيء كثير . من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أميـة قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوّ له في وطنه (مكة) أدّت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ماعليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أُحُد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلّت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغِنَى والغَناء ، والنعمة والهناء ، من درّها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن بعرها الوقود

منها البتة فهناك اودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فنهم من كان يبيع اللباس، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ،ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدورعليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الا كسية المعتادة ، وضروب الاطعمه والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة، والعقاقير المعروفة، والحيوانات المتداولة، والأسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذاك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التي تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليله ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لاننا لم نعهد لهم الى ذلك العهد وجها من وجوه المرابح ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والغراس ، والاراضي للمعدن ، .

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمىً وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التى هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم لشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القَبَلِيّة (منسوبة الى قَبَل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه أياها وأقطعه جبل قُدْس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التى كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التى كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فانّ ملك الارض والمعادن لا يزال ايضا ينبوعاً ثرورا للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني ان فائدته المادية كفائدته ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش « من بني عبد الدار رهط خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذاقدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة

للطبخ وكشف الظلماء ، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء ، [١] وبطونها أعظم بها واسطة للنماء ، فبعيشك أيها المطالع ! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعدُّ مالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بخلقتها ،

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من فخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نفدا ، وان تركتهما لم يزيدا ، ان أفضل المال برّة سمراء ، في تربة غبراء ، اوعين خرّارة ، في أرض خوّارة ، » أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المعدن فالظاهر أنّ بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعاً فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

---

(١) النجاء المرب

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النبّاش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وانما يفعل اغلب ذلك الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من ابي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور احياناً اسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لا نكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لا ندع شيئاً مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعد اذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا لذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

عظيما لثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش •

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من اجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التي كان لها ما للنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها ، وعلو همتها ، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الشافي لصاحبها الحائز على شهادة ديپلوما ووسامات الامتياز من الدولة العثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بعملها الكيماوي

غرش أميري (أسماء الادوية وبيان منافعها)

٢٠ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ومزيل للالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والقشف ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة

٠٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنه والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرماتزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامه المسببه من فقر الدم

٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال النفاويين ويزيل العقد الخنازيريه

١ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة معه

٢٠ كبسول بارزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزييد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٥ مسحوق الشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويظهر ناعماً لطيف اللمس من غير خطر

٥ لعوق صحي ضد الزكام ومزيل النوازل ومنعش للجسم

٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل المغص والمستودع العمومي بعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ص)

وان لنا – والحق يقال – حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممّن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونه ويجذبونها الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد » صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء امّ الحسنين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء

(الجزء السابع) رجب ١٣٣٦ - صدر في أوائل شعبان (المجلد الحادي عشر)

(قيمة الاشتراك)

عن سنة ستون قرشاً صاغاً في القطر المصري والقطر السوداني و ١٨ فرنكاً في الخارج و ١٥ شلناً في الهند و ٧ روابل في روسيا

(والدفع سلفاً)

المنار

١٣١٥

(تنبيه)

يجب ان يكون وصل الاشتراك مرقوماً عليه من منشئ المجلة ومختوماً بختم الادارة

الاشتراك في المجلة يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] أو منتصفها [رجب]

(مجلة شهرية)

تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

{ مصر الخميس ٣٠ رجب ١٣٢٦ — ٢٧ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٨ }

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٣٦:١٤٢) ام حَسِبْتُمْ ان تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعلمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعلَمَ الصَّابِرِينَ (١٣٧:١٤٣) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبلِ انْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَانْتُمْ تَنظُرُونَ (١٣٨:١٤٤) وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، افَإِنْ مَاتَ او قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى اعقَابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٣٩:١٤٥) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ انْ تَمُوتَ إلاَّ بِإِذنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنهَا، وَمَنْ

﴿ أثمان مطبوعات المنار مع اجرة البريد مضمونة ﴾

تفسير القرآن الحكيم الجزء الثالث ورق متوسط	٠١٢	٢٠
» » » » جيد	٠١٧	٢٠
» » الجزء الثاني » متوسط	٠١٤	٢٠
» » » » جيد	٠١٩	٢٠
» الفاتحة ومشكلات القرآن	٠٠٣	٢٠
انجيل برنابا مع مقدمته ورق متوسط	٠١٧	٢٠
» » » » جيد	٠٢٢	٢٠
شرح عقيدة السفاريني جزء ٢	٠٢٤	
أسرار البلاغة ورق متوسط	٠١٧	٢٠
» ورق جيد	٠٢٢	٢٠
دلائل الاعجاز »	٠٢٢	٢٠
محاورات المصلح والمقلد	٠٠٦	٢٠
شبهات النصارى وحجج الاسلام	٠٠٤	٢٠
الاسلام في نظر العقل الصحيح	٠٠٤	٢٠
تاريخ الاستاذ الامام (جزء المنشات) ورق متوسط	٠٢٣	
» » ورق جيد	٠٢٨	
» (جزء التأبين والمراثي) ورق متوسط	٠١٣	٢٠
» ورق جيد	٠١٧	٢٠
» (الجزآن معا تنقص قيمتهما قروش)	٠٠٠	

(تنبيه) هذه الأثمان لنسخ غير مجلدة ومن طلب شيئاً من هذه الكتب مجلداً فعليه أن يزيد أجرة التجليد خمسة قرش لكل جزء ماعدا الكتب الصغيرة وهي مايقل ثمنه عن عشرة قروش

بذلك لعلمه تعالى منكم وجازاكم عليه بالنصر والظفر في غزوتكم هذه وكان ذلك آية على انه سيجازيكم بالجنة في الآخرة ». وهذا المختار في معنى «أم» هو ماجرى عليه أبو مسلم الاصفهاني فقد قال الامام الرازي « قال أبو مسلم في « أم حسبتم » انه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت وتلخيصه · لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد وهو كقوله (٢٩ : ١ آلم ٢ أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون) وافتتح الكلام بذكر «أم» التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما لا بعينه يقولون : أزيدا ضربت ام عمرا ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما · قال وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيدا · فلما قال « ولا تهنوا ولا تحزنوا » فكأنه قال. أفتعلمون ان ذلك كما تؤمرون؟ أم تحسبون ان تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر ؟ اه المراد منه

وقد جرينا في هذا على ان نفي العلم هنا بمعنى نفي المعلوم، كنفي اللازم وارادة الملزوم ، وهو أحد الوجوه التي بيناها من قرب في تفسير « وليعلم الله الذين آمنوا» وهو الذي جرى عليه الكشاف هنا وقال هو « بمعنى لما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لانه منتف بانتفائه · يقول الرجل : ما علم الله في فلان خيرا · يريد ما فيه خير حتى يعلمه ·و « لما » بمعنى « لم » إلا ان فيها ضربا من التوقع فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل · تقول : وعدني ان يفعل ولما يفعل · تريد ولم يفعل وانا أتوقع فعله » اه وقد اعترضه من لم يفهمه حق الفهم · وقد تقدم ان النكتة في إيثار ذكر العلم وارادة المعلوم هي الاشعار بأن العلم إنما يكون علما صحيحاً بظهور متعلقه بالفعل · وهنا نكتة أخرى خطرت في البال وهي أن التعبير عن نفي ذلك بنفي علم الله به عبارة عن دعوى مقرونة بالدليل والبرهان كأنه قال إن كلا من الجهاد والصبر اللذين هما وسيلة الى دخول الجنة لما يقع منكم اي لم يقع الى الآن من مجموعكم او اكثركم بحيث صار يعد من شأن الامة (فلا ينافي ذلك وقوعه من بعض الافراد الذين ثبتوا مع النبي (ص) فلم يخالفوا ولم ينهزموا) اذ لو وقع لعلمه الله تعالى الذي لايخفى عليه شيء ولكنه لما يعلمه ذ،و لم يتحقق قطعا. ويؤيد تفسير الآية على هذا الوجه قوله تعالى في آية البقرة (٢ : ٢١٤ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل

يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّـٰكِرِينَ (١٤٦ : ١٤٠)
وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّـٰبِرِينَ
(١٤٧ : ١٤١) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَـٰفِرِينَ
(١٤٨ : ١٤٢) فَآتَيٰهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ،
وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

الكلام متصل بما قبله والخطاب فيه لمن شهد وقعة «أحد» من المؤمنين فإنه تعالى ارشدهم في الآيات السابقة الى انه لا ينبغي لهم أن يضعفوا ويحزنوا و بين لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطبق على سننه في مداولة الايام بين الناس وفي تمحيص أهل الحق بالشدائد وفي ذلك من الهداية والارشاد والتسلية ما يربي المؤمن على الصفات التي ينال بها الغلب والسيادة بالحق ثم بين لهم بعد هذا انسعادة الآخرة لا تنال ايضاً الا بالجهاد والصبر فهي كسعادة الدنيا باقامة الحق والسيادة في الارض سنة الله فيهما واحدة فقال ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وهذه الآية كالآية (٢١٤ : ٢١٠) من سورة البقرة (* والمعنى على الطريقة التي اختارها الاستاذ الامام هناك من ان «أم» للاستفهام المجرد أو للمعادلة انه تعالى يقول للمؤمنين بعد ذلك التنبيه والارشاد لسننه وحكمه فيما حصل المتضمن للوم والعتاب في مثل «ان كنتم مؤمنين» وقوله« ان يمسسكم قرح» الخ: هل جريتم على تلك السنن؟ هل تدبرتم تلك الحكم ؟ ام حسبتم كما يحسب اهل الغرور ان تدخلوا الجنة وانتم الى الآن لم تقوموا بالجهاد في سبيله حق القيام ، ولم تتمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن ، والجنة إنما تنال بهما ، ولا سبيل الى دخولها بدونهما ، لوقمتم

*) راجع ص ٣٠٢ — ٣١٢ من ج ٢ من التفسير

بعد ما بين تعالى للمؤمنين ان الفوز والظفر في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة لا يكونان بالاماني والغرور ، ولا ينالان بالمحاباة والكيل الجزاف، بل بالجهاد ومكافحة الايام، ومصارة الشدائد والاهوال، واتباع سنن الله في هذا العالم — و بعد ما بين لهم ان دعوى الايمان ودعوى الجهاد والصبر لا يترتب عليهما الجزاء بالنصر ودخول الجنة وانما يترتب ذلك على تحققهما بحسب علم الله المطابق للواقع لا بحسب ظن الناس وشعورهم — بعد هذا وذاك أرشدهم الى أمر واقع يظهر لهم به تأويل قوله تعالى « وليعلم الله الذين آمنوا » وقوله « وَلما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الخ وطريق الجمع بينه و بين شعورهم واعتقادهم قبل ذلك انهم لم يقصروا في الجهاد والصبر فيتعلمون كيف يحاسبون انفسهم ولا يغترون بشعورهم وخواطرهم فقال

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ الخطاب لجماعة المسلمين الذين شهدوا وقعة أحد . وقد ذكرنا في تلخيص القصة أن النبي (ص) كان يرى ان لا يخرج للمشركين بل يستعد لمدافعتهم في المدينة وكان على هذا الرأي جماعة من كبراء الصحابة و به صرح عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين وأن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج الى احد حيث عسكر المشركون ومناجزتهم هناك وان الشبان ومن لم يشهد بدراً كانوا يلحون في الخروج . لهذا قال مجاهد ان هذه الآية عتاب لرجال غابوا عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر ان يلقوه فيصيبوا من الخير والاجر مثل ما أصاب أهل بدر فلما كان يوم أحد ولى منهم من ولى فعاتبهم الله . وروي نحو ذلك عن غيره منهم الربيع والسدي . وروي عن الحسن انه قال بلغني ان رجالا من أصحاب النبي (ص) كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي (ص) لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك فلا والله ما كلهم صدق فأنزل الله عز وجل « ولقد كنتم تمنون الموت » الآية . فأطلق الحسن ولم يخص من لم يشهد بدراً وهو الصواب . فإن الذين كانوا يتمنون القتال كثيرون

قلنا ان هذه الآية اظهرت للمؤمنين تأويل قوله تعالى في ايمانهم وجهادهم وصبرهم وعلمتهم كيف يحاسبون انفسهم و يمتحنون قلوبهم . و بيان ذلك أنهم تمنوا القتال او الموت في القتال لينالوا مرتبة الشهادة وقد اثبت لهم هذا التمني واكده بقوله « ولقد»

الذين خلوا من قبلكم مستهم السراء والضراء) الخ اي والى الآن لم تصلوا الى حالهم ولم يصبكم مثل ما اصابهم وقد كانت حالهم تلك مثلا في الشدة . و وجه التأييد ان المنفي هناك هو العمل والحال التي يستحقون بها الجنة

ثم ان هذا يوافق احد الوجوه التي تقدمت في تفسير قوله « وليعلم الله الذين آمنوا » من حيث ان المراد بالذوات وصفها فالمعنى هناك وليعلم الله إيمان الذين آمنوا — وهنا — ولما يعلم الله جهاد الذين جاهدوا وصبر الصابرين اي واقعين ثابتين. ويصح ايضا ان يكون العلم هنا بمعنى التميز كما تقدم هناك في وجه آخر ويكون المعنى : أم حسبتم ان تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم

والجهاد هنا اعم من الحرب للدفاع عن الدين واهله واعلاء كلمته. قال الاستاذ الامام : ربما يقول قائل ان الآية تفيد ان من لم يجاهد و يصبر لا يدخل الجنة مع ان الجهاد فرض كفاية . ونقول نعم انه لا يدخل الجنة من لم يجاهد في سبيل الحق ولكن الجهاد في الكتاب والسنة يستعملان بمعناهما اللغوي وهو احتمال المشقة في مكافحة الشدائد ومنه جهاد النفس الذي روي عن السلف التعبير عنه بالجهاد الاكبر. وذكر من أمثلة ذلك مجاهدة الانسان لشهواته لاسيما في سن الشباب، وجهاده بماله، وما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق وقال : ان لله في كل نعمة عليك حقا وللناس عليك حقا واداء هذه الحقوق يشق على النفس فلا بد من جهادها ليسهل عليها اداؤها وربما يفضل بعض جهاد النفس جهاد الاعداء في الحرب فان الانسان اذا اراد ان يبث فكرة صالحة في الناس او يدعوهم الى خيرهم من اقامة سنة او مقاومة بدعة او النهوض بمصلحة فانه يجد امامه من الناس من يقاومه ويؤذيه ايذاء قلما يصبر عليه احد. وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم وما الخاصة في ضلالهم الا اصعب مراسا من العامة

ومن مباحث اللفظ في الآية ما تقدم بيانه من معنى أم ولما. ومنها أن قوله « ويعلم » منصوب بإضمار «أن» على أن الواو للجمع كقولهم: لا تأكل السمك وتشربَ اللبن. أي لا يكن أكل السمك وشرب اللبن معا. فالتقدير في الآية على هذا: أم حسبتم ان تدخلوا الجنة والحال انه لم يتحقق منكم الجمع بين الجهاد والصبر

بالموت الحرب لأنها سببه — وعد بعضهم تمني الشهادة المأثور عن كثير من الصحابة مشكلا لانه يستلزم انتصار الكفار على المشركين · ولا إشكال الا فى مخ من اخترع هذه العبارة فان الذي يتمنى الشهادة فى سبيل الله لا يلقي بنفسه الى التهلكة ولا يقصر فى الدفاع والصدام حتى يقال انه مكن الاعداء منه ومهد لهم سبيل الظفر بالمؤمنين وانما يكون أقوى جهاداً واشد جلاداً وأجدر بأن ينصر قومه ويخذل من يحاربهم · ثم انه لا يقصد لازم الشهادة من نقص عدد المسلمين أو ضعفهم. على أن هذا اللازم انما يتبع استشهاد الكثير أو الأكثر منهم ومن يتمنّ الشهادة فانما يتمناها لنفسه دون العدد الكثير من قومه

وقال الاستاذ الامام ان تمني الشهادة الذي وقع ليس تمنيا مطلقا وانما هو تمني من يقاتل لنصرة الحق ان تذهب نفسه دونه فاذا هو وصل الى ماينبغي من نصرة الحق واعزازه بانهزام أهل الباطل وخذلانهم فبها ونعمت وإلا فضل الموت في سبيل اعزاز الحق ورآه خيراً من البقاء مع اذلاله وغلبة الباطل عليه . وقال إن الخطاب لمن سبق لهم تمني الموت بعد ان فاتهم حضور وقعة بدر او الشهادة فيها لبعض من حضرها، ثم جاءت وقعة أحد فكان منهم من انكسرت نفسه في اثناء الواقعة ووهن عزمه ومنهم وهن وضعف بعدها عند ماندبهم النبي (ص) الى اتباع المشركين معه في حمراء الاسد . كأنه يقول : ياسبحان الله لقد كنتم تمنون الموت قبل ان تلاقوا القوم في الحرب فها انتم اولاء قد رأيتم ما كنتم تمنونه وانتم تنظرون اليه لا تغفلون عنه فما بالكم دهشتم، عند ما وقع الموت فيكم؟ وما بالكم تحزنون وتضعفون، عند لقاء ما كنتم تحبون وتتمنون؟ ومن تمنى الشيء وسعى اليه، لا ينبغي ان يحزنه لقاؤه و يسوءه، فقوله «وانتم تنظرون» للتأكيد لان الانسان يرى الشيء احيانا ولكنه لانشغاله عنه ربما لا يتبينه فاراد ان يقول انكم قد رأيتموه رؤية كان لها الاثر الثابت في نفوسكم لا رؤية من قبيل لمح الشيء مع الغفلة عنه وعدم المبالاة به · (قال) وقال بعض المفسرين ان الجملة مستأنفة اي ابصرتموه وانتم الآن تنظرون وتتأملون فيما رأيتموه وتفكرون فى علاقته بشؤونكم والذي يظهر هو صحة التأويل الاول. يعني انها مؤكدة. اقول وقد جرى صاحب الكشاف والبيضاوي وابو السعود على انها حالية وأن معناه

فلم يكن ذلك منهم دعوى قولية، ولا صورة في الذهن خيالية، بل كان حقيقة واقعة في النفس، ولكنها زالت عند مجيء دور الفعل، وهذه مرتبة من مراتب النفس في شعورها وعرفانها هي دون مرتبة الكمال الذي يصدقه العمل، وفوق مرتبة التصور والتخيل مع الانصراف عن تمني العمل بمقتضاه او مع كراهته والهرب منه — كما يتوهم بعض الناس انه يحب ملته او وطنه ولكنه يهرب من كل طريق يخشى ان يطالب فيه بعمل يأتيه لاجلهما، او مال يعاون به العاملين لهما، او يكون خالي الذهن من الفكر في العمل او البذل لاعلاء شأن هذا المحبوب او كف العدوان او الشر عنه، فهاتان مرتبتان دون مرتبة من يتصور انه يحب ملته ووطنه ويفكر في خدمتها ويتمنى لو يتاح له ذلك حتى اذا احتيج الى خدمته التي كان يفكر فيها ويتمناها وجد من نفسه الضعف فاعرض عن العمل قبل الشروع او بعد ان ذاق مرارته، وكابد مشقته، وانما المطلوب في الايمان ما هو أعلى من هذه المرتبة، المطلوب فيه مرتبة اليقين والاذعان النفسي التي من مقتضاها العمل مهما كان شاقا، والجهاد مهما كان عسراً، والصبر على المكاره، وإيثار الحق على الباطل، وقد تقدم في تفسير «وليعلم الله» وتفسير «وليمحص الله» من الآيتين السابقتين أمثلة تزيد المبحث وضوحاً

وقد كان فى مجموع المخاطبين بالآية عند نزولها من هم في المرتبة العليا وأولئك هم المجاهدون الصابرون الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثبات الجبال لاثبات الابطال وهم نحو ثلاثين رجلا وقد ذكرنا أسماء بعضهم فى تلخيص القصة. وانما جعل الخطاب عاماً ليكون تربية عامة فان أصحاب المراتب العلية يتهمون أنفسهم بالتقصير فيزدادون كمالاً .

فهذه الآية تنبه كل مؤمن الى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمني والتشهي وتهديه الى امتحان نفسه بالعمل الشاق، وعدم الثقة منها بما دون الجهاد والصبر على المكاره فى سبيل الحق، حتى يأمن الدعوى الخادعة، بلهَ الدعوى الباطلة، وانما الخادعة ان تدعي ما تتوهم انك صادق فيه، مع الغفلة أو الجهل بعجزك عنه، والباطلة لا تخفى عليك، وانما تظن انها تخفى على سواك .

والظاهر من تمني الموت انه تمني الشهادة في سبيل الله وقال بعضهم ان المراد

أمانا . وقال قوم من المنافقين لو كان نبياً لماقتل ارجعوا الى إخوانكم والى دينكم . وفي رواية ابن جرير عن السدي « وفشا في الناس ان رسول الله (ص) قد قتل فقال بعض اصحاب الصخرة (اي الذين فروا الى الجبل فقاموا على صخرة منه) ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لنا أمنة من ابي سفيان ، ياقوم ان محمداً قد قتل فارجعوا الى قومكم قبل ان يأتوكم فيقتلوكم » وقال انس بن النضر ما يأتي عن قريب . واما المؤمنون الصادقون الموقنون فمنهم من ثبت معه ومن كان بعيدا فرجع اليه . منهم أبو بكر وعلي وطلحة وأبو دجانة الذي جعل نفسه ترسا دونه فكان يقع عليه النبل وهو لا يتحرك .

قال ابن القيم في بيان حكم هذه الوقعة هذه الآية كانت مقدمة وارهاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر ان توبيخ الذين ارتدوا على اعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي (ص) فقد ارتد من ارتد على عقبيه وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم . ولا ينافي هذه الحكمة كون الوقعة كانت قبل وفاته (ص) ببضع سنين — لأن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة — فان توطين نفس الأمة الكبيرة على الشيء واعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهور بل لا بد فيه من زمن يكفي لتعميمه فيها وصيرورته من الامور المسلمة المشهورة عندها حتى لا يغيب عن الاذهان

وحاصل المعنى ان محمدا ليس الا بشرا رسولا قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا وقد قتل بعض النبيين كزكريا ويحيى فلم يكن لاحد منهم الخلد وهو لا بد ان تحكم عليه سنة الله بالموت فيخلو كما خلوا من قبله اذ لا بقاء الا لله وحده ولا ينبغي للمؤمن الموحد ان يعتقده لغيره ، أفئن مات كما مات موسى وعيسى ، او قتل كما قتل زكريا ويحيى ، تنقلبون على اعقابكم ، أي تولون الدبر راجعين عما كان عليه ؛ يهديهم الله بهذا الى ان الرسول ليس مقصوداً لذاته فيبقى للناس وإنما المقصود من ارساله ما أرسل به من الهداية فيجب العمل بها من بعده ، كما وجب في عهده ، ولله در انس بن النضر ورضي عنه فانه في تلك الساعة التي زاغت فيها الابصار والبصائر ، واشتد الكرب حتى بلغت القلوب

رأيتم الموت ناظرين الى وقوعه بكم ، واغتياله لاخوانكم ، متوقعين ان يحل بكم ماحل بهم » قال جماعة وهوتو بيخ لهم على تمنيهم الموت وإلحاحهم على النبي (ص) بالخروج الى الحرب .والصواب انه تذكير لمن انهزم وعصى منهم بان ما سبق من تمنيهم الموت لم يكن عن رسوخ ويقين وتفضيل للشهادة ولقاء الله على الحياة وانما كان فيه شائبة من الغرور والزهو، وارشاد تو بيخي لهم ولامثالهم الى أن يحاسبوا انفسهم و يطالبوها بالكمال الذي تأتي فيه الاعمال مصدقة لخواطر النفس وتمنياتها كما تقدم شرحه .

بعد هذا بين الله تعالى حكمة أخرى من اعظم الحكم المتعلقة بغزوة أحدوهي إشاعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم وما كان من تأثيرها في المسلمين وما كان يجب ان يكون—وقد ذكرنا تفصيل ذلك في القصة قبل الشروع في تفسير الآيات التي نزلت فيها — فقال : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟ ﴾ الخ

تقدم أنه اشيع عند ما فرق خالد جمع المسلمين في أحد أن النبي (ص)قد قتل . وقال بعضهم في سبب ذلك انعمر بن قميئة الحارثي (١) لما رمى الرسول بالحجر فشج رأسه وكسرسنه اقبل يريد قتله فذب عنه مصعب بن عمير صاحب راية المسلمين يومئذ حتى قتل فظن أنه قتل النبي (ص) فقال: قتلت محمدا . فصرخ بها الصارخ حتى سمعها الكثير من المسلمين وفشت في الناس فوهن أكثر المسلمين وضعفوا واستكانوا من شدة الحزن . وقال بعض الضعفاء ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا من أبي سفيان

(١) تقدم في ملخص القصة تسميته عمر بن قمئة ـ وصوابه عمرو بن قميئة ـ وقد صرح بذلك بعضهم ومنهم شارح القاموس عند ذكر اسمه في المتن وفي بعض الكتب عبد الله بن قميئة و بعضها ابن قمئة وفي سيرة هشام « عن ابي سعيد الخدري ان عتبة بن ابي وقاص رمى رسول الله (ص) يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وان عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته وان ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في جبهته »

تستضيئوا بالنور وتتقلدوا سيف البرهان اللذين جاءكم بهما محمد واما مايصيب جسمه من جرح أو ألم، وما يعرض له من حياة أو موت، فلا مدخل له في صحه دعوته، ولا في إضعاف النور الذي جاء به ، فلا معنى اذاً لتعليق ايمانكم بحياته أو سلامة بدنه مما يعرض له من حيث هو بشر مثلكم ، خاضع لسنن الله كخضوعكم

أقول قد غفل عن هذا من أهمل هداية القرآن من المسلمين (جنسية لا إذعانا ومعرفة) فتراهم اذ ساء اعتقادهم في رجل كأن خالف تقاليدهم او انكر عليهم اهواءهم يتربصون به الدوائر فاذا أصابته مصيبة زعموا ان الله تعالى قد انتقم منه حبًّا لهم و بغضا فيه ! فان كان مع ذلك متهما بالانكار على من يعتقدون صلاحهم وولايتهم قالوا انهم قد تصرفوا فيه !! و يغفلون عما أصاب النبي في أحد وما أصاب كثيراً من الأنبياء قبله ، بل يعمون عما يصيب معتقديهم وأولياءهم في عهدهم. لما حبس الاستاذ الامام في عاقبة الثورة العرابية قال بعض هؤلاء المغرورين انه حبس كرامة للشيخ عليش لأنه اي الشيخ عليشا كان يكرهه . فبلغه ذلك وكان الشيخ عليش محبوسا أيضاً فقال : لماذا أكون حبست كرامة له ولم يكن هو الذي حبس كرامة لي لانه أساء بي الظن وقال السوء لتصديقه فيَّ الوشاة النمامين وانا لم أقل فيه شيئا ? السبب في حبس كل منا واحد فلماذا كان كرامة لواحد وانتقاما من الآخر ؟

ولا يخفى على المؤمن العارف ان هذا الاعتقاد يعارض التوحيد الخالص ولذلك كان من المقاصد في الآية والحكم في سببها تقرير التوحيد ببيان ان انبياء كسائر البشر في الخضوع لسنن الله ونظام خلقه. قال الاستاذ الامام في بيان مزايا الاسلام من رسالة التوحيد ما نصه :

«ثم أماط (أي الاسلام) اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم، والمصائب التي يرزؤن بها، ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فاما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ربما لا يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع

الخناجر ، وقال بعض الضعفاء والمنافقين ماقالوا ، قد قال « ياقوم ان كان محمد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ماقاتل عليه محمد (ص) اللهم إني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء » ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل

قال في الكشاف : « والانقلاب على الاعقاب الإدبار عما كان رسول الله (ص) يقوم به من امر الجهاد وغيره وقيل الارتداد وما ارتد احد من المسلمين ذلك اليوم الا ما كان من قول المنافقين . ويجوز ان يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله (ص) وإسلامه » وقال الاستاذ الامام ان كلمة « انقلبتم على اعقابكم » من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الاقبال عليه والأحسن ان تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة اليه بعض المنافقين ، والارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الاعداء وتأييد الحق . وهذا هو الصواب

قال تعالى ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ لأنه وعد بأن ينصر من ينصره ويعز دينه ويجعل كلمته هي العليا وهو منجز وعده لا يحول دون إنجازه ارتداد بعض الضعفاء والمنافقين على أعقابهم فانه يثبت المؤمنين ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص وبهم يقيم دينه ولذلك قال ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ له نعمه عليهم بالقوى العقلية والجسدية وبالايمان والهداية ، القائمين بحقوقها في حياة رسوله وبعد موته على حد سواء ، يأتون في كل وقت ما يمكن الاتيان به ، لا يألون جهداً ، ولا يقصرون في شيء عمداً ، إذ لم يكن عملهم لوجه الرسول فيبطل اذا غيبه الموت عنهم ، وانما هو لوجه الله ذي الجلال والاكرام وهو لا يموت ولا يزول

الاستاذ الامام : في هذه الآية إرشاد لنا الى ان لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق فان من الجائز عقلاً والواقع فعلا ان يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا ، وان يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا ، كما ان عكس ذلك جائز وواقع . وتعلمنا أيضا ان لا نعتمد في معرفة الحق والخير على وجود المعلم بحيث نتركهما بعد ذهابه أو موته وانما نعتمد على معرفتهما والتحقق بهما والسير على منهاجهما في حال وجود المعلم وبعده . فالله تعالى يقول عليكم ان

يتبعها من الاعمال الجليلة ، كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ، و يشق الفلك ببكائه ، وهو ولع باهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا » اه

* * *

أقول وفي الآية من الهداية والارشاد أيضا انه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب وعدمه متعلقا بوجود القائد بحيث اذا قتل ينهزم الجيش او يستسلم للاعداء بل يجب ان تكون الاعمال والمصالح العامة جارية على نظام ثابت لا يزلزله فقد الرؤساء . وهذا ما عليه نظام الحروب والحكومات في هذا العصر وقد كان أكثر الناس في العصور القديمة تبعا لرؤسائهم يحيون لحياتهم ويخذلون بموتهم حتى انهم يرون ان وجود الجيش العظيم بعد فقد القائد كالعدم

ان الامة التي تقدر هذه الهداية حق قدرها تعدّ لكل علم تحتاج اليه ولكل عمل تقوم مصالحها به رجالا كثيرين فلا تفقد معلما ولا مرشدا ولا حاكما ولا قائدا ولا رئيسا ولا زعيما الا و يوجد فيها من يقوم مقامه ويؤدي لها من الخدمة ما كان يؤديه ، فهي لا تحصر الاستعداد لشيء من الاشياء في فرد من الافراد ، ولا تقصر القيام بأمر من الامور على نابغ واحد من النابغين ، ولا يتجرأ فيها حاكم ولا زعيم على احتكار علم من العلوم او عمل من الاعمال ، بل تتسابق فيها الهمم الى الاستعداد لكل شيء يمكن ان يصل اليه كسب البشر وينال منه العامل بقدر همته وسعيه وتأييد التوفيق له ، فاين نحن معاشر المسلمين من هذه الهداية اليوم ؟

بعد هذه القاعدة — قاعدة الاعتماد على التحقق بالعلوم والنهوض بالاعمال دون الاتكال على افراد الرجال — هدانا الله جل شأنه الى قاعدتين اخريين فقال ﴿ وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ الآية . قال الاستاذ الامام ماملخصه : تلك قضية وهذه قضية أخرى ووجه الاتصال بينهما أن المراد بتلك لوم المؤمنين على ماوقع منهم اذ بلغهم قتل النبي (ص) والمراد بهذه بيان انه لوقتل لما كان قتله الا باذن الله ومشيئته فهو توبيخ لمن اندهش من خبر موته كانهم بسبب زلزالهم وزعزعة عقائدهم قد جعلوا موته جناية منه فاذاقهم تعالى بهذه العبارة مرارة خطأهم وأراهم بها قبيح جهلهم ، كانه يقول ان محمدا يدعوكم الى الله — اي لا الى نفسه — فلو كان هذا الموت يقع بدون اذن الله لكان الانقلاب صوابا ولكن اذا كان

الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى ، وكثيرا ماامتحن الله الصالحين من عباده، واثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم «٢:١٥٦ إنا لله وإنا اليه راجعون » فلاغضب زيدولارضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة، اللهم الافيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم،وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب،والمكانة عندالناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر ،ومايشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

« أماشأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه اللهجميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من اسبابها ، وحفظ الامانة ، واستشعار الاخوة ، والتعاون على البر ،والتناصح في الخير والشر ، وغير من أصول الفضائل_ذلك الروح هومصدرحياة الامم ومشرق سعادتها في هذهالدنياقبل الآخرة «٣:١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها»(١) ولن يسلب اللهعنها نعمته مادام هذاالروح فيها، يزيدالله النعم بقوته،وينقصها بضعفه،حتى اذافارقهاذهبت السعادة على أثره،وتبعته الراحة الى مقره،واستبدل اللهعزةالقوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أوالعادلين،فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «١٧:١٦ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنامترفيها ففسقوافيهافحق عليها القول فدمرناهاتدميرا » أمرناهم بالحق ففسقواعنه الى الباطل ثم لاينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء، ولايفيدهم مابقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «١٣ : ١١ ان اللهلا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «٣٣:٦٢ سنة الله في الذين خلوامن قبل ولن تجدلسنة الله تبديلا » وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذهالسنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائدالسامية، ويأخذ نفسه بما

أقول وقد بين صاحب الكشاف في غير هذا الموضع أن النفي في مثل هذا التعبير للشأن لا لمجرد الفعل. وهو يفسر مثل « ما كان الله ليفعل كذا» بنحو قوله: ما صح منه وما استقام له. أي ليس ذلك من شأنه الصحيح المعهود ولا من سنته المستقيمة المطردة، ولكنه (أي صاحب الكشاف) لم يبين ذلك بقاعدة واضحة يجري عليها بتعبير يؤدي المعنى بذاته في كل موضع. وأوضح ما يقال في هذه التعبيرات وأصحه انه بيان لكون هذا المنفي ليس من شأن الله ولا من سنته في خلقه. فمعنى « وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله » ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها ان تموت بغير إذنه ومشيئته التي يجري بها نظام الحياة وارتباط الاسباب فيها بالمسببات. وسيأتي مثل هذا التعبير في آيات أخرى من هذا السياق فتؤكد لك أن هذا هو المعنى العامّ في مثلها

واما قوله « كتابا مؤجلا » فهو مؤكد لمضمون ما قبله اي كتبه الله كتابا مؤجلا اي اثبته مقرونا باجل معين لا يتغير، ومؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، فالمؤجل ذو الاجل، والاجل المدة المضروبة للشيء قال تعالى «٦:١٢٨ و بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا » ومنه الدين المؤجل الذي ضرب له أجل اي مدة يؤدى في نهايتها. وقد يتوهم بعض اصحاب العقول المقيدة، والافهام الضيقة، أن كون الموت مؤجلا بأجل محدود في علم الله، ينافي كونه بأسباب تجري على سنن الله، وليس لهذا التوهم أدنى شبهة من العقل فيردّ بالدلائل النظرية، ولا من الوجود فيفسرَ بالسنن الاجتماعية، ألا ان كون الموت لا يكون الا بالاجل، أظهر من كونه لا يكون الا مقرونا بالسبب، فان الناس يتعرضون لاسباب المنايا بخوض غمرات الحروب، والتعرض لعدوى الأمراض، والتعدي لأفاعيل الطبيعة، ثم قد يسلم في الحرب الشجاع المقدم، ويقتل الجبان المتخلف، ويفتك المرض بالشاب القوي، من حيث تعدو عدواه الغلام لقميء، وتغتال فواعل الحر والبرد الكهل المستوي، وتتجاوز عن الشيخ الضعيف، ولكل عمر أجل، ولكل أجل قدر، والاقدار هي السنن التي بها يقوم النظام، والحكم فيها مرتبطة بالاحكام، وان خفي بعضها على بعض الافهام

هذه هي القاعدة الاولى في الآية. واما الثانية فهي قوله تعالى ﴿ ومن يرد

هذا الموت لايقع الا باذنه تعالى اذ ليس لاحد في العالم سلطان يقهره ويوقع في ملكه شيئا بالكره منه فلا معنى لزلزلة ثقتكم بالله وضعفكم عن المضي فيما كنتم عليه مع النبي في حياته لأن الله لم يزل حيا باقيا عليما حكيما

(قال) وفي الآية معنى آخر وهو انه ما دام محيانا ومماتنا بيد الله فلا محل للجبن والخوف ، ولا عذر في الوهن والضعف ، وفيها تأكيد لما تقدم بيانه في الآية التي قبلها وهو أن الموت لا يدل على بطلان ما كان عليه من يموت ولا على حقيته. وذكر ان صاحب الكشاف جعل الجملة تمثيلاً فنذكر عبارته في حلها قال « المعنى ان موت الأنفس محال ان يكون الا بمشيئة الله فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد ان يقدم عليه الاّ أن يأذن الله له فيه تمثيلاً ، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك فليس له ان يقبض نفسا الا بإذن الله. وهو على معنيين (أحدهما) تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع ، وأن أحداً لايموت قبل بلوغ أجله ، وان خوّض المهالك ، واقتحم المعارك ، (والثاني) ذكر ما صنع الله برسوله عندغلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزة المختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل » اه

وقال أبو السعود في الجملة « كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الارجاف بقتله عليه الصلاة السلام ببيان ان موت كل نفس منوط بمشيئة الله — الى ان قال في قوله « الا باذن الله — استثناء مفرغ من أعم الاسباب أي وما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس بسبب من الاسباب الا بمشيئته تعالى على ان الاذن مجاز عنها لكونها من لوازمه ، أو الا باذنه لملك الموت في قبض روحها ، وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة الى النفوس بصورة الافعال الاختيارية التي لا يتسنى للفاعل إيقاعها والاقدام عليها بدون اذنه تعالى ، أو بتنزيل اقدامها عليه أو على مباديه وسعيها في ايقاعه منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة في تحقيق المرام ، فان موتها حيث استحال وقوعه عند إقدامها عليه أو على مباديه وسعيها في إيقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر . وفيه من التحريض على القتال مالا يخفى » اه

الإسلام ان يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة، ويقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فالانسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته وعلو همته ودرجة إيمانه، وله مايريد كله أو بعضه بحسب سنن الله وتدبيره لنظام هذه الحياة . وفي سورة الإسراء تفصيل وتقييد في هذه المسألة قال تعالى (١٧ : ١٨ من كان يريد العاجلة عجلنا لها فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ١٩ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ٢٠ كلاً نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ولا تُنسينَّ التقاليد الشائعة قارئ هذه الآيات عن سنن الله التي اثبتها في كتابه فيظنَّ ان عطاءه تعالى وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا بل الارادة تجري على السنن التي اقتضتها الحكمة (س ١٣ : ٨ وكل شيء عنده بمقدار) ولإرادة الانسان دخل في تلك السنن والمقادير ولذلك قال « من كان يريد ، ومن أراد » فاعرف قيمة ارادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك فلا تجعلها كنفوس الحشرات التي تعيش زمنا محدودا ، ثم تفنى كأن لم تكن شيئا مذكورا

انك قد خلقت للبقاء ولك في الوجود طوران طور عاجل قصير وهو طور الحياة الدنيا ، وطور آجل أبدي وهو طور الحياة الآخرة ، وسعادتك في كل من الطورين تابعة لارادتك ، وما توجهك اليه من العمل في حياتك ، فأعمال الناس متشابهة ، ومشقتهم فيها متقاربة ، وإنما يتفاضلون بالارادات والمقاصد ، لانها هي تكون تارة علة وتارة معلولا لطهارة الروح وعلو النفس وسموّ العقل ورقة الوجدان ، وهي هي المزايا التي يفضل بها انسان على انسان ،

يحارب قوم حبا في الربح والكسب ، او ضراوة بالقتل والفتك ، فاذا غلبوا افسدوا في الارض ، واهلكوا الحرث والنسل ، ويحارب آخرون دفاعا عن الحق ، وإقامة لقوانين العدل ، فاذا غلبوا عمروا الارض ، وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فهل يستوي الفريقان ، اذا استوى في البداية العملان ، ؟ وهما في القصد والارادة متباينان ،

ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ واننا نذكر في تفسير العبارة صفوة ماقالوه ثم نبين القاعدة . قالوا انها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد فتركوا موقعهم الذي أمرهم النبي (ص) بلزومه . وان معناها ان من قصد بعمله حظ الدنيا اعطاه الله شيئا من ثوابها ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظا من ثوابها . وصرح الرازي بانها في معنى حديث « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى » الخ الحديث المشهور

وقال الاستاذ الامام هذه قضية أخرى وفيها وجهان (أحدهما) انها رد لاستدلال من استدل بما حل بالمسلمين على أن ما هم عليه غير الحق فهي من هذا الوجه فرع من فروع قوله «قد خلت من قبلكم سنن »فهو يقول ان لنيل ثواب الدنيا سننا ولنيل ثواب الآخرة سنناً فمن سار على سنن واحدة منهما وصل اليها . فاذا كان المشركون قد استظهروا على المسلمين في هذه المرة فلأنهم طلبوا بعملهم الدنيا وأخذوا له أهبتهمن حيث قد قصر المسلمون في اتباع السنن في ذلك بمخالفة الرسول كما تقدم (والوجه الثاني) أنه يقول لأولئك الذين ضعفوا وفشلوا وانقلبوا على أعقابهم : ما الذي تريدون بعملكم هذا ؟ ان كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك وما عليكم الا ان تسلكوا طريقه ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم اليه محمد وانما يدعوكم الى خير ترون حظا منه في الدنيا والمعوّل فيه على مافي الآخرة . فالمسألة معكم بين أمرين إرادة الدنيا وإرادة الآخرة ، كل يريد أمرا ولكل أمر سنن تتبع ولكل دار طريق تسلك

أقول وسيأتي في هذا السياق قوله تعالى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » وهو يؤيد الوجه الثاني مما أورده الاستاذ الإمام وفي معناه قوله تعالى (٤٢ : ٢٠ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) . وقد تقدم لهذا المبحث نظير في تفسير قوله تعالى (٢ : ٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا) الخ «*» وفيه بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من خلاق، وان من هدي

«*» راجع ص ٢٣٣ ــ ٢٣٦ من ج ٢ من التفسير

جميع اعمالهم صالحة رافعة لنفوسهم ونافعة لغيرهم . قال الاستاذ الامام كأنس بن النضر وأمثاله الذين جاهدوا وصبروا مع النبي (ص) بحفظهم قوة إرادتهم فكانوا السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين . وقد خصهم بالذكر الذي يعينه الوصف تنويها بهم ووعداً لهم بحسن الجزاء وهو من التفصيل لا لإجمال من يريد الآخرة

ثم انه بعد هذا البيان المنبه لهم الى استعدادهم ضرب لهم هذا المثل في غيرهم ، كما ضرب لهم المثل قبل ذلك في أنفسهم بتمنيهم الموت فقال ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾

« كأين » بمعنى كم الخبرية ومعناها ان ما دخلت عليه كثير وفيها لغتان فصيحتان مشهورتان « كائن » بوزن فاعل مبنية على السكون وبها قرأ ابن كثير ، «وكأين» بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة وسكون النون (التي قالوا ان اصلها التنوين اثبت له صورة في الخط كما ينطق به في هذه الكلمة خاصة) وبها قرأ الباقون . وقالوا ان أصلها « ايّ » الاستفهامية دخلت عليها كاف التشبيه فصارت كلمة مستقلة لا معنى فيها للتشبيه ولا للاستفهام فيها . والربيون قال في الكشاف هم الربانيون « وقرئ بالحركات الثلاث فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب » وقد تقدم ذكر الربانيين في آية ٧٩ من هذه السورة وهو جمع رباني نسبة الى الرب وزيادة الالف والنون فيها كزيادتها في جسماني . وقيل غير ذلك . وقول الكشاف « من تغييرات النسب » معناه ان العرب قد تغير الاسم المنسوب كما قالوا في النسبة الى البصرة بصري بكسر الباء والى الدهر دهري بضم الدال . وقال الفراء الربيون الاولون وقال الزجاج هم الجماعات الكثيرة واحدها ربي قال ابن قتيبة اصله من الربة وهي الجماعة ويروى مثله عن ابن عباس . وقال ابن زيد الربانيون الائمة والولاة والربيون الرعية وهم المنتسبون الى الرب والاول هو الظاهر المختار . وتقدم معنى الوهن والضعف . والاستكانة ضرب من الخضوع هو عبارة عن سكون الانسان لخصمه ليفعل به ما يريد

والمعنى ان كثيراً من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم

يكسب الرجل طلبا للذات ، وحبا في الشهوات ، فيغلو في الطمع ، ويوغل في الحيل ، ويأكل الربا اضعافا مضاعفة ، حتى يجمع القناطير المقنطرة ، فاذا هو يمنع الماعون ويدعّ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، وهو اذا سئل البذل في المصالح العامة أشد بخلا ، وأكزّ يدا واقبض كفا ، ويكسب الرجل طلبا للتجمل في معيشته ، وحبا للكرامة في قومه وعشيرته ، فيجمل في الطلب ، ويتحرى الحلال من الربح ، ويلتزم الصدق والامانة ، ويتوقى الغش والخيانة ، ثم هو ينفق من سعته فيواسي البائس الفقير ، ويعين العاجز والضعيف ، وتكون له اليد في بناء المدارس والمعابد ، والمستشفيات والملاجئ ، فهل يستوي الرجلان ، وهما في الثروة سيان ، ؟ وفي ظاهر العمل متشابهان ، ام يفضل احدهما الآخر بحسن الارادة ؟

الارادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير ، وترفع الوضيع ، وتضع الرفيع ، وبها تتسع دائرة وجود الشخص ، حتى تحيط بكرة الارض ، بل تكون اكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة في عالم العقول والارواح ، واذا كان يريد بعمله دار البقاء فان وجوده يكون كبيرا بحسب كبر ارادته وواسعا بسعة مقصده ، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من اخلدوا الى الشهوات ، وكان حظهم من عملهم كحظ الحشرات ، وغيرها من الحيوانات : اكل وشرب وسفاد وبغي من القوي على الضعيف

قس على هذا وجود من يريد بعمله القرب من الله والتخلق باخلاقه ، والتحقق بتجليات أسمائه وصفاته ، القرب من الواسع العليم ، الخلاق الحكيم ، الرحمن الرحيم ، بسعة القلب ، وبسطة العلم ، وإقامة النظام الحكمة ، ونصب ميزان العدل وبسط بساط الرحمة ، ألا تراه يكون أشرف وجود بشري وأعلاه ، بحسب ارادته وسنن الله

لست بهذا الرمز الى مكانة إرادة البشر من تصريف أعمالهم ، وتوجيهها الى سعادتهم أو شقاوتهم ، بخارج عن موضوع تفسير الآية الكريمة فان رب العزة قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم ، ولا يقدر هذا حق قدره الا قليل منهم ، فهم في حاجة الى مثل هذا التذكير بل الى أكثر منه

اذا فقهت هذا فقد فقهت معنى قوله ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ اي الذين يعرفون نعمة الله عليهم بقوة الارادة ويستعملونها فيما يعرج بهم الى مستوى الكمال فتكون

عند ما حددته الشرائع ، ﴿ واسرافنا في أمرنا ﴾ بالغلو فيه ، وتجاوز الحدود التي حددتها السنن له ، ﴿ وثبت اقدامنا ﴾ على الصراط المستقيم الذي هديتنا إليه حتى لا تزحزحنا عنه الفتن ، وفي موقف القتال حتى لا يعرونا الفشل ، ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ بك ، الجاحدين لآياتك ، المعتدين على أهل دينك ، فلا يشكرون لك نعمك بالتوحيد والتنزيه ، ولا بفعل المعروف وترك المنكر ، ولا يمكنون أهل الحق ، من إقامة ميزان القسط ، فان النصر بيدك ، تؤتيه من تشاء بمقتضى سننك ، ومنها ان الذنوب ، والاسراف في الأمور ، من أسباب البلاء والخذلان ، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح ، ولذلك سألوا الله ان يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف ، وان يوفقهم الى دوام الثبات ، ولا شك أن الدعاء والتوجه الى الله تعالى في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوة وعزيمة ومصابرة للشدائد. ولذلك يعترف علماء النفس والاخلاق بأن المؤمنين أشد صبرا وثباتا في القتال من الجاحدين كما تقدم في تفسير (٢: ٢٥٠ ولما برزوا لجالوت) الآية « * »

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ بالنصر والظفر بالعدو ، والسيادة في الارض ، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة ، وحسن الاحدوثة وشرف الذكر ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ بنيل رضوان الله وقربه ، والنعيم بدار كرامته ، وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما ورد في الخبر ، اخذا من قوله تعالى (٣٢: ١٧ فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين) وما آتاهم ذلك الا بحسن ارادتهم ، وما كان لها من حسن الاثر في نفوسهم واعمالهم ، اذ اتوا البيوت من ابوابها ، وطلبوا المقاصد باسبابها ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ لانهم خلفاؤه في الارض يقيمون سنته ، ويظهرون بانفسهم واعمالهم حكمته ، فيكون عملهم لله بالله ، كما ورد في صفة العبد الذي يحبه الله « فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ،

---

* راجع ص ٤٨١ و ٤٨٦ من ج ٢ من التفسير

المنتسبين الى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وفي أعمالهم، المعتقدين ان النبيين والمرسلين هداة ومعلمون، لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح و بعضهم من القتل وان كان المقتول هو النبي نفسه لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربهم لا في سبيل شخص نبيهم و إنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم و بيانه لهدايته وأحكامه (١٨ : ٥٦ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) وما ضعفوا عن جهادهم ولا استكانوا ولا ولوا بالانقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حياته لأن علة الثبات في الحالين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله أي في الطريق التي يرضاها الله من حفظ الحق وحمايته، وتقرير العدل و إقامته، وما يتبع ذلك و يلزمه . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو و يعقوب « قُتِلَ معه » ولذلك رسمت الكلمة في المصحف الامام بغير ألف لتوافق القراءتين أي استشهدوا في القتال معه أو قتلوا كما قتل هو وزعم بعضهم انه لم يقتل نبي في الحرب ، وهو نفي غير مسلم لاسيما في النبيين غير المرسلين ومن ذا الذي يتجرأ على الاحاطة بالرسل علماً والله يقول لنبيه (٤ : ١٦٤ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل و رسلا لم نقصصهم عليك) ومن التفسير المأثور قول قتادة : فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما عجزوا وما تضعضعوا لقتل نبيهم وما استكانوا أي ما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم . وقال ابن اسحق فما وهنوا لقتل النبي وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك هو الصبر « والله يحب الصابرين » اه وقد تقدم معنى حب الله للناس في اوائل هذه السورة

أي واذا كان يحب الصابرين أمثالهم، فعليكم أن تعتبروا بحالهم، فان دين الله واحد، وسنته في خلقه واحدة، ولذلك هديتم الى السنن، وأمرتم بمعرفة عاقبة من سبقكم من الأمم ، فاقتدوا بعمل الصادقين الصابرين، وقولوا مثل قول أولئك الربيين ،

﴿ وما كان قولهم إلا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي ما كان لهم من قول في تلك الحال التي اعتصموا فيها بالصبر والثبات، وعزة النفس، وشدة البأس، الا ذلك القول المنبئ عن قوة إيمانهم ، وصدق إرادتهم ، وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم بجهادهم ما كانوا ألموا به من الذنوب والتقصير في إقامة السنن ، أو الوقوف

مشروط باتباع السنن والاخذ بالاسباب وفي واقعة الرجيع قد اختلفوا في النزول على حكم المشركين فكان ذلك تقصيرا منهم وفي واقعة بئر معونة قد قصروا في الاحتياط اذ أمنوا لمن لا يصح يؤمن لهم فكان ذلك جزاء التقصير وموعظة للمؤمنين ليكونوا دائما حذرين محتاطين غير مقصرين ولا مسرفين

وقد صرح بما اتفق عليه المفسرون من كون الآيات تأديبا للمؤمنين وتوبيخا لمن فرط منهم مافرط والامر ظاهر كالشمس في الضحى او أشد ظهورا

قتله اخبرته فوالله ما أكثرث بذلك . وقد خرجوا به من الحرم ليقتلوه خارجه واستأذن منهم بان يصلي ركعتين فصلاهما وقال : لولا أن تروا ان مابي جزع من الموت لزدت . وانشأ يقول

ولست أبالي حين اقتل مسلما على أي شق كان لله مضجعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على اوصال شلو ممزَّع

واما وقعة بئر معونة فملخص خبرها ان ابا براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة قدم على النبي (ص) المدينة فدعاه الى الاسلام فشهد بحسنه ولم يسلم ولكنه قال يا رسول الله لو بعثت اصحابك الى اهل نجد يدعونهم الى ما جئت به لرجوت ان يستجيبوا . قال النبي (ص) « إني اخاف عليهم أهل نجد » فقال اني لهم جار أي أنهم في ذمتي وجواري وعهدي فانا احميهم . فبعث سبعين رجلاً من القراء الذين انقطعوا لحفظ القرآن ومدارسته آناء الليل فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين ارض بني عامر وحرة بني سليم . و بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله (ص) الى عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه وامر رجلا فطعن الرسول بالحربة واستنفر بني عامر الى قتال الباقين فلم يجيبوه حفظا لجوار ملاعب الأسنة فاستنفر بني سليم فاجابته عصية ورعل وذكوان فأحاطوا باصحاب الرسول حتى استأصلوهم بعد قتال شديد فلم ينج منهم الا كعب بن زيد بن النجار فانه ارتثّ بين القتلى (أي حمل من المعركة جريحا وفيه رمق) وقد عظم امر هذا الواقعة على النبي (ص) والمؤمنين لمكان هؤلاء المقتولين غدرا وكيدا من العلم وحفظ القرآن

ويده التي يبطش بها ، » أي ان مشاعره وأعماله لاتكون مشغولة الا بما يرضي الله ويقيم سننه ويظهر حكمه في خلقه ،

وانما جمع لهم بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لانهم أرادوا بعملهم سعادة الدنيا والآخرة وانما الجزاء على حسب الارادة وهذا هو شأن المؤمن كما تقدم آنفاً (ص٤٩٦و٤٩٧) وهو حجة على الغالين في الزهد · وخص ثواب الآخرة بالحسن للإيذان بفضله ومزيته وانه المعتد به عنه الله تعالى · كذا قالوا وقال الاستاذ الامام : ثواب هؤلاء حسن على كل حال ولكن ذكر الحسن فى ثواب الآخرة مزيد فى تعظيم أمره وتنبيه على انه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمنغصات · ولا يعترض على ما أثبتته الآية بمثل واقعة الرجيع وبئر معونة(* من حيث ان من قتلوا هنالك لم يؤتوا ثواب الدنيا فان ايثار ثواب الدنيا

*) الرجيع ماء لهذيل بين مكة وعسفان والواقعة تعد من السرايا او البعوث وذلك ان الرسول (ص) بعث نفرا من اصحابه ٦ أو ١٠ الى قبيلتي العضل والقارة ليقرءوهم و يفقهوهم لانهم ادعوا الاسلام وطلبوا منه ذلك فلما أتوا الرجيع غدروا بهم · احاط بهم مئتا رجل من هذيل وقالوا لهم لكم الذمة ان سرتم معنا ان لا نقتل منكم احدا فقال بعضهم لا ننزل على ذمة كافر فقاتلهم المشركون حتى قتلوهم وأوثقوا الذين نزلوا على عهدهم وساقوهم الى مكة ليبيعوهم من قريش التي تريد تعذيب كل من تظفر به من المسلمين · فامتنع عبدالله بن طارق أحد الموثوقين ان يسير معهم وقال ان لي بهؤلاء (القتلى) أسوة فجرروه ، عالجوه فلم يسر فقتلوه وذهبوا بالآخرين وهم خبيب بن عدي و زيد بن الدثنة الى مكة فباعوهما بأسيرين لهما فقتلتهما قريش بمكة · وكان من خبر خبيب ان حبسوه وأهانوه فقال « ما يصنع القوم الكرام هكذا بأسيرهم » فأحسنوا اليه وجعلوه عند امرأة تحرسه وهي ماوية مولاة هجير بن ابي إهاب احد الثلاثة الذين اشتروه والآخران عقبة وأبو اسروعة اخواه لامه · وكانت ماوية هي و زوجها موهب مولى آل نوفل يحفظانه · قالت كان خبيب يتهجد بالقرآن فاذا سمعه النساء بكين ورققن عليه فقلت له هل لك من حاجة ؛ قال لا الا ان تسقيني العذب ولا تطعميني ماذبح على النصب (وهي الحجارة التي يذبحون عليها الاصنام) وتخبريني اذا أرادوا قتلي · فلما ارادوا =

ناداياه ولو كان في النزع وكذا منع الزوجة عن زوجها والعكس وقد من قبل هذا ومات المريض حزينا . ويقولون ان الشيخ يربي التلميذ بذلك

ومن السؤال أيضاً قولهم يجب على التلميذ متابعة شيخه بدون سؤال أوتردد وهم يجوز له ان يعترض على شيخه ولو رآه على فاحشة لانه كالنبي المرسل بالنسبة اليه ولا ينكر عليه ولا بقلبه وان عقوبة الانكار حينئذ الحرمان واوجبوا على المريد ان يعتقد انه لا يمكن ان يصل اليه مدد ولا خير من ربه الا بواسطة الشيخ لانه الوسيلة له . وللشيخ محلات للسلوك والتلقين يحشر اليها جملة من الرجال الشبان والنساء الشواب يجتمعون بها من غير محرمية بل جُلهم جهال بالواجبات العينية وان الذكر وحده كاف للوصول والقرب من الله ولو ترك اكثر الفروض العينية . وقد اجابتهم مجلة الامام بالمنع في الجميع وان تلك المبادي مما تبع ضلال الامة فيها من قبلهم من الامم وان بعضها فيه ميل الى جانب الشرك وقد نقل الامام ماقاله المفسرون في الرباط الشرعي والوسيلة الشرعية وجزم بان عبادة الله لا تجوز بغير ماشرعه الله وان من زاد فيها كمن نقص منها مبتدع . مردود عليه قوله وان الرابطة بالمعنى المذكور في السؤال لم يعلمها النبي احدا من اصحابه ولا علمها الصحابة احدا من التابعين وان تطهير القلوب من الصور والتماثيل ليس باولى من تطهير محلات العبادة منها . وانه يحرم متابعة الشيخ فيما نهى الله عنه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ومن شرع للعباد مالم يأذن به الله فهو ضال مضل وان اعظم مرشد واعلم طبيب ديني هو نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقد اكمل الله به الدين فلا دواء ديني نافع الا وقد بينه لنا ومن لم تشف أمراض قلبه ادوية القرآن لاشفى الله مرضه ، وان النبي ارشدنا الى دواء الوسواس وهو ذكر الله ليخنس الشيطان فمن لم يخنس شيطان وساوسه بذكر الله فهو الكاذب ومستحيل ان يخنس لحضور صورة شيطان مثله في قلب موسوس متهوس ومافي السؤال من الآداب هو ضد الادب في الاسلام ولم يؤدبنا به النبي ولم يعمل به الصحابة فعلى طالب الحق أن يلزم هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويجتنب البدع الى نحو ذلك .

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الرابطة عند النقشبندية وطاعة المريد لشيخه ﴾

(س ١٠) من ع • س • ط • في سنغافورة

حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » المنير بمصر

قد كثرت الضوضاء والأخذ والرد في هذه الايام بين مجلة « الامام » بسنغافورة ومن يثق بها وبين من يسمون أنفسهم أهل الطريقة وأرباب السلوك وذلك بسبب السؤال الآتي والجواب عنه والمجادلات فيه ولأن المنار هنا له اعتبار عند أولي الابصار أحببنا ان يكون الحكم في هذه القضية لكي تقطع جهيزة صوت كل خطيب حيث قد امتلأت الاسماع نقيقا وأعمدة الجرائد سوادا والقلوب شبها فنؤمل بسط الجواب وبيان الحق بأدلته ودحض الشبه الباطلة ولا بد ان تكونوا قد كتبتم سابقاً في هذا الصدد فنرجوكم ان لا تحيلونا على ما ليس بأيدينا أثابكم الله .

أما السؤال المثير للجدال فهو : ما قولكم في الرابطة التي يلزم بها مشايخ الطريقة النقشبندية المريدين ومعناها انه لا يصح منهم ذكر الله إلا بعد احضار صورة الشيخ في قلب المريد ثم يشرع في الذكر مع حضورها ويتركه اذا غفل عنها لانه حينئذ باطل لتمكن الشيطان من المريد لخلو قلبه من صورة الشيخ وان قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) دليل لهم وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أمر بها أي مع التفسير المذكور الى نحو ذلك وجاء في سؤال آخر الى مجلة الامام ان من حق الشيخ ان يمنع المريد عن اجابة أبيه وأمه المسلمين إذا

فلما نشرت هذه الفتوى وهاته التصريحات التي لم يعهد لأحد من قبل هذا الشاب التصريح بها قامت قيامة شيوخ الطرق في هذه المستعمرة ونسبوا للامام ومحرره تضليل عباد الله الصالحين واوهموا العامّة ان الأمام يسعى في هدم المعتقدات وهم الى الآن يحرضون العامة بهجر الامام وعدم الاطلاع فيه . اما الحقير وكثير من متخرجي المدارس الأميرية فبقينا متوقفين حتى يأتينا من عند الاستاذ بيان شاف في هذه المسئلة التي نعلم و يعلم الكثير ان لكم القدح المعلى في حلها والله يقيكم لنا .

***

(ج) لو قلت إني من أجدر الناس وأحقهم ببيان الحق فى هذه المسألة لرجوت ان اكون صادقاً ، واذا بينت السبب في ذلك رجوت أن يذعن له كل عاقل منصف ذلك بأني قد سلكت الطريقة النقشبندية وعرفت الخفي والاخفى من لطائفها وأسرارها، وخضت بحر التصوف ورأيت ما استقر في باطنه من الدرر، وما تقذف أمواجه من الجيف، ثم انتهيت في الدين ، الى مذهب السلف الصالحين ، وعلمت ان كل ما خالفه فهو ضلال مبين ، وأمهد للفصل في المسألة تمهيدا يقرب المراد من طالب الحق فأقول

قد عرفنا من طباع البشر واخلاقهم أن يألفوا ما أخذوه بالرضا والتسليم و يأنسوا به فاذا وجدوا لهم مخالفا فيه تعصبوا له ووجهوا قواهم الى استنباط ما يؤيده و يثبته ويدفع عنه هجمات المخالفين لهم فيه لا يلتفتون في ذلك الى تحري الحق واستبانة الصواب فيما تنازعوا فيه . ولو لا فشوّ هذا الخلق في الناس لما بقيت الاديان والمذاهب والأحزاب والشيع والحق في كل منها واحد لا تعدد فيه

ثم إن من اخلاق البشر أيضا ان لا يجتمعوا على شيء الا اذا اعتقدوا ان فيه خيرا لهم وقد يكون هذا الاعتقاد لبعضهم عن نظر واستدلال او تجربة واختبار وللبعض الآخر عن اتباع وتقليد لمن اعتقدوا فيهم الفضل والكمال

على هاتين القاعدتين بني التعصب للمذاهب والطرق في جميع الملل وعليه يتخرج أخذ كثير من اهل الصلاح والتقوى والعلم والعمل بالرابطة في الطريقة النقشبندية و بغيرها من البدع التي لم تكن على عهد السلف في غيرها من الطرق و بكثير من القواعد والمسائل في مذاهب الفقهاء والمتكلمين الذين جاؤا بما لم يكن عليه السلف الصالح

واعترض اهل الطريقة بزعمهم ان الجنيد والجيلاني واضرابهما أوجدوا الرابطة بمعناها المشروح اعلاه والزام المريد بما ذكر من الشروط وان لا يمنع المريد الشيخ اي شيء اراده من نفسه او ماله سواء كان ذكرا ام انثى وان الامام واصحابه خرجوا عن الدين ومرقوا منه بإنكارهم الى نحو ذلك

وانا نسأل من المنار المنير ابداء مايراه الصواب في هذا الموضوع مع البيان الشافي فانا الى ذلك محتاجون نعد الايام والساعات والله المسؤل ان يديمكم نفعا للعباد وشجى في حلوق اهل البدع والإلحاد آمين ع · س · ط

(س ١١) من س · س · في (كوالا لمغور) في جنوب ميلاي ·

سيدي · تصدر في سنغافوره مجلة علمية ملية بلغة الملايو اسمها (الامام) يكتب فيها بعض رجال الاصلاح ومحررها رجل وطني اسمه عباس بن محمد طه وهو من خيرة شبان هذه البلاد علماً وعملا اشتهر اخيرا بمحاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالدين·

وفي المجلة باب للفتوي وقد سئل منذ اشهر عن الرابطة المعروفة عند اهل الطريقة النقشبندية وهي إحضار المريد صورة الشيخ في القلب عند الذكر و بربطه من جملة الارادة التامة واستفادة علم الواقعات حتى يفني تصرفه في تصرف الشيخ أخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » · وقوله « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » · وقوله «يا أيها الذين اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » · فأفتى الامام بان الآمرين بفعل هذه الرابطة والعاملين بها ليس لهم مستند من الكتاب او السنة · وان الآيات التي جعلوها سندا لهم لا تدل على مرادهم البتة · ثم اورد اقوال المفسرين كالخازن والجلالين في الآيات المذكورة · الخ ما جاء في الجواب ــ ثم قال ــ اذاً فاحضار المريد صورة الشيخ في قلبه عند الذكر هو إشراك بالله · وهذا ماجاء الاسلام لمحوه · اوما معناه· ثم انحى على اهل الطرق الآن ونسب كثيرا منهم للدجل والتضليل · واورد لنفي الرابطة آيتين آية ·«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » · وآية «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » · اه بالمعنى

وتزكو نفوسهم ، وهو سر ما يقال له التوحيد عند السادة النقشبندية ، وقالوا بالرابطة ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه ، ولا اعلم لثبوت ذلك دليلا يعوّل عليه عن الشارع الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، ولا عن خلفائه رضي الله عنهم ، وكل ما يذكرونه في هذه المسألة و يعدونه دليلا لا يخلو من قادح بل أكثر تمسكاتهم فيها تشبه التمسك بحبال القمر ، ولولا خوف الإطناب لذكرتها مع ما فيها . ومع هذا لا أنكر بركة كل من الأمرين — التوجه والرابطة — وقد شاهدت ذلك من فضل الله عز وجل . وأيضا لا أدعي الجزم بعدم دليل في نفس الامر وفوق كل ذي علم عليم ، ولعل أول من أرشد اليهما من السادة وجد فيهما ما يعوّل عليه أو يقال يكفي للعمل بمثل ذلك نحو ما تمسك به بعض أجلة متأخريهم ، وان كان البحث فيه مجال ، ولأرباب القال في أمره مقال ، » اه

فأنت ترى هذا العالم الجليل الواسع الاطلاع الواقف على ما قال أنصار هذه الطريقة في الاستدلال على الرابطة والتوجه لم يعثر لهما على دليل ، ولم يرضه شيء مما قيل ، ولكنه قد راعته مكانة من جرى على ذلك من الصالحين ، وأرضاه ما وجد لهما من الأثر في قلبه وكذلك كان هذا العاجز عدة سنين ، فانني قد وجدت أثر الرابطة والتوجه في نفسي: رأيت ما لم يراه معي الناظرون، وسمعت مالم يسمعه مثلي المصغون ، وشممت مالم يكن يشم الحاضرون ، ولا أحب شرح ذلك في المنار ولا الخوض في علله وأسبابه، وما ذكرت هذه الاشارة الا ليعلم السالكون لهذه الطريقة بالفعل انني لست منها كما يقال في المثل « من جهل شيئا عاداه » وانما اتكلم فيها عن عرفان ، وأحكم فيها بسلطان ،

أقول إن التوجه والرابطة ليسا من الدين في شيء، ولا يجوز ان يعدا من العبادة المشروعة في الاسلام، ولكن لا أقول بكفر كل من عمل أو يعمل بهما، وانما أخشى ان يكون بعض المتقلدين لهذه الطريقة تقليداً من غير علم بالشرع ، وعرفان بحقيقة النفس ، أقرب الى الوثنية منهم الى التوحيد ، فيما يكون بين الشيخ والمريد ، بل أجزم بأن من ذلك ما هو شرك جلي أو خفي ، وان كنت لا أجيز رمي شخص معين به ، يمكن للمريد العارف بعقيدة الاسلام ان يجمع بين التوحيد و بين تخيل شيخه

يذهب الرجل المشهور بالصلاح او العلم الى شيء يظهر له بحسب اجتهاده انه حق او خير فيتبعه آخرون عن استحسان لما استحسنه ومعرفة بدليله او عن محض التقليد فاذا خالفهم غيرهم فيه عدوهم متقصين لهم تعصبا لما هم عليه فيقوى الخلاف ولايزالون مختلفين الا من رحم ربك وهم الذين يحكمون الدليل ويتحرون به استبانة الحق فاذا ظهر لهم ولو على يد الخصم ولسانه أتوا اليه مذعنين، وقبلوه راضين مطمئنين

اذا تدبرت هذا فاعلم أن أئمة الصوفية وكبراءهم ماوضعوا هذه القواعد من الرابطة وطاعة الشيخ المسلك طاعة عمياء مطلقة حتى من قيود العقل والشرع عند الغالين وغير ذلك من الاصول والقواعد الاعن علم وتجربة واختبار وصلوا بها الى مرتبة اليقين بان ذلك مفيد لهم وموصل الى الغاية التي يقصدونها بطريقتهم . واعني بالعلم هنا علم النفس من حيث ادراكها وشعورها ووجدانها وصفاتها واخلاقها . وقد كان مثلهم في ذلك كمثل علماء الكلام الذين بحثوا في الموجودات وبنوا علمهم الالهي عليها وكل منهما اذا وجد في علمه مايخالف ظواهر الشرع لجأ الى التطبيق بالتأويل والتماس مايؤيده من القرآن العزيز والحديث الشريف وقد يتمحل لذلك ويتكلف اذا اعترض عليه . كذلك فعل المتكلمون الذين زعموا ان الافلاك التسعة فى الهيئة اليونانية هي السموات والكرسي والعرش وكذلك فعل بعض اهل الطريق فيما ذكر في السؤال وما لم يذكر فيه من تأويل الآيات التى زعموا أنها تدل على مشروعية مايسمونه الرابطة والتوجه ولادليل في شيء منها على ذلك .

لو كان في الشرع دليل على ان ذلك مطلوب في الدين لما خفي عن الصحابة والتابعين بل لأمر به النبي صلى الله عليه وسلم وعمل به وتواتر عنه لانه مما يتعلق بجوهر الدين وهو عبادة الله ومعرفته فلا يقاس على مايمكن ان يستنبط من القرآن من اسرار الكون التي لم تؤثر عن الصدر الأول

قال السيد الآلوسي النقشبندي في باب الاشارة من تفسير سورة الجمعة :

« وذكر بعضهم ان قوله تعالى « ويزكيهم » بعد قوله سبحانه « يتلوعليهم آياته » اشارة الى الافاضة القلبية بعد الاشارة الى الافاضة القالبية اللسانية ، وقال بحصولها للاولياء المرشدين فيزكون مريدهم بإفاضة الانوار على قلوبهم حتى تخلص قلوبهم

الروحانية ، ولكنهم في توجههم ورابطتهم دون السادة الصوفية ، لأن الرابطة والتوجه عندهم من المقاصد التي يقفون عندها ، ويرضون من رياضتهم بثمرتها وأثرها ، وهما عند الصوفية من الوسائل التي يعرفون بها نفوسهم ، ويعرجون منها الى ان يصلوا الى معرفة ربهم ، فالاشتغال بهما كاشتغال العالم الطبيعي بمعرفة خواص الماء والبخار والكهرباء والضوء فان كان يقصد بذلك معرفة هذه الاشياء لذاتها مما ينتفع به في هذه الحياة المادية كان مثله كمثل البرهمي فى التوجه والرابطة لا يزيد عن كونه عالما ماديا ، وان كان يقصد بها مع ذلك معرفة الله بمعرفة حكمه واسراره في خلقه كان مثله كمثل الصوفي في التوجه والرابطة وصار عالما ربانيا ، فالامور بالمقاصد والارادات ، كما بيناذلك في تفسير مافي صدرهذا الجزء من الآيات ،

اذا عرفت هذا وهو ما عليه محققو العارفين من الصوفية تبين لك ان مسألة التوجه والرابطة من المسائل التي تعد من وسائل علم النفس وليست بحد ذاتها من الدين فيستدل عليها بالآيات والاحاديث ، وان علم النفس كعلم الآفاق قد يكون بالارادة طريقا لمعرفة الله تعالى وبالقصدوالنية عبادة له كما تكون جميع العلوم الدنيوية كذلك . والاصل في ذلك عند الصوفية قوله عز وجل (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شي شهيد ٥٤ الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا إنه بكل شيء محيط) ولما كان محيطا بكل شيء كانت معرفة غاية كل شيء موصلة اليه اذا قصد بها ذلك . ولذلك قالوا ان لله طرائق ، بعد انفاس الخلائق ،

وههنا ثلاث مسائل لا بد من التصريح بها وايضاحها ايضاحا لا لبس فيه . (احداها) أن كل علم حقيقي يمكن ان يكون عبادة محمودة في الاسلام اذا حسنت فيه النية وأريد به معرفة الله ومعرفة سننه وحكمه فى خلقه وكذلك كل عمل نافع يراد به دفع الأذى عن عباد الله وايصال الخير اليهم . ولكن العبادة في ذلك قلبية لا صورية فلا يقال إن علم الضوء والكهرباء وعمل الادوية وصنع الآلات مما يكون مع حسن النية من العبادات المشروعة في ذاتها التى تلتمس لها الدلائل من الكتاب والسنة . ومثلها في ذلك التوجه والرابطة في الطريقة

عند ذكر الله عز وجل بأن يتخيل أنه جالس في حضرته يراقب أدبه وحضور قلبه في ذكره، كما يذكر الله أو يقرأ القرآن أو العلم بحضرته، وهو يعتقد انه لا ينفع ولا يضر، ولا يُقصد بقبول العمل، وانما يُصمد في ذلك الى الله تعالى وحده . فمثل هذا لا يعد مشركا لشيخه مع ربه، وهو لا يشغله تخيله لشيخه عن ذكره، إذ لا يستصحب الصورة المتخيلة عند تصور معنى كلمة التوحيد، وذلك سهل على مريده كما يقرأ القرآن أو غيره من كتب الفنون أمام شيخه ولا يشغله وجوده عن فهم ما يقرأ . ومع هذا لا يجوز له ان يحكم بأن هذا الامر مطلوب في الشرع بل يكتفي بأن ينتفع بما جره من غير مخالفة لنص من نصوص الشرع

واما استمداد الهمة من أرواح الشيوخ فقد ضل فيه كثيرون كضلال الذين يعتقدون ان لشيوخهم سلطة غيبية يتصرفون بها في النفوس والآفاق وانهم بذلك وسطاء بين الله وخلقه يقربونهم اليه زلفى اذا أرادوا كما كانت تقول الجاهلية في آلهتها . على أن للمسألة أصلا يعد من مباحث علم النفس لا من الدين هو منشأ ضلال المفتونين عن تجربة ووجدان يظن الجاهل منهم أنه من الحقيقة المخالفة للشريعة ويعلم العارف المحقق انه لا خلاف في الفعل، ولا منشأ للضلال الا الجهل

قد جرب أهل الطريقة ان يتوجهوا بهمتهم وارادتهم الى بعض شيوخهم الصالحين أو الى بعض الصحابة أو النبيين قاصدين ان تتصل أرواحهم بأرواحهم وتستمد منها قوة ما فيجدوا لذلك في نفوسهم أثرا حقيقيا لا يمكن لاحد ان يكابرهم فيه كما لا يكابر أحد ولا يشكك في شعوره بالفرح والسرور أو الغم والحزن . فاذا قيل لمن جرب ذلك من الجاهلين بالشريعة انه مخالف لها فانه يشك في حقية الشريعة ولا يشك فيما هو فيه الا أن يجمع له بينهما . ولمثل ذلك قالوا ان سالك الطريق عرضة للزيغ والكفر اذا لم يكن له شيخ من العارفين الجامعين بين علم النفس وعلم الشرع فيبين له في مثل هذه المسألة ان هذا الاثر الذي يراه في نفسه من التوجه هو أثر طبيعي له ليس من الخوارق ولا من السلطة الغيبية التي لا تكون الا لله وحده واذا رآه مرتقيا في سلوكه يبين له ان براهمة الهند يعرفون التوجه والرابطة ويؤثر عنهم كثير من الخوارق الصورية والمادية، التي لا تخرج عن السنن النفسية والخواص

الله بإذن الله وهذا الغلو في إجلال المشهورين هو سبب التقليد منشأ فساد كل دين

واذا كانت المسألة بديهية عند كل من يعرف الاسلام ، فهي من أعظم المشكلات عند جهلة العوام ، لأن الكثيرين منهم لايعرفون من الاسلام شيئاً له سلطان على نفوسهم الا ما يسمعون عن الرجال الصالحين ولا علاج لهؤلاء الا تعليمهم ماهو الاسلام مع الحكمة التي يجمع فيها بين بيان الحق وبين الادب عند ذكر أهل العلم والتقوى وبيان انهم غير معصومين من الخطا وأن كثيرا مما ينقل عنهم لا تصح نسبته اليهم ، وأن افضل ما يكرمون به هو عدم الثقة بما ينقل عنهم اذا كان مخالفا للشرع ، لا مخالفة الشرع اذا ادعي بعض الناس انهم خالفوه ، فان ذلك تقديم لهم على الله ورسوله ، ثم تحسين الظن بنيتهم وقصدهم فيما اخطأ اجتهادهم فيه وان المجتهد المخطئ منهم يؤجر على اجتهاده ولكن لا يتابع عليه ،

واني اذكر شاهدا واحدا من خطإ أئمة الصوفية والعلماء في اجتهادهم المتعلق بالتصوف وهو خطأ الإمام الغزالي — الذي صرحت غير مرة بأن كتابه الاحياء كان استاذي الاول الذي حبب الي العلم والتصوف — ليقاس عليه خطأ من لا يشق له غبارا من الشيوخ الصالحين المشهورين ومنه يعلم ان كل اجتهاد خالف الكتاب والسنة فليس من الدين

كان الغزالي في سياحاته ايام تصوفه يزور المشاهد وقال ان قبور الانبياء والصالحين تزار للاعتبار بتذكر الموت والآخرة وللتبرك ، فزاد على ما ورد في حديث الإذن بزيارة القبور ما سماه التبرك . ويعني به ما يجده الزائر السالك لطريق الآخرة عند زيارة المشاهد من الخشوع والحال التي تزيده رغبة في الآخرة واعراضا عن الدنيا . واستدل على مشروعية هذا ونحوه مما لم يرد في الشرع كالرابطة التي نحن بصدد البحث فيها بحديث « من بورك له في شيء فليلزمه » كأنه يقول اننا وجدنا لذلك فائدة في نفوسنا زادت في خشوعنا ووجد ان الدين في قلوبنا وذلك هو البركة لان معناها الزيادة وقد امرنا الشارع بلزوم كل شيء نرى فيه بركة لنا فنحن عاملون بأمره في ذلك

(المسألة الثانية) إن العبادة المشروعة لذاتها التي يطالب المسلمون بها هي مانطق به القرآن الكريم أومضت به السنة النبوية وجرى عليه جمهور السلف وماعدا ذلك فهو بدعة والبدعة في الدين لا تكون الا ضلالة كما ورد في الحديث واماالبدعة التي تعتريها الاحكام ، ويقال انمنها ما هو حلال وما هوحرام، فهي البدعة في أمور الدنيا علومها وأعمالها كما يدل عليه حديث مسلم « من سن سنة حسنةفله أجرها » الخ

(المسألة الثالثة) ان جميع ما يبتدعه الناس من وسائل النفع والخير في العلم والتربيةوالاعمال يشترط في جوازه ان لا يكون مخالفا لما هو مقطوع به من أمور الدين. فاذا فرضنا ان التوجه والرابطة ينافيان ماهو مقطوع به في الاسلام فانه لا يحل للمسلم العمل بهما . وقد علمت انهما يختلفان باختلاف العالم العارف والجاهل المقلد

ومن هذه المسألة أنتقل بك الى القسم الثاني من الاستفتاء وهو ما يفرضون من طاعة المريد لشيخه ولو في المعصية ، وعدم انكاره عليه وان فعل المنكر، واعتقاد انه لا يقبل له عمل ولا يصل اليه خير الا بواسطته ، ومثل هذا مما لا يحتاج فيه الى سؤال ولا جواب فان وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صريح في القرآن والأحاديث ومضت به السنة فهو معلوم من الدين بالضرورة يحكم الفقهاء بردة منكره ولم يستثن الله ولا رسوله مشايخ الطريق من هذا الحكم بل كان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور ينكرونها في أعمال الدين كالسهو في الصلاة أو أعمال الدنيا كالحرب وتدبيرها حتى يفسرها لهم ويفرق بين ماهو عن وحي وما هو عن سهو أواجتهاد غيره أفضل منه . والصوفية المحققون لا يشترطون على المريد الا حسن الظن بشيخه والادب في سؤاله وما عدا ذلك فهو من غلو المقلدين ، أو من دسائس الشياطين ، ولا يقولون انعبادته لا تقبل ولا يصل اليه خير من ربه الا بواسطة شيخه بل يقولون انه لا يصل الى المقصد من سلوكه الا بتربية شيخه . وهذا صحيح في الغالب

واما ما احتجوا به على مجلة « الامام » من « ان الجنيد والجيلاني وأضرابهما أوجبوا الرابطة » فهو بديهي البطلان عند كل أحد يعرف ما هو الاسلام اذ من المقرر انه ليس لأحد من خلق الله ان يوجب على عباد الله أمراً دينياً الا رسل

أصاب مالا من شيء» كما هو ظاهر حاشية ابن ماجه، ولأن هناك دليلا يمنع جريانه في أمر الدين وهو ما ذكرناه في الوجه الاول. على ان في سنده فروة أبا يونس عن هلال. قال الذهبي في الميزان مختلف فيه ليس بقوي وقد ضعفه الازدي. ولم يكن الغزالي في أيام تصوفه وزمن تأليفه الإحياء يبحث عن علل الحديث وإنما كان يستدل ويستنبط ما يتعلق بالفضائل من كل ما يراه في الكتب حتى كتب الصوفية ولذلك وقع في الاحياء كثير من الاحاديث المنكرة والضعيفة والموضوعة. وقد عكف على الحديث واعتصم بمذهب السلف في آخر عمره وان اهتدى الى حقية مذهب السلف قبل الانقطاع الى الحديث

واذا كنا معشر المسلمين نعتقد ان الاولياء والصوفية غير معصومين من الخطإ وكنا نشاهد الخطأ الصريح في كتبهم ونراهم يخالف بعضهم بعضا ويرد بعضهم على بعض فهل يصح ان نجعل أقوالهم واعمالهم اصلا من اصول الدين

وخلاصة القول ان التوجه والرابطة ليسا من عبادات الاسلام ولا دليل فيه على كونهما مشروعين ومن جعلهما عبادة مشروعة في ذاتها فقد دخل في عداد الذين قال الله فيهم (٤٢: ٢١ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله في بيان أصول المحرمات (٧: ٣٣ وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) وان ائمة الصوفية المحققين لا يجعلونهما من الدين وانما يجعلهما بعضهم من وسائل معرفة النفس فهما عندهم من قبيل الوسائل التي تتخذ الآن لما يسمونه استحضار الارواح وفي كل منهما لا بد من الواسطة، وان المقلدين في الطريقة النقشبندية وغيرها عرضة للضلال والشرك الجلي أو الخفي اذا تمسكوا بهذه الظواهر التي لا يعرفون مراد العارفين بها فيجب عليهم اتقاء ذلك وإحكام عقيدة التوحيد التي منها ان الشيوخ الاولياء بل والانبياء لا يملكون لانفسهم ولا للناس ضرا ولا نفعا ولا هداية ولا غيرها كما صرح به الكتاب العزيز في آيات كثيرة وأن يحسنوا الظن بمن قال بالرابطة من الصالحين وقد بينا مرادهم عن علم وعرفان وهو سر من اسرار التصوف أفشيناه للضرورة والارشاد وان يعتقد مع تحسين الظن بهم انهم ليسوا حجة في الدين وانهم لا يطاعون في معصية الله. ومن أراد ان يزداد نورا في هذه المباحث فلينظر جزء الترجمة من تاريخ الاستاذ الامام فان فيه بيانا لا يجده في كتاب

الخطأ في هذا من وجهين (أحدهما) ان الكلية ممنوعة فاننا لو جعلنا للانبياء والصالحين صورا وتماثيل تمثل لناظرها هيآتهم في الخشوع والوقار لكان لها في نفوس الناظرين اليها من التأثير ما ليس لرؤية قبورهم المشيدة المشرفة كما نرى ذلك عند غيرنا من الملل وهذا التأثير هو السبب في اتخاذ النصارى للصور والتماثيل في كنائسهم والغزالي لا يجيز هذا في الاسلام ومثله بناء المشاهد للصالحين وتشريف قبورهم واتخاذ المساجد عليها نهي عنه كما نهي عن الصور والتماثيل فثبت انه لا يجوز لنا ان نحدث في الدين ما ليس منه وان كان إحداثه لغرض صحيح وقصد حسن بل نتبع فيه ما جاء به الكتاب والسنة وجرى عليه سلف الامة ونجعل اجتهادنا فى اختيار النافع لنا محصورا فيما فوض الينا من الاستقلال بأمور دنيانا ·

(والوجه الثاني) ان الحديث الذي أورده يدل على ما ذكرناه من التخصيص بأمر الدنيا دون ما استدل به عليه من جعله في أمر الدين. إنه أورد الحديث باللفظ الذي اشتهر به على الالسنة ولم يروه به أحد · وما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة من عزوه الى ابن ماجه بعد ايراده بهذا اللفظ غير مراد ظاهره وانما مراده ان ابن ماجه رواه بالمعنى وقد ذكر نص رواية ابن ماجه في الجامع الصغير وهو « من أصاب من شيء فليلزمه » وقال انه رواه عن أنس وعائشة. أقول وقد أخرجه ابن ماجه في أبواب التجارة والكسب من حديث أنس بهذا اللفظ الذي ذكره في الجامع الصغير ومن حديث عائشة بلفظ آخر وهو « عن نافع قال كنت أجهز الى الشام والى مصر فجهزت الى العراق فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها يا أم المؤمنين كنت أجهز الى الشام فجهزت الى العراق فقالت لاتفعل مالك ولمتجرك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا سبب الله لاحدكم رزقاً من وجه فلا يدعه حتى يتغير له أو يتنكر له» تقول له مالك ولمتجرك القديم الذي تعودت الربح منه حتى تتركه وتقدم على ما تجهله ؟ الزم ما رأيت الربح فيه. ومعلوم ان الاوامر والنواهي المتعلقة بأمر الدنيا كهذا الامر لا يعد من التكليف الديني الذي يجب امتثاله شرعا وانما يسميه علماء الاصول أمر إرشاد يعتبر به ويعرض على المصلحة

ولا يقال إن حديث أنس عام لان عمومه في بابه على انه روي بلفظ «من

ذراعها الى قدر النصف • فاذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً كان معلوما بذلك ان لها ان تبدي من بدنها مالم يكن عورة كما ذلك للرجال لان مالم يكن عورة فغير حرام إظهاره ، واذا كان لها إظهار ذلك كان معلوما انه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله « الا ما ظهر منها » لان كل ذلك ظاهر منها . وقوله « وليضربن بخُمُرهنّ على جيوبهن » يقول تعالى ذكره وليلقين خمرهن وهو جمع خمار على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقرطهن . اه كلام ابن جرير

والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على الصدر وكانت المرأة تضع الخمار على رأسها وتسدله الى الوراء فيظهر عنقها وصدرها فأمرن بأن يجعلن طرفه على الجيب ليستر العنق والصدر . ولم يؤمرن بوضعه على الوجه فلو لم يقل الا ما ظهر منها لكان يصح ان يقال ان كشف الوجه باق على أصل الإباحة فكيف وقد امر بستر الجيب ولم يأمر بستر الوجه! . وناهيك بحكاية ابن جرير الإجماع على ذلك وهو ما كان عليه النساء في عهد السلف فقد كنّ يأتين المساجد ويغشين الاسواق ويسعفن الجرحى في مواقع القتال ويخطبن على الرجال ويناقشن الامراء والحكام . فعلن ذلك وأمثاله مكشوفات الوجوه . ومن جال في أرض المسلمين في الاقطار المختلفة يرى ان أكثرهن يخرجن مكشوفات الوجوه ولا يستره منهن الا بعض نساء المدن وهي عادة حكمت بها غيرة الرجال عند ما دخل المسلمون في الحضارة وانغمسوا في الترف الذي يستلزم الفسق والفجور ولذلك ترى أكثر الفقهاء عللوا وجوب ستر المرأة وجهها عن الرجال بخوف الفتنة وابتدأ هذا البحث والخلاف في القرن الثاني

هل يمكن لمكابر ان يقول ان النساء كن يصلين مكشوفات الوجوه في مسجد الرسول (ص) في حياته ولا يراهن أحد ؟ اذا كابر أحد نفسه وقال يحتمل ان الرجال لم يكونوا يرون النساء في المسجد لانهن يصلين وراءهم ولم يخش ان يقال له انهم كانوا يرونهم قبل الصلاة اذ كن ينتظرن الجماعة معهم وبعدها عند الانصراف كما هو مأثور مشهور — فهل يسفه نفسه ويقول ان الرجال لم يكونوا يرون وجوه النساء وأيديهن في أثناء أعمال الحج من طواف وسعي ووقوف بعرفة وجولان في أرض الحرم ومعلوم لكل من يعرف احكام الحج في الاسلام أن كشف المرأة

﴿ وجه المرأة الحرة ﴾

(س ١٢) من محمد رحيم افندي الشفي في « زويله باشي» بسمبر (روسيا)

الفاضل الجليل والعالم النبيل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الأغر دمت بالعز والكرامة. اما بعد فقد كثر المباحثة والمناظرة في حق وجه الحرة في طرفنا فبعض العلماء قالوا ليس بفرض ستر وجه الحرة لحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود وابن مردوية والبيهقي ان اسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « ياأسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الاّ هذا وهذا » وأشار الى وجهه وكفه وبعضهم قالوا ان ستر وجه الحرة فرض وان لم تستره تكون آثمة عند الله لقول عائشة رضي الله عنها احدى عينيها فحسبت لاندفاع الضرورة (كذا) أخذه القهستاني والزاهدي فالمأمول من سيادتكم ان يبين الحق من الاقوال لرفع النزاع من بين الناس

(ج) حديث عائشة لا تنهض به الحجة فانه مرسل وفي اسناده من تكلم فيه والاصل في المسألة قوله تعالى (٢٤ : ٣١ ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها) فقد روي عن ابن عباس انه قال : الظاهر منها الكحل والخدان وفي رواية عنه : الزينة الظاهرة والوجه وكحل العين وخضاب الكف والخاتم . وعن سعيد ابن جبير والضحاك : الوجه والكف . وعن عطاء : الكفان والوجه. وسئل الأوزاعي عن قوله تعالى « الا ما ظهر منها » فقال : الكفين والوجه ذكر ذلك كله ابن جرير في تفسيره وذكر أقوال من قالوا انها الثياب والحلي أو الوجه والثياب ثم قال : وأولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال عني بذلك الوجه والكفان يدخل في ذلك اذا كان كذلك الكحل والخاتم والسوار والخضاب . وانما قلنا ذلك أولى الاقوال في ذلك بالتأويل لاجماع الجميع على ان على كل مصلّ ان يستر عورته في صلاته وان للمرأة ان تكشف وجهها وكفيها في صلاتها وأن عليها ان تستر ما عدا ذلك من بدنها الا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اباح لها ان تبديه من

يقال مثلا ان صلاة النساء مع الرجال في المساجد حرام في الاسلام، بناء على ما يقولون به من فساد الزمان، ومثله كشف المرأة وجهها . وانما يصرح بان حكم الاسلام هو كان الذي عليه السلف اتباعا للكتاب والسنة ولكن اذا عرض ما يمنع من العمل به بناء على قاعدة درء المفاسد فاننا نمتنع عنه ما دامت المفسدة متوقعة

فحاصل الجواب ان كشف المرأة لوجهها هو الاصل الذي كان عليه الناس واقره الاسلام بل أوجبه في الإحرام وادعاء حرمته في أصل الدين جناية على الدين وتحكم فيه بالرأي أو الهوى وإثبات للحرج والعسر فيه وقد نفاهما الله عنه لأن أكثر المسلمات يشق عليهن ذلك مع الحاجة الى العمل والسفر وان تحمله من نساء الامصار من تعودنه أو من كفتهن الثروة مزاولة الاعمال . ودعوى خوف الفتنة من كشفهن لوجوهن لا تسلم على اطلاقها فاننا نعرف من نساء الفلاحين والبدو السافرات من نقطع بأنهن أبعد عن الريبة من نساء المدن المتنقبات ، ولكن المرأة التي تعلم ان في كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك

﴿ احترام المسلم لشعائر غيره الوطنية والدينية ﴾

(س ١٣ و ١٤) من ج ٠ ١ ٠ بمصر

جناب الاستاذ العالم الشيخ رشيد رضا المحترم

حبذا لو تكرمتم بإبداء معلوماتكم السديدة وآرائكم المفيدة عن السؤالين الآتين وما ذلك الا حباً في الافادة والاستفادة .

١ — هل يجوز لأحد المسلمين ان يراعي شعائر الدولة التابع لها أم لا ؟ مثلا اذا فرض وجود بعض المسلمين التابعين لدولة مسيحية كالروسيا وغيرها هل يتحتم على الرعايا المسلمين في مثل هذه الاحوال ان يجاروا الشعب في شعائرهم مع وجود المغايرة في الاحتفالات الدينية بمعنى هل يليق بهم أن يقوموا بالاحترام اللازم للقيصر أو للحاكم اذا مر في الشوارع أو قابلوه في محله كما تفعل الرعية التي على دين ملكها أو حاكمها . وهل يتشارك المسلمون فى اقامة الاحتفالات التي تقوم

وجهها في الإحرام واجب ومن النساء من تحرم بالحج من أول أشهره فتكون أكثر من شهرين محرمة مكشوفة الوجه واليدين أينما كانت وحيثما حلت وهي مع الرجال في جميع الاعمال

ومن نظر الى كلام فقهاء القرون الوسطى الذين رجحوا تحريم النظر الى الوجه والكفين يجد انهم لم يأتوا عليه بدليل من الكتاب ولا من السنة ولا من عمل أهل الصدر الاول وانما عللوه بخوف الفتنة وسد الذريعة وقد قالوا بحرمة النظر الى وجه الأمرد وعللوه بتلك العلة ومن العجب ان امام الحرمين من الشافعية اغتر بمنع الحكام النساء من الخروج في زمنه وظن ان عليه جميع المسلمين

قال الرملي في شرح المنهاج عند تصحيح المتن لحرمة النظر الى وجه المرأة وكفيها حتى عند الامن من الفتنة : « والثاني لا يحرم ونسبه الامام للجمهور والشيخان للاكثرين وقال في المهمات انه الصواب . وقال البلقيني الترجيح بقوة المدرك والفتوى على ما في المنهاج وما نقله الامام من الاتفاق على منع النساء أي منع الولاة لهن معارض لما حكاه القاضي عياض عن العلماء انه لا يجب على المرأة ستر وجهها في طريقها وانما ذلك سنة وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية وحكاه المصنف عنه في شرح مسلم وأقره عليه » الخ ما ذكره ومنه انه يحرم النظر الى المرأة المتنقبة التي لا يرى منها غير عينيها ومحاجرها والى العجوز والمشوهة

وفي حاشية المقنع من كتب الحنابلة « لا يجوز له النظر الى الاجنبية قصداً وهو المذهب . وقال القاضي يحرم النظر الى ما عدا الوجه والكفين لأنه عورة ويباح له النظر اليهما مع الكراهة اذا أمن الفتنة ونظر بغير شهوة وهذا مذهب الشافعي . قال في الانصاف : وهذا الذي لا يسع الناس غيره خصوصاً للجيران والأقارب غير المحارم الذين نشأ بينهم » ثم نظر في هذا بأن فيه تجريئاً للفساق وهو مخالف لمقاصد الشرع في إصلاح أمر الدنيا والآخرة . وبمثل هذا صرح الحنفية مع أن الجميع يروون عن أئمتهم ان الوجه والكفين غير عورة وعن ابن عباس تفسير الآية بذلك

أقول ان مسألة الخوف من الفتنة العارضة أو سد ذريعتها لا يصح ان تجعل دليلا لتغيير حكم من احكام الدين التي كان عليها السلف بحظر أو إباحة تغييرا مطلقا كأن

باب المناظرة والمراسلة

٥

﴿ بحث العمل بالاحاديث القولية والاحاديث الفعلية ﴾

يقول حضرة الدكتور اما السنة القولية (الاحاديث) فبعضها نسخ بالقرآن وبعضها الآخر نسخ بالاحاديث الأخرى . ونحن نقول ما الدليل الذي قام لدى حضرة الدكتور في التفرقة بين السنة القولية والسنة الفعليـة ؟ولم لايكون النسخ في الفعلية ؟ وما الدليل على ذلك ؟ اليس من المقرر والمسلم ان اصل كل تشريع انما هو القول؟ وهل يعرف الواجب والحرام والسنة والمكروه الى غير ذلك الا بالقول؟ الم يكن من المعلوم ان الافعال تتطرقها احتمالات كثيرة اذا لم يقارنها البيان بالقول وقد تبقى مجملة لا يتعين المراد منها الا به ؟

يقول حضرة الدكتور « فبعضها نسخ بالقرآن » ويقال عليه ان نسخ السنة بالقرآن » قد قال الامام الشافعي انه لايكون حتي حكى بعض الشافعية عنه انه قال حيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له

وحضرة الدكتور لم يذكر ذلك عنه بل نقل بعض قوله وترك البعض ودونك قول الامام في الرسالة «لاينسخ كتاب الله الا كتابه — ثم قال — وهكذا سنة رسول الله (ص) لا ينسخها الا سنته » فان جاز الاستدلال بقول الامام هناك جاز هنا والا فلا في الموضعين

وقوله « وبعضها الآخر نسخ بالاحاديث الاخرى » يقال عليه فهذه الاخرى الناسخة هل هي معلومة ام لا وهل هـذه هي المدونة عند اهل الحديث ام هي احاديث غيرها ؟ واين هي؟ ومن ادراك بها فانك قد قررت انك لا تقبل النسخ الا ان نجد الله او رسوله قال هذا ناسخ وهذا منسوخ وينقل الينا ذلك بالتواتر فهلا انصفت مناظريك ؟ —

بها الدولة التابعين لها كاحتفالها بعيد ملكها أو بعيد وطني أو يجب تجنب مثل هذا الاحترام وهذه الاحتفالات بغير الملوك المسلمين ·

— ٢ — هل يجوز للمسلم احترام شعائر غيرة الدينية أم لا ؟

مثلا إذا أراد أحد المسلمين دخول كنيسة مسيحية أو ما شاكلها وطلب منه رفع عمامة أو مجاراة الشعب في عوائده الدينية هل له ان يفعل هذا أم يمتنع ·

هذا ما أردنا الاستفهام عنه من عالم خبير مثلكم فنرجو الإجابة اما عموميا في مجلتكم الزاهرة او خصوصيا باسمي والسلام

(ج) اما الاحتفالات والشعائر الوطنية فيباح للمسلم أن يشترك فيها مع أهل وطنه ما لم تشتمل على محرم في الاسلام كشرب الخمر على اسم الملك الذي يسمونه النخب

وأما الشعائر الدينية فلا يجوز للمسلم ان يشارك غير المسلمين فيها كأن يصلي معهم كصلاتهم الخاصة بهم كالتي تكون منهم في الكنيسة وهم مكشوفو الرؤوس متوجهون الى قبلتهم وان لم يقل قولا يحظره الاسلام ·فالمحظور في هذا المقام يرجع الى أمرين ـ أحدهما الاتيان بما هو ممنوع في الاسلام كتعظيم صور الانبياء والصالحين أو طلب الخير او دفع الشر منهم · وثانيهما العمل الديني الخاص بغير المسلمين بحيث لو عمله المسلم لعده رائيه منهم هذا ما اتفق عليه الفقهاء فيما نعلم ولعلنا نفصل القول في ذلك بعد

﴿ حديث علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل ﴾

(س ١٥) من احمد افندي محمد عطيوه بالقناطر الخيرية

المرجو من حضرة الاستاذ الحكيم السيد رشيد رضا افادتي عن هذا الحديث « علماء أمتي كأنبياء بني أسرائيل » في أي كتاب من الكتب الحديثية المعتبرة هو — وفي أي باب هو صحيح هو أم ضعيف · ولكم من الله الاجر ومني عاطر الثناء والشكر

(ج) هو حديث موضوع تجدونه في كتب الموضوعات وذكره الحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة وقال لا أصل له والشيخ عبد الرحمن الديبع في تمييز الطيب من الخبيث وقال « قال الدميري والزركشي وابن حجر إنه لا أصل له »

شرعيها او انها منسوخة بعد مدة كذا من الزمن ولا انه نهى عنها لأجل ان تندثر السنن بطول الزمن . ان احدهذه الامور التي ذكرناها تمنع الاستدلال على ما قصده حضرة الدكتور فكيف يصح ان يكون ما هذا حاله معارضا لجميع الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واجماع الصحابة بل وسائر المسلمين ! فطاعة الرسول ووجوب اتباع سننه معلوم بالضرورة من دين الاسلام – لا سيما اذا كان حديث النهي عن الكتابة معللا بعلة منصوصة عن روايه وهو خوف الالتباس بالمصحف . وكل من روي عنه من الصحابة النهي او الامتناع عن كتابة الحديث فهو دائر على هذه العلة كما صرحوا بذلك. ومنهم من خاف ان يقع في الوعيد على الكذابين ومنهم من نهى عن كتابة رأيه فاشتبه ذلك على الناظرين فظنوا انه نهى عن كتابة السنة النبوية وليس الأمر كذلك – فالقول بان نهيهم عن كتابة العلم او الحديث نص في النهي عن كتابة السنن النبوية هو قول بالخرص

ثم هل يجوز لمن لا يجوز العمل بالظن ان يأخذ اقوالهم في امر قد صرحوا بسببه ان يتركه ويهمله ثم يحمل قولهم على غير ما ارادوه بل على ما نهوا عنه وهو ترك اتباع السنة واعتقاد وجوب اتباعها. ثم نقول الحق ان الامور المعللة يدور حكمها مع عللها وحيث زالت العلة زال الحكم وهو هنا خوف الالتباس بالمصحف فقد وقع الاجماع على جواز بل استحباب كتابة الحديث وقال بعضهم بالوجوب وهو الحق. هذا كله اذا سلمنا ان حديث النهي مرفوع وانه غير منسوخ .ومن اطلع على القاعدة الاصولية من انه اذا وقع التعارض بين دليلين احدهما مانع والآخر مرخص مثلا عرف ان الاجماع على كتابة السنن غير معارض لنص – لأنه بعد تساقط الدليلين المتعارضين اعني حديث النهي عن الكتابة واحاديث الامر والترخيص فيها تبقى البراءة الاصلية والاجماع ان لم نقل هو حجة فهو مؤيد لها

ونحن نسأل حضرة الدكتور هل حكم حديث النهي عام وباق ام لا ؟ فان قلت بالاخير فقد وافقتنا وحينئذ لا يصح لك الإلزام به . وان قلت بالاول لزمك ان تمنع عن كتابة جميع العلوم المستنبطة من القرآن بل اولى من ذلك كله ان تمنع عن كتابة سائر العلوم

وقوله « وعندنا انه لم يبق منها شيء يجب العمل به غير موجود في القرآن » الجواب عليه هنا ان يقال ان هذه مجرد دعوى لا يستطيع حضرته ان يقيم البينة عليها هو ولا غيره فان في السنن من الاحكام والآداب أضعاف مافي القرآن وهي بفضل الله تعالى لا تخالف مقاصد القرآن وهي مطابقة للعقل ولا يمكن ان يستغني عنها البشر ولولا خوف الاطالة لاتينا بجمل منها و بينا مالها وما عليها ومقدار الحاجة اليها فليتبع ذلك حضرته

بل نقول ولا يبعد ان القرآن محتاج الى السنه اكثر من احتياج السنة اليه. يوضحه ان القرآن الكريم ذواوجه والسنة مبينة للمراد منه تارة وشارحة ومفسرة أخرى . او تأتي بأحكام زائدة على مافيه يشرعها الله على لسان رسوله (ص) لشدة حاجة البشر اليها اظهارا لكرامة رسوله (ص) عليه وليتعودوا طاعته واتباعه كما أمر بذلك في كتابه ولئلا تجرهم الشبهات الى رد بيانه للكتاب الكريم. ولبسط ذلك محل آخر

يقول حضرته « لانها لم تكن الا شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية » واقول هذه دعوى وتعليل لما شاء بما شاء وكل احد يمكنه ان يدعي فاين الدليل ؟ اما قوله تعليلا لذلك نهيت الصحابة عن كتابتها فيقال عليه ان مسئلة النهي عن الكتابة والترخيص فيها هي مسئلة لاتدل على نسخ السنن النبوية باحد الدلالات مطلقاً والقاريء يرى ان حضرة الدكتور قد ملأ الكون صياحاً بالانكار على العمل بالظن فانا نراه قد انسلّ هنا الى هدم ما كان اسسه ثم يعمد الى هدم القصور اليقينية فيرد جميع السنن ويلغي طاعة الرسول (ص) التي أمر الله بها في غير موضع من كتابه والاحاديث المتواترة لفظا ومعنى في وجوب اتباعه واتباع سنته . ويرد اجماع الصحابة بل جميع الامة ؟ ماله يرد ذلك كله بالخرص والتخمين الذي لا يبلغ الى اضعف مراتب الظن بل لا يصح ان يعتبره معتبر ؟ فليعتبر حضرته بمناقضته لنفسه بنفسه

إن أمر النهي عن الكتابة لم ينقل الينا متواترا بل قد اختلف فى رفعه الى المعصوم (ص) وفى نسخه وقد عارضه ماهو اقوى منه ولم ينص فيه على أن المراد منه ان السنن موقت

المحال وحضرة الدكتور نجله ان يعني ذلك فمن زعم ان محمد (ص) اوجب ما ليس بواجب وحرم ما ليس بحرام على الامة وانه يعلم ذلك ويعتقده او ان اصحابه يعتقدون ذلك او انهم لم يأتمروا به الخ فخطؤه فوق كل خطأ وافتراؤه فوق كل افتراء ومع ذلك كله هو غير مستند الى شيء يصح الاعتماد عليه حتى ولا شبهة

فقول القائل ان ما اوجبه او حرمه النبي (ص) انما هو مقيد بوقت حياته — هل يصح ويثبت بدعوى عدم الكتابة او دعوى النهي عنها أو انها لم تكتب مدونة مرتبة ؟ قد قد منا ان عدم الكتابة مطلقا لم يرد فيها الا حديث واحد قد اختلف في رفعه وسبب النهي منصوص كما قد مناه مع معارضته لما هو اصح منه

فهل يصح ان يكون ذلك الحديث المذكور ناسخا للآيات الكثيرة القرآنية المصرحة بوجوب ولزوم طاعة الرسول (ص) واتباعه — ان طاعة الله لا ينازع احد في وجوبها في وقته (ص) و بعد وفاته وانها أي طاعة الله واجبة علينا كما هي واجبة على اول الامة

لكننا نرى القرآن مصرحا بان طاعة الله مشروطة بطاعة الرسول (ص) وهل طاعة الرسول (ص) الا الائتمار بامره والانتهاء لنهيه والا لم تكن له طاعة وقد عرفت ثبوتها ودل القرآن عليها نصا كما يأتي وهي لا تكون الا في سننه القولية كما قال تعالى « وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا * من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » اما الاتباع والتأسي فيكون في الفعلية العملية والقولية

مهما يمكن لاحد ان يعبر عن وجوب اتباع احد وطاعته لا يمكنه ان يعبر عن ذلك باكثر واوضح مما عبر الله به في وجوب اتباع رسوله محمد (ص) فان كان ذلك قابلا للتشكيك لزم ان لا يوجد في العالم خبر يوثق به و بدلالته

ان الله جل شأنه لم يأمر بطاعته في القرآن الا وأمر بطاعة رسوله (ص) معه بل قد يفرد الامر بطاعة الرسول (ص) ويجعلها شرطا لطاعته ولم يفرد طاعته عن طاعة الرسول (ص) ثم هو تارة يأمر باتباعه وتارة يأمر بالتحاكم اليه ويجعل ذلك من شرائط الايمان وكذلك تسليم ذلك له وعدم وجدان الحرج — وتارة يأمر بالتأسي به وتارة يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وتارة

ان كان الاختلاف في كتابة السنة قادحا في العمل بها مسوغا لاقتراح ان علة ذلك وسببه كونها شريعة موقتة — فان الاختلاف قد وقع في جمع القرآن وكتابته واول من خالف في ذلك الخليفة الاول ثم رجع الى قول عمر (رض) فهل يسوغ ان يقال ان الصدّيق رضي الله عنه لم يخالف في ذلك الا لان شريعة القرآن موقتة ؟ لا — لا — في الامرين فان قيل ان الصديق قد رجع ووقع الاجماع على ذلك . قلنا وكذلك جمع السنة وكتابتها قد وقع الاجماع عليه . والفاروق لما سأل الصحابة رأيهم في جمع السنن اشاروا عليه بجمعها ولكنه خالفهم للسبب الذي ذكرناه كما صرح بذلك هو اذ لم يحن له الوقت المناسب الذي يزول فيه خوف الالتباس ولما كان هو اذ ذاك صاحب الامر لم يستطع من أشار عليه منهم ان يفعل غير ما امضاه الخليفة

ومن تفكر في اهل زماننا بل منذ ازمان قديمة رأى صحة هذا التعليل المنصوص دراية كما هو صحيح رواية فانك تجد مصداق ذلك فيما نراه من اكباب الناس وانهماكهم على كتب شحنت بآراء مشايخهم واسلافهم حتى جعلوها كالمصاحف بل قدموها على المصحف وعلى السنة النبوية على صاحبها الف صلاة وتحية

أما قوله « ولم يعاملها النبي (ص) ولا أصحابه بالعناية التي عومل بها القرآن لتزول من بين المسلمين وتندثر » فأقول أي المعاملات يريد حضرة الدكتور؛ فان كان يريد ان القرآن يمتاز بانه كلام الله لفظاً ومعنى وانه معجز متحدى به وانه متعبد بتلاوته وانه كلام الخالق غير مخلوق ونحو ذلك فهذا صحيح وسنن الرسول (ص) لا يمكن ان تعامل بهذه المعاملة كلها — فكما ان الله جلا وعلا هو الرب والاله المعبود ومحمد (ص) عبده ورسوله وداع اليه بإذنه فلا يعامل بما يعامل به الإله مما يخص الالوهية والربوبية فكذلك كلامه (ص) لا يعامل بما يعامل به القرآن من كل الوجوه كما تقدم وان اراد ان النبي (ص) لم يعامل سنته بما يعامل به القرآن من حيثية التشريع كأن يأمر الامة بما لا يجب الائتمار به وينهاهم عما لا يجب ان ينتهوا عنه أو أنه يعتقد ذلك او ان اصحابه يرون عدم وجوب اتباعه فى جميع اقواله وافعاله وفيما شرع الله من الدين على لسانه فإرادة هذا منه (ص) أو منهم هو أمحل

دل القرآن عليه ومناقضة لما زعمه حضرة الدكتور « اني تارك ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي » والأحاديث متواترة في أمره (ص) ان يبلغ عنه وفي وجوب اتباع سننه أيضاً تواترا معنويا . أما أقوال الصحابة (رض) في اتباع الكتاب والسنة فأكثر من ان تستقصى بل ذلك اجماع عنهم وعن سائر المسلمين — وكل ما خالف الكتاب والسنة فانما هو عند الصحابة (رض) من الرأي المذموم وهو الظن المشئوم الذي حذر الله عنه في كتابه فحمله حضرة الدكتور على الرواية والمروي بلا بينة بل بناء على اصطلاح المصطلحين . على ان كل من سوى الرسول (ص) غير معصوم من الخطأ والسهو

هذا ولا يحيط بسنته (ص) الا مجموع الأمة وما عند الأمة من ذلك قد دون وها هو بين أيدينا فهلموا بنا الى اقتفائه واتباعه (ص) الذي لا حياة ولا نجاة لنا الا به « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » فليحذر الذين يخالفون عن أمره » الآية « ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » نسأل الله لنا ولاخينا الدكتور الهداية والتوفيق لصراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين وان يوفق من أراد له الهداية انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله الامين وآله وأصحابه الطيبين ومتبعيهم بإحسان الى يوم الدين آمين

كتبه بيده وقاله بفمه

الحقير صالح بن علي اليافعي عفا الله عنه

(المنار) اذا اراد الدكتور محمد توفيق افندي صدقي ان يرد على هذه الرسالة فالمرجو منه ان يبين مايراه منتقدا منها بالاختصار ولا يطيل في اصل الموضوع وان يسلم بغيره المنتقد عنده تسليما صريحا

يعلمنا بانه المبلغ عنه المؤتمن وتارة ينسب التحليل والتحريم اليه (ص) ثم نراه ينبه في محل آخر بانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ـ وتارة يأمره أن يحكم وان لا يحكم الا بما اراه الله ـ وتارة يقول له « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فجعل اتباع الرسول (ص) مقدما على طالبهم محبة الله و بابا لمحبة الله لهم وهذا لا يمكن ان يخص بقوم دون قوم وزمان دون زمان ـ وتارة ينهى عن التقدم بين يديه بقول أو فعل وتارة ينهى عن التولي عنه وعن امره ـ وتارة ينهى عن مخالفة امره وتارة ينهي عن التسوية بين دعائه ودعاء غيره وقد قرانه الداعي الى الله حتى انهم كانوا يرون اجابة غير مبطلة للصلاة وتارة وتارة يحذر عن مخالفتهم أمره «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» الآية ـ وتارة ينهى ان يجعلوا لانفسهم الخيرة من أمرهم مع أمره ـ وتارة ينهي عن مشاقته و إن من شاقه فقد شاق الله وتارة يجعل من صفات الايمان بالله المبادرة الى طاعة الرسول (ص) الى غير ذلك من اساليب التعبير والتفنن فيه لايضاح وجوب اتباع الرسول (ص) فان القرآن ملآن من أوله الى آخره بذلك حتى القصص فانها انما سيقت للاعتبار وليطاع الله و يطاع رسوله (ص) ويتبع وليؤمن الناس بالله ورسوله (ص)

فهل يصح ان يهدم هذا كله بشبهة حديث ابي سعيد (رض) على ما فيه مما قدمناه ؟ ام هل يسوغ ان يقال ان الصحابة (رض) خالفوا ذلك كله وانهم لم يعتنوا بسنته اذا رأينا احدهم احتاط في الرواية او حكم بخلاف السنة بعذر انها لم تبلغه ولو بلغته لرجع اليها كما قد شوهد عنهم الرجوع اليها في جميع أحوالهم وهل يصح اعتبار قول من خالف ما ذكرناه كائنا من كان مالم يكن عن الله أو عن رسوله وقد عرفت حكمها في ذلك .

فكيف يصح قول الدكتور أن النبي (ص) وأصحابه لم يعاملوا السنن النبوية بغير ما عاملوا به القرآن الا لتندثر وتزول من بين المسلمين مع ما عرفت مما قدمناه عن القرآن . ولم لم يصرح الله ولا رسوله (ص) ولا أصحابه (رض) بما صرح به حضرة الدكتور ؟

ان من تتبع أقوال النبي (ص) ووصاياه ومواعظه وخطبه يجدها موافقة لما

في البلاد الانكليزية اسمه الياس جب كان مغرما بدرس العلوم والتواريخ العربية والتركية والفارسية ثم مات في الخامسة والاربعين من سنه فوقفت أمه مالا عظيما على احياء الكتب الشرقية التي كان مشتغلا بها يصرف ريعه في ذلك وعهدت بالعمل الى لجنة من الرجال القادرين عليه وقد شرعت اللجنة بطبع هذا الكتاب بعد ما عني الدكتور مرجليوث العالم المستشرق الشهير بتصحيحه وقد هدتنا الجزء الاول منه فاذا فيه بعد الفاتحة فصلان في علم الادب وعلم الاخبار يتلوهما باب الهمزة وهو يبتدئ باسم آدم بن احمد الهرمي وينتهي باسم احمد بن علي بن المعمر وصفحاته تزيد على أربع مئة منها ترجمة ابي العلاء المعري في ٤٣ صفحة فنشكر لجميع العاملين في احياء هذا الكتاب وأمثاله فضلهم ونخص بالذكر المصحح ونرجو ان يعنى طابعو الكتب في مصر ولو ببعض هذه العناية في التصحيح والاتقان

﴿ الرد على من اخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض ﴾

بنيت قواعد الاسلام وأقيمت أركانه على أساس العلم حتى كان من المجمع عليه عند علمائه ان جهل المكلف بما يجب عليه من أصوله وفروعه ليس بعذر في الدنيا ولا في الآخرة فالقاضي الشرعي لا يترك عقوبته اذا ارتكب موجبها جاهلا كما ان الله تعالى لا يعذره في الآخرة اذا اقترف الفواحش والمنكرات جاهلا بتحريمها . قالوا الا اذا نشأ في شاهق جبل أو كان قريب عهد بالاسلام . والعلم ما كان بالدليل فالعالم لا يكون الا مجتهدا ولذلك اجمعوا على ان المقلد لا يسمى عالما كما صرح به ابن القيم في أعلام الموقعين وقد بقي الفقهاء الى القرون الوسطى يطلقون لفظ العالم ويريدون به المجتهد كما ترى في كلامهم عن القاضي والمفتي ولكن وجد في هذه القرون من المؤلفين الجاهلين من ادعى ان الاجتهاد طوي زمنه وأن العلم بالاسلام أي بالكتاب والسنة صار متعذرا وان الواجب على جميع المسلمين هو الأخذ بما كتب في المصنفات الفقهية التي ألفها المنتسبون الى أحد المذاهب المشهورة فقام المدافعون عن العلم يردون هذه الدعوى ويبينون وجوه بطلانها حتى افردوا ذلك بالتأليف

آثار علمية أدبية

﴿ ارشاد الاريب، الى معرفة الاديب ﴾

المعروف بمعجم الادباء – أو – طبقات الادباء

مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله ياقوت الحموي المولد البغدادي الدار الرومي الجنس صاحب كتاب معجم البلدان المشهور. كان غلاماً لتاجر حموي علمه ليكون عوناله في تجارته ثم أعتقه وتركه مدة ثم استعمله في تجارة سفره بها فلما عاد كان مولاه قد توفي فاعطى أولاده وزوجته شيئاً مما كان بيده فأرضاهم واتجر بالباقي وجعل بعض تجارته كتباً فكانت عونا له على ما تصبو اليه نفسه من العلم لا سيا التاريخ والادب. فألف مؤلفات كثيرة في ذلك أشهرها معجم البلدان ومعجم الادباء الذي ذكر ابن خلكان ان اسمه (إرشاد الالباء ، الى معرفة الادباء) ولكننا أهدينا منذ أشهر المجلد الاول منه مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد واذا باسمه الذي كتب عليه (إرشاد الاريب. الى معرفة الاديب) وكان بعض النسخ كتب عليها هذا الاسم و بعضها كتب عليها ذاك

موضوع هذا المعجم تراجم من كانوا يعرفون بالادباء في تلك العصور قال المؤلف في فاتحته (ص ٥) « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليَّ من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين ، والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الادب تصنيفا ، أو جمع في فنه تأليفا ، مع إيثار الاختصار والإعجاز ، في نهاية الإيجاز ، ولم آل جهدا في اثبات الوفيات ، وتبين المواليد والاوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم وشيء من اشعارهم ، » الخ فالكتاب من احسن دواوين التاريخ والادب وقد كان كنزا مخفيا فاظهرته همة اوربية. ذلك ان رجلا من الناشئين

على العناية باللغة العربيـة ونصر دولتها وذكر إمامي المصلحين : حكيم الاسـلام ، والاستاذ الامام (ص ٦٢)

«فما ضركم لو تساندتم جميعا وانتم لا تتجاوزون زمن القمر عدا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحركتم من الخامدين ، وهززتم من الجامدين ، فاني أراكم بين متفصح على اخيه ، ومتنبل على قرينة ، وليس هذا صنع من يريد ما تريدون ، تحاولون رد هذه الدولة الى شبابها ، بعد ان خلا من سنها ، ولو لم يتداركها الله بذلك الافغاني لقضت نحبها ولقيت ربها ، قبل ان يمتعها بكم ويمتعكم بها ، أدركها الافغاني ولم يبق فيها الا الذماء ، فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها ، وشدت من عزمها ، ادركها وهي شمطاء قدنهض منها بياض المشيب في سواد الشباب ، فشاب قرناها قبل ان تشيب ناصية القرن الخامس ، فسودت يده البيضاء ما ابيضت من شعرها سود الليالي ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، و بدا اصلاحها ، وقد كان الناس في ذلك العهد يدينون باللفظ و يكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى ابصروا نور الهدى ، وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى ، وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته ، وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى الى حركة النفس ، وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعية ، فكان من ذلك ان انطوى أجل التقليد ، وأن بعث الله على يديه ميت اللغة واحيا رفات الانشاء ، وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه ، أو مؤلفاً نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رءوسا تؤلف ، وأفكارا تصنف ، وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجود بنفسه : خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ، ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الاثر على صفحات الصدور ، فان لم ترثوا عنا في بطون الكتب فقدورثتم عنا في صدور الرجال ، فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم يغادر كلاهما مؤلفا ، ولم يدع مصنفا ، فلولا محمد عبده ما عرف رجل الافغان ، ولولا أفلاطون ما ذكر رأس فلاسفة اليونان

ولما سكنت أنفاس الافغاني بعد أن تجددت بذكره الانفاس ، خلفه حكيم الشرق

من هؤلاء الحافظ الشهير جلال الدين عبد الرحمن السيوطي فقد وضع فيها كتابا سماه « الرد على من أخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض » وقد اورد فيه النقول الكثيرة عن اكابر علماء المذاهب الاربعة لأن كلامهم يقنع المقلدين المنكرين مالا يقنعهم الدليل المؤيد بنصوص الكتاب العزيز وما جرت به السنة السنية . وقد طبع هذا الكتاب طبعا حسنا في المطبعة الثعالبية بالجزائر وهو يطلب من صاحبها احمدافندي بن مراد التركي وأخيه فنشكرلهما احياء هذا الكتاب النافع ونحث القراء على الاقبال عليه

﴿ ليالي سطيح ﴾

طبع الجزء الاول من هذا الكتاب الذى شرع في تأليفه حافظ افندي ابراهيم وجعله في انتقاد الاخلاق والعادات، و وصف حال الاجتماع في مصر ، وجعله حوارا مع سطيح الكاهن الجاهلي ، ذلك الكتاب الصغير الكبير ، الذي تبارى في تقريظه عالم الكتابة والتحرير ،فسالت انهار الجرائد بمداد آياته،وجرت اقلام الكتاب في فلك حسناته ، ولهجت ألسنة الفصحاء بوصف مافي مبانيه من المتانة والإحكام ، وما أودعه اسلوبه من الرقة والانسجام ، وتغلغلت افكار الحكماء في التأمل بما انطوى عليه من الحكم والعظات ، وما بينه من الامثال والمثلات ،وتلطف الناقدون في الايماء الى مافيه مما لم يخل من مثله كلام الناس ، كالتفاوت بين بعض الجمل او عصيان قوانين القياس ، فلو جمع ما كتب في تقريظ كتاب ليالي سطيح ، من الثناء والمديح ، لكان معه كليالي هجر الملال ، مع ليالي الوصال ، على ان ليالي التقريض ، هي من ليالي الوصال البيض ، جمع فيها الأدب بين جمهور من الادباء المنشئين ، و بين محبوبهم حافظ افندي ابراهيم ،

اخذ اولئك الكاتبون مسالك القول على من يحاول بعدهم وصف الكتاب او نقده فما على المنار الا ان يجعل الوفاء بذمة حافظ عرض شيء من حكم كتابه على قارئيه ، لعلهم يهتدون الى فضله بكواكب لياليه ، فمن ذلك قول سطيح في الحث

لكنه كان يحتك بها مادعت الى ذلك الحاجة ويرصد حركاتها رصدا ، ويصد غاراتها صدا ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو ان تقف عثرة في طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه ،فكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى اذاظفر بطلبته ، وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد، وردعليه ماسلبت يد الاستبداد ، ولعله اوهم العميد، بيقظة حزب جديد،ليردعاديته،ويفسد عليه سياسته ،في مصادرة العلم، ومصارعة الحلم ، أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس، وما عبثت به يد ذلك السائس ، ولولا ان الامام مادَّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لاصابه ما أصاب حكيم الافغان ، وقضي على هذه الامة بالحرمان ، فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ، ويصلح ماتفسده اهل الدسائس ، فكم زحزح عنا حادثا، ودفع كارثا ، ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس في دنشواي، لرأيت غير الذي رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد ، بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع الى كتابة ذلك التقرير، الذي جاء ابلغ ماتملي الضغينةعلى الموتور ، فكان فيه كثير جموح اليراع ، ضعيف ضعيف جانب الاقناع،كانه يكتب مقالة خيالية ، الى مجلة سياسية ، وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه

لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الاعلى فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غضت الردة من شرف النبوة، ولانالت من عصمة الرسالة، ولبث الاسلام اسلاما — ومات الاستاذ الامام فقصياً بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولامس من سيرة ذلك الامام ،

أراد بعض مريديه أن يغني غناءه وان يفعل شرواه في التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنا، فرمى بنفسه في احضانهم، وليست له مكانة الامام من نفوسهم ، ولا منزلته في قلوبهم ،فقصر ولا بدع ،وأخفق ولا عجب، فان الفراغ الذي تركه الامام لا يشغله الالوف من اولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح ، وينعون عليه مذهبه

في دولته، ووطن نفسه على المضي في طريقته، فأسمع الناس في الحق واسمعوه، واخافوه في ذات الاله وخافوه، ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ثم مضى لسبيله رحمه الله

فتفتقت الاذهان، وتطلعت العقول الى البحث، وبرزت اللغة من خبائها، تجر مطارف آدابها، وأطل علم الادب Litterature من مناره مشرفا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر، ونفذت أشعته الى السرائر، فنمى تحت نظره الشعور كما ينمي النبات جادته الشمس بالنظر، أو كسته أشعة القمر، فلطف من كثافة النفوس، وهذب من مرارة الارواح، حتى شفّت الاولى وعذبت الثانية و بدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه » اه المراد منه هنا

ثم ذكر سطيح ومحاوره الاستاذ الامام وتلاميذه في مقام ما يرجى من الاصلاح فقال (ص ١٤٤)

« قال (اي سطيح) واين مكانك من العلم، واين منك منزلة الحلم، ؟ قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام، الاستاذ الامام، طيب الله ثراه، وجعل النعيم مثواه . قال اني لأرى رأيا حصيفا، واسمع قولا شريفا، فمن أي تلاميذه تكون ؟ فقد سمعنا انهم فريقان فريق قد اختصه بسياسته، وفريق قد اختصه بعلمه، وقد أثنى عليهما العميد، وتنبأ لهما بالطالع السعيد، قال — لاعلم لي بما تقول. ولقد كنت ألصق الناس بالامام أغشى داره، وأرد أنهاره، وألتقط ثماره، فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله، ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته وينتقل بنا بين مناطق الافهام، ومنازل الاحلام، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق، وحكمة الخالق، وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران، ووقف بنا على أسرار الحياة ولم يزل ذاك همه رحمه الله يلقي في الازهر دروس التفسير وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله، فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا، ويقسمون تعاليمه أبوابا، فتلاميذه حزب العلم والعرفان، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران، على انه كان من اشد الناس تبرما بالسياسة واهلها، حتى اعلن براءته من الالتصاق بها، فقال عنها في كتاب الاسلام والنصرانية ماقال

قسطهم من العلم الصحيح واخذوا نصيبهم من الاقدام

وقد انصرف الناس الى الصياح بطلب انتشار العلم ونسوا ان ذلك لا يغني عنهم شيئا اذا أعوزتهم تربية القادة وعزهم بناء الزعماء فاعلم ان بناءة الرجال لا تكون الا في بناء الجامعة

قال الاديب وهل يكفي العلم وحده لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخلق والدين : فسوق عن امر الكتاب ، وطاعة للهوى ، فلا وازع من الدين ، ولا زاجر من الخلق ، فاذا تزعزعت العقيدة ولم يطمئن الطبع قل ان ينجع في الناس علاج العلماء، او تأخذهم صيحة الخطباء

قال صاحبي صدقت ولكن ما تراه انت خطبا كبيرا ، لم يكن في نظر الحكمة الا أمرا يسيرا ، واني اذكر لك دواء هذا الداء وهو أيسر مما في نفسك ، فلا تنزل أمري معك على المزاح ، ولا يصغرن في عينيك مأتى ماألقي عليك، فرب مؤرَّب من العقد ضلت حله الحكماء واهتدت اليه خطرة من الفكر يرمي بها أحد العامة ، وتغفل عنها عقول الخاصة ، ولعلك اذا سمعت ان الدواء الناجع، والعلاج النافع، لا يحتاج الى مقدمات طويلة، او فلسفة جليلة ، أصغرت ما كنت تكبر ، واستنزرت ما كنت تستغزر ، فاعلم انه اذا اقفلت أبواب المنتديات، واطفئت أنوار الحانات، قبل منصف من الليل ، انحرف عنكم جارف هذا السيل

هذه لندرة لا تكاد ترى في حوانيتها ساهرا ، ولا تجد في طرقاتها عابرا ، اذا انقضى الثلث الاول من دولة الظلام ، وتلك (فينا) يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى، ويحول الظلام بين الارجل والسرى ، فاذا شب الليل أو كاد، سكنت حركة العباد ، فما لكم لا تأخذون نفسكم بتقليد تلك الخلائق، وقد ائتمروا باوامر الخالق ، وما لكم لا ترجعون الى الفطرة البشرية ، او تخضعون لنواميس السنة الكونية ، فتجمعوا في ذلك بين الدنيا والدين ، ولا تعقوا اوامر الكتاب المبين ، ياويلكم أحييتم ليالي العمر بالآثام ، وأمتم أيامه بالمنام ، فعكستم الفطرة ولا بدع اذا عكست آمالكم ، وخابت أعمالكم ، خذوا مضاجعكم اذا طر شارب الظلام، واهجروها اذا تنفس الصباح ، ففي ذلك صحة لابدانكم ، وسلامة لاديانكم

في الاصلاح ، ولما ظهر ذلك المريد بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناس منه ذلك فطارت حوله الشبهات ، وانبسطت فيه الالسن وأخذته سهام الاقلام، على انه وان اخطأه التوفيق في عمله فما اخطأه حسن القصد ولا جازته سلامة الطوية، فوجد بعض المرائين السبيل الى تشويه سمعة الامام بعد موته ، و بالغوا في ذم حزبه ، وزادهم ضغنا ان قرأوا في تقرير العميد ماقرأوا وظنوا ان هناك حزبا يعمل، ولو اراد الله خيرا لهذه الامة لسخر لها من تلاميذ الامام من يقوم بالدعوة الى التآم ذلك الحزب الذي أودع فيه الامام من أسرار حكمته ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذي أصبحنا نساق اليه سوقاً أعجلنا عن النظر فى أمورنا فأمسينا أتباعا لكل ناعق

قال صاحبي وقد هاله ماسمعه أ كان يكون بين ظهرانيكم أمثال أولئك الامناء على تعاليم ذلك الحكيم ولا تتعلقون باذيالهم ، على اني لا أرى فيكم الا ناعيا عليهم مشهرا بهم، فان كنت لم تكذبني القول، فتلاميذ الامام حقيقون باللوم، لانهم يعلمون الحق ولا يدعون اليه . علموا ان لاحياة لهذه الامة بغير الجامعة فما لهم لا يواصلون قرع انوف الاغنياء بالمواعظ و يوالون الصياح بطلب تأسيسها فتلتقي اصواتهم بالنداء فى أنحاء القطر ؟ ولكنهم سكتوا اللهم الا شاعرا منهم قد قرض قصيدة وقاضيا قد حبر مقالة في سبيل الجامعة درج كلاهما فى اثناء النسيان فجمد الاغنياء عن البذل لجمود اولئك الوعاظ عن الكلام وتدفقوا فى انشاء الكتاتيب حين ساقتهم الحكومة الى ذلك ولو علموا ان انتشار التعليم الناقص شر على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا فى سبيله مابذلوا فكان مثلهم فى ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ليقع تحت براثن الليث لانهم انما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل ولكن بداء الغرور فسبيل الاصلاح ان تنشأ الكتاب وتبنى الجامعة فى وقت معا حتى اذا أخرج الاول نصف انسان أطلعت الثانية انسانا كاملا فتكفل هذا الكامل بصلاح ذلك الناقص فتتماسك الامة و يكثر فيها الدعاة الى الخير فليس بينها و بين الحياة الا ان يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الافكار و يسلكون بها سبيل الرقي . ومن رأى ان هذه الامة لا تنهض الا بتعليم مجموعها وتهذيب افرادها فقد أخطأ مواقع الرأي فكم نهضت امة بفرد واسست دعائم دولة على عزائم آحاد وفوا

﴿ رسائل البلغاء ﴾

من مزايا مجلة المقتبس التي يطابق بها اسمها مسماها نشر رسائل بلغاء الكتاب المتقدمين وقد استحسن صاحبها ان يجمع أحاسن هذه الرسائل من مجلته ويطبعها مجموعة على حدتها ليسهل تناولها على غير قراء المجلة ففعل وقد احسن فيما فعل

صدرت المجموعة الاولى من هذه الرسائل في مئة صفحة كلها من كلام عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وهما ممن تضرب ببلاغتهما الامثال وتشد الى كلامهما الرحال ومن اطرف هذه الرسائل رسالة ابن المقفع في سياسة الدولة وصحابة السلطان ورجاله ورسالة عبد الحميد في نصيحة ولي العهد وتعبئة الجيش. وقد عني الناشر بتصحيح هذه الرسائل معارضة على أصلها ولم يتبع سنة اكثر طابعي الكتب بمصر من اهمال التصحيح فما يوجد فيها من الغلط فالذنب فيه ذنب النساخ المحرفين مع فقر بلادنا من النسخ التي يعارض عليها الاصل · وثمن هذه المجموعة اربعة قروش واجرة البريد قرش واحد فنحث محبي الآداب والحكم وطلاب الانشاء العربي البليغ على قراءتها

﴿ سر تقدم الإنكليز السكسونيين ﴾

قد اصبح هذا الكتاب اشهر من نار على علم ، وترجم باشهر لغات الامم ، ولا غرو فان تقدم الانكليز السكسونيين وسبقهم لغيرهم من الامم العزيزة التي تساويهم او تفوقهم في العلم والمدنية مما لا يماري فيه احد الا من يجهل ان الشمس لا تغيب عن سلطتهم ، وان مئات من الملايين خاضعة لسيادتهم ، فمن جهل هذا التقدم لأميته ، او تجاهله لغروره وغباوته ، فان الامم الحية التي تسابق الانكليز في ميدان الاستعمار ، ومجاريها في تلك الجواري المنشآت في البحار ، هي الجديرة بأن تعرف سر تقدمهم ، وسبب فوزهم وسبقهم ، فانه لا يعرف قيمة الشيء من كان بعيدا عنه ، كما يعرفه من هو على مقربة منه ، لذلك كان علماء فرنسا اسبق الناس الى معرفة قيمة ما امتاز به الانكليز على غيرهم من الامم في تربيتهم وتعليمهم ، وأخلاقهم وآدابهم ، وقد ألفوا

اذا شئت ان تعرف ماوراء ذلك من المنافع فاني أعد لك منها ولا أعددها منها الرجوع الى المعيشة المنزلية التي انحلت بزوالها روابط الاهل والاقارب ، ويبس ما بين البيوتات ، فتناكر الاخوان ، وتدابر الجاران ، واقفرت المنازل من انس السمر والف الناس الجلوس في المنتديات حتى انهم ليوحشون في ديارهم ، لقلة زوارهم ، واصبح المرء في داره حاضرا كالغائب ، مقيما كالنازح ، يعلم من حال البعيد عنه ، مالا يعلم من حال القريب منه

ومنها اجتياز العقبات ، التي أقامتها المنتديات والحانات ، في سبيل الاجتماعات — كان المصريون في العهد القديم الذي نسميه اليوم عهد الظلام يجتمعون في الدور والقصور وكانت سراتهم وذووا اليسار منهم يجلسون في بيوتهم للسمر فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ويقصدها التاجر وينتجعها الاديب فتجري بينهم الاحاديث وتقوم سوق المناقشات — يحدث الحادث فيخوضون في ذكره ، وتنزل النازلة فيجمعهم الالم على العمل على ازالتها ، وتطل رؤوس المشروعات فلا يفتئون يتبينون معارفها ، حتى يقتلوا اشؤونها بحثا ، ويقفوا على وقائعها جدالا ، وينزل باحدهم المكروه فلا يزالون يتلطفون بالسعي له حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته — عقدت بينهم الزيارات ، عرى المودات ، فتراهم وهم كانهم أهل بيت واحد : يألم الجار للجار ، ويأخذ الناهض بيد ذي العثار ، بربك هل نهضت أمة بغير ادمان المجتمعات ، وهل اخصبت مودة اذا هي لم يتعهدها أهلها بالزيارات ، لقد جار في حكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق ، وجعل تلك الكلمة التي رمى بها حكيم الافغان أساسا لحكمه ، فصرفه التقليد عن النظر اليها بعين عقله ، فمن اين للمصريين ان يتفقوا اذا هم لم يجتمعوا

ومنها اقتصاد المال وأنت ترى ان هذه الستة الافدنة (اي بقعة الازبكية) تكاد تبلع ما تخرجه ارض وادي النيل من الخيرات ولا يغرنك ماترى في عاصمة الفرنسيس فان اهلها من الاكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب ولكن من جيب الغريب ونحن انما نفعل ذلك ليذهب الغريب باموالنا ويسخر من جهالنا » اهـ وهو خاتمة الجزء الاول من الكتاب

عند الحاجة وسننقل منها نموذجا للقراء في جزء آخر ليكون خير معرف لها . وقيمة الاشتراك فيها أربعون قرشا فى السنة لاهل مصر ونصف ليرة انكليزية لغيرهم فتمنى لها التوفيق والنجاح

﴿ شورا ﴾ مجلة علمية اصلاحية تصدر في اورنبورغ من بلاد روسيا محررها صديقنا في الغيب الشيخ رضا الدين افندي بن فخر الدين وهو من علماء الاسلام المصلحين . وقد عرف قراء المنار شيئا من افكاره العالية وفقهه في الاصلاح مما نشرناه من ترجمة رسالة له في مطالب مسلمي روسيا من حكومتهم ولنا الرجاء في ان تكون هذه المجلة هدى ونوراً للمسلمين في تلك البلاد

﴿ النصيحة ﴾ مجلة علمية أدبية تصويرية تصدر بتونس في نصف كل شهر عربي مرة لمنشئها « الصادق بن ابراهيم » صاحب جريدة النصيحة . وقيمة الاشتراك فيها لاهل القطر التونسي خمسة فرنكات ولغيرهم ستة فرنكات فتمنى لها التوفيق والثبات

باب الاخبار والآراء

﴿ الامة العثمانية والدستور ﴾

إذا كان المنار لا يسع عشر معشار ما نعلم من أسباب هذا الانقلاب الذي حدث في بلادنا ومقدماته ونتائجه وما نراه في أمر استفادة الشعوب العثمانيه من الحرية والدستور — فذلك لا يصدف بنا عن نشر بعض الآراء والاخبار التي تذكر الكاتبين في الصحف اليومية والأسبوعية ببعض ما ربما يذهلون عنه، وتنبه القارئين الى ما ينفع التنبه له، واني أشير الآن الى ثلاث مسائل هي أركان العبرة في هذا الباب

(١) أول شيء يجب على المنار التنبيه اليه والتنويه به هو ما يؤيد خطته في قناع المسلمين بوجوب حسن المعاملة بينهم و بين من يعيش معهم من غير أهل دينهم وتعاون الجميع على ما يرقي البلاد و يرفع شأن الدولة — وفي رد طعن الطاعنين في الاسلام ، بأنه دين تعصب وعدوان، وفي المسلمين بأنهم لا يلتئمون مع أحد ممن لا يدين بدينهم، لاسيما الذين يزعمون ان العلماء المعممين، هم الذين يبثون الشقاق بين العالمين ،

في ذلك الاسفار الكثيرة التي يعد كتاب سر تقدم الانكليز من أشهرها · وكان من حسنات أحمد فتحي باشا زغلول في قومه وخدمته للغة امته ان ترجم هذا الكتاب بالعربية · ويسرنا ان طبعته الأولى قد نفدت وان خليل بك صادق صاحب مطبعة الشعب عني بإعادة طبعه بإذن المترجم ويزيدنا سروراً أن طبعته هذه أبهج من الأولى وأشد اتقانا · وقد أبقى ثمنه كما كان وهو عشرون قرشا بل هو يهديه الى الذين يؤدون قيمة الاشتراك في مجلته (مسامرات الشعب) · ولا ينسين القارئ في هذا المقام رفيق هذا الكتاب في غايته ومقصده واعني به كتاب (التربية الاستقلالية — أو — اميل القرن التاسع عشر) فان مؤلفه العالم الفرنسي قد اختار فيه ان تكون تربية الاخلاق واستقلال النفس تربية انكليزية ، وتعليم العلوم العالية على الطريقة الألمانية ، واني ارى ان المصريين وجميع العثمانيين أحوج الناس الآن الى مثل هذين الكتابين لأنهم في طور انتقال من حال اجتماعية الى حال، وهو طور محفوف بالأخطار ، التي يستعان على تلافيها بالتأسي والاعتبار، ولا ينفعنا التأسي بأمة كما ينفعنا التأسي بالأمة الانكليزية التي هي أقوم أمم المدنية اخلاقا وأشدها محافظة على ما كان عليه سلفها من الخير والدين وتثبتاً في التشبث بالجديد

﴿ مجلة مسامرات الشعب ﴾

قد اتقنت هذه المجلة وصارت أحسن اختيارا للقصص مما كانت عليه من قبل· ومن آخر ما نشرته قصة لصوص باريس وهي قصة تفيد المتفرنجين من أهل هذه البلاد ان اعتبروا بها مالا تفيدهم كتب الاخلاق والوعظ بما تمثل لهم من حيل الأوربيين المقامرين على سلب أموال الاغنياء الأغبياء ، لا سيما الغرباء ، وفيها حرب عوان بين الفضيلة والرذيلة ينتهي بانتصار الفضيلة · ومثلها في هذا قصة سلطان الغرام وهي آخر قصة نشرت في هذه المجلة

﴿ مجلات جديدة ﴾

﴿ مجلة التذكرة ﴾ يصدرها بمصر السيد احمد خليل في كل اسبوعين مرة وهي مجلة دينية اجتماعية ونزعتها صوفية اجتهادية ممزوجة بشيء من الاصطلاحات العلمية

أدعو إلى هذا مذكرا بالاعتدال فيه ، لئلا يفضي الغلو فيه الى ضد ما يراد به ، بأن يعتقد الجمهور أن كرنهم بالدستور خاسرة ، أو انهم يعمرون الدنيا بخراب الآخرة ، فيحملهم ذلك على الشنآن ، أو يدفعهم الى العدوان ، فعلى المرشد ان يكون حكيما في نصحه ، مراعيا لأستعداد الاكثرين في هديه ،

وأذكر الجميع بأن الطفرة محال ، وان ما يحصل بالتدريج يكون أولى بالبقاء والثبات ، فإذا ترك أحد الفريقين للآخر ما كان يراه حقا له ، فلا يستعجل عليه بطلب سائر ما يراه من الحقوق لنفسه ، حتي التقاليد القديمة ، والعادات الراسخة ، فان المصلح في القوم ليدعو أبناء جنسه ودينه ووطنه الى ترك بدعة من البدع أو ضلالة من الضلالات ، ويقيم على دعوته الحجج القيمة والآيات البينات ، ثم لا يستجيب له قومه الا بالتدريج ، وأرى ان من الحكمة في تلافي الشذوذ والتقصير ، ان يبادر العقلاء والصحافيون من كل أهل دين الى انتقاد أهل دينهم ولو بالعنف ، والسكوت عن غيرهم أو الاعتذار عنهم ولو بالتأويل ، هذا اذا كان الشذوذ صريحا في مناوأة أحد الفريقين الآخر ، والا اتفق الجميع على انتقاد المسيء من حيث انه مسيء ، من غير ذكر لدينه ومذهبه ، ولا اتهام قومه بمشايعتهم له ،

(٢) انتقل بالقارئ من المسألة الدينية ، الى المسألة الجنسية ، فقد كان التعصب للجنس اشد خطرا على الدولة من التعصب للدين ، فان الشقاق الديني اذا كان يقد جسم الأمة فيجعله نصفين ، فان الشقاق الجنسي يمزقه فيجعله أجزاء كثيرة ويصيب شره الجميع ، فالمسلم التركي ، يعادي المسلم العربي ، والنصراني اليوناني ، يعادي النصراني البلغاري ، وعلى ذلك فقس

لو بدأ بالدعوة الى ترك العصبية الجنسية العربي او الكردي او الألباني او الأرمني أو الرومي او البلغاري لما سمعت للبادئ من هؤلاء دعوة ولما كان لها من الوقع والتأثير عشر معشار ما كان لمجاهرة التركي بها ، لان الترك هم اصحاب السلطة في الدولة فهم من هذه الجهة كالمسلمين من سائر الملل فلما قال أحرارهم هلموا ايها ايها العثمانيون نترك التعصب للجنس ونشترك بلقب واحد لا يقصد به امتياز جنس على آخر لباهم الجميع حامدين شاكرين . فوجب ان نخص الجنس التركي

أؤيد هذه الخطة من الجهة الايجابية والجهة السلبية بما ظهر للعالم أجمع من أن عقلاء المسلمين هم الذين قاموا بهذا العمل الجليل للاتحاد والمساواة بينهم وبين غيرهم وان شيخ الاسلام قد كان وما زال ركنهم الذين يلجؤن اليه ، وقطبهم الذي يدورون حواليه ،

ان احرار المسلمين هم الذين بدءوا بدعوة الاحرار العثمانيين من النصارى واليهود في مصر وأوربا وفي الولايات العثمانية الى مشاركتهم في جهادهم ، وهم الذين اعلنوا هذا الجهاد ووطنوا أنفسهم على قتال اخوانهم من الجند اذا هم حاولوا تأييد السلطة المستبدة ثم انهم بعد الظفر بالدستور قد كانوا هم السابقين الى مصافحة الأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الموافقين لهم في العثمانية المخالفين في الاعتقاد وهم الذين رفعوا أصواتهم في كل مكان بأننا لا نجعل الدين مفرقا بيننا وبين اخواننا العثمانيين بل نكون معهم كما أمرنا الاسلام بالقول المشهور فيه « لهم مالنا وعليهم ما علينا » بل منهم من بالغ في قوله وغلا في رأيه فاستحسنوا التنازل عن بعض حقوقنا ، إرضاء لعاطفة بعض شعوبنا ، كالذين يرون أن يجعل جامع أياصوفيا مجلسا للمبعوثين ، ويخرج عن كونه مسجدا للمسلمين ، وهم من الترك الذين يذكرهم هذا الجامع بذلك الفتح المبين ،

هذا ما فعله مسلمو العثمانيين من البدء في الدعوة الى الاتفاق والعمل بها في كثير من البلاد وهذا ما ينبغي ان يفعله الباقون فان المسلمين هم العنصر الأكبر والأقوى فاذا هو علم أن الخير في الوفاق وعمل بذلك تبعه غيره بالضرورة ولو قام أحد الشعوب القليلة الضعيفة يدعو الشعب الكثير القوي الى المساواة وهو غير مقتنع بها لما كانت دعوته مجابة ولا مقبولة

فأدعو المسلمين في جميع البلاد العثمانية الى ان يكونوا هم البادئين ببرّ غيرهم والاتفاق معهم واشتراك الجميع في الأعمال التي توثق الرابطة العثمانية وتعمر بها البلاد التي يمتع بعمرانها الجميع ، بهذا تتكون الامة العثمانية ، وتعتز الدولة العلية ، وبهذا يقطع المسلمون ألسنة القادحين فيهم من الاوربيين ، ويكونون مهتدين في ذلك بهدي الدين المبين ،

وممثلي الروايات وأجواق الموسيقات من النساء وحددت نفقات السلطان وراتبه الشهري ونفقات قصره وجعلت جميع بطانتـه من الأحرار أعضاء جمعيـة الاتحاد والترقي فآل الامر الى أن وضع هو على صدره شارة الجمعية وقال انه رئيسها

وكثر العزل والنقل في المعسكرات وهـذا ضروري جدا لتكون الجمعية واثقة من القوة التي هي سياج الدستور وعماد الأمن . وكذا في الدوائر الملكية . ولما رأى كثير من الخائنين ان إخوانهم في الفساد والتخريب يعزلون بادروا الى الاستقالة فكثرت بذلك الاعمال التي ليس لها الآن عمال ، واختيار الابدال عسر جدا مع تحري الاكفاء أصحاب النزاهة، فلذلك نرى انه يجب على الجمعية ان تقبـل من عمال الاستبداد من لم يعرف بالتجسس ولا بالرشوة ، وان كان ممن جروا على مصانعة القوة ،وان تجري في ذلك على سنة التدريج فان في العجلة مفاسد كثيرة ،

واما تقوية استعداد الامة للحكم الدستوري ومقت الاستبداد فقد سارت الجمعية فيها على الطريقة المثلى بتأسيس شعب لها في كل مدينة يرتبطون باللجان العليا في الاستانة وسلانيك وأوربا ، وبحمل الشعب على المظاهرات وتجريئه على الخطب الحماسية في تقبيح الحكومة السابقة حتى افرط بعض الناس في ذلك افراطا لاتحمد عاقبته

ثم انا نرى بعين البصيرة ونسمع من اخبار البلاد ان كثيرا من المنافقين اعوان الاستبداد السابق ومحبيه يتهافتون على الدخول في شعب الجمعية تعززا بالقوة وا كتسابا من السلطة، لاحبا في الدستور وحرصا على الحرية ، ولـكن قلما يرتقي هؤلاء بانفسهم الي ان يكونوا اعضاء عاملين في الجمعية ، كما صار يدعي كل من كان يطعن في الدولة انه من الاحرار طلاب الدستور . ونرجو ان يوفق الاعضاء الصادقون الى تمحيص شوائب هؤلاء الاوشاب أو الى محقهم وتزكية الجمعية من نفاقهم

هذا — وان في البلاد نوعا من جراثيم الفساد لم يبلغنا ان الجمعية قررت إزالته على شدة خطره على الحرية . الا وهو عصابات الفساد من أشقياء الاهالي الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ويأوون الى بعض الوجهاء فينقذونهم من الحكام بالرشوة حتي بلغ من استهانتهم بالحكومة في بعض البلاد ان زالت هيبتها من قلوبهم وصاروا يأتون المنكرات على مرأى من شرطتها وهم آمنون مطمئنون

بالثناء الحسن قبل ان نتناسى او ننسى اننا أجناس مختلفة . ولا بدع فى جهر الترك بذلك فانهم كما صرحنا منذ بضع سنين أرقى العثمانيين تربية وتعليما، واعلاهم أدبا وتهذيبا

(٣) بعد ذكر مسألتي الدين والجنس اذكر شيئا من عمل الجمعية التي تلافت ضررهما وسعت مع غيرها لخير العثمانيين كافة . ينضم العثمانيون الاحرار الى هذه الجمعية - جمعية الاتحاد والترقي - ويعمل الجميع لحفظ الدستور الذي نالوه بعد السعي الحثيث اليه حتى اندمجت الجمعيات فيها او كادت ، وتدامجت معها كما أرادت ، وان هؤلاء الاحرار المتحدين في هذه الجمعية هم الذين يديرون نظام المملكه الآن ، وقد ظهر من كفاءتهم واعتدالهم ماجعلهم موضع إعجاب الامم والدول الاوربية كما تنطق جرائدها بلغاتها المختلفة . وقد مرَّ على اعلان الدستور شهر أوا كثر ولم يبلغنا ان احدا انتقد على الجمعية عملا من الاعمال أوأدبا من الآداب على ان اوربا تراقبها مراقبة الناقد البصير الذي لا يحابي ولا يداهن حتى قلنا ان « مجلس المبعوثين » لا يرجى ان يكون خيرا منها في الادارة والاصلاح ، ولا أقرب الى العدل والانصاف ،

ينحصر عمل الجمعية الآن في ثلاثة مقاصد (١) تطهير الدولة ملكيتها وعسكريتها من المفسدين الذين ناط بهم الاستبداد السابق أمورها (٢) تقوية استعداد الامة للحكم الدستوري (٣) تحسين الصلات بين الدولة العلية ، و بين جميع الدول الاوربية ، لا سيما ذوات السبق الى الحرية كانكلترا وفرنسا

اما تطهير الحكومة من رجس اعمال الاستبداد السابق فالمبادرة اليه من اهم الضروريات قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين وتلقي اليه الجمعية مقاليد السيطرة والمراقبة فانه ليعجز ان يعمل في عدة سنين ماتعمله هي في هذه الاشهر التي تتقدم اجتماعه كما يظهر لنا من الطريق السويّ الذي سارت عليه في ذلك . فقد بدأت بتطهير المابين والباب العالي ونظارة الحربية واكثر الولايات في وقت واحد . فأخرجت من المابين رؤساء الفتنة والفساد وعزلت السرعسكر رضا باشا وناظر الداخلية ممدوح باشا وسجنتهما مع تحسين باشا رئيس كتاب السلطان والشيخ أبي الهدى احد مستشاريه وفر من رؤساء المابين عزت باشا ونجيب باشا ملحمه وسليم باشا ملحمه الى اوربا . واخرجت من المابين اكثر الحجاب والكتاب والخدم

كيف نستعمل الحرية (*

ايها السادة الاحرار

وقفت غير مرة مثل هذا الموقف بعد اعلان الحرية ، وكنت في مواقفي الأول أرسل القول إرسالا ، لأن المواضيع متوفرة ، والشعور بالحال اطلق اللسان من عقاله، وفك الافكار من أصفادها ،بعد أن لبثت مدة ترسف فيها ، حتى كدنا نيأس من انتهائها ، مع علمنا بأن لكل بداية نهاية .

ولكنني الآن اتلو عليكم خطبتي تلاوة ، لأنني سُئلت ان اتكلم في موضوع لا اتعداه ، ومرتجل الكلام لا يستطيع حصره في موضوع واحد ، لأن الخطب الارتجالية حرة مثلكم ايها السادة فهي تأبي التقييد، وقد جعلت موضوع خطابي هذا « كيف نستعمل الحرية » لأننا احوج الى هذا الموضوع الآن من سائر المواضيع

خاض الخطباء في تعريف الحرية وحدودها ، حتى كادوا يضعون لها قيودا ، ويخرجونها عما وجدت له، ولو كانت ذات شعور لعجبت كيف يحاول تقييدها طلقاؤها

وكاد قوم بهذه النواحي يشوهون وجهها الجميل ، ويشوشون مفهومها المستبين، فظنوا ان الحرية تبيح للناس امتهان حكامهم ، والنعي على صالحهم وطالحهم

سادتي : ان من يدفع عن مركزه بقوة ، انما يرجع اليه مثل القوة التي دفع بها، فإذا كانت المظالم زحزحتنا بقوتها الوحشية عن مكاننا ، فنحن لا نرتكز في نقطة الا اذا دفعنا تلك المظالم في صدرها ، وانحينا باللائمة على القائمين بها

الشعب الذي يغلو الحكام في ظلمه ، يجب ان يتطرف في الحرية متى نالها الحاكم المسترسل بالظلم ، الملوث بالرشوة ، لا يفيقه من سكرة الاستبداد الا التقريع الفظيع ، والتنديد الشديد، فهو كالعضو المخدر ،لا يحس الا بالوخز المؤلم وربما لا يحس به

*) خطبة من الخطب التي القاها في احدى احتفالات الحرية ببيروت السيد حسين وصفي رضا شقيق صاحب هذه المجلة (المنار)

فيجب على الجمعية ان ترشد الحكام الاحرار الذين تقيمهم الآن الى تعقب هؤلاء الاشقياء وتربيتهم بالشدة التي لا يطمعون معها في عودتهم الى مثل ما كانوا عليه في أيام الحكومه السابقة والا كانت فائدة الحرية للاشرار وغائلتها على الابرار

وأما المقصد الثالث من مقاصد الجمعية وهو موادة الدول الاوربية ، فقد كانت فيه احزم واحكم منها في سائر أعمالها الحسنة ، ولا نرى فيه شائبة نذكر بها الا الاحتراس من جفوة المانيا والنمسا والله الموفق فنسأله حسن الختام

﴿ المجلس النيابي لمصر ﴾

ذكرنا في الجزء الرابع من منارهذه السنة أن انكلترا عازمة على انشاء مجلس نيابي في مصر وقد تلقي جمهور المصريين هذا الخبر بالدهشة والاستغراب وعدوه مناقضا لما يستنتج من سيرة المحتلين في مصر وتصريحات لورد كرومر في تقاريره و ناظر خارجيتهم في مجلس النواب بلندره . وكنا نظن ان حركة القبط التي شرحناها في الجزء الخامس مما يحتمل ان يحمل الانكليز على إرجاء السماح بانشاء هذا المجلس الى أجل حتى جاءنا نبأ جديد من أنباء أوربا السرية العالية بأن القوم لايزالون على عزمهم وان مجلس النواب المصري يوشك ان ينعقد في السنة القابلة

لا أقول ان كتابات القبط التي تتابعت على لندره لم يكن لها أثر فيها وانما أقول انه قد عارضها اعلان الدستور في الدولة العلية واضطرار حكومة بريطانيا لإظهار الرضا والابتهاج به وما اضطرها الى ذلك الا اخلاق شعبها وتقاليدها القديمة الراسخة في حب الحرية ونصر الاحرار أينما كانوا وحيثما وجدوا . فرأت وزارة الاحرار الانكليزية انه لا يليق بها ان تظهر الميل الى الدستور في مكان والميل عنه في مكان آخر على ان الانكليز قوم يجارون الطبيعة ولا يقاومونها و يعملون في كل حال مايرونه يليق بها

ويوشك ان يكون للوفد المصري الذي سافر الى لندره بزعامة اسماعيل باشا أباظه تأثير حسن في المسألة فان انكلترا يصعب عليها أن تؤدي هذه الخدمة لمصر بطريقة يسهل فيها غمط حقها وانكار فضلها وإسناد عملها الى غيرها مع انه لا يمكن ان يتم في مصر أمر عظيم بدون رضاها ما دامت جيوشها محتلة فيها

ايضا ، يجب أن تتعارفوا بعثمانيتكم لا بمذهبكم ونحلتكم ، أليس كذلك ؟ بلى بلى

المدارس الوطنية هي كل مانحتاجه الآن ، لننهض من كبوتنا ، ونقال من عثرتنا، وليس عندنا الآن مدارس وطنية بالمعنى الذي أريده ، أريد بالوطنية التي تضم الفرق والنحل ، وتنشئ طلابها تنشئة واحدة ، غايتها اعلاء شأن الوطن ، ووقاية الحرية بالمهج والأرواح ، والمدارس هي نبت الجمعيات و بنتها فمتى انشئت الجمعيات فقد أسست المدارس ، فانشئوا الجمعيات انشئوا الجمعيات تحسنوا استعمال الحرية

الجرائد هي القوة الكبرى والمدرسة التهذيبية ، وهي ميزان اعمال الامة ، وعنوان حالها ، وهي المسيطر الرقيب على الحكومة بل ان رقابتها تتناول كل شيء ، وهي قائد الامة الى مواطن السعادة والهناء ، والصادفة بها عن معاطن البوار والشقاء ، فيجب ان ان تكثر الجرائد بيننا و يعم انتشارها و بذلك نحسن استعمال الحرية

الخطابة هي مدرسة الشعوب الثانية بعد الجرائد ، ولها من العوامل فى التأثير الكبير ، ومن البواعث على العمل المفيد ، مايرفع و يعلي ، وينتاش الأمم من الحضيض الاسفل ، و ينيف بها على يفاع المجد والسؤدد ، واذا كانت الجرائد للقراء فقط فان الخطب يتناولها سمع القارئ والأمي ، و يستفيد منها العامل والجاهل ، والنشيط والخامل ، والصانع ، والزارع ، بل هي لكل احد ، والخطابة الحرة وكانت ولاتزال من الدعائم التي يشاد عليها بناء التمدن الباهر ، ويرتفع بها صرح المجد الحقيقي ، فالمنابر المنابر ! ! لا تهملوا شأنها ، ارفعوا اعوادها ، ليرن صوت خطبائها ، ليهتفوا فلتدم الحرية ، فبذلك نحسن استعمال الحرية

التآلف بين الفرق والنحل هو الضامن الوحيد لبقاء وحدتنا ، واجتماع قوانا ، والمحافظة على حريتنا ، و به نرد عادية المظالم ، وندفع غائلة الظالم ، وهو الذي يجعل مجموع أفراد الأمة كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، كما ورد في الحديث الشريف ، فيجب ان نتآلف ، يجب ان نتآلف ، يجب ان نتآلف ، لنحسن استعمال الحرية ، فليدم التآلف

ان استعمال الحرية يكون بالسير على النهج الذي أشرعته لكم أيها السادة ،

كل هذا ايها الأخوان لازم بل واجب ، ولكن لا يسوغ ان نجعله دينا لنا حتى كأنه هو المقصود بكلمة الحرية ، إذاً نكون صرفنا الحريةعن معناها، ولم نعرف كيف نستعملها ، وحاشا ثم حاشا ، وكلا ثم كلا

أيها الشعب السوري العظيم ، يا سلالة الفينيقيين الذين ادهشوا العالم ، الذين لم تهب سفنهم هجماتِ امواج المحيط الاعظم، الذين ملأ ذكرهم بطون التواريخ ، انني أحييك واهش لك ، احييك باسم الحرية ، واناديك بملءماضغيَّ : انت أسمى من أن تضع الحرية في غير موضعها ، وانت احق بها واهلها ، بل إنما وجدت لتكون لك قبل كل البشر

الحرية هي تمتع الشخص بما لا يضير به سواه ، وصيانة الافراد من عبث الحاكمين، وسهولة سلوك السُبُل التي من شأنها إعلاء شأن الأمة ،وتبسط ابنائهافي الحضارة والعمران ، وعدم استكانتهم للظلم والهوان

ابيح لنا القول ايها الاخوان ، فاسترسلنا في القول ، والقول مقدمة للعمل فيجب ان نعمل أيضا

وضح لنانهج المعين الذي ارتوى منه الافرنج قبلنا ، فلا يحسن بنا ان نرتشف منه ارتشافا،بل يجب ان نبتلعه ابتلاعا اذا قدرنا

أتيح لنا ان نعمل ما نشاء ، فلا يليق بنا ان نعمل ما من شأنه إضعاف قوانا وإنهاك جسومنا ، بل يجب ان نعمل على ما يرفع شأننا ، ويجعلنا في مصافّ الأمم الحية الراقية ، وبذلك نحسن استعمال الحرية

الجمعيات هي اساس النجاح ، ودعائم الرقي ، فيجب ان نؤسس جميات ، لا يسوغ ان تكون جمعياتنا لطائفة من الناس ، لا يجوز ان تكون اسلامية أومسيحية أويهوديةمهما كانت وجهتها ، وأنى كان قصدها ، بل يجب أن تكون عثمانية بحتة، انتم عثمانيون ايها الاخوان ، فيجب ان تكون جمعياتكم عثمانية ، الجامعة التي تنضمون تحت لوائها هي العثمانية ، فاجعلوها جمعياتكم كذلك تحسنوا استعمال الحرية

عاشرت اثنين ايها الناس منذ بضع سنين اسمها مشترك بين المسلمين والنصارى وانا للآن لا اعرف ان كانا مسلمين او نصرانيين ويجب ان تكونوا انتم كذلك

الفصل الحادى عشر (*

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط الفيوضات العلى، والمرآة العظمى التى ينكشف بها الازل والأبد، والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتآلفة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها، واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف، فيحق لها في الحالتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الا واكوان لوجودات كلها، لكن اختلفت

(*) من سيرة السيدة خديجة

وثمة شؤون أخر ، يضيق مثل هذا الموقف عن استيعابها ، ولنا من حزم رجالنا خير كفيل للسير على النهج السوي ، والطريق المعبّد ، والأمل معقود على ان يبنوها بالعمل لا بالقول

بقيت لي كلمة أراني ملجأ الى الجهر بها ، قبل نزولي عن هذا المنبر ، تلك الكلمة هي إعلان استيائي واستياء العقلاء ، ممن يذهبون إلى أن الحرية منحة أو هبة من شخص معلوم ، ان هذا القول لا يليق صدوره من الأحرار ، إنه كذب وخيانة ونفاق ، وليست هذه الخصال من الحرية في شيء ، ان الحرية هي حق للشعب يسلبه منه بعض الظالمين سلباً ، فنيلُ الشعب له انما هو استرداد لحقه المغتصب منه ، وليس من الهبات والمنح ، الحرية ليست ملكاً للحاكم ولا للسلطان فكيف يهب الانسان ما ليس يملك له

هذا وانني أشكر لجيشنا الباسل سعيه الكبير ، وعمله العظيم ، الذي خالف به كل جيوش العالم ، منذ وجد الجيش وأسست الجندية ، فان الجيوش في كل الأدوار والأجيال ، كانت يد الظالم القوية ، يستعين بها على قتل روح الحرية ، ولا أذهب بالاستشهاد بكم بعيدا أيها السادة ، بل ألفت انظاركم الى فظائع جيش العجم ، ومنكرات جيش روسيا ، وكيف يمثلون بطلاب الحرية أقبح تمثيل عملاً بإرادة المستبدين ، وتنفيذاً لمقاصد الظالمين ، فليمت المستبدون ، وليسحق الظالمون

واشكر أيضا لرجال جمعية الاتحاد والترقي العثماني ، ولكل رجال الاصلاح الذين وقفوا حياتهم ، وخاطروا بأرواحهم ، في سبيل استرجاع الحرية ، وأصرح بأن جمعيتهم قامت بما لم تقم به جمعية في العالم منذ أسست الجمعيات ، فانها كانت سببا في إحياء شعب بأسره ، لأن الشعب المستعبد هو والميت شرَع ، هذا مع اعترافي بما للجمعيات من الأثر المحمود في خدمة النوع الانساني

واسأل الله أن يوفقنا للسير على ما يعلي شأن أمتنا ، ويرفع مقام دولتنا ، ويحفظ علينا نعمة الحرية ما دامت السموات والأرض ، اهـ

(المنار) جاءنا من بيروت ان الجمع المحتفل قد صفق للخطيب صفيقا شديداً ، وهتف بالدعاء له وللمنار هتافا كثيرا ،

وانفتقت أنوارها، فكان لها تشوّف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانيـة ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هـذه الحالة الطيبة قوة فراسـة والفراسة نور فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه مايمشق من المزايا العلية، انتثرت حبّة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألف المكارم كلها الديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها؟ بل كيف لايميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً ، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها ، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها، والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأيّ الفضل تنشد بعد هذا مُحبة الفضل، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خَلق وكمال خُلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان . ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لاتقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حليم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل اذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

الحيات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانيـة أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه،ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعهامن الحسن الذي هووصفه ، وان ارتقت الى المبدع دهشت فتولهت فتدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هـذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما ، هما بالاختصار ركنا السعادة والشـقاء، فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليـه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخير عظيما

***

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فماذا أحبت سيدتنا هذه؟كان قلبها تواقاً الى معالي الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخـلاق ، وقد أمد الله فطرتها امـداداً عظيما فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها،

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته: يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا المنبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذ الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم الا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدي الانبياء الذين تنصرف

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلها عنه ليس بغافل
لقد علموا ان ابننا لامكذَّب لدينا ولا يعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت انه لا نظير له، وان سعادتها لا تتم الا به، وما أحقها ان تغتنم الفرصة وتسبق الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب. والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن: ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

ثم اذا مرَّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام — التي كانت تراها في اليقظة — ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجي وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق ، ويقوى ايمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة ، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي ، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها ،وما أظلم قضاءها،وما أشد عتمة مسالكها ،وما أسوأ عواقب الجمود عليها ،وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها ،

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر ، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أُفٍّ ثم أُفٍّ للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم ، أو تذرها في سجن أقفر ممنوعاً عنها كل ما يربها ، ويا عجبا

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عبدها « ميسرة » من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رنّ في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها ، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد . وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات :

« تفاؤل هذا وقته »

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب « خديجة »

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها« ميسرة » ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

الخيبة فيغلب احجامها اقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها! هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال . بيد ان ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمّت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها، ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمقت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد ان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد، ولم تقدّ من صخر، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة اليأس، ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة، بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا . ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بياتاً أو يصبحه وساء

لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم مايذكرهم بان العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم مايبصرهم بأن العادة يجب ان تكون تابعة لامتبوعة ، ومنقادة لاقائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر مانفعت ،ومذمومة على مبلغ ماضرت،واستقبلوا أخري مصاحبيها على مقدارمايدوم من أسبابها،وينفع من أبوابها

تبرمت «خديجة» بالعادة كثيراً ،وتأففت من تقلبها طويلاً ،وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج،لما خصها الله من سلامة الفطرة ،وفضل الفطنة،وقوة آلة المعرفة ،ومزيد حرارة الهمة ،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الا كثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ،وأحوال مضت ،ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث، أوهبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص، وكم دكت الارادات القوية أطوداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولاً تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هذا المكمَّل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلي بن أمية) فقصت عليها حديثها وائتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتي اذا وجدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكنَّ ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ماشئت في تيسير مايرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له مايمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ماسيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

صباحاً . وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة بأجنحتها ستقف مما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها، ما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أعتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز. ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم التي لاتباري حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف لذاك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لاتحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لابدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان. كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة ان تتناول هدية سعادتها، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التي

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الشافي لصاحبها الحائز على المدالية ديبلوما ووسامات الامتياز من الدولة العثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بعملها الكيماوي

قرش أميري (أسماء الادوية وبيان منافعها)

٢ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ومزيل للالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والنمش ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة

٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنة والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرماتيزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامة المسببة من فقر الدم

٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال اللنفاويين ويزيل العقد الخنازيرية

١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة به

٢٠ كبسول باريزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزييد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٥ مسحوق للشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويظهر ناعماً لطيف اللمس من غير ضرر

٥ نشوق صحي ضد الزكام ومزيل النوازل ومنعش للجسم

٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل المغص

والمستودع العمومي بعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر

والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

اذهبي يا نفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لا يقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفؤ الذي لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان في هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنيـة يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجـل، فبخطبةٍ من الرجل وتقديمه الصـداق واجابةٍ من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجـة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت « خديجة » الطاهرة زوجة « محمـد » الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

(المنار [illegible] شعبان ١٣٢٦ — صدر في أول رمضان) (المجلد الحادي عشر)

المنار

١٣١٥

(قيمة الاشتراك)
عن سنة [illegible] ساقا في القطر المصري والقطر السوداني و ٨٠ قرشا في الخارج [illegible] في الهند و ٧ [illegible] في روسيا [illegible]
(والدفع مقدما)

(تنبيه)
يجب ان يكون وصل الاشتراك موقعا عليه من منشئ المجلة ومختوما بختم الادارة

الاشتراك في المجلة يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] ومنتصفها [رجب]

(مجلة شهرية)
تبحث في فلسفة الدين
وشؤون الاجتماع والعمران

منشئها
السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغراف (المنار بمصر)

التربية الاستقلالية
(او)
اميل القرن التاسع عشر

قد تم طبع هذا الكتاب الجليل بالعربية ، في الوقت الذي اشتدت اليه حاجة المصريين وجميع الشعوب العثمانية ، ليتعلموا أمثل الطرق للتربية والتعليم اللذين تكون بهما الامة مستقلة بالطبع ، الذي من لوازمه الاستقلال بالحكم ، وثمن النسخة (غير مجلدة) من ورق كورق المنار ١٦ قرشا ومن ورق اجود منه ٢٠ قرشا واجرة البريد مضمونا ٢٥ مليما . وثمن النسخة في البلاد العثمانية ريال مجيدي وأجرة البريد [illegible]

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الجمعة ٢٩ شعبان ١٣٢٦ — ٢٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٤٩ : ١٤٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٥٠ : ١٤٣) بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥١ : ١٤٤) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ *

قال بعض المفسرين ان هذه الآيات التفات عن خطاب المنافقين الذين وبخهم في الآيات السابقة أن انهزموا وقالوا ما قالوا الى خطاب المؤمنين الصادقين وقال الاستاذ الامام الخطاب لمن سمع قول أولئك القائلين من المنافقين: ارجعوا الى إخوانكم ودينكم . وهو أخص مما قبله . والمختار على الطريقة التي جرينا عليها في

تولي شؤونكم بعنايته الخاصة التي وعدكم بها في قوله (٨: ٣٩ فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) وبين لكم ان سنته قد مضت بانه يتولى الصالحين ويخذل من يناوئهم من الكافرين (٤٧: ١٠ افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّرَ الله عليهم وللكافرين أمثالها ١١ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم) ومن هنا أخذ النبي (ص) جوابه لابي سفيان حين قال بعد وقعة أحد التي نزلت هذه الآيات فيها « لنا العزّى ولا عزى لكم » إذ أمر عليه الصلاة والسلام بأن يجاب « الله مولانا ولا مولى لكم » كأنه تعالى يذكر المؤمنين بقوله هذا المنبئ عن سنته و بتذكير الرسول لهم به . واذا كان هو مولاكم وناصركم اذا قمتم بما شرطه عليكم في ذلك من الايمان والصلاح ونصر الحق فهل تحتاجون الى أحد من بعده ﴿ وهو خير الناصرين ﴾ فان من يطلق عليهم لفظ الناصر من الناس انما ينصر بعضهم بعضا بما أوتوا من القوى وما تيسر لهم من الاسباب وإنما الله هو الذي آتاهم القوى وسخر لهم الاسباب وهو القادر بذاته على نصر من شاء من عباده بإيتائهم أفضل ما يؤتي غيرهم من الصبر والثبات والعزيمة وإحكام الرأي واقامة السنن والتوفيق للاسباب . هذا ما ظهر لنا و يقول المفسرون في مثل هذه العبارة اسم التفضيل « خير » فيها على غير بابه لانه لا خير في أولئك الناصرين الذين يعرض بهم. قال الاستاذ الامام لا وجه للاعتراض بأن الكافرين لا خير فيهم فان التفضيل انما هو بالنسبة الى النصر يعني ان نصر الله لعباده المؤمنين خير من نصر الكافرين لمن ينصرونه من أوليائهم

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ﴾

المتبادر لنا ان الآية تعليل او تصوير لكونه تعالى خير الناصرين للمؤمنين الموحدين مبينة لبعض وجوهه تبييناً يقبح لهم الشرك ويزيدهم حباً في الايمان و بيانه انه سيحكم في اعدائهم المشركين سنة العادلة وهي انه يلقي في قلوبهم الرعب وهو — بضم العين و به قرأ ابن عامر والكسائي و يعقوب وسكونها و به قرأ الباقون — شدة الخوف التي تملأ القلب بسبب اشراكهم بالله أصناما ومعبودات لم ينزل بها سلطانا

تفسير الآيات السابقة ان الخطاب فيها عام موجه الى كل من شهد أحداً لتكافلهم وكل يعتبر بها بحسب حاله. ويدل عليه الآيات الآتية بعدها فانها من تتمة الخطاب وفيها تفصيل لاعمالهم ونياتهم وعناية الله بهم مع تقسيمهم الى مريد للدنيا ومريد للآخرة كما يأتي قريبا

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا ﴾ معناه ان تطيعوا الذين جحدوا نبوة محمد ولم يقبلوا دعوته الى التوحيد والخير كأبي سفيان ومن معه من مشركي مكة الذين دعا كم مرضى القلوب الى الرجوع اليهم وتوسيط رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بينكم وبين رئيسهم (أبي سفيان) ليطلب لكم منه الأمان او الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بأفواههم كعبد الله بن ابي واصحابه الذين خذلوكم قبل الشروع في الحرب ثم دعوكم بعدها الى الرجوع الى دين آبائكم وقالوا لو كان محمد نبيا لما أصابه ما اصابه ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ ابتداء أو استدراجا اي الى ما كنتم عليه ورجعتم عنه من الكفر. قال الاستاذ الامام: أي ان طلبتم الامان منهم وكانت حالكم معهم حال المغلوب مع الغالب يتولوا عليكم وتكونوا معهم أذلاء مقهورين حتى يردوكم عن دينكم ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ للدنيا والآخرة أما الاول فبخضوعكم لسلطانهم وامتهانكم بينهم وحرمانكم مما وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم في الارض بالسيادة والملك ومن تمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم امنا، وأما الآخر فبما يمسكم في الآخرة من عذاب المرتدين مع الحرمان مما وعد الله المتقين

وذكر بعضهم لليهود والنصارى في تفسير هذه الآية لامناسبة له وقد تبعوا فيه ماروي عن الحسن وابن جريج . والمروي عن السدي ان المراد بالذين كفروا ابو سفيان ومن معه من المشركين وعن علي كرم الله وجهه انهم عبدالله بن ابي وحزبه وهم الذين دعوا الى الارتداد كما تقدم واشرنا اليه آنفا

﴿ بل الله مولاكم ﴾ فلا ينبغي ان تفكروا فى ولاية ابي سفيان وحزبه ولا عبد الله بن أبي وشيعته ولا ان تصغوا لإغواء من يدعوكم الى موالاتهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا ولا انفسهم ينصرون ، وانما الله هو المولى القادر على نصركم اذا هو

الذين كانوا في مرتبة من اليقين والاذعان، قد صدقها العمل الذي كان منه بذل الانفس والاموال في سبيل الايمان، الذين عاتبهم الله ووبخهم على تلك الهفوة التي وقعت من بعضهم بما تقدم وما يأتي في هذا السياق من الآيات . واما أولئك الكافرون فهم الذين دعوا الى الايمان، واقيم لهم على الدعوة الدليل والبرهان، فجاحدوا وعاندوا وكابروا الحق، وآثروا مقارعة الداعي ومن استجاب له بالسيف، وقعدوا له ولهم كل مرصد، فاذا نظرنا في شرك هؤلاء الكافرين، وفي حالهم مع اولئك المؤمنين، نجد أن شأنهم معهم كشأن من يرى نور الحق مع خصمه فيحمله البغي والعدوان، على مجاحدته من غير حجة ولا دليل : يرتاب فيما هو فيه ويتزلزل فاذا شاهد الذين دعوه ثابتين مطمئنين يعظم ارتيابه ويهاب خصمه حتى يمتلأ قلبه رعبا منهم . هذا هذا هو شأن الكافرين المعاندين مع المؤمنين الصادقين، كأنه تعالى يقول هذه هي الطبيعة في المشركين، اذا قاوموا المؤمنين، فلا تخافوهم ولا تبالوا بقول من يدعوكم الى موالاتهم والالتجاء اليهم

(قال) وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيراً ما يقع فى قلوب المسلمين، ولا يقع في قلوب الكافرين ، فان الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله وتمني الموت في الدفاع عن الحق فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وانما رعب المشركين مرتبط بايمان المؤمنين وما يكون له من الآثار فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ماجاء به الاسلام من الحق وما كان عليه سلفهم من الايمان والصفات والاعمال فالقرآن باق على وعده ولكن هات لنا المؤمنين الذين ينطبق إيمانهم على آياته ولك من انجاز وعده في هذه الآية وغيرها ماتشاء . وتلا قوله تعالى (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية

(قال) وعلى هذا يكون الإشراك سببا للرعب كسائر الاسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للري والاكل للشبع فمن وصل اليه الحق تزلزل الباطل في

أي لم يقم برهانا من العقل ولا من الوحي على مما زعموا من ألوهيتها وكونها واسطة بين الله وبين خلقه وانما قلدوا في اتخاذها واعتقادها آباءهم الذين اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، ومن كان كذلك غير مطمئن في دينه، ولا متبع للدليل في اعتقاده، فهو دائما عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطرات الوهم، يعد الوساوس أسبابا، ويرى الهواجس مؤثرات وعللا، قياسا على اتخاذه بعض المخلوقات أولياء، وجعلهم سائط عند الله وشفعاء، واعتياده بذلك ان يرجو مالا يرجى منه خير، ويخاف مالا يخاف منه ضير، فالاشراك قد يكون سببا طبيعيا لوقوع الرعب في القلب، وما كان كذلك فان الله يسنده الى نفسه وان لم يذكر السبب، لانه هو واضع الاسباب والسنن، ولكنه قد صرح به هنا ليكون برهانا على بطلان الشرك وسوء أثره، وهذا الوجه المختار في تفسير الآية يوافق قول من جعل الوعيد فيها عاما وليس كل الكفر يثير الرعب بطبيعته وإنما تلك طبيعة الشرك وهو اعتقاد ان لبعض المخلوقات تأثيرا غيبيا وراء السنن الالهية والاسباب

وصرح كثير من المفسرين بان قوله تعالى « سنلقي » وعد للمؤمنين أنجزه الله يوم أحد في أول الحرب. ولا يظهر هذا بغير تأويل ولا تقدير الا اذا كانت الآية قد نزلت قبل القتال والظاهر انها نزلت مع ماقبلها وما بعدها عقب القتال وانصراف المشركين. وقال بعضهم ان الوعد أنجز في غزوة حمراء الاسد اذ اراد ابو سفيان ومن معه بعد الانصراف من احد ان يرجعوا لاستئصال المسلمين فأوقع الله الرعب في قلوبهم لما قال لهم معبد ماقال (راجع ص ٢٥٣)

قال الاستاذ الامام: في الآية وجهان (احدهما) ان إلقاء الرعب خاص بتلك الواقعة ولو كان عاما لشمل غزوة حنين ولم يكن الكفار فيها مرعوبين بل كانوا مستميتين وكذلك نرى ان كثيرا من الكافرين قد حاربوا ولم يصبهم الرعب وهذا الوجه هو الذي عليه مفسرنا (الجلال) وكثير من المفسرين

(والوجه الثاني) ان الآية بيان لسنة الهية عامة وهو الحق وبيانه يتوقف على فهم المعنى المراد من لفظ المؤمنين ولفظ الكافرين وهو ماكان عليه المؤمنون والكافرون فى الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات. فأما أولئك المؤمنون فهم

الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

روى الواحدي عن محمد بن كعب قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقد اصيبوا بما اصيبوا يوم أحد قال ناس من أصحابه من اين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله هذه الآية « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه » الآية. ونقول نعم ان الناس قالوا ذلك كما يعلم من قوله تعالى « اولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » وسيأتي. ولكن هذا القول ليس سبب النزول هذه الآية وحدها وانما نزلت مع هذه الآيات الكثيرة بعد تلك الواقعة وما قيل فيها

الوعد المشار اليه في الآية يحتمل ان يكون المراد به ما تكرر كثيرا في القرآن من نصر الله المؤمنين ونصر من ينصره « ١ » وذهب بعض المفسرين الى ان المراد به ما دل عليه قوله تعالى « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم » الآية « ٢ » وقال بعضهم ان المراد به وعد النبي لهم عند تعبئتهم واختاره ابن جرير وروى فيه عن السدي انه قال « لما برز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين باحد أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين وقال ولا تبرحوا مكانكم ان رأيتمونا قد هزمناهم فانا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير اخا خوات بن جبير . ثم ان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال يامعشر اصحاب محمد انكم تزعمون ان الله يعجلنا بسيوفكم الى النار ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة فهل منكم أحد يعجله الله بسيفي الى الجنة أو يعجلني بسيفه الى النار ؟ فقام اليه عليّ بن ابي طالب فقال والذي نفسي بيده لا افارقك حتى يعجلك بسيفي الى النار او يعجلني بسيفك الى الجنة ، فضربه علي فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال : انشدك الله والرحم يا ابن عم . فتركه . فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعلي أصحابه : مامنعك ان تجهز عليه ؟ قال ان ابن عمي

(١) راجع ص ٨٢ و ١٢٤ و ٣٢١ من ج ٢ وص ١٥١ و ٢٣٥ من ج ٣

(٢) راجع ص ٢٥٧ من المنار

نفسه لامحالة · أقول ومن تمام التشبيه ان تكون بعض الوقائع التي لايقع فيها الرعب في قلوب المشركين كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروى لعارض مرضي · فسنن الاجتماع كسنن الاجسام الطبيعية لها عوارض وشروط وموانع

﴿ ومأواهم النار ﴾ اي هي مكانهم الذي يأوون اليه في الآخرة بعد ما يصيبهم من الخذلان في الدنيا ﴿ و بئس مثوى الظالمين ﴾ اي والنار التي يأوون اليها بئس المثوى والمقام لهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة اهله وظلم الناس بسوء المعاملة

(١٥٢ : ١٤٥) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٣ : ١٤٦) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٤ : ١٤٧) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٥ : ١٤٨) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ

النصر الى ان فشلتم وتنازعتم وعصيتم ، فعندما وصلتم الى هذه الغاية ، لم تعودوا مستحقين لهذه العناية ، لمخالفتكم لسننه في استحقاق النصر ، الذى وعد به اهل الثبات والصبر ، فعلى هذا تكون « حتى » للغاية و« اذا » في قوله « حتى اذا فشلتم » ليست للشرط وانما هي بمعنى الحين والوقت وهذا هو المختار . والوجه الثاني انها للشرط وجوابها محذوف تقديره عند البصريين « منعكم نصره » أو نحوه وقال الاستاذ الامام ان الحكمة في حذف الجواب هنا على القول به هي ان تذهب النفس في تقديره كل مذهب ومثل هذا الحذف لا يأتي في الكلام البليغ الا حيث ينتظر المخاطب الجواب بكل شغف ولهف ولك ان تجعل تقديره : امتحنكم بالإدالة منكم ليمحصكم ويميز المخلصين والصادقين منكم . أقول وهذا هو صريح قوله ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ وابو مسلم قد قال ان هذه الجملة هي جواب « اذا » ولكن اقتران جواب الشرط بثم غير معروف لنا في كلام العرب .

وحاصل المعنى انه بعد ان صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم و بين تمام النصر ليمتحنكم بذلك اي ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر او لأجل ان يكون ذلك ابتلاء واختبارا لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزيل بين الاقوياء والضعفاء كما علم من الآيات السابقة . وقد اسند الله تعالى صرف المؤمنين عن المشركين الى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة في تربيتهم وتمحيصهم الذي يعدّهم للنصر الكامل والظفر الشامل في المستقبل ، وأضاف ماأصابهم اليهم في قوله الذي سيأتي في السياق « قل هو من عند أنفسكم » باعتبار سببه وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان . وقد عد بعضهم إسناد الصرف اليه هنا مشكلا لاسيما على مذهب المعتزلة الذين تكلف علماؤهم في تخريجه تكلفا لا حاجة اليه ، إذ لا إشكال فيه ، ولكن المذاهب والاصطلاحات ، هي التي تولد لاصحابها المشكلات ،

قال تعالى ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ بذلك التمحيص الذي محا أثر الذنب من نفوسكم

ناشدني حين انكشفت عورته فاستحييت منه . ثم شدَّ الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود على المشركين فهزماهم وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا أبا سفيان . فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة فانقمع . فلما نظر الرماة الى رسول الله (ص) وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه بادروا الغنيمة فقال بعضهم لانترك أمر رسول الله (ص) فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر . فلما رأى خالد قلة الرماة صاح في خيله ثم حمل على اصحاب النبي (ص) فلما رأى المشركون ان خيلهم تقاتل تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم » اه اي قتلوا منهم سبعين كما هو معلوم من الروايات المفصلة . وانما ذكرنا هنا رواية السدي بطولها لما فيها من التصريح بان النبي (ص) قال للرماة « فانا لانزال غالبين ماثبتم مكانكم » والتفصيل الذي يعين على فهم الآية وغيرها ومنها ان الرماة لم يعصوا كلهم وانما أولئك بعض عامتهم وأما الخاصة الراسخون في الايمان العارفون بالواجب فقد ثبتوا والمختار عندنا ان المراد بوعد الله هنا ماتكرر في القرآن وانما قال النبي ماقال للرماة عملا بالقرآن وتأولا له فانه تعالى قرن الوعد فيه بشروط لا تتم الا بالطاعة والثبات

فملخص تفسير الآية هكذا ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ اياكم بالنصر حتى في هذه الواقعة ﴿اذ تحسونهم﴾ اي المشركين اي تقتلونهم قتلا ذريعا ﴿باذنه﴾ تعالى اي بعنايته وتأييده لكم ﴿حتى اذا فشلتم﴾ ضعفتم في الرأي والعمل فلم تقووا على حبس انفسكم عن الغنيمة ﴿وتنازعتم في الامر﴾ فقال بعضكم ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون وقال الآخرون لا نخالف أمر الرسول ﴿وعصيتم﴾ رسولكم وقائدكم بترك اكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه يحمون ظهوركم بنضح المشركين بالنبل ﴿من بعد ما اراكم ماتحبون﴾ من النصر والظفر فصبرتم على الضراء ولم تصبروا في السراء ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع اميرهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة وكان الرماة خمسين رجلا . والذين ثبتوا مع النبي (ص) وهم

بالعمل والتمرن الذي به يكمل الايمان وترسخ الاخلاق . قال في الكشاف: ويجوز ان يكون الضمير في « فأثابكم » للرسول أي فآساكم في الاغتمام وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم فأثابكم غما اغتمه لاجلكم بسبب غم اغتممتموه لاجله ولم يثرب عليكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو . اه

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه شيء من دقائقه وأسبابه ولا من نيتكم فيه وعاقبته فيكم . ومن بلاغة هذه الجملة في هذا الموضع ان كل واحد من المخاطبين يتذكر عند سماعها أو تلاوتها ان الله تعالى مطلع على عمله عالم بنيته وخواطره فيحاسب نفسه فان كان مقصرا تاب من ذنبه وإن كان مشمرا ازداد نشاطا خوف الوقوع في التقصير وان يراه الله حيث لا يرضى . قال الاستاذ الامام يقول فلا تعتذروا عن انفسكم ولا تخادعوها فان الخبير باعمالكم المحيط بنفوسكم لا يخفى عليه من أمركم خافية وانما المعول على علمه وخبره لا على اعذاركم وتأويلكم لانفسكم

﴿ ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ﴾ الامنة الأمن وهو ضد الخوف والنعاس معروف وهو فتور يتقدم النوم ويظهر أثره في العينين قرأ حمزة والكسائي « تغشى » بالفوقية اي الامنة والباقون « يغشى » بالتحتية اي النعاس . يقال غشيه النعاس او النوم كما يقال ران عليه اي عرض له فاستولى عليه وغطاه كما يلقى الستر على الشيء . وقد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس وانه كان في اثناء القتال و نما كان مانعا من الخوف فهو ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ولكن روي ان السيوف كانت تسقط من أيديهم . واختار الاستاذ الامام انه كان بعد القتال قال ما مثاله: اختلف المفسرون في وقت هذا النعاس فقال بعضهم ان ذلك كان في اثناء الواقعة وان الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع الا المنافقين فانهم اهمتهم انفسهم فاشتد جزعهم . وحمل بعضهم هذه الآية على آية الانفال (٨ : ١١ اذ يغشيكم النعاس أمنة منه) وانما هذه في غزوة بدر . وقد مضت السنة في الخلق بان من يتوقع في صبيحة ليلته هولا كبيرا ومصابا عظيما فانه يتجافى جنبه عن

فصرتم كأنكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا ولم تعصوا وقد ظهر أثر هذا العفو في حمراء الأسد كما علم مما مر ومايأتي ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فلا يذرهم على ما هم عليه من ضعف يلم بعضهم، أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم، حتى يبتلي ما في قلوبهم، ويمحص ما في صدورهم، فيكونوا من المخلصين

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم في ذلك الوقت الذي أصعدتم فيه أي ذهبتم وأبعدتم في الارض منهزمين ـ وهو غير الصعود الذي هو الذهاب في المرتفعات كالجبال ـ لا تلوون أي لا تعطفون على أحد بنجدة ولا مدافعة ولا تلتفتون الى من وراءكم لشدة الدهشة التي عرتكم والذعر الذي فاجأكم

﴿ والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم اليه فيمن تأخر معه منكم فكانوا ساقة الجيش ـ روي انه كان يقول في دعوته «اليَّ عباد الله إليَّ عباد الله ، انا رسول الله ، من يكرّ فله الجنة » — وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون وكان يجب ان يكون لكم أسوة حسنة بالرسول فتقتدوا به في صبره وثباته ولكن أكثركم لم يفعل ﴿ فأثابكم غما بغم ﴾ أي فجازاكم الله غما بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم أو غما متصلا بغم فنال العدو منكم ونلتم من أنفسكم اذ صرتم من الدهشة يضرب بعضكم بعضا وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها . قال الاستاذ الامام: الغم هو الألم الذي يفاجئ الانسان عند نزول المصيبة واما الحزن فهو الألم الذي يكون بعد ذلك ويستمر زمنا . أقول والمتبادر ان الغم ألم أو ضيق في الصدر يكون من الامر الذي يسوءك وانت لم تتبين حقيقته أو سببه أو لا تدري كيف يكون المخرج منه فان المادة تدل على معنى الخفاء يقولون: غم الشيء اذا أخفاه . و : غم عليهم الهلال . لم يظهر ولم ير. ورجل اغم الوجه . كثير شعره . ومنه قوله تعالى (١٠ : ١٧ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) وفي الأساس « وإنه لفي غمة من أمره. اذا لم يهتد للخروج منه »

﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أي لاجل ان لا تحزنوا بعد هذا التأديب والتمرين على ما فاتكم من غنيمة ومنفعة ﴿ ولا على ما أصابكم ﴾ من قرح ومصيبة فان التربية إنما تكون

جعلها في المنافقين كما قيل فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم وما من أمة الا وفيها الضعفاء والأقوياء في الايمان وغيره . وقد بين ظنهم بقوله ﴿ يقولون هل لنا من الامر من شيء ﴾ فلام أن ولينا وغلبنا ؟ يعنون انه ليس لهم من أمر النصر وعدمه شيء فانهم فهموا مما وقع يوم بدر أن النصر وحقية الدين متلازمان وعجبوا مما وقع في أحد كأنه مناف لحقية الدين وهذا خطأ عظيم أي فان نصر الله لرسله لا يمنع ان تكون الحرب سجالا والعاقبة للمتقين . أقول وسيأتي بيان ما جرى عليه جمهور المفسرين مخالفا لهذا

﴿ قل إن الامر كله لله ﴾ لا أمر النصر وحده أي إن كل أمر يجري بحسب سنته تعالى في خلقه ونظامه الذي ربطه فيه الاسباب بالمسببات ومنه نصر من ينصره من المؤمنين ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي لو كان أمر النصر والظفر في أيدينا لما وقع فينا القتل هنا ، يقررون رأيهم ويستدلون عليه بما وقع لهم غافلين عن تحديد الآجال ولذلك أمر الله نبيه ان يجيبهم بقوله ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ اي لو كنتم وادعين في بيوتكم في سلم وأمان لخرج من بينكم من انتهت آجالهم وثبت في علم الله انهم يقتلون كما يثبت المكتوب في الالواح والأوراق الى حيث يقتلون ويسقطون من البراز (الارض المستوية) فتكون مصارعهم ومضاجع الموت لهم فقتل من قتل لم يكن لان الامر ليس كله بيد الله بل لان آجالهم قد جاءت كما سبق في علم الله

﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ اي يقع ذلك لأجل ان يكون القتل عاقبة من جاء أجلهم منكم ولاجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما انطوت عليه من ضعف وقوة في الايمان ، ويطهرها حتى تصل الى الدرجات العلى من الايقان ، وقد تقدم تفسير الابتلاء والتمحيص في هذا السياق ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بالسرائر والوجدانات الملازمة للصدور حيث القلوب المنفعلة بها ، والمنبسطة أو المنقبضة بتأثيرها ، وقد يخفى ذلك على أصحابها فينخدعون للشعور العارض لها الذي

مضجعه ويبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملا ضعيفا وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك اذ بلغهم ان جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة فكان من مقتضى العادة ان يناموا على بساط الارق والسهاد يضربون اخماسا لاسداس ، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والباس ، ولكن الله رحمهم بما انزل عليهم من النعاس ، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده ، واصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه ، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها ومثله المطر الذي انزل عليهم عند شدة حاجتهم اليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعناية الله بهم في ذلك

واما النعاس يوم أحد فقد قيل انه كان في اثناء الحرب وقيل انه كان بعدها وقد اتفق المفسرون واهل السير على ان المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شيء من الضعف والوهن لما أصابهم من الفشل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم فكانوا بعد انتهاء الواقعة قسمين فقسم منهم ذكروا ماأصابهم فعرفوا انه كان بتقصير من بعضهم وذكروا الله ووعده بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ووثقوا بوعد ربهم (راجع آية ١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله) وعلموا انه ان كانوا قد غلبوا في هذه المرة فان الله سينصرهم في غيرها حيث لا يعودون الى مثل ما وقع منهم فيها من الفشل والتنازع وعصيان قائدهم ورسولهم ، فأنزل الله عليهم النعاس أمنة او الأمنة نعاسا حتى يستردوا ما فقدوا من القوة بما أصابهم من القرح ، وما عرض لهم من الضعف ، والنوم للمصاب بمثل تلك المصائب نعمة كبيرة ، وعناية من الله عظيمة ، وقد كان من أثر هذا الاطمئنان في القلوب ، والراحة للاجسام ، والتسليم للقضاء ، ان سهل على هؤلاء المؤمنين اقتفاء أثر المشركين بعد انصرافهم وعزموا على قتالهم في حمراء الاسد عند ما دعاهم الرسول الى ذلك فاستجابوا له مذعنين

(قال) واتفق الرواة أيضا على ان كثيرا منهم كانوا مثقلين بالجراح فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين فذلك قوله تعالى ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة الى

الا يخرصون) وقد قال قبل هـذه الآية (٦ : ١٠٧ ولو شاء ما أشركوا !) وهو يشبه قوله لهذه الطائفة التي ظنت مثل ظنهم « ان الامر كله لله » فالظاهر ان الذي أثبته في الموضعين هو مثـل الذى أنـكره عليهم وسماه ظنا لا يوثق به في هذا المقام الذي لا يقبل فيه إلا العلم اليقين . وقال في سورة يس (٣٦: ٤٧ واذا قيل لهم انفقوا ممـا رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنو أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ان انتم الا في ضلال مبين) فقد جعل تبرؤ الناس من الـكسب والعمل واعتذارهم بمشيئة الله وتفويض الامر اليـه من شأن المشركين والـكفار الذين يتخبطون في دياجي الظن ويهيمون في أودية الضلال مع اثباته لـكون الامر كله لله وحصول كل شيء بمشيئته . وقد نظر في كل طرف من الطرفين من رآه يوافق مذهبه حتى جعل الفخر الرازي الآية التى نحن بصدد تفسيرها هي عين ما عليه الخلاف بين الاشاعرة والمعتزلة في مسألة أفعال العباد وجعل الحجة فيها للأشاعرة

وتحرير الـكلام في هذه المسألة أنه تعالى بين لنا في كتابه ثلاث حقائق وبين لنا ضلال الذين ضلوا فيها أو احتجوا بواحدة على بطلان أخرى

(الحقيقة الاولى) انه تعالى هو خالق كل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء و بمشيئته يجري كل شيء فلا قاهر له على شيء وهو القاهر فوق كل شيء

(الحقيقة الثانية) ان خلقه وتدبيره انما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة كما اشرنا الى ذلك في تفسير « ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن » وفي تفسير كثير من الآيات التي تذكر فيها المشيئة او السنن الالهية (*

(الحقيقة الثالثة) ان من جملة سننه في خلقه وقدره في تدبير عباده أن الانسان خلق ذا علم ومشيئة وارادة وقدرة فيعمل بقدرته وارادته مايرى بحسب ماوصل اليه علمه وشعوره أنه خير له . والآيات الناطقة بان الانسان يعمل و بعمله تناط سعادته وشقاوته في الدنيا والآخرة كثيرة جدا . وهو ليس في ذلك معارضا لمشيئة الله ولا مزيلا لها بل مشيئته تابعة لمشيئة الله ومظهر من مظاهرها كما قال (٧٦: ٣٠ و٨١: ٢٩ وما تشاؤن الا ان يشاء الله) وقد جرت سنته بان يشاء لنا ان نعمل عند ما يترجح في

*) راجع ص ٤٧١ و ٤٨٥ من ج ٢ وص ٨ و ٧١ ج ٣ من التفسير

لم يرسخ بالتجارب والابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل ان يلقوه

هذا وان جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الاستاذ الامام في هذه الطائفة فقالوا ان المراد بها المنافقون فهم الذين كانت تهمهم أنفسهم اذ كان همُّ المؤمنين محصورا فيما أصاب الرسول (ص) وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان في غشيان النعاس ونزول الأمنة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة لأنه جاء على غير العادة، وهم الذين يظنون في الله ظن مشركي الجاهلية كظنهم ان ظهور المشركين دليل على بطلان دعوة النبي والمؤمنين، وهم الذين يخفون ما في أنفسهم مالا يبدونه للنبي (ص) من الكفر به ويحتجون عليه بألسنتهم بما يعتذرون به عن أنفسهم. ولكن يعارض فهمهم هذا كون الخطاب قبله وبعده للمومنين والكلام عن المنافقين سيأتي بعده، وكذا قوله تعالى « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » فان المصائب انما تكون بعد الابتلاء والاختبار تمحيصا للمؤمنين كما قال « وليمحص الله الذين آمنوا » ويأسا وضعفا للكافرين كما قال « ويمحق الكافرين » وتقدم بيانه، الا ان يجعلوا الخطاب بقوله « وليبتلي » لمن خوطبوا بقوله « ولقد صدقكم الله وعده » دون من خوطبوا بقوله « قل لو كنتم في بيوتكم » وان كان هذا هو الأقرب في الذكر ولكن هذا تفكيك وتشويش لا ترضاه بلاغة القرآن

ثم انه قد يقال ان ظاهر الآية فيما تحكيه عن الذين قد أهمتهم أنفسهم يوهم المحال على الوجه المختار عند الاستاذ الامام من انهم ضعفاء الايمان من المؤمنين اذ يكون مغزى قولهم انه ليس لهم من الأمر من شيء عين مغزى قوله تعالى في جوابهم « ان الامر كله لله » اعتذروا عن تقصيرهم بأنه ليس لهم من الامر شيء وانه لو كان لهم منه شيء لما قتلوا هنالك يعني ان الامر كله بيد الله وتصرف مشيئته وحده وهذا عين الايمان الذي يثبته القرآن فكيف جعله من ظن الجاهلية ؟ ونقول انه تعالى قد بين لنا ظن الجاهلية في قوله (٦ : ١٤٨ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وان أنتم

الى مضاجعهم » اي لما حصل القتل الثابت في علم الله تعالى الا ببروزهم من بيوتهم الى مواضع القتال التي يصرعون فيها . وبروزهم هذا من اعمالهم الاختيارية . فليس في الآية محال ولا نصر لمذهب على مذهب وانما هي جامعة للحقائق مستعلية على جميع المذاهب مبطلة لكل من دعوى الجبر المحض والتعطيل المحض ودعوى الذبذبة بينهما. ويؤيد اثباتها لحقيقة عمل الانسان واختياره الآية الكريمة التالية لها وهي

﴿ ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي إن الذين تولوا وفروا من أماكنهم يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد لم يكن ذلك التولي منهم الا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل أي زلوا وانحرفوا عما يجب ان يكونوا ثابتين عليه باستجرار الشيطان لهم بالوسوسة . قال الراغب : استجرهم حتى زلوا فان الخطيئة الصغيرة اذا ترخص الانسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه .اه ولعله يشير بذلك ان المراد بالذين تولوا الرماة الذين أمرهم الرسول (ص) ان يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين فانهم مازلوا وانحرفوا عن مكانهم الا مترخصين في ذلك اذظنوا انه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة ضرر فكان هذا الترخص والتأويل للنهي الصريح عن التحول وترك المكان سببا لكل ماجرى من المصائب وأعظمها ما أصاب الرسول عليه الصلاة والسلام . وهناك وجه آخر وهو ان الذين تولوا هم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم كالذين انهزموا عندما جاءهم العدوّ من خلفهم . واستدل القائلون بهذا الوجه بما روي من أن عثمان بن عفان عوتب في هزيمته يوم أحد فقال ان ذلك خطأ عفا الله عنه

أما كون الاستزلال قد كان ببعض ما كسبوا فقد قيل ان الباء في قوله « ببعض » على أصلها وان الزلل الذي وقع هو عين ما كسبوا من التولي عن القتال وقيل انها للسببية أي ان بعض ما كسبوا قد كان سببا لزلتهم ولما كان السبب متقدماً دائماً على المسبب وجب ان يكون ذلك البعض من كسبهم متقدما على زللهم هذا ومفضيا اليه . فان كان المراد بالذين تولوا الرماة جاز ان يكون المراد

علمنا ان العمل خير من تركه وان نترك عندما يترجح في علمنا ان الترك خير من الفعل كما هو معلوم لكل من يعرف ما هو الانسان

وانا نرى الكتاب العزيز يذكر بعض هذه الحقائق الثلاث في بعض الآيات ويسكت عن الاخرى لان المقام يقتضي ذلك ولكل مقام مقال ولكنه ينكر على من يجحد شيئا منها جحوده ويبين للناس خطأه وضلاله كما بين خطأ الذين قالوا « لو شاء الله ما أشركنا » في موضع وبين خطأ من ينكر مشيئته تعالى في موضع آخر . فهو ينكر على من ينكر ما آتاه الله من المواهب والقوى ويكفر له نعمة العلم والارادة والقدرة لاسيما في مقام الاعتذار عن تقصيره في شكر هذه القوى باستعمالها في الخير والحق كما ينكر من يغفل عن كونه تعالى هو المنعم بهذه القوى التي يجلب بها الخير عند ما تبطره النعمة فينسبها لنفسه وحده وينسى ذكر ربه وشكره . وقد جمع تعالى بين الامرين في بعض المواضع كقوله في سورة النساء (٤ : ٧٨ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا)وقد صرحوا بان هذه الآيات نزلت في قوم من المسلمين آمنوا ثم لما علموا بانه كتب عليهم القتال ضعفوا وأنكروا وقالوا ما قالوا احتجاجا لانفسهم واعتذارا عنها فأجابهم تعالى مبينا لهم الحقيقة الاولى وهي ان كل شي من الله من حيث انه الخالق للقوى والواضع للسنن والمقادير ثم بين لهم الفرع الذي اقتضى المقام بيانه من فروع الحقيقة الثانية وهو ان الحسنة التي تصيب الانسان هي من عند الله بمعنى انه خالقها وواضع السنن الطبيعية والاجتماعية التي يوصل بها اليها والخالق للقوى الكاسبة لأسبابها فينبغي ان يذكر عندها ليشكر عليها ، وان السيئة التي تصيبه من عند نفسه بمعني انه الكاسب لها ، والمنحرف عن سنن الله وشريعته في طريق تحصيلها فيجب ان يرجع على نفسه باللائمة ويردها الى التوبة كذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها قد جمعت بين الحقيقتين الاولى قوله تعالى « إن الامر كله لله » والثانية قوله « لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل

الآخرة وهذا العفو خاص بالمؤمنين يراد به ان ذنبهم يوم أحد الذي كان من شأنه ان يعاقب عليه في الدنيا والآخرة قد كانت عقوبته الدنيوية تربية وتمحيصا وعفا الله عن العقوبة عليه في الآخرة ولذلك قال ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ اي فضل خاص لا يشاركهم فيه غيرهم وهو عناية بهم وتوفيقهم للاستفادة مما وقع منهم وإثابتهم الغم الذي دفعهم الى التوبة حتى تمحص ما في قلوبهم واستحقوا العفو عن ذنوبهم

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ أسئلة من روسيا ﴾

(س ١٢ — ١٦) من الشيخ محمد نجيب التونتاري المدرس

سيدي الفاضل اعرض على حضرتكم ما يأتي بيانه لمحض الاستفسار والاستنباء وان كان في صورة الانتقاد وهو : اني قرأت في الجزء الثالث من المجلد العاشر من مجلة المنار الغراء في قسم التفسير عند قوله تعالى « ويطعمون الطعام » الآية حديثا طويلا مرويا عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد رأيت في (نوادر الاصول في معرفة أخبار الرسول) للحكيم أبي عبدالله محمد بن علي الترمذي رحمه الله انه عد هذا الحديث من المنكرات حيث قال في الاصل الرابع والاربعين فيما يعدونه صدق الحديث بعد ما ساق الحديث الى آخره : هذا حديث مزوق قد تطرف فيه صاحبه حتى يشبه على المستمعين والجاهل يعض على شفتيه تلهفا الا يكون بهذه الصفة ولا يدري ان صاحب هذا الفعل مذموم قال الله عز وجل في تنزيله الكريم « ويسألونك

بالزلل الذي أوقعهم الشيطان فيه ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعاً في الغنيمه ويكون هذا التولي هو المراد ببعض ما كسبوا . ولا يصح هذا التأويل على الوجه الآخر القائل بأن الذين تولواهم جميع الذين أدبروا عن القتال الا اذا أريد ببعض ما كسبوا ما كسب الرماة منهم وهم بعضهم فيكون المعنى ان الذين تولوا منكم مدبرين عن القتال إنما استزلهم الشيطان بسبب بعض ما كسبت طائفة منهم وهم بعض الرماة فانه لولا ذلك لما كر المشركون بعد هزيمتهم وجاؤا المؤمنين من ورائهم حتى أدهشوهم وهزموهم

وللسببية وجه آخر ينطبق على كل من القولين في الذين تولوا وهو ان توليهم عن القتال لم يكن الا ناشئاً عن بعض ما كسبوا من السيئات من قبل فانها هي التي احدثت الضعف في نفوسهم حتى أعدتها الى ما وقع منها . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى (٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) فهو بمعنى ماهنا الا انه هنالك عام وهنا خاص بالذين تولوا يوم أحد فالآيتان واردتان في بيان سنة من سنن الله تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم وهي ان المصائب التي تعرض لهم في ابدانهم وشؤونهم الاجتماعية إنما هي آثار طبيعية لبعض أعمالهم وأن من أعمالهم مالا يترتب عليه عقوبة تعد مصيبة وهو المعفو عنه أي الذي مضت سنة الله تعالى بأن يعفى ويمحى أثره من النفس فلا تترتب عليه الاعمال وهو بعض اللمم والهفو الذي لا يتكرر ولا يصير ملكة وعادة . وقد عبر عنه في الآية التي هي الاصل والقاعدة في بيان هذه السنة بقوله « ويعفو عن كثير » ويؤيد ذلك قوله تعالى (٦ : ٧١ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أي بجميع ما كسبوا فان « ما » من الكلمات التي تفيد العموم . وقد بينا هذه السنة الالهية في مواضع كثيرة من التفسير وجرينا على انها عامة في عقوبات الدنيا والآخرة فجميعها آثار طبيعية للاعمال السيئة ، وقد اهتدى الى هذه السنة بعض حكماء الغرب في هذا العصر

اما قوله تعالى ﴿ ولقد عفا الله عنكم ﴾ فالعفو فيه غير العفو في آية الشورى . ذلك عفو عام وهذا عفو خاص ، ذلك عفو يراد به أن من سنة الله في فطرة البشر أن تكون بعض هفواتهم وذنوبهم غير مفضية الى العقوبة بالمصائب في الدنيا والعذاب في

وكان امامافي بلدةمنذ سنين والآن وقع خلاف بين علمائنا في صحة امامته فمن قائل انها لاتجوز والاكثر على الجواز ونحن لم نر في الكتب التي بأيدينا أن صحة القدم من شرط الامامة ولذا لا أرى بأسا في إمامته متى وجد سائر الشروط المهمة وأرجو من الاستاذ بيان ذلك أيضا حتى يندفع الاختلاف بيننا

٥ النسخ — هل هو من اصول الدين بحيث لا يجوز الخلاف فيه ام هو مسئلة خلافية بين المسلمين كما ذكره الفاضل محمد توفيق في مقالة الناسخ والمنسوخ وهو يقول ان ابي بن كعب رضي الله عنه قال بعدمه اي بعدم نسخ القرآن بالقرآن واستشهدوا عليه بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما معزوا الى البخاري الا اننا لم نر نقلا آخر سوى ماذكره عن أبيّ مايؤيد هذا القول وليس في هذا القول أيضا تصريح بعدم النسخ وانما يحتمله كما يحتمل غيره ولا يقطع بالاحتمال مراد القائل ولم يذكر خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في هذه المسئلة ثم ان أبا مسلم رحمه الله الذي نسب صاحب المقالة هذا القول اليه هل يعتبر قوله بحيث نعده خلافا في المذهب فبعضنا يقول ان النسخ لاخلاف فيه بين اهل السنة وانما هوخلاف نشأ من الاعتزال ولكن لم يظهرلي وجه هذا القول أيضا فان النسخ ليس من مواد الخلاف بين السني والمعتزلي فيما اعلم والله اعلم .وذكر ابن امير الحاج في شرح التحرير خلافا في نسبة هذا القول الى ابي مسلم حيث قال حكى الرازي والآمدي وابن الحاجب انكاره وقوع النسخ مطلقا وقيل لم ينكر وقوعه وانما سماه تخصيصا فعلى هذا يصير النزاع لفظيا والله أعلم . والمأمول من الاستاذ تفصيل هذه المسألة وتحقيقها كما وعد في ذيل تلك المقالة وكما تفضل بالاجوبة الشافية في المسائل السابقة

العبد المستفيد من علمكم الوافي

محمد نجيب ابن الاستاذ شمس الدين محمد الحاج المرصع التوتاري

الجواب عن أثر علي وآله عليهم السلام

إننا قد ذكرنا ذلك الأثر في الإيثار لاجل العبرة به وقد أشرنا الى ضعف الرواية بقولنا « ويروى » ولم نثبته في تفسير الآية بل وعدنا بذكره في تفسير

ماذا ينفقون قل العفو» وهو الذي يفضل عن نفسك وعيالك قال صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » واقترض الله على الازواج النفقة لاهاليهم وأولادهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء إثما ان يضيع بما يقوت» أفيحسب عاقل أن عليا رضي الله عنه جهل هذا الامر حتى اجهد صبيانا صغارا من ابناء خمس او ست على جوع ثلاثة أيام ولياليها حتى تضوروا من الجوع وغارت العيون بخلاء أجوافهم حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابه من الجهد ؟ هب انه أثر في نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له ان يحمل على اطفاله جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ هذا ماذكره الحكيم الترمذي في وجه التنكير الا ان المتدبر لو تدبر في احوال هؤلاء الكرام لا يستبعد وقوع هذا الحال منهم ولذا لم يتبين لي وجهه والمأمول من الاستاذ ايضاح ذلك حتى ترتفع الشبهة .

٢ الفونغراف — وقد رأيت أيضا في هذا الجزء في قسم الفتاوي سؤالا يتعلق بالفونوغراف فخطرت لي عند ذلك مسائل اخرى تتعلق به وهي هل يجب السجدة على من سمع آية السجدة منه ؟ وان شخصا لو شهد بواسطة الفونغراف أوأودع الوصية فيه هل تقبل شهادته وتنفذ وصيته ام لا ؟ واني أظن ان السجدة تجب على السامع اذ هو كالاستماع عن انسان وانما الفونغراف آلة للاستماع فقط وكذا الشهادة والوصية ينبغي ان تكون صحيحة نافذة مهما ميز صوتها فان الاصوات متمايزة في التليفون والفونغراف حتى اننا لو سمعنا صوتا معروفا لنا من قبل نقول انه صوت فلان ولا نشتبه فيه فيكون ذلك في حكم الاستماع عن نفس القائل والله اعلم .

٣ التجارة بالجلود — ان اخواننا المسلمين في سبريا الروسية غالبهم يتجرون بالجلود وفيها جلود ميتة غير مدبوغة وجلود غير مذكاة وانهم يسألون عنها ويستفتون ماحكمها الشرعي وربما تكون المعاملة بين المسلمين بالطائفة القرغزية فما حكم ذلك شرعا؟ هل تكون فيها توسعة ان قلنا ان دارنا دار حرب ومذهبنا يوسع فيها في عدة مسائل كمسئلة الربا مثلا؟ هذه المعاملة مما تعم به البلوى في تلك الاقطار والمرجو من الاستاذ حل هذه المسئلة بحيث يخرجها عن الشبهة ولا يوقع حرجا ان شاء الله تعالى

٤ الامامة — ان رجلا قطعت احدى رجليه من فوق الكعب وله قدم صناعية

به » فقالوا انها ميتة فقال « انما حرم اكلها » وذكر الدباغ بيان لطريق الانتفاع وليس فيه حصر وفي لفظ لاحمد : ان داجنا لميمونة ماتت فقال رسول الله (ص) « ألا انتفعتم باهابها ألا دبغتموه فانه ذكاته » اي ان الدباغ مطهر كالذكاة . ولا ينافي هذا جواز الانتفاع بالإهاب غير المدبوغ كما تدل عليه الرواية المطلقة . وروى مالك وابو داود والنسائي وابن حبان من حديث ميمونة ان رسول الله (ص) مر به رجال يجزون شاة لهم مثل الحمار فقال « لو أخذتم اهابها » فقالوا انها ميتة فقال « يطهرها الماء والقرظ » صححه ابن السكن والحافظ . ولعل هؤلاء لو اكتفوا بأمره اياهم باخذ اهاب الميتة والانتفاع به لكفاهم ولم يذكر لهم غيره وحسبك بعبارة الحصر في قوله « انما حرم اكلها » اي لا الانتفاع بها . وحديث « لا تنتفعوا من الميتة باهاب ولا عصب » قد أعلّ بالاضطراب والارسال فلا يعارض هذه الاحاديث الصحيحة ولا ينسخها . ولا يعارضها ما ورد في النهي عن شحوم الميتة فانها مما يؤكل فسدت الذريعة اليه . وامثل ماقيل في النهي عن استعمال جلود السباع انها مدعاة القسوة والكبر

هذا وان المراد بالتنزه عن النجاسة هو ان يكون المؤمن طاهرا نظيفا بعيدا عن الاقذار وما فيها من المهانة والمضار ولذلك كان الدباغ مطهرا لانه يزيل العفونة والرطوبة التي ينتن بها الجلد فكل مايزيل ذلك فهو دباغ مطهر والذين يشترون جلود الميتة لا يتركونها بغير دباغ ولا معالجة حتى تفسد عليهم بل يعالجونها حتى ينتفعوا بها فالذي أراه وأعتقده ان التجارة بهذه الجلود جائز شرعا لا إثم فيه ولا حرج . واذا باعها المسلم من غير المسلمين كان لجواز البيع وجه آخر عند الذين يقولون ان المخالفين لا يكلفون العمل بفروع الشريعة وعليه الحنفية . ووراء هذا كله ما أشار اليه السائل من ان التزام العقود الصحيحة في المعاملات انما يجب في دار الاسلام الا ان يقال ان في النهي عن بيع النجس معنى غير كونه عقدا فاسدا . والعمدة في المسألة ما ذكرناه أولا والله أعلم بالصواب

الجواب عن مسئلة الامامة

الظاهر من السؤال ان الامام المسئول عن امامته يأتي باعمال الصلاة كلها تامة

سورة الانسان ان أنسأ الله لنا في العمر وعند ذلك نذكر مكان الرواية والمسألة. وما قاله الحكيم الترمذي بعضه وجيه مقبول، وبعضه منتقد مردود، والإيثار مرتبة وراء مرتبة تقديم الانسان نفسه على من تجب نفقتهم عليه من أهل وولد، وتقديم هؤلاء على غيرهم وقد ورد في الصحاح ان كبار الصحابة آثروا على أنفسهم وأولادهم مع الفقر وشدة الحاجة فكان ذلك سبب ثناء الله عليهم بقوله (٩:٥٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)وقد حررنا هذا المبحث في المجلد الثاني من المنار (راجع ص ١١ و ١٧ منه) ولا يبعد ان يقصد علي وفاطمة تربية ولدهما على الإيثار ان صح الأثر من طريق الرواية بنصها او مبالغة فيها ولا حاجة الى التطويل في ذلك فالخطب فيه سهل

الجواب عن مسائل الفونغراف

انما شرع السجود عند تلاوة أو سماع الآيات المخصوصة الآمرة بالسجود او المرغبة فيه لإظهار الخضوع والامتثال ومن سمع القرآن من الفونغراف صدق عليه انه سمع القرآن فالظاهر انه يشرع له السجود عند سماع آية السجدة منه. وإنما عبرنا بيشرع دون يجب لانا نرى أن السجود مستحب لا واجب كما تدل على ذلك الاحاديث الصحيحة وعليه الشافعية

واما الشهادة والإقرار والوصية وسائر المعاملات الدنيوية فالعبرة في ثبوتها أن تكون بحيث يوثق بصدورها ممن صدرت عنه ويؤمن من التزوير فيها لأنها ليست من المسائل التعبدية التي يوقف فيها عند نص الكتاب وما مضت به السنة بلا زيادة ولا نقصان فاذا وثق القاضي بشهادة الفونغراف مثلا كانت بينة شرعية صحيحة لان البينة كل ما تبين به الحق كما حققه ابن القيم وذكرناه في المنار من قبل

الجواب عن مسألة جلود الميتة

روى أحمد والشيخان واصحاب السنن الثلاثة من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الشاة الميتة « هلا انتفعتم بجلدها » وهذا اللفظ للبخاري وفي رواية أخرى له «هلاّ استمتعتم باهابها » والاهاب ككتاب الجلد او مالم يدبغ منه كما في القاموس. ولفظ احمد ومسلم وغيرهما « هلا أخذتم اهابها فدبغتموه فانتفعتم

﴿ التعبير عن الملائكة والجن بالقوى ومعرفة حقيقتهم ﴾

(س ١٧) ورد هذا السؤال على الاستاذ الامام من صاحب الامضاء في ٦ يونيه سنة ١٩٠٥ فبعث به الاستاذ الى صاحب هذه المجلة ليجيب عنه في المنار كما كان يفعل أحيانا في امثال هـذه المسائل ,وقد كان ضاع بين الاوراق ثم عثرت عليه في هذه الأيام وهذا نصه :

فضيلتلو سيدي الاستاذ الحكيم

بكل أدب واحترام لائقين لهذا المقام أتقدم لابلغكم أوفر التحيات وأزكى السلامات والشكر على خدماتكم الدينية وقيامكم بتأدية الحقوق العلمية وتقوية السلطة الدينية الاسلامية أدامكم الله ركناً منيعا للوراثة المحمدية . وبعد فياحضرة الاستاذ لما بيني وبينكم من المودة الايمانية أحب مطالعة أقوالكم لأستعين بها على نزع ما اعتراني من البدع والخرافات الباطلة ولله الحمد فقد رأيت الفائدة فلله الشكر ولكم والله أسأل ان يطيل حياتكم ويكثر من أمثالكم

استاذي بينما كنت انظر في نفيس تفسيركم لسورة قل اعوذ برب الناس اذ وجدت ما يأتي . حضرتكم قلتم « قد وصف الله الوسواس الخناس بقوله : الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس» وقلتم «من الجنة والناس بيان للذي يوسوس او بيان للوسواس الخناس فالموسوسون قسمان قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ولكن نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم ولكل واحد من الناس شيطان وهي قوة نازعة الى الشر » الخ

فبينتم حضرتكم بان الجن خلق مستترون لا نعرفهم فهل المراد لانعرف كافة أحوالهم من ابتداء نشأتهم مع كون القرآن مصرحا بانهم خلقوا من مارج من نار في آيات كثيرة والحديث مصرحا بان الشيطان يسري في جسم الانسان مسرى الدم كما كان يسري في الآلهة لمعبوديهم ونعرف ايضا ان النبي بعث لهم وكلفهم بالرسالة فمنهم من آمن ومنهم من كفر فهذا كله يثبت لنا ان الجن موجودون بحقائق غير

وحينئذ يكون موضع الوقفة في صحة إمامته كون احدى رجليه من الخشب وهذا لا يصلح مانعا من صحة الامامة وقد ثبت في صحاح الاخبار والآثار اقتداء الناس بالامام يصلي جالسا للمرض واختلف العلماء فيمن يقتدون به فقال بعضهم يصلون قاعدين مثله وادعى ابن حزم إجماع الصحابة والتابعين على هذا. وقال بعضهم يصلون قائمين وفصل بعضهم في ذلك . والاصل ان كل من صحت صلاته صحت امامته . ومن استثنى من هذه القاعدة بعض من تصح صلاته للضرورة ولا تصح إمامته كالذي لا يحسن الفاتحة لم يستثنى من ذهب احد اعضائه فاتخذ له بدلا من معدن او خشب لهذا لا أرى وجها للخلاف في صحة إمامة الامام المسئول عنه

الجواب عن مسألة النسخ بالاجمال

لا أتذكر اني رأيت في الحديث ذكر النسخ والاصل عندهم في هذه المسألة قوله تعالى (٢ : ١٠٠ ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أومثلها) والآية في اللغة العلامة والعبرة . وقالوا قد سميت الطائفة المخصوصة من القرآن آية لأنها علامة يفضى منها الى غيرها : او لانها علامة دالة على الحق ، والنسخ في اصل اللغة نقل كتاب عن كتاب وجعل الزمخشري في الاساس قولهم : نسخت الشمس الظل من المجاز والمعنى في كل منهما التحويل الا ان الاول تحويل لمثل الشيء والثاني تحويل لعينه . وورد اللفظ بمعنى الازالة والتغيير كقولهم نسخ الشيب الشباب ونسخت الريح آثار الديار

وقد ورد ذكر النسخ في كلام السلف وائمة الفقه واصطلح علماء الاصول على تعريفه المشهور وهذا في كلام السلف اعم من ذلك فالنسخ في الجملة متفق عليه ولكن وقع الخلاف في تفسيره وفي جزئياته والآية ليست نصا في قول أحد من المختلفين ولا حديث يحتج به في تفسيرها ولا في نسخ شيء من القرآن وانما مدار البحث والاجتهاد فيها على تعارض النصوص و المروي من الآثار وفيه جرت المناظرة بين الدكتور محمد توفيق افندي صدقي والشيخ صالح اليافعي فعند ماتنتهي المناظرة يكون لنا كلمة أخيرة في المسألة وقد كنا بدأنا بكتابة مفصلة ثم جاءنا الرد الآتي من الدكتور صدقي فأمسكنا عن اتمام ما شرعنا فيه

يرهم حين سمعوا منه القرآن فآمن بعضهم وكفر بعض . وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس التصريح بذلك قال في تفسير الآية « ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم » الخ ولكن روي عن ابن مسعود انه رآهم وقرأ عليهم وقال ابن تيمية ان ابن عباس علم ما دل عليه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وابو هريرة من إتيان الجن له الخ فحسبك من أمر تكليفهم ان حبر الامة ابن عباس كان يعتقد بحسب فهمه للقرآن ان النبي (ص) لم ير الجن وانما اوحى الله اليه انهم سمعوا منه القرآن ونزل عليه فيهم (٤٦ : ٢٩ واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) واذا صح حديث ابن مسعود وابي هريرة في رؤيته إياهم ومكالمتهم فذلك لا يدل على انهم صاروا من عالم الشهادة واننا صرنا نعرف حقيقتهم فان الله قد يطلع رسله على بعض غيبه وذلك خصوصية لهم كما قال في سورة الجن (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول) الخ

وكذلك حديث صفية عند الشيخين وغيرهما « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » لا يدل على حقيقة الشيطان ولا يجعلها معروفة لنا والحديث تمثيل لا حقيقة كقول الشاعر * جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي * وليس فيه « كما كان يسري في أعضاء الآكلة » كما قال السائل . وقد قال تعالى في الشيطان (٧ : ٢٧ انه يرا كم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . وقوله انه صح ان النبي شفا المصروع واخرج من جسده الجان لا أدري من أين جاء به السائل على انه لا يدل على اننا نعرف حقيقة الجان

واما تعبيره عنهم بالقوى فقد كنا نقلناه عن الاستاذ الامام في تفسير سورة البقرة فانكره بعض الناس وان ورد مورد التأويل لمحاجة المنكرين لعالم الغيب فطلبنا منه ان يوضحه فأوضحه بكتابة بليغة زادها على تفسير آيات خلق آدم الذي نشرناه في المنار واننا نورد هنا ما كنا كتبناه هناك وما زاده عليه رحمه الله واحسن مثواه ونميز ما كتبه بوضعه بين أقواس هكذا { } وهاك ما هنالك

تقدم ان الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته وانما نؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه وتقدم ان القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف

حقائقنا وانهم يقدرون على التشكل بشكل ما . ثم حضرتكم قلتم « وانما نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم » فهل ينسب اليهم حقيقة او مجازا مع كونكم جعلتم هذا الاثر للشيطان الذي قلتم عنه بانه « قوة من جملة القوى الانسانية » فكأنه لا شيطان ولا ابليس وكأن هذه القوة هي التي أمرها الله بالسجود فتكبرت فلعنها الله وقالت « انظرني الى يوم يبعثون * فلأغوينهم اجمعين » وكأنها هي التي قال لها الله « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان — اي القوة — الا غرورا » وكأنها هي التي بعث لها المصطفى يبلغها الرسالة وكأنها هي المذكورة في قوله (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الخ قل (أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن) أي القوى وكأنها كانت تتلقى السمع لتبلغه لرئيسها فلما بعث النبي أرادت ان تتلقى السمع فأصيبت بشهاب قبس . و بكل احترام لمقامكم وعدم الاعتراض لاقوالكم اطلب الايضاح عن ذلك لان فكرتي متشتتة الآن مع بيان كيف حقيقة الجان وكيف كان خطاب المصطفى لهم لتأدية الرسالة و بيان ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه اشفى المصروع وأخرج من جسده الجان مع ان الحكماء تنكر ذلك والظاهر للعقل هذا مع بيان التوسل بالنبي والصالحين في الدعاء ولكم الشكر

كاتبه ولدكم

محمود فهمي

باشمهندس ري مديرية الدقهلية

(ج) قول الأستاذ الامام رحمه الله في الجن « هم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم » هو الاصل عند المسلمين وكذا اهل الكتاب في هذا الباب . والمراد لا نعرف حقيقتهم لانهم من الخلق المغيب عنا . وما جاء في القرآن من خبر خلقهم وغير ذلك لا ينافي كوننا لا نعرف حقيقتهم وكذلك أخباره عن جميع عالم الغيب لا يقتضي اننا نعرف حقيقة ذلك العالم . والعلم بأن الجان خلق من المارج لا يفيدنا معرفة حقيقته بل ولا ظواهر صفاته ومميزاته كما ان خلق الانسان من طين لا يبين حقيقته ولا مميزاته . ومثل ذلك يقال في تكليفهم . وظاهر قوله تعالى في سورة الجن (٧٦ : ١ قل أوحي الي انه استمع نفر من الجن) الخ ان النبي صلى الله عليه وسلم لم

بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية ﴿ اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ﴾ والامر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم انه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا لان هذه الاسماء لم ترد في الشرع فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات ﴿ وان كان المؤمن بالغيب يرى للارواح وجودا لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، ولا يعلم الا الله على مَ يختلف الناس وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ولا يصل بعقله الى إدراك كنهه وماذا على هذا الذي يزعم انه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غُيّبَ عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره ، وان كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ويحظى بما يحظى به المؤمنون ﴾

يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عند ما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الامر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذاك يدفع ، وواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرا وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكتنه حقيقتها — لا يبعد ان يسميه الله تعالى ملكا ويسمي أسبابه ملائكة أو ما شاء من الاسماء فان التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ! ؟

وأقول ان الامام الغزالي سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكا فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال « ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت

لكل صنف وظيفة وعمل وتقول الآن ان الهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح فالملائكة والشياطين اذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح ان تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا « لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق اجسامنا ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس فاذن هي من عالم غير عالم الابدان قطعا » والواجب على المسلم في مثل الآية الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على انها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقت لها القصة

وأقول : إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف في الكتاب والسنة واما إسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ومن حديث الشيخين في المحدَّثين وكون عمر منهم . والمحدثون الملهمون وحديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشياطين فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعلمه مرفوعا الا من حديث أبي الاحوص . والرواية ايعاد في الموضعين كما ان الآية من الثلاثي في الموضعين فما قالوه في التفرقة بين الوعد والايعاد اغلبي فيما يظهر والا فهو غير صحيح واللمة بالفتح الالمام والاصابة

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو ان مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان وغير ذلك فيه ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو ان هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والانسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في ايجاده فانما قوامه

يظنون انهم من المتشددين في الدين اذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى أو المخدَجون من جيد الاطعمة التي لا تضرّهم وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم و يتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى أو المخدَجون بأضر طعام يفسد الاجسام ويزيد السقام . لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ! أليس الروح في الآدمي مثلا هو الذي تظهر آثاره في أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل واذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنــه الآثار فيمن وهبت له ؟ فاذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا فهل يضر ذلك الدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان ايمانا ، حتى يكون اذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الاركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقي الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكن فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر علمه ؟ كلا انما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو ان مسكينا من عبدة الالفاظ من أشدهم ذكاء واذربهم لسانا أخذ بما قيل له ان الملائكة اجسام نورانية قابلة للتشكل . ثم تطلع عقله الى ان يفهم معنى نورانية الاجسام وهل النور وحده له قوام يكون به شخصا ممتازا بدون ان يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد ان يتقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ألا يقع في حيرة ؟ ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون ابواب الغيب يطرف لما يستطيع النظر اليه لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه ، وكلف نفسه علم ما لا يعلمه ، فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا واطمأنت بايمانه نفسه ، وأذعن له قلبه ، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح . فليرجع هؤلاء الى انفسهم ليعلموا ان الذي وقرفيها تقاليد حفت بالمخاوف ، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة . هؤلاء لم يشرق في نفوسهم ذلك

الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب . هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الاسباب فمها استنارت حيطان البيت بنور النار واظلم سقفه بالدخان علمت ان سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا فإن المعاني المختلفة تحتاج الى اسامي مختلفة » اه المراد منه فليراجع في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء

ثم قال الاستاذ الامام مامعناه: فاذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد ان تكون الاشارة في الآية الى ان الله تعالى لما خلق الارض دبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ﴿ ولا يتعدى ماحدد له من الاثر الذي خص به ﴾ خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحدّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه لانه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي ﴿ لزّها الله بهذا العالم لزًّا وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو الكامل الى النقص وتعارض مدّ الوجود لترده الى العدم أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود الى الفناء، أو التي ﴾ تعارض في اتباع الحق وتصدّ عن عمل الخير وتنازع الانسان في صرف قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل الى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدا للوصول اليها ﴿ تلك القوة التي ضلت آثارها قوما فزعموا ان في العالم إلها يسمى إله الشر وما هي بإله ولكنها محنة إله لا يعلم اسرار حكمته الا هو ﴾

(قال الاستاذ الامام) ولو ان نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق ﴿ ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من

(١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم)

﴿ أفلا تزعم ان لله ملائكة في الارض وملائكة في السماء! هل عرفت أين تسكن ملائكة الارض ؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى اجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام، أو تؤنسك اذا هجمت عليك الاوهام؟ فلو ركنت الى انها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وان الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، و بالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك، وتركت لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرفها ، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى الى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب، فان لم تجد في نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب و يفوض في ادراك الحقيقة و يقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلم ترمي طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به، و يؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم في ايمانهم أعلى منك كعبا ، وارضى منك بربهم نفسا ، !

ألا ان مؤمنا لو مالت نفسه الى فهم ما أنزل اليه من ربه على النحو الذي يطمئن اليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة ، ﴾

ثم نقول في الآية ان ترتيب النظم يلتئم مع هذا التأويل الذي أورده الاستاذ الامام فان هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية و برزت في صورة التمثيل جاءت عقيب قوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » و بقي شيء واحد لم يصرح به فيما مضى ولكنه يفهم منه وهو ان كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للانسان وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته الا قوة الإغراء بالشر وناموس الوسوسة بالإغواء الذي يجذب الانسان دائما الى شر طباع الحيوان و يعوقه عن بلوغ كماله الانساني فالظاهر من الآيات ان الانسان لا يغلب هذه القوة ويخضعها مهما ارتقى وكمل وقصارى

السر الذي يعبر عنه بالنور الآلهي والضياء الملكوتي واللألاء القدسي أو ما يماثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة الى مطلع الوجود على الخلق ، ولو علموا ان العالم بأسره فان في نفسه ، وان ليس في الكون باق كان أو يكون الا وجهه الكريم ، وان ما كثف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة الى وجوده ، وليس الشريف منه الا ما أعلى بذكره منزلته ، ولا الخسيس الا ما بيّن لنا بالنظر الى الاول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود في نفسه واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منـه ، فانه كان كذلك ولا بد ان يكون كما قدره، لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم ان تجول في تلك الشؤون حتى تصل الى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ

﴿ هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها الا الى آثار تجل اذا كشفت، وتقل بل تضمحل اذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كمال الوجود ، بهـا ينشأ الناشئ ، وبها ينتهي الى غايته الـكامل ، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب ، وان كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ الا يجوز ان يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها ، لا يدرك كنهه لاحتجابه بمـا نتصوره من حياتنا واختيارنا ! ألا ترى ما توافي بأسرارها ، من ينظر في آثارها ، ويوفيها حق النظر في نظامها ، ليستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها، ومعرفة الطريق الى استدرار منافعها ، أليس الوجود الإلهي الأعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقـه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لمَ لا تقول أيها الغافل انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ؟ ولمَ قصرت معنى الحياة على ماتراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع انك لو سئلت عن هـذا الذي تزعم انك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفا ، الا تقول كما قال الله وبه نقول

النسخ في القرآن — قالوا إن محمداً قد بلغ من الدهاء مبلغا بحيث صار يلعب بعقول أصحابه و يجعلهم يقبلون منه مالا يقبل من غـيره فـكان يأتيهم بالآية من قرآنه فاذا اتضح له فيها عيب أو سـمع عليها انتقادا في مغزاها أو معناها أمر أصحابه بإسقاطها من القرآن بدعوى أنها نسخت . و بلغ به الامر انه إذا كان ما في الآية من الاحكام متفقا مع هوى الامة أو مصلحتها ولكن كان في انشائها شيء لم يرق له بعد إذاعتها أسرع.بنسخ لفظها دون معناها خوفا من أن يوجـد في العرب من يمكنه أن يعارضها في بلاغتها . وإذا أتاهم بحكم واتضح له بعد تجربته أنه لم يرض الناس أو انه لا ينفعهم أو قد يضر بمصلحتهم التجأ إلى حيلته المشهورة وهي دعوى النسخ في الاحكام و بذلك كثرت بين المسلمين الآيات المنسوخة لفظا وحكما أو لفظا فقط أو حكما فقط

(قالوا) ولا يدري أحد ما الحـكمة في كل هذا التقلب والتلون سوى التخلص مما كان يقع فيه من الورطات والغلطات ولولا ذلك لمـا أمكنه التخلص منها . وقد ضاع بسبب ذلك ممـا أتى به من القرآن آيات كثيرة جاء ذكرها في أحاديث المسلمين وهي وان كان أكثرها مما فقد بسبب إهماله في المحافظة على قرآنه إلا أن المسلمين اعتذروا عن ذلك بدعوى النسخ وقالوا تحكما إنها جميعا مما نسخ لفظه وإن كان لا يمكنهم التعليل عن ذلك بعلة معقولة ، ولا يمكنهم الاتيان بحكمة لذلك مقبولة ، على أن أكثر الروايات التي ذكرت فيها هذه الآيات صريحة في أنها ضاعت من القرآن ولم يرد فيهـا ذكر للنسخ لا تصريحا ولا تلميحا . وما بقي من القرآن الآن بعد كل هذا التصحيح والتنقيح تجد شططا في كثير من أحكامه فضلا عما في عباراته من المتناقضات والاختلافات والمسائل الخاصة بمحمد وأهـل بيته ولا فائدة منها لاحد سواه كالآيات الكثيرة من سورة الاحزاب والتحريم وكبعض آيات سورة الحجرات والمجادلة فاذا صح عنـد المسلمين نسخ ألفاظ الآيات التي أدت وظيفتها وانقضى زمنها فلماذا لم تنسخ ألفاظ أمثال هذه الآيات الواردة في حالات خاصة وفي وقائع خاصة وقد أدت وظيفتها وانقضى زمنها ؟ وما حكمة نسخ ألفاظ آية الرجم مثلا مع بقاء حكمها في شريعة المسلمين ؟

ما يصل اليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (١٥: ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (٧: ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ﴿ اما سلطان تلك القوة في الفناء وقطع حركة الوجود الى الصعود فلا يستطيع اخضاعه لقدرته من البشر كامل ، ولا يقاوم نفوذه عامل ، وانما ذلك لله وحده . وهذا حكمها في الكائنات ، الى ان تبدل الارض غير الارض والسموات ﴾ فنسأل الله ان يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وان يعيذنا من الشيطان الرجيم . اه ما كتبناه في تفسير سورة البقرة مع ما زاده عليه الاستاذ الامام بعد ذلك

باب المناظرة والمراسلة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

أنا لا أريد أن أناقش أخانا الفاضل والعالم العامل الاستاذ الشيخ صالحا اليافعي في جميع ما كتبه رداً عليّ فان ذلك يؤدي إلى التطويل والتشويش وملل القارئين وسآمتهم وضياع أوقاتهم وربما خرجنا بالتطويل عن الغرض، وتركنا الجوهر وأكثرنا الكلام في العرض ، فلذا آثرت أن أذكره بكلمات قليلة في الموضوع هي تبصرة للمفكرين . وعبرة للناقدين (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقبل البدء في هذه الكلمات أقدم له جزيل الشكر على غيرته على دينه وعلى ما أبداه من الادب العالي في جميع ما خطه قلمه وأسأل الله تعالى أن يكثر بين المسلمين من أمثاله . وهذه هي الكلمات — :

(الكلمة الاولى) — في تقرير بعض شبهات غير المسلمين على مسألة

*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

موضوعة كما قال الامام احمد بن حنبل ونقله عنه السيوطي في الاتقان فلا يمكننا أن نعلم باليقين رأي الصحابة في أكثر الآيات التي يحصل فيها هذا الخلاف . على أنه قد نقل فيما صح عندهم من الروايات أن بعض الصحابة كان ينكر النسخ في الآيات بمعنى أن يبطل حكمها مطلقا أو أن تلغى فلا تتلى ولا يعمل بها كأبيّ بن كعب فانه رضي الله عنه كان يقول : إني لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بذلك أنه لا يترك آية ما بدعوى أنها منسوخة كما رواه البخاري في صحيحه فالنسخ وإن انكرناه بمعناه عند الخلف فنحن لا نكره ببعض معانيه كما عند السلف ولا نرى عيبا في تسميتهم التخصيص والتقييد والتبيين نسخا . فان كان هناك اختلاف ما بين مثل أبي مسلم الاصفهاني أحد منكري النسخ وبين الصحابة فهو خلاف لفظي لا حقيقي كما لا يخفى

فمسألة النسخ هذه اختلف فيها المسلمون من عدة وجوه (١) في معانيها (٢) في الآيات المنسوخة وقد أنكر الامام الشوكاني وغيره النسخ إلا في بضع آيات وانكره غيرهم في جميعها بمعناه عند المتأخرين كما هو مذهبنا (٣) في جواز نسخ القرآن بالسنة وأنكره الامام الشافعي رضي الله عنه . فأنا بما قلته في هـذه المسألة لم أكن بدعا من المسلمين في شيء فان المسألة فيها خلاف من عدة وجوه من العصر الاول الى اليوم وأكثر مافيها من الخلاف هو في الحقيقة لفظي وان كان لتقريرها على الوجه الذي ذهبنا اليه فيما كتبناه سابقا تندك دعائم شبهات المخالفين لنافي الدين وتسقط حجتهم

أما الروايات التي تفيد نسخ لفظ القرآن أو ضياع شيء منه فقد أنكرها كثير من محققي أئمة المسلمين سلفا وخلفا وأظهر بعضهم ان أكثرها من وضع الملاحدة لتشكيك المؤمنين .وهي تنافي النصوص المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون — واتل ماأوحي اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) وهي لاتتفق مع ما علم بالتواتر من عناية المسلمين بكتابهم حفظا وكتابة من عهد الرسول الى اليوم فهي ان لم تكن موضوعة من أعداء الاسلام المنافقين لغش المسلمين وتشكيكهم في دينهم فلا يبعد أن يكون الواضع لها من بعض الفرق الاسلامية لتأييد مذهب لهم في مسألة

هذا شيء من شبهات القوم على مسألة النسخ في القرآن ، وقد قررناه هنا كما يقررونه في كتبهم الطاعنة في الاسلام، ومنه ترى أن اعتمادهم فيها إنما هو على روايات الآحاد التي يتمسك بها المسلمون وعلى ما اتفق عليه جمهورهم من تسليم مسألة النسخ والقول بها، وكان الاولى بعلمائهم الذين يقولون بالنسخ أن ينظروا في أمثال هذه الشبهات نظرة تحقيق وتدقيق، ويردوها بالبرهان إن كانوا قادرين، بدل أن يقوموا في وجهنا ويردوا مذهبنا في هذه المسائل بما هو في الحقيقة طعن في أصول الدين، وبمثابة تسليم سكاكين للخصم ليقطع بها منهم الوتين، فحسبنا الله ونعم الوكيل

أنا لا أقول ذلك ليأخذ المسلمون برأيي بلا برهان بل قدقدمت من البراهين مايقنع المنصفين، ويهدي المستهدين، وسأزيد الامر قوة فى الكلمات الاتية بما سيكون إن شاء الله نافعا للمومنين، هادما لجميع شبهات أعدائهم المخالفين

(الكلمة الثانية) — في بيان أسباب نشوء مذهب النسخ بين جمهور المسلمين وتواتره في جميع الازمنة ـ اعلم أن من أسباب ذكره في عصر الصحابة امور منها (١) كلامهم في نسخ الاحاديث والسنة فقد كانت الاحاديث والسنن تنسخ بأحاديث وسنن مثلها وتنسخ أيضاً بالقرآن الشريف فالكلام في النسخ قديم بين المسلمين ونشأ منذ نشوء الشريعة الاسلامية (٢) ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يستعملون لفظ النسخ في القرآن بمعنى أوسع مما جرى عليه المتأخرون فكانوا يريدون به تخصيص العام وتقييد المطلق وتبيين المجمل لان من معاني النسخ الرفع وفي كل ما تقدم رفع لدلالة العام والمطلق والمجمل فلذا تواتر بين المسلمين الكلام في نسخ القرآن كما تواتر بينهم الكلام في نسخ السنة والاحاديث. أما رفع حكم الآية مطلقا فقد دل الاستقراء على عدم وجود شيء منه في القرآن كما بيناه في المقالات السابقة ولم يرد نص قاطع عن الرسول بشيء من ذلك ولم يصرح به الكتاب العزيز وإن سلم ان بعض الصحابة قال به في بعض الآيات فهو مذهب له في فهمها ولسنا ملزمين بتقليد أي صحابي فيما فهم ولذلك خالف جميع المفسرين ابن عباس وهو أعلم الصحابة بالتفسير في كثير مما ذهب إليه فيه على أن أكثر الروايات المأثورة عن الصحابة في التفسير

طلعتك مشتاقة، و بصائرهم لماعودتهامن لذائذ الحكمة مفتاقه (كذا) ، ثبت الله دعائمك أيها المنهج القويم ، والقسطاس المستقيم ، لقد كشفت قناع الحقائق ، و بينت تباين الطرائق ، وشددت ازر الحق ، وشيدت مباني السنة ، وخربت مصانع البدع ، وجددت لهذه الامة دينها ، ودعوتها لتدرك يقينها ، فمنها من اتبعك ، ومنها من ضلاك و بدّعك ، هكذا سنة الله في المصلحين ، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أيها المنار أنت والله الحق الثابت في الكتاب وروده ، والواضحة في سني السنة حدوده ، والمرفوعة عليها قواعده ، والموطدة على طوديها شواهده ، فلا يحزنك (وحاشاك) ما هذى به بعض حاسديك ، وما فاه به الاغبياء من راديك ، فقد وردت الينا ردودهم التي هي أوهن من بيت العنكبوت ، واطلع عليها المستبصرون عندنا من طلاب الحق فأنشدوا بلسان واحد

ان العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

وانقلبوا يتضاحكون من تلك الردود التي هي ليست بشيء ولا بعض شيء فلا تهدم حقا ، ولا تبني باطلا ، فما عليك ولا على الحق بأس من تلك الكلمات المزورة ، وهاتيك السطور المصورة ، فهي غاية ما قصر رأيهم عليه ، ومنتهى ما بلغوا من العلم اليه ، وانا لا ننكره اطلاع الناس عليها إذ ليست هي بمعقول ولا منقول ، والحمد لله الذي لم يجعل بيان الحق بزخارف اللسان ، ولكن بالدليل والبرهان ، والاخذ بما في القرآن ، وأحاديث سيد ولد عدنان ،

أيها المنار لا تروعنك (وحاشاك) ثرثرة الجهلة والحسدة ، ولا تهمنك وانت الليث هماهم السفلة والقردة ، فتالله ما أوضح منار الحق لرائديه ، وما أرفع اعلامه لوارديه ، وما أحلى الرجوع اليه لدى طالبيه ، وما أدحضه لحجة محاربيه ، هوالحق والله أجل من ان تخفض اعلامه ، أو تخفى احكامه ، أو تحول لك أيامه ، مافتئت والله مناهجه مسلوكه ، وما انفكت نواقضه متروكة ، لدى حماة ذمار الشريعة ، وحراس حصونها المنيعة ، معاذ الله أن يستر شمس الحق ضباب الهذيان ، أو يخفي سنا مناره عنا حجاب البهتان ، بنفسي أفديك أيها المنار من ان يدنس طاهر ساحتك المدنسون ، أو يدلس في واضح أحكامك المدلسون ،

ما أو إثبات دعوى باطلة لايجدون لها سندا من الكتاب المتواتر فيختلقون الروايات ويدعون أنها كانت قرآنا ونسخ وقد انطلت حيلتهم هذه على بسطاء المحدثين كما انطلت عليهم في مسائل أخرى كثيرة يقف عليها من مارس علم الحديث فاخترعوا من الاحاديث مايؤيد مذاهبهم ومزاعمهم. وقد يكون منشأ بعضها خطأ الراوي وعدم فهمه حقيقة بعض المسائل فيظن ان كل ماأوحي إلى النبي ولا يجده الآن في القرآن كان قرآنا ونسخ كحديث (بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) فوقع بسبب ذلك في الغلط رواية ودراية ولو علم ان من الوحي ماليس بقرآن مطلقا لماسماه قرآنا

واني لاعجب من قبول بعض المسلمين ذلك منهم واستشهادهم على نسخ اللفظ بآية (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) مع ان مثل هذا الاستثناء قد ورد — كما قرره الاستاذ الامام — في القرآن لتأييد النفي ولبيان أن لاشيء في هذا الوجود يستعصي على مشيئة الله فكأنه يقول انك لاتنسى أبدا الا ان قضى الله بذلك فلا راد لقضائه ولكنه تعالى لايقضي به كما وعد بذلك في مثل الآيتين السابقتين. وقد ورد مثل هذا المعنى في آيات كثيرة في القرآن الشريف كقوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك) مع قوله (خالدين فيها أبدا) (وما هم منها بمخرجين) وغيره كثير (لها بقية)

كلمات للمنار

جاءتنا هذه الرسالة من صاحب التوقيع، وهو أحد الاشراف المخلصين في جاوى، وقد سألنا نشرها، فأجبنا سؤله مع الشكر له، لانها بمثابة رد على الصادفين عن الحق بلا برهان ولا دليل، بل بمحض التمحل والتأويل، قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المنار حياك الله وبياك، لقد أوضحت السبيل، وبينت الدليل، وشفيت الغليل، ونحن اليك بالاشواق، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، من قوم نظروا اليك بعين الانصاف، فشاهدوا بها ما حزت من محامد الأوصاف، فأبصارهم الى

ابو حامد الغزالي (*)

٥

رأيه في حكمة التكليف ورد شبهات الباطنية عليه (١)

﴿ جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمدان ﴾

(من الشيخ الاجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . سئل ما قول سيدنا الشيخ الامام الاجل ، حجة الاسلام ، شرف الشريعة، مقتدى الفرق ، امام الائمة ، في هذه المسائل الاربع التي لبّس (بها) هؤلاء القوم الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وموهوا بها استجلابا لقلوب الخلق ، وهي هذه

﴿ المسئلة الاولى ﴾ أليس أهل الاسلام متفقين على ان الباري جلّ ذكره غني عن كل شيء غير محتاج الى شيء مّا . ثم مع ذلك كلهم معترفون بانه كلف العباد العبادة وأقربها فكيف تراك نسيت بحجة العقل ان غنياً عن كل شيء يكلف من لا يحتاج اليه ان يعمل عملاً هو غني عنه ؟ بين لي كيف ذلك لعلي ان أكون من العالمين

﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة ونهاهم عن المعصية ليثيب من أطاع و يعاقب من عصى وهذا مستحيل جــدا في العقول فأيّ حاجة به الى معاقبة خلقه حتى يدعوه ذلك الى ان يكلفهم أمرا اذا لم يأتوه عاقبهم عليه وان

*) تابع لما في الجزء ١٢ م ١٠ (١) عثر على هذه الرسالة في بعض المجموعات القديمة ببغداد عالم العراق السيد محمود شكري افندي الآلوسي فأرسلها الينا لننشرها في المنــار فحمدنا سعيه ، وشكرنا فضله ، ونشرناها بنصها ، الا كلمات قليلة علمنا باليقين انها محرفة فرددناها الى أصلها ، و بقيت فيها وقفات تركناها على حالها

أيها المنار لك أسوة بالانبياء والمرسلين ، وفي جميع المصلحين ، فادأب فللحق طلاّب ، ولا تعبأ بفرقتين احداهما عمشت بصائرها عن رؤية الحق ، مذ عميت عليها انباء العلم ، فصارت اذا حدثتها بما صح سنده عن النبي صلى الله عليه وسلم شاغبت ، واذا حدثتك هي بما لاسند له عن بعض من تعظمهم طلبت منك الايمان بالمحالات ، فهذه جاهلة ملبّس عليها، ثبت التقليد في قلبها

والثانية ثقلت عليها وطأة الحق اذ جاءها ، وطفقت تضلل من رام اهداءها ، وتذمرت من ورود حق المقال ، خوفا من انثلام اعتقاد أولئك الانذال ، وهذه غير ملومة لانك جذذت عليها أصول الكدية ، وسددت دونها سبل الفرية ، وكسدت بضاعتها الرائجة التي طالما استنزفت بها الأموال،وأضلت بهاعقول الجهال، وأنت بالرغم منها حولت الهزل جدا ، ومددت لها من الضيم بظهور الحق مدا ،

أيها المنار اني أعتقد كما يعتقد كل منصف ، وأدين الله تعالى بأنك أنت الحق الصراح الذي لا يتردد فيه عاقل ، ولا يرده الامتهور جاهل ، أو أحمق متجاهل ، فويلك آمن أيها الحائد عن السنن القويم ، والناظر الى المنار بعين السخط الذميم ، ولا تبار قوماً لا يشق لهم في المعارف غبار ، ولا يدرك لعباب علومهم قرار ، طالما ازاحو دياجير الجهل بشموس المعارف ، وازالو بقواطع الادلة هام المجادل المجازف ، فارجع البصر ، وانعم النظر ، في أجزاء المنار الماضية والقادمة ، تدرك هناك وصفك ووصفهم ، وجراءتك وخوفهم ، وانا ابتهل الى الله ان يميتني على ماضمه وشمله منار الحق ويعثني عليه انه بالاجابة جدير والسلام

السيد محمد بن هاشم بن طاهر

بجاوا — المالاغ

بيان يقبله العقل . فهذه اعزك الله المسائل الاربع قد شرحت لك بعضها فلا بد من قول خامس تصح به التكليفات لان سقوطها أيضا لا يصح . أبن لي ذلك فاني أراك من المحسنين . الى هنا كلامهم فان رأى سيدنا ان يجيب عن هذا ويوضح هذه الاشكالات ويكشف عن هذه التليسات حاز به الاجر الجزيل والثواب الكثير ان شاء الله تعالى

* * *

أجاب وقال أما السؤال الاول وهو استبعاد التكليف مع الاستغناء وتوهم التناقض بينهما فمصدره الجهل بحقيقة التكليف فكأن السائل لم يسمع قوله تعالى « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وقوله « فلأنفسهم يمهدون » وقوله « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » كأنه ظن ان تكليف الله تعالى عباده يضاهي تكليف الانسان عبده فان السيد يكلف عبده الاعمال التي يرتبط بها غرضه وما لا حظ له فيه ولا يحتاج اليه فلا يكلفه به فكأن هذا السائل ثبت في وهمه قياس فاسد وهو تشبيه تكليف الله تعالى بتكليف عباده فجعل نفسه مثالا لله، تعالى الله وتقدس عن خياله ومثاله، والكشف عن حقيقة التكليف مما يطول ومن اقتبس حقائق العلوم عن رأيه السخيف، وعقله الضعيف، وقياسه الفاسد، كثر تعثره بالضلالات ، بل ينبغي أن يطلب حقائق العلوم من أهله وهم العلماء الاقوياء القائمون بحقيقة المعقولات المطلعون على اسرار الشرع العارفون بشروط الادلة والبراهين المستبصرون بمداخل الغرور والتلبيس فيها . واذا كان شرح ذلك مما لا يسمح به عداوة؟ على مثل هذه الاسئلة الضعيفة الصادرة عن ضعف البصيرة فلا علاج للافهام الضعيفة انفع من ضرب الامثلة فلنقتصر على ضرب مثلين .

﴿ المثال الاول ﴾ تكليف الله عباده يجري مجرى (معالجة) الطبيب للمريض فانه اذا غلبت عليه الحرارة مرة يشرب المبردات والطبيب غني عن شربه لا يستضر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته ولكن الضرر والنفع يرجع الى المريض وانما الطبيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض حتى وافق الطبيب شفي وتخلص وان لم يوفق تمادى به المرض وهلك و بقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه فكذلك خلق للعبادة الاخروية أسباباً تفضي اليها إفضاء الدواء الى الشفاء وهي الطاعات ونهي

كان لا حاجة به الى ذلك فالقول مستحيل جدا لا توجبه حكمة وان كان تعالى به الى ذلك حاجة فما يصنع بالتكليف وهو قادر على ان يثيب من يريد ويعاقب من يريد ؟ فالتكليف أيضا حشو لا توجبه حكمة والحاجة نقص وانه سبحانه وتعالى لا ينسب الى نقص وهو غني غير محتاج ٬

﴿ المسئلة الثالثة ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة لينفعهم بها أتراه جل ذكره عجز عن ان ينفعهم بغير التكليف حتى احتاج ان يكلفهم ثم ينفعهم ؟ ان كان غرضه نفعهم فالتكليف ساقط وهو حشو وان كان يعجز عن ذلك الا بالتكليف فالقدرة ساقطة والعجز ثابت وهو محال

﴿ المسئلة الرابعة ﴾ ان الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ٬ وهذا باب تحير فيه العقول،هل يجوز ان يأمر حكيم بأمر يخرج عن الحكمة وينبو عنه العقل ثم يحظر على العاقل البحث عنه؟ أليس ذلك ضربا من الجور والظلم لانه جعل الحجة على هذا الخلق العقل وأمر أهله ونهاهم وخصّ غيرهم من البهائم على ما خلقوا عليه بالآلات التي خلقت لها وألهم العقل استعمالها بمثل اللجام الذي تروض الدابة به وغير ذلك من حبالات الصيد والحيل المعروفة التي يطول شرحها ؟ واذا كانت حجة العقل على المكلفين والمأمورين والمنهيين بأمره ثم يكلفون أمرا ويمنعون من الفحص عنه والتماس سبب يتصور به ما يكلفونه عندهم ويصح في معقولهم ومعلومهم الذي هو حجة عليهم أليس يكون ذلك ظلما صريحا ؟ ووجدنا المتحلين بالعلم من جميع الاصناف يقولون ان الله جلّ جلاله لا يقبل عملا الا على بصيرة فاذا منع العاقل من البحث والنظر أين يكون بصيرا وهل يرجى ان يوحى اليه ؟ هذا منكر من القول لا يعقل وما لا يعقل فليس بشيء . ووجدنا هذا الكتاب الناطق بين الخلق من الحق يخبر في موضع بآية « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » ويخبر في موضع آخر بانه يسئل ويقتضي الجواب في قوله تعالى « ونحشره يوم القيمة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى » فأي سؤال أتم من هذا السؤال الذي اقتضى هذا الجواب ؟ وفي القول مثل هذا كثير والتناقض في مثل هذه الآيات ظاهر موجود اذا لم يعبر عنه

وإن خالفت فعليها فكذلك قول الله تعالى «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»

(وأما السؤال الثاني) فهو فرع من هذا السؤال فان قوله ان الله مستغن في اثابة عبده عن الطاعة وهو لم يتضرر بها يضاهي قول القائل ان الله مستغن في في انشاء الانسان عن الامر بالوقاع وفي انماء الطفل عن الرضاع وفي اشباعه عن الطعام وفي اروائه عن الشراب وفي تصحيحه عن الادوية فما باله عاقب بعقوبة الجوع من ترك الاكل وعاقب بالمرض من ترك الادوية وعاقب بموت الطفل من ترك رضاع ولده وهذا خيال من يظن ان الله تعالى يفعل ذلك غضبا وانتقاما وليس يدري ان لفظ الغضب والانتقام مستعار ومأوّل وانما غضب الله عبارة عن إرادته الايلام فكما ان الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الاسباب فبعضها يفضي الى الايلام و بعضها الى اللذات ولا يعرف عواقبها الا الاطباء فكذلك نسبة الطاعات والمعاصي الى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق

وكذلك (السؤال الثالث) ينحل به فان الله تعالى لا يوصف بالعجز عن الاشباع من غير أكل والإرواء من غير شرب والانشاء من غير وقاع والإنماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات كذلك لسر وحكمة لا يعلمها الا الله عز وجل والراسخون في العلم وليس ذلك بعجب انما العجب في التعجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمري من لا يهتدي الى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ومثاله في التعجب مثال الاعمى الذي دخل دارا فتعثر بالاواني الموضوعة في صحن الدار فقال لأهل الدار ما ارك عقولكم لماذا لا تردون هذه الاواني الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق ؟ فقيل انها موضوعة في مواضعها وانما الخلل في فقد البصيرة (١) و بالجملة فمن لم يدرك الفرق بين التعجب و بين البرهان كثر خبطه وضلاله وليس في هذا الا تعجب محض وان الله تعالى لم رتب الاسباب ؟ ولو رتبها على وجه آخر لتصور أن يتعجب منه جاهل و يقول لم لم يفعل ضده وهذه التعجبات

---

(١) كذا في الاصل و يظهر ان ههنا سقطا وتصحيحه بحسب المعنى ان يقال وانما الخلل في فقد البصر وكذلك الخلل فيما ضرب له المثل في فقد البصيرة . والمثل مذكور في الاحياء ولا أجد سعة في الوقت لمراجعته

النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق مشقيات في الآخرة ومهلكات كما ان رذائل الاخلاط ممرضات في الدنيا ومهلكات . والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للاجساد طبا فالانبياء أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح لتمهيد طرق التزكية للقلوب كما قال تعالى « قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها » ثم كما يقال ان الطبيب أمر المريض بكذا ونهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطبيب وانه صح لانه راعى قانون الطبيب ولم يقصر في الاحتماء و بالحقيقة لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي أمره الطبيب بها فكذلك (مداواة) النفوس هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب أمراضها . وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الاجساد حياة الدنيا

﴿ المثال الثاني ﴾ ان الملك من الآدميين قد يخص بعض خدمه وعبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه الى مجلسه تارة لحظ الملك في استخدامه والاستعانة على نظام مملكته ومصالحها به وهذا القسم ونظيره في حق الله تعالى محال وتارة ليتوجه العبد الى مجلسه وينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميمه العزم على ان لا يستخدمه أصلا ولكن ليقربه من نفسه لمجرد حظ العبد والزيادة في قربه . ثم العبد ان ضيع المركوب وانفق المال لا في الطريق الى السيد عد كافرا للنعمة وان ركب المركوب وانفق المال في الطريق متزودا به عد شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه نال الملك حظا لنفسه ولكن اراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله يستوي عنده كفر العباد وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكن لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الملك المستغني لعبده الغائب الشقاوة بالذل والفقر ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب منه أو بعد . فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم كما لا يسعد بالصحة إلاّ من أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقتي فلنفسك

ان يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلا (١)

﴿ التعجب الثالث ﴾ أن الشرع كيف يرد بما ينبو عنه العقل ؟ وهو فاسد لان قوله «ينبو عنه العقل» لفظ مشترك فان اراد به أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله مثل نفسه والجمع بين المتضادين فهذا مما لا يرد به الشرع ولم يرد. وان اراد به ما يقصر العقل عن دركه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال بل مقصود بعثة الانبياء ارشاد الخلق الى ماتقصر عقولهم عنه فليس بمحال أن يكون في علم الاطباء مثلا جذب المغناطيس للحديد والمرأة الحامل لو مشت فوق حبة مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى انه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه ولا ينبو عنه بمعنى الحكم باستحالته وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه بل او لم نشاهد النار قط واحراقها فاخبرنا مخبر وقال اني احك حبة بحبة واستخرج من بينهما سناً احمر بمقدار عدسة تأكل هذه البلد وغيرها حتى لا يبقى فيها شيء من غير أن ينتقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل البلد ثم تأكل نفسها فلا تبقى لا هي ولا البلد لكنا نقول هذا شيء ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، فكذلك يستعمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو الذي ليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه ؛

واما ﴿التعجب الرابع﴾ وهو انه لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون ثم سئل وقيل « لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » فمصدر هذا السؤال الجهل بكون « لفظ » السؤال مشتركا فان السؤل قد يطلق ويراد به الإلزام كما يقال ناظر فلان فلانا فتوجه عليه سؤاله (٢) وقد يطلق

---

(١) المنار: فسر الظلم هنا بما جرى عليه الاشعرية وفيه نظر ظاهر وقد بينا حقيقة الظلم وكونه محالا على الله تعالى في مواضع من التفسير والمنار (٢) هذا ما يعبر عنه الآن بالمسؤلية وهي بمعنى التبعة والمؤاخذة فمعني كونه تعالى لا يسئل عما يفعل انه ليس لاحد سلطة فوق سلطته فيسأله عن فعله سؤال من يلقي عليه التبعة ويؤاخذه على ما عمل

منبعها اوهام العوام ولا يلتفت المحصل اليها بل الى مقتضي البراهين

﴿ واما السؤال الرابع ﴾ ففي ايراده خبط وكأن السائل لم يقدر على ان يفصح عما في ضميره والذي يتحصل منه تعجبات اربع

(التعجب الاول) قوله كيف أمر بالشيء ومنع عن البحث عنه والبصيرة لا تحصل الا بالبحث ؟ وهذا تعجب فاسد فإن العمل يستدعي اعتقادا جازماً أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يحصل بالتقليد المجرد عن سبيل التصديق والايمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول اليها بالبحث ولم يمنع عن البحث كل الخلق بل الضعفاء القاصرون عن الاطلاع على عويصات البراهين ومعاصات البحث وانما مثال ذلك امر الطبيب المريض (بالدواء) وامتناعه عن ذكر العلة في كون الدواء نافعا ومنعه المريض عن الاشتغال بالبحث عنه لعلمه بانه يقصر عنه فهمه ولو اشتغل بالبحث عن علل الطب لشق عليه وعجز عنه وزاد المرض واستضرّ به فان وجد على الندرة مريضا ذكيا آنساً بمنهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمتنع عن ذكر المناسبة بين الدواء وبين علته بل اذا علم انه ليس يكتفي بمجرد قوله وليس يصدق بمحض التقليد وتفرس فيه من الذكاء مايفهم به العلة وعلم انه اذافهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وان لم يفهم اعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ان كان يريد صلاحه ولم يمنعه عن البحث اذا علم اشتغاله له الا ان ذلك نادر في المرضى جدا والا كثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والاسرار والبحث عنها في الشرعيات من هذا القبيل ،

﴿ التعجب الثاني ﴾ وهو تسخير البهائم للانسان يضاهي تعجب الانسان ممن يمشي خطوات لينظر الى منتزهات ووجوه حسان فيقال كيف أتعب رجله وسخرها لاجل عينه والعين آلته كما أن الرجل آلته فما بال إحداهما جعلها خادمة واتعبها وجعل الاخرى مخدومة وطلب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل البصير يعلم ان الكامل يفدى بالناقص وان الناقص يتسخر لاجل الكامل وهو عين الحكمة واما قوله ان ذلك ظلم فهو جهل بحد الظلم فان الظلم هو التصرف في ملك الغير والله تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه الظلم بل له

الهليوم : اجل أماطت الطبيعة اخيرا نقاب الخفاء عن وجهها الوضاح، ورفعت الحجاب بعد دلال ونفار ، طال اجله الوفا من السنين، غادة وضاءة لا كالغادات تعشقها العالم فهام لاجلها في البيد والقفار ، وجرى وراءها الى قنن الجبال ولجج الابحار ، تقفى أثرها في الرمضاء اللاذعة تحرقه أشعة شمسها، وفي الثلوج المتراكمة يلذعه قارس بردها، سهدته قرونا طوالا وهو يرقبها طول ليله في السيارات والدراري وليل العاشقين طويل، وتطلبها في قطرات الماء ورشاشه يحدق فيها بمجهره وهي غزال نفور كالزئبق الفرار ، اذا دنت نأت ، وان قربت بعدت ، هي اشبه برهرهات الآل وسراب الظمآن، لم تكشف القناع عن ثغرها البسام لحظة من الزمن ، تطلبها في الحرارة والنور ، وامتطى في أثرها الـكهر بائية والبخار ، وكالمها بين الزهور والرياحين ، وشرح لها وجده بين الرياض والبساتين ، فكانت اذا أدنته منها ابتسامة ، اوقفته عن الدنو منها مهابة ، جمال تكلل بالجلال ، وانفة الا أنها دلال ، منها نحل العاشق سقما ، وضاق ذرعا ، فلما أيقنت منه التفاني في سبيل غرامها، والاستقتال في هيامها، أماطت الآن اللثام، بعد آلاف سنين في التحجب والدلال ، والتلاعب والمطال ،

طمحت أبحاث اسلافنا منذ الاعصر المترامية في القدم الى اكتشاف امرين خطيرين اولهما اكسير الحياة الذي يتذرع به المرء الى درء كأس الحمام ونيل الخلود على وجه البسيطة، وثانيهما حجر الفلاسفة الذي يباح له به تحويل المعادن الى ذهب ، فيصبح المرء بهذين الاكتشافين خالدا مثريا ، ولبث القدماء يخطون في دياجير الاوهام، ويتلمسون الحقيقة في ظلمات بعضها فوق بعض ، حتى نبغ نحو أواخر القرن الثامن رجل هو لغز من ألغاز التاريخ غريب الاطوار كثير المطامح بعيد المرامي يسمى جابرا تفرغ الى البحث في المعادن وانقطع الى إجراء الامتحانات المتعددة بشأنها تذرعا لتحويلها ذهبا وكان مذهبه ان المعادن خليط من عناصر متعددة يمكن ترقية الدنيا منها الى الاشكال العليا وما فتئ يكثر من التجارب ويعيد في الامتحانات وهو في كل ذلك يتراوح بين الحقيقة والضلال حتى أصبح له في عصره شأن خطير ومنزلة راقية في عيون اهله وهو احق رجل بان يسمى شيخ الـكيميين ولكنه منطق

ويراد به الاستخبار كما يقال سئل التلميذ والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله « لا يسئل عما يفعل » إذ لا يقال له: لم؟ قول إلزام فأما انه لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله « لم حشرتني أعمى » وهذا القدر كاف في جواب هذه الاسئلة اه والذي أوصي به هذا السائل ان ينظر لنفسه ودينه ويتقي ربه ويطلب عالما مليا بعلم العقل والشرع ليهديه الى الطريق فان من ترقى عن مجرد التقليد بأدنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستعلاء كان من الهالكين فنعوذ بالله من فطانة نزالة وكياسة ضعيفة فان البلاء منه أولى إلى النجاة منها آمين

استحالة المادة

١

﴿ للدكتور خليل سعادة ﴾

كتبها عند إذاعة خبر هذا الاكتشاف

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

او مض من كعبة العلم نبأ خطير ، دوت له أرجاء العالم المتمدن اي دوي ، وعندي أنه اعظم اكتشافات البشر ، وأسمي مابلغت اليه مداركهم ، فلا يحسب بجانبه كشف العالم الجديد شيئا مذكورا ، وما بلوغ القطب الشمالي اليه سوى ألعوبة من ألاعيب الصبيان ، كيف لا وهو الامنية الكبرى التي طمحت اليها أبصار فلاسفة العصور ، والغاية القصوى التي اشرأبت اليها أعناق الحكماء في جميع الدهور : حلم رآه أسلافنا في ليل مدلهم بظلمات الاوهام ، فتجلى لنا نورا باهرا يبدد دياجي الجهل وينير بصائر الافهام ، بل قل هو الحق انزل على عيون مبصرة ، وآذان مصغية ، وقلوب واعية ، فزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

نريد بهذه التوطئة الاكتشاف الحديث الخطير وهو استحالة المادة الواحدة البسيطة من عضو الى آخر كما تبين الآن في استحالة بخار الراديوم الى عنصر

فقيد من كعبة العلم الى باحة « الغليوتين » (١) وهو الذي قال بشأنه ساعتئذ « لاغرانج » أحد مشاهير مواطنيه: بعددقيقة يسقط رأس تمر بكم أجيال وقرون قبل الحصول على مثله

فانقشعت اذ ذاك غياهب الجهل عن بصائر أولي النهى ففقهوا ان جل المواد المعروفة انما هو مركبات وخليط مواد بسيطة متعددة فحسروا عن ساعد الجدوقذفوا بالاوهام القديمة من حالق وتواردت عندئذ اكتشافات العناصر تترى على نوادي العلم ومجامع العرفان فبنيت صروح المعارف على اطلال الخرافات ووطد بنيان الكيمياء على عمد راسخة الاركان واكتشف الباحثون في العناصر نواميس كماوية عجيبة لم تكن لتخطر في بال اسلافنا ولا في الاحلام

العروة الوثقى التي وقفت عندها الالباب حيرى هي الذريرات الاصلية لهذه العناصر فقالوا انها جواهر مادية تتألف من جواهر فردة اذا تجزأت بطل العنصر أن يكون عنصرا بالخصائص والمقومات التي يتميز بها عن سواه غير انه لما كان الجوهر الفرد لا يقبل التجزؤ فعلا اذ لم يكشف البشر ذريعة أو وسيلة تؤدي الى ذلك لبث العنصر ثابتا على ممر الأدهار

بيد ان القول بوجود هذه العناصر المتعددة الاشكال المتباينة الخواص ثابتة على هذا المنوال منذ الازل مناف لمطمح الفلسفة السامية القائلة بوحدة المادة وخصوصا اذا اعتبرت أرضنا نفسها ذريرة من مجاميع ونظامات هذا الكون العجيب الذي يملأ القلب مهابة ورهبا متى تجلى لك خلال استار الدجى كواكب ودراري سابحة أو معلقة في فضاء يتطاول الطرف الى الاحاطة بعظمته وفقه رموز اسراره فيرتد عنه وهو كليل

ذلك ما حدا جلة المتضلعين من العلوم الطبيعية الى القول بان سائر العناصر المعروفة مشتقة من عنصر واحد متناه في بساطة التركيب ولطافة القوام وخفة المادة غازي الشكل ولما لم يكن معروفا عندهم حينئذ من العناصر التي يمكن الحصول عليها ما يصح ان يكون أصلا لجميع المواد سوى الهدروجين حسبوه ذلك الاصل

(١) المنار: هي الآلة التي اخترعوها لقط الرقاب بسرعة

الحقيقة بالجهالة واكتنف الحق بالباطل ولم يدر خطورة قوله ولم يحلم حينئذ ان سيقوم في فجر القرن العشرين رجل من اشهر الكيماويين ويكتشف أعظم اكتشاف قدر للمرء حتى الآن ويجيء به مصداقا لاقواله

بيد ان العلوم الراقية لبثت قروناطوالا خليط فن واحد فكان الباحث متكهناً في الطب وعالما في التنجيم وطوالع السعد وصهارا للمعادن وطال أمره دهورا يتلمس الحق على غير صراط الهدى حتى بزغت عليه بعض اشعة العرفان فانبثق الطب من الكهانة والفلك من التنجيم وكيمياء الحق من كيمياء الباطل

ولما انتظمت الكيمياء فنا قائما بنفسه نبذ طلابها آراء الاقدمين نبذ النواة فتبين لهم ان العناصر الأربعة التي قال بها السلف وهي النار والهواء والماء والتراب ليست بعناصر بل هي مواد مركبة تنحل الى موادّ أخرى بسيطة اطلقوا عليها لفظ العناصر الصحيحةوكان من أوائل اكتشافاتهم بهذا الصدد الاكسوجين . ولما تم لهم هذا الفتح المبين نشطت الهمم من عقالها واستولى على المنقطعين الى هذه الابحاث هوس شديد . نضرب لك مثلا واحدا لتفقه الى أي حد بلغ بهم ذلك الهوس وهو الكيماوي الطائر الصيت « لافوازيه» فانه كان في صدر جلة الكيماويين الذين تحروا البحث والامتحان بشأن الاكسوجين فبعث الى الاكاديمي في أواخر القرن الثامن عشر رسالة ضافية الذيول بخصوص تأكسد المعادن (١) وكانت له أثرا خالدا وما زال يوالي التجارب حتي انفجر بركان الثورة الفرنساوية واندلع لهيبها في باريس وسائر ارجاء فرنسا وكان « لافوازيه» لنكد الطالع رجلا عريقا في نسبه ، كبيرا في حسبه ، وافرا في ثروته ، فأصبح هدفا للثائرين، وغرضا لسهام الحاسدين ، فصوَّب اعداؤه نحوه شكايات باطلة أصابت منه مقتلا فحكم عليه بالاعدام وكان اذ ذاك منهمكا في تجارب كيماوية خطيرة فطلب من لجنة الثورة ان تمهله بضعة أيام ريثما يتم ابحاثه واكتشافاته فعاملته بغلظة يندى منها جبين التمدن واجابته بفظاظة يحمر لها وجه الحرية قائلة ان لا حاجة بالجمهورية للعلماء!

(١) المنار : التأكسد عندهم عبارة عن اتحاد المعدن بالاكسجين بحيث يتولد عنهما جسم ثالث غيرهما كالصدأ في الحديد وهو أكسيد الحديد

الهواء بقيت حرارته مرتفعة عما يحيط به وهو أمر لوسمعه العلماء في حلم لما صدقوه. ولما وجد الباحثون عنصرا يختلف في خصائصه عن سائر العناصر ذعروا منه بيدأنهم توسموا به أخيرا خيرا اذ علموا انه سيلقي بين أيديهم مقاليد الكون وينشر امام أبصارهم رموز الطبيعة واسرارها فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء حتى بلغت اثمانه في الاشهر الاخيرة مبلغا فاحشا لم يسمع بمثله من قبل فان المقدار الذي لا يتعدى جزءا من خمسة عشر جزءا من القمحة منه يساوي خمسين ألف جنيه

وكان في عداد الذين اشتغلوا بالبحث في الراديوم واسراره الكيماوي الشهير السير وليم رمزي فوجد نظير غيره من المشتغلين به ان في جملة ماينبعث من هذا المعدن مادة غازية كثيفة بقيت لديهم حينا من الدهر لغزا من الالغاز لانها كانت تلبث ردحا من الزمان ثم تختفي دون ان يتمكن أحد من الوصول الى كنهها فوضع السير رمزي اخيرا هذا الغاز في زجاجة دقيقة جدا سدها سدا محكما وما فتئ يراقبها حتى تبدت له معجزة من المعجزات وهو ان تبدى من هذا الغاز بعد يومين من الزمن بواسطة السبكترسكوب خط ضارب الى الاصفرار وهو الخط الذي يشير الى وجود عنصر الهليوم وهو مادة توجد في الشمس ولم يعثر عليها في أرضنا الا حديثا ثم بعد نحو اسبوع من الزمن زاد الخط اشراقا دلالة على ان مادة الراديوم الغازية استحالت الى عنصر الهليوم ولم يبق لها من اثر

وهذا الاكتشاف الذي نحن بصدده هو باكورة الاكتشافات العظيمة في فجر القرن العشرين وسيكون له من الخطورة ماهو اهل له وسيقيض لنا على يده كشف كثير مما غمض على أفهامنا من أسرار الطبيعة وغرائب الكون فان الباحثين جارين الى هذه الغاية سباقا يبذلون النفس والنفيس ويجودون بالمال والارواح لفرض ترقية شأن العقل البشري والنهوض به من حضيض الجهل الى قنن العلم ولعله لا تغيب شمس هذا القرن حتى تبزغ شموس من سماء الحقيقة والعرفان تتجلى نورا باهرا على الافهام وتميط الطبيعة عن محياها الصبوح حجاب الابهام ومن يعش يره

الدكتور سعاده

حتى انبأ بعضهم من هذه الاستدلالات بوجود عناصر أخرى كانت لم تزل مجهولة لكي تملأ فراغا في حلقات العناصر المعروفة فجاءت الاكتشافات التالية مصداقا لنبوتهم

ثم انه تبين من الابحاث الحديثة ان الجوهر الفرد للهدروجين على ما فيه من التناهي في الصغر هو كبير جدا في حجمه بالنسبة الى ما كشف مؤخرا من الذريرات الكهربائية التي اطلقوا عليها اسم الألكترون بحيث ان جرم الجوهر الفرد الواحد من الهدروجين يوازي ألف جرم من الألكترون وثبت لهم ان هذه الذريرات الكهربائية تستقل عن الجواهر الفردة وتقوم بنفسها ويكون لها جميع الخواص المقومة للجوهر الفرد حتى ترجح عند كبار الطبيعيين الآن ان الجواهر الفردة لجميع العناصر تتألف من هذه الذريرات الكهربائية فقط التي بعضها إيجابي و بعضها سلبي بمقادير متساوية وان اختلاف العناصر متوقف على اختلاف مقادير هذه الذريرات في تأليف جواهرها الفردة فما العناصر اذاً سوى مجاميع هذه الذريرات التي يثبت قوامها بقوتي الجذب والدفع

فمتى فقهت ذلك علمت كيف تتأتى استحالة المادة من عنصر الى عنصر على ما صدرنا به هذه المقالة بيد انه لم تتح لبشر مشاهدة هذه الاستحالة عيانا الا منذ نحو أسبوعين من الزمن وتفصيل ذلك انه قدم الى مدينة باريس منذ بضع سنوات في أواخر القرن المنصرم فتاة بولونية المحتد في غضاضة الشباب وريعان الصبا لمتابعة بعض دروس فلسفية ولو علم أهل تلك المدينة ما سيكون لهذه الفتاة في العالم من خطورة الشأن والصيت الذائع لا حتفوا بها احتفاءهم بالاميرات والملكات من زوّارهم فينقضي ذكر الملوك والملكات الذين زاروا باريس اما اسم مدام كري فيبقى خالدا وهي الفتاة التي نعنيها فانها ما لبثت حينا من الدهر حتى تزوجت الاستاذ كري فأقاما في بيت بعيد عن ضوضاء المدينة وجلبة القوم يواليان الامتحانات الكيماوية حتى ظفرا أخيرا بأمنية ما وراءها أمنية الا وهي اكتشاف الراديوم

اما وجه أهمية هذا الاكتشاف فهو ان العلماء وجدوا ان معدن الراديوم يختلف عن جميع المواد والعناصر المعروفة على وجه البسيطة في أمر هو إشعاع الحرارة والنور على الدوام دون ان يخسر شيئا منهما فسواء وضعته في الماء والثلج أو

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج في الارتقاء ، كما هي السنة العامة في جميع شؤون الاحياء ، حتى جاء خاتم النبيين والمرسلين بالاسلام ، الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، و بين كتابه انه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والاجناس ، الموافق لهم في كل مكان، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ، كلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق «٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق »

لكن المسلمين قد خذلوا هذا الدين ، وصاروا حجة عليه عند اكثر العالمين ، اذ زينت لهم التقاليد والعادات ، ان يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات ، وان يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، وينقصوا منه سننا ويزيدوا عليه بدعا ، وان يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين اهل المذاهب من الاموات والاحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة الى الاسلام ، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام ، وهو ان يكون على وجه يحرك الى النظر ، ويدعو الى البحث والتفكر ، حتى قام الاستاذ الامام ، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء مع التزام الشرط بما لم يأت بمثله أحد من أئمة المسلمين ،

لا اذكر في بيان فضل هذه الرسالة ان مجلس ادارة الازهر قرر تدريسها في الجامع الازهر رسميا، ولا ان علماء الهند ترجموها بلغة الأوردو ليدرسوها في مدرسة عليكده الكلية وغيرها ، ولا ان علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد على حجمها اضعافا مضاعفة ، ولا ان بعض علماء النصارى قالوا عند ماقرءوها: لو كان مافي هذه الرسالة هو الاسلام لكنا اول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، لا أشرح هنا شيئا من مثل هذا وانما أقول انه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها الا من كان عالما بمنتهى ما وصل اليه علم الكلام من الارتقاء في الاسلام، وواقفا على

﴿ رسالة التوحيد ﴾

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * (سورة الروم ٣٠ : ٣٠ — ٣٢)

إن الله جلت قدرته ، و بلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، انشأه مستعداً لإدراك معلومات غير محصورة ، اذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والابداع ، أنشأ افراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والاعمال ، فأدناهم الخدم والبناؤن والزارعون ، وأعلاهم الساسة والحكماء فالانبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالعقول والقلوب والارواح ، وأولئك كالأرجل والايدي والمعد والامعاء ، فنهم من يقوم للنوع بأدنى ما يحتاج اليه ، ومنهم من يهديه الى أعلى ما يتشوف استعداده إليه ، مع احسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان ، الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال ،

آثار علمية أدبية

مبادئ الاقتصاد السياسي

قد اشتهر بيننا ان الغنى والفقر إنما يكونان بالحظوظ والاقدار ، لامدخل فيهما لعلم المرء وعقله ، ولا لذكائه وسعيه ، بل اشتهر بين الأدباء ان العلم والحجى ضدان للثروة والغنى ، وقدنظم أدباؤنا في القديم والحديث كثيرا من الشعر في هذا المعنى تداوله الناس وحفظوه فصارت به المسألة عندهم من القضايا المسلمات ، التي يتوهمون انها من البديهيات ، وكيف لاتكون كذلك عند الجهور وهي مدعمة بظواهر ماجاء في الدين من اسناد كل شيء الى مشيئة الله عز وجل ، وللعلماء والصوفية فيها من الكلام ما هو أشد تأثيرا في النفوس من كلام الشعراء والادباء . ومما يؤثر فيها عن الامام الشافعي رضي الله عنه من أبيات

لكن من رزق الحجى حرم الغنى ضدان مفترقان أيّ تفرق

ثم انهم يرون ظواهر الحوادث الجزئية تؤيد هذا الرأي وتثبته اذ يرون مثل فلان باشاوفلان بك يعبثون بالالوف من الدنانير وهم على مايعرفون منهم من الجهل والغباوة

فاذا قيل لمن يعتقدون هـذا الاعتقاد ان لتدبير الثروة علما يبحث فيه عن ينابيعها ومواردها ومصادرها فيعلم الواقف عليـه طرق تحصيل الثروة وحفظها وتوزيعها ولماذا كانت تلك الامة غنية وهذه الامة فقيرة ولماذا يتزاحم في البلدالواحد شعبان أو شعوب متعددة فيسبق قوم ويتخلف آخرون — إذا قيل لهم هذا قالوا إن العلم لا شأن له في هـذا وإنما هي الحظوظ والاقدار ، ويسردون ما يحفظون من الآثار والاشعار ،

الاقدار هي المقادير والموازين التي أقام الباري بها نظام الكون فهي تقتضي

ما كتبه فلاسفة أوربا في الانتقاد على الاديان، مع ما كتبوه في بيان مزاياها وفي علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع البشري

لم تدع الرسالة شبهة على الدين الا وكشفتها، ولا عقدة من عقد المشكلات الا وحلتها، ولكن الشبه تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح، دون الابانة والتصريح، وذلك أدنى ان لا يشك الضعيف، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف، وقد أشار الى ذلك المصنف في قوله «راميا الى الخلاف من مكان بعيد، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد»

كتب الاستاذ الامام هذه الرسالة في مدة قليلة و بادر إلى طبعها فلما قرأها في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء الطلاب ظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج الى إيضاح وكلم جدير بالحذف فكان يكتب ما يراه من التنقيح في النسخة التي يقرأ بها الدرس ويزيد ما يزيد في هامشها، وقد انتقد عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله) ذكره لمسألة خلق القرآن لانها مخالفة لشرطه في التزام مذهب السلف فأمر بحذف ذلك منها (راجع ص ٣٧ منها) وانتقد عليه حروفا أخرى فأقنعه في بعضها واقتنع منه في بعض. وقد جمع جميع ما صححه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا أو أكثر. و بقي فيها كلمات نادرة قد سها المؤلف عنها مع تصحيحه لمثلها، فأبقيتها على أصلها (*) الا كلمة واحدة في ص ١٣١ ولم أزد فيها من عندي الا الرقم الدال على عدد السور والآيات عند ذكرها

ولما كتب الي صديقي حموده بك عبده يأذن لي بإعادة طبع الرسالة اعطاني الجدول فصححت هذه الطبعة معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف. وعلقت عليها هوامش قليلة سمعت بعضها منه في الدرس، ولولا انه نهي عن شرحها ووضع الحواشي لها، لجاز لي أن اكثر من هذه الهوامش، ولكن ما رآه رحمه الله هو الصواب، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب، فهذه الطبعة هي المعتمدة وعليها المعول ولا يستغني عنها من طالع الطبعة الأولى فرحم الله الاستاذ الامام، ونفع برسالته الأنام، آمين

محمد رشيد رضا الحسيني

منشئ المنار

---

*) مثل تعدية التكليف بالباء واتباعها للاصوليين وغيرهم ومثل لفظ الصدفة

الاسلام روح المدنية

﴿ رد على لورد كرومر ﴾

لم يكد ينتشر كتاب لورد كرومر الذي سماه « مصر الحديثة » حتى كان أول ما ترجمته الجرائد المصرية منه كلامه في الاسلام والمسلمين · ووعد بعض الافراد و بعض الاحزاب بتأليف كتب في الرد عليه ولكن قد سبق الجميع الى ذلك صديقنا الشيخ مصطفى الغلاييني البيروتي فبادر الى وضع كتاب في ذلك وطبعه في بيروت في أيام الاستبداد الشديد إذ كان يخشى المرء ان يحاسب و يعاقب على مثل هذا التأليف وعلى طبعه بدون رخصة من نظارة المعارف في الاستانة ولو طلبت الرخصة فيه لما أجيب الطالب الا الى العقاب · وقد بلغ من شجاعة مؤلف هذا الكتاب ان ذكر فيه الاستاذ الإمام (رحمه الله تعالى) ونقل بعض كلامه وشيئا ثما يؤثر عنه ونقل عن المنار أيضا وكان يومئ الى ذلك بقوله : قال السيد في المجلة · وقد كان ذكر الاستاذ الامام أو المنار قبل إعلان الدستور في المملكة العثمانية جريمة من أكبر الجرائم وخطرا على من يذكر هذا اللقب « الاستاذ الامام » أو اسم صاحبه « الشيخ محمد عبده » أو المنار او صاحبه ولو تلويحا من أشد الاخطار فشكرا للشيخ مصطفى على شجاعته وعمله· هذا ولم تتسن لنا مطالعة الكتاب ولكننا نرجو أن يكون خيرا مما كتب أكثر أصحاب الجرائد في الرد على لورد كرومر وناهيك بمن يستمد من كلام الاستاذ الامام في الدفاع عن الاسلام ، ومن يصدف عن ذلك ظاهرا ، وان لم يستغن عن الاقتباس منه باطنا ، وثمن الكتاب في مصر خمسة قروش صحيحة عدا أجرة البريد و يطلب من مكتبة المنار فنحث القراء على مطالعته

﴿ تاريخ العرب قبل الاسلام ﴾

كتاب جديد يؤلفه جرجي افندي زيدان المؤرخ العربي الشهير وقد انجز الجزء الاول منه فاذا هو قد استمد مسائله من الكتب العربية والكتب الافرنجية في اللغات المختلفة · ولبعض الكتب الافرنجية مزية على العربية في هذا الموضوع

الاسباب لا تنافيها ، وان اشتهر استعمالها بيننا فيما جهل سببه غالبا، والحظ في الاصل هو النصيب الذي تناله من الشيء بسعي أو بغير سعي وان غلب استعماله فيما يناله المرء بغير سعي منه اليه ، ولا ننكر ان بعض الافراد ينالون الغنى والثروة بأسباب لا يعرفونها ، ولا يسعون اليها سعيها ، ولا ننازع في تسمية ذلك حظا جاد به القدر ، على ما بيننا و بين أولئك الناس من الخلاف في فهم معنى القدر . وانما نقول في إقناع المنكرين لفائدة علم تدبير الثروة الذي وضع له اسم « الاقتصاد السياسي » : إن الواضعين لهذا العلم والمصنفين فيه والدارسين له والعاملين به يعرفون من أحوال أهل الحظوظ ما تعرفون ، ومنهم من يؤمن بالقدر كما تؤمنون ، ولكنهم مع ذلك يعلمون من أحوال العالم مالا تعلمون، فضموا علمهم إلى علمكم، ثم لكم بعد ذلك حكمكم،

إذا كنتم تعذرون فيما تحكمون به على ثروة الافراد في كل أمة فلا عذر لكم إذا قستم عليها ثروة الشعوب والامم ، فسيروا في الارض فانظروا كيف صارت الامم التي عنيت بهذا العلم اغنى الامم وأعزها ، وكيف يدخل أفراد منها في بلاد أمة أخرى فلا يلبثون ان يكونوا هم المستقر والمستودع لثروتها ، بل القابضين على روح الحياة المالية والاجتماعية فيها ،

ألا إن أمتنا أحوج الى هذا العلم منها الى جميع العلوم الدنيوية لانه روح جميع العلوم والاعمال ولكننا لا نزال مقصرين فيه، بقدر حاجتنا اليه ، حتى انني لم أر في لغتنا غير كتابين وجيزين فيه طال العهد على وضعهما ، وارتقى العلم بعدهما ، فصرنا محتاجين الى خير منهما ، وقد أحس بهذه الحاجة محمد فهمي افندي حسين المحامي (المتخرج من عهد قريب في مدرسة الحقوق الخديوية) فحملته الغيرة على أمته وبلاده على وضع كتاب جديد في هذا العلم يستمد مسائله من الكتب الافرنجية الحديثة وقد فعل وسماه (مبادي علم الاقتصاد السياسي) وقد طبع الجزء الاول من عهد قريب فبلغت صفحاته ١٨٤ صفحة وجعل ثمنه عشرة قروش صحيحة فعسى ان يرى من الإقبال عليه ما ينهض بهمته إلى إتمام الكتاب تأليفا وطبعا . وهو يطلب من مؤلفه ومن المكاتب المشهورة . وسننقل شيئا منه تنويها به وإفادة لقراء المنار

حال محزنة . ولم نكن نرى من قبل تلك الآثار المصرية الثمينة وهل كانت رؤيتها من الممكنات ؟ والآثار التي كنا نملكها جعلتها الحكومة السابقة طعاما لمواقد الحمامات . وقد دخلنا منذ الآن في حياة جديدة . أما مجلتكم العلية فهي مشهورة في جميع الكون فنرغب ان يكون لإخواننا مساكين الترك نصيب من مائدتكم العلمية ونحن مفتقرون في هذا الموضوع لمعاونتكم العلية فنرجوكم ان ترسلوا لنا مجموعة من مجلتكم وان ترسلوا كل ما يصدر منها بعد في وقته .وان أنبأتمونا عن الآثار الجديدة المطبوعة بمصر نكن لكم من الشاكرين. واقبلوا فائق احترامنا

(المنار) قد سررنا سرورا عظيما بهذه المجلة ونشكر لمديرها الفاضل حسن ظنه بنا وسنبدي رأينا في منهجها ومقالاتها بعد ان يتيسر لنا ترجمة بعض مقالاتها ثم نكتب لمديرها ان شاء الله تعالى

القسطاس المستقيم

جريدة عربية جديدة أنشئت في دار السلطنة العثمانية (الاستانة) بعد إعلان الدستور . أنشأها الحاج محيي الدين افندي كريمة والحاج حسن افندي المجدوب من خيار أبناء بلدتنا (طرابلس الشام) المقيمين في الاستانة وقيمة الاشتراك فيها نصف ليرة عثمانية في بلاد الدولة العلية و ٦٠ قرشا في مصر و ١٥ فرنكا في البلاد الأجنبية

فنتمنى لها من الرواج والانتشار في هذه الديار وغيرها ما يبعث أصحابها الى تكبير حجمها وتكثير فوائدها

بما اكتشفوه من الآثار القديمة في بلاد العرب . وقد اقتبس المؤلف شيئا منها لا يستغني عن الاطلاع عليه قراء العربية وهو على قلته يصح ان يتمثل فيه بقول الشاعر

قليل ما أمرت به ولكن قليلك لا يقال له قليل

وقد نظرنا في الكتاب نظرة إجمالية فألفيناه حسن الترتيب جامعا لكثير من المباحث النافعة ولكن لم يتح لنا مطالعته لنحكم فيه على علم بما نرجو ان يكون قد جاء به من التحقيق فعسى ان ينتدب بعض من قرأه من أهل العلم والرأي الى موافاتنا بمقال حافل في تقريظه ونقده إظهاراً لقيمته ، وشكرا لفضل مؤلفه ، أما ثمن هذا الجزء الذي صدر من الكتاب فعشرون قرشا مصريا و يطلب من مكتبة الهلال بالفجالة

﴿ عروس فرغانة ﴾

هي إحدى القصص التي جعلها جرجي افندي زيدان منشئ الهلال ملحقة لسني مجلته « تتضمن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨ — ٢٢٧ﻫ) وقيام الفرس لإرجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية و يتخلل ذلك وصف آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرًا عاصمة المعتصم و واقعة البذ في حرب بابك وواقعة عمورية في حرب الروم وغير ذلك » وهي تقع في ٢٠٤ صفحات حسنة الطبع وان شهرة هذه القصص في إيداع الفكاهة القصصية المسلية شيئا من الفوائد التاريخية ورغبة القراء فيها مما يجعلها غنية عن التقريظ والثناء وثمن النسخة منها عشرة قروش وأجرة البريد قرشان وتطلب من مكتبة الهلال

﴿ مجلة صراط مستقيم ﴾

صدرت في الآستانة مجلة إسلامية يحررها باللغة التركية طائفة من العلماء وقد كتب الينا مديرها ما يأتي

إلى إدارة المنار

« تعاونوا على البر والتقوى »

شرعنا في نشر مجلة بإسم الصراط المستقيم والله الموفق

غرضنا خدمة الدين المبين ولكن حال بلادنا من حيث الكتب والجرائد

فللعاقل أن يجمع أسماء كثير من الملوك والامراء والعلماء والاغنياء والفقراء والصناع والزراع والعمال والخدام — أسماءهم وأسماء أمهاتهم بحساب الجمل على طريقة ابي معشر ويعرضها بعد الاسقاط على ابراجه وينظر بعد ذلك فيما يشرحه من شؤونهم فبهذه الطريقة يظهر له بطلان مافي ذلك الكتاب ان كان ممن يشتبه في بطلانه. ولا حاجة الى شرح ذلك وتفصيله فانه يكاد يكون من البديهيات الأولية وإنما يروج مافيه على ضعفاء العقول من العوام والنساء لأنهم لاينظرون في طريقته نظرة عامة للبحث فيها هل هي معقولة أم لا وإنما يفكرون فيما يلقى اليهم من كلامه المجمل العام الذي ينطبق على بعض أحوالهم مع الايمان والاذعان التقليدي بأن في أمثال هذه الكتب أنباء عن الغيب يتوارثها الخلف عن السلف و يسلمون بها تسليما

أمثال هؤلاء الاغرار تسهل مخادعتهم فلو قرأت لاحدهم البرج الذي يؤخذ من اسمه واسم أمه بطريقة ابي معشر أو غيره من البروج لأخذ من كل مايقرأله شيئا ينطبق على بعض أحواله ووجد فيه شيئا لاينطبق عليها ولكنه لانتظاره مايمكن أن يصدق عليه يتشبث و يفطن له و يغبى عن غيره و يظن انه غير مقصود به

واما إفساده للدين فهو مشترك بين إفساده للعقل باعتقاد الباطل الذي ورد النهي عنه في الاحاديث الصحيحة التي تسمي تصديق المنجمين والعرافين كفرا و بين إفساد الآداب التي يأمر الشرع بالمحافظة عليها والتحريض على الفسق وتقطيع الروابط بين الازواج وغيرهم

المعروف من أمر النساء أنهن أحرص على البحث عن مستقبل حياتهن من الدجالين والعرافين والمنجمين وانك لتجد في بروجهن من هذه المفسدات اكثر مما تجده في بروج الرجال

مثال ذلك انه يقول للمرأة انها تتصل بكثير من الرجال بالحرام وانها تتزوج عدة أزواج وانها تكون سعيدة مع الاخير منهم وانها تكون شديدة الحظوة والقبول عند الكتاب أو الحكام . . . فقل لي بعيشك كيف تكون حال المرأة التي تعتقد صدق هذا الكتاب اذا سمعت من قارئه عليها أمثال هذه الانباء ؟ ألا يكون ذلك مجرئا لها على العشق وعلى بغض زوجها . . . ؟

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

﴿ كتاب ابي معشر ﴾

كتب الينا من سنغافوره وجاوه ان هذا الكتاب منتشر في تلك البلاد يجلبونه اليها من مصر وان بضاعة المتحلين للتنجيم والعرافة رائجة به وسألنا الكاتبون عن رأينا فيه وأرسلوا الينا نسخة منه لننظر فيها ان لم يكن سبق لنا الاطلاع عليه فنقول بعد الاطلاع على عدة ابراج منه

اننا لم نر في لغتنا كتابا أجمع للمفاسد والمضار منه، فهو مفسد للعقل والدين والآداب، محرض على الفسق والفجور، مقطع للروابط بين الازواج والاهل والجيران، وهو على ذلك كله خال من الفائدة واللذة

أما كونه مفسدا للعقل فنعني به انه يمد الضعيف في غيه فيزيده فسادا بقبوله لما وضع له من بيان مايعرض للمرء في مستقبل حياته الدنيا ·

لو فكر من له مسكة من العقل أقل التفكير في الطريقة التي يبين بها هذا الكتاب حوادث المستقبل لجميع البشر في ٢٤ فصلا منها ١٢ برجا للرجال و١٢ برجا للنساء — لرأى ان ذلك باطل بالبداهة فان من مقتضى ذلك ان كل من اتفقت اسماؤهم وأسماء أمهاتهم وكل من اتفق العدد الحاصل من جمع اسمائهم وأمهاتهم بعد طرح عدد الاثني عشر منها حتى تبقى اثني عشر اوأقل يكونون متفقين فيما يعرض لهم من الامور والاحوال في اجسامهم من مرض وصحة وحياة وموت وفي ازواجهم وأولادهم وكسبهم وغناهم وفقرهم واخلاقهم وآدابهم ومكانتهم في الناس وفي غير ذلك لافرق بين أحد منهم الا من ثلاثة وجوه فان لكل برج عنده ثلاثة وجوه يعبر عنها بقوله الوجه الاول من نظر اليه كوكب كذا يكون كيت وكيت

باب الأخبار والآراء

﴿ سفر صاحب المجلة ﴾

سافر صاحب هذه المجلة من القاهرة قاصدا سوريا لزيارة الاهل والاقربين ، والاصدقاء والمحبين ، الذين حال بيننا و بينهم الاستبداد إحدى عشرة سنة ، كان ذكر اسمه فيها خطرا عليهم ، يهددهم به من يستاء من أحد منهم ، قائلا : إما أن تفعلوا كذا أو تتركوا كذا وإما أن أبلغ الحكومة بأنكم تكتبون إلى صاحب المنار أو يكتب هو اليكم أو انكم على رأيه واعتقاده في حاجة الدولة والامة الى الاصلاح ونحو ذلك .

سافرنا قبل صدور هذا الجزء واننا نكتب هذا في القطار بين القاهرة و بورسعيد . وسنقيم في تلك الديار الى ما بعد عيد الفطر ثم نعود منها وندخل مصر إن شاء الله آمنين

وقد جعلنا أخا لنا وكيلا عنا في إدارة المجلة ومطبعتها وعهدنا الى إدارة البريد المصري أن تعده وكيلا عنا وتدفع له كل ما يرد بإسمنا من الرسائل والدراهم . فعسى ان تكون غيرة قراء المنار الاخيار على إدارة المجلة في غيبتنا أعظم مما كانت عليه أيام كنا فيها وأن يرسلوا اليها ما وجب عليهم من قيمة الاشتراك فان العمل فيها وفي المطبعة لايزال مستمرا وإنا لنعدّ من يرسل قيمة الاشتراك الى المجلة في غيبتنا ، من أفضل أهل الذوق والوفاء لنا ، بل نعدله ذلك جميلا يذكر ، وفضلا يشكر ،

﴿ مكاشفة في أول ولاية السلطان عبد الحميد ومدتها ﴾

كان كثير من أهل الاستانة وغيرهم من خواص العثمانيين يتحدثون بأن بعض المنجمين أو الصالحين بشر السلطان عبد الحميد بانه يكون ملكا مدة ثلاث

يظهر لي ان واضع هذا الكتاب كان حريصاعلى هذه المفاسد متعمدا لها وانه كان من كتاب الدواوين أو صديقا لهم لانه يرغب النساء فيهن · ومن خبثه الدال على تعمده انه يقول عن بعض النساء اللواتي يحرضهن على الفسق أنهن يتبن بعد ذلك ويوفقن للحج الى بيت الله الحرام فانه بذلك ينال من افساد العفيفة المتدينة ما كان يعز عليه أن يناله لو لم يخبرها بأنها ستوفق بعدذلك الى مايكون كفارةلذنوبها

وقس على هذه المفسدة ما يصفه الكتاب من أحوال أعداء المرأة ومن يكيد لها ويتربص بها الدوائر فان ذلك يذهب بخيالها مذاهب في التطبيق على من تعرف من أهلها وجيرانها ومتى اعتقدالانسان ان احد الناس عدو له فانه يحمل اكثر ما يراه منه على ما يقوي اعتقاده فيه حتى انه اذا سمعه يثني عليه اعتقدانه يتهكم اويعرض بذمه

وجملة القول أن هذا الكتاب من أقبح الكتب وأشدها ضررا ولا شك في حرمة طبعه و بيعه فما قولك بالاكتساب به ألا يكون من كبائر الاثم والفواحش ؟ بلى وان من قدر على منع طبع هذا الكتاب أو بيعه أو انتحال التنجيم به ولم يفعل فهو آثم ويغلب على ظني ان اهل سنغافوره واهل جاوه لو بينوا لحكومتيهم مافي هذا الكتاب من الدجل والإفساد للآداب العامة ومخالفة الدين وطلبوا منع الدجالين من التنجيم به لأجابتهم الحكومة الى ذلك

ولو نبهت الحكومة المصرية مثل هذا التنبيه لرجي أن تحاكم الذين يطبعون هذا الكتاب وتمنعهم من بيعه فعسي أن ينتدب لذلك بعض أهل الغيرة وأن تحمل الجرائد اليومية على المتجرين بهذا الكتاب وأمثاله وتطالب الحكومة بمجازاتهم على ما يمنعهم منه القانون المانع لكل ما يخالف الآداب العامة

كان تعليمها يشبه الوحي وتربيتها تشبه الآيات والمعجزات فانها قد علمت الخلق الكثير في يوم واحد وربت الشعوب المختلفة في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب والتقاليد والعادات في ساعة واحدة

لوصافح المسلمون النصارى في سلانيك والاستانة ومصر فقط لكان لقائل أن يقول ان ذلك أمر طبيعي حصل بالسعي في الزمن الطويل فان إحرار العثمانيين الذين على هذا الرأي كثيرون جدا في هذه البلاد وهم يسعون له من قبل . ولو وافقهم مثل أهل بيروت والشام لقال ذلك القائل ان أهل هذين البلدين على مقربة من أهل هاتيك البلاد فيما ذكر من وجود الاحرار العقلاء المحبين للاصلاح فيهم ومن وقوفهم في أقرب وقت على ما كان من اخوانهم في هاتيك الامصار التي سبقتهم عملا وسعيا الى ذلك فلم يلبثوا ان جاوروهم او اتبعوهم

ولكن ماذا يقول ذلك القائل في موافقة عمل أهل جدة (ثغر الحجاز)وأهل البرازيل وأهل الارجنتين لعمل أهل الاستانة وسلانيك ومصر والشام والعراق في وقت واحد وهم لايعلمون من أمرهم في ذلك شيئا ؟

كتب الي وجيه من مسلمي جدة كتابا يشرح فيه ما كان من أمر أهلها في الاحتفال بالدستور على الرغم من والي الحجاز راتب باشا الظالم الملحد في الحرم الذي كان يومئذ فيها كاتما لنبأ الدستور ثم مثبطا لهم عن الاحتفال به بعد ان أعلنته للناس جمعية الاتحاد والترقي .فقد قال الكاتب ان المسلمين والنصارى قد تزاوروا وتعانقوا في ذلك الاحتفال وطفق كل فريق يهني الآخر . وذكر أمورا أخرى منها حسن تأثيره في نفوس الاعراب ومنها بعض مفاسد الوالي واتفاقه مع الامير الشريف.وقد أوقفنا على هذا الكتاب بعض محرري الاهرام والمقطم فلخصوه في الجريدتين

وكتب الينا جورج افندي حداد مؤسس شعبة جمعية الشورى العثمانية في البرازيل كتابا في الاحتفال الذي قام به العثمانيون في سان باولو قال فيه : إن الأرمن الذين هنا لم يكونوا يكلمون السوريين ولا يعاشرونهم فلما جاء نبأ الدستور أقبل بعضهم على بعض متعارفين متوادين وانتظم موكب الاحتفال من المسلمين والدروز والنصارى من الارمن والسوريين وغيرهم . فهل يمكن ان يكون هذا

وثلاثين سنة . وقد حدثني بعض كبار رجال الدولة في سياق الكلام على اعتقاد السلطان بالمشايخ الذين يدعون الكشف أو الجفر والزايرجه كأبي الهدى وعنايته بالشيخ ظافر - حديثا غريبا يرويه عن السلطان نفسه وملخصه انه كان في المدينة المنورة رجل يعرف بأمين افندي الطرابزوني يشتغل بالجفر ويخبر بأمور المستقبل فأرسل اليه السلطان يتعرف منه هل يكون سلطانا فقال انه يكون سلطانا في سنة ١٢٩٣ قال هذا للشيخ ظافر وكان هو الواسطة بينهما فلما انبأ الشيخ ظافر عبد الحميد (افندي) بذلك كبر عليه ان يصدقه لأن عمه السلطان عبد العزيز كان في صحته وعافيته وكذلك أخوه مراد افندي الذي هو ولي العهد وكان ذلك في أول تلك السنة ولكن لم يلبث ان صدق كلامه كما هو معلوم . قال الراوي هذا معنى ما سمعته بأذني من السلطان عبد الحميد وسمعت بعض الكبراء في الاستانة يزيدون في الرواية قائلين ان أمين افندي حدد مدة ملكه بثلاث وثلاثين سنة فقال يملك أو يحكم ٣٣ سنة

ومن يتذكر أن السلطان ولي في شعبان سنة ١٢٩٣ يعلم ان المدة قد تمت بحسب السنين الهجرية ويحتمل ان يقال في تأويل الشق الثاني من الخبر ان السنة الثالثة والثلاثين قد كانت خاتمة لحكم السلطان بنفسه وقبضه على زمام السلطة بيده فان إعلان الدستور قد حول الحكم الى الوزارة ومجلس الامة . ولعل السلطان نفسه يفكر في هذا التأويل فينشرح له صدره إذ كان ممن يصدق أمثال هؤلاء القائلين لا سيما بعد ان صدق الخبر فيما يتعلق بأول الولاية . وأما من لا يبالي بهم صدقوا أم كذبوا فلا يحتاج الى تأويل . وقد ذكرت هذا الخبر قبل إعلان الدستور لكثيرين وبعده لكثيرين منهم أصحاب المقطم .

﴿ الاحتفالات بالدستور العثماني ﴾

احتفل العثمانيون عامة بالدستور في بلادهم وفي كل بلد يضم طائفة منهم في مشارق الارض ومغاربها وقد كان السرور بالدستور مدرسة للتربية والتعليم تعلم فيها ألوف من العثمانيين الخطابة وتربوا على الوفاق والمحبة ولكنها كانت مدرسة لا كالمدارس :

جريدته في باريس فاستحق الشكر . وتكرم جناب الشيخ سابا الخوري نزيل الريو فأفاد اللجنة ان شركة هافاس نقلت الخبر إلى لندن ثم الى بقية العواصم الكبيرة

وقد شارك إخواننا الارمن نزلاء سان باولو بهذا الاحتفال الذي كان فريدا في عظمته ويتيما في محاسنه

وفي الختام نثني بلسان الحرية على اللجنة التي رتبت هـذه المظاهرة ونشكر الخطباء الذين حركوا في صدور الجمهور الحماس ونهنئ الشعب السوري في هذا العيد الكبير عيد الحرية والمساواة »

ولا تزال جرائد أمريكا الشمالية والجنوبية تأتينا وهي ملأى بذكر الاحتفال بالدستور في معظم الولايات والارجاء الامريكية واشتراك جميع الطوائف والملل في ذلك وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه في صدر هذا المقال

وكتب الينا من المفازة في بلاد السودان محمد افندي كمال الدين عده سر تجار البندر يقول انه طاف بالناس بعد علمه بنبأ الدستور ودعاهم إلى منزله للاحتفال ببعثة الدستور من قبره فلبى دعوته خلق كثير من السودانيين وأشخاص من السوريين الموظفين في الحكومة فتلا عليهم خطابا ألمّ فيه بماضي الدولة المظلم وما يرجى لها من النجاح والفلاح في المستقبل وشكر لرجال الاحرار الذين كانوا مبثوثين في البلاد الحرة ومشتتين في اصقاع المعمور يسعون فيما اختطوه لانفسهم وجعلوه نصب أعينهم حتى رجعوا إلى بلادهم والوية النصر تخفق فوق رؤوسهم وجنود الظفر تحيط بهم ثم قام بعده طاهر أفندي الخانجي باشكاتب المركز وشكر للحاضرين تلبيتهم الدعوة للاحتفال بالدستور وطلب من صاحب الدعوة بلسانه ولسان الحاضرين ان يكتب لرئيس الاحرار مهنئا بهذا الفوز العظيم فأجاب الجمهور بأنه يعرف من رجال الاحرار صاحب المنار وانه سيكتب اليه بما رغبوا فهتفوا جميعهم للمنار وبعد ذلك انفرط عقدهم وهم مسرورون بهذه الحال شاكرون للداعي إلى الاحتفال

وذاك بتواطؤ أو تقليد ؟ وذكر انه اجتمع للقيام بالاحتفال نحو ألفي سوري ومئة أرمني في أعظم مرسح في سان باولو وكانت الموسيقى العسكرية تشب من نار حماسهم وتضاعف سرورهم وجذلهم ثم انبرى للخطابة فريق منهم وخطب هو أيضا بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن إخوانه الاحرار مؤسسي جمعية الشورى العثمانية في مصر قال : « ثم سار الموكب تتقدمه الموسيقى وهو رافع راية عثمانية كبيرة جدا صنعت لهذا الاحتفال خاصة الى دار القنصلية العثمانية ومذ ابصرهم القنصل رفع الراية العثمانية وجعل يحييهم بها وقد صعد اعضاء لجنة الاحتفال الى مكان القنصل وهنأه بعضهم وقدم اليه عريضة طولها ٨٠ سنتمترا وعرضها ٥٠ فحواها الشكر للسلطان على رضاه باعادة نشر القانون الأساسي ونيل شعبه للحرية وبينا كان القنصل يخاطب الاعضاء طلب الجماهير منه ان يشرف عليهم من إحدى النوافذ ويظهر ان الرجل من أرباب الحزب المحافظ وممن تأصلت في نفوسهم الكبرياء لانه لم يحفل بالطلب ولم يلب النداء فهاج الناس واضطربوا وصاحوا ان مولانا السلطان خاطب الشعب من النافذة مظهراً الرضى والسرور فكيف تأبى ذلك وانت من صغار مستخدمي دولتنا العلية ؟ فاضطر القنصل لمخاطبتهم والاعتذار اليهم ثم تركوا دار القنصلية وطفقوا يطوفون بالشوارع العظيمة والحاصل ان هذا الموكب المؤلف من هذه الفرق التي كانت تحتدم في نفوسها نار العداوة والبغضاء وكره الواحدة منهن للاخرى كان من أجمل المناظر التي تسر بها النفوس وتغتبط لها القلوب »

وجاء في جريدة أبو الهول البرازيلية في ختام كلامها عن هذا الاحتفال ما نصه:

« اهتمت الصحافة البرازيلية والطليانية بالمظاهرة وذكرتها بالثناء والتكريم وجرائدنا العربية لم يهتم منها بالحفلة الا الميزان . فالافكار ذكرتها بأقل مما تذكر عن حفلة اكليل وطلبت من الله في الختام ان يجعل الحرية طويلة المكث في ديارنا ! والدستور ثابت القرار في وطننا ! ؟ وصاحب الافكار لم يحضر الحفلة وهكذا محرر المنارة الذي اهتم بالمظاهرة الخارجية أكثر من المظاهرة الداخلية اعتقاداً منه ان الاخيرة غير لازمة !

وقد اهتم جناب الاديب الياس افندي مسرة بالامر وطير الخبر تلغرافيا الى

فارس افندي نمر بالعربية فأحسنا واجادا وكان كل اولئك الخطباء قد عهد اليهم بالخطابة وكتبت اسماؤهم في البرنامج المطبوع في بيان ترتيب الاحتفال

كادوا يختمون الاحتفال بعد خطاب فارس افندي نمر لولا ان اقترح بعض المصريين الحاضرين على صاحب هذه المجلة الصعود الى الدكة والقاء شيء مما يفتح عليه به . وقد تمنعت معتذرا بان الاحتفالات المنتظمة التي يعين فيها عدد الخطباء وموعد الالقاء لا يحسن ان يتطفل عليها ففطن لذلك بعض العثمانيين من الأرمن وغيرهم فاختطفوني من مجلسي وأصعدوني الى دكة الخطابة فتلقاني الاسقف والقسوس بالحفاوة وبعد العناق التفت الى الجمهور إجابة لما اقترحه المقترحون وقلت والتصفيق والهتاف يكاد يبلغ عنان السماء ماخلاصته :

قد رأيتم أيها السادة انني اختطفت من مكاني الى هذا الموقف الذي أثر في وجداني تأثيرا لم يدع لتصور الكلام وتدبيره مجالا فمهما سمعتم مني فأنا معذور بالتقصير فيه

قد رأيتم انني عانقت هؤلاء الاحبار والقسيسين وأنا رجل من رجال الدين الاسلامي ولا بدع في ذلك فان شيخنا الاكبر شيخ الاسلام قد سبقني الى ذلك فعانق البطرك في دار السلطنة وان القانون الاساسي الذي نلنا به هذه المساواة التي نحتفل بها لم ننله الا بمساعدة شيخ الاسلام الحال فقد روي لنا ان السلطان كان يريد قمع الحركة العسكرية الطالبة للدستور بالقوة فاستفتى شيخ الاسلام في ذلك فلم يفته بل قال ان قتالهم غير جائز شرعا لانهم يطلبون طلبا شرعيا . وقد كان أحد مشايخ الاسلام من واضعي هذا القانون مع مدحت باشا واخوانه فهذا القانون قد وضع بفتوى من أحد شيوخ الاسلام وأعيد الآن بمساعدة شيخ الاسلام فهو موافق للاسلام

لا أقول هذا تقليدا للشيخين فانني أقول ماأقول في الاسلام عن علم وبصيرة ويعلم كثير من الارمن الحاضرين انني من مؤسسي إحدى جمعيات الاحرار التي سبقت غيرها الى التأليف بين جميع العثمانيين بالفعل قبل أن تفكر في ذلك جمعياتنا في أوروبا بل ان هذا الفقير هو رئيس اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية التي من بعض أعضاء ادارتها أحد خطباء الارمن النجباء في هذا الاحتفال

وانما احتججت بشيخ الاسلام السابق وشيخ الاسلام الحال تنويها بفضلها

احتفال الارمن بذكرى شهداء الحرية العثمانيين

في اليوم الثالث من هذا الشهر احتفلت طائفة الارمن في كنيستها بالقاهرة باحياء ذكر شهداء الحرية من جميع العثمانيين . فحضر الاحتفال خلق كثير من العثمانيين المقيمين بمصر ومن المصريين حتى اكتظت بهم الكنيسة على سعتها وبقي جمهور عظيم في رحبتها . وقد أقيم أمام محراب الكنيسة (المذبح) دكة كبيرة على جانبيها رايتان سوداوان بينهما راية بيضاء كتب عليها « اكرام شهداء الحرية العثمانيين » ووضع عليها مقاعد للقسيسين والخطباء ، ووقف من دونها جوقة من بنات المدرسة الارمنية كنّ يلقين بين كل خطبة وأخرى نشيدا مؤثرا وضع لهذا الغرض

افتتح الحفلة عظيم القوم وأسقفهم وتلته فتاة أرمنية بخطبة أحسنت القاءها فحسن وقعها وخطب بعض فضلاء الارمن بالارمنية و بعضهم بالتركية فأحسنوا وأجادوا وصفق لهم القوم تصفيقا . وخطب الدكتور شرف الدين بك أحد مسلمي الترك الاحرار وهو من أفضل من عرفنا أخلاقا وآدابا فذكر ما كان بين المسلمين والارمن من المودة قبل حوادث الارمن المشؤمة المعروفة حتى كان مما قاله ان المسلم كان يدعى الى الخدمة العسكرية فيذهب اليها تاركا امرأته وأولاده وأملاكه الى جاره الارمني يتعهدها في غيبته بما يجب كما كان الارمني يفعل مثل ذلك اذا احتاج الى مغادرة مكانه لامر ما . ثم ألمّ بذكر ما جرّ اليه الاستبداد من تلك الحوادث المشؤمة واستطرد منها الى ذكر الاصلاح الذي نشده الاحرار فأصابوه وقال ان المسلمين من الترك وسائر العثمانيين ليسوا متعصبين كما يصورهم بعض الناس فان أول حركة أتوا بها بعد أن نالوا الحرية في عاصمتهم هي زيارتهم لاضرحة الذين قضوا ضحية للظالمين .

و بعد أن أتم خطابه التفت الى أسقف الارمن ومن بجانبه من القسيسين فعانقهم واحدا بعد واحد فصفقت الجماهير لهذا المنظر أضعاف تصفيقهم الكثير للخطيب ثم خطب الدكتور برتوكاليس بك الرومي العثماني باللغة الفرنسية فالدكتور

كان ظلم الاستبداد واقعا على رأس المسلم والنصراني وغيرهما ، كان عاما شاملا للتركي والعربي ، والارمني والكردي ، والالباني والرومي ، فهذه المساواة هي التي جمعت كلمة الاحرار العقلاء من جميع هذه الطوائف على تمني المساواة فى العدل الذي قرره الدستور ، وهو الذي نهض بهمة العاملين من هؤلاء الاحرار الى طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة ، وهو الذي هز أريحية جميع العثمانيين للاحتفال بالدستور بعد الظفر به بسعي جمعياتهم وقوة ضباطهم وجيشهم — فاذا كانت المساواة فى الشر قد أدت الى هذا الخير فما أعظم فائدة المساواة وما أعم بركتها : فحيا الله المساواة

فنحن العثمانيين جديرون بالفخر بالدستور اذ غلبنا الاهواء والموانع الناشئة من اختلافنا حتى نلناه ، جديرون بالاتفاق على الاحتفال به واقامة الاعياد العامة له ، جديرون بالمحافظة عليه ، جديرون بالتنويه بالاحرار الذين نجحوا في نيله ، و بالدعاء والذكر الحسن لمن مات منهم شهيدا في سبيله

ثم اعتذرت عن الاطالة بذهاب الوقت المعين وبما ألمّ بالحاضرين من الجوع والسآمة . وقد كان لكلام هذا العاجز من حسن الوقع والتأثير فوق ما يستحقه . دل على ذلك ما ظهر على وجوه الحاضرين ولما كان من شدة التصفيق وتكرره ، ثم التهاني التي سمعتها في الكنيسة و بعد الخروج منها ، في ذلك اليوم و بعده بأيام ، وكان اكثر المهنئين تلطفا في التهنئة واطراء في الثناء أولئك الخطباء البلغاء الذين سبقوني بخطبهم المفيدة كالدكاترة شرف الدين بك و برتوكاليس بك وفارس افندي نمر حتى قال هذا الاخير ان تأثير هذه الوقفة أعظم من تأثير المنار في عشر سنين أي فيما يتعلق بمشرب المنار في التساهل والدعوة الى الوفاق والوداد بين المسلمين وغيرهم . وممن كرر لنا التهنئة بذلك الدكتور نجم الدين بك عارف من فضلاء الترك المقيمين بمصر والعارفين بالعربية وجمهور أحرار الارمن بل كان ابتهاج هؤلاء عاما فنسأل الله تعالى أن يديم علينا معشر العثمانيين نعمة الوفاق والتوفيق لحفظ الدستور والاستفادة التامة منه

وإقامة للحجة على من يزعمون ان المسلمين متعصبون أو ان دينهم ينافي الحرية والمساواة — وعلى بعض الجاهلين من المسلمين الذين يظنون انهم بالتعصب الذميم يخدمون الدين وإنما هم يجنون عليه بذلك

ثم انتقلت الى الكلام عن المساواة التي ابتهج بها العثمانيون كافة و بينت انها مما جاء به الاسلام ثم قلت :

يقولون ان فرنسا هي أم الحرية والمساواة . نعم ولا ينكر فضل فرنسيا أحد ولكن العثمانيين أجدر من الفرنسيين بالفخر بالمساواة . ان فرنسا أمة واحدة ، جنسها واحد ، دينها واحد ، مذهبها واحد ، لغتها واحدة ، تربيتها واحدة ، فأي غرابة في طلب عقلائها وفضلائها المساواة بين أفرادها بعد ان عرفوا ما لهم على حكومتهم وما عليهم لها بل ما ينبغي ان تكون عليه وهم متفقون في هذه الوحدات كلها ؟ لا غرابة ولا عجب

اما نحن العثمانيين فاننا قد جمعنا من اشتات الاجناس المتفرقين في كل شيء مالم يجتمع في مملكة اخرى . نحن متفرقون في الاجناس والانساب ، متفرقون في اللغات ، متفرقون في الدين ، متفرقون في المذاهب ، متفرقون في طرق التربية والتعليم — أو نقول في الجملة اننا متفرقون في كل شيء يتفرق فيه الناس . فان كنا على هذا كله نطلب المساواة ونحتفل بنيلها في المعاهد العامة والمعابد الدينية فلا شك ان في هذا مجالا للفخر وموضعا للعجب

وقد يتساءل عن سبب ذلك ويظن انه مخالف لقوانين الاجتماع الانساني لاسيما بعد أن برّح الاستبداد بنا تبريحا زاد في مسافات الخلف بين الطوائف والملل اتساعا وملأ القلوب إحنة و بغضاء .

ولكن المتأمل فى ذلك يرى له سببا طبيعيا ظاهرا وهو ذلك الاستبداد الذي زاد فى التفريق والتمزيق ، ذلك الاستبداد نفسه هو الذي مزقنا أولا ثم جمعنا ثانيا ، كيف كان هذا ؟ إنما كان بالمساواة فى الظلم وتعميم الاستبداد فلولا ان الاستبداد كان عاما واقعا على جميع العثمانيين بالمساواة في الجملة لما كان الاندفاع إلى طلب المساواة بالدستور عاما

ورأيت رسما آخر يمثل سجينا اخنت عليه السنون ، واذاقه الظلاّم عذاب الهون، فتبدلت خلقته، وتغيرت سحنته، وانسدل شعره على كتفيه، وملأت لحيته صدره، وطالت اظفاره ، حتى صدق عليه قول عنترة في الاسد : « له لبد اظفاره لم تقلّم » وما كانت حياة أبي الاحرار مدحت باشا في منفاه (قبر الاحياء) الا كحياة هذا السجين

ظهرت الجرائد في حياتها الجديدة فرأينا فيها المباحث المستفيضة في السياسة والعمران والاجتماع وكلها تدل على اختبار منشئيها، وسعة علم كاتبيها، وبعد غورهم في السياسة، وحسن أسلوبهم في استمالة الدول، ولاسيما صديقتي دولتنا القديمتين انكلترا وفرنسا، حتى مالتا الينا وقرظتا احرارنا أحسن تقريظ، وحتى أصبح أحد وزراء فرنسا من قبل يقول في خطبة له : « ان احرار تركيا أعظم من رجال الثورة في فرنسا » وناهيك صدور هذا القول من فرنسي دع انه من مشهوري رجال السياسة لان الفرنسي يملأ ما ضغيه فخراً برجال الثورة، ويعترف بأنهم فوق كل البشر، بل أصبح ساسة الانكليز يكتبون عنا مثل الفقرة الآتية من مقالة لجريدة الدايلي تلغراف الكبرى : « وأكبر واجب على انكلترا في الحال الحاضرة ان تساعد بكل قواها رجال الاصلاح في السلطنة العثمانية وتراقب مراقبة حبية عمل أية دولة تحاول بذر بذور الشقاق في البلقان أو أي عمل يراد به مناوأة رجال تركيا الفتاة في شؤونهم » واذا لم نجن من صداقتنا لهاتين الدولتين الكبريين فائدة الا صدها لباقي الدول عن عرقلة مساعينا وايقاف سير أعمالنا لكانت خير فائدة

كانت الجرائد قبل هذا الانقلاب تكتب بغير اقلام أصحابها ، وأريد بذلك انها كانت تكتب ما يراد منها من اطراء أعمال الحاكمين، وتقديس البغاة الظالمين، لا ما تريد من المباحث التي تعود بالنفع والخير على البلاد والعباد ، على ان كثيراً من أصحاب الجرائد كانوا مغبوطين بتلك الحال التي جعلتهم في مصاف الاغنياء والعظماء — عظماء ذلك العصر المظلم الذي كانت العظمة فيه عبارة عن الخيانة والجاسوسية والوساطة بين الحاكمين والمحكومين لهم بالرشى وأكل أموال الناس بالباطل

ولكن جرائد الاستانة كانت على شدة المراقبة والسيطرة عليها تكتب في شؤون الزراعة والصناعة والادب وما في معني ذلك مما لا علاقة له بالسياسة كل

الصحف في البلاد العثمانية

لم تكد الاحتفالات تنتهي في عاصمة السلطنة وسائر بلادها، حتى طفق أهل العلم والفضل يمدون الجرائد بآرائهم وأفكارهم، وانبرى الأديبات في الاستانة خاصة للكتابة، بعد ان وقفن ذلك الموقف المشهود في الخطابة، فأكد لنا الخبر الخبرَ وهو ما كنا نسمعه عن الارتقاء الأدبي العظيم في الاستانة وغيرها من ولايات الدولة ولا مراء في ان هذا الانقلاب الاخير، نتيجة ذلك الارتقاء الكبير

تسابق الناس الى طلب إنشاء الجرائد والمجلات ولا سيما في الاستانة حتى بلغ عدد ما أنشئ فيها وحدها حتى الآن مئتين وعشرين ما بين جريدة ومجلة وقد صدر في بقية البلاد ما يقارب ذلك ومن ذلك ثماني جرائد هزلية مصورة رأيناها معتصمة بحبوة النزاهة والادب بعيدة عن المجون وسخيف الهزل ولا ريب في ان اعمال المرء هي مرآة لاخلاقه ينطبع فيها ما يحمد وما يذم وعسى ان تكون هذه الجرائد الهزلية في مسلكها الادبي قدوة لكثير من جرائدنا الكبرى التي أصبحت مجموعة للشتائم والتفنن في أساليبها حتى صار كثير من الادباء يصدفون عن قراءة الجرائد العربية

رأيت في جريدة « قلم » إحدى الجرائد التي نوهت بها في صدر هذا المقال رسماً أثر فيَّ تأثيراً لم أعرفه منذ وجدت، أحدث في فؤادي اضطرابا، وفي جسمي رعدة عظيمة، وقشعريرة قوية الشكيمة، حتى كدت لا أملك نفسي على دفع البكاء ثم تلا ذلك انكماش وسكون، وفتور وذهول

ذلك الرسم يمثل هيكلا منتصبا من العظام يحكي رسوم علماء التشريح (Physiologic) التي توضع للدلالة على اعضاء الانسان، لا لما وضعه صاحب الجريدة وهو تلاوة العفو على هذا الهيكل من السلطان ! ! ! يرى الرائي ذلك الهيكل والأداهم والقيود مطوقة يديه ورجليه كأنه من بقايا المغضوب عليهم من نيرون العاتي الروماني وأمامه رجل يتلو عليه نبأ العفو عن السياسيين ! فكأن الرسم يقول له : اعزب عني فقد جئت بعد وقتك بزمان طويل وما أكثر الذين ذاقوا من وبال حكومة الظلم السابقة ما يجعل هذا الرسم ينطبق عليهم تمام الانطباق

نرى حضرة المحرر الشهير والكاتب البارع مشناق بك يملأ أعمدة الجرائد بالكتابة عن شركة البواخر ولم نره يكتب عن اصلاح المرأة كأن اصلاح المرأة في نظره ليس له من الاهمية في الهيئة الاجتماعية مالشركة السفن

ينصح لي بعض الاعيان بأن أقرأ ثلاثا وا كتب واحدة ! حبا وكرامة فاني أقرأ خمسا وا كتب واحدة واذا أرادوا الزيادة فلا أ كتب شيئا واقرأ عشراً ولكن هل لهم ان يتفضلوا هم ويكتبوا فيغنوني عن الكتابة

نحن نعد أنفسنا من بني الانسان ونطلب أن يكون لنا نصيب في الهيئة الاجتماعية ولقد سكت الكتاب العثمانيون عن البحث عن حقوقنا مع ان الانسانية تقضي عليهم أن لا يسكتوا وان يطلبوا اصلاحنا قبل أن نطلبه نحن

نحن نرى مباحث الصحف منحصرة الى الآن في كيف تكون زينة المرأة كأن المرأة اذا ذكرت لا يتبادر من ذكرها الا انها (ألعوبة مزينة) ولا يخطر على بال الباحث في هاته الصحف ان المرأة كالرجل لها ماله وعليها ما عليه. فيجب أن لا يقتصر الباحثون على زينة المرأة كلما أرادوا البحث في شأنها ومن يقتصر على ذلك يهين المرأة ويجرح عواطفها. ونحن نريد أن نزين عقولنا قبل أن نزين أجسادنا وهذا لا يكون الا بالتربية والتعليم وفتح أبواب المدارس في وجوه الفتيات

اقترحت حضرة فاطمة هانم افندي في مقالتها التي نشرتها «ثروت فنون» أن تؤخذ سراي رضوان باشا وتجعل مدرسة للبنات، واما انا فأرى أن تفتح مدرسة للبنات حيثما كانت وكيفما وجدت. وقد استحسنت الكاتبة أن يتضمن بروجرام المدرسة تعليم التطريز والامور المنزلية باللغتين التركية والانكليزية ورأيي انه متى كان التدريس جيدا مفيدا فليكن باية لغة كانت. واذا وفقت فاطمة هانم افندي الى انشاء هذه المدرسة فلتعدني خادمة فيها فان لم استطع ان أقوم بوظيفة التعليم والتدريس فاني أكون من جملة المتعلمات لأن في التعلم والتعليم خدمة للوطن، وأؤكد أن بيننا من النساء من هي واسعة الاطلاع عارفة بحاجات الامة

المرأة تمثل في الهيئة الاجتماعية نصف أدوار قصة الحياة فلو عرف الكتاب الكرام هذه الحقيقة واعطوها حقها من البحث لقاموا بخدمة وطنية عظيمة، واظن انهم اذا فعلوا

مفيد ، اما جرائد سوريا و باقي الولايات فكانت دون اخواتها في الاستانة في المباحث ، وأوغل منهن في تقديس السلطة الجائرة ، والفئة الباغية الخاسرة ، ثم لا تزال بعد التمتع بالحرية متخلفة عنها بمراحل ، فعسى ان تغذ في سيرها ، وتجتهد في إدراك شأوها ، فلا تضع نفسها منها موضع الظالع من الضليع ، ورجاؤنا كبير في الذين عقدوا النية على إنشاء جرائد جديدة في تحقيق الأمل كصديقنا الشيخ أحمد حسن طبارة الذي أصدر جريدته (الاتحاد العثماني) وصديقنا عبد الغني افندي العريسي فانه عزم هو وحسن افندي بيهم الشهير على إصدار جريدة يومية سماها (المفيد) واذاع صديقانا جرجي افندي يني وأخوه صموئيل افندي نشرة ذكرا فيها انهما سينشآن مجلة علمية أدبية سياسية دعواها المباحث فسرنا هذا النبأ لأن الكاتبين ضليعان بما انتدبا له

***

استغرقت المباحث السياسية اقلام الكتاب حتى يكاد من ينظر في جرائد الاستانة في هذه الآونة لا يرى فيها مقالة أدبية أو بحثا اجتماعيا أو اخلاقيا الا فيما ندر وهم لم يتناولوا المرأة في بحثهم البتة لذلك انبرت عاطفة جلال احدى فضليات بنات الاستانة وكتبت مقالة تستنكر فيها ذلك وقد بحثت في شأن المرأة بحثا مفيدا ودعت الكتاب الى مشاركتها في موضوعها ، نشرت المقالة في جريدة «ثروت فنون» بعنوان « اليس لنا نصيب في الرقي » وترجمتها «الجريدة» بالعربية وانا ننقلها عنها بنصها مع تصحيح قليل قالت :

« نقرأ الجرائد فلا نراها تكتب في المرأة الا شذرات قليلة و بعض مقالات يكتبها بعض السيدات ، فنستغرب من كتابنا تركهم للمباحث الجليلة في رقي المرأة على أنهم يكثرون من كتابة المقالات الضافية الذيول الكبيرة الحواشي في اصلاح الحيوانات الاهلية ونراهم حلقوا باقلامهم في جو الصين واليابان وما فكروا قط في اصلاح أحوال المرأة ، كأن المرأة في نظرهم لا تعد من الانسان ، أو هي في درجة أقل من درجة الحيوان ، أو كأن المرأة لا تزال في اعتبارهم معدودة من الزينة غير المفيدة ، أو من متاع البيت

٤ — سيطلب اضافة مادة صريحة صراحة تامة للقانون الاساسي تبيح الحرية في انشاء جمعيات سياسية بشرط ان تراعي في ذلك المادة الاولى من القانون الاساسي

٥ — سيطلب وضع قوانين خاصة لوجوب تنفيذ قانون توسيع السلطة الادارية في الولايات الوارد ذكرها في المادة ١٠٨ من القانون الاساسي بشرط ان لا تحل الرابطة الموجودة الآن في ادارة الولايات

٦ — يتوقف تعديل وتبديل التقسيمات الادارية في الولايات الآن على رأي مجلس المبعوثان وإنما يجب الاسراع في بعض التعديلات من حيث قرب القرى والنواحي أو بعدها باعتبار مواقعها مما يسهل ادارة الامور

٧ — ان لغة الدولة هي التركية وستكون جميع مخابرات الحكومة بهذه اللغة

٨ — أن يكون للمجلس المبعوثان حق وضع القوانين من غير قيد بشرط أن يطلب ذلك عشرة من اعضاء المجلس على الاقل

٩ — كل شخص له أن يتمتع بالحرية التامة والمساواة مع كل الرعايا بصرف النظر عن جنسه ومذهبه وهو مكلف بما يكلف به كل عثماني بصرف النظر عن جنسه ومذهبه . وبما ان كل الرعايا العثمانيين متساوون أمام القانون ولهم الحق في وظائف الحكومة فكل فرد تتوفر فيه شروط الكفاءة يوظف في الحكومة بحسب مقدرته وكفاءته كما ان الرعايا غير المسلمين ينتظمون في سلك الجندية

١٠ — الاديان حرة وستبقى الامتيازات الدينية المعطاة للطوائف المختلفة على ما كانت عليه

١١ — سيطلب تنظيم القوى الحربية والبحرية حسب ما يقتضيه الزمان والمكان ومركز الدولة السياسي بين الدول وسيطلب تقليل مدة الخدمة العسكرية بشرط ان لا تضر بتمرين الجيش واستكماله لاسباب القوة

١٢ — إلغاء الفقرة الاخيرة من المادة ١١٣ الواردة في القانون الأساسي المنافية للحرية الشخصية

١٣ — اقتراح وضع قوانين تعين حقوق العمال وأصحاب الاعمال المتقابلة

١٤ — سيطلب التذرع بالوسائل الموصلة الى توزيع الاراضي على الفلاحين

ذلك بقيت عظمتهم الكتابية في المنزلة التي لا تمس بسوء فهل يرضي أولئك الكتاب ان يشتغلوا في كثير مما لا فائدة منه وانا وامثالي من الفتيات نادي بانشاء المدارس ونحن لا نزال في دور التحصيل ؟ » اه

فعسى ان نرى في فتياتنا من ينهجن نهج الكتابة القويم ويذهبن مذهبها في وجوب التربية والتعليم

وقد ورد في الانباء الاخيرة ان مشيخة الاسلام اعلنت بأنها ستصدر جريدة شبيهة بالرسمية، تنشر فيها مزايا الدين الاسلامي، ودحض التأويلات و بيان فسادها، ورد الشبهات التي يرمى بها ، هديا للناس، ودفعا للخرافات والاوهام، فسرنا هذا النبأ كثيرا لان مثل هذه الجريدة ستقطع السنة كثير من الحشويين والمخرقين، وتقضي على التقليد والمقلدين ، فتكون عونا للمنار على تأييد مبادئه التي جاهر بها منذ سنين

حسين وصفي رضا

البرنامج السياسي

« لجمعية الاتحاد والترقي »

نشرت جرائد الاستانة هذا البرنامج ليكون محورا تدور عليه سياسة الدولة فأحببنا نقله عنها لقراء المنار وهذه ترجمته بالحرف :

١ — جعل الوزارة مسئولة بصورة مطلقة أمام مجلس المبعوثان وعلى ذلك تعد الوزارة مستقيلة اذا لم تحز اكثر الاصوات في المجلس

٢ — لا يكون مجلس الاعيان (الشيوخ) مقيداً بالمادة ٦٢ ولا يزيد عدد اعضائه عن ثلث اعضاء مجلس المبعوثان و يعين السلطان ثلث اعضائه .وتنتخب الامة ثلثيه لمدة معينة

٣ — سيطلب ان يكون لكل من بلغ سن العشرين من الذكور حق الانتخاب للدرجة الاولى سواء أ كان من أصحاب الاملاك أو لم يكن بشرط ان يكون من رعايا الدولة ماعدا الذين سقطوا من الحقوق المدنية فليس لهم هذا الحق

تفسير القرآن الحكيم

﴿ مقتبس فيه دروس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

« بقلم صاحب المنار »

هذا هو التفسير الذي فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين جامع لاصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس في كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح

وقد صدر منه الجزء الثاني وثمنه في مصر ١٢ قرشاً واجرة البريد ٢٥ مليما وفي الخارج اربعة فرنكات و٧٥ سانتيما ومن الورق الجيد ١٧ قرشاً في مصر عدا الاجرة وفي الخارج خمسة فرنكات و٢٥ سانتيما وصدر الجزء الثالث ايضاً وثمنه في مصر ١٠ قروشاً واجرة البريد ٢٥ مليما ومن الورق الجيد ١٥ قرشاً في مصر عدا الاجرة وفي الخارج اربعة فرنكات ومن الورق الجيد اربعة فرنكات و٧٥ سانتيما ويطلب من مكتبة المنار بمصر

تفسير سورة الفاتحة

(ومشكلات القرآن)

هذا الكتاب لا يستغني عنه مسلم بل ينتفع به كل أحد . فاما تفسير الفاتحة فقد اقتبس فيه صاحب المنار ما ألقاه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في دروسه بالازهر وأما مشكلات القرآن فهي اربع فصول للاستاذ الامام وفصل لصاحب المنار . ويباع بثلاثة قروش بمكتبة المنار بمصر وأجرة البريد نصف قرش وثمنه في الخارج فرنك واحد

بشرط ان لا يخل ذلك بحقوق تصرف ملاك الأراضي المعترف بها قانونا وان تسهل السبيل لاقتراض الفلاحين النقود بأرباح قليلة

١٥ — سيطلب قبول أصول (التخميس) في أمور الاعشار بصفة موقتة بشرط ان تبنى على أساس صحيح وتجرب في الحال وفي الجهات القابلة لمثل هذه التجربة وتطبق فيما بعد أصول (قاداسزو) بالتدريج

١٦ — التعليم حر البتة فكل عثماني له ان ينشيء المدارس حسب القانون الخاص بذلك كما ورد في القانون الاساسي

١٧ — كل المدارس تكون تحت اشراف الدولة والامل صيرورة تربية الرعايا العثمانيين كلهم على نسق واحد ونظام تام فتنشأ مدارس مختلطة حرة عمومية تفتح ابوابها لكل العناصر ويكون فيها التدريس حرا وتعليم اللغة التركية في القسم الابتدائي اجباريا والتعليم الابتدائي مجانا في المدارس الرسمية وأما التدريس الثانوي (الاعدادي) والعالي فانه سيكون في المدارس العمومية الرسمية المذكورة بشرط ان يكون التعليم باللغة التركية ويتسرع بالوسائل الجدية لوضع بروغرامات تتكفل بالمصلحة وايجاد معلمات ومعلمين اكفاء. وتنشأ مدارس للتجارة والصناعة والزراعة لترقية أحوال الدولة الاقتصادية. أما المدارس المنوط بها تعليم الدين بصورة خاصة فانها مستثناة مما ذكر

١٨ — توجه العناية الى ترقية احوال الامة والمملكة الزراعية والاقتصادية والعمرانية ويتوسل الى ذلك بالاسباب المؤدية الى المطلوب

١٩ — سيقترح تعديل انتخاب المبعوثان وجعله موافقا لهذا البرنامج بحيث لا يبقى أقل ملاحظة من قبل الحكومة تعرقل سير الانتخابات عن السير بكل حرية

٢٠ — سيقترح أن يكون لكل عثماني حائز الاوصاف المطلوبة الحق في ترشيح نفسه لعضوية مجلس المبعوثان في أي بلد من البلاد العثمانية

٢١ — يمكن تعديل مواد هذا البرنامج حسب ما تقتضيه احوال الزمان وبقرار اجتماع عمومي ويمكن أيضا إلغاء بعض المواد أو اضافة مواد أخرى عليه

(الجزء التاسع) رمضان ١٣٢٦ (المجلد الحادي عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ستون قرشاً صاغاً في القطر المصري والقطر السوداني و ١٨ فرنكاً في الخارج و ١٠ شلناً في الهند و ٧ روابل في روسيا
(والدفع سلفاً)

المنار

١٣١٥

(تنبيه)
يجب ان يكون وصل الاشتراك موقعا عليه من منشئ المجلة ومختوما بختم الادارة
الاشتراك في المجلة يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] أو منتصفها [رجب]

﴿ مجلة شهرية ﴾
تبحث في فلسفة الدين
وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها
السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الفائق لصاحبها الحائز للشهادة ديلوما ووسامات الامتياز من الدولة العثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بمعملها الكيماوي

قرش أميري (أسماء الادوية وبيان منافعها)

١٢ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ويزيل الالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والنمش ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٠٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة

٠٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنة والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرماتزم والرعاوية والصداع والدوخة والوخامة المسببة من فقر الدم

٠٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٠٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال الناقهين ويزيل العقد الخنازيرية

١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة به

٢٠ كبسول باروزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزيد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٠٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٠٥ مسحوق الشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويطهر تماما ويلطف الملمس من غير خطر

٠٥ نشوق صحي ضد الزكام ويزيل النوازل وينعش الجسم

٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل النقص

والمستودع العمومي بمعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الأحد ٣٠ رمضان ١٣٢٦ — ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٨ ﴾

الخطبة الأولى

﴿ من خطبنا الاسلامية في الديار السورية ﴾

ألقيناها على منبر جامع المجيدية في بيروت بعد صلاة العصر وصلاة جنازة الغائب على المصلحين الكرام السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده المصري وعبدالرحمن افندي الكواكبي السوري وذلك في يوم الخميس ٢٨ من شهر شعبان . وقد لخص هذه الخطبة بعض من حضرها من الادباء بما يأتي مع تصحيح وتوضيح:

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، و بعد فان الاسلام دين سهل سائغ موافق للفطرة البشرية ، قام به أهله عند ظهوره خير قيام ، وليس لهم كتاب غير القرآن ، ولم يكن القرآن في أول الامر مصحفا مجموعا كما هو الآن ، وانما كتبت

تفسير القرآن الحكيم

﴿ مقتبس فيه دروس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

« بقلم صاحب المنار »

هذا هو التفسير الذي فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين جامع لاصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس في كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح

وقد صدر منه الجزء الثاني وثمنه في مصر ١٢ قرشاً واجرة البريد ٢٥ مليما وفي الخارج اربعة فرنكات و٧٥ سانتيما ومن الورق الجيد ١٧ قرشاً في مصر عدا الاجرة وفي الخارج خمسة فرنكات و٢٥ سانتيما وصدر الجزء الثالث ايضاً وثمنه في مصر ١٠ قروشاً واجرة البريد ٢٥ مليما ومن الورق الجيد ١٥ قرشا في مصر عدا الاجرة وفي الخارج اربعة فرنكات ومن الورق الجيد اربعة فرنكات و٧٥ سانتيما ويطلب من مكتبة المنار بمصر

﴿ كتاب سيبويه جزآن ﴾

أفضل وأجمع وأحفل كتب العربية والادب . يباع بثلاثين قرشا صاغا في مكتبة المنار وأجرة البريد ثلاثة . وثمنه في بلاد الدولة العلية عشرة فرنكات

﴿ رسالة التوحيد ﴾

طبعناها طبعة ثانية فيها زيادة بأكثر من سبعين موضعا . وحذف وتنقيح بقلم المؤلف . وثمنها خمسة قروش في مصر وفرنك ونصف في الخارج

﴿ حياة الزوجين ﴾

كتاب أدبي اجتماعي يشتمل على آداب حياة الزوجين وما يجب على كل منهما ثمنه خمسة قروش صاغ وثمانية قروش مجلدا . ويطلب من مكتبة المنار بالقاهرة

عظيم جدا يتعلق بالاستعداد وهو ما كانت عليه العرب من سذاجة الفطرة واستقلال الفكر والإرادة

كانت الاديان والحكومات بما طرأ عليها من الفساد قبل الاسلام قد أضعفت استعداد تلك الامم بما طبعتهم على التقليد والخضوع والخنوع لرؤسائهم، والجمود على تقاليدهم وعاداتهم، فاذا دعي أحدهم الى إصلاح جديد قال من فوره : ان هذا يخالف ما وجدنا عليه آباءنا فان لم يمنعه من الاستجابة التقليد لسلفه في الدين، منعه ماطبع عليه من العبودية لحكامه الظالمين ، واما العرب فلم يكن لهم من العلوم والمعارف الدينية وغير الدينية ما يحقر في أنفسهم ما يلقى اليهم من دين أو علم جديد ، ولم يكن لهم من الحكام المستبدين من يفسد عليهم بأسهم ، ويذهب بعزيمتهم ، بل أعدهم لذلك بطبيعة البدواة وسذاجة الفطرة، فجعلهم من أهل الشجاعة التي هي مظهر استقلال الإرادة، والحرية التي هي مظهر استقلال الفكر ، فكان فيهم كثيرون إذا دعوا إلى الحق والخير فقهوا الدعوة، واذا اعتقدوا الشيء قاموا ودافعوا عنه بالقوة ، لذلك أنزل الله عليهم كتابه ، وبعث فيهم رسوله، فاستجاب له من سمع ووعى وقالوا إنا نمنعك (أي نحميك) مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا، وقام الاسلام بهم خير قيام ، حتى كان من أمره وأمرهم ما كان ،

هذه مقدمة يمكنني أن أبين بعدها ماهي حقيقة الاسلام ليعلم غير العالم من الحاضرين ويتذكر أولو العلم منهم أن المسلمين يسهل عليهم اليوم ان يعرفوا دينهم ويهتدوا به من غير حاجة إلى مدارس تدرس فيها الكتب الكثيرة

الاسلام أمر سهل جدا وهو عبارة عن الرجوع إلى الفطرة البشرية، وماهي الفطرة البشرية ؟ هو ما انطوت عليه نفسك من الإذعان للسلطة الغيبية واختيار ما تعتقد انه الخير والمصلحة قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إلا ان الفطرة يعرض لها الفساد بالجهل وسوء القدوة فاذا ذكر صاحبها بآيات الله فاهتدى بها رجعت الى أصلها (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) فحصل مقصد الاسلام وحينئذ يجد المسلمون سعة في الوقت لتحصيل

آياته على الجلود والعظام وسعف النخل ، ثم جمعت في مصحف واحد باجماع الصحابة ، فالاسلام هو هذا الكتاب الحكيم ، وما بيّنه من سنة النبي الكريم ، صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّلَ اليهم)

إني سائلكم : أهذا هو الاسلام الذي غير وجه الارض ، ونقل البشر من طور إلى طور ، ؟ نعم إنه لهو ، ولو أخذته اليوم طائفة من المسلمين بقوة كما أخذه الأولون لغيرت وجه البسيطة مرة ثانية كما غيره سلفها من قبل ، ولست أعلم لماذا رغب المسلمون عن القرآن وذهبوا يؤلفون الكتب الكثيرة في الدين وقد رأينا ان الاشتغال بهذه الكتب مع الاعراض عن القرآن ما زاد الاسلام إلا ضعفا ، والمسلمين إلا خسفا ٠

أنزل الله دينه على نبيه (ص) فعمل به أولئك الأميون من عرب الجاهلية وهم على ما تعلمون من التفرق والتعادي والفساد ، فعلمهم الاسلام وهذبهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

من المعلوم في طبائع البشر انه لا يتربى ويتزكى بعد الكبر الا أفراد قلائل من أصحاب الاستعداد العالي ، لان الاخلاق متى رسخت في النفس قلما تتغير ولكن أولئك الصحابة الذين غيروا وجه الارض قد تربوا بعد الكبر تلك التربية التي كانوا بها أئمة وكانوا هم الوارثين ٠

نشأوا يعبدون الاصنام ، ويئدون البنات ، ويستحلون السلب والنهب ، الا انه كان فيهم استعداد لهذا الاصلاح الذي ساقه الله اليهم : كان فيهم ذكاء عقل واستقلال فكر وقوة إرادة، فلما فهموا الاسلام قبلوه وأيدوه ونصروه ، وحملوه الى غيرهم ونشروه ٠

إن الاسلام دين عام لجميع البشر ، ليس خاصا بمن ظهر فيهم أولا من العرب ، ولكن لماذا ظهر هذا الدين الحكيم في تلك الامة الجاهلية ، ولم يكن بدء ظهوره في أمة من أمم المدنية كالمصريين والروم ، واليونانيين والفرس ! ؟ السبب في ذلك

في الكتب وا كثروا فيها من الاقسام والفروع والاصطلاحات حتى وصلنا الى أزمنة صارت فيه هذه الكتب صعبة لا يتيسر للاكثرين درسها وتعلمها، فتركها السواد الاعظم وصارت دراستها محصورة في فئة تستفيد منها في دنياها كمريدي القضاء والفتيا والتدريس. على انهم على طول مزاولتها لا يستغنون عن اخذها بالعمل فقد حدثني أحد كبار العلماء انه قرأ كتاب الحج مرارا كثيرة ولما أراد ان يحج لم يستغن عن المطوفين الذين يعلمون العوام مناسكهم بالعمل. وتعلم العبادات بالعمل سهل جدا ومالا بد فيه من القول يمكن ان يقال في مجلس واحد، وقد كان النبي (ص) يعلم الاعرابي دينه في مجلس واحد، فاذا عاهده على العمل به رضي منه وقال «افلح الاعرابي ان صدق»

التاريخ يخبرنا بان الاسلام انتشر في مدة قليلة في ممالك كثيرة لسهولته، وأية سهولة على المرء اسهل عليه من مجاراة فطرته وتقويم مايعرض لها من العوج. فالاسلام يدعوكم الى مافي فطرتكم من الميل الى اختيار مافيه الخير والمصلحة، ولذلك يرشدنا الى التذكر في مواطن كثيرة من مواطن هدايته فيقول (لعلكم تذكرون — لقوم يتذكرون — وما يتذكر الا من ينيب) وانما يتذكر الانسان ما كان يعلمه ثم نسيه او غفل عنه، فكأنه يرشدنا بذلك الى ان مايدعونا اليه من الخير هو مما أودع في فطرتنا ثم غفلنا عنه بسوء القدوة وفساد التربية — فدين الاسلام اسهل الاديان لا حرج فيه ولا مشقة (مايريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون * يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فاذا كان على سهولته و يسره كافلا لسعادة الدنيا والآخرة فأي عذر لنا اذا أهملناه وتركنا هدايته !؟ (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) يرضى بأن يكون كالدواب لا يهمها الا علفها أو كالكلاب العاقرة ينهش بعضها بعضا

ربما يعترض بعض الناس على ما أقول من أن تلقين الدين لا يشغلنا عن تعلم العلوم والفنون الدنيوية التي هي مبادئ الصناعات التي تعتز بها الامة وتقوى الدولة حتى تكون في مصاف الدول الكبرى، لانهم يزعمون ان الدين ينهانا عن ذلك ولو لم يوجد فينا أمثال هؤلاء لما وصلنا الى ما نحن عليه الآن من الضعف والانحطاط في الثروة والقوة

ما يحتاجون إليه من العلوم والفنون وما يترتب عليها من الاعمال والصناعات التي تقوى بها أمتهم وتعتز دولتهم

قلنا ان الاهتداء بالاسلام لا يتوقف على درس الكتب الكثيرة، والاعمال التي تستغرق الاوقات، وذلك ان الاسلام مبني على ثلاثة أسس: (الاول) إصلاح العقل بالعقيدة المطهرة للجنان، المبنية على البرهان (الثاني) إصلاح النفس بتزكيتها وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل (الثالث) إصلاح الاعمال من العبادات والحقوق التي يستقيم بها أمر الافراد وترتقي الهيئة الاجتماعية

الاساس الاول يبنى عليه الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ومعناها انه سبحانه وتعالى هو المتفرد بالسلطة الغيبية العليا التي تلجأ اليها النفوس عند العجز عن الاسباب والسنن، فلا ينفع غيره ولا يضر سواه الا ما يتعامل به الناس بالاسباب التي سخرها الله لهم بحكمته، وأقدرهم عليها بمشيئته، وانه منزه عما لا يليق به من صفات الحوادث وما يلم بالبشر وغيرهم من النقص، وانه هو المتفرد بشرع الدين والتحليل والتحريم. ويتلو ذلك تصديق الانبياء فيما جاؤا به من الوحي والايمان بعالم الغيب من الملائكة والجزاء على الاعمال التي تزكي النفس فترفعها الى عليين، أو تدسيها فتلقيها في أسفل سافلين، فهذه العقيدة تصلح العقل باطلاقه من العبودية لبعض البشر او المظاهر الطبيعية وهي الوثنية التي أفسدت عقول الاولين، والخضوع الاعمى للرؤساء المسيطرين، وكل ذلك مبين في القرآن أكمل تبيين، مؤيد بالدلائل والبراهين

الاساس الثاني يبنى عليه تزكية النفس من الاخلاق الذميمة، وتحليتها بالاخلاق الحسنة، واذا تهذبت اخلاق الناس صلح أمرهم، واستقام نظامهم، وقد فصل لنا القرآن ما نحتاج اليه من ذلك تفصيلا

الاساس الثالث تبنى عليه العبادت والآداب العملية، وقد بين القرآن ذلك بالاجمال ووكل بيانه بالتفصيل الى النبي (ص) فكان يعلمه الناس بالعمل وعبر عن ذلك بقوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وكذلك كان الصحابة يعلمون من دخلوا في الاسلام على أيديهم فلم يقل احد انه كان لهم في الشام ومصر وفارس كتب يعلمون بها الناس دينهم عند ما كانوا يدخلون في الاسلام. ولكن المسلمين دوّنوا عباداتهم

النجاح ، وأكثر كتاب العربية لا يفرقون بين الكلمتين ، ويطلقون اسم الثورة على الانقلاب ، فيقولون الثورة الفرنساوية مثلا ، بدل الانقلاب الفرنساوي ، ولم يلتفتوا الى ما روي عن لويس السادس عشر ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (la Bastille) واطلاق المسجونين فيها فقال: إذاً هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر : عفوا يامولاي بل هذا انقلاب (Révolution)

فمراد ملك فرنسا ان فعل الثائرين غير مشروع ، ولا حق لخروجهم عن الطاعة ، وجواب المخبر ينافيه ، ويبين ان الانقلاب غير الثورة والعصيان ، فنحن اليوم أحوج الى تعيين معاني الكلمات والى سكب قوالب الالفاظ على قدر المعاني ، لان الانقلاب السياسي من شأنه ان يحدث انقلابا في اللغة والادب ، فضلا عن انقلاب الاخلاق والعادات والافكار ، الا ترى الجرائد العثمانية على اختلاف لغاتها من تركية وعربية ورومية وأرمنية ويهودية (أسبانية وعبرانية) وبلغارية وفرنساوية والجرائد الالبانية والكردية على وشك الظهور — كيف بدلت لهجاتها بعد حدوث الانقلاب ، وهجرت تلك الالفاظ الفخمة والتعبيرات السقيمة ، التي تغطي المعاني بستار المهابة حتى تستبهم على القارئ ، وتقيد فكره بسلاسل التذليل والاستعباد

الاستبداد يولد الانقلاب

فالذي يولد الانقلاب هو الاستبداد ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، لا من قواعد الدين الاسلامي كما يتوهم البعض منا، وا كثر الاوربيين الذين يصفون الحكومات الاسلامية بكونها ثيوقراطية أي انها جامعة بين الديانة والسياسة، واحكام المستبد أو المستبدين في الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يدهم من الخلق ، لحملهم اياهم على ماليس في طوقهم من اغراض المستبد او المستبدين وشهواتهم ، ولذا ورد في الخط الشريف السلطاني الذي منح به القانون الاساسي « ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة ، وعلى منع الحركات غير المشروعة اعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم

نحن اليوم في حالة لا تخفى على أمثالكم . صرنا وراء جميع الامم والذنب في ذلك علينا لا على الاسلام . فالاسلام لم يجن علينا وانما نحن جنينا عليه وعلى أنفسنا اذ جعلنا بيننا و بين القرآن حجبا كثيفة فأعرضنا عنه وعن العلوم التي نحفظ بها بيضتنا

كانت العلوم الرياضية والطبيعية عند ظهور الاسلام مندرسة ليس لها سوق نافقة عند أمة من الامم فأحياها المسلمون عند ماظهر الاسلام ونفذت شوكته . ومن العجب أن الجامدين الذين يحرمونها اليوم يعترفون بأن أولئك الاساطين الذين درسوهامن علمائنا هم خيرة علمائنا !

الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

الفرق بين الانقلاب والثورة

الانقلاب في اصطلاح المؤرخين تغيير مهم في حكومة الدولة وقلب في قوانينها، وهو غير الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة ، والفرق بين الانقلاب والثورة كبير ، فان الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الامة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح ، بخلاف الانقلاب فانه مهما آلم الامة ورضرضها فهو يخطو بها خطوة في التقدم ، ويصعد بها درجة في سلم

*) رسالة حفيلة جليلة ألفها صديقنا محمد روحي افندي الخالدي المقدسي من أرباب الاقلام المشهورين باستقلال الفكر واصالة الرأي وهو مؤلف كتاب « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب » وكان وقت كتابتها في « بردو » إحدى المواني الفرنسية وقد رأينا ان أحسن تقريظ لها نشرها في المنار لانها أصدق تاريخ لاعظم انقلاب

أخذ شيئا منها فقد أخذ حقه !! » واستباحوا التصرف في نفوس الرعية وأموالهم واعراضهم وفي خزائن الدولة و بيت المال وأوقاف المساجد والمؤسسات الخيرية . وصار الوزراء والمصاحبون يقولون « خسرو بكند شيرينست » أي ماأعجب كسرى فهو حسن ، فالحسن هو مااستحسنه السلطان والقبيح مااستقبحه السلطان ، ولا دخل في ذلك للعقل والذوق ، ولا للحكمة والشرع ، لانهم أولوا الشرع على حسب غاياتهم واغراضهم

فاذا تصفحت تواريخ الامم الاسلامية في الشرق والغرب تراها مؤسسة على هذا الاستبداد الآسيوي ، وعلى جانب من الاستعباد الافريقي ، وليس فيها شيء من الحرية الاسلامية ولا المشورة المأمور بها في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، كما قال الله لنبيه :(٣: ١٥٣ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (٤٢ : ٢٦ وأمرهم شورى بينهم) وحديث « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وأمثاله كثيرة كحديث حلف الفضول المشهورة في التواريخ : وذلك أن قبائل من قريش تداعت الى حلف الفضول الذي عقدته قديما قبائل العرب واشتهر باسم رؤسائهم الفضيل والمفضل ، فاجتمعت وجوه قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وكان ذلك قبل الاسلام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ، ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » فأي شيء اشبه بهذا الاجتماع والتعاقد من البرلمان والمبعوثان ؟ لا بل من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ولقد احسن جدا العلامة المقري في جوابه المذكور في نفح الطيب حيث قال :

« سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ، و يحملهم على الواضحة ، بل من يفتر في مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، ولا يراعي عهدا ولا حرمة !

« فأجبته : بأن ذلك لان الملك ليس في شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ،

الاستبدادي الفردي أو الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ،وذلك حق ومنفعة حريان بالهيئة الاجتماعية المدنية ...الخ »

الاستبداد والاسلام

فالاستبداد هو منبع الشرور ، وسبب التأخر والانحطاط وقد ورث ملوك الاسلام هذا الاستبداد عن ا كاسرة الفرس وقياصرة الروم ،عن نماردة بابل وفراعنة مصر ، عن جنكيز خان وتيمور لنك .والاسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة ، وساوت بين أفراد الامة ، وحافظت عن الحقوق والحرية الشخصية، وامنت الاجانب المعاهدين فضلا عن افراد الامة ـ على أموالهم ودمائهم واعراضهم ،ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ،ووضعت حق الحاكمية في الامة، ولم تكتف باعطائها الحرية في القول والعمل والكتابة والاجتماع ،بل فرضت على كل فرد من افرادها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعلت الامة مسيطرة على الحقوق العامة، ولم تفرق في الحقوق الخاصة بين المسلمين وخليفتهم والا اولي الامر منهم . ورد في الدرر وهو من أهم الكتب الشرعية « ان الخليفة يقتص منه ويؤخذ بالمال لانهما من حقوق العبد ،ويستوفيه ولي الحق أما بتمكينه أو بالاستعانة بمنعة المسلمين» ولذا حكمت القضاة على اكثر من واحد من الخلفاء وسلاطين الاسلام برد المال وضمانه ، وانزلتهم عن المنصة ، وأقعدتهم مع الخصم في مجلس الحكم

الاستبداد آسيوي لااسلامي

كان الحال على ماذكر مدة الخلفاء الراشدين ،ومن اقتفى أثرهم كعمر بن عبد العزيز من بني أمية، ثم تغلب الاستبداد الآسيوي على احكام الدين الاسلامي ،وانقلبت الخلافة الى سلطنة واصبح خليفة الاسلام (مقدسا وغير مسؤل) كملوك الافرنج ليومنا هذا، لايقتص منهم ولا يؤخذون بالاموال ولا تستطيع المحاكم إحضارهم ولا إصدار الحكم عليهم، ويرثون الملك كما يرث أحدنا مال أبيه. فاستبدوا بالامر استبداد لويس الرابع عشر الذي كان يقول « الدولة هي انا » و« أموال الرعية انما هي ملك لملكها فاذا

أولاده وعياله كما جرى للبرامكة مع هارون الرشيد. فتاريخ الدول والامارات الاسلامية كلها وقائع برمكية . وقد ينصر الوزير على الخليفة او الامير ويحجر عليه ويصير هو المستبد بالامر ، ونتيجة القضيتين واحدة وهي الاستبداد ، وتغلب القوة على الحق. والامة في جميع هذه الاحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسية وتدبير الملك ، ولا على دسائس المقربين وحيلهم لإخفائهم جميع ذلك عنها ، واستبدادهم بالامر عليها . ولقد أجاد لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر في الرسالة التي خاطب بها الوزير ابن مرزوق ووصف بها أحوال خدمة الدولة ومصايرهم ، وعبر فيها عن ذوق ووجدان وهي أبلغ ماحرر في هذا الصدد ، وقد ذكرها المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . فالمصلحون لم يتخلصوا من هذه الغوائل ولا وجدوا وقتا لاصلاح داخل الممالك وتحكيم سياستها الخارجية، ولذا انصرفت هممهم لجمع الاموال وادخارها ، واغتنام فرصة التقرب ونيل التوجه واكتساب السعادة، لان الواحد منهم لايدري الى متى يدوم له التوجه والاقبال، فيسارع الى الاستفادة من الحال التي اسعدها الحظ بنيلها

قصر السلطنة العثمانية وتربية ولي العهد والكامريلا

كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتبا على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول ، حيث كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابها العالي . وأول وظيفة على هذه الحكومة انزال الخان المعظم على الرحب والسعة ، واسكان من معه من الحريم والاسرة والاقارب والحاشية ، واستكمال أسباب راحتهم وسعادتهم ، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي) . فالعمود الأوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو « الصدر الاعظم » القائم مقام الخان المعظم أي السلطان والحامل لختمه الذاتي والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية، وبجانبه « قاضي عسكر » لفصل الدعاوي وتقسيم مواريث الجند والمحافظة على حقوق السلطنة ، وشيخ الاسلام انما هو « قاضي عسكر » وظيفته أحدث عهدا . فقضاء العسكر قديم في الدولة ومتقدم فيها على قضاء المدن مما يدل على حياتها العسكرية المتنقلة ، ثم « الدفتردار » الذي يقيد الاموال ويحرر الحساب ، وهو اليوم ناظر

قال الله تعالى ممتنا علي بني اسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك في هذه الامة، بل جعل لهم خلافة، قال الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية وقال تعالى (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال سليمان (رب اغفرلي وهب لي ملكا) فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء. فكان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وان لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما، وأجمعوا على تسميته بذلك، ثم استخلف أبو بكر عمر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد الى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار، ونص في عهده على ذلك، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان. فاخراج عمر لها عن بنيه الى الشورى دليل على انها ليست ملكا، ثم تعين علي بعد ذلك اذ لم يبق مثله، فبايعه من آثر الحق على الهوى، واصطفى الآخرة على الدنيا، ثم الحسن كذلك، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكا، والخشونة لينا، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها ميراثا، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها. ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا، لان سليمان رحمه الله رغب عن بني أبيه ايثارا لحق المسلمين، ولئلا يتقلدها حيا وميتا، وكان يعلم اجتماع الناس عليه، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة، وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قلّ، وغالب أفعاله غير مرضية» اه

فيظهر لنا من هذا الكلام الفرق بين الخلافة والملك، والسبب الذي جعل ملوك الافرنج مقدسين وغير مسؤلين

منبع الاستبداد قصر الملك والخلافة

ومنبع استبداد الدول الاسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ودار الملك والامارة، حيث تكثر دسائس المقربين ويشتد حرصهم على الجاه وطمعهم في جمع الاموال وادخارها وفى انفاذ الكلمة، ولذا ابتعد عنهم أهل التقوى والورع في جميع البلدان والازمان. فالمقرب منهم لايكاد يتم له الامر الا ويظهر له رقباء يشون به، وينصبون له اشراك المكيدة، ويتهمونه بانواع التهم، وينسبون اليه كل خلل في الدولة، حتي يبعدوه عن مركز الدولة، وربما تسببوا في مصادرته وقتله مع

فامتلأت السراي السلطانية بالاسرى من السراري الجركسيات والمماليك والطواشية ، مع أن الشرع الاسلامي لا يبيح هذه العادة المستكرهة ، قال شارح الدر : « وفي قطع الذكر من الاصل عمدا قصاص » ويندر فيهم وفي جميع خدمة الداخل من يتعلم القراءة فضلا عن الكتابة ، لان فضيلة الواحد منهم ان يكون على الفطرة الاصلية فارغا من العلوم والمعارف ، لئلا يسول له الشيطان أمرا أو دسيسة سياسية توجب انقلاب الملك ، ولذا اختاروا الخدمة من قرى الاناضول البعيدة ومن ذوي السذاجة والغرارة ، فاذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات إلى تمام السنة الثانية عشرة من عمره ثم تبدل تلك السراري بالحظايا فيتخذ منهن حرما ينزوي بهن في أحد القصور ، وتبقى الاغوات والمماليك على ما كانت عليه أيام صباه ، وربما جاوزه بحافظ يحفظه القرآن ، ومعلم يعلمه مبادي العلوم ، ولكن أكبر معلم للانسان هو البيئة التي يكون فيها ، وكيف يتعلم المرء بدون ان يخرج من بيته ويحتك بالعلماء ورجال الدولة . فيبقى ولي العهد على هذه الحال ينتظر دوره في الملك ، وهو محبوس في قصره ، وعليه العيون والجواسيس لا يمكنون أحدا من الدنو اليه ولا المرور بجانب قصره ، فضلا عن محادثته في المسائل العلمية والسياسية ،

ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سعى طواشية السودان ومماليك البيضان في وضعه تحت نفوذهم ، وحرصوا على ان لا يفلت من أيديهم ، وفتشوا على أضعف نقطة في قلبه وأخلاقه ، فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها ، فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة ، و يستفيدون منها لانفاذ كلمتهم وجر المنافع اليهم وإلى أصحابهم ومن كان من حزبهم وشيعتهم . فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوي يسمى كامريلا « Camarilla » وهي كلمة أسبانية معناها جماعة المنفذين في قصر الملك ، فيتداخلون في المسائل ويعارضون في السياسة ويستولون على الامور ، واذا رأوا السلطان مال لصدر أعظم أو وزير انقضوا عليه وسلقوه بألسنتهم واقترفوا عليه بإفكهم ، ونسبوه للعجز والتقصير ، وسعوا في تنزيل قدره وترذيله ، لاجل وضعه تحت سيطرتهم ، ولذا كان في الغالب للقهوة جي باشي

المالية ، ثم « النيشانجي » الذي يكتب الإرادات والفرمانات وغيرها ، فهؤلاء أعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة ، واما حبال الخيمة فهي الاغوات ،

ويقسم الاغوات بحسب خدمتهم في الداخل أو في الخارج إلى قسمين : فالقسم الاول هم خدمة الداخل المسمى « اندرون » من مماليك البيضان وطواشية السودان المحافظين على الحريم ، وكبيرهم آغة دار السعادة ويسمى أيضا آغة البنات « قيزلر آغاسي » ، ثم آغة البستانيين « بستانجي باشي » المكلفين بزرع البساتين والجنان وآغة الرسل الموصلين للاخبار وآغة المحافظين على الاثواب والالبسة « اثوابجي باشي » و « القهوه جي باشي » و « الابريقدار » و « السجاده جي باشي » . . . الخ والقسم الثاني هم خدمة الخارج واغوات (العرضي) مثل آغة الانكشارية « يكيجري آغاسي » وآغة الصباهية « سباهي » وآغة الطوبجية وهو « الطوبجي باشي» . . . الخ فهولاء الاغوات من خدمة الداخل وخدمة الخارج كلهم في درجة واحدة بمثابة حبال الخيمة ، ولا فرق بينهم في التشريفات الرسمية والمعاشات والتعيينات ، ولا في الاعتبار والمكانة عند الدولة ، فالجاهل والعالم ، والعبد المملوك والحر ، ووضيع النسب وشريفه ، ومجهول الاصل ومعروفه ، والابتر الخصي وكامل الاعضاء — كلهم متساوون لا تميز بين « القهوه جي باشي » الذي لا تحتاج صناعته الا لمعرفة طبخ القهوة وتقديمها ، وبين « الطوبجي باشي » المتوقفة صناعته على معرفة الفنون العسكرية والمعارف الكثيرة ، وهذا الذي حمل الشاعر المفلق الامير شكيب على ان يقول أبياته المشهورة ومنها :

وألفيت فيها أمة عربية ... يرى الترك منهم أمة الزنج اكرما

ولذا امتزجت الحياة البيتية بالحياة الدولية ، والمسائل النسائية بالمسائل السياسية ، واشغال السراي السلطانية بأشغال الباب العالي ، وبين السراي والباب العالي وسط يقال له المابين لانه بين « الاندرون » أي الداخل وبين « البيرون» أي الخارج . ويشتمل المابين على الكتاب والقرناء والمصاحبين وهم « المابينجية » ويعدون كلهم من أهل السراي وخدمتها

باشا ، وتبه دلنلي علي باشا ، وحرب الموره ، واستقلال اليونان ، وحوادث جبل لبنان . وتداخلت أوربا في شؤون الدولة العلية بداعي المحاماة عن المسيحيين : فروسيا تحامي عن الامم السلافية وجميع المتدينين بالمذهب الارثوذكسي ، وفرنسا على الكاثوليك ، وانكلترا عن مبشري البروتستانت ، وجميعهن يحرضن المسيحيين من رعية الدولة على مقاومة الاستبداد ، ويطالبن الباب العالي بإجراء الاصلاحات ، ووضع القوانين والنظامات لمنع التعدي على النصارى ، ولمساواتهم في الحقوق مع المسلمين . والباب العالي يجد الاستفادة من العداوة القديمة التي غرستها الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى اهون عليه من سوق العساكر وتكبد المصاريف الحربية لتسكين الفتن واخماد الثوارث . وهكذا جرت المذابح وارتكبت الفظائع التي تقشعر الجلود من سماع وصفها ، وعادت على الوطن بالويل والخراب كمذابح الروم في حرب المورة ، ومذابح لبنان في حادثة الشام ، ومذابح البلغار في حرب روسيا الاخيرة ، وهي التي قام لها غلادستون وقعد ، وارغى وازبد ، على منبر الخطابة في مجلس العموم الانكليزي ، وآخرها الفظائع الارمنية المعروفة ، وهي نقطة سوداء في صحيفة التاريخ .

صدارة مصطفى رشيد باشا

فالحوادث التي جرت قبل معاهدة باريس ساقت بعض رجال الدولة الى تعلم اللغات الاوربية ولاسيما الفرنساوية للوقوف على سياسة أوربا ولتنظيم العساكر البرية والبحرية ، وكان لاكثر المتعلمين نسبة وتردد على مصر التي شرعت بالاصلاحات على عهد محمد علي باشا . ونبغ من رجال الدولة مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير ابن مصطفى افندي متولي وقف السلطان بايزيد ، وكان مولده في الاستانة (١٢١٤هـ) فقرأ القرآن ومبادئ العلوم الاسلامية وأجاد الخط وتعلم شيئا من مبادئ اللغة الفرنساوية ، ودخل في معية نسيبه الصدر الاسبق اسبارطه لي علي باشا ، وذهب الى مصر مرارا وخالط رجالها وتقلب في مناصب الدولة العلية وفي سفارة باريس ولونده ، فاكمل تحصيل اللغة الفرنساوية واطلع على دقائق السياسة وخوافيها ، وكانت المسألة الشرقية شاغلة وزارات اوربا بسبب اجتهاد روسيا في جمع كلمة الامم السلافية وطمعها في الاستيلاء على القسطنطينية . وروسيا اكبر الدول الاوربية واكثرها

والاثوابجي باشي والابريقدار والسجاده جي باشي والبستانجي باشي حتى البلطه جي باشي وهو الحطاب — نفوذ كلمة ومكانة أكثر من الصدر و بقية الوزراء ورجال الدولة ، ولا سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم ، ولم تزل رتبة آغا دار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم ، ولهم بالفرنساوية لقب سون التس « Son Altesse » كأمراء الافرنج وابناء ملوكها العظام ، ولم يزل أكثرنا متذكرا نفوذ بهرام آغا وأمثاله

شروع الدولة العلية بالاصلاح

لو استمرت أوربا نائمة في ظلام القرون الوسطى لبقيت الدولة العلية سائرة في هذه الطريق العوجاء سير مملكة الصين ، أوسلطنة المغرب الاقصى التي انحطت إلى درجة البداوة ، بعد ان كان لها في العمران قدم راسخة ، بسبب مهاجرة الاندلسيين اليها ومتاجرتهم في أفريقيا الغربية ، ولكن أوربا استيقظت من غفلتها في القرون الجديدة ، وأوجدت هذه المدنية العجيبة التي بهرت العالم ، وغيرت وجه الارض باكتشافاتها واختراعاتها وعلومها وفنونها وآدابها ، وتجاوزت دول أوستريا (النمسا) وروسيا والبندقية إلى ممتلكات الدولة العلية ، فأحست بالضعف والانحطاط والتقهقر ، و بدأت في الاصلاحات الجديدة من عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، فأحدثت الطوبخانة ، وأنشأت معملاً لسكب المدافع ، واقبل السلطان سليم الثالث بهمة عالية واقدام على القيام بالاصلاح ، ورتب إدارة الطوبجية والبحرية ، وجلب المعلمين والمهندسين من أوربا ، وأحدث النظام الجديد ، فاغتالته أيدي المنون بسبب هيجان الانكشارية الذين فسدت أخلاقهم ، وأصبحوا بلاء مبرما على الامة والدولة ، بعد ان كان لهم في الفتوحات العثمانية شأن عظيم ، ومفاخر كثيرة مسطورة في تاريخ أوربا العسكري .

ثم جاس السلطان محمود الثاني وازال غائلة الانكشاريه ، ونظم العساكر الجديدة ، واجرى من الاصلاحات ماهو مفصل في التاريخ العثماني . واصاب الدولة العليه من الحوادث المهمة ماحملها على الاحتكاك بالدول الاوربية والدخول في ميدان سياستها مثل حروبها مع روسيا ، واحتلال نابليون بونابارت لمصر وسوريا ، وخروج محمد علي

قانونا لاخذ العسكر جرى تطبيقه في بعض الأيالات وأحدث في بعضها ثورة وعصيانا كعصيان الارناؤط (١٨٤٤) الذي سكنه رشيد باشا نفسه . ثم باشرت في تنظيم المعارف وفتح المكاتب في الاستانة ونظمت محاكم التجارة المختلطة (١٨٤٦) كما نظمت بعض دوائر الدولة واقلامها . فكان مصطفى رشيد باشا الذي تولى مسند الصدارة العظمى ست مرات وتوفي سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٨م — مصدر هذه الاصلاحات، بسبب وقوفه على الافكار الجديدة ومعرفته اللغة الفرنساوية والادبيات العثمانية . فسعى في افراغ الكتابة التركية في قالب سهل سلس ، بعد ان كادت تكون غير مفهومة عند العموم، لكثرة ما فيها من التعقيد والتشابيه الغامضة والالفاظ والتراكيب اللغوية من فارسية وعربية . ونشأ في عهده وتحت ظله الشاعر الشهير ابراهيم شناسي افندي موجد الادب الجديد العثماني . حصل العلوم العربية واللغة الفرنساوية ، وذهب لباريس فاطلع فيها على آداب الطريقة المدرسية ونسج على منوال راسين ولا فونتين وأدخل في الادب التركي التعقل المشروط في الطريقة المدرسية كما فصلنا ذلك في كتابنا « تاريخ علم الأدب »

وكان الادب التركي كله خيالات ومبالغات أعجمية قلما يجد الانسان فيه حكمة وتعقلا ، وديوان شناسي صغير الحجم ، لكنه نموذج للادب الجديد ، وأكثر قصائده في مدح مصطفى رشيد باشا . وأنشأ شناسي جريدة تركية سماها (تصوير افكار) وحرر فيها المقالات السياسية والتاريخية والادبية بقلم سهل سلس مفهوم . وطبع ديوانه مع منتخبات (تصوير افكار) ثانية في مطبعة ابو الضيا توفيق بك ، وكانت وفاة شناسي في سنة ١٢٨٨هـ قبل بلوغه سن الشيخوخة والوظائف العالية

عالي باشا وفؤاد باشا

ظهرت فئة قليلة من المتعلمين على النسق الجديد واقتفوا اثر مصطفى رشيد باشا ، ونبغ منهم اثنان شهيران خلد التاريخ ذكرهما وهما السيد امين عالي باشا وفؤاد باشا ، ومولدهما في سنة ١٢٣٠هـ الاول ابن مصر جارشيلي علي رضا افندي اي المنسوب

نفوسا وأشدها خطرا على الموازنة السياسية . فكانت الدول الاوربية وفي مقدمتهن انكلترا التي هي أحرص الدول على مقاومة السياسة الروسية ، تشوق الدولة العلية الى القيام بالاصلاحات الجديدة لتستعيد قوتها السابقة فتحمي نفسها وتكون لبقية الدول سدا منيعا امام هجوم روسيا

فلما جلس السلطان عبد المجيد خان (تموز «يوليو» سنة ١٨٣٩) كان مصطفي رشيد باشا سفيرا في لوندره فتعين ناظرا للخارجية وحضر للاستانة وكان له رأي ودخل كبير في التنظيمات، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة المذكورة قرأ بحضور رجال الدولة وأعيانها والسفراء الاجنبية الخط الشريف السلطاني المعروف بالتنظيمات وكانت قراءته في كلخانة (أي دار الورد) وهي من دوائر السراي القديمة (طوب قبو) التي بجانب جامع ايا صوفيا . ولذا اشتهر بخط شريف كلخانة واشتمل على تأمين الرعية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وعلى قاعدة مطردة في استيفاء الاموال الاميرية ،وعلى أخذ العسكر بالقرعة وتعيين مدة الخدمة ،والغاء الامتيازات، وطرح التكاليف بنسبة ما لكل واحد من الثروة ، ومساواة الرعية أمام القانون ، والغاء المصادرة والانغارية وهي الاجبار على العمل بلا أجرة وتعرف بالسخرة، ونحو ذلك مما هو مدرج في هذا الفرمان المعروف بالتنظيمات جمع كلمة تنظيم العربية

فالدولة العلية انما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لاوربا ولا سيما انكلترا . والامة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معني تأمين الناس على الارواح والاموال والاعراض ، كأن الشريعة التي كانت دستور العمل تبيح التجاوز والتعدي على الارواح والاموال والاعراض ، وحاشاها من ذلك . فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول باصدار هذه التنظيمات وانما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئا مذكورا بجانب الحرية التي منحها القرآن لو زال عنه الاستبداد والجهل المستوليان على المسلمين ، فيجتهدون في فهمه وتأويله علي مقتضي نواميس المدنية الحاضرة كما فعل احرار العلماء كالشيخ محمد عبده وغيره

فشرعت الدولة العلية في اجراء الاحكام المشار اليها في التنظيمات وسنت

افرنجية محضة . ولذا كانت الاكثرية لحزب تركيا القديمة ، ولم يكن من حزب تركيا الفتاة الا فئة قليلة ، درسوا العلوم الجديدة درسا سطحيا و بعضهم زار اوربا مرة أو مرتين. ومع هذا وفق حزب تركيا الفتاة لاستمالة اوربا اليه ، وافلح في الحصول على اتفاق انكلتره وفرنسا وساردينيا اي ايطاليا ، فحاربن روسيا وانتصرن عليها في حرب القرم وعقدن معاهدة باريس (٣٠ مارس سنة ١٨٥٦) واعترفت اوربا بمقتضاها بتمام ملكية الدولة العثمانية واستقلالها ، ومنع اية دولة من المداخلة في أمورها الداخلية ، وصدر خط شريف ثان في ذلك التاريخ أيضا مؤيد لخط كلخانه ، و يشتمل على حرية الاهالي ومساواتهم في الحقوق والمعاملات . ثم جلس السلطان عبد العزيز خان سنة ١٨٦١ واصدر فرمان الاصلاحات ولكن هذه الفرمانات والخطوط الشريفة السلطانية لم تمنع تماما سوء الاستعمال والاستبداد الذي في ادارة الدولة ، و بقي الارتكاب والظلم والاستبداد على ما كان عليه سابقا ، لعدم اصلاحهم السراي السلطانية كما أصلحوا وجاق الانكشارية والصباهية وقلبوهما الى النظام الجديد

حزب تركيا الفتاة

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا . ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاضطلاع والوقوف على دقائق الامور ، فخدم في مصر و بعد جلوس السلطان عبد العزيز بسنة تعين ناظرا للمعارف في الاستانة ، ثم ناظرا المالية وأجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان ميكروب الاقتراض قد تفشى في هذه النظارة ، وأحدث بلاء القوائم النقدية ، حتى بلغت الديون ما بلغته فأثقلت كاهل الامة ، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك يوسف كامل باشا صهر والي مصر محمد علي باشا ، ومترجم تلماك للتركية الترجمة الاولى العويصة ، وكان عالي باشا في نظارة الخارجية ، وفؤاد باشا في رياسة مجلس الاحكام العدلية ، ثم في نظارة الحربية ، وأدخل فيها حسين عوني باشا العدو الالد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا تعين حكما لفصل الخلاف الحادث بين مصطفى فاضل باشا واخوته على تقسيم ميراث أبيهم فحصل بينهما رقابة وعداوة ، فلما تولى

لسوق مصر وهو سوق العطار ين . والثاني ابن الشاعر الشهير كجه جي زاده عزت ملا الذي نفي للاناطول في زمن السلطان محمود خان ومات في منفاه . فتعلم امين مبادي‌ء العلم واجادة الخط وقرأ الفرنساويه على معلم مخصوص ودخل قلم الديوان الهمايوني في الخامسة عشرة من عمره

ومن عادة رؤساء القلم تسمية كل داخل باسم يتميز به عن سميه، ولم يصطلحوا كالعرب والافرنج بتسمية الولد باسم ابيه أوأسرته . وكان امين قصير القامة فسمي (عالي) تسمية بالضد تفاؤلا بعلو همته . فذهب الى أوربا في كتابة السفارات واتقن الفرنساويه وانتسب لرشيد باشا وامتاز في فنون السياسة والمعارف العصريه وعين عضوا في (انجمن دانش) اي مجلس المعارف المؤسس على نسق اكاديميات اوربا .وكان عالي باشا يحسن الفرنساويه والتركية كتابة وانشاء ، وتقلب في وظائف كثيرة مهمة مثل السفارات والوزارات ومسند الصدارة العظمى .وأما فؤاد فدخل المكتب الطبي العسكري وخرج جراحا في العسكريه ، ثم دخل قلم الترجمة في الباب العالي وتقلب في الوظائف السياسية والخارجية ، وترأس مجلس التنظيمات ومجلس الاحكام العدلية وحضر الى سوريا أيام الحادثة وكان اذ ذاك ناظراً للخارجية ، ثم ذهب بمعية السلطان عبد العزيز الى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ومرض فيها وتوفي في نيس من فرنسا وله من العمر ٥٥ سنة فقط ، وكان في اللغة التركية أديبا شاعرا وضع مع جودت باشا القواعد العثمانية التي لم يؤلف للآن احسن منها ، وخلف الفريق كجه جي زاده عزت فواد باشا الـكاتب الشهير

فرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا هم نوابغ السياسة العثمانية وواضعو الاصلاحات الجديدة بدلالة السفراء الاجانب ارضاء لدول اوربا ولا سيما انـكلتره ، ومماشاة لها لحرصها على تقوية الممالك العثمانية لتتقي بها شر روسيا . فأمر هؤلاء النوابغ بترجمة القوانين والنظامات والتعليمات والاوامر المدرجة في الدستور ترجمة حرفية ، ولم يجدوا لهم وقتا لدرس احتياجات البلاد الداخلية والمدنية الاسلامية حق درسها ، ولا لنشر الافـكار الجديدة بين المسلمين المفاخرين بسابق مجدهم ومتانة شرعهم ، ولذا لاموا هؤلاء المصلحين ولم يرضوا عن اعمالهم زاعمين انها تؤول إلى قلب البلاد وجعلها

الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ، ثم صهره خليـل شريف باشا الذي جاء من مصر إلى الاستانة وتوظف في نظارة الخارجية بسبب معرفته الفرنساوية وصار سفيرا لباريس وغيرها وناظرا للخارجية ، وتزوج بأكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الاميرة الشهيرة نازلي خانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الاول في تعضيد حزب تركيا الفتاة ، وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا

لائحة فاضل باشا للسلطان عبد العزيز

لخص مصطفى فاضل باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها إلى السلطان عبد العزيز خان وقال فيها :

« تتصور أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية ، ولاحتمال أنواع الاذى والتحقير المتولد من الظلم ، وليس الامر كذلك ، فان المسلمين ربما كان الظلم والعسف أشد وطأة عليهم ، وهم أكثر انحناء تحت نير العبودية من المسيحيين ، لان المسلمين ليس وراءهم دولة أجنبية تتحيز لهم وتحامي عنهم ، فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين : الظالمين ظلما لاحدّ له ، والمظلومين بلا شفقة ولا مرحمة ، والاولون يجدون في الحكومة المطلقة غير المقيدة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها ـ إغراء وتشويقا إلى جميع الرذائل . وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضا بعلاقاتهم الضارة مع سادتهم ، وبما انهم مجبرون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم الصحيحة إلى أعتاب سدتكم الملوكية ، لان ظلاّمهم يرون هذه الاستغاثة ـ مع الاحترام ـ بحكومة جلالتكم من أكبر المفاسد ، فاعتادوا على دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها » .

وانما الامم الاخـلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهذه الاصول الاستبدادية التي كان اعداء الاصلاح من حزب تركيا القديمة يريدون المحافظة عليها ، ويعدون التمسك بها من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، والاسلام والوطنية بريئان منها للأسباب المشروحة فيما مر . فحزب تركيا الفتاة يمكننا ان نعتبر وجوده منذ تولى مصطفى فاضل باشا نظارة المعارف (١٨٦٢ م) ، وهاجر الى باريس (١٨٦٥ — ١٨٦٧ م) وانصار هـذا الحزب هم جميع المطلعين على

فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من نظارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة ، فشق ذلك على مصطفى فاضل وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحته الشهيرة التي شدد فيها النكير على الاستبداد ، وكشف الغطاء عن عورات الدولة ، وبين اسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بحرية لم يعتدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك ، ثم هاجر الى باريس سنة ١٨٦٥ ولحقت به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وأنفق على تعليمهم ، ونبغ منهم كثيرون في الادب والكتابة والسياسة - حدثني أحدهم قال كنا في باريس في عيشة راضية لا يهتم الواحد منا بأمر معايشه ، فاذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد الى منزله فوجد ما يحتاج اليه من الطعام والمنام ، بخلاف أحرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معايشهم

فاشتغلت النابتة الجديدة بفنون الادب وعلوم التاريخ والسياسة والصناعات النفيسة ، فنظموا الشعر وألفوا القصص ونشروا المقالات في الجرائد ، ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الادب الجديد العثماني ، ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ هـ وقرأ في المكاتب وتعلم الفرنساوية وصارت له مهارة زائدة في الانشاء الذي نشر به مقالاته السياسية في الجرائد بأسلوب مستحدث طريف هو من السهل الممتنع ، واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوجو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة ، وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ، وقصة وطن أو سليستره التي تمثل اليوم في الاستانه وسلانيك بعد حدوث الانقلاب ، وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف في جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ . ومنهم ضيا باشا الاديب الشاعر ، وسعد الله باشا سفير فينا الأسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها (البحيرة) ، وله اشعار عصرية رائقة . ومنهم أبو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي ، وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بصنعة بديعة عجيبة لم تبلغها إلى الآن مطابع الشرق ولا مطابع أوربا الشرقية . وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب قصة طارق بن زياد ، وكثير غيرهم من الكتاب والأدباء انصار حزب تركيا الفتاة

فؤاد باشا وعالي باشا، مع انه خليفة الله في الارض ، والقابض على رقاب خمسين مليونا من الرعية الذين هم عبيد جلالته !!! ، وان بيت المال هو حق من حقوقه له ان يتصرف فيه حسبما شاء وأراد !! ، وكانت الميزانية المالية وضعت في أيام عالي باشا وفؤاد باشا، وحدد فيها مصارف المابين، فانقلبت أحوال السلطان عبد العزيز خان في صدارة محمود نديم ، واستبد بالامر ، وأبعد عن الوظائف الملكية والعسكرية الرجال الذين تخيرهم عالي باشا ودربهم وعلمهم حتى كانوا من خيرة الموظفين، فاستبدل بهم المرتكبون وكثر تحويل الوظائف والعزل والنصب والترقي في جميع الوظائف الملكية العسكرية، حتى كان الضابط يرتقي إلى المراتب العلى في أقرب وقت، ويصبح مشيرا، بعد ان كان من قبل أشهر ضابطا صغيرا . وزاد الاسراف والتبذير ببناء السرايات التي لا لزوم لها وإنشاء الاسطول الذي صار أثرا بعد عين كما زاد الانهماك في الملذات والشهوات ، وكانت أوربا وصيارفة الاستانة تقرض الاموال بالربا الفاحش والديون تترا كم على خزينة الدولة ، والمكلفون بها هم فقراء الرعية من أصحاب الاعشار والاغنام يؤدونها من كدّ اليمين وعرق الجبين .

ومن الغلطات السياسية في صدارة محمود نديم باشا اصدار الفرمان بفصل الكنيسة البلغارية عن الكنيسة الرومية ، وتعيين اكسارخوس للبلغار مستقل عن بطريرك الروم في القسطنطينية ، وكان ذلك بمساعي الجنرال اغناتيف حبيب محمود نديم باشا للتوصل إلى احداث دولة للبلغار، مع ان الباب العالي كان يعتبر جميع هؤلاء الامم الصغيرة كالبلغار والصرب والافلاخ والبغدان والجبل الاسود والهرسك روما تابعين لبطريركية القسطنطينية لاشتراكهم جميعا في الدين الارثوذكسي . ومن الغلطات المالية أيضا إعطاء المثري النمساوي اليهودي الشهير وهو البارون هرش امتياز سكة حديد الروم ايلي المعروفة بسكك الحديد الشرقية ، واضرار الخزينة والامة من وراء ذلك ضررا كبيرا ، وفي اثناء ذلك ظهر مدحت باشا في مسند الصدارة ،

صدارة مدحت باشا الاولى

ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ م ، ووالده حاج علي افندي أصله من روسجق التي كانت مركز ولاية الطونه (بلغارستان) على ضفة نهر الطونه (الدانوب)

الكتب الفرنساويه وأدب الطريقة المدرسية أوعلى ما ترجم منها بالتركيه، والذي طلق عليه هذا الاسم هم الفرنساويون الذين قالوا (جون تركي) كما يقولون (جون فرانس — جون ألمانيا — جون ايتالي) فترجم بتركيا الفتاة وقيل بالتركيه (كنج تركلر)، ولذا قال هانوتو: إن تركيا الفتاة من اللغه الفرنساوية. وقد جوزي مصطفى فاضل باشا على جرأته بمصادرة أمواله، ثم أعيدت اليه بوساطة بعض الاجانب، ثم حرم من ميراث الخديوية هو وحليم باشا بسبب صدور الفرمان السلطاني بانتقالها إلى أكبر أولاد المالك وهو إذ ذاك اسماعيل باشا، وصار مسند الخديوية ينتقل من الوالد إلى ولده، بعد ان كان ينتقل إلى الاكبر فالاكبر من الاسرة، كما هي القاعدة في جميع الممالك الاسلامية، لما علمت من ان الاسلام ليس فيه ملك موروث،

وفي سنة ١٢٧٨ ه و١٨٧١ م أصيبت المملكة العثمانية بوفاة اشهر قوادها عمر باشا، وأشهر سواسها الصدر الاعظم عالي باشا صاحب الاعمال الكثيرة في تنظيم ادارة الحكومة، ووضع ميزانية للماليه، وتأسيس نظارة الداخليه والاوقاف، ومجالس الدعاوي والتمييز وتنظيم أصول المحاكمات واستعمال الاصول الاعشاريه، وغير ذلك من الاصلاحات الداخليه والسياسيه الخارجيه، وترجمت القوانين والنظامات عن الفرنساويه بلا نظر ولا معرفة بصالح البلاد واحتياجاتها فترجموا مثلا قانون التجارة الفرنساوي القديم وأبقوا فيه مسائل النكاح و (الدوته) واشتراك الزوجين بالاموال وعدمه، كما هو مختص بالاوربيين ولا وجود له في الشرق، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين. و بعد وفاة عالي باشا تولى مسند الصدارة محمود نديم باشا ومال إلى روسيا حتى سمي «نديموف» و بذر اموال الخزينه وأصبح آلة في يد الجنرال اغناتيف سفير روسيا في الاستانه

صدارة نديم باشا الاولى

محمود نديم باشا كان أبوه واليا، فتربى في داره على الاستبداد والارتكاب، وتعين واليا كأبيه ثم ناظرا للبحرية، وكان شديد التعصب للإدارة القديمة المستبدة، كثير البغض للاصلاحات الجديدة والحرية. تقرب الى السلطان عبد العزيز خان بالتملق، واستولى عليه من أضعف نقطة فيه وهي العظمه، فدس له بانه تحت وصاية

فزاد الارتكاب ، وبيعت الرتب والنياشين ، كما بيعت الوظائف بالمزاودة ، بحيث اصبح يحتجنها الذي يزيد في الثمن ، واختلت الموازنة المالية ، حتى قضت باعلان الافلاس في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٥ ، وطمع العدو في البلاد ، فأوجب ذلك هيجان تركيا الفتاة وعقلاء الأمة ، وكان التجسس غير معروف في ذلك الوقت ، وكان للجرائد حرية في الكتابة والانتقاد ، فشرعت جريدة «وقت» التركية في نشر الحكايات والاساطير عن ملوك الصين ، واستنتاج الامثال والمواعظ من انقراض ملكهم ، والتعريض بذلك لوزارة محمود نديم باشا ، واخذ فريق من الناس يطوفون على المجالس والدواوين والاندية العامة ، ويقصون أنواع المظالم والارتكاب وسوء الادارة ، فهاجت الافكار العمومية ولا سيما الصوفتاوات وهم طلاب العلوم الدينية البالغ عددهم في جوامع الاستانة نحو خمسة عشر الى عشرين الف طالب .

هياج الصوفتاوات وصدارة رشدي باشا

اجتمع من هؤلاء الطلاب زهاء خمسة أو ستة آلاف طالب ، وهجموا على الباب العالي في ٢٢ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ وذهب آلاف منهم إلى سراي طولمه باغجه مقر السلطان عبد العزيز فشكوا اليه طالبين عزل محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا ، فأجيبوا إلى ذلك ، وصدرت الارادة السنية بتشكيل الوزارة وتولية محمد رشدي باشا الصدارة ، وحسين عوني السرعسكرية ، وقيصرلي أحمد باشا نظارة البحرية ، وراشد باشا الذي كان واليا على سوريا نظارة الخارجية ، وخير الله افندي مشيخة الاسلام

خلع السلطان عبد العزيز

كان حزب مدحت باشا من الاحرار مؤلفا من نامق كمال بك وضيا بك ورؤف بك واسماعيل بك ، وهؤلاء لم يرتقوا إلى رتبة الباشاوية ، وأما الذين ارتقوا منهم إلى هذه الرتبة بعد ذلك فهم حسن فهمي باشا وشاكر باشا وسعد الله باشا ورائف باشا ورفعت باشا وكانوا من الوزراء ، فلما تولى حزب تركيا الفتاة زمام الامر ،

اليمني، ولما كان من صغار الموظفين لم يستطع تعليم ابنه غير مبادي العلوم وحسن الخط المعدود في ذاك الدور من أكبر العلوم وأهمها للدخول في الوظائف والترقي فيها، وأدخله على حداثة سنه قلم الصدارة فتخرج في اقلام الباب العالي ، وتعلم بالمشاهدة والتجربة والاختبار، وتعين مأمورا في الولايات ومكث سنتين في دمشق الشام، وترقى الى أن صار باشكاتب في مجلس (والا) وهو شورى الدولة، وذهب مرة ثانية الى دمشق وحلب للتحقيق عن القبرصلي محمد باشا ، والفت باستعداده واجتهاده نظر رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ورفعت باشا ناظر الخارجية اليه، فاجلسه معه رفعت باشا ليسمع المحاورة التي دارت بينه وبين البرنس منجيكوف مندوب دولة روسيا وذلك قبل حرب القرم، فاطلع مدحت باشا حينئذ على السياسة الخارجية، و بعد وفاة رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م تولى الصدارة عالي باشا فأذن لمدحت بالذهاب الى اوربا مدة ستة اشهر، فذهب الى باريس ولوندره و بروكسل وفينا، وشاهد انتظام الادارة ومحاسن المدنية والترقيات العصرية . ومازال يرتقي في الوظائف حتى صار والي ولاية الطونة (بلغارستان الحالية) فأجرى فيها اصلاحات كثيرة، وفتح مجلس الايالة وهو المجلس العمومي الذي فتحه راشد باشا في سوريا ، ثم عين واليا لولاية بغداد ومشيرا لعساكرها فسكن عصيان نجد، واهداه السلطان عبد العزيز خان سيفا مكافأة له على خدمه ، واذ كان الصدر الاعظم محمود نديم باشا كثير العزل والنصب والتبديل نقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى ولاية ادرنه ،فمر بكرسي السلطنة وطلب مقابلة الحضرة السلطانية واراها طرق الخلل وسوء الادارة وعاقبة الامر ، فعزل محمود نديم من الصدارة وتولاها مدحت باشا لكنه لم يبق فيها الا ثلاثة أشهر ،وكان سبب عزله على ماروي :ان احدى سراري القصر بعثت اليه مع الطواشي طالبة تعيين احد خدامها قائمقام في أحد الاقضية فأجابه مدحت « سلم على الخانم وقل لها ان تلتمس هي بنفسها من أفندينا ذلك » واشتد غضبه من مداخلة السراري وتتابع رجائهم

صدارة نديم باشا الثانية

كثر تبديل الصدور بعد عزل مدحت حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة أو خمسة عشر شهرا ، ثم عاد الى الصدارة محمود نديم باشا وكان العود غير احمد ،

كاتبين خاصين للمابين وسـعد الله بك باشكاتب لانهم من الاحرار الحريصين على تنفيذ احكام القانون الاساسي ، والاولون ممن قاموا بتسويده وتنميقه . فلم يعمل بهذه الشروط وتعين الداماد محمود جلال الدين باشا مشيرا للمابين ، وانكليز سعيد باشا رئيسا للياورية ، وكجوك سعيد باشا الصدر الاسبق في هذه الآونةوكان سعيد بك باشكاتب للمابين

مؤتمر الاستانة واعلان القانون الاساسي وصدارة مدحت باشا الثانية

كانت بلاد البلقان في اختلال وهيجان بسبب قيام الهرسك والصرب والجبل الاسود والبلغار وتأففهم من الظلم والاستعباد، ومطالبتهم بالاستقلال، وتمسك كل منهم بقوميته وأدب لغته، بعدان كان الدين المسيحي الارثوذ كسي يجمعهم تحت سلطة بطريرك القسطنطينية . وكانت أوربا تطالب الدولة العلية باجراء الاصلاحات، والعناية بالمسيحيين التابعين لها ووقايتهم من الظلم والاعتساف ،فتقرر عقد مؤتمر (قونفرانس) في الاستانة العلية لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين البلادواصلاحها ،وكان المؤتمر مؤلفا من احد عشر مندوبا ،اثنين من انكلتره وهماسفيرهاالسيرهنري اليوت واللودسالسبوري، واثنين من فرنسا ، واثنين من اوستريا (النمسا) ، وواحد من وسيا وهو الجنرال اغناتيف ، وواحد من ايطاليا ، وواحد من المانيا ، واثنين من قبل الدولة العلية وهما صفوت باشا وأدهم باشا ،فعقدوا جلستهم الاولى في ٢٣ كانون الاول(دسمبر)سنة ١٨٧٦ في دائرة الترسانة التى على خليج دار السعادة من جهة غلطه . ولم يكد يتم افتتاح المؤتمر الا وقد سمعوا اصوات المدافع ،فوقف صفوت باشا قائلا: أيها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من قبل جلالةسلطاننا الاعظم، وهذاالقانون متكفل الحقوق والحرية لجميع رعايا المملكة العثمانية بلا استثناء ؛ وقدحصل بذلك المقصود من عقد الموتمر، فأصبح انعقاده وعمله من قبيل العبثيات

فبهت القوم وانفضت الجلسة . وقداعلن القانون الاساسي حقيقة في ذلك اليوم، واطلق لدى اعلانه مئةمدفع ومدفع في جميع المدن والممالك العثمانية ذات القلاع . وكان مدحت باشا هوروح هذا الانقلاب العظيم وهو القابض على زمام الامر في الحقيقة منذ

واستولى على المالية ، والقوة البرية والبحرية والشرعية ، خلعوا السلطان عبد العزيز في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ و ٣٠ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ بفتوى من شيخ الاسلام ، واجلسوا ابن أخيه السلطان مراد خان ، ففرح به الناس واستبشروا وكان السير هنري اليوت سفير انكلتره أشد السفراء سرورا ، والجنرال اغناتيف سفير روسيا أكثرهم غما ، وهو حبيب محمود نديم باشا والمشير عليه بتلك السياسة العوجاء ، ونقل السلطان عبد العزيز من سراي طولمه باغجه إلى سراي طوب قبو المقابلة لها على ساحل البحر . ثم نقل بناء على طلبه إلى سراي جراغان المجاورة لطولمه باغجه على ساحل المضيق (البوغاز) وبعد خمسة أيام وقع الاغتيال واختلف فيه هل كان بطريق الانتحار أو القتل عمدا ، فان الذين كشفوا على الجثة وجدوها في الطبقة السفلى من السراي على سجادة بقرب الباب ، ففي انزالها من الطبقة العليا المعدة للسكنى الى الطبقة السفلى شبهة ، وعلى فرض ثبوت الجناية فمن عساه يكون المتهم بها ! هل حريم السراي وطواشيتها الذين تكثر بينهم الدسائس ويصعب التحقيق ؟ أو مدحت باشا وحزبه الذين لا مأرب لهم بذلك ؟ وقد توصلوا الى مأربهم بدون إراقة دم ، واستحقوا إجلال العالم لهم من عثمانيين وأوربيين ، وهم أعقل وأدهى من ان يلوثوا عملهم العظيم بدم جناية ودسيسة مثل هذه

حادثة الجركس حسن بك وخلع السلطان مراد

ثم حدثت مسألة الجركس حسن بك ياور السلطان عبد العزيز ، فانه دخل دار مدحت باشا والوزراء مجتمعون فيها ، وقتل السر عسكر وراشد باشا ناظر الخارجية ووالي سوريا قبلا وأحمد آغا الخادم وجرح ناظر البحرية وبعض الياورية الحاضرين ، فأثرت هذه الحوادث في السلطان مراد وادت الى اختلال شعوره فخلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من جلوسه

جلوس السلطان عبد الحميد

جلس على سرير الملك جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني بعد ان اشترط مدحت باشا وحزبه ثلاثة شروط : (١) إعلان القانون الاساسي (٢) استشارة الوزراء وجعلهم مسؤلين وحدهم في أمور الدولة (٣) تعيين ضيا بك وكمال بك

تغلب حزب التقهقر وكتاب مدحت للسلطان

كان الحزب المخالف للقانون الاساسي يسعى في التخلص من هـذا القانون ، فبعد تعيين مدحت باشا في الصدارة انعقد مجلس الوكلاء برياسته في دار الداماد محمود جلال الدين باشا ، وتذاكروا في القانون الاساسي ، فارتأى أحمد جودت باشا ناظر العدلية (الحقانية) تأجيل هذا القانون لعدم الحاجة اليه (؟) بسبب جلوس السلطان الحالي!!، وكان أحمد جودت باشا من المنتسبين الى الداماد محمود جلال الدين ، ومن كبار العلماء والمؤرخين ، ولكن ارتشاءه مشهور في الاستانة والولايات، واعلان القانون الاساسي يسد على المرتكبين أمثاله باب الارتكاب ، فبإصرار مدحت باشا وحزبه مثل ضيا بك وكمال بك وغيرهم من الاحرار الذين مر ذكرهم وبجريدتي (وقت) و (استقبال) والمقالات الشائقة المحررة فيهما — صدر الخط الشريف السلطاني إلى مدحت باشا باعلان القانون الاساسي ، وحمله الباشكاتب سعيد بك الى الباب العالي ، وتلي في الميدان الواسع الذي امام الباب بحضور جماهير الناس ، وبعد تلاوته خطب مدحت باشا في الموضوع ، وتلا الدعاء فوزي افندي مفتي أورفه وأمن الناس ، وما زال مـدحت باشا يلحّ في طلب اجتماع المبعوثان ، ويجتهد في تأليفه من الاحرار ، والمابين يؤخر ذلك ويفرق جميع الاحرار ، حتى انه أراد تعيين ضيا بك مسود القانون الاساسي سفيرا في برلين لئلا ينتخب مبعوثا عن أهل الاستانة . فضاق صدر مدحت باشا من التأخير والمحاولة وكتب إلى الذات الشاهانية مباشرة : « **لم يكن غرضنا من اعلان القانون الاساسي الا محو الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوكلاء ومسئوليتهم ، وتأمين جميع الناس على حريتهم ، حتى ترتقي البلاد في معارج الارتقاء — الى أن قال — واني لكثير الاحترام لشخص جلالتكم ، ولكن الشرع الشريف يوجب عليّ أن لا أطيع اموركم (أوامركم) اذا لم تكن موافقة لمنافع الامة** »

خلع السلطان عبد العزيز وان لم يكن (صدر اعظم)، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك محمد رشدي باشا شيخا مسنا منقاداً له ولحزب تركيا الفتاة، و بعد جلوس السلطان عبدالحميدخان الثاني استعفى محمد رشدي باشاالشيخوخته، وتولى الصدارة العظمى مدحت باشا وهي صدارته الثانية ،

لم يرض الجنرال اغناتيف بهذه الاصلاحات بل أصر على بقاء انعقاد المؤتمر، فداوم اعماله وقدم لائحة الى الباب العالي في ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وطلب الجواب عنها في خلال ثمانية أيام، فكانت من قبيل (الأولتيماتوم)

عقد المجلس العالي ورفضه لائحة مؤتمر الاستانة

عقد الصدر الاعظم مدحت باشا مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء والمشيرين ورجال الدولة والرؤساء الروحيين واعيان المسلمين والمسيحيين واليهود، وعرض عليهم لائحة المؤتمر، وافهمهم مطالب الدول الأوربية، وانّ ردّها يؤدي إلى الحرب، فتشاوروا بكمال الحرية وابدى كل منهم رأيه ، فقال رؤف بك ابن رفعت باشا ناظر الخارجية الاسبق إذ ذاك : الحرب كداء الحمى يمكن ان تنجو منه، ولكن لائحة المؤتمر كداء السل الرئوي عاقبته القبر لا محالة . وقال صاوا باشا من خطبة طويلة : اننا نختار الموت على إهانة شرفنا، وألقى وكيل بطريرك الارمن الكاثوليك مقالة طويلة في رد اقتراحات المؤتمر، فرفض المجلس قبولها بالاتفاق وظهر من هذا الاجتماع ائتلاف المسلمين والمسيحيين واليهود، واتفاقهم واتحادهم على محبة الوطن وترقيه والغيرة على منافعه، وكان الروم والارمن الكاثوليك أشدهم حماسة، حتى ان الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع العساكر العثمانية ، لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بصالح الروم لانفصالهم عن الكنيسة الارثوذكسية، التي هي تحت رياسة بطريرك الروم في القسطنطينية، ورفضهم استعمال اللغة والاديبات اليونانية، فبناء على جميع ذلك أجاب الباب العالي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) برفض مطالب الدول المذكورة في لائحتهن ، فانفض مؤتمر الاستانة وغادرها المندوبون والسفراء دلالة على قطع العلاقات بين أوربا والباب العالي

وتتكبد القيام برواتب موظفيه ؟ فان لم يصلح حالنا وتنتظم ادارتنا بجميع ماتراه امام أعيننا من النظارات والدوائر العظيمة المشتملة على الالوف من الموظفين أتراه يصلح بمجلس المبعوثان ؟؟

هذا ما كان يقال في قاعدة السلطنة ومقر الخلافة ؛ فما بالك في مراكز الولايات والالوية ، اذ كان المنتخبون لا يوصون مبعوثيهم الا بطلب الرتب والاوسمة والالقاب والمناصب والمخصصات والرواتب لهم ولاقاربهم وذويهم ! ! ولمن لاذ بهم وحام حول حماهم ، أو بإعفائهم من التكاليف الاميرية والخدمة العسكرية وتخفيف الضرائب والمكوس عنهم ونحو ذلك ! مما يعود على الوطن بالخراب لا بالعمران ، كأن خزينة الدولة كنز لا يفنى ، تمطر عليه الاموال من رحمة الله بغير عد ولا حساب

افتتاح مجلس المبعوثان وخطاب السلطان

افتتح المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثان في ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ و١٩ مارت (مارس) سنة ١٨٧٧ في بهو الاستقبال الكبير في سراي طولمه باغجه بمحلة بشكطاش ، وتلي النطق السلطاني امام الحضرة السلطانية وهو :

« أيها الاعيان والمبعوثان

« انني أبدي الامتنان بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية ، وجميعكم تعلمون ان ترقي عظمة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بالعدل ، حتى ان ما انتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في سير الحكومة ، ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف الرعية . وقد عرف العالم أجمع تلك المساعدات التي قام بها أحد اجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب ، وجميع اسلافنا العظام ايضا قد سلكوا على هذا الاثر ، فلم يقع في هذا المطلب خلل في وقت من الاوقات ، ولا ينكر ان المحافظة على السنة صنوف رعيتنا ومليتهم ومذاهبهم منذ ست مئة عام كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة . والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة (الامة) وسعادتها صاعدتين في مدارج الترقي في تلك الاعصار والازمان بفضل حماية العدالة ووقاية القوانين — أخذنا بالانحطاط تدريجا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف

ونحو ذلك مما لم يسمع بمثله الا من مصطفى فاضل باشا كما تقدم. و بالحقيقة ان احكام الشريعة الاسلامية وفتاوى الفقهاء في هذا الصدد لاتترك ادنى شك ولا ريب ؛ لان السلطان بحكم الشرع ليس مطلق الحرية ،ولا مطلق التصرف في أموال الناس ومنافعهم ، وانما هو في جميع ذلك مقيد بالاحكام الشرعية ، ولاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .فالحكومة المطلقة التي درجت عليها الدول والامارات الاسلامية وتوارثتها من عهد معاوية لا وجود لها على التحقيق في الدين الاسلامي .

عزل مدحت باشا ونفيه وصدارة ادهم باشا

فعزل مدحت باشا ونفي على الباخرة (عز الدين) الى ايطاليا، ووجهت الصدارة العظمى الى أدهم باشا والد حمود بك وخليل بك مديري دار العاديات (الموزه خانه)، وعين جودت باشا للداخلية ، واحمد وفيق افندي لرياسة مجلس المبعوثان موقتا ؛ لان انتخاب الرئيس مبين في المادة السابعة والسبعين من القانون الاساسي .

بعد خروج السفراء ومندوبي الدول من الاستانة العلية بعث البرنس غورجقوف ناظر خارجية روسيا الى الدول بمنشور مؤرخ في ٣١ كانون الثاني (يناير) يطلب فيه مداخلتهم بالاشتراك لاجراء الاصلاح في الممالك العثمانية(!)، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ التدابير اللازمة في هذه المسألة وأرسل الجنرال اغناتيف الى اوربا يقول: بما ان الباب العالي بدأ يخل بمعاهدة باريس ، فتمام استقلال تركيا المشروط في تلك المعاهدة اصبح واهيا لاغيا، فترددت دول اوربا ولا سيما انكلتره في قبول هذا الكلام

انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان

رأت الدولة العلية اصرار اوربا على اصلاح الروم ايلي فسارعت الى انتخاب المبعوثين وتطبيق احكام القانون الاساسي الذي نالت به الامة العثمانية الحرية وحق الحكم ، فلم يفقه الناس اذ ذاك معنى هذه الحرية ولا قدروها حق قدرها ، فظنوا أن المبعوثين كبقية الموظفين يشتغلون بمصالح الامة تحت سيطرة الوزراء والنظار، ليستفيدوا من الرواتب التي ينقدونها ، فلم يهتموا بأمر الانتخاب كما يجب .حدثني بعض احرار الاستانة قال كنا نحرض الناس على الانتخاب ونسوقهم اليه سوقا ،وهم يقولون: ألم يكفنا مالدينا من المجالس والدوائر المشحونة بالموظفين حتى نزيد عليها مجلسا جديدا

العمل (*

لئن كان للطبيعة حق الأولوية في احداث الثروة سواء في أرضها الخصبة، أو في احراشها الكثيفة، أو في مناجمها الكثيرة المعادن، أو في مراعيها الغزيرة الكلأ، أو في أنهارها المتدفقة بالخيرات، فان المدار في استثمار كل ذلك على العمل ولو قليلا . فلا بد من فلح الارض و بذر الحبوب قبل أن تجود الطبيعة بنعمائها، وتبذل الارض غلتها، ولا بد من احتفار المناجم قبل استخراج كنوزها، ولا بد من جني الثمار قبل التمتع بلذيذ طعمها . فالعمل ضروري للعمران، ولازم لكل موجود، وهو للموارد الطبيعية التي هي ينابيع الثروة بمثابة الدلو من البئر، إذ لولاه ما قدر أحد على الاغتراف منها .

وقد وفى الدين العمل قسطه من المدح حيث حث على التمسك به، فقال عز وجل في سورة مريم (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلي واشربي وقري عينا) وهو أمر به، لانه إذا كان جل شأنه يأمر السيدة مريم وهي في وقت المخاض بهز جذع النخلة قبل أن يتساقط عليها الثمر، مع انه قادر على أن يكفيها مؤونة ذلك التعب، فمن البديهي انه يأمر كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية بالسعي في تحصيل رزقه، ولاسيما إذا كان صحيح الجسم . وقال تعالى في آية أخرى (وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا) أي وقتا يلزم فيه السعي لتحصيل العيش وترقب الرزق بالعمل، وقال (فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهو أمر بوجوب جوب البلاد والضرب في طولها وعرضها، رغبة في العمل والانتفاع بما خلق جلت عظمته من الخيرات، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) أي

*) وعدنا قراء المنار في الجزء الماضي بأنا ننقل لهم طائفة من كتاب الاقتصاد السياسي المفيد، وهذا ما اخترنا نشره وفاء بالوعد، وتحريا للنفع

وللقوانين الموضوعة" وتبدلت تلك القوة بالضعف . . . . . . » الخ

ثم ذكر إزالة السلطان محمود غائلة الانكشارية ، وسبقه لفتح باب إدخال مدنية أوربا الحاضرة الى الممالك العثمانية ، واقتفاء السلطان عبد المجيد خان أثره ، واعلانه أساس التنظيمات الخيرية . . . الخ النطق السلطاني المعروف

قابل الجميع هذا النطق بالخضوع والركوع (!!!) وخصص لاجتماع المبعوثين بهو كبير في سراي العدلية بالقرب من اياصوفيا تحت رياسة أحمد وفيق افندي الذي صار بعد ذلك باشا ، وعين للرياسة بإرادة سنية لا بالانتخاب! ولذا كان رقيبا على مدحت باشا ، وقد اتهمه حزب تركيا الفتاة بالاستبداد لأن رياسة مجلس المبعوثان شبيهة بوظيفة رئيس الموسيقى المركبة من آلات كثيرة مختلفة ، لكل آلة توقيع خاص ، فعلى الرئيس أن يلاحظ موازنة الانغام وائتلاف بعضها ببعض ، لتخرج جميعها بصورة مفيدة مطربة ، وليس له ان يأخذ آلة من الآلات الموسيقية ويضرب عليها ليوازن ما بينها

مذاكرات مجلس المبعوثان

كانت الجلسة الاولى مخصصة للمذاكرة في العريضة التي ينبغي تقديمها من مجلس المبعوثان جوابا عن النطق السلطاني ، فحررت مسودة الجواب واسقط الكاتب منه كلمة « السنة » في الجواب عن فقرة « المحافظة منذ ست مئة عام على السنة . . . » المذكورة في النطق السلطاني ، فقام أحد مبعوثي الروم من الاستانة وقال ما محصله : « لا يمكننا ان نقبل إسقاط كلمة تدل على أثمن امتياز نلناه ، لان لساننا — نحن معشر الروم — هو ثروتنا ، فمن سوء الفهم وقلة الادب نحو جلالة سلطاننا الاعظم ان نمحو كلمة أثبتها جلالته بنفسها وكررت منحنا ذلك من جديد » فقال الرئيس : ليس بحثنا في ذلك لانا لا نعرف في هذا المجلس لسانا غير اللسان العثماني الرسمي . فقال جمهور العثمانيين : « بك أعلى ! بك أعلى ! ! » أي حسن كثيرا حسن كثيرا ، فقام مبعوث أرمني وايد كلام المبعوث الرومي ، فقال الرئيس ثانية : ليس بحثنا في ذلك ، ومع هذا فاني أسأل اعضاء المجلس عما اذا كانت آراؤهم موافقة لرأيي ؟ فقال جمهور المبعوثين : « أوت أفندم ! اوت افندم! » أي نعم ياسيدي ! نعم ياسيدي !

(لها بقية)

فيه، فهم يستنفدون ثروته، ويستنزفون خيراته، بدون أن يسعوا في احداثها.

العمل هو أساس الثروة فكيف ينتظر النجاح بدونه، وهو دعامة كل مانراه في العالم من التقدم في المدنية. ما رأينا بلدا تمسك أهله باهداب العمل إلا وتحولت فيه الصحارى القفراء الى حدائق غناء، وجادت الارض بكنوزها، وانساب الذهب إلى جيوب أهلها. لولاه لم يصر الترب تبرا، وتتبدل المفاوز بمعاهد للعلوم، ومعابد للنسك، ومعامل للصناعة. لولاه ما ضحكت الارض من بكاء السماء، ولا ابتسست الازهار في الاكمام، ولا حملت الاشجار لذيذ الثمار من كل زوجين اثنين، إذ أنه لا بد من غرسها قبل أن تصير دانية ظلالها، مذللة قطوفها، ولا غنى عن تعهدها قبل ان تترعرع أغصانها، وتصير دوحة تناطح السحاب. لولاه ما استنبط الانسان الوسائل التي يسخر بها القوى الطبيعية، ويتغلب على الصعاب، ويقرب المسافات بالبخار والكهرباء، ويجعل كليهما رهين إشارته. لولاه ما أخذت الارض زخرفها، و بلغت من المدنية غايتها، و بدت آثار العمران في انحائها، وصارت معمورة يتزايد سكانها في كل عام، وتتضاعف ثروتها آناً فآناً.

من ينكر فضل العمل في إحداث الثروة، فليرجع ببصره الكرة الى « استراليا » في الماضي يجدها في آخر درجة من الانحطاط، لخمول سكانها الاصليين، وكثرة اتكالهم على الموارد الطبيعية، ويشاهدها الآن وقد نالت من العمران حظا وافرا، وجرت في المدنية شوطا بعيدا. ذلك لان قوما عرفوا مزية العمل استوطنوها، فنهلوا من تلك الموارد، وعملوا في برها وبحرها، واحتفروا المناجم واستخرجوا كنوزا دفنتها الارض في بطنها اجيالا، وحافظت عليها لمن يقدر العمل حق قدره. فطبيعة تلك البلاد لم تتغير وانما تغير سكانها. بل مالنا وللتمثيل باستراليا، وأمامنا شبه جزيرة العرب التي كانت محط رحال المدنية، ومهبط العلوم والعرفان، ومصدر العمران، مالها قد عفت آثار مدنيتها، ودالت دولة ملوكها، واندرست معالم علومها، واندثرت معارفها، وصار ذلك المجد القديم، والسؤدد الماضي، أشبه بحلم حالم!!؟ أليس السبب هو ان ذلك السلف الصالح خلف من بعدهم خلف

اعملوا حتى تحصلوا على ما يقوم بضروراتكم ، وقال (فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وقال (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي « لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفيها المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » وقال « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا » وقال « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب ، خير من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله فيسأله اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وهكذا فضل النبي العمل في اية حرفة على الاستنامة الى الكسل ، واراقة ماء الوجه في الطلب وجاء في الانجيل ما معناه « تأكل خبزك بعرق جبينك » وهو حث على العمل طلبا للارتزاق. وروي إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام رأى رجلا فقال ما تصنع؟ قال أتعبّد، قال ومن يعولك؟ قال أخي، قال: أخوك أعبد منك . وقال عمر بن الخطاب « ما من موطن يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن اتسوق فيه لاهلي أبيع وأشتري » وقال « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقيل للامام أحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي . وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: تغدو خماصا وتروح بطانا، فذكر انها تغدو في طلب الرزق »

هكذا يحث الدين على العمل ويرغب فيه مراعاة لتقدم العمران ، ومحافظة على النوع الانساني من الفناء ، ومن ذلك تظهر حطة أولئك الذين يرون التوسل وسيلة للارتزاق ، والتسول حرفة للتعيش ، أولئك الذين لم يعرفوا مزية العمل وعلاقته بالسعادة ، ففضلوا مد أيديهم للسؤال على مدها للعمل ، واستسهلوا أن يكونوا كالكلاب تأكل كل ما يلقى اليها ، أولئك هم الذين يحل الشقاء بالبلد الذي يحلون

أغلب الاحيان، ولذا لم يوجد عنده مايدعوه الى الاحتفاظ بالقوت تحرزا للمستقبل .

عصر الرعاية

ولما رأى نفسه معرضا للمجاعات القتالة التي كانت تجتاحه من وقت الى آخر ، ورأى أنه ملزم بالنفقة على زوجته وأولاده ، توجهت همته الى تدجين الحيوانات النافرة كالابل والخيل والغنم وغيرها ، مما كان لاينتفع به كثيرا . ووجد من أهله وذويه من يساعده على رعي تلك الابل والغنم في الوديان والمروج الفسيحة التي تحيط به ، والانتقال بها من مكان الى آخر . وفي ذلك العصر ازداد عدد الناس عما كانوا عليه ، وتألفت منهم قبائل كثيرة كانت ثروة كل واحدة منهن تقدر بعدد رؤوس الابل أو الغنم التي تملكها ، كما كانت الحال عند العرب والتركمان ، وكما هي الآن عند العرب الرحالة والزط . ويمكننا ان نعزو كثرة عدد الناس الى سببين (الاول) كثرة نتاج الحيوانات التي كانوا يربونها حتى صاروا في سعة من العيش ، فكانوا ينتفعون بألبانها وأوبارها ولحومها وجلودها حتى قلت المجاعات بينهم (الثاني) ازدياد العصبية في كل واحدة من تلك القبائل ، مما جعل حق الملكية مضمونا نوع ضمان ، وحبب الى كل فرد اقتناء الحيوانات فزادت الثروة وزاد العدد .

عصر الزراعة

وكانت النتيجة الطبيعية لزيادة عدد السكان هي الازدحام على المراعي بالحيوانات مما جعل حشائشها التي غرستها يد الطبيعة غير كافية لسد الحاجة ، فعمد الناس الى معالجة الزراعة من اثارة الارض ، و بذر الحبوب فيها وتعهدها بالسقي ، حتى نبت مايكفي لمؤونتهم ولا نعامهم . واستخدموا في الزراعة كثيرا من تلك الحيوانات ، ومن ذلك العصر ظهر العمل بمظهر أجلى ، إذ لم يعد الانسان مفوضا كل أموره للطبيعة ، يأوي حيث نبتت حشائشها ، و يرحل اذا جفت خيراتها ، بل أخذ يعول على معوله ، فيحول به الارض المجدبة الى مزارع كثيرة الخيرات ، وانبنى على رغد عيشه تقدم عظيم في أحواله الادبية ، فنظم معيشته وظهرت الحكومات لاول مرة بالمعنى الذي نراها به الآن ، ولا حاجة بنا الى القول ان معظم الامم المتمدينة في الزمن الماضي كانت تعالج الزراعة في أول أمرها قبل ان ترسخ قدمها في المدنية . والسبب في ذلك بساطة الزراعة ، وعدم

أضاعوا الجد الموروث، وأهملوا العمل، وتمسكوا باذيال الكسل، حتى صاروا قديما في عالم جديد (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود)

كان « كسناي »وأضرابه يعتبرون الأرض الوسيلة الوحيدة لاحداث الثروة، ويبخسون العمل حقه في الاحداث، وذلك زعم صحيح من جهة ان الارض ينبوع المواد التي تقوم بها الصناعة، فلا يقدر الصانع على نسج ثوب بدون قطن، ويستحيل عليه صناعة آلة حديدية بدون حديد، ولكن « كسناي» بخس العامل حقه، وأنكر عليه تحويله الحديد من شكله الطبيعي حيث لاينتفع به، الى شكل يصير بواسطته آلة بخارية يتهافت الناس على ابتياعها ·أنكر على العالم الكيماوي تركيبه لدواء فيه شفاء للناس من مواد طبيعية لاتفيد كثيرا، وهذا مالا ترضاه العدالة، على انه بعد « كسناي» كما قدمنا أتيح للعمل ان يأخذ «آدم سميث» بناصره، ويظهر فضله، و يطنب في مدحه، ومن ثم أخذ مقامه في الصعود، ونجمه في السعود، حتى لقد قال فيه العلامة «جيد » انه هو الجدير دون غيره أن يكون الوسيلة في إحداث الثروة حقيقة، إذ الانسان هو المنتج الحقيقي لها، وما الطبيعة إلا طوع ارادته ، يحركها كيف شاءت تلك الارادة

﴿ ١ – أدوار العمل ﴾

عصر الصيد

في ذلك العصر كان الانسان قليل العمل ، كثير الاعتماد على الطبيعة، يعيش من صيد البر أو البحر، وكان رحالا كالانعام السائمة، يسكن البقاع الكثيرة القنص، كما تأوي هذه الى المروج الغزيرة الكلأ، ويلقي عصا الترحال اذا قل الصيد، كما تفعل هي اذا غيض الماء أوجفت المراعي·وقد كان في ذلك الدور مهددا بخطرين : الوحوش الكاسرة، والمجاعات المهلكة، لقلة ادخاره، لما يقتات به في اعساره، فالويل له اذا أصابه مرض أقعده عن الصيد، أو انتابه حر أو برد منعه عن مطاردة فريسته، والويل له اذا كان ضعيف النكاية أعداءه (كذا في الاصل) الذين يداهمونه لسلب ما اقتنصه · وكان عدم ادخاره راجعا الى أسباب كثيرة، منها عدم احترام الحقوق، فكان حقه مزعزعا لا يقدر هو على حمايته ،وليس هناك حكومة تدافع عنه، ومنها عدم وجود مسكن اماو ذرية في

الزراعة والصناعة إلا بعد ان أجهد المخترعون « كجيمس وات » وغيره قرائحهم حتى وصلوا الى استخدام البخار . فالاعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة ، وهي مقدمة عليها حتى في أحقر الصنائع .

﴿ ج — الاعمال المنتجة للثروة ﴾

اختلفت الآراء من عصر الى آخر في تحديد الاعمال البشرية التي تكون نتيجتها زيادة ثروة الامم ، أما العرب فكانوا يرون — كما يؤخذ من كلام الحريري وغيره من الحكماء — ان المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة ، وقد قال الخليفة المأمون « الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة ، أو تجارة أو زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم » ويفهم من ذلك ان تلك الاعمال الاربعة هي التي كانت معتبرة محدثة للثروة ، بمعنى ان عمل الحاكم الذي يقي البلاد شر العدو ، ويرد المظالم ، وينظم الري ، هو عمل يزيد في الثروة ، وكذلك عمل الصانع الذي يوجد منافع للمواد الاولية ، والتاجر الذي يتوسط في جلب تلك المصنوعات وتسليمها لطالبيها ، والزارع الذي يقوم باثارة الارض وبذر الحب فيها حتى تنبت ما يسد الحاجة ، وأما اعمال غيرهم فلم تكن محدثة للثروة ،

وأما الطبيعيون وهم (كسناي) ومن كان على مذهبه فقد تقدم انهم كانوا يعتبرون ان المحدث للثروة من الاعمال ما كانت متعلقة بالارض من إثارتها وحرثها وبذر الحبوب فيها ، وبناء على ذلك قسموا الناس الى ثلاث طبقات : طبقة ملاك الاراضي وهم المحدثون للثروة حقيقة ، وطبقة الفلاحين وهم الذين يساعدون على هذا الاحداث ، وغيرهم من السكان كذوي الامارة وذوي التجارة وذوي الصناعة ، وكانوا يرون هؤلاء عيالا على الطبقتين الاوليين . ولكن « آدم سميث » لم ينح نحو أولئك الاقتصاديين ، فقد اعتبر الصناعة والتجارة والإمارة من الاعمال المنتجة للثروة ، وتبعه من أتى بعده من الاقتصاديين .

ويمكننا أن نقسم الاعمال (أولا) الى ماهي مباشرة لإعداد سلعة من السلع للقيام بسد حاجة من حاجات الانسان ، وهذه محدثة للثروة بلا خلاف ، مثال ذلك العمل الذي يتكبده كلٌّ من حارث الارض وباذر القمح وحاصده ودارسه وطاحنه

احتياجها الى كثير تفكير أو كبير عناء ، على ان تلك الامم نفسها وجهت همتها بعد ان تم لها الامر الى استجادة الصنائع على اختلاف انواعها .

عصر الصناعة

الصناعة أثر من آثار المدنية تتوجه الهمم اليها عند بزوغ شمسها ، وتستجاد اذا زخر بحر العمران ، والسبب في ذلك راجع الى أمرين (الاول) ان الانسان لا تتوق نفسه الى الكماليات كالصناعات المختلفة الا بعد تحصيل الضروري من مأكل وملبس ، (الثاني) هو ان معظم الصناعات تحتاج الى الممارسة والتعليم ، وهما لا يوجدان في وسط الامم المتوحشة ، ومن الصنائع ماهو مقدم كصناعة النجارة والحدادة والبناء والخياطة ، لان منفعتها ظاهرة لبناء المسكن وعمل الملبس ، ولذا توجد احيانا بحالة ساذجة ، ومنها مالا يوجد في الامة إلا اذا تفننت وتنوعت أساليب مدنيتها ، كصناعة الرسم وصناعة الطباعة وتجليد الكتب (١) وكلما علا كعب الامة في العمران ابتدعت الصنائع المختلفة ، واستنبطت الاختراعات المفيدة ، وارتقت فيها الاعمال العقلية الضرورية للصنائع كالتعليم والتأليف .

عصر استخدام البخار

على انه مهما يكن من تقدم الصناعة عند بعض الامم في الاحقاب الغابرة فان اختراع البخار في القرن الماضي جعل صناعة الزمن الحاضر متقنة ، وصار العامل بدل ان يستغرق وقتا طويلا في الصناعة ، يدير الآلة البخارية فتكفيه مؤونة التعب .

﴿ ب ــ الاعمال العقلية ﴾

ولا مشاحة في ان عمل الانسان في الادوار التي تقدمت لم يكن يدويا محضا ، بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة ، لانه لا ينتظر أن يصنع الانسان عدة للصيد أو آلة لفلح الارض أو يبذر الحبوب إلا بعد التفكير الذي هو المميز للانسان من الحيوان ، ولا يتصور أن يستوعب الصنائع إلاَّ بعد أن يعرف دقائقها من المعلم ، ويتعلم العلوم المرتبطة بها ، ثم هو لا يقدر على تعهد الارض مالم يوجد هناك حاكم يمنع عنه تعدي الغير ، ومهندس يسهل له الري ، ولم ينتفع بالآلات البخارية في

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون .

باب المناظرة والمراسلة

المامة

بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام (*)

﴿لحضرة الفاضل جرجي افندي زيدان﴾

عرف الناس في مصر من حضرة الفاضل جرجي افندي زيدان معلما فمترجما فصحافيا ففيلسوفا لغويا فنسابة فروائيا مبتدعا فمتفرسا فمؤرخا خياليا قصاصا . ثم هم يستقبلون منه الآن مؤرخا اسلاميا محققا . ولا ندري ما يعرف منه اهل سورية قبل هجرته الى مصر . كل هذه صفات فاضلة ومواهب جليلة قلما يخلص بعضها لافذاذ العلماء ونوابغ الرجال . وهي بخلوصها لحضرته أفادت من لا يحصى عددهم من قراء العربية ولا سيما المسيحيين منهم وعلماء الشرقيات من الاوربيين وغيرهم ممن لا يحبون مطالعة الكتب العربية أو لا يستفيدون منها لو لم تشكل بالاشكال التي رسمها جرجي افندي زيدان لمؤلفاته العديدة

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتي فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ لعلمنا ان الذي قاده الى هذه المواقف هو استرسال الخيال وهو قد يفضي بصاحبه في النثر الى مثل ما يفضي به في الشعر فيكون أعذبه أكذبه ، ولاعتقادنا ان نفعها اكبر من اثمها ، وان الكتب العربية الصحيحة لا تزال بعد منتشرة في جميع أرجاء العالم ناطقة ببيان الغث من السمين والصحيح من الباطل ، على انه ما من كتاب وضعه بشر الاوكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية الجنسية بله الخطأ والغفلة أثر أي أثر ، الا ماشذ

*) بقلم الشيخ احمد الاسكندري

وعاجنه وخابزه ، لان كلامنها موجه إلى إعداد الخبز مباشرة، وان تنوعت حالات القمح المراد جعله خبزا (ثانيا) الى غير مباشرة لإعداد الصنف ، وهذه إما يدوية أو عقلية ، أما الاولى فلا يخلو حالها من أحد أمور خمسة (ا) الاعمال التي يتكبدها الناس في استخراج المواد الاولية اللازمة للصناعة كاحتفار المناجم وتشذيب الاشجار وغير ذلك، وهذه بالطبع منتجة مادامت نتيجتها تستخدم في الصناعة (ب) الاعمال التي تصرف في إعداد الآلات اللازمة لصناعة الصنف ، مثال ذلك شغل الحداد في تجهيز المحراث أو آلة الغزل (ج) الاعمال التي يكون من شأنها بناء المحلات المعدة للصناعة كالمعامل والاحواض ، وهكذا لانه لولا تلك المحل لما توفر إعداد البضائع القطنية مثلا أو المراكب (د) ما يوجه من الاعمال الى الحصول على طعام وكساء ولوازم للصناع مادامت تلك الحاجات غير خارجة عن حد الكفاية، أو للحصول على الفحم اللازم لتسيير الآلات البخارية في حالة ما اذا كان الصانع لا يشتغل بيده (هـ) الاعمال التي بواسطتها يمكن نقل الصنف الى حيث يطلبه الناس، ويدخل فيها عمل الحمالين في البر وصناعة المراكب والآلات البخارية وبناء الاحواض والارصفة وأعمال أمناء النقل والمراكبية وجميع التجار والمتسببين والسماسرة والاعمال التي تحسنت بواسطتها الطرقات وغير ذلك . أما العقلية فمنها ما هو متعلق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة، كالاختراع والتأليف وتعليم الصناعات والتفنن في ابتداعها وترويجها ، ولاشك في ان هذه منتجة ، ولافرق بين أن تكون هذه موجهة الى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، ويدخل تحت هذه أعمال الري على اختلاف أنواعها، وجميع ما تعمله الحكومة أو الاهالي لترقية الصناعة أو التجارة أو الزراعة ، ولا جناح علينا اذا نحن عددنا ضمن تلك الاعمال ما يبذله الفلاسفة والحكماء من الافكار لتعضيد الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تبذله الحكومة من بث العدل في الربوع، والمحافظة علي الامن، سواء بسن القوانين أو الاعمال الحربية برية كانت أو بحرية

(المنار) : ان بعض ما أورده المؤلف من الاحاديث لاصحة لاصله أو سنده وان كان صحيحا في معناه ووضعه

الكتاب يعرف ذلك من اطلع على الكتاب بامعان ومن رأيي ان هذه المقدمة تجارية أكثر منها علمية

فائدة المؤرخ من الكتاب

إن الذي لا يعرف اللغات الاوربية يستفيد من الكتاب

أولا — ما ترجمه المؤلف من آراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية العربية غثة كانت أو سمينة

ثانيا — ما ترجمه من آراء بعض سياح الاوربيين في شمال جزيرة العرب وجنوبها على قلة في ذلك

ثالثا — بعض الصور والرسوم والخطوط والنقود التي نقلها من رحلات هؤلاء السياح مثل رسم سد مأرب و بعض قصور اليمن وهيكل تدمر و بطرا

رابعا — معرفة كيف كان يختلف اللسان النبطي والتدمري عن العربي الفصيح وهي فوائد تشكر للمؤلف اذاعتها في كتاب مستقل

الامور التي تؤخذ على المؤلف

الامر الاول — تردده أو إنكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتمادا على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط

فمثال الاول — انه عند ما أراد التكلم على تقسيم عرب أواسط الجزيرة وشماليها الى قحطانيين (يمانين)وعدنانيين مال الى انكار هذا التقسيم ورأى رأيا عجيبا لا يخطر على بال مؤرخ ولا قارئ وهو ان هؤلاء العرب كلهم عدنانيون فعنده ان مثل طي وكندة ولخم وجذام ومذحج وهمدان ومازن والأوس والخزرج عدنانيون . ونورد هنا ماقاله في ذلك (صفحة ١٨٢و١٨٣) قال :

«وكل هذه البطون أو القبائل قد رأيت انها ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا أي انهم قحطانية — ذلك ماأجمع عليه العرب ولكن لنا رأيا في هذا الاجماع لا يخلو ذكره من فائدة

وندر ، فلما قرأت تقريظ حضرة الفاضل (المغربي) أحد محرري المؤيد لكتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) وهو آخر ما أخرج للناس بعد من كتب مولفنا المذكور وجدته قد ملأ ما يقرب من صفحة من صفحات المؤيد بعبارات الاطراء والتهويل والاعجاب والاغراب مما لو قبله القارئ لم يشك ان العرب خلقت خلقا جديدا أو ان تاريخ جاهليتها الاولى المقبور في بطون القدم قد نبشه المؤلف من ناووسه ، فرابني قوله ـ والمبالغة تريب ـ ولم أر الامر يخرج عن إحدى خصال ثلاث ، إما أن يكون قرظه ولم يقرأه كعادة اكثر محرري الصحف لضيق وقتهم ، وإما أن يكون قرأه وصانع المؤلف لصداقة بينهما ـ وللصداقة حقوق ـ وإما أن يكون المؤلف قد وفق حقيقة للعثور على الضالة المنشودة والحلقة المفقودة من تاريخ جاهلية العرب ، وما ذلك بعزيز على نشاط الرجل واجتهاده

ولما كنت ممن عني بهذا الموضوع عناية شديدة قرأت الكتاب بالهاف أخذ تناقص بتناقص أوراق الكتاب فاذا به والحق أقول خير مؤلفات الرجل ولا انكر انه أفادني بعض فوائد ثمينة هاجت في نفسي ميلا الى نقده ولا ينقد الا كل ذي قيمة

يقع كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) في ٢٥٠ صفحة كتب في ٣٠ صفحة منها مقدمة طويلة ليست من موضوع الكتاب في شيء وانما ذكر فيها كعادته في كتبه غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه أو تعذره الا على من كان من أهل الجسارة أو الاطلاع الواسع والمعرفة بكثير من اللغات الحية والميتة والبحث والتنقيب في آثار الامم الخالية ثم ذكر شبه فهرس مطول ثم تمهيدا في مصادر تاريخ العرب وهي الكتب العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الأثرية وقد تحامل على العرب فيها ما شاء ان يتحامل مما يظن معه قارئه ابتداء ان أكثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة أو أوربية حديثة لكثرة أسماء الكتب والرحلات التي ذكرها وهي نحو السبعين كتابا غير الموسوعات والمعاجم الكبرى التاريخية والأثرية وغيرها (كما يقول) فاذا هو قرأ الكتاب وجد ان نحو أربعة اخماسه عربي المصدر وان لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم إلا نزرا يسيرا في ذيل

ونحوهم ومنها الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين اسماء ملوك حمير من أمثال هذه فان أكثرها مبدل بأسماء شمالية وانما عمدتنا في ما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

«فلا دليل على قحطانية هذه الامم إلا أقوال النسابين وهي أضعف من ان يعول عليها في هذا الشأن لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن التماسا للفخر بين قوم لا يعرفونهم ولا سيما بعد ان تقربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم » اه

ونقول في دحض هذه الاقوال :

(١) أما عدم الاختلاف في اللغة فان الاختلاف فيها إما أن يكون في الاصول وإما في الفروع أما الاصول فلم يكن بينها خلاف جوهري لأن لغات العرب كلها من اصل واحد كما اعترفت به حضرته وأما الفروع فلم ينكر احد سواه وقوع الاختلاف فيها حتى في لغات القبائل التي لم تخرج من اليمن فالاختلاف في الاعراب والتصريف والقلب والاعلال والابدال مملوء به كتب النحو والصرف والاختلافات في معاني الكلمات المفردة لم تهملها كتب اللغة والادب ولذلك وقائع وحكايات جر الخطأ في التفاهم بسببها الى ازهاق الارواح كما في حكاية قتل مالك بن نويرة وقومه وكلنا يعرف ماهي العجعجة والشنشنة والاستنطاء في لغات اليمانية

ولو كان بعض الاتفاق في اللغات بين القبائل المختلفة يجعلها من اصل واحد لقد كان المحتم على حضرة المؤرخ أن تقول ان قبائل حمير التي لم تخرج من اليمن عدنانية أيضا لاتحادها مع العدنانيين في الاصول واختلافها عنها في بعض الفروع إبان ظهور الاسلام وقد حفظ لنا التاريخ الصحيح وكتب السنة الصحيحة كثيرا من مقالات وفود الحميريين على النبي صلى الله عليه وسلم وهي لا تختلف عن العدنانية الا في معاني بعض المفردات . وانما حدث هذا التقارب في اللهجة واللغة لتقاربهم في البيئة (الوسط) وللمجامع والاسواق التي كانوا يقيمونها وأما أن الضعيف يقتبس لغة القوي وزعمه ان اليمانين كانوا هم الاقوياء الغالبين فذلك على فرض تسليمه

« قد رأيت في ما ذكرناه عن الفروق بين القحطانية والعدنانية ان لكل منهما خصائص في اللغة والاجتماع والعادات والدين واسماء الاعلام . واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية أكثر مما (كذا) على القحطانية من حيث اللغة فاننا لم نر في كلامهم وأقوالهم ما يدل على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير بل لغة العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذي انتقلوا اليه ولكننا نستبعد ذلك لان الغالب في اقتباس لغة الآخرين ان يقع من الضعيف نحو القوي — فلو كان أولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم لانهم كانوا يومئذ ارفع منزلة من بدو الشمال وكان هؤلاء ينظرون الى اليمنية نظرهم الى أهل الدولة ويعدونهم الملوك كما ينظر البدوي الامي الى المتمدنين أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ولا نرى لهذا الحرف ذكرا في اخبارهم ولا أثرا في اطلالهم

« وقد علمت ان الكهلانيين أهل حضارة كما رأيت في ما ذكرناه من حديث سيل العرم وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة في بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها لان السيل لم يخرب الا جزءا صغيرا من اليمن . فلم يكونوا يعدمون مكانا يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران وظلوا في رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

« فما كان أغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام أو العراق والرجوع الى البداوة وهي شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

« واعتبر ذلك في معبوداتهم فانها من معبودات عرب الشمال أو العدنانية ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم عشتار أو ايل أو نحوها

« وهكذا يقال في اسمائهم وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية بل هي مثل اسماء سائر عرب الشمال ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط

وهي من معبودات أهل الجنوب كما تهوّد وتنصر أهل الجنوب واليهودية والنصرانية من أديان أهل الشمال

(٥) واما توافق اسمائهم فذلك إرث من طبيعة الجوار والبيئة وتمازجهم في كل شيء كما يسمي الاقباط الآن انفسهم باسماء عربية وتركية بعد ما زالت سيطرة العرب والترك وكما يسمي الترك أنفسهم باسماء عربية مع انهم هم الغالبون للعرب وكما يسمي السوريون أنفسهم بأسماء انجليزية وفرنسية على ان هذا المؤرخ الذي أنكر في غير موضع من كتابه وجود اسماء عدنانية بين اسماء الحميريين نقض كلامه في صفحة (١٥٩) حيث نقل عن غلازر الالماني احد الاثريين اللذين وجدهما في اطلال السد وهذا كتبه ابرهة قبيل ظهور الاسلام وفيه يذكر الاقيال الذين قهرهم أو ولاهم عنه مثل يزيد بن كبش ومرة وثمامة وحنش ومرثد وكل هذه اسماء عدنانية كما ان معديكرب الزبيدي إسمه حميري وهو من القبائل التي ينكر المؤرخ حميريتها

وأما الادلة الوجودية على ان القبائل المذكورة قحطانية فأكثر من ان نأتي بها جميعها في هذه المقالة وهي بالغة بصراحتها الى أفق البديهيات

فمنها اعتراف جميع هذه القبائل بأنها يمانية حتى بعد ان ظهرت مضر عليهم في وقائع عديدة وبعد ان خضعوا للمضريين بعد الاسلام وتعصب المضرية واليمانية في الفتن التي وقعت في الصدر الاول غصت به كتب التاريخ والادب

ومنها اجماع النسابين والمؤرخين باعتراف حضرته على ان القبائل المذكورة قحطانية

ومنها ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مما يشير الى هذه التفرقة. ولو أردنا ذكر الشواهد التاريخية من الوقائع والمفاخرات وقصائد الشعر من الحماسة والمدح والهجاء وجميع الاحاديث النبوية لاثبات ان هذه القبائل قحطانية لوضعنا في ذلك كتابا يزيد عن كتاب جرجي افندي زيدان اضعافا (لها بقية)

لا ينهض حجة على اثبات دعواه لما كانت عليه العرب في القرون القريبة من ظهور الاسلام من التقارب في جميع الاحوال حتى قبائل حمير نفسها بعد غلبة الحبشة والفرس عليها

(٢) واما انه لم يوجد أثر للحرف المسند من جهات الشمال فذلك قد كذبه بنفسه في موضع آخر عند تكلمه على عرب الصفا حيث أتى بهذا العنوان لامم سبئية في الشمال وذكر تحت هذا العنوان كلاما كثيراً عن ان أمم حمير انتقلت إلى الشمال ووجد لها أنواع من الخط المسند كالقلم الصفوي والثمودي واللحياني وقال ان الباحثين لا يزالون في أول البحث

(٣) أما أنه لا حامل للقحطانيين على الهجرة من بلادهم وجناتهم وقصورهم الى الصحارى المجدبة بلا سبب عظيم وان سيل العرم لا يكفي لتفرقهم ايادي سبا فان الاسباب الحقيقية لهذه الهجرة لا تزال مجهولة كأسباب هجرة أكثر الامم القديمة وانما كان من أهمها حادثة سيل العرم مضافة الى منازعات وحروب أهلية أو مجاعات أو ان الارض قد ضاقت عليهم فالتمسوا غيرها من بلاد الله ولم تكن وجهتهم في رحلتهم هذه القفار بل كانت ريف العراق ومشارف الشام ولا تنكر حضرة المؤرخ عظم دولتهم في الحيرة والانبار وفي سورية وفلسطين فلقد احتلوا في الاولى جميع الاراضي التي بين دجلة والفرات حتى سميت العراق العربي وفي الثانية أكثر بلاد فلسطين وسورية وحلب ولا شك ان هذه كانت اخصب من بلادهم وبقية اليمانين الذين سكنوا البدو منهم فانما تراجعوا اليه بعد منافسات مع بني عمهم في الشمال مع بعد عهدهم باليمن وخصبه واما اكتفاء المؤرخين بذكر حادثة سيل العرم فذلك وهم سرى اليهم من تعقيب ذكر قصة السيل في القرآن الكريم بقوله تعالى (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) فان الظاهر من الآية ان التمزيق سببه ظلم أنفسهم والظلم يأتي بأسباب كثيرة اعتدائية لا بسبب خارجي فجائي لا دخل لهم فيه مثل انفجار السد

(٤) واما دعوى اتحادهم في المعبودات فلا نسلم انها كلها كانت عدنانية بل كانت خليطا من كل الاديان فقد عبد كثير من العدنانيين الشمس والقمر والكواكب

فكل آية من آيات الانبياء السابقين التي نسيها الناس أو لم يظهرها الله تعالى مرة ثانية على يد النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى بمثلها في الاقناع والهداية أو بخير منها في ذلك فأظهر تعالى على يده معجزات كثيرة وأنزل عليه آيات الكتاب العزيز فهو المعجزة العظمى الباقية وآية الآيات الكبرى الخالدة التي رآها الناس في كل زمان ومكان ويقدرها العقلاء قدرها فانها لا تشتبه بسحر ولا بشعوذة أوغش أو تدليس فهي خير من جميع المعجزات التي سبقتها وأعم فائدة وأتم دليلا وأكثر مناسبة لحال البشر وقد ظهر ذلك الآن أتم الظهور فترى العلماء اليوم في أوربا وكثير من البلاد المتمدنة صاروا ينفرون من ذكر المعجزات الحسية ويودون لو أوتي أنبياؤهم معجزات غيرها علمية عقلية أدبية أي كمعجزة القرآن الشريف . فلو لم يؤت صلى الله عليه وسلم سواه لكفى ولذلك قال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فما بالك وقد أعطي معجزات كثيرات غيره كما تواترت به الاخبار

واعلم أن نظم الآية التي نحن بصدد تفسيرها لا يقبل أي معنى آخر سوى ما اخترناه فيها ولذلك ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فلو كان المراد آيات الاحكام كما يقولون لقال : ألم تعلم أن الله عليم حكيم ، فانه أتم مناسبة وأشد ملاءمة لما يقولون ولما قال بعدها (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) فقد سأل بنو اسرائيل موسى من قبل مقترحين آيات غير ما اراهم عنادا وكفرا (فقالوا أرنا الله جهرة) . فاذا كان تفسيرهم صحيحا فما مناسبة هذا الكلام هنا وما معناه ؟ ! وإذا كان المراد آيات الاحكام لا المعجزات فهل الله تعالى أتى بدل الآيات المنسوخة بآيات خير منها ؟ إن كان ذلك صحيحا فكيف نسخ كثير من أحكام القرآن بالسنة على قول بعضهم ؟ مثلا قالوا إن آية الوصية للوالدين والاقربين قد نسخت بحديث « ألا لا وصية لوارث » فلم لم يأت بدلها في القرآن ؟ وأين البدل

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة الثالثة) — في بيان مااستشكله الاستاذ الشيخ اليافعي في تفسيرنا للآيات التي يستدلون بها على النسخ في القرآن — ان استدلالهم على النسخ بقوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)قد فنده الاستاذالامام رحمه الله تعالى في تفسيره كمانقلنا ملخصه عنه فيمقالة الناسخ والمنسوخ وقلنا ان المراد بالآية هنا هي العلامة والدليل على النبوة كالمعجزة ونحوها ومعنى نسخها ترك العمل بها في التأييد وعدم إظهارها مرة أخرى لتصديق النبي وذلك على حدقوله تعالى في آيةأخرى في هذا المعنى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاوذرية وما كان لرسول أن يأتي بآيةالا باذن الله لكل أجل كتاب)أي لكل زمن حال مكتوب عليهم ومقدر لهم لايناسبهم غيره (يمحو الله مايشاء) من الآيات السابقة وغيرها فلا يعيدها مرة أخرى للامم اللاحقة لعدم مناسبتها لحالهم فهو كقوله هناك (ماننسخ)فالمجردالنسخ في الآيتين بمعنى واحد (ويثبت)مايشاء مما يرى الحكمة في إبقائه أو إعادته(وعنده أم الكتاب) أي العلم التام بكل حال ومايناسبه : فالسياق في هاتين الآيتين يدل على ماقلناه فيهما وهما مفسرتان بعضهما لبعض

يقول الاستاذ الفاضل : لوكان تفسيرنا لهذه الآية صحيحا لكان التقديرفيها : ما ننسخ من مثل آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ونقول نعم فليكن كذلك فهو كقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) فان تقديره : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي تقترحونها إلا أن كذب بمثلها الاولون وقوله تعالى (نأت بخير منها أومثلها) فانما المثلية فيقوةالحجة والاقناع لا في كنهها وماهيتها فأي عيب يراهالاستاذ في هذا المعنى وكيف يفسر هذه الآيات وآية (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الخ الآية التي سبق ذكرها ؟ ؟

*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

كثيرة أمثال هذه التكذيبات اليهودية أو النصرانية واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب فانهم جميعا كانوا متضامنين ومتحدين بعضهم مع بعض على بغض النبي وتكذيبه وعرقلة مساعيه فهم - وان اختلفت أديانهم - أمة واحدة ويد واحدة على رسول الله . فمن أمثلة هذا التضامن والاتحاد في التكذيب قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) ولما كان اليهود هم الموعزين الى المشركين بذلك عنادا لرسول الله وحقدا عليه ومكابرة له قال تعالى له (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) الآية وهي واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب للسبب الذي ذكرناه وهو أنهم أمة واحدة ومتحدون على بغض الرسول وتكذيبه وتلقين بعضهم بعضا صنوفا من الشبهات والتشكيكات غير مبالين بمخالفتها لمعتقداتهم فلذا صح أن ينسب ما يقوله بعضهم لهم جميعا لاتباعهم له وتعويلهم عليه في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك في جميع اللغات المعروفة ينسب عمل بعض أفراد الأمة إلى الامة جميعها خصوصا إذا رضيت به وأقرته وان اختلفوا عقيدة فما بالك إذا كانوا جميعا يأتون الشيء و يعملونه

ومن أمثلة ذلك أيضا قول المشركين (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) مع أنهم لا يؤمنون بموسى ولا بما جاء به وهو يدل على أنهم كانوا يقلدون اليهود تقليدا أعمى و يطيعونهم في جميع ما يوعزون به إليهم وإن نافى معتقداتهم كما قلنا إرضاء لهم واستجلابا لودهم ومعاونتهم لهم على الرسول . فكثير من مثل هذه الاقوال كان صادرا عن اليهود ثم تبعهم فيه المشركون وصاروا يرددونه عنهم فلذا اتبعوا اليهود في تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إن القرآن نسخ بعض شرائع التوراة كالسبت وتحريم بعض اللحوم . ولذلك جاءت آية (وإذا بدلنا آية مكان آية) في سياق الكلام مع المشركين مع أن القول صدر أولا من أهل الكتاب وقلدهم فيه المشركون تقليدا أعمى كما قلدوهم في غيره مما سبق بيانه وجاءت به الآيات في سياق الكلام معهم

هذا وإن الاستاذ الفاضل قد استنكر جعل قوله تعالى (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) وصفا لليهود وفاته أن الله تعالى قد وصفهم

للآيات التي نسخ لفظها وحكمها معا كقوله : عشر رضعات معلومات يحرمن ، الذي نسخ على زعمهم بقوله (خمس رضعات معلومات) ثم نسخ لفظ هذا الاخير ولم يأت بدله ولا يزال حكمه باقيا كما في مذهب الشافعي وكذلك لم يأت بدل للفظ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة وغير ذلك كثير ! !

أما آية مناجاة الرسول التي فسرناها في مقالاتنا السابقة فنزيد على تفسيرنا لها أن قوله تعالى فيها (فان لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة) الخ معناه إن لم تفعلوا ماندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم فلم يعاملكم كما كان يعامل الامم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما اوجبه عليكم فلذا ندبكم إلى هذا الامر ولم يجعله عليكم فرضا كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة فأقيموا الصلاة إلخ فقوله (وتاب الله عليكم) قد ورد هنا بمعنى الرجوع الى التخفيف والتسهيل على هذه الامة والعدول عن معاملتها كسابقيها لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب . وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة المزمل وهي قوله تعالى(علم أن لن تحصوه فتاب عليكم)أي رجع إليكم بالتخفيف ورفع عنكم مايشق عليكم وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب إذ لا ذنب هنا صدر منهم

قال الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي منتقدا على تفسيرنا لآية (واذا بدلنا آية مكان آية) أن السياق لا يدل على أن هذا القول صدر من أهل الكتاب كما قلنا فانه لم يتقدم لهم ذكر في السورة . ونقول ان صدور هذا الكلام من أهل الكتاب لا ينافي أن غيرهم من العرب شاركهم في ترديده والموافقة عليه عنادا للنبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبا له فلذلك وردت هذه الآية في سياق الكلام عن مشركي العرب فانهم وافقوا أهل الكتاب منهم في دعاويهم الباطلة وتعاونوا بهم على تكذيب النبي عليه السلام ولذلك كانوا يقولون تقليدا لهم في تكذيب القرآن (أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون)فانهم لا يؤمنون برسل الاولين ولا يعرفونهم ولا يصدقون بآياتهم ولكنهم يرددون ما يلقيه لهم أهل الكتاب وإن خالف معتقداتهم مادام فيه تكذيب للنبي وإغاظة له ولذلك ترى في القرآن آيات

ثالثا — إثبات عدالة رجال الاسانيد كثيرا ما تكون مبنية على شهادة شاهد أو رواية واحد فكأنهم يثبتون صحة الروايات بعدالة الرجال ثم يثبتون عدالة الرجال بالروايات ولا يخفى على أحد فساد ذلك فان ما يقال في رجال الأسانيد يقال مثله جرحا وتعديلا فيمن يشهد لهم ويوثقهم وربما أدانا ذلك إلى التسلسل أو الدور في البرهان

رابعا — أكثر الاحاديث والروايات مقتضبة فلا يعرف المقام الذي قيلت فيه ولا مناسباتها ومن المعلوم أن الاقوال إذا لم تعرف الظروف التي قيلت فيها قد تخرج عن المراد منها خروجا كليا أو جزئيا

خامسا — من المشاهد في جميع الاجيال وفي جميع الامم أن حفظ الاحاديث إذا كانت طويلة أو كثيرة بدون تحريف في ألفاظها أو معانيها ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان عسير جدا على الناس إلا من شذ وقليل هو وخصوصا إذا ألقيت مرة واحدة . ولذلك جزم بعضهم بأن من ادعى نقل الشيء كما هو بحروفه في مثل هذه الاحوال فهو مغتر كذاب فالنقل في أغلب هذه الاحوال هو تقريبي ولا يخفى ما ينشأ من مثل هذا النقل من الافتراآت والاختلافات والاكاذيب فاذا امتاز بعض الناس بهذه المقدرة فليس جميع الرواة ممن امتازوا بهذه المزية الشاذة

سادسا — قبل زمن تدوين الاحاديث كان جل رواتها إن لم نقل كلهم لا يكتبون الحديث ولا يعتمدون فيها الا على ذاكرتهم وقد سبق لنا كتابات طويلة في هذا الموضوع في المنار ومجلة الحياة وجريدة الدستور وقد أيدنا فيها الاستاذ الكبير والعلامة المحقق صاحب المنار الاغر . ومن اعتمد على ذاكرته فقط لانبرئه من الخطأ والنسيان في جميع الاحوال مهما كان

هذا شيء مما يقال في روايات الآحاد فهي عندنا لا تفيد اليقين لطروء مثل هذه الاحتمالات عليها وبذلك قال أيضا الجمهور وان أراد أن ينكر ذلك الاستاذ اليافعي زاعما أنها تفيد اليقين

واذا كانت هذه الاحتمالات مما يرد على أحاديث المسلمين ورواياتهم فما يرد

بمثله في آيات أخرى كثيرة كقوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة — إلى قوله — وما أولئك بالمؤمنين) وقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

(الكلمة الرابعة) — بيان أسباب أن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين

أولا — قد يكون الراوي كذوبا لكنه منافق ومتظاهر بالصلاح والتقوى لسبب ما من الاسباب التي تحمل الناس على الكذب وهي كثيرة معروفة فيغتر به بعض الناس لعدم معرفتهم عنه شيئا يجرحه لشدة احتراسه وتستره . وقد يكون بعض المحدثين مؤمنا صادقا مخلصا صالحا لكنه ينخدع لظاهر هؤلاء المنافقين فيأخذ الحديث عنهم ويصدقهم وهم كاذبون اذ كلما اشتد صلاح المرء وخوفه من الله ظن أن أمثاله كثيرون وكثر انخداعه بأعمال المنافقين وظواهرهم وتجنب إساءة الظن والتجسس لشدة ورعه وتقواه أو بساطته وسذاجته في بعض الاحوال . وكثرة الكذابين وكثرة ما يضعونه من الاحاديث يشوش على الناقدين الباحثين عملهم ويوقعهم في الارتباك والخطأ كثيرا فيقبلون أحيانا ماليس صحيحا ويرفضون ما هو صحيح . ولا يلزم من كون المرء غير صالح أو عرف عنه بعض الكذب أن جميع ما يقوله كذب وقد يكون منفردا بحديث فلا يقبل منه لذلك مع أنه قد يكون صادقا فيه . وقد يكون المرء صالحا صادقا ولكنه يضطر في بعض الاحيان الى أن يكذب ولو واحدة فلا يسلم ما يؤخذ عنه من ان يكون فيه بعض الكذب او المبالغة

ثانيا — قد يكون بعض الرواة من الصالحين الصادقين المخلصين ولكنه يخطىء المراد ولا يفهم الحقيقة فيحدث كما فهم معتقدا انه صحيح . والتحديث بالمعنى كان عندهم جائزا . وقد ينسى شيئا مما سمعه ويقع في الغلط بسبب ذلك بدون أن يشعر به . ولذلك قال عمران بن حصين رضي الله عنه « والله إن كنت لأرى أني لو شئت لحدثت عن رسول الله يومين متتابعين ولكن بطأني عن ذلك أن رجالا من اصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم » كما رواه ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث

(٢) حرموا أكل الحمر الاهلية التي كانت تأكلها العرب كثيرا لما رووه من أن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها مع أن القرآن الشريف يقول (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية . ويقول (إنما حرم عليكم الميتة والدم) الآية ونحوها كثير

(٣) قالوا بحرمة استعمال الذهب والفضة والحرير للاحاديث التي رووها والقرآن يقول (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فهي للمؤمنين يتمتعون بها في الدنيا وستخلص لهم وحدهم يوم القيامة فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

(٤) حرموا أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها للحديث وخالفوا قوله تعالى (وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) بعد أن ذكر سائر المحرمات وليس من بينهن المرأة على عمتها أو خالتها

(٥) أوجبوا القتل مطلقا على من ارتد عن الاسلام للحديث ، والقرآن يقول (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي - فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

فهذه بعض أمثلة مما عارضوا فيه القطعي بالظني وهو مما نكرهه وندمه وقد ذمه الله تعالى فى كتابه العزيز كما أقر به الاستاذ المناظر وإذا تتبعنا مذاهبهم وجدنا أمثلة غير ذلك كثيرة فهل يعقل أن الله يبيح للمسلمين ما كان يذم لاجله غيرهم في كتابه ؟!!

أنا لا أقول إن جميع هذه الاحاديث يجب ان تكون موضوعة ولكن لا يبعد أن بعضها كان كذلك والبعض الآخر يغلب الظن أن له أصلا صحيحا وأنه كان شريعة خاصة بأحوال خاصة وظروف مخصوصة في مبدأ الاسلام ولا تخفى حكمة ذلك على الناقد البصير إذا تأملها . وما جاء به القرآن هو الشرع العام لكل زمان ومكان ولذلك لم تأت أمثال هذه المسائل الخاصة فيه ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن تدوينها كي لا تكون خالدة بينهم كالقرآن الشريف ولتزول من بينهم بزوال عللها وأسبابها كما سنبينه ان شاء الله تعالى في رسالة لنا في هذه المسائل سنطبعها على

على أحاديث غيرهم أشد وأقوى وأكثر فانه لم يعرف عن أي أمة مثل ما عرف عن الامة الاسلامية من العناية والتمحيص في الروايات والنقد والبحث في رجال الحديث ولم يكن يخطر على بال غيرهم شيء من مثل ذلك

ولا خوف على الدين الاسلامي المتين من هـذه المطاعن التي أوردناها على روايات الآحاد فان حجته ناهضة بالمتواتر فيه والمجمع عليه فليهدأ المسلمون بالا

(الكلمة الخامسة) — في ذكر شيء مما خالفوا فيه القرآن لاجل الحديث

قال الله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) . في هذه الآية - وأمثالها في القرآن كثير - يذم الله تعالى اتباع الظن والقول في دين الله بغير علم أي بغير ما يفيد اليقين وهي واردة في سياق الكلام مع من حرموا أشياء ليس عندهم دليل على أن الله حرمها عليهم . وقال أيضا قبل ذلك بقليل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون — الى قوله — وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ومنه ترى أن العمل بالظن في شريعة الله غير جائز اللهم إلا اذا اضطررنا إليه كما في بعض الاحكام القضائية بناء على قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات المؤيدة بالكتاب والسنة وإلا فانه يحرم على الانسان أن يحل شيئا أو يحرمه لدليل ظني فما بالك بمن يعارض القطعي بالظني ؟ لا شك أنه يكون مرتكبا لاثم كبير . وقد أقر الاستاذ الفضل الشيخ اليافعي بأن الظن إنما يذم إذا عارضنا به الامر القطعي . يقول ذلك وقد غاب عنه أنه هو ومن على مذهبه كثيرا ما عارضوا نصوص القرآن الشريف الصريحة وخالفوها لأجل أحاديث الآحاد وهي لا شك ظنية كما عليه الجمهور . وإليك بعض الامثلة على ذلك :—

(١) خالفوا قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) الآيات لحديث « ألا لا وصية لوارث »

مناظرة عالمين (*)

﴿ في مجلس المأمون ﴾

إذا أردنا من القرآن كلام الله كان قديما لانه يكون اذ ذاك عبارة عن صفة من صفاته تعالى وهي قديمة ، وان أريد بالقرآن ما عدا الصفة القديمة من صوت مسموع أو مصحف مصنوع كان حادثا

هذه المسئلة على بساطتها ووضوحها كان لها في تاريخ الاسلام الديني اسوأ الاثر وآل الامر فيها الى أن يسجن مثل الامام أحمد بن حنبل ويقيد ويعذب . وكان سواد الامة ومعظم علمائها من الفريق القائل بان القرآن قديم . اما الفريق القائل بالحدوث — ويسمى (المعتزلة) — فاتفق له من بعض خلفاء بني العباس من يأخذ بقوله ويحمل الناس عليه ، ومن ثمه كانت صولته أشد ، وعامل جبروته انفذ ، وكان من هؤلاء الخلفاء الذين أيدوا القول بالحدوث المأمون بن الرشيد ، فكان هذا الخليفة على ما فيه من علم صحيح وعقل رجيح يشدد على الناس وينكل بهم إن قالوا بما يخالف رأيه ، فكان الناس لعهده يستترون في بيوتهم ، وينقطعون عن شهود الجمعة والجماعة ، ويتسللون من بلد الى بلاد خشية الفتنة والارهاق ، وقد منع الفقهاء والمحدثون من القعود للناس في المسجد الجامع الواقع في الجانب الشرقي من الرصافة وفي غيره من المواضع ، الا بشراً المريسي ومحمد بن الجهم ومن رأى رأيهما من علماء المعتزلة القائلين بحدوث القرآن ، وكل من اظهر مخالفتهم قيد اليهم ، وعرض قوله عليهم ، فان أصر قتل سرا أو جهرا أو نفي من الارض . وكان كثيرون من العلماء يوافقونهم في الظاهر خوفا على أنفسهم وفي الباطن يبرأون الى الله مما أعلنوه .

شاع أمر هذه المحنة في بغداد وجعل أهل الامصار الاسلامية يتداولون خبرها

(*) لصديقنا عبد القادر افندي المغربي الطرابلسي نزيل مصر

حدة لطولها . فالمسلمون اتبعوا كثيرا من مثل هذه الاحاديث وخالفوا لاجلها القرآن الشريف مع أن ذلك مذموم فيه . وق صحيحا منها ولم يراعوا أسبابها ولا الظروف التي قيلت فيها مع أ الاحاديث النبوية يحتاج إليها أكثر من الاحتياج إلى معرفة ا الشريف ولذا لم يحسن المسلمون الجمع بين هذه الاحاديث و بـ العزيز. وهذه الاشياء هي مما ننكره عليهم وخصوصا لأن من الا ما يوجب الطعن في الكتاب المتواتر نفسه كما أشرنا إليه في الـ تغالبهم في اعتبار الاحاديث لما وقعوا في كثير مما وقعوا فيه من الاختلا والشبهات وغيرها حتى جعلوا اليسر عسرا والسهل لغزا

وإني لاعجب من أهل الحديث هل إذا سمعوا أي قول الله يلزمون أنفسهم بالبحث في رجال سنده وتواريخهم أم عليهم ا إلى الرسول بدون بحث ولا تنقيب . أما الامر الثاني فهم لا يجـ وأما الامر الاول فكأنه يجب على كل مسلم بمجرد ماسمع أقوالا الله أن يفني حياته في معرفة أحوال رجالها والوقوف على أمورهم التقليد في الاسلام منهي عنه وجب على كل فرد أن يبحث في أحو ويمحص كل ماوصله في الاحاديث وما يصله بنفسه والا بقي دي في الدين أكبر من هذا وخصوصا كلما طال العهد على رجال الا وزمنهم عنا . والله يقول (ماجعل عليكم في الدين من حرج)

الرئيس — فمظلوم انت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس لاصحابه — مروا بهما سحبا الى منزلي .

فاحتملهما الشرطة، وجعلوا يعدون بهما سحبا شديدا ، وايديهما في أيديهم يمنة ويسرة ، حتى صاروا بهما الى منزل الرئيس على هذه الحالة الغايظة ، فادخلا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسي من حديد وشواره عليه (١)

الرئيس — من أين أنت ؟

عبد العزيز — من أهل مكة

الرئيس — ماحملك على ماصنعت بنفسك ؟

عبد العزيز — طلبت القربة الى الله ورجاء الزلفى لديه

الرئيس — هلا فعلت ذلك سرا من غير نداء ولا اظهار المخالفة لامير المؤمنين !! ولكن أردت الشهرة والرياء والسؤدد لتأخذ أموال الناس

عبد العزيز — ماأردت الا الوصول الى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لاغير ذلك .

الرئيس — أو تفعل ذلك ؟

عبد العزيز — نعم ولذلك قصدت ، و بلغت بنفسي ماترى، وتغريري بنفسي وسلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان (٢)

الرئيس — إن كنت انما جعلت هذا سببا لغيره من المطالب اذا وصلت الى امير المؤمنين فقد حل دمك .

عبد العزيز — إن تكلمت في شيء غير هذا، وجعلت هذا ذريعة اليه، فدمي حلال

فوثب الرئيس وقال لاعوانه أخرجوه بين يدي، فاخرجوني أنا وابني بين يديه وهو راكب على فرسه، وجعلوا يعدون بنا على وجوهنا، وأيدينا في أيديهم ، حتى وصلنا

---

(١) الشوار : اللباس والزينة وكأنه يريد به هنا الملابس ذات الطراز الخاصة برؤساء الشرطة والجند في ذلك العصر (٢) فليعتبر علماء هذا الزمان

ويتعوذون بالله من شرها : قال عبد العزيز بن يحيى الكناني (الذي نلخص هذه المقالة من رسالة له ألفها فيما حدث له) اتصل بي وأنا بمكة ما ابتلي به الناس في بغداد وكيف استطال عليهم بشر المريسي ولبّس على أمير المؤمنين وعامة أوليائه، فأطال همي هذا الخبر، وأطار نومي، فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي واسأله سلامتي حتى قدمت بغداد فشاهدت من غلظ الامر وامتداده أضعاف ما كان يصل إليّ .

ثم إن عبد العزيز جعل بعد وصوله الى بغداد يتبهل الى الله أن يسدده، ويثبت عزيمته، ويرشده الى طريقة يتوصل بها الى قهر تلك الفئة الجائرة وكف عاديتها، فبداله ان يخفي أمره عن الناس جميعا خشية أن يقتل قبل ان يسمع كلامه، ثم ارتأى أخيرا أن يقف بعد صلاة الجمعة في جامع الرصافة ويرفع صوته بمخالفة أهل البدعة وتسفيه آرائهم وطلب محاجتهم، فإن إشهاره نفسه على هذه الصورة يحول دون اغتياله قبل مناظرته، واستماع قوله، ولم يكد ينتهي الامام من صلاة الجمعة في ذلك الجامع حتى سمع الناس من الصف الاول حيال القبلة والمنبر صوت رجل مكيّ الزي واقف على قدميه ينادي بأعلى صوته ابنه الصغير الذي اقامه قبالته عند الاسطوانة الأخرى :

الاب — ماتقول في القرآن يابني ؟

الابن — كلام الله منزل غير مخلوق ياأبتي

فارتاع الناس لهذه المحاورة وهربوا على وجوههم خارجين من المسجد، وأسرعت الشرطة فاحتملوا عبد العزيز وابنه الى رئيسهم « رئيس البوليس اذ ذاك عمرو بن مسعدة » وكان جاء ليصلي الجمعة في جامع الرصافة

الرئيس — أمجنون أنت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — موسوس ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — معتوه ؟

عبد العزيز — لا والحمد لله، وإني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة

وكان قد صدر الامر إلى بني هاشم أن يركبوا ، وإلى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا ، والقواد والاولياء (١) فركب القوم بالسلاح لإحداث الهيبة في نفس عبد العزيز وسائر الناس الذين يوشك ان يفسدهم ، قال عبد العزيز ثم أذن لي فلم أزل أنقل من دهليز الى دهليز حتى صرت الى الحاجب صاحب الستر الذي على باب الصحن (٢)

الحاجب — إن كنت تحتاج إلى تجديد الوضوء ؟

عبد العزيز — مالي إلى ذلك حاجة

الحاجب — إركع ركعتين

عبد العزيز — ركع أربع ركعات ودعا الله

الحاجب — استخر الله وقم فادخل

فأزاح الستر وأخذ الرجال (التشريفاتية) بيدي وعضدي وجعل اقوام أيديهم في ظهري وعلى رقبتي وطفقوا يعدون بي . ونظرني المأمون وأنا أسمع صوتا « خلوا عنه » وكثر الضجيج من الحجاب والقواد بمثل ذلك ، فخلوا عني ، وقد كاد يتغير عقلي من شدة الجزع ، وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح ، وهو ملء الصحن وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين ، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها

قال عبد العزيز : فلما أوصلني الحجاب الى باب الديوان وقفت فسمعت المأمون يقول ادخلوه قربوه ، فلما دخلت من باب الديوان وقعت عيني عليه ، وقبل ذلك لم أنتبه اليه لما كان على باب الديوان من الحجاب والقواد ، فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن ، وأدنو ، ويكرر ذلك وأنا أدنو خطوة خطوة ، حتى صرت إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ويسمع كلامهم ، والحاجب معي يقدمني ، فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون اجلس فجلست

---

(١) يريد بهم الموالين للخلافة لا أهل الباطن كما هو اصطلاح أهل العصور المتأخرة (٢) أي صحن دار الخلافة وهذا الحاجب بمثابة سر تشريفاتي اليوم

الى دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد ٠ فدخل الرئيس على المأمون ، و بقيت أنا وابني في الدهليز واقفين على أرجلنا ، فأطال ثم خرج الى حجرة له وأمر بي :

الرئيس — اخبرت أمير المؤمنين بخبرك وما فعلت وما سألته من الجمع بينك و بين مخالفيك للمناظرة بين يديه ، وقد أمر أطال الله بقاءه وأعلى أمره باجابتك الى ما سألت ، وأمر بجمع المناظرين على هذه المقالة الى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الادنى ، ويحضر هو بنفسه معهم ليناظروا بين يديه ، ويكون هو الحكم بينكم

عبد العزيز — أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين وأيد دولته

الرئيس — أعطنا كفيلا بنفسك حتي تحضر معهم يوم الاثنين وليس بنا حاجة الى حبسك

عبد العزيز — أدام الله عزك ، انا رجل غريب ، ولست أعرف في هذا البلد أحدا ، ولا يعرفني من أهلها أحد ، فمن أين لي من يكفل بي ، خاصة مع اظهاري مقالتي ، لو كان الخلق يعرفونني حق معرفتي لتبرأوا مني وهربوا من قربي وأنكروني ٠

الرئيس — نوكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم ، وتنصرف فتصلح من شأنك ، وتتفكر في أمرك ، فلعلك ترجع عن غيك ، وتتوب من فعلك ، فيصفح أمير المؤمنين عنك

عبد العزيز — ذلك اليك أعزك الله فافعل ما رأيت ٠ ولما جاءت غداة يوم الاثنين حمل عبد العزيز مكرما الى دار الخلافة ، وأدخل الى حجرة رئيس الشرطة فسأله هذا عما اذا كان لم يزل مقيما على رأيه ثم نصحه وحذره وخامة عاقبة مخالفة أمير المؤمنين فيما اذا ظهر عليه مناظروه ، وانه ليس حينئذ إلا السيف ، وانه إن ندم ورجع عن مقالته سأل أمير المؤمنين الصفح عنه ، وضمن له جائزة وقضاء ماله من حاجة ، فأجابه عبد العزيز بأنه ما خرج من بلده الا رجاء إقامة الحق ٠

الرئيس — وقد وقف على رجليه ـ قد حرصت على خلاصك جهدي وانت حريص على سفك دمك جهدك

عبد العزيز ـ معونة الله أعظم وألطف من أن ينساني ، وعدل أمير المؤمنين أوسع من أن يضيق عني

عبد العزيز — ياأمير المؤمنين قلَّ من بها من أهلها الا وأنا أعرفه . الا رجل ضوى (لجأ) ، اليها أو من جاور بها ، فاني لا أعرفه .

المأمون — اتعرف فلانا وفلانا (وجعل يعدد جماعة من بني هاشم)

عبد العزيز — نعم ياأمير المؤمنين أعرفهم

المأمون — وأولادهم وانسابهم . (وذكر شيئا من ذلك)

عبد العزيز — نعم . (وأجابه عما سأل)

قال عبد العزيز : وانما يريد أمير المؤمنين ايناسي ، و بسطي للكلام وتسكين روعتي وجزعي، فذهب عني ما كنت فيه، وما لحقني من الجزع ، وجاءت المعونة من الله عز وجل ، فقوي بها ظهري ، واشتد قلبي ، واجتمع فهمي، ثم اقبل المأمون عليَّ وقال ياعبد العزيز انه قد اتصل بي ما كان منك ، وقيامك في المسجد الجامع ، وقولك ان القرآن كلام الله الخ . بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق، وما كان من مسئلتك بذلك من الجمع بينك و بين مخالفيك على القول لتناظرهم في مجلسي ، والاستماع منك ومنهم ، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي، وأكون أنا الحاكم بينكم فان تبين الحجة لك عليهم والحق معك اتبعناك، وان تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك، وان استقلت اقلناك.

ثم اقبل على بشر المريسي وقال : يابشر قم الى عبد العزيز فناظره وانصفه ، فوثب بشر من موضعه كالاسد يثب الى الفريسة فرحاً ، فانحط عليَّ فوضع ركبتيه وفخذه الايسر على فخذي الايمن فكاد أن يحطمه، وغمز عليَّ بقوته كلها، فقلت مهلاً فان أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وانما أمرك بمناظرتي وانصافي ، فصاح به المأمون وقال تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى باعده مني .

ثم اقبل عليَّ المأمون وقال: ياعبد العزيز ناظره على ماتريد، واحتج عليه ، ويحتج عليك، وتسأله ويسألك ، وتناصفا في كلامكما ، وتحفظا الفاظكما ، فاني مستمع عليكما فتحفظ ألفاظكما . فقلت السمع والطاعة لامير المؤمنين، ولكن عبد العزيز لم يرد ان يشرع في مناظرة خصمه مالم ينتقم من ذلك البغيض الذي عابه لامير المؤمنين بقبح وجهه، وتشويه خلقه، وملخص ماقال في هذا الصدد: ان يوسف صلوات الله عليه الذي هو احسن البشر وجها ، كان حسنه و بالا عليه ، فظلم وسجن رجاء تغير حلية وجهه

وسمعت رجلا من جلسائه يقول — وقد دخلت الديوان — يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيت خلقا لله أقبح وجهامنه، فسمعت قوله هذا وفهمته، وما رأيت شخصه، على ما كنت فيه من الجزع والرعدة .

قال عبد العزيز :وتبين لامير المؤمنين ماأنا فيه من الجزع ، وما قد نزل بي من الخوف ، فجعل ينظرني وانا ارتعدخوفا وانتفض،واحب ان يؤنسني ، ويسكن روعتي فطفق يكثر كلام جلسائه ، ويكلم عمرو بن مسعدة (رئيس الشرطة) ويتكلم باشياء كثيرة ممالايحتاج اليها ، يريد بذلك كله إيناسي ، وجعل يطيل النظر الى الايوان ويدير نظره فيه ، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ . فقال ياعمرو ماترى هذا النقش في الجص قد انتفخ وسيقع فبادر في قلعه وعمله .فقال عمرو قطع الله يد صانعه فانه قد استحق العقوبة على عمله هذا .

ثم أقبل المأمون على عبد العزيز يسائله :

المأمون — ماالاسم ؟

عبد العزيز — عبدالعزيز

المأمون — ابن من ؟

عبد العزيز — ابن يحيى بن مسلم

المأمون — ابن من ؟ (يسأله عن جده)

عبد العزيز — ابن ميمون الكناني

المأمون — أوأنت من كنانة ؟

عبد العزيز — نعم ياأمير المؤمنين

ثم سكت المأمون هنيهة لايتكلم

المأمون — من أين الرجل ؟

عبد العزيز — من الحجاز

المأمون — ومن أي الحجاز ؟

عبد العزيز — من مكة

المأمون — ومن تعرف من أهل مكة ؟

قال عبد العزيز : وجعل بشر يصيح ويقول لو تركته يا أمير المؤمنين يتكلم لجاء بألف شيء فقلت يا أمير المؤمنين قد ذهبت بالحجج ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج بالباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من الله حتى يظهر دينه ويقمع الباطل بالحق فيزهقه، فصاح المأمون ببشر أقبل على صاحبك ودع هذا الضجيج وكان المأمون قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم .

قال عبد العزيز : وكثر تبسم المأمون من قولي حتى غطى بيده على فيه واطرق يكتب في الارض بيده على السرير

ومما استدل به بشر على مذهبه قوله تعالى خالق كل شيء والقرآن شيء من تلك الاشياء المخلوقة .

فأجاب عبد العزيز بما خلاصته : قال تعالى « ويحذركم الله نفسه » فلله نفس وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت » فتقول يا بشر ان نفس الله داخلة في هذه النفوس؟ فصاح المأمون باعلا صوته وكان جهوري الصوت معاذ الله معاذ الله .

هذا مثال مما كان يجري بين المتناظرين في حضرة المأمون ولم يزل عبد العزيز يدحض حجج خصمه ويكسر أقواله بالكتاب والسنة والقياس حتى قال المأمون له أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر بعشرة آلاف درهم فحملت بين يديه وانصرف من مجلسه على أحسن حال وأجملها

قال عبد العزيز فسر المسلمون جميعا بما وهبه الله لهم من اظهار الحق وقمع الباطل وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن وجعل الناس يجيئون اليَّ أفواجا حتى أغلقت بابي واحتجبت عنهم خوفا على نفسي وعليهم من مكروه يلحقنا ، فقالوا لا بد أن تملي علينا ما جرى لنعرفه ونتعلمه فهبت ذلك وتخوفت سوء عاقبته فلما ألحوا عليَّ قلت أنا أذكر لكم بعض ماجرى مما لا يجوز عليَّ فيه شيء ولا حجر في ذكره فرضوا فأمليت عليهم أوراقا مختصرة لاقطعهم بها عن نفسي وعن ملازمة بابي

وان يذهب السجن بحسنه ، ولما وقف الملك على سعة علمه ، وحسن عبارته في تعبير الرؤيا، صيره على خزائن الارض، واعتزل الامور وصار كأنه من تحت يده ، وليست هذه المنزلة إلا بعلمه وكلامه ، لا بجماله وحسن وجهه ، وقال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم، ولم يقل إني حسن جميل ، فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين لو كان وجهي أقبح مما هو معي، فقد أعطاني الله وله الحمد من فهم كتابه، والعلم بتنزيله. فقال المأمون وأي شيء أردت بهذا القول ؟ وما الذي دعاك اليه ؟ فقلت اني سمعت بعض من هنا يقول يا أمير المؤمنين « يكفيك من كلام هذا قبح وجهه » فأي عيب يلحقني في صنعة ربي عز وجل ؟ فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه، فقلت يا أمير المؤمنين : قد رأيتك تنظر هذا النقش في الحائط ، وتنكر انتفاخ الجص ، وسمعت عمرا (رئيس الشرطة) يعيب الصانع، ولا يعيب الجص ، فقال المأمون العيب لا على الشيء المصنوع، انما العيب على صانعه . فقلت صدقت يا أمير المومنين وقلت الحق . فهذا (يعني جليس السوء) يعيب ربي لم خلقني قبيحا . فازداد المأمون تبسما حتى ظهر ذلك عليه، ثم قال يا عبد العزيز: ناظر صاحبك فقد طال المجلس بغير مناظرة . ثم أخذا في المناظرة . ولا يمكن ان نتقصى مسائل المناظرة او نلخصها لا ان المقام لا يحتمل ذلك ، وانما نشير الى بعض ما كان يجري بين المتناظرين مما فيه دلالة على أخلاق العلماء إذ ذاك، وعلى كرم أخلاق المأمون : من ذلك ان بشرا سأل عبد العزيز سؤالا، وكلفه جوابه، ووفقه المأمون قائلا هذا يلزمك يا عبد العزيز فعند ذلك جعل ابن الجهم وغيره من شيعة بشر يضحكون ويقولون ظهر أمر الله وهم كارهون، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً، وطمعوا في قتل عبد العزيز، وجثا بشر على ركبتيه، وجعل يقول اقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن وأمسك عبد العزيز فلم يتكلم ، فقال له المأمون مالك لا تتكلم يا عبد العزيز ؟ فقال سألني بشر وهو المناظر لي، فضجيج هؤلاء ايش هو ؟ وأنا لم أنقطع ، ولم أعجز عن الجواب، ولست أتكلم ما لم يسكتوا ، فصاح المأمون لمحمد بن الجهم وغيره امسكوا، فامسكوا، واقبل علي وقال تكلم يا عبد العزيز واحتج لنفسك ، فتكلم وأخذا في المناظرة

مثواي في البر .وما كانت إقامتي بينهم الا ثلاثة ايام ضاقت عن ردّ الزيارة لجميع الزائرين منهم، ولو طالت لتصديت للقاء أهل الرأي من غيرهم،

والامر الثاني مما يهتم به المسلمون خاص بهم وهو ماتوجهت اليه همة « الجمعية العلمية » من إحياء المدارس التي اسستها من قبل جمعية المقاصد الخيرية وكانت تدير نظامها شعبة المعارف التي قضى عليها الاستبداد فجعل هذه المدارس أثراً بعد عين . ولا أذكر ماسمعته من الآراء في إيجاد المال لهذه المدارس واختيار كتب التعليم لها بعد النظر فيما بين الأيدي منها وجلب مثله من مصر وانما أرجو أن أكتب بعد قليل من الزمن من أخبار اعمال هذه الجمعية ما يحقق أفضل الآراء وأنفعها

رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني ورأيت فيهم نفرا من أهل الغيرة الملية والميل للاعمال التي تنهض بالامة وترقي شأن البلاد وقد أحببت ان يكون لي حظ من معرفتهم وسعي في جمع صفوة أهل الاخلاص منهم ومكاشفتهم بما أراه من أصول الاصلاح وقد سرني من حديث من اجتمعت به منهم أنني رأيت التفاوت بينهم غير بعيد، والخلاف بين طبقاتهم غير شديد، والتنافس بين أهل الظهور لم يهبط الى دركة الحسد، ومقاومة الجامدين للاصلاح لم ترتق الى درجة المقاومة،

والسبب في ذلك على ماظهر لي أن أذكياء النابتة الذين يحبون الاصلاح لم يتربوا تربية أوربية تبعدهم من الدين وتشوه مدنية سلفهم في أعينهم وتحبب اليهم الانسلاخ من كل قديم، وتزين لهم الافتتان بكل جديد، كما فتن كثير من المتفرنجين في الاستانة ومصر وتونس، ولم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما مع فنون العربية كل المطلوب لارتقاء المسلمين، ولم يحرموا منهما حرمان من يعادي الشيء لجهله به، — وان المشتغلين بالعلوم الدينية والفنون العربية لايوجد كثير من المتقنين لها والبارعين فيها الذين يخشى ان يكونوا زعماء قادرين على تأليف العصبيات لمقاومة الاصلاح كما هو شأن رجال الدين الجامدين في كثير من بلاد المسلمين

ونتيجة هذا ان قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لايرتقي المسلمون بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية

باب الأخبار والآراء

سياحة صاحب المجلة

﴿ في سوريا ﴾

بيروت

وافيت بيروت في السادس والعشرين من شهر شعبان وقد صحا الجمهور من نشوة الفرح بالدستور ، وثابوا الى التفكر والتأمل بعد تلك الرياضة في روض الوجدان والشعور ، وكان مما يحمد عليه أهل بيروت ويذكرون به أنهم قدانتقلوامن خمول الاستبداد الى نشوة السرور بالحرية ومن هذه النشوة الى السكون والروية، ولم يكن منهم غلوّ مذموم كما يحصل عادة في مثل هذا الانتقال بمقتضي قاعدة «ردّ الفعل» وقد اشتهر ما كان من تحوّل الضغائن والاحقاد بين المسلمين والنصارى منهم الى المسالمة والوداد وكان المسلمون هم البادئين بهذا الخير ، كما كانوا في الغالب يبدءون وكما يقال بالشر ،

وقد رأيت فضلاء المسلمين في هذه الايام مهتمين بأمرين عظيمين أحدهما مشترك بين جميع العثمانيين وهو ماتفكر فيه جمعية «الجامعة العثمانية» من انشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية اونحو ذلك من الاعمال . ولا بد ان يكون فضلاء النصارى متفقين معهم على ذلك وانما اسندت الاهتمام به الى المسلمين عن علم وجعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي لانني لم أجتمع بأحد من علماء هؤلاء وفضلائهم فأعرف بالاختبار مايهتمون به من الاعمال في عصر الدستور إذ كان أهل العلم والفضل من المسلمين هم الذين استقبلوني في البحر وأكرموا

الفنون العربية والعلوم الاسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين وضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد لانه يشغل الفطرة ولا يكملها فيكون عائقا لها عما سواه كما أشرنا اليه في الكلام عن استعداد أهل بيروت وربما نوضحه في فرصة أخرى ، على أن أهل طرابلس قد قلّ اشتغالهم في السنين الاخيرة لحكم الاستبداد ، التي اضطهد بها العلم وكتبه أشد الاضطهاد ،

هذا سبب معنوي من أسباب ضعف استعداد أهل طرابلس وسيعده أكثرهم غريبا أو باطلا بالبداهة محتجين بأن من كان أوسع علما في فن أو علم ما كان أقوى استعدادا لغيره ، ولا محل هنا لدحض هذه الحجة أو إبطال هذه الشبهة . وثم سبب آخر وهو الفراغ والبطالة في طائفة كبيرة منهم وعدم المنافسة والارتقاء في العمل عند أكثر العاملين

ومن الاسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والاعمال من الأجانب والعثمانيين فان طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني ، لايهاجر اليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولاتعليم فيها ولا المرتقون في الاعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية إذ لارجاء لأحد في الكسب منها

ومنها ماهو أثر طبيعي لما قبله من عدم وجود الجرائد اليومية فيها وعدم وصولها الجرائد اليها من بيروت لانها غير متصلة بها بسكة حديدية فالمقيم فيها لا يعرف شيئا يعتد به من أحوال العالم

من أجل هذا وذاك كانت حكومة طرابلس شرا من حكومة بيروت في وقت الاستبداد ، ولم تنل نصيبا من الاصلاح في زمن الدستور وقد كان فسادها الماضي وضعفها الحاضر علة لكثرة الاشقياء فيها المستعينين بها على السلب والنهب والنيل من اعراض الناس ودمائهم، فان لهؤلاء الاشقياء زعماء يشترون ذمة كبراء الحكام ويشاركونهم بما يتمتعون به من أموال الناس وأعراضهم ويرضخون لافراد الشرطة والزبانية بدريهمات يستعبدونهم بها فاذا رفعت على أحدهم قضية كفاه أمرها رجال المحاكم فاذا جاء البلد حاكم جديد وحاول ان يقرر فيها الامن ويقيم ميزان العدل وانفذ الشرطة الى بعض هؤلاء الاشقياء المتهمين بالقتل والضرب أو

رأيت من النابتة العصرية من يقول يجب علينا ان نعمل بمعزل عن الشيوخ الجامدين ولا نبالي بهم رضوا أم سخطوا ، ومن يقول لا بد من مقاومتهم والقضاء على نفوذهم ، ومن يتوسط فيقول بوجوب مسالمتهم ومداراتهم والاستعانة بمن لان جانبه منهم ، والمرجح عندي ان العاملين في بيروت لا يجدون مقاومة يعتدّ بها ، وأحوج ما يحتاجون اليه المال والزعيم الذي تجتمع عليه القلوب ومتى وجد أصحاب الهمم من الرجال ، سهل عليهم إيجاد المال ، والزعيم انما يشترط لإتقان العمل وكماله فلا يتعذر على أهل الغيرة الابتداء بالعمل مع فقده . ومتى تكونت الاعضاء تكونا طبيعيا ثبت لها رأس طبيعي ،

أما حكومة بيروت فهي سائرة في طريق النظام بهمة واليها ناظم باشا وحزمه ودرايته ولكن هذا الوالي لم يأت بعمل ما في ملحقات الولاية كما يعلم من الكلام الآتي عن طرابلس ولولا قرب عهده بالمجيء الى الولاية لقلنا ان حسن حال الاهالي هو الذي حسَّن حال الحكومة في مدينة بيروت فهو لا يدل على فضله ولا يقوي الرجاء في إصلاح حال الولاية بحسن إدارته ولكنه لقرب عهده لما يتمكن من تنظيم إدارة داره فلا مجال للومه

طرابلس الشام

وافيت هذه البلدة وقد أهوت شمس يوم الجمعة (وهو التاسع والعشرون من شعبان) الى الغروب والناس يرقبون غروبها ورؤية هلال رمضان بعده فأقبلوا يستهلون فبدا الهلال لعين واحد منهم فحكم القاضي بشهادته وأصبح الناس من ليلتهم صائمين

مكثت في دار صديقي الصدّيق الشيخ محمد كامل الرافعي أسبوعا كاملا استقبل وفود الزائرين المهنئين من العلماء وعمال الحكومة والوجهاء ورجال الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الجامعة العثمانية والجمعية العلمية . وقد ظهر لي مما دار بيني و بين صفوة الناس من الطبقات العليا والوسطى أن استعداد مسلمي طرابلس للاصلاح الديني والمدني دون استعداد مسلمي بيروت

ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالا بدرس كتب

الاجلال على ما كان عليه رحمه الله من كبرياء حتى انه كان يستقبلني ويشيعني عند الباب

ذلك انه كان قد اعتدى على اخوتي من قبل بإيعاز عصبة من تلك العصب التي أشرنا اليها «والشر داعية الشر» فالظاهر ان تلك العصبة تقل عليها ان يعتز من اعتدت عليهم بأخ لهم لانها تحب ان يكون شرها دائما لا ينقطع . وقد رأيت جميع الناس من جميع الطبقات يعتقدون ذلك ولولا هذا الاعتقاد لاظهروا استياءهم ولقامت قيامتهم على هذا الشبح البالي من حكومتهم على عدم ثقتهم بها بل لاستنهضوا همة حكومة الولاية الى معاقبة ذلك المعتدي الذي عدوا جريمته إهانة لهم كلهم أي إهانة لاهل البلد لانه أساء الى المئات من فضلائهم بالتعدي على الضيف الذي يحدقون به تعظيما له وتكريما ، وقد سمعت من الناس وعنهم ماجزمت به وأيقنت بأن الاستياء العام كان شديدا وأن بعض أهل الجرأة جهروا لزعماء عصبة ذلك الشقي وله بسوء هذا العمل وبمقت الناس لهم لاجله وحدثني بعض الكبراء والمتوسطين ان أولئك الزعماء أقسموا جهد أيمانهم بأن هذا الامر لم يكن بايعاز منهم وانهم وبخوا الشقي الفاعل وكادوا يطلقون عليه الرصاص !! ولكنهم مع هذا يهددون من دعتهم الحكومة للشهادة ليكتموها او يحرفوها ويخفون الشقي عن عين الحكومة ويطلبون المصالحة قبل القبض عليه ! ! !

هذا هو السبب في سكوت جمهور اهل طرابلس وإغضائهم على القذى ولو وثقوا بحكومتهم وأمنوا بقوتها شر تلك العصبة لاظهروا سخطهم لها وللناس قولا وكتابة فهم معذورون في سكوتهم . على ان فيهم من تحمس ليذهب بوفد الى الولاية ليخاطبوا الوالي في الامر فلم أرض بذلك ، ومن شجعانهم من تمنى لو كان حاضرا لينتقم من المعتدي عند الاعتداء

أقول هذا جوابا لأولئك الفضلاء الاخيار الذين كتبوا الينا من بيروت ولبنان والشام ومصر يقولون اترك « فيحاء الأشقياء » تنعي من بني اول حجر فيها وارحل الينا حيث تلقى من الكرامة كيت وكيت ، ويقولون لو كنا معك لعلمنا أهل طرابلس كيف يوجد من عارفي قدرك من يفديك بدمه ،

السلب والنهب عادت اليه الشرطة قائلة انهم قد فروا هاربين فلا يعلم مكانهم وانما يكونون هم الذين لقنوها ما تقول

حادثة الاعتداء علي وسببها

ما كنت لاذكر هذه الحادثة في المنار ، لو لم تشتهر في الاقطار ، ويظلم بها أهل طرابلس على الاطلاق ، حتى وجب علي ان أبرئ المظلومين، وأبين سبب تقصير المقصرين ،

حقيقة الحادثة انني دخلت طرابلس باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فيها فقد استقبلني عند الباخرة في البحر جمهور من أهل العلم والوجاهة ووفود من الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العلمية وجمعية الجامعة العثمانية ، وكان في الانتظار على رصيف الجمرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقي أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي فلما اقبل عليهم الزورق الذي يحملنا مرفوعا عليه العلم العثماني (أعزه الله تعالى) صدحت الموسيقى وبعد السلام على كثير من المستقبلين ذهبنا إلى موقف الترام الذي بين الميناء والبلد فاذا بمركبة كبيرة من مركبات الترام معدة لنا من قبل جمعية الاتحاد فتبوأناها مع خواص اعضاء الجمعيات وجوقة الموسيقى في مقدمتها والناس من حولها يطلقون البارود · فوقفت في نافذة من نوافذ المركبة وشكرت للقوم أريحيتهم وسارت المركبة حتى إذا ما بلغت الموقف من البلد استقبلنا فيه جمهور آخر وسرنا حتى إذا كنا بالقرب من الدار التي نؤمها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأنا شقي من أولئك الاشقياء الذين أشرنا اليهم إسمه كامل المقدم فقال أين هذا الذي تسلمون عليه ؟ فعرفني بالقرينة فضربني بعصا في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان عن يساري في مقدمة الناس · فأخرج الشقي مسدسا وأطلق منه رصاصة واحدة اعتقدت انه يريد بها قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما يظهر فانهم ارجعوني واحدقوا بي وأرادوا إدخالي لاحد البيوت المجاورة لذلك المكان · وتقدم اليه اكثر من واحد منهم فطردوه ثم استأنفنا السير إلى دار الرافعي وكانت قريبة منا وهنالك اخبرني القوم بالمعتدي وانه ابن عبد الرحمن افندي المقدم الذي كان يجلني وأنا طالب علم أشد

كيف يفديني بدمه (حماه الله) فأشكر لجميع أولئك المهنئين أريحيتهم وفضلهم وأكرر لهم الاعتذار عن أهل طرابلس في المنار كما اعتذرت عنهم فيما كتبته الى الكثير من المهنئين ، وأصرح لهم بأنهم لم يقصروا في الحفاوة بي بل بالغوا وأغرقوا حتى كنت أخجل مما أسمعه من شيوخ العلم وكبار الوجهاء ، من جمل الثناء والاطراء ، مثل : بيضت وجوهنا بيض الله وجهك ، شرفت بعملك سوريا والعرب ، أحييت بخدمتك العلم والدين ، عملت للدولة كيت وكيت . حتى قال لي أحد العلماء ان هذا المجد الذي نلته لم ينله أحد من أهل طرابلس فيها . وقال لي أحد أدباء النصارى إن الناس يستقبلونكم أيها الاحرار كما يستقبلون الفاتحين ، لا كما يستقبلون الاعزاء الغائبين . واني أشهد قراء المنار على نفسي بأنني لا أستحق هذا الثناء والاطراء ولا بعضه ، واني ذكرت منه ما ذكرت وأنا في خجل شديد ولولا قصد تبرئة أهل وطني الذي ربيت فيه مما جناه عليهم ذلك الشقي المسكين لما ذكرت ما ذكرت من الاشارة اليه . وسأذكر في رسالة أخرى ما كان من اهتمام دولة الوالي بالحادثة وما كان من أثر ذلك

ومن آيات رضي أهل طرابلس عن هذا العاجز دعوة الكثيرين من أهل الرأي والمكانة منهم إياه لترشيح نفسه لمجلس المبعوثين وتصريحهم في الملأ بأنه أجدرهم بذلك . ولكنني لم اترك ما عندي من اليقين بعجزي لحسن ظنهم بي ولذلك كنت اعتذر لكل داع بما أرى أنه يقبله مني

طلاب العلم الاستقلالي بطرابلس

وقد سرني في طرابلس سرورا عظيما أن رأيت فيها فئة من طلاب العلوم الدينية يرغبون عن التقليد ويذمونه ، ويميلون الى الاستقلال في العلم وينتحلونه ، ويعترفون بأن حياة الدين انما تكون بالرجوع الى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وترك ما عداهما من الآراء الكثيرة ، رأيت هؤلاء وذاكرتهم بعد أن كتبت ما تقدم من المقابلة بين أهل طرابلس وأهل بيروت ولم أر مثلهم من الطلاب في

وكتب الي صـديقي رفيق بك العظم ينصح لي بأن أقضي بقية إجازتي في بيروت ودمشق وحمص وحماه . وقد تحمس أهل النجدة من بيروت وائتمروا بينهم ليرسلوا وفدا منهم يحضرني من طرابلس وعصبة من الشجعان لينتقموا لي من المعتدين بالقوة اذا كانت الحكومة عاجزة عن ذلك أو متهاونة فيه وكتب الي أكثر من واحد يستشيرني أو يستأمرني بذلك وقد تطوع نحو خمسين رجلا من فدائية بيروت (الابضايات) بذلك فكتبت الى بعضهم إنه لا حاجة الى ذلك واني في طرابلس عزيز كريم

أراد ذلك الشقي أن يحط من قدري غلوا في الانتقام من إخوتي ، فكان عدوانه مزيدا في كرامتي ، وإهانة له ولعصبة الاشرار ، في القرى والامصار والاقطار ، بل إهانة لاهـل بلده الاخيار منهم والفجار ، فقد طار البرق بالحادثة منذ تلك الليلة إلى بيروت ونشر الخبر في جرائدها فعلم به الناس في سوريا ولبنان ومصر فطفقوا يذمون طرابلس وأهلها قولا وكتابة وقد نقل ذلك اليها كثير ممن كان من أهلها في بيروت . وتلك سنة الله : رجل يهين أمة ورجل يشرف أمة ، كما اطروني برسائل البرق والبريد وتحدثوا بخدمتي الصغيرة للاسلام وللدولة والملة فكبروها تكبيرا بمثل البرقية التي وردت الي من شيخين من أشهر أهل العلم والادب في مصر ونصها «نهنيء العلم والدين بنجاة ركنهما الركين» ومثل البرقية التي وردت من فاضلين من أشهر أهل بيروت علما وأدبا ونصها «الهناء لكم ولنا وللمسلمين بسلامتكم التي تهمنا جميعا» وهنالك برقيات كثيرة بهـذا المعنى من بلاد كثيرة منها برقية بامضاء بضعة عشر رجلا وهم خيرة أهل بيروت ولا تسل عن رسائل البريد ، وما فيها من الاطراء والتنديد

وليست الرسائل الواردة بما ذكر كلها من المسلمين بل منها ما جاء من فضلاء النصارى فكانت الحماسة فيها أشد ، ولسان الاطراء والقدح أحد ، كرسالة صديقنا نقولا افندي شحاده من زحله التي يتمثل فيها بقول السيد المسيح عليه السلام الذي معناه انه لا يهان نبي الا في قومه و بلده ، ورسالة صديقنا رئيف افندي شدودي من جونيه الذي تمنى فيها كما تمنى كثير من اهل بيروت لو كان معي وقت الحادثة فيري أهل طرابلس

من مقاصد الجمعية تعليم العلوم الطبيعية التي يتوقف تعليمها على الآلات والمعلمين بالأجور فتحتاج إلى المال الكثير ، ولكن اعضاء الجمعية مختلفون في الامر وهو غير عظيم ، فبعضهم يشعر بهمة في نفسه تصغر له الكبير ، فيرميه الآخرون بالغرور والتغرير ، ولعلهم يشرعون في التعليم بالطرق المستحدثة والكتب المختارة ولو في المساجد الى ان يتيسر لهم ولغيرهم من المسلمين تحويل معظم الاوقاف الخيرية للتربية والتعليم ، وعسى ان لا يكون ذلك بعيدا

واما الجمعية الثالثة فقد أطلق عليها اسم الجمعية الخيرية ، والذي يفهمه القراء من هذا الاسم انها جمعية تجمع الاموال لإعانة الفقراء والعجزة ، ولكن الذي وصل الينا من خبرها انها شركة مالية أسسها بعض الاغنياء لاجل استغلال أموالهم بالاعمال الكبيرة التي يرجى ربحها ، وسمعت كثيرين من أعضاء الجمعيات الاخرى يطلقون على مؤسسي هذه الجمعية أو الشركة لفظ « حزب التقهقر » ويقولون ان أكثرهم من الذين عزلوا بعد إعلان الدستور لخياناتهم وفسادهم في الحكومة الماضية أو استقالوا لعلمهم بأنهم لا بد ان يعزلوا ان لم يبادروا بالاستقالة . ويقولون انهم أعداء الدستور ويطعنون دائما بجمعية الاتحاد والترقي ويكابرون أنفسهم فيدعون انها لم تعمل عملا . وقد ذكر ليَ اسم ثلاثة منهم لم أسمع من أحد منهم شيئا مما يحكونه عنهم ، ولكنني سمعت من شابين من حملة الاقلام كلاما صريحا وتهكما شديدا في ذلك ، وقيل لي ان هذين الشابين من اعضاء هذه الجمعية أو انصارها وربما كانا لسان الجمعية الناطق وقلمها الكاتب

وفي هذا المقام اشكو مما سمعت في طرابلس من طعن الناس بعضهم ببعض حتى في المحافل والاندية العامة ، وأرجوا ان يفتح الله لهم في أيام الدستور من الاعمال ، ما يشغلهم عما يضر ولا ينفع من الاقوال ،

العمران في طرابلس

رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي ان ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحدا ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان

بيروت ولكنني أظن أنه يوجد فيهم من هم على هذه الشاكلة وربما كان عددهم أقل لان الطلاب في طرابلس اكثر،

وقد رغبت من لقيت من هؤلاء الطلاب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة العصرية، فألفيت آذانا واعية وقلوبا راغبة وأذهانا مستعدة، ولكن وسائل العلم غير متيسرة لهم الآن وربما لا يتيسر السعي له الا بعد حين من الزمن. ولهذا لم أرجع بعد لقيّ هؤلاء النجباء عن رأيي في ترجيح استعداد مسلمي بيروت للعمل على استعداد مسلمي طرابلس وان كان في الكلام عن هؤلاء الطلاب نوع من الاستدراك على ما تقدم

الجمعيات في طرابلس

الف اهل طرابلس ثلاث جمعيات غير فرع جمعية الاتحاد والترقي كما فعل أهل بيروت. الاولى جمعية الجامعة العثمانية ولها ناد يجتمع فيه أعضاؤها وهم الآن يفكرون في عمل مالي يكون لهم منه ريع يمكنهم من الخدمة النافعة للبلاد التي توثق بها عرى الجامعة العثمانية وما أظن أن ذلك ميسور لها الآن ففائدتها محصورة في اجتماع أعضائها في ناديها فنقترح عليهم أن يطالعوا فيها الكتب النافعة التي تغذي العقول وترقي الافكار والآداب ككتب التربية والاخلاق والمجلات العلمية، وان يتمرنوا فيه على الخطابة في السياسة والآداب وشؤون الاجتماع والعمران، وان يكون لهم في كل شهر مناظرة في مسألة علمية أو سياسية أو اجتماعية، فبذلك تكون جمعيتهم نافعة مذ اليوم، فان تيسر لهم بعد ذلك جلب المال وانفاقه على عمل من الاعمال، كانوا به أبصر، وعليه أقدر،

والثانية الجمعية العلمية ورأيت بعض أعضائها يتحدثون بجعل تعليم الفنون العربية والعلوم الشرعية بطريقة منتظمة في مدرسة كبيرة يتخرج فيها المستعدون للتدريس والقضاء الشرعي والمحاماة. ويقول آخرون منهم ان إنشاء هذه المدرسة لا يكون الا بمال كثير، وهو عسير علينا غير يسير، على انهم لو وجهوا همتهم الى جمع المال لتيسر لهم جمع مقدار يكفيهم لاستئجار دار يعلمون فيها، وأكثر الشيوخ لا يسألون على التعليم أجراء والطلاب هم الذين يشترون الكتب لانفسهم، وليس

على تحصيلهن العلوم الابتدائية لاني أرى من الاوفق والاصوب أن تتولى الطبية أمر معالجة المريضة المسلمة، لذلك يجب أن تؤخذ الفتيات الى المدارس الطبية، وأما مسئلة قيام النساء بوظيفة المحاماة والقضاء فأمرها لم يتم بعد في البلاد الاخرى ولا أدري بأي نظر ينظر الاهالي هذه المسألة في بلادنا »

وقال سماحته مجيبا عن السؤال الثاني :

« فهم القرآن واجب على المسلمين مطلقا، لذلك لا نعارض فكرة ترجمة القرآن الى اللغة التركية بل نعد بذل كل مجهود في ابراز هذه الفكرة الشريفة الى حيز الوجود دينا عظيما علينا ولكن حيث إن في القرآن كثيرا من المواضع يصعب فهمها على العامة واشترطت لحلها كثرة العلم والتعلم لذلك نرى من الواجب أن تعهد وظيفة ترجمة القرآن الى أفاضل الفلاسفة المسلمين الذين لهم المام تام بلغة القرآن وروح الاسلام وأدبيات العرب حتى لا يخشى من تغيير معانيه الجليلة »

وأجاب عن السؤال الثالث بما ترجمته :

« إنا معشر رجال الدين وظيفتنا النظر في شؤون المدارس الدينية وأما الفن فأمره ليس بأيدينا بل هو راجع الى الحكومة والأهالي لذلك نحن لا نتداخل في أمره وعلى الحكومة أن تنتخب لمدارسها من الفنون ما ينجم عنه رقي الاهالي وقوة الدولة وحضارة البلاد ولا نطلب من الحكومة تسليمها لنا ولا أن تكون مدارسها الابتدائية تحت نفوذنا

ولا يوجد في المدارس الفنية من الدروس الدينية غير حصة واحدة وأكرر القول بأن الفن والصناعة ليسا من عمل رجال الدين بل من عمل الحكومة ولكنهما ليسا بمخالفين للدين ولهذا السبب نسلم أمر هذه المسألة تماما الى الحكومة »

وقال مجيبا عن السؤال الرابع :

« نحن على جانب عظيم من الحرية الدينية ولكن لا نتداخل في أمور ديانة الامم وخصائصها ووجدانها في أي حال واذا تداخلنا فانما يكون ذلك باللسان فقط. ويأمر الدين الحنيف كل مسلم متزوج بزوجة مسيحية ان يرسل زوجته مرتين في الاسبوع لزيارة أقربائها ولم يأمر نبينا الكريم الناس بما لا طاقة لهم به حتى أن

مالكا أم مستأجرا . واما ضواحي البلد فقد تجدد فيها دور وقصور كثيرة على عدم نمو الثروة الطبيعية . فالزراعة لا تزال على حالها وعليها مدار معيشة السواد الاعظم . والصناعة كذلك على حالها وليس في طرابلس منها ما يعد مصدرا لارتقاء ثروتها ولم تتصل بها سكك حديدية ترتقي بها تجارتها فأكثر الذين أثروا فيها هم من عمال الحكومة أكلة أموال الناس بالباطل

شعائر الدين

لعل أهل طرابلس أشد أهل سوريا محافظة على شعائر الدين من صلاة وصيام، وأبعدهم عن الجهر بالمعاصي، وحسبك من هذا أن صاحب قهوة احضر في هذه الايام بعض النساء الراقصات ليروج بها قهوته فقامت قيامة أهل العلم من المسلمين عليه، وتعصب لهم الجمهور حتى ألزموا الحكومة بمنعه من ذلك

تسامح الدين الاسلامي

جاء في جريدة اللواء تحت هذا العنوان ما يأتي مع تصحيح قليل :

« نشرت جريدة (ريج) الروسية أن مخبرها الخصوصي في الاستانة العلية قابل سماحتلو شيخ الاسلام وطرح عليه أربعة أسئلة طالبا الجواب عن كل منها وهي :

١ — ما رأي شيخ الاسلام في تعليم المرأة المسلمة

٢ — ما رأي شيخ الاسلام فيما نشرته الجرائد التركية من وجوب ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية

٣ — بأي نظر ينظر شيخ الاسلام إلى المدارس الفنية العثمانية

٤ — ماذا يفهم شيخ الاسلام من الاقوال القائلة بالحرية في الدين ؟

أجاب سماحته عن السؤال الاول بقوله « ان القرآن الكريم يأمر الرجال والنساء جميعا (بالعلم) فيلزم كل فرد من أفرادهما أن يتعلم القراءة والكتابة ولهذا السبب تقابل — بانشراح صدر — انتشار التعليم بكل أنواعه بين النساء زيادة

ولماذا يمنع الفتاة المسلمة من الزواج بالمسيحي ! فأجاب بقوله « تعرفون أن نفوذ الزوج فوق نفوذ الزوجة في المنزل وهي تابعة له ونحن معشر المسلمين نعد كلا من اليهود والنصارى من أهل الكتاب ونؤمن بكتبهم ونصدق برسلهم ولهذا السبب الصراح تقدر على الاقامة مع اليهودية أو النصرانية بلا أدنى تعد على عقيدتها ولا تعرض لامورها الدينية وأما اليهود والنصارى فليسوا بمؤمنين بالقرآن ولا بمصدقين بنبينا الكريم بل يعدونهما كذبا محضا لذلك حرم على المسلمين إن يضعوا فتياتهم تحت نفوذ قوم هذه حالهم مما يحرمه ديننا الحنيف »

مسلمو روسيا

ثم عرج سماحته بالكلام نحو مسلمي روسيا فقال « اني ما زلت أنصح لمسلمي روسيا بأن يكونوا مطيعين ومخلصين لوطنهم بيد أنه يجب عليهم أن يعضوا بالنواجذ على حقوقهم الدينية وعلاقاتهم الجنسية »

العلماء الروحيون والحرية الدينية

ثم فتح باب الكلام أيضا بشأن الحرية الدينية اذ قال « اني في جانب من يقول بالحرية التامة نحو الدين وأعتقد أن جميع العلماء الروحيين إذا اعتقدوا أن جميع البشر اخوان وانهم عبيد مستوون عند الله الواحد القهار زالت من بينهم المجادلات الدينية وطمست آثار المظالم والفتن »

ثم قال المخبر تعليقا على ما تقدم « فليفهم القراء علو منزلة رئيس علماء المسلمين وليحكموا على بقية رؤساء الاديان الاخرى » اه

(المنار) : إن قراء المنار يعرفون رأينا في هذه المواضيع وربما عدنا اليها في جزء قادم

﴿ جريدة النظام ﴾

جاءنا من ادارة جريدة النظام ما يأتي :

« يسرني ان انهي الى علمكم اني قد عولت بعون الله وحسن توفيقه على اصدار جريدة يومية سياسية اسمها (النظام) بالحجم المعتاد للجرائد الكبرى ، سيكون شعارها

تركيا لم تضغط ولا في الازمنة التي كانت لها فيها قوة كبرى على رعاياها المسيحيين في أمورهم الدينية فينبغي أن ينفذ حكم الحرية التامة في أمور الديانات ليأمن كل على معتقده وديانته »

شأن المرتدين عن الاسلام

وهنا قطع المخبر كلام سماحته سائلا رأيه في المنتقلين من الاسلام إلى المسيحية فأجاب قائلا « افرضوا أن فرقة عسكرية فرت من بين صفوف المقاتلين لا شك انكم تعتبرونها خائنة شر خيانة وحينئذ تحكمون عليها بأشد العقاب ونحن كذلك أمة واحدة نذوب أسفا على كل خارج من صفنا ونستاء منه استياء شديدا وليس أمرنا هذا مخالفا للحرية الدينيـة المبنية على أساس أن كل الناس مختارون فى أمر الدين ولا نطلب بأي حال من الحكومة أن تعاقب الخارجين من الدين أو تضغط عليهـم بالقوانين والتضييق كما لا نحكم على الخارجين عن الدين الا بالحكم المعنوي ولا يمكن اجبار الناس لقبول الاسلام أو المسيحية واذا كان لشخص اختيار في الارتداد فلا يمنعنا مانع عن اظهار كراهتنا له ونفورنا منه

زواج المسلم بالمسيحية (١)

وسأل المخبر سماحته أيضا قائلا « ان الاسلام يصرح لمتحليه بزواج الفتاة المسيحية

---

(١) المنار : كتبنا منذ ست سنين تعليقا على كلام للاستاذ الامام بشأن زواج المسلم بالمسيحية في كتاب الاسلام والنصرانية هذا نصه :

« يقول بعض النصارى : اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف ، مع التباين في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهـم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويأمره ببغضها وببغض أولاده ووالديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة ، أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم »

فرأي شيخ الاسلام موافق لرأينا في روح المعنى وان خالفه في الاسلوب

دائرة معارف اسلامية

(مجلدات المنار)

٨٣٦٨ صفحة

ان مجلة المنار هي المجلة التي تبحث في العلل الروحية والامراض الاجتماعية التي طرأت على المسلمين فرجعت بهم القهقرى وتبين مناشيء ذلك وأسبابه والطريقة التي يمكن باتباعها رجوع الاسلام الى مجده وجمع أهله بين مصالح الدنيا واعمال الدين فكما تبحث في المشكلات الشرعية وفلسفة الدين تبحث أيضاً في شؤون الاجتماع والعمران وهي في النصف الثاني من سنتها الحادية عشرة والسنة الاولى منها يعاد طبعها الآن فالموجود من مجلداتها اليوم تسعة من الثاني الى العاشر مجلدة تجليداً افرنكيا وصفحاتها ٨٣٦٨ فهي عبارة عن دائرة معارف دينية اجتماعية وثمنها في مصر خمس مئة وخمسة وثمانون قرشا صاغا وفي البلاد الخارجية والعثمانية مئة وخمسون فرنكا وثمن كل مجلد على حدته من الثاني ومابعده الى السادس خمسة وسبعون قرشا وثمن كل واحد من المجلدات الباقية — من السابع الى العاشر — خمسة وأربعون قرشاً موقتا ماعدا أجرة البريد وتطلب بعنوان (ادارة المنار بمصر)

قيمة الاشتراك في المنار عن سنة كاملة

هي في مصر ٦٠ قرشاً صحيحاً وفي خارجها ١٨ فرنكا

الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية

يصرح كثير من الكتاب المصريين بأن الدين عدو العلم وتجرأ فريق منهم على أن يصم الدين الاسلامي بهذه الوصمة زاعما ان الدين المسيحي أكثر تساهلا وأرحب صدرا للعلم وأهله فكتب الاستاذ الامام حكيم الشرق والاسلام الشيخ محمد عبده رداً على هؤلاء الزاعمين الواهمين بين فيه طبيعة الدينين وتاريخ كل منهما مع العلم وكيف كان خلفاء الاسلام يجلون العلم وبنيه ويرفعون اقدار طلابه ومزاوليه كل ذلك مدعم بالشواهد التاريخية والاستقراء الفلسفي فكان أجمع كتاب في بابه وهو مطبوع طبعا نظيفا صحيحا بمطبعة المنار وثمنه في مصر خمسة قروش وأجرة البريد ٧ ملاليم وفي الخارج فرنك و ٧٥ سانتيما ويطلب من مكتبة المنار بمصر

الدفاع عن مصالح مصر بالاخلاص والصدق اللذين اعتادهما القراء منا في الخمسة عشر عاما التي مضت من خدمتنا الصحافية . فاذا تفضلتم بالاشارة لذلك في صحيفتكم الغراء بشكل يجذب الانظار فانكم تعجزونني عن النهوض بواجب الشكر لكم . واذا اردفتم تلك الاشارة برجاء ممن يريدون مراسلة الجريدة أو التوكيل عنها في الجهات أن يخاطبونا منذ الآن في ذلك بحيث لاتتعدى طلباتهم منتصف شهر نوفمبر فانكم تجعلون الفضل فضلين والشكر لكم عليه شكرين والسلام »

محمد مسعود

صاحب جريدة النظام بمصر

و (المنار) يرحب بالنظام ويرجو له نجاحا وفلاحا ، وتوفيقا للسير على النهج القويم ، والصراط المستقيم ، وان في خبرة صاحبه لمزاولته الكتابة بضع عشرة سنة ، وتفننه الصحافي ، وذوقه الادبي ، مايرجى معه رواج النظام ، ورغبة محبيه فيه

(الجزائر) ــ وجاءنا من عمر افندي راسم الجزائري انه عزم على إنشاء مجلة « علمية أدبية تهذيبية » سماها الجزائر ولقد ضاق هذا الجزء عن التنويه بها بأكثر من هذا فندعوله بالتوفيق والنجاح

﴿ تصحيح ﴾

سقط السطر الاخير من (ص ٥٦٨ ج ٨ ــ ١١) وهو: « ثلاثون رجلا . اي صدقكم الله وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا » فيكتب بالقلم

﴿ بيان ﴾

اصدرنا هذا الجزء من المنار غير مصدر بالتفسير والفتاوى لان صاحب المجلة لايزال في سياحته

(الجزء العاشر) شوال سنة ١٣٢٦ (المجلد الحادي عشر)

(قيمة الاشتراك)
عن سنة ستون قرشا صاغاً في القطر المصري والقطر السوداني و ١٨ فرنكاً في الخارج و ١٥ شلناً في الهند و ٧ روابل في روسيا
(والدفع سلفاً)

المنار
١٣١٥

(تنبيه)
يجب ان يكون وصل الاشتراك موقعا عليه من منشئ المجلة ومختوما بختم الادارة
الاشتراك في المجلة يكون دائماً من أول سنتها [المحرم] ومنتصفها [رجب]

(مجلة شهرية)
تبحث في فلسفة الدين
وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها
السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

مستحضرات لصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً لتأثيرها الفائق لصاحبها الحائز لشهادة ديلوما ونيشانات الامتياز من لجنة الشاليتو تصديق مصلحة الصحة العمومية بمصر بعد التحليل بعملها الكيماوي

قرش أميري (أسماء الأدوية وبيان منافعها)

٧ اكسير لصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ويزيل الالام التي تحصل وقت الطمث
١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والنمش ويكسب الجسم نعومة ولطافة
٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام
٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة
٣ قطرة لصوحي تمنع الالتهابات المزمنة والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية
١٢ حبوب لصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والروماتزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامة الناشئة من فقر الدم
٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب
٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص
١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال الضعفاء ويزيل الغدد الخنازيرية
١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة
٢٠ كبسول باريزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزيد نشاط البدن خاصة
١٥ كبسول لصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما
٥ مسحوق الاسنان لازالة جلاء الاسنان وتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم
٥ مسحوق الشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويطري الجلد الناعم الملمس من غير مضر
٥ لبوق صحي ضد [illegible] البواسير والنزلات ويشفي [illegible]

[illegible] لصوحي [illegible] الرحم [illegible]

والمستودع العمومي بمحله الكائن [illegible]

والشوارع [illegible]

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الاثنين ٢٩ شوال ١٣٢٦ — ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٨ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٥٦ : ١٤٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَامَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٧ : ١٥٠) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٨ : ١٥١) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ *

لما بين سبحانه وتعالى للمؤمنين ان هزيمة من تولى منهم يوم أحد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا أراد أن يحذرهم من مثل تلك الوسوسة التي

مسألة القضاء والقدر فقال اني أجيب السائل بمثل ما أجبت به من سألني عن ذلك من غير المسلمين اذ قال ان هذه العقيدة هي السبب في تأخر المسلمين عن غيرهم من الامم فانهم ينكرون الاسباب ولا يحفلون بها فقلت له ان ما ينتقد على المسلمين من ذلك لا يرجع منه شيء الى الاسلام الخالص فما قرره فهو الحق الواقع في نفسه الذي لا يمكن لمؤمن ولا ملحد إنكاره . وبين ذلك بذكر ان القضاء عبارة عن تعلق العلم الآلهي بالشيء والعلم انكشاف لا يفيد الالزام، والقدر وقوع الشيء على حسب العلم، والعلم لايكون الا مطابقا للواقع والا كان جهلا، أو الواقع غير واقع وهو محال، وهنا أمران كل منهما ثابت في نفسه :أحدهما ان الله خالق كل شيء، وثانيهما ان هذا النوع من المخلوقات الذي يسمى «الانسان» يعمل اعماله بقصد واختيار ولكنه غير تام القدرة ولا الارادة ولا العلم، فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير علمه بالمصلحة أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه مع بقاء علمه بأنه هو الموافق للمصلحة وذلك لمرض يلم به، أومانع يحول دون ماأراده، وهذا يقع مع الناس كل يوم ولكنهم قد يغفلون عنه و يغترون بما ينفذ من عزائمهم فيظنون ان الانسان يفعل مايشاء

(قال) جاء مصر رجلان من الاور بيين «١» الذين جرت عادة أمثالهم بأن يحددوا مدة سفرهم ومقامهم في كل بلد يزورونه قبل الشروع في السفر وكان مما كتباه في برنامج سفرهما انهما يقيمان بمصر ستة أيام، فمرض أحدهما فاضطر الى ان يمد في مدة السفر بغير حساب .وهكذا شأن الانسان يعزم فيعمل، أو يعجز أو يموت قبل التمكن من العمل، فاختياره في أعماله وقدرته عليها ومعرفته الاسباب وقيامها به كل ذلك له حدود لا يتجاوزها ، فهو لايحيط علما بأسباب الموت ولا يقدر على اجتناب كل مايعمل من أسبابه، وما كل سبب يتعرض له يقع، فجميع الذين يصطلون بنار الحرب يعرضون أنفسهم للقتل، وقد يسلم أكثرهم و يقتل أقلهم . أقول و يؤخذ من هذا كله أمران أحدهما ان الشيء متى وقع يعلم بعد وقوعه انه لم يكن منه بد . وثانيهما ان الانسان اذا كان يؤمن بأن لله تعالى عناية به وقد يلهمه اذا هو توجه اليه علم مايجهل من أسباب سعادته و يوفقه الى مايعجز عنه من الاسباب بمحض حوله وقوته فانه بهذا

(١) هما ولي عهد ألمانيا وأخوه

أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي لا تكونوا مثل هذا الفريق من الناس وهم الذين كفروا وقالوا لاجل إخوانهم أو في شأن إخوانهم في النسب ، أو المودة والمذهب ، إذا هم ضربوا في الارض — أي سافروا فيها للتجارة والكسب — فماتوا، وكانوا غزى أي غزاة (وهو جمع لغاز من الجموع النادرة ومثله عفًّى جمع عاف) سواء كان غزوهم في وطنهم أو في بلاد أخرى فقتلوا : لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا . أي مامات أولئك المسافرون ، وما قتل أولئك الغازون ، وقرن هذا القول بالكفر مشعر بأن مثله لا ينبغي ان يصدر عن مؤمن لأنه انما يصدر من الكافرين . وبيان ذلك من وجهين (أحدهما) ان هذا القول مخالف للمعقول مصادم للوجود فان من مات أو قتل فقد انتهى أمره وصار قول « لو كان كذا » عبثا لان الواقع لا يرتفع، والحسرة على الفائت لا تفيد ، ومن شأن المؤمن ان يكون صحيح العقل سليم الفطرة ولذلك جعل سبحانه الخطاب في كتابه موجها إلى العقلاء وبيّن ان أولي الالباب هم يعقلونه ويتذكرون به ويقبلون هدايته وقال فيمن لا إيمان لهم (٧: ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)

(ثانيهما) ان هذا القول يدل على جهل قائله بالدين أو جحوده فإن الدين يرشد الى تحديد الآجال وكونها باذن الله كما تقدم قريبا في تفسير قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » فارجع اليه

والمشهور في كتب التفسير المتداولة ان المراد بالذين كفروا المنافقون الذين تقدم ذكرهم في الآيات. وقال الاستاذ الامام : يقول بعض المفسرين ان هذا القول وقع من بعض الكفار فعلا فنهى الله المؤمنين أن يقولوا مثله، والمختار ان هذا قول لا يصدر الا عن كافر فلا يليق مثله بالمؤمنين . وقد سئل في هذا المقام عن

كان في مكان كذا لما مات بل كانت حياته أطول (قال) وهناك علة أخرى من علل النهي عن مثل ذلك القول وهي ماأفاده قوله تعالى ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ و بيان ذلك أن حظ الحي من هذه الحياة هو مايجمعه من المال والمتاع الذي تتحقق به شهواته وحظوظه ، وما يلاقيه من يقتل أو يموت في سبيل الله من مغفرته تعالى ورحمته فهو خير له من جميع ما يتمتع به في هذه الدار الفانية ·والموت في سبيل الله هو الموت في أي عمل من الاعمال التي يعملها الانسان لله أي سبيل البر والخير التي هدى الله الانسان اليها و يرضاها منه ·وقد يموت الانسان في اثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الاسباب التي يأتيها المحارب في اثنائها فيكون ذلك من الموت في سبيل الله عز وجل· أقول وهذا هو المقصود هنا أولا و بالذات لان السياق في الحرب ولذلك قدم ذ كر القتل على الموت فان القتل هو الذي يقع كثيراً في الحرب والموت يكون فيها أقل فذ كره تبعا بخلاف الآية الآتية· وحاصل معنى الآية أن رب العزة يخبرنا مؤكداً خبره بالقسم بأن من يقتل في سبيله أو يموت فان ماينتظره من مغفرة تمحو ما كان من ذنو به وسيئاته ورحمة ترفع درجاته خير له مما يجمع الذين يحرصون على الحياة ليتمتعوا بالشهوات واللذات · اذ لا يليق بالمؤمنين الذين يؤثرون مغفرة الله ورحمته الدائمة على الحظوظ الفانية ان يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل الله و يودوا لولم يكونوا خرجوا من دورهم الى حيث لقوا حتفهم فان مايلقونه بعد هذا الحتف خير مما كانوا فيه قبله ·و بهذا الذي بينته تظهر نكتة الخطاب في أول الآية والغيبة في آخرها وكذا تنكير مغفرة ورحمة · ثم قال تعالى

﴿ ولئن متم أو قتلتم لا إلى الله تحشرون ﴾ قالوا ان الموت والقتل هنا أعم مما في في الآية السابقة لان كل من يموت ومن يقتل في سبيل الله وهي طريق الحق والخير أو في سبيل الشيطان وهي طريق الباطل والشر فلا بد ان يحشر الى الله تعالى دون غيره فهو الذي يحشرهم بعد الموت في نشأة أخرى وهو الذي يحاسبهم أو يجازيهم وههنا قدم ذ كر الموت لانه أعم من القتل وأ كثر·

الايمان يكون مع أخذه بالاسباب انشط في العمل، عند عجزه عنها بعد اليأس والكسل،

﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي لاتكونوا يامعشر المؤمنين مثل أولئك الكافرين في اعتقادهم ولا تقولوا مثل قولهم الناشيء عن ذلك الاعتقاد ليكون ذلك منكم سببا لتحسرهم وغمهم بحسب سنة الله تعالى فانهم اذا رأوكم اشداء أقوياء لا يضعفكم فقد من فقدمنكم، ولا يقعدبكم عن القتال خوف ان يصيبكم ماأصاب أولئك الذين قتلوا، فانهم يحزنون ويتحسرون، هذا وجه في التعليل متعلق بالنهي نفسه وملخص المعنى عليه: لاتكونوا مثلهم لاجل أن يتحسروا بامتيازكم عليهم اذ يضعفون بفقد من يفقد منهم وأنتم لاتضعفون. وفيه وجه آخر متعلق بقول الذين كفروا باعتبار الاعتقاد الفاسد الذي نشأ عنه، والمعنى: لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا فيمن ماتوا أو قتلوا ماقالوا، ليكون أثر ذلك القول مع الاعتقاد وعاقبته حسرة في قلوبهم على من فقد من اخوانهم، يزيدهم ضعفا ويورثهم ندما على تمكينهم إياهم من التعرض لماظنوه سببا ضروريا للموت، فانكم اذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل مايصيبهم، وتضعفون عن القتال كما يضعفون، فلايكون لكم امتياز عليهم بالبصيرة النيرة التي يرى صاحبها ان الذي وقع هو مالا بد منه فلا يتحسر عليه، ولا بالايمان الذي لايزيد ذلك صاحبه الا إيمانا وتسليما،

﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي والحقيقة أن الله تعالى يحيي من يشاء بمقتضى سننه في بقاء أسباب الحياة وان طوى بالاسفار بساط كل بر، ونشر شراع كل بحر، وخاض معامع الحروب، وصارع الاهوال والخطوب، ويميت من يشاء بمقتضى سننه في أسباب الموت وإن اعتصم في الحصون المشيدة، وحُرس بالجنود المجندة،

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه ما تكنون في أنفسكم من الاعتقاد، وما يؤثر في قلوبكم من الاقوال والاحوال، فاحرصوا على ان يكون تركك لأقوال الكفار ناشئا عن طهارة نفوسكم من وساوسهم

وقال الاستاذ الإمام: أي ان الحياة والممات بيد الله تعالى وهو ممد الموجودات كلها بما يحفظ وجودها والعالمين بحياتهم وموتهم فلا يليق بالعاقل أن يقول لمن أماته لو

في عتب ولا توبيخ اهتداء بكتاب الله تعالى فقد انزل الله عليه آيات كثيرة في الواقعة بيّن فيها ما كان من ضعف في المسلمين وعصيان وتقصير حتى ما كان متعلقا بالظنون الفكرية والهموم النفسية ولكن مع العتب اللطيف المقرون بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة وفوائد المصائب وقد كان خُلقه (ص) القرآن كما ورد في الصحيح من حديث عائشة (رض)

أقول كأنه يقول انه قد كان من اصحابك يامحمد ما كان كما دلت عليه الآيات وهو مما يؤاخذون عليه فلنت لهم وعاملتهم بالحسنى وإنما لنت لهم بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها فعمت الناس فوائدها وجعل القرآن ممدا لها بما هداك اليه من الآداب العالية والحكم السامية التي هونت عليك المصائب وعلمتك منافعها وحكمها وحسن عواقبها للمعتبر بها ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ لان الفظاظة وهي الشراسة والخشونة في المعاشرة وهي القسوة من الاخلاق المنفرة للناس لايصبرون على معاشرة صاحبها وان كثرت فضائله ، ورجيت فواضله ، بل يتفرقون و يذهبون من حوله ، و يتركونه وشأنه ، لايبالون مايفوتهم من منافع الاقبال عليه ، والتحلق حواليه ، واذاً لفاتهم هدايتك ، ولم تبلغ قلوبهم دعوتك ، ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ فلا تؤاخذهم على مافرطوا وأسأل الله تعالى ان يغفر لهم ولا يؤاخذهم أيضا فبذلك تكون محافظا على تلك الرحمة التي خصك الله بها ، ومداوما لتلك السيرة الحسنة التي هداك الله اليها ، ﴿ وشاورهم في الامر ﴾ العام الذي هو سياسة الامة في الحرب والسلم ، والخوف والامن ، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ، أي دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة (غزوة احد) وإن أخطأوا الرأي فيها فان الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وان كان صوابا لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم ان أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة) فان الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الاكثر ، والخطر على الامة في تفويض أمرها الى الرجل الواحد أشد وأكبر ، قال الاستاذ الامام: ليس من السهل ان يشاور الانسان ولا ان يشير ، واذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع

قال الاستاذ الامام في معنى الحشر الى الله تعالى : انه ليس لله تعالى مكان يحصره فيحشرالناس و يساقون اليه ولكن الانسان يغفل في هذه الدارعن الله فينسي هيبته وجلاله و ينصرف عن استشعار عظمته وسلطانه لاشتغاله بدفع المكاره عن نفسه وجلب اللذات والرغائب لها . وأما ذلك اليوم الذي يحشر له الناس فلا اشتغال فيه بتقويم بنية، ولا التمتع بلذة ،ولا مدافعة عدو، ولا مقاومة مكروه، ولا بتربية نفس، ولا تنزيه حس ، وانما يستقبل فيه كل أحد مايلاقيه من الله تعالى جزاء على عمله لا يشغله عنه شيء فيكون بذلك راجعا عن كل شيء كان فيه الى الله تعالى محشورا مع سائر الناس اليه لا يشغلهم عنه شيء (قال) واذا كان هذا مصير كل من يموت أو يقتل الى الله تعالى مهما كان سبب موته أو قتله ومهما طالت حياته فالاشتغال بذكر سبب هذا المصير ومبدإه لا يفيد وانما الذي يفيد هو الاهتمام بذلك المستقبل والاشتغال بالاستعداد له وذلك دأب العقلاء من المؤمنين

(١٥٩ : ١٥٣) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٦٠ : ١٥٤) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

الكلام التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب النبي (ص) فيما يتعلق بمعاملتهم يقول تعالى لنبيه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ قال الاستاذ الامام ما مثاله مع زيادة و إيضاح: الفاء للتعقيب لان الكلام في واقعة خالف النبي فيها بعض أصحابه فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان حتى أصيب النبي (ص) مع من أصيب فكان من لينه في معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد فلم يتشدد

كل قبيلة أو قريه من أولئك المسلمين رجال من أهل المكانه والرأي احتيج الى وضع قاعدة للشورى كما يظهر بادي الرأي تشترك فيها القبائل البعيدة ولكن النبي (ص) لم يضع هذه القاعدة لحكم وأسباب

(منها) ان هذا الامر يختلف باختلاف أحوال الامة الاجتماعية في الزمان والمكان وكانت تلك المدة القليلة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة مبدأ دخول الناس في دين الله أفواجا وكان (ص) يعلم ان هذا الامر سينمو ويزيد وان الله سيفتح لامته الممالك ويخضع لها الامم وقد بشرها بذلك . فكل هذا كان مانعا من وضع قاعدة للشورى تصلح للامة الاسلامية في عام الفتح وما بعده من حياة النبي (ص) وفي العصر الذي يتلو عصره إذ تفتح الممالك الواسعة وتدخل الشعوب التي سبقت لها المدنية في الاسلام أو في سلطان الاسلام ، إذ لا يمكن ان تكون القواعد الموافقة لذلك الزمن صالحة لكل زمن والمنطبقة على حال العرب في سذاجتهم منطبقة على حالهم بعد ذلك وعلى حال غيرهم ، فكان الاحكم ان يترك وضع قواعد الشورى للامة تضع منها في كل حال ما يليق بها بالشورى

(ومنها) أن النبي (ص) لو وضع قواعد موقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمن لاتخذها المسلمون دينا وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ، وما هي من أمر الدين ولذلك قال الصحابة في اختيار أبي بكر حاكما : رضيه رسول الله (ص) لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ فان قيل كان يمكن ان يذكر فيها انه يجوز للامة ان تتصرف فيها عند الحاجة بالنسخ والتغيير والتبديل . نقول ان الناس قد اتخذوا كلامه في كثير من أمور الدنيا دينا مع قوله « انتم أعلم بأمور دنياكم » وقوله « ما كان من أمر دينكم فإلي وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به » واذا تأمل المنصف المسألة حق التأمل وكان ممن يعرف حقيقة شعور طبقات المؤمنين من العامة والخاصة في مثل ذلك يتجلى له انه يصعب على أكثر الناس ان يرضوا بتغيير شيء وضعه النبي (ص) للامة وإن أجاز لها تغييره بل يقولون إنه أجاز ذلك تواضعا منه وتهذيبا لنا حتى لا يصعب علينا الرجوع عن آرائنا ورأيه هو الرأي الاعلى في كل حال . وقريب مما

وتشعب الرأي، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله تعالى نبيه ان يقرر سنة المشاورة في هذه الامة بالعمل فكان (ص) يستشير أصحابه بغاية اللطف و يصغي الى كل قول ويرجع عن رأيه الى رأيهم . وليس عندي عن الاستاذ في هذه المسألة غير هذا

وأقول : الامر المعرَّف هنا هو أمر المسلمين المضاف اليهم في القاعدة الاولى التي وضعت للحكومة الاسلامية في سورة الشورى المكية وهي قوله تعالى في بيان ما يجب ان يكون عليه أهل هذا الدين (٤٢ : ٣٨ وأمرهم شورى بينهم) فالمراد بالامر أمر الامة الدنيوي الذي يقوم به الحكام عادة لا أمر الدين المحض الذي مداره على الوحي دون الرأي إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر وإنما هو وضع إلهي ليس لاحد فيه رأي لا في عهد النبي (ص) ولا بعده وقد روي ان الصحابة عليهم الرضوان كانوا لا يعرضون رأيهم مع قول النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل الدنيا الا بعد العلم بأنه قاله عن رأي لا عن وحي كما فعلوا يوم بدر إذ جاء النبي (ص) أدنى ماء من بدر فنزل عنده فقال الحباب بن المنذر بن الجموح يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال يارسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ما وراءه الخ ما قال فقال له النبي (ص) : لقد أشرت بالرأي، وعمل برأيه

أقام النبي (ص) هذا الركن (الشورى) في زمنه بحسب مقتضى الحال من حيث قلة المسلمين واجتماعهم معه في مسجد واحد في زمن وجوب الهجرة التي انتهت بفتح مكة فكان يستشير السواد الاعظم منهم وهم الذين يكونون معه و يخص أهل الرأي والمكانة من الراسخين بالامور التي يضر إفشاؤها فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب فلم يبرم الامر حتى صرح المهاجرون ثم الانصار بالموافقة . واستشارهم جميعا يوم أحد أيضا كما تقدم. وهكذا كان يستشيرهم في كل أمر من أمور الامة الا ما ينزل عليه الوحي ببيانه فينفذه حتما ، ولما كثر المسلمون وامتد حكم الاسلام بعد الفتح الى الاماكن البعيدة عن المدينة وكان في

كيف أقدم أبو بكر على هـذا الامر المخالف للنص ولم يكن مجمعا عليه حينئذ لانكم تدعون انه إنما أجمع عليه بعد ذلك : والصواب ان بيعة عمر كانت بالشورى ولـكن هذه الشورى حصلت في عهد أبي بكر وهو الذي تولاها بنفسه كما قلنا آنفا وإنما تعجل ذلك لخوفه على الامة فتنة التفرق والخلاف من بعده فشاور أهل الرأي والمكانة من الصحابة فيمن يلي الامر بعده فرأى الا كثرين منهم يوافقونه على ان أمثلهم عمر ورأى بعضهم يخاف من شـدته فـكان يجتهد في إزالة ذلك من قلوبهم بمثل قوله إنه يراني كثير اللين فيشتد أي لاجل ان يكون من مجموع سيرتهما الاعتدال أو ما هذا مغزاه . حتى انه تـكلف صعود المنبر قبل وفاته وتـكلم في المسألة بما أقنع القوم فعهد اليه في الامر في حياته فـكان ذلك كتوكيل له في مرضه وترشيح له من بعده وإنما العمدة في جعله أمـيرا على مبايعة الامة والمبايعة لاتتوقف صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج الى الشورى لاجل جمع الـكلمة على واحد ترضاه الامة فاذا أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الآن في الحـكومة الجمهورية وما هو في معناها حصل المقصود . وماسبق لابي بكر من المشاورة والاقناع في تولية عمر أغنى عن المشاورة بعـد وفاته فاتفق الجمع على مبايعته وصدق عليه انه اتفاق بعد شورى أو بسبب الشورى

واما جعل عمر الشورى في نفر معينين فهو اجتهاد منه في إقامة هذا الركن مع اتقاء فتنة الخلاف التي تخشى من تكثير عدد المتشاورين فأولئك النفر الذين جعلها فيهم هم أهل الرأي والمـكانة في الامة الذين تخضع لرأيهم اذا اتفقوا وتتعصب لهم اذا اختلفوا لان لـكل واحد منهم عصبة يرونه أهلا للامارة على المسلمين . وكان هؤلاء الذين اختارهم عمر (رض) هم أولي الامر أو خواص أولي الامر وزعماءهم وهم الاحق بالشورى كما يؤخذ من الامر في الـكتاب العزيز بطاعة أولي الامر مع قوله عز وجل (٤ : ٨٣ واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهـم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ومن المشهور ان للمفسرين في أولي الامر قولين أحدهما أنهم الامراء الحاكمون وثانيهما أنهم العلماء ومن الناس من يعبر بكلمة الفقهاء ومن المعلوم انه لم يكن مع النبي (ص)

نحن فيه تقديم الامام احمد رحمه الله تعالى العمل بالحديث الضعيف والمرسل على القياس وتعليله بما علله به

(ومنها) انه لو وضع تلك القواعد من عند نفسه عليه الصلاة والسلام لكان غير عامل بالشورى وذلك محال لانه معصوم من مخالفة أمر الله ولو وضعها بمشاورة من معه من المسلمين لقرر فيها رأي الاكثرين منهم كما فعل في الخروج الى أُحُد وقد تقدم أن رأي الاكثرين كان خطأ ومخالفا لرأيه صلى الله عليه وسلم فهل يرضى (ص) ان يحكم أمثال أولئك القوم ومن دونهم كأكثر من دخل في الاسلام بعد الفتح في أصول وقواعد الحكومة ؟ أليس تركها للامة تقرر في كل زمان ما يؤهلها له باستعدادها هو الاحكم ؟

بلى وقد تبين كنه ذلك الاستعداد بعد ذلك وانه غير كاف لوضع قانون كافل لقيام المصلحة ولذلك بادر عمر الى مبايعة أبي بكر (رضي الله عنهما) خوف الخلاف المهلك للامة وصرح بعد ذلك بأن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها لا يجوز العود إلى مثلها ، وكذلك استشار أبو بكر كبراء الصحابة في العهد الى عمر فلما علم رضاهم عهد اليه حتى لا يكون للتفرق والخلاف مجال كما يأتي قريبا. ولو كان الصديق (رض) يعتقد أن الامة مستعدة لإقامة الشورى على وجهها مع الامن من التفرق والخلاف لترك لها الامر ولم يحاول جمع كلمة أولي الامر منها في حياته على من يراه هو الاصلح حتى يموت آمنا عليها من تفرق الكلمة .

يقول قوم : إن بيعة عمر كانت بالعهد لا بالشورى التي هي الاساس للحكومة الاسلامية بنص الكتاب العزيز وهذا العهد رأي صحابي لا يصح أن يكون ناسخا للقرآن ولا مخصصا ولا مقيدا له فكيف عمل به جمهور الصحابة واتخذه الفقهاء قاعدة شرعية ؟ اذا أورد هذا السؤال شيعي أو غير شيعي من الباحثين المستقلين على أحد المشتغلين بالفقه يجيبه بناء على قواعده انه رأي قبله الصحابة وأجمعوا عليه والاجماع حجة مستقلة يجب العمل بها . ونحن نعلم ان الشيعة والمستقلين بالعلم من غيرهم لا يقنعهم هذا الجواب فهم ينازعون في حصول هذا الاجماع وفي جواز مثله مع النص وكونه في مسألة قطعية لا تقوم المصلحة بدونها ويقولون على فرض التسليم

في سياسته وحكمه بأن يستشير حتى بعد ان كان ما كان من خطأ من غلب رأيهم في الشورى يوم أحد ، ثم يترك المسلمون الشورى لا يطالبون بها وهم المخاطبون في القرآن بالامور العامة كما تقدم بيانه مرارا كثيرة ؟ ؟ هذا وقد بلغ ملوكهم من الظلم والاستبداد مبلغا صاروا فيه عارا على الاسلام بل على البشر كلهم الا من يتبرأ منهم، ويبذل جهده في اراحة العالم من شرهم وسنعود إلى موضوع الحكومة الاسلامية عند الكلام على أولي الامر في سورة النساء ان شاء الله تعالى

قال تعالى بعد أمر نبيه بالمشاورة ﴿فاذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي فاذا عزمت بعد المشاورة في الامر على إمضاء ما ترجحه الشورى فتوكل على الله فى إمضائه وكن واثقا بمعونته وتأييده لك فيه ولا تتكل على حولك وقوتك بل اعلم ان وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وا كمل، يجب ان تكون بها الثقة وعليها المعوّل، واليها الملجأ اذا تقطعت الاسباب، وأغلقت الابواب

قال الاستاذ الامام ما معناه: ان العزم على الفعل وان كان يكون بعد الفكر و إحكام الرأي والمشاورة وأخذ الاهبة فذلك كله لا يكفي للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه لان الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يحيط بها الا الله تعالى فلابد للمؤمن من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته ﴿ ان الله يحب المتوكلين ﴾ عليه . أقول ومن أحبه الله عصمه من الغرور باستعداده ، والركون الى عدته وعتاده ، والبطر الذي يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك حتى لا يقدره قدره ، ولا يحكم فيه أمره ، فبدلا من ان يكون نظره فى الامور بعين العجب والغرور واستماعه لا بنائها بأذن الغفلة والازدراء ومباشرته لها بيد التهاون يلقي السمع وهو شهيد ، وينظر بعين العبرة فبصره حينئذ حديد ، و يبطش بيد الحزم فبطشه قوي شديد، ذلك بأنه يسمع ويبصر و يعمل للحق لا للباطل الذي يزينه الهوى ويدلي به الغرور فيكون مصداقا للحديث القدسي «فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها»

الآية صريحة فى وجوب إمضاء العزيمة الحاصلة بشروطها واهمها فى الامور العامة حربية كانت أو سياسية أو ادارية المشاورة وذلك ان نقض العزيمة ضعف .

أمراء حاكمون ولا صنف يسمى الفقهاء وانما المراد بأولي الامر الذين ترد اليهم مسائل الأمن والخوف وما في معناها من الامور العامة ، هؤلاء هم أهل الرأي والمكانة في الامة وهم العلماء بمصالحها وطرق حفظها والمقبولة آراؤهم عند عامتها — فما فعله أبو بكر وعمر هو منتهى ما يمكن ان يعمل في إقامة الشورى بحسب حال الامة واستعدادها في زمنهما . ثم ان المسلمين بادروا بعد قتل عثمان الى مبايعة علي من غير اهتمام بالتشاور لان الكفاءة التي يرونها فيه لم تكن تقبل شركة تدعو إلى اجالة الرأي . فمبايعة الخلفاء الراشدين كانت من الامة برضاها وكانوا يستشيرون أهل العلم والرأي في كل شيء الا أن بني امية قد أحاطوا بعثمان وغلبوا الامة على رأيها عنده فكان من عاقبة ذلك ما كان من الفتن حتى استقر الامر فيهم بقوة العصبية والدهاء، لا باستشارة الدهماء، فهم الذين هدموا قاعدة الحكم بالشورى في الاسلام بدلا من اقامتها ، ووضع القوانين التي تحفظها ، وتجعل استفادة الامة منها تابعة لتقدم العلوم والمعارف وأعمال العمران فيها، ولولا هذا لكان ذلك الملك الذي وسعوا دائرته بالفتوحات أثبت في نفسه ولهم، ولكان شأن الاسلام أعظم، وانتشاره أكثر وأعم ،على أن هذا الاستبداد منهم قد كان معظمه مصروفا الى المحافظة على سلطتهم، و بقاء الملك في أسرتهم ، قلما يتسرب منه شيء الى الإدارة والقضاء وكانت حرية انتقاد الحكام على كمالها حتى تبرم منها عبد الملك بن مروان فقال على المنبر : من قال لي اتق الله ضربت عنقه!! . كما روي عن بعض المؤرخين . ولكنهم كانوا يتصرفون في بيت المال بأهوائهم في الغالب . ولما أفضى الامر الى وارث الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أراد ان يخرجه منهم فلم يتيسر له ذلك

ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين لما كان للاعاجم من السلطان في ملكهم وجرى سائر ملوك المسلمين على ذلك وجاراهم عليه علماء الدين بعدما كان لعلماء السلف الصالح من الانكار الشديد على الملوك والامراء في زمن بني أمية واوائل زمن العباسيين فظن البعيد عن المسلمين والقريب منهم ان السلطة في الاسلام استبدادية شخصية ، وان الشورى محمدة اختيارية، فيالله العجب :أيصرح كتاب الله بأن الامر شورى فيجعل ذلك أمرا ثابتا مقررا ويأمر نبيه المعصوم من اتباع الهوى

بما يستطاع من حول وقوة ، أي ان ينصركم الله بالعمل بسننه ، وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتكال على توفيقه ومعونته ، فلا غالب لكم من الناس ، الذين نصبهم حرمانهم من التوكل عليه تعالى غرضا للقنوط واليأس ، ﴿ وإن يخذلكم ﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل ، وعصيان القائد فيما حتمه من عمل ، كما جرى لكم في أحد ، أو بالاعجاب بالكثرة ، والاعتماد على الاستعداد والقوة ، وهو مخل بالتوكل كما جرى يوم حنين ، ﴿ فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ أي من بعد خذلانه أي لا أحد يملك لكم حينئذ نصرا ، ولا أن يدفع عنكم ضرا ، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولا يتوكلوا على غيره لان النصر بيده ، وهو الموفق لاسبابه وأهبه ، وقد بينا اكثر من مرة اسباب النصر الحسية والمعنوية (راجع لفظ نصر في فهارس الاجزاء السابقة)

اعجاز القرآن

« قطعة للجاحظ »

سلك أئمة البلاغة في الكلام عن اعجاز القرآن الحكيم سبلا عديدة وذهبوا مذاهب مختلفة في تبيين وجوه الاعجاز وبيان أساليب التحدي وكان الباقلاني أكثرهم إيفاء للكلام في كتابه (اعجاز القرآن) الذي جعله خاصا بهذا الموضوع . بيد ان الجاحظ وهو إمام الكتاب ورئيس المنشئين سلك سبيلاً أخرى في كلامه عن اعجاز القرآن فانه لم يتعرض الى دقائق الفصاحة وفلسفة البلاغة وبيان مناحي الكلام ومسالك النظم والنثر بل تكلم عن الاعجاز باعتبار كونه ثابتا واقعا واليك كلامه :

في النفس وزلزال في الاخلاق لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل فاذا كان ناقض العزيمة رئيس حكومة أو قائد جيش كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضا للثقة بحكومته و بجيشه ولاسيما اذا كان بعد الشروع في العمل ولذلك لم يصغ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الى قول الذين أشاروا عليه بالخروج الى أحد حين أرادوا الرجوع عن رأيهم خشية أن يكونوا قد استكرهوه على الخروج وكان قد لبس لامته وخرج وذلك شروع في العمل بعد أن أخذت الشورى حقها كما تقدم تفصيله فعلمهم بذلك أن لكل عمل وقتا وأن وقت المشاورة متى انتهى جاء دور العمل وأن الرئيس اذا شرع في العمل تنفيذا للشورى لا يجوز له أن ينقض عزيمته ويبطل عمله وان كان يرى أن أهل الشورى أخطأوا الرأي كما كان يرى (ص) في مسألة الخروج الى أحد كما تقدم . ويمكن إرجاع ذلك إلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين. وأي ضرر أشد من فسخ العزيمة وما فيه من إبطال الثقة ؟

وإننا نرى أهل السياسة والحرب يجرون على هذه القاعدة في هذا العصر ومن الوقائع التي توجب العبرة في ذلك ان الاستاذ الامام لما كان في لندره عاصمة انكلترا سنة ١٣٠١ ذاكر وزراء الانكليز في أمور مصر والسودان التماس خدمته لبلاده وقد سأله يومئذ رئيس الوزراء أو غيره منهم (الشك مني) عن رأيه في حملة هكس باشا التي أرسلوها لمحاربة مهدي السودان الذي ظهر في ذلك الوقت فبين له بعد مراجعة طويلة ان هذه الحملة لا تنجح بل يقضي عليها السودانيون . ثم عاد الاستاذ من أوربا الى بيروت و بعد عودته جاءت الاخبار بقتل هكس باشا وتنكيل السودانيين بحملته فأرسل الاستاذ الامام رسالة برقية للوزير الانكليزي يذكره فيها برأيه وكيف صدق . فجاءه الجواب في ذلك اليوم من الوزير ومعناه قد علمنا ان ما قلته لنا معقول وجيه ولكن السياسة متى قررت شيئا وشرعت فيه وجب إمضاؤه وامتنع نقضه والرجوع عنه وإن كان خطأ

﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ الكلام استئناف مسوق لبيان وجه وجوب التوكل على الله تعالى بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الاهبة ، والاستعداد

تتمة الخطبة الاولى

﴿ من خطبنا الاسلامية في الديار السورية ﴾

تابع لما نشر في (ص ٦٤١ ج ٩ م ١١)

الاسلام هو الذي هدى المسلمين الى العلم ، وكانت عنايتهم بالعلوم تنمو بنمو سلطانهم وقوة شوكتهم ، ثم دالت دولة العلم ، ودولة السيادة والحكم ، وضعف الدين مع ضعف العلوم العقلية ، وقام الاستبداد يحارب العلم ويضطهده ، فان الحاكم المستبد يرى من مصلحته ان تكون الامة جاهلة ذليلة ، اذ الاستبداد في الامة العالمة بحقوقها أمر عسير غير يسير . قال حكيمنا السيد جمال الدين : العاقل لا يظلم ولاسيما إذا كان امة . فهذا سبب ما كنتم تقاسون من محاربة الحكومة التي سقطت منذ عهد قريب للعلم ، واضطهادها للمتهمين به وهو عندها أشد الجرائم !!!

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم لا يجارون أحدا من الامم في العلوم والفنون ، وقد ذاقوا مرارة ذلك ورأوا سوء عاقبته في أنفسهم ودولتهم ، فصاروا يفتنون من كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون ، كما قال الله تعالى في المنافقين : تنقص بلادهم من اطرافها وتسقط في أيدي الاجانب ولاية بعد ولاية بل مملكة بعد مملكة وهم لا يهتدون الى سبب ذلك ولا الى طريق تلافيه ، بل يعتمدون ويتكلون على مالا يتكل عليه من كرامات الاولياء ومدد الاموات! ولم يجعل الله ذلك سببا للنصر بل أمر باعداد ما يستطاع من القوة ، حتى في زمن النبي المؤيد بالآيات الإلهية ،

اذكر لكم من الشواهد على ذلك ما يؤثر عن أهل بخارى : فانهم أنذروا هجمة روسيا عليهم فلم يعدوا لها ما يستطيعون من قوة ، بل هزئوا بذلك وسخروا ، وقالوا ان بلادنا في حماية شاه نقشبند ! (هو الولي الذي تعزى اليه الطريقة النقشبندية) فلما

بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام في زمن أكثر ماكانت العرب فيه شاعرا وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة ، فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، نصب لهمَ الحرب ونصبوا له ، وقتل من عِليتهم واعمامهم وبني اعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء الى معارضته — ان كان كاذبا — بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما أراد تحدّيا لهم بها وتقريعا لهم بعجزهم عنها قالوا له انت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا .

قال فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أمته ، لأن سورة واحدة وآية يسيرة كانت انقض لقوله ، وابلغ في تكذيبه ، واسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الاموال ،

وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والنبل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الاسجاع واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به اقصاهم ، بعد ان ظهر به عجز أدناهم ، فمحال — أرشدك الله — ان يجتمع هؤلاء كلهم في الامر الظاهر ، والخطاب المكشوف البين ، مع التقريع بالتقصير والتوقيف — على العجز وهم أشد الخلق أنَفة وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد أعمالهم ، وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الامر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، كما انه محال ان يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة ، فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه ،

قادرون على حملهم على تعلمها والاخذ بما فيها ، فيجب أن تبحثوا معنا عن طريق آخر لتعليم الدين بسهولة تليق بفطرة الناس في أفرادهم وجمعياتهم ، كما أخطأتم في ظنكم ان العلوم التي تبنى عليها الاعمال تنافي الدين فنفرتم المسلمين عما به قوام أمتهم ودولتهم

والتفتت الى أولئك الذين يريدون الدنيا بترك الدين فقالت لهم ان قصدكم الى تقوية الامة والدولة حسن ولكنكم تبنون من جهة وتهدمون من جهة فيقل نفعكم فيما تبنون لعدم الثقة بكم ، ويعظم ضرركم بما تهدمون من أساس التقوى والفضيلة ، مع التقاليد والبدع القبيحة

هذه الطائفة هي التي تدعو الى حقيقة الاسلام الذي يجمع لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة ومطالب الروح والجسد . وأول من دعا الى ذلك في بلادنا العربية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى . طرق سمع كثير منكم اسم هذا الرجل الذي هز الآفاق هزا ، ولكن يوجد فيكم من لا يعرف شيئا من أنبائه الصحيحة لكثرة خوض أهل الاهواء فيها ، وقد كان مخاطبكم ممن استقرأ أخباره ، وتتبع آثاره ، وجمع كثيرا مما كتبه ، وقد علمت من ذلك انه دعا الى حقيقة الاسلام وإحياء القرآن في قلوب الناس ، ودعوتهم به الى ما يحييهم ، ويجعلهم أمة عزيزة ، ذات دولة أو دول قوية ، ولكنه قد انفق أكثر أيام عمره في السياسة ، لما رأى ان الملوك يقاومون هذه الدعوة ، لأن البلاد التي تحكم بالاستبداد ، لا مقام فيها للاصلاح والاستقلال

بالله عليكم كيف يرضى الحاكم المستبد بالدعوة الى هداية القرآن الذي يجعل أمر المسلمين شورى بينهم ، وإنما استبداده عبارة عن جعل أمرهم بيده وحده ، وجعلهم عبيدا خاضعين له ؟ كيف يرضى بأن يكون شأنه في سياستهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان لا يبرم أمرا من الامور العامة الا بعد الشورى حتى انه كان يعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه ورأي بعض كبراء أصحابه كما فعل يوم أحد؟!! (وذكرنا ملخص الخبر فيها في الخطبة) ألا ان أولئك المستبدين يحاولون ان تكون رتبتهم فوق رتبة النبي عليه الصلاة والسلام وهم لا يصلحون ان يكونوا خدمة له ، بل يحاولون ان يكونوا آلهة تعبد ، يستخفون الامة ويستعبدونها بالفعل ، وان وجدوا مجال القول

زحف عليهم جيش الروس لم يملكوا من نجدة هـذا الولي لهم شيئا ، بل انقلبوا على أعقابهم خاسرين ، وخسروا استقلالهم وما كانوا معتبرين

فيا أيها الناس تأملوا وتدبروا : إذا تركت الامة أن تعدّ لاعدائها ما تستطيع من قوة كما أمر الله تعـالى وكما تقتضي طبيعة الاجتماع ؛ واتكلت في حياتها السياسية والاجتماعية على الاموات ألا تكون جديرة بالموت دون الحياة ؟ بلى وهـذه هي حالنا في هذه القرون الاخيرة ، ولكن الله تعالى وعد بأن يظهر هذا الدين ، وان لا يذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؛ ولذلك سخر لنا من المجددين من يعلمنا كيف نحفظ شرف الاسلام ، ونكون أعزاء بين الانام ؛ :

ظهر بين المسلمين أقوام تعلموا العلوم الاوربية وعرفوا أحوال العالم فرأوا ان جميع الامم تقوى والمسلمين يضعفون ؛ ودول النصرانية والوثنية ترتقي وتعز ، ودول الاسلام تتدلى وتذل ، وبحثوا في سبب ذلك فرأوا ان المسلمين مؤلفون من كل جنس ، ومتبوّئون لـكل أرض ؛ فـلا يمكن ان يكون سبب ضعفهم في كل قطر عدم استعداد جنسهم ، ولا شيء يرجع إلى طبيعة أرضهم ؛ ولم يروا سـببا مشتركا بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم ، الا تقاليد دينهم ؛ فقالوا — كما قال بعض أساتذتهم من الافرنج — ان دين المسلمين هو سبب انحطاطهم ولا مطمع لهم في الارتقاء الا بتركه والاخذ بما عليه أوربا !! ، وعلى هذا الرأي الفاسد كثير من نابتة الترك والهنود والمصريين والتونسيين

فهذا صنف واقف على طرف مقابل للطرف الذي عليه السواد الاعظم الذي يمقت العـلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية التي عليها مدار العمران ؛ والصنفان يتجاذبان سائر المسلمين ، ذاك يدعوهم الى دنيا بغير دين ؛ وذاك يمسكهم ليبقوا على ماهم عليه وما هم بباقين ؛

بين هذين قامت طائفة معتدلة وقفت موقف الوسط بين الفريقين فالتفتت الى هؤلاء الذين يريدون ان يبقى المسلمون على ماهم عليه حرصا على دينهم وقالت لهم ان نيتكم صالحة ولكنكم تنكبتم الطريق لتعليم الدين وحفظه حتى صار بين أمتكم وبين هذه الكتب الـكلامية والفقهية مراحل كثيرة ، فلا هم يطلبونها ولا أنتم

مرضا ألمّ به فمنعه النزول من عين شمس الى القاهرة ، فجئته فاذا هو في حجرة النوم واذا بين يديه ثلاثة كتب مفتوحة ينظر فيها ، فقلت له ماهذه الكتب وماهذا المرض؟ فقال هذه كتب من أصول الفقه أشغل نفسي بمباحثها وعباراتها المعقدة عن القرآن فقد اطلت الفكر فيه وفي أحوال المسلمين فحصل لي التنبه العصبي الذي تعرف حتى أثر في ظاهر جلدي فاذا أنا وضعت أصبعي على جبهتي أتألم

اشتغل الاستاذ الامام بالسياسة زمنا مع السيد ثم وجد في أواخر عمره حرية في مصر فترك السياسة واشتغل بالاصلاح الديني والاجتماعي ، واشتهر أمره بذلك حتى عرفه الاقارب والاجانب. أليس من العجب ان يوجد في كتاب فرنسا من يشهد بأن طريقة الاستاذ الامام هي الطريقة المثلى لإصلاح حال المسلمين ، ويوجد في المسلمين انفسهم من يقول بضرر تعاليمه عن جهل وغباوة ، أوتقليد للمرجفين عن بغي وحسد ؟

نشرت جريدة الاهرام منذ شهرين مقالة مترجمة عن جريدة الطان الفرنسية الشهيرة جاء فيها : ان المسلمين في تونس ثلاث طبقات (الاولى الجامدة) وهي التي تحرص على بقاء المسلمين على ماهم عليه وتنفر من العلوم العصرية والمدنية الغربية وأهلها هم الاكثرون (الثانية المارقة) وهي التي تنكر الدين ولا ترى ان تقف عند حدوده في شيء وأهلها هم الاقلون وهم يخفون مذهبهم هذا لضعفهم ولا يرجى منهم خير لا منهم (الثالثة المعتدلة) وهي التي تعمل لترقية المسلمين في العلوم والمدنية مع المحافظة على دين الاسلام وهي التي يرجى منها الخير للبلاد التونسية وأهلها يتبعون التعاليم التي كان يلقيها في مصر الشيخ محمد عبده والتي تنشرها بينهم مجلة المنار. وقد كتب اكثر من واحد من الافرنج مثل هذا عن مسلمي مصر وهو ما كتبه لورد كرومر في تقاريره وتاريخه لمصر

فهذه طريقتنا أيها الاخوان في الاصلاح . نريد ان نجمع لأمتنا بين مصالح الدنيا والآخرة ، وقد عرف هذا كتاب الافرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين انفسهم ان يجهلوه !

نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها

ذاسعة صرحوا بما يودعه الاستبداد في نفوسهم كما فعل الذي قال «أنا ربكم الاعلى»

لذلك أقول لكم عن خبرة و بصيرة ان الذي دعا السيد جمال الدين الى الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده ان الدعوة لا تكون الاحيث تكون الحرية وحكومة الشورى، ولهذا قام في مصر بتأسيس حزب له نفخ فيه روح حب الحكم الذاتي أو النيابي، وكان من أعضاء حزبه توفيق باشا ولي العهد للامارة المصرية يومئذ، وقد عاهده على ان يجعل لمصر — اذ يصير الامر اليه — مجلسا نيابيا ويحول الحكومة بذلك من النوع الاستبدادي المطلق الى النوع الشوري المقيد، ولكنه لم يكد يستقر على كرسي الامر حتى نفى السيد جمال الدين من مصر حبا في الاستبداد، وتلذذاً بالاستعباد. ولكن السيد لم يملَّ ولم ييأس، بل صبر ينتهز الفرص، فجذبته الايام الى بلاد الفرس فاستأنف فيها العمل لإنشاء حكومة الشورى فنفاه الشاه من البلاد، ولقي من البلاء في ذلك مالم يلقه الا قليل من العباد، ثم قذفت به المقادير الى الاستانة فأحسن السلطان اليه، حتى طمع فيه، ولكنه ماعتّم ان يئس منه، حتى مات هناك غير راض ولا مرضي عنه، هكذا قضى حياته في التطويف في البلاد ولم يتخذ له زوجة ولا جنح الى شيء من حظوظ الدنيا

كان للسيد مريدون كثيرون يردون ينبوع معارفه، ولكن لم يصدر أحد منهم ريّان من مشربه، و يثبت على مذهبه، الا الشيخ محمد عبده، فقدكان هذا الامام الجليل تربى تربية دينية صحيحة الاما كان من غلوه في العبادة، فقد مكث زمناطويلا لايكلم أحدا، وزمنا أطول من ذلك الزمن لاينظر الا الى الارض ولا يهتم بغير إصلاح نفسه، الاماكان من درس يقرؤه لاخوانه المجاورين في الازهر، ثم رجع الى الاعتدال ولكن لم يفارقه الخشوع ورقة القلب . ولقد دخلت عليه مرة بيته فرأيته يطالع في السيرة النبوية ودموعه تجري على لحيته، خشوعا واعتبارا بما لقيه (ص) من الاذى في سبيل ربه، وكان في كل سنة أو أكثر يعتريه تنبه عصبي من إطالة الفكر في سوء حال المسلمين حتى همَّ في ليلة من ليالي رمضان أن يطيع هذا الوجدان فينزل الى جوار الازبكية حيث مجامع اللهو و ينادي : أيها المسلمون ماذا رأيتم في دينكم من العيب حتى تركتموه ؟ اخبروني لعلي أبين لكم خطأكم . وأرسل اليَّ مرة يخبرني بأن

الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٢

بروتوكل لوندره ورفضه

سمي جمهور المبعوثين بعد ذلك (اوت افندم) لتصديقهم على كلام الرئيس بدون مناقشة ولا مباحثة ، ولكن كان فيهم — والحق يقال — فئة عارفين بمصالح الدولة وطرق الاصلاح ، جسورين على التكلم والدفاع عن حقوق الامة والمناضلة في سبيل منافعها ، غير ان الحال كانت ذات خطر شديد لأن العدو كان يتأهب للحرب على الحدود ، فأراد رئيس المجلس تحويل المذاكرات الى المسائل الخارجية لان مندوبي الدول الست الذين عقدوا مؤتمر الاستانة اجتمعوا في لوندره وليس للدولة العليـــة مندوب معهم ، ووقعوا بتاريخ ٣١ مارث (مارس) سنة ١٨٧٧ على (بروتوكل) أي مضبطة طلبوا فيها من الباب العالي عقد الصلح مع الجبل الاسود ، والتفرغ له عن نحو عشرين ناحية من املاك الدولة العلية لكون لسانهـم سلافيا ودينهم مسيحيا !!! كما طلبوا اجراء الاصلاحات الموعود بهـا تحت مراقبة الدول وإشرافها وغير ذلك ، وأبلغوا هذه المضبطة الى الباب العالي في ٣ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

جاء ناظر الخارجيـة الى مجلس المبعوثان وقرأ على أعضائه ترجمة البروتوكل وشرح لهم أحوال السياسة الخارجية وأفهمهم ان رد البروتوكل تكون نتيجتـه اعلان روسيا للحرب علينا ، وليس للدولة العلية عضد من بقية الدول كما كان لها في حرب القرم ، ولا نقود في خزينتها . وكرر عليهـم ما قاله مدحت باشا في المجلس

*) تابع لما نشر في (ص ٦٤٦ ج ٩ م ١١) من رسالة محمد روحي افندي الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

أمتنا وتعتز بها دولتنا . ولا يكون الخير في ذلك تاما لنا إلا اذا أقمنا معه أصول ديننا وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح ، ولا تنافي بين الامرين ، فنحن اذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة . فهذه الطريقة الإصلاحية التي دعانا اليها حكيما الاسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هي التي يدعو اليها المنار ويناضل عنها ، وهو مستعد بعونة الله تعالى للتوفيق بين العلوم الحقيقية وأصول المدنية الصحيحة وبين الكتاب والسنة ، ومن اشتبه عليه شيء في ذلك فليكتب اليه به يفصله له تفصيلاً

قد انتشرت دعوتنا هذه في جميع الاقطار حتى ان جماعة من علماء الترك أنشأوا مجلة إسلامية في الاستانة سموها « صراط مستقيم » فكتبوا إليّ يطلبون مجلدات المنار كلها ليستعينوا بها على خدمتهم هذه . فهم على علم بطريقتنا في الاصلاح على كون المنار كان ممنوعا عنهم وقلما يصل الى الاستانة جزء منه ، فندعو جميع علماء المسلمين هنا وفي كل مكان الى هذه الطريقة بل ندعو اليها كل مسلم « وتعاونوا على البر والتقوى » وينبغي لكل مسلم أن يكون له حظ من اصلاح حال أمته في دينها ودنياها ، فمنهم من يدعو ومنهم من يستجيب للداعي ومنهم من يساعده بحاله ، ومنهم من يساعده بماله ، والسلام على من اتبع الهدى ورجح العقل على الهوى ، اهـ ما كتبه ذلك الاديب من الخطبة مع تصحيح وتوضيح وزيادة فاتته

(استدراك) بعد النزول عن المنبر تذكرت ما كنت عازما عليه من التنويه بصديقنا عبد الرحمن افندي الكواكبي فذكرت فضله بمساعدة الاصلاح الديني والاجتماعي بكتابه (سجل جمعية أم القرى) والاصلاح السياسي بكتابه (طبائع الاستبداد) رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه

الاصلاحات وانما ترفض الاشراف والمراقبة على اعمالها ، لان في ذلك غمطا لحقها وازراء بشرفها وعبثا باستقلالها الذي اقرت عليه الدول الموقعة على معاهدة باريس. وصارت النشرات (سيركولير) والمحررات السياسية تتطاير من عواصم أوربا والانذارات (ميمورواندوم) والمذاكرات تتساقط على السفراء ونظار الخارجية فلم يجد ذلك نفعا بل اعلنت الحرب في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

مناقشات مجلس المبعوثان وانفضاضه

بحث المجلس بعد ذلك في لائحة نظام الولايات وتشكيل مجالس الادارة وذكر في اللائحة ان مجلس ادارة الولاية يتألف من ستة أعضاء ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين ،فاعترض بعض المبعوثين على هذا التخصيص الذي هو داعية للتفريق ،وقالوا : إن القانون الاساسي أطلق على جميع الرعية اسم (عثمانيين) بدون تفريق بينهم في الدين والمذاهب ،وان الاكثرية في مجالس الادارة تكون من حق المسلمين ، لان الموظفين كالوالي والدفتردار (رئيس المحاسبة) والمكتوبجي ونحوهم أعضاء دائمون في مجلس ادارة الولاية ،وطلبوا إخراج المفتين من بين الاعضاء الدائمين لكونهم بمثابة الرؤساء الروحيين.

فقال الرئيس : ليس للمفتين صفة دينية كصفة الرؤساء الروحيين ، ورغم انتشار هذا الزعم الفاسد فالمفتي ماهو الا مأمور القانون أي المحامي عن القانون والشريعة، وليس له سيطرة على المسلمين كسيطرة الرئيس الروحي على ابناء ملته ،وانما هو من علماء الحقوق المعروفين عند الافرنج باسم (Jurisconsulte)واعترضوا أيضا على تسمية (متصرف)فقالوا ان هذا الاسم مشتق من التصرف الدال على الاستبداد والاذلال والاستعباد ،فهو لايوافق روح الحرية والمساواة .واستعلم بعض المبعوثين عن احوال معسكر الاناضول ونقصان التجهيزات العسكرية ،وعلى تعيين احد الخدمة قائمقام وقد كان (شوبقجي) اي حامل قصبة التدخين عند بعض الكبراء ، الى غير ذلك.

العالي لدى مذاكراته في لائحة مؤتمر الاستانة ، وكانت اكبر الصعوبات من العسرة المالية ؛ وشدة الاحتياج الى التجهيزات العسكرية . فاعترض اكثر المبعوثين على قبول البروتوكل ، وأظهروا من الحماسة والغيرة الوطنية ما لا مزيد عليه ، وكان مبعوثو الارناؤط المجاورة بلادهم للجبل الاسود أشدهم اعتراضا ، وقام مبعوث الاكراد فقال ما ملخصه : تزعمون أن المالية في ضيق شديد فكيف يمكننا تصديق ذلك وأنتم في هذه البهرجة والالبسة الغالية والدور المفروشة بأحسن الاثاث والرياش والعربات والخيل المطهمة ؟ تعالوا الى عندنا في كردستان وانظروا بؤس العيش ومرارة الحياة التي نحن فيها !! لما كنت في بلادي لم يكن علي إلاّ ألبسة مرقعة بالية كبقية اخواني من أهالي كردستان ، ولما رأيتكم ترتدون أحسن الالبسة وتتألق على صدوركم النياشين المجوهرة خجلت من نفسي فاشتريت الثوب الذي ترونه عليّ من سوق الدلالين !! وأنا مرهق ، لا من المخازن الكبيرة وانا موسر ، واذا كانت سلامة الوطن والمحافظة عليه تقضي عليّ ببيعه فأنا أبيعه وأنا مغبوط وأعود الى ثوبي المرقع .

ثم قال الرئيس في ختام المذاكرة : هل يقبل المجلس ما جاء في البروتوكل لملاحظات ناظر الخارجية ؟ فرفض المجلس قبوله بالاكثرية ، وكانت الاقلية ثمانية عشر صوتا من الروم المبعوثين عن الروم ايلي ومن الارمن . فنظم الباب العالي نشرة مؤرخة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧ احتج فيها على بروتوكل لونده المنظم بدون اطلاعه وانضمام رأيه ، وقال : ان تكليف الباب العالي اجراء الاحكام على مايقضي به هذا البروتوكل مخالف لاستقلال المملكة العثمانية الذي اقرته الدول في معاهدة باريس ، فقرئت هذه النشرة على مجلس المبعوثان فاستحسنها وأقرها وشكر الباب العالي على تنظيمها . فأجاب عنها البرنس غورجاقوف في بطرسبرج بنشرة رفعها إلى الدول في ١٩ نيسان (ابريل) مضمونها : ان الباب العالي رفض اجراء الاصلاح الموعود به فصارت الحرب ضرورية لان روسيا مضطرة الى إيفاء واجباتها نحو الاهالي المسيحيين !!!

فأجاب الباب العالي بنشرة أخرى للدولة قال فيها : ان تركيا لا ترفض اجراء

باشا وعسكره من الشجاعة والمقاومة ما حير الروس وأوربا كلها فاعترفوا بفضلهم وقدروهم قدرهم « والفضل ما شهدت به الاعـداء » ١٠ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧

طلب مدحت باشا وانتخاب المبعوثان ثانية

استنزفت هذه الحرب ثروة البلاد واضعفت قوتها وافرغت صناديق الحكومة من الاموال ، لكثرة الإنفاق وانقطاع الوارد اليهـا من التكاليف والرسوم ، فتقرر إعادة التئام مجلس المبعوثان وطلب مدحت باشا من أوربا ، وعقـد قرض لوندره ، وعقد الصلح مع روسسيا ، فجرى انتخاب ثان بأمور (أوامر) مؤقتة لا كما يقضي نظام انتخاب مجلس المبعوثان

افتتاح مجلس المبعوثان مرة ثانية وخطاب السلطان فيه

افتتح مجلس المبعوثان مرة ثانية في يوم الخميس الواقع في ٧ ذي الحجة سـنة ١٢٩٤ و١٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧ فذهب الوكلاء الفخام والوزراء الكرام والعلماء الاعلام واعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان وسفراء الدول الاجنبية الى سراي بشكطاش واصطفوا على الصورة الآتيـة : فـكان عن يمين الحضرة العلية السلطانيه أدهم باشا الصـدر الاعظم ووكلاء الباب العالي ثم موظفو المجالس العالية ثم رؤساء المذاهب المختلفة ثم اعضاء شورى الدولة ومستشارو النظارات المختلفة وكثيرون من اعيان رجال العسكرية والملكية بحسب رتبهم ومقاماتهم ، وكان عن شمالها حضرات شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة قبلا ثم العلماء من رتبة قاضي عسكر الروم ايلي والاناضولي ثم (الفريقان) الكرام وفريق من العلماء الاعيان . وكان اعضاء مجلس الاعيان أمام الحضرة العلية السلطانية من ناحية اليمين على صفين ، واعضاء مجلس المبعوثان امامها من ناحية الشمال على تسعة صفوف ، وفي الساعة السادسة على الحساب العربي دخل السلطان الاعظم وسـلم الرقيم المشتمل على نطقه لسعيد باشا باشكاتب المابين فتلاه على الحاضرين وهو :

ثم اشتغل مجلس المبعوثان بتدقيق ميزانية المالية ، وطلبت الحكومة خمسة ملايين ليرة عثمانية للدخول في الحرب فتألف قوميسيون من احد عشر مبعوثا للتذرع بالوسائل المؤدية الى الحصول على المبلغ المطلوب . فحاولوا اقتراضه من إنكلترا على ان يكون لها في مقابل ذلك واردات مصر كما فعلوا قبلا فرفضت إقراضهم لان التأمينات غير كافية ، فقرروا عقد قرض داخلي بفائدة عشرة في المئة من واردات اصحاب الأملاك والتجار ، واخذ راتب شهرين من اصحاب الرواتب ، فصدق مجلس المبعوثان على هذا القرض وعلى كل ماطلبته الحكومة منه وختم جلساته في تموز (يوليو) سنة ١٨٧٧ فقال الرئيس: ارجعوا الى ولاياتكم وأعيدوا الانتخابات واجتهدوا بأن ترسلوا الينا مبعوثين او فر عقلا وأكثر وقوفا على ماتحتاج اليه البلاد !!!

فيرى من ذلك ان مجلس المبعوثان — على ضعفه وعجزه وجهل اعضائه في السياسة والادارة — لم يكن منه قصور أو تقصير في وظائفه ، ولم يحصل فيه اختلاف شديد بين المسلمين والمسيحيين ، وانما كانوا جميعا متفقين على مقاومة الاستبداد ومنع التعدي وتبذير الاموال ، وكل منهم عارف بمصالح بلاده الخاصة ، لأن معرفة ذلك لا تحتاج الى علم كبير أو رأي ثاقب لبداهتها ووضوحها كالشمس في رابعة النهار ، غير أن الواقفين منهم على مصالح الدولة العامة وسياستها الخارجية كانوا أقل من القليل ، والحكومة ابت ان تعترف لهم بحق ، بل نظرت اليهم نظر الوصي إلى الصبي !!!

الحرب الروسية العثمانية

استمرت الحرب الروسية العثمانية ثمانية أشهر (نيسان — كانون الاول سنة ١٨٧٧) وابرزت الجنود العثمانية فيها من الشجاعة والصبر والثبات والقوة مادلّ على حياة الامة وفتوتها وسلامة جسمها من اعراض الهرم أو المرض الذي يصفها به العدو ، ولكن نقصان التجهيزات العسكرية وسوء الإدارة كانا سببا في انتصار الروس في أوربا وآسيا ، وتجاوزهم نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان ، وأخذ القرص ومحاصرة ارضروم من جهة الاناضول ، وفتح بلفنا في الروم ايلي . ولقد أظهر عثمان

الغاء الصدارة واستبدال مجلس الوكلاء بها

بعد ذلك تولى الصدارة أحمد حمدي باشا المعروف في ولاية سوريا، وذكر في فرمان التولية « إن اعتزال أدهم باشا مدة للاعمال كان مراعاة لصحته هذا مع التسليم بنزاهته ودرايته، ونحن راضون عنه من كل الوجوه أتم الرضى .. » الخ.

وبقي حمدي في الصدارة بضعة وعشرين يوما، وفي غرة صفر سنة ١٢٩٥ و ٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ صدر الفرمان القاضي بإلغاء لقب (صدر أعظم) واستبدال رئيس الوكلاء به، وتوجيه هذه الرياسة إلى أحمد وفيق باشا رئيس مجلس المبعوثان مع رتبة الوزارة، وتعيين مسئولية (تبعة) الوكلاء أي النظار كما هي الحال في وزارات أوربا، فحضر (الباش وكيل) الافخم الى مجلس المبعوثان وقال لهم ما ملخصه:

« إن جلالة السلطان الاعظم تريد في الحقيقة باطنا وظاهرا إدارة الملك كما تقضي احكام القانون الاساسي، ولذا استبدلت رياسة الوكلاء بمسند الصدارة. فالوزارة الجديدة المؤسسة على قاعدة المسئولية لا ترغب الا في سلامة الدولة وترقيها، والوكلاء مستعدون للحضور دائما إلى المجلس عند الطلب، ولكنهم يرجونه ان يقبل في بعض الاحيان وكلاء عن اعضائه لكثرة شواغلهم وحرصا على أوقاتهم !!! »

فقام أحد المبعوثين وقال ما خلاصته:

« ان مجلس المبعوثان له الحق وحده ومن شأنه خاصة إحداث تغيير عظيم مثل هذا التغيير، تقولون دائما انكم تريدون المحافظة على القانون الاساسي، إذاً فاحترموا حريتنا لأننا نحن الذين نمثل القانون الاساسي ونحافظ على احكامه، وأنتم الذين تحاولون نقضه وإبطاله ... » فأحيلت المسألة على قوميسيون مخصوص ليدقق فيها في ٥ شباط (فبراير) وكانت الحرب أوشكت أن تضع أوزارها، وعسا كر روسيا استولت على أدرنه وتجاوزتها، وطلبت اوستريا (النمسا) أن تجمع في فينا مؤتمرا من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لتنقيح المعاهدة الجديدة بين تركيا وروسيا، والتوفيق بين أحكامها وأحكام المعاهدات القديمة، وبعثت

« يا أيها الاعيان والمبعوثان

« انني اكتسبت الممنونية بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي الملة (الامة) — ثم ذكر الحرب مع روسيا والمحافظة على الملية أي القومية واللغات وحق المساواة وادخال غير المسلمين من الرعية في الجندية والمحافظة على القانون الاساسي واصلاح المالية والعدل في جباية الاموال الاميرية وتنظيم القوانين — وختمه بقوله:

« يا أيها المبعوثان

« ان ابراز الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وضمان منافع البلاد يتوقفان على مجاهرة أرباب الشورى بأفكارهم بالحرية التامة ، وبما ان القانون الاساسي يقضي بذلك فانني لا أرى احتياجا إلى أمر أو ترغيب آخر »

مذاكرات مجلس المبعوثان

ثم انعقد مجلس المبعوثان في الدائرة الخاصة به تحت رياسة حسن فهمي افندي (وهو اليوم باشا من النظار) وشرع المبعوثون في المذاكرات والمباحثات بقية شهر كانون الاول (دسمبر) وكانون الثاني (يناير) وأوائل شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ وكثر الجدال بين المبعوثين وبين الحكومة — لا بين الاعضاء المختلفين بالدين واللسان — وطلب بعضهم التدقيق في حسابات المالية ، وحضور ناظرها لمناقشته الحساب ، ومحاكمة المرتكبين ، وسؤال المتهمين باختلاس الاموال الاميرية ، وسوء الاعمال المختلفة المتعددة ، وقام أحد المبعوثين وقال : إن الجاندرمة (فرسان الشرطة) في الولاية التي بعثت منها تنهب الاهالي ، والمحاكم ترتشي على إبطال الحق وإحقاق الباطل ، والضابطة تعذب المحبوسين بالضرب وأنواع العذاب . واعترض مبعوث آخر على المذابح التي جرت في بلغارستان وطلب التحقيق والبحث عنها . وطلب جماعة من المبعوثين عزل خمسة من الوكلاء : منهم محمود جلال الدين باشا وسعيد باشا وكجوك سعيد باشا ، والتحقيق عن كثيرين من رجال الدولة وقواد العساكر ، ولا سيما عن الاختلاس والاسراف في نظارة البحرية وغير ذلك .

فذهب بعضهم الى الولايات العثمانيه و بعضهم الى مصر والبلاد الاجنبية . ولم تقلق الامه أو تتأثر من هذا الاحتقار والامتهان، ولا حصل منها هيجان أو اعتراضات! كأنها جمل المحامل

يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غِيَر لديه ولا نكير

ولم يبق من المبعوثين من أصر على مبعوثيته الى آخر نفس من حياته الا أفراداً قلائل كمبعوث القدس الذي كان — بجراءته — يثبت على بطاقة الزيارة (كارت فيزيت) انه مبعوث القدس، و يقدمها الى وزراء الدولة ورجالها لدى زيارته لهم في الاستانه، والى سفراء الدول الاجنبية وموظفي نظارات الخارجية في أوربا . ولما اجتمع بصديقه خليل غانم مبعوث بيروت في الاجتماع الثاني للمجلس ومنشئ المقالات الرنانه في جريدة الديبا وغيرها من جرائد باريس وذلك قبيل وفاتهما — آخذه لكتابته في بطاقة الزيارة كلمة المبعوث السابق (Ex - Député) فمحا كلمة « سابق » لان صفة المبعوثية انما هي بارادة الامة وانتخابها ، فهي لا تزول عن صاحبها إلا بانتخاب آخر ، ومجلس المبعوثان لم يُلغ إلغاء وانما عطل الى اجل غير محدود ، فكان اجتماعه في كل سنة من قبيل الممكنات الجائزة عقلا ونظاما .ولكن اكثر المبعوثين تناسوا وظيفتهم كأنها وظيفة حقيرة لا يؤبه لها وقد عزلوا منها ، ولم يجسر احد على ذكرها في ترجمة حاله الرسمية ، ولم يذكرهم بها مذكر ولا وعظهم واعظ !! ولا حررت في هذا الموضوع جريدة من جرائد المملكة العثمانية

ان لهذا السكوت والاستخذاء اسبابا كثيرة .منها ان الحرية امر تستحوذ عليه الامة بالغلبة والاستيلاء ،وليست مما ينعم به انعاما أو تعطى جزافا ، ولقد كانت الامة حينئذ منهوكة القوى مكسورة الجناح بسبب الحرب ،لا دار الا وفيها مأتم، ولا اسرة الا وقد أصابتها مصيبة. وزاد البلاء بسبب البحران المالي ، ونزول قيمة المسكوكات (النقود)فكانت الاسرة تبعث خادمها الى السوق ليشتري القوت الضروري فيعود اليها خاوي الوفاض لعدم رواج النقود ،فتطوي على الجوع وتتفتت اكباد الوالدين

انكلترا بأسطولها الى بحر مرمره في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨

المجلس العالي

تداخلت دول اوربا في المسألة الشرقية بعد ان تركن روسيا تفعل ما تريد في الحرب ، وعدن الى المناقشات والمحاورات — على عادتهن — في هذه المسألة واعتمد المابين على ما بينهن من الاختلاف واستغنى عن مجلس المبعوثان فألف في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ مجلسا عاليا من وكلاء الدولة ورجالها وأعيانها والرؤساء الروحيين ، وطلب من مجلس المبعوثان خمسة أشخاص : الرئيس ووكيليه وأحد مبعوثي الاستانة وهو الحاج احمد افندي كتخدا الاسترجية (الكدش) ومبعوث آخر يهودي ، فقال لهم الحاج احمد افندي ان طلبكم الآن رأينا في غير محله ، فقد كان يجب عليكم أن تسألونا قبل الخراب ، فمجلس المبعوثان يتنصل من كل تبعة تلقى عليه لامر وقع بغير علمه ، ولم يكن برأي من آرائه ، وكرر القول بأن المجلس يرفض كل تبعة في الحال الحاضرة .

تعطيل مجلس المبعوثان الى اجل غير مسمى

صمم السلطان الاعظم حينئذ على العدول عن سياسة والده الماجد السلطان عبد المجيد خان في عمل الاصلاح باطلاق الحرية والعمل بمقتضى أحكام القانون الاساسي ، وجنح لسياسة جده السلطان محمود خان في إعمال القهر والاستبداد ، مفضلا هذه السياسة اعتقادا منه أن الشعوب التي وضعها الله تحت يده لا يمكن تسييرها الا بالقوة !! . وكان حضر المندوب الروسي الى الاستانة فلم يسر بوجود مجلس المبعوثان لخلو بطرسبرج من مثله ، واستبداد القيصر برعيته ، ففي ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ قرأ الرئيس حسن فهمي افندي على المبعوثين منطوق الارادة السنية القاضية بتعطيل مجالسهم الى أجل غير مسمى !!!

استخذاء المبعوثين والامة لتعطيل مجلس المبعوثان واسبابه

خرج المبعوثون يتعثرون بأذيالهم ، وأنذرت الضابطة المتطرفين منهم والجسورين على التكلم وإيقاظ افكار الامة بوجوب المهاجرة من الاستانة !

يفرقوا بين الدين المسيحي والمدنية الاوربية ، واعتبروا كل إصلاح صدر من أوربا المسيحية مخالفا للدين والآداب الاسلامية ، وشتان مابين المدنية الاوربية والدين المسيحي

سعاوي افندي وحادثة جراغان

على ان بعض المتطرفين من حزب تركيا الفتاة ثاروا بزعامة علي سعاوي أفندي ، وكان من طلاب العلم المعروفين بالصوفتاوات ، مطلعا على العلوم العربية والفنون الرياضية ، وواقفا على الافكار الجديدة . نفي في أيام السلطان عبد العزيز وصدارة عالي باشا ، وفر الى باريس ولوندره ونشر ثمة الرسائل والمقالات ، وكان ينفق على نفسه فيهما مما ينفحه به بعض رجال الاستانة ، ثم عاد اليها وصار من حزب مدحت باشا انصار القانون الاساسي ، وعين مديرا للمكتب السلطاني ثم عزل ، فاتفق مع صالح بك الارناؤط احد الضباط وجمعا فئة من المهاجرين فكانوا زهاء مئة رجل ، وهجموا على سراي جراغان لاخراج السلطان مراد منها ومبايعته ، واسترداد الحرية والقانون الاساسي ، ففاجأتهم العساكر بالسلاح فشتت شملهم . وكانت هذه الحادثة في ١٣ مايس (مايو) سنة ١٨٨٧ زمن رياسة صادق باشا لمجلس الوكلاء

صدارة رشدي وصفوت وخير الدين التونسي

لبث احمد وفيق باشا (باش وكيل) لمجلس الوكلاء مدة قليلة ، ثم وجهت الى صادق باشا فبقي فيها تسعين يوما ، ثم استبدلت الصدارة (بالباش وكالة) وعين فيها رشدي باشا ودام فيها ثمانية أيام ، ثم عين لها صفوت باشا ناظر الخارجية فاكتسب فيها ثقة الحضرة السلطانية ولم تطل فيها مدته ، وعين لها خير الدين باشا الجركسي الاصل والتونسي النشأة ، وهو مؤلف التاريخ العربي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» وله وقوف على العلوم العربية وعلى الفرنساوية ، وتجول في ممالك أوربا ، وقد طلب منها في سنة ١٢٩٤ ﻫ كما طلب السيد جمال الدين الافغاني وغيره ، وعين رئيس الشورى الدولة ثم (صدر اعظم) سنة ١٢٩٥ وبقي في الصدارة ثمانية أشهر ، ثم استقال وبقي

لبكاء اطفالهم . ثم ان الامة هي عبارة عن أهل العاصمة منبع الاستبداد وأهالي الولايات والقرى ، والعساكر المنظمة ، المدربة على الحرب ، المسلحة بالاسلحة الجديدة والمدافع ، فأما أهل الاستانة ولا سيما المسلمون فانه لايتصور قيامهم لطلب الحرية لان جلهم — ان لم نقل كلهم — موظفون أو عائشون في ظل الموظفين ، والعساكر المسلحون واقفون لهم ولاهل الولايات بالمرصاد ، وقادرون على إخماد نار اية ثورة أو مظاهرة ، وان قيام طائفة مسيحية وحدها لطلب الحرية مما لايرضى به المسلمون ولا بقية الطوائف المسيحية واليهودية ، كما شاهدنا ذلك في أرمينيا ومقدونيا التي اشتدت فيها المناقشة بين الروم والبلغار والصرب والرومان ، كما أن العساكر وحزب الاحرار العقلاء لايرضون به ، لان قيام كل ملة على انفراد يقضي بتقسيم الممالك وتفريقها وضعفها ، وإثارة اضغان العداوة الموروثة من الحروب الصليبية والقرون المتوسطة المظلمة ، على ان هذا القيام كان مصدره الكنائس والاديار بإيعاز الرهبان والقسيسين والمبشرين والمرسلين ، فكان سببا لايجاد المذابح والفظائع ومداخلة الاجانب

أما حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا وخليل شريف باشا فانه لم يكن في عهد مدحت باشا الافئة قليلة من صغار الموظفين وضباط العساكر والمتعلمين في المدارس الجديدة ، والذين درسوا شيئا من اللسان الفرنساوي أو الانكليزي ، واشتهروا باسم « انكلز » لتعلمهم الانكليزية فقط ، مثل : انكلز سعيد باشا ، انكلز كريم افندي ، انكلز علي بك والد أحمد رضا بك روح هذا الانقلاب ، أو الذين أصلهم من الاوربيين فأسلموا ودخلوا في الوظائف، مثل عمر باشا المجري ، ونوري بك ابن المركي دوشاتونيف الفرنساوي ، وكثير غيرهما ، أو الذين تزوجوا بنسوة أوربيات وربوا أولادهم تربية أفرنجية أو غير ذلك ، فكانت هذه الفئة متحدة بالفكر في إعجابها بالمدنية الاوربية وميلها اليها، ولم تكن لهم جمعية ولا رابطة غير الرابطة المعنوية الفكرية ، لانهم من موظفي الحكومة والوظائف تضطرهم إلى إخفاء الرأي ، وإطاعتهم لآمريهم إطاعة يفرضها العقل والسياسة والا كانت الامور فوضى ، ولكن الجامدين من المسلمين لم

الاعمال والادارة في المابين ، وصار للباشكاتب نفوذ يمكنه ان يطلب مدحت باشا الصدر الاعظم الى المابين و يبلغه الارادة القاضية بنفيه على الباخرة عز الدين!!

تولى سعيد باشا الصدارة بعد مدحت واشتهر بالنزاهة والاستقامة ، فلم يسمع عنه ارتكاب ولا انهاك في جمع الاموال وادخارها ، ولهذا كان أقل الصدور ثروة ، وكان شديد السطوة على المرتكبين ، كثير البطش بهم والاستبداد فيهم ، ولكنه عادل في احكامه وعقابه . وفي زمن صدارته وضع نظام المعارف ، وأسست المدارس على النسق الجديد ، وصار للمعارف إيرادوافٍ من واردات الحصة التي أضيفت الى الاعشار ، ونظمت نظارة العدلية وأصول المالية ، وأسست إدارة الديون العمومية ، و بوشر في مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح الطرق والمعابر ، من دون ان يؤدي اعطاء امتيازاتها الى ارتكاب فاحش . فكان أصلح الصدور في الدور الاخير ، ولم ينتقد عليه حزب تركيا الفتاة الا استبداده ومقاومته مشروع مدحت باشا وتوقيف أحكام القانون الاساسي وجميع ما صنعه وهو رئيس كتاب المابين ،

لم يصد سعيد باشا كونه من رجال الكامريلاً - لانه نشأ وتربى في المابين - ان يحاول الاستقلال في وظيفته واعلاء شأنها ورفع مكانتها ، وتمشية المصالح بالعدل على قاعدة مطردة وأصول منظمة ، كما كانت عليه في زمن عالي باشا . فأصبحت بذلك أعمال سعيد باشا موضعا للريبة ، وكثرت الوشايات به فصار مبغوضا منفوراً منه ، ووضعت عليه العيون والجواسيس ، وصارت أعماله تراقب مراقبة دقيقة فأحدث قلم للترجمة في المابين وانجمن التفتيش (مجلس التفتيش) والمعاينة في نظارة المعارف لمراقبة الكتب المطبوعة والتدريس ومصادرة المضر منها (!) على زعمهم و بحسب اصطلاحهم ، وقلم مراقبة المطبوعات الداخلية والاجنبية في الباب العالي . هذا ماعدا دوائر وشعب الخفية (الجواسيس) المتعددة المحدثة التي مركزها في المابين تحت نظارة السرخفية (رئيس الجواسيس) فهذا الذي قضى بسقوط سعيد باشا في الحقيقة والواقع فذهب بإصلاحاته ادراج الرياح ، وان كان عزله في الظاهر بسبب احتلال البلغار للروم ايلي الشرقية ، واصراره على ارسال العساكر كما تصرح بذلك معاهدة برلين ،

حلس بيته الى أن توفي سنة ١٣٠٧ في الاستانة. فكان في طلبه وتوظيفه شبه ميل الى سياسة (بانسلاميزم) ولكن هذه السياسة لها معنيان: المعنى القديم الاستبدادي الذي مشى عليه خلفاء بني أمة والعباسيين ، وهو مخالف لحقيقة الاسلام، ومناف لروح العصر الجديد والمدنية الحاضرة — والمعنى الحديث وهو يوافق أصل الاسلام والمدنية، ولكنه يخالف مسلك المستبدين بالامر، ويحول بينهم و بين مآربهم، وهو اشد وطأة عليهم من القانون الاساسي وحزب تركيا الفتاة .

صدارة كجوك سعيد باشا واعماله

ثم عين لمسند الصدارة سعيد باشا المشهور بسعيد باشا الصغير (كجوك سعيد) تميزا له عن سميه ناظر الداخلية الكردي الاصل والمتوفى قبل بضع سنين . وكان سعيد باشا الصغير محررا في جريدة «حوادث» فاتصل بالداماد محمود جلال الدين باشا ودخل بوساطته المابين وصار باشكاتب له، وهو المتسبب في إبعاد مدحت باشا وتعطيل احكام القانون الاساسي، وإعلان الحرب، وعزل القائد (السردار) عبد الكريم باشا وإخلائه موقع (بَيله) امام بلفنا ، ومداخلة المابين في إدارة جميع الشؤون العسكرية ، واصدار الامور من السراي السلطانية اثناء الحرب ، وتقسيم المملكة العثمانية في معاهدة سان ستفانو التي نقحتها معاهدة برلين.. الخ فان الارادات السنية في جميع ذلك كانت تصدر برأي سعيد بك باشكاتب المابين وتوقيعه، ولهذا كان مبغوضا من حزب تركيا الفتاة لانه كان آلة وعونا على الاستبداد، وعلى ادارة المصالح بدون رأي الباب العالي .مع أن باشكاتب المابين كان لذلك العهد ينتخب من قبل الصدارة العظمى، وكان الصدور لا ينتخبون لهذه الوظيفة الا الذي يعتمدون عليه لعرض المضابط والمقررات والانها آت واستصدار الارادات السنية بها، ولم يكن للباشكتّاب نفوذ معارض لنفوذ الباب العالي صاحب التقاليد والاصول المرعية في ادارة المملكة ، ولا سيما في أيام رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا، فلما توفي عالي باشا وتولاها محمود نديم تدنت اهميتها بسبب نفاقه وتملقه للمابين وتقديمه اموال الخزينة اليه بغير عد ولا حساب. ولما ولي سعيد باشا الباشكتابة زالت اهمية الصدارة بتة، وانحصرت

الجاسوسية في الدولة العلية

ضعفت إدارة الدولة وجعلت تتدهور بسرعة الى دركات التأخر والانحطاط، بعد ان خطت خطوات محمودة في سبيل التقدم أيام صدارة سعيد باشا ، وانقطع أمل الاحرار العثمانيين وخاب رجاؤهم بعد ان كانوا يؤملون تخليص الدولة والمملكة من المرض الذي منيتا به قديما . فاضطهد هؤلاء الاحرار واهينوا وعوملوا اسوأ معاملة ، حتى ذاقوا أشد العذاب الوجداني والأدبي، وصار أرباب الدناءة والفساد يتقربون الى المابين بالتملق والوشاية والتجسس على إخوانهم وأعمامهم وآبائهم ! ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من الاستانة ، فكانوا — بمفترياتهم — يصورون الرعية الصادقة للسلطان الاعظم كالوحوش الضارية تريد افتراسه ونزع تاجه ، ويزينون في عينيه الاستبداد ، ويبعدون عنه الخيرين بأمور الدولة العارفين بطرق الاصلاح ، زاعمين انهم من ذوي الافكار المتطرفة وحزب تركيا الفتاة، حتى اختل نظام المملكة ، وبطلت مراعاة الاحكام القانونية ، والسير في إدارة الدولة على الاصول والتقاليد المعروفة من القديم ، وفسد التعليم في المدارس ، وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها ، ومالت الى التدلي والانحطاط ، رغم الابهة الظاهرة ، والعظمة الكاذبة ، ولا سيما في موكب صلاة الجمعة اذ تصطف العساكر في ساحة المسجد الحميدي امام باب السراي صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض رجالا وفرسانا ، وتتسابق مركبات الكبراء والسفراء الاجانب ، ثم تشرق المركبة السلطانية من مطلع السراي و « المشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاة خشع الابصار ، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا ، وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار » . وكان في كل نظارة من نظارات الداخلية والعدلية (الحقانية) والمالية والمشيخة الاسلامية وغيرها رجال معروفون يبيعون الوظائف والرتب بأسعار معلومة ، ويقتسمونها هم وكبار الموظفين ، فمن اشترى وظيفة بمئة

صدارة كامل باشا الصدر الحالي

تولى الصدارة كامل باشا الصدر الحالي بعد سعيد باشا ، ومولده في جزيرة قبرص ومرباه في مصر ولهذا نسب اليها ، وله معرفة باللغات الاجنبية و بإدارة الدولة ، لانه تقلب في جميع وظائفها ، فمن قائمقام الى متصرف الى والٍ الى ناظر، ولكنه في نظر تركيا الفتاة كان أقلّ شهرة من كثيرين من الوزراء والرجال الموجودين إذ ذاك . واستمرت صدارته ست سنوات وهو آلة في يد المابين ، مطيع لما يلقي عليه من الامور ، ثم ظهرت شجاعته فعارض وعاند ، فأصابه ماأصاب سلفه سعيد باشا من سوء الظن به ، والريبة في أعماله وشؤونه مماقضى بفصله

صدارة جواد باشا وضعف الدولة

لماولي الصدارة جواد باشاقوبل ذلك بالاستغراب العام ، ولم يكن يخطر تعيينه ببال ، لانه من أمراء العسكرية وهوصغيرالسن غيرمتمكن من اختبارالادارة الملكية، على انه كان من النابتة الجديدة ، وتخرج في المدارس العسكرية ، وربما كان الغرض من تعيينه هو الإيهام بالعود الى الاصلاح واطلاق الحرية ، ولكنه في الحقيقة لم يكن قائما بوظيفة الصدارة بل كان ياورا للحضرة السلطانية مكلفا بتنفيذ الامور التي تلقى اليه ! ! ، كما كان رئيس الوزارة الالمانية ياورا للحضرة الامبراطورية ولكنه غير مسؤول امام الريشستاغ ! فلم يبق بعد ذلك شأن للصدارة ، واستولى رجال المابين على الشؤون كافة ، وصار في يدهم العزل والتوظيف والحل والربط وإعطاء الامتيازات بمد الخطوط الحديدية واستخراج المعادن وسائر الامور النافعة، وكانوا يتناولون الرُّشى من وراء ذلك بصورة فاحشة . واستولوا على الاوقاف، ووسعوا نطاق الخزينة الخاصة بانتزاع الممتلكات من أيدي أصحابها بالثمن البخس، وإقامة الموظفين فيها يعارضون بنفوذهم موظفي الحكومة ونفوذها ، حتى أصبح المابين حكومة صغيرة قوية ! ! داخل حكومة كبيرة ضعيفة ! لان مركز الحكومة نقل من الباب العالي الى سراي يلديز السلطانية ! !

والاتراك وعموم المسلمين والمسيحيين ، فانهم جميعهم يئنون تحت اثقال التكاليف وارتكاب الموظفين ومعاملاتهم القسرية والاستبدادية ، ويتحملون انواع الظلم والاعتساف وهضم الحقوق . وحظ المسلمين من ذلك اكبر ، لقيامهم وحدهم بإعباء الخدمة العسكرية التي تقعدهم عن زرع الارض واكتساب الثروة والرفاه والنمو والازدياد في العدد، وان اتفاق الارمن والاتراك على القيام بطلب الاصلاحات اللازمة وتأسيس حكومة مقيدة حرة يعد من الحمية والغيرة الوطنية ، ولكن قيام الارمن أو طائفة أخرى على انفراد بمساعدة الاجنبي وترغيبه لا تعده تركيا الفتاة إلا خيانة وجناية وضررا بمنافع الوطن المشتركة . على أن الارمن كانوا لدى تجنسهم بالجنسية العثمانية لايزيدون عن بضعة عشر الفاوقد أصبحوا اليوم يعدون بالملايين . وان القاطنين منهم في العاصمة والمدن الكبيرة على جانب عظيم من الغنى والثروة والرفاه ، و بيدهم الشؤون المالية والوظائف العالية والرتب السامية وهم على وفاق وائتلاف تام مع الاتراك حتى اذا أطلقت كلمة «ملت(١) صادقة» لاتنصرف إلا الى الارمن . فبناء على هذا الامتزاج التام بين الترك والارمن وما فيه من الفوائد والمنافع للفريقين طلب بعض احرار الترك من معتبري الارمن وعقلائهم إفهام الجمعيات السرية الارمنية التي في أوربا هذه المقاصد ، واستعمال نفوذهم لتعديل المطالب الارمنية ونبذ التهور في سياستهم

وفي سنة ١٨٩٤ اشتعلت نيران الحادثة الارمنية وحصلت مذابح ساسون وخربت ثلاثون قرية من قراهم . كل هذا وجواد باشا الصدر الاعظم لاه عن اتخاذ الوسائل لحسم هذه المسائل ، والقيام بالاصلاحات في جميع ارجاء المملكة ، ولقد كانت سياسته محصورة بالتدابير الموقتة لايقاف الاعتداء وسلوك سبيل المماطلة والإرجاء ، واوربا — ولا سيما انكلترا — واقفة للدلة بالمرصاد ، تخلق لها المسائل والمشاكل واحدة بعد أخرى . فمن الحادثة الارمنية

---

(١) المنار : يراد بكلمة « ملت » عند الترك الامة ، والملية هي القومية فكل مايرد في هذه الرسالة من هذه الكلمات ينصرف الى ما ذكر ، على اننا وضعنا عند معظم الكلمات التركية التعبير كلمة عربية بين قوسين تفسيرا لها

ليرة فأكثر فانه يجتهد في استغلاله منها اضعاف ما بذله بإرهاق الاهالي وظلمهم أو اختلاس الاموال الاميرية أو بكليهما !!

الميل عن انكلترا الى المانيا والحوادث الارمنية

انحرفت سياسة المابين عن انكلترا الملحة في طلب القيام بالاصلاحات وتغيير الادارة المستبدة الظالمة ، واتجهت نحو المانيا التي لا ترى بأسا في ادارة الدولة بالقسر الاستبدادي ، فجنح بعض ساسة الانكليز للارمن ومالوا اليهم ، وساعدوا جمعيتهم السرية التي في لوندره ، واشار عليهم بعض رجال السياسة كغلادستون بالقيام والهيجان حتى اذا حدثت في البلاد مذابح كمذابح البغار هاجت الافكار العمومية في أوربا ، وتسنى لحكوماتها المداخلة في طلب الامتيازات لارمينيا ، كما حدث في البلغار والجبل الاسود والصرب . ويساعد على ذلك نص المادة الحادية والستين من معاهدة برلين فقد جاء فيها ما معناه «يتعهد الباب العالي بأنه يسرع في القيام بالاصلاحات والتحسينات التي تقتضيها حال البلاد الداخلية في الولايات الآهلة بالارمن ، وبحمايتهم من الجراكسة والاكراد ، ويعطي الباب العالي في معظم الاوقات معلومات عن التدابير المتخذة في هذا السبيل للدول المشرفة على القيام بالاصلاحات »

وفي سنة ١٨٩٠ تشكلت جمعية انقلابية ارمنية (١) لتحرير الارمن التابعين للدولة العلية وروسيا والعجم ، وكان رأس مالها مئة وثلاثين الف فرنك ، وميزانيتها اليوم مليون فرنك ، منها ثلاثون في المئة للقيام بالحركات الانقلابية والسياسية ، وخمسة وعشرون في المئة لتسليح الامة ، وعشرون في المئة للنشرات والتبشير . فأحس احرار العثمانيين بذلك وتأثروا جدا ، فاجتمعوا سرا وتشاوروا ، وخابر بعضهم كبراء الارمن وعقلاءهم وقالوا لهم ما حاصله :

لا محل لاصلاح ولايات ارمينيا وحدها دون باقي الولايات العثمانية ، فالواجب طلب الاصلاح للمملكة العثمانية كلها . نعم ان الارمن يتألمون من الادارة الحاضرة ولكن الظلم والاستبداد ليسا موجهين اليهم خاصة ، بل هما شاملان للارمن

(١) في سنة ١٨٨٧ تألفت جمعية هنجاق الارمنية ومعنى اسمها الجرس

وعين مديرا للمدرسة الاعدادية في مدينة بروسه فأحس من نفسه بلزوم السفر الى أوربا للاطلاع على علومها ومدنيتها فذهب الى باريس سنة ١٨٩٠ واختلف الى مدرسة الزراعة لشدة احتياج المملكة الى العلوم الزراعية، وتعرف الى علي شفقتي بك الذي كان يصدر جريدة « استقبال » في ايطاليا ثم في فرانسا، وهو من رجال السلطان مراد . وكان رضا بك كثير التردد على المكتبة الاهلية في باريس؛ فاطلع فيها على أهم الكتب والفنون ، واشتغل بالمسائل السياسية ، وحرر لائحة مفصلة مشتملة على رسائل في إصلاح الادارة والماليه والزراعه والتجارة وغير ذلك بعد ان درس لائحه مصطفى فاضل باشا ووصيه فؤاد باشا وما حرره ملكوم خان وشارل ميزمر وغيرهما من أكابر الرجال المشتغلين بالسياسه الشرقيه والواقفين على أسباب الانحطاط وعلله الفلسفيه .

سلك احمد رضا بك في الفلسفة الحقيقية مسلك أوكوست كونت وخليفته بيير لا فيت ، وصار إماما في هذه الطريقة المؤسسة على « النظام والترقي » وهذه الكلمة هي شعارهم وعليها بناء أعمالهم، ومن مبادئهم التفاني في حب الوطن وخدمة الجماعة ، أي وقف حياة الفرد على خدمة المجموع، وهم ينفرون من الانغماس في الشهوات وتبذير الاغنياء لان المبذرين إخوان الشياطين ، ويشددون النكير على الذين يبتزون الاموال الاميرية ويأكلون أموال الناس بالباطل ويعبثون بالحقوق العمومية، فالمرتكب الملوث بالرشوة يعدونه ساقطا مهما بلغ علمه وقدره . فأحمد رضا بك متصف بكل هذه الخلال الجليلة ، وقد ضحى نفسه وشبابه في سبيل المحافظة على مبدأه، ورفض قبول الالوف من الدنانير وهزىء بالمناصب العالية التي كانت تعرض عليه، مع شدة حاجته واضطراره، وتحمل الاذى والمكاره، وجاهد في سبيل استرداد الحرية حق الجهاد قائلا : لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تحولت عما قصدت اليه . فكان بالحقيقة من اولي العزم الصادق ونشر تعاليمه وأفكاره وله رسالة مطبوعة بالفرنساوية عنوانها « التساهل الديني » رد فيها على الذين يتهمون المسلمين بالتعصب، واستدل بكثير من الآيات القرآنية

الى المشكلة الكريدية الى المسألة المقدونية وهلم جرا . . . ورجال المابين اكثرهم جهلاء أغبياء ، لا خبرة لهم بالسياسة ، ولا معرفة لهم بالشؤون الحاضرة . وقليل منهم شياطين ابالسة لا يدأبون الا على جمع الاموال وادخارها . ولو ادى ذلك الى خراب الوطن وسقوط المملكة . فكانوا يخوفون السلطان من حزب تركيا الفتاة ومن القيام بالاصلاحات . ويشيرون باتخاذ التدابير السيئة حتى حدث ماحدث من المذابح والفظائع التي نسبت الى الاسلام ٠والاسلام يبرأ الى الله منها :

والدين انصافك الاقوام كلهم ... وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة ... للخير وهو يقود العسكر اللجبا

تأسيس جمعية الاتحاد والترقي

كان من نتيجة هذا الخلل في الادارة والاستبداد والعسف بالامة أن تأسست في الاستانة جمعية الاتحاد والترقي لاخماد نار الفتن المشتعلة في البلاد، وطلب الحرية والعدل لجميع العثمانيين وتأييد روابط الحب والامان بين الامة — المؤلفة من السنة وأديان مختلفة — و بين الدولة . وقد بعثت الجمعية في تلك السنة (١٨٩٤) فريقا من الشبان الاحرار — أكثرهم من طلاب المدرسة الطبية — الى باريس ليؤسسوا فرعا للجمعية فيها ويقوموا بنشر الجرائد والرسائل . وكان في باريس اذ ذاك عدد ليس بالقليل من الشبان العثمانيين ، بعضهم يدرس على نفقة الحكومة العثمانية او نفقته الخاصة ، و بعضهم يدرس و يشتغل بالمسائل السياسية وأشهرهم احمد رضا بك صاحب اللائحة المشهورة .

احمد رضا بك ومبادىء جمعية الاتحاد والترقي

ولد أحمد رضا بك في الاستانة منذ خمسين سنة تقريبا ووالده انكلز علي بك وأمه مجرية ، وسمي انكلز لتعلمه الانكليزية ووقوفه على المدنية الاوربية كما مر بيانه ، والا فهو من الاتراك المسلمين وكان من معتبري الموظفين الذين نشأوا في عهد مصطفى رشيد باشا وعالي باشا . فتخرج أحمد رضا بك في مدارس الاستانة

بل اكثر ، كان سلطانيا شاهانيا !! وصار طلاب الوظائف أو المعزولون يقصدون باريس فيكون ذلك سببا لعودتهم الى وظائفهم . ودخل في حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، والتونسيون حتى الاجانب من الطليان واليونان ، وأصبحت سفارة باريس مرجعا للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي !! . واقدم الجرائد التي ابطلت جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضوا في شورى الدولة ، لحسده عزت باشا العابد حتى صرفت قوة عقله وذكائه في سبيل الوصول الى ماوصل اليه . وظهرت عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنساوية والالبانية وغيرها ، منهم أصحاب صدق وقناعة ، ومنهم ذوو طمع وشعوذة . ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم واحضارهم كما كانوا في الازمان الماضية يتقربون بجلب أهل الظنة من الشيوخ وأصحاب الكرامات كالمرحومين الشيخ ابي السعود من القدس الذي استقدموه للسلطان محمود خان ، والشيخ السن من صيداء والشيخ العمري من طرابلس الشام ، وكذا المشايخ الذين كانوا في المابين وخاتمهم استاذنا الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية . فلو اطلعت على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية طلبهم والاسترشاد بهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود ، ولرأيت للانقلاب الحاضر معنى في الرسالة الحميدية التي دلت على كثير من العلوم الطبيعية والعصرية

لم يقصد من نشرات تركيا الفتاة في أوربا الا ايصال الشكاية من سوء الادارة الى مسامع الحضرة السلطانية ، وافهام الدول الاوربية الموقعة على معاهدة برلين بأن لحزبهم السياسي كيانا ووجودا وان غايتهم اعادة القانون الاساسي ، فكادت أوربا تعتد بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة «مشورت» يوم محا كمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون يبرأنه القاضي بالسماح عنه . وبينا كان المابين يقدم رجلا ويؤخر أخرى في اجابة حزب تركيا الفتاة الى مطالبهم الاصلاحية واعادة القانون الاساسي واذا بالمشكلة الكريدية ولدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (نيسان --- مارس ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية وقعدت همة الاكثرين

والاحاديث النبوية مما دل على غزارة علمه . واما اللائحة التي مر ذكرها فهي رسالة باللغة التركية مشتملة على تحقيق وعلم وسياسة في اصلاح إدارة الدولة ولما تنشر. وكانت جريدته « مشورت » تصدر بالتركية والفرنساوية في كل أسبوع أو أسبوعين مرة ، ثم اقتصر على القسم الفرنساوي وهي صغيرة الحجم مضى على إنشائها أربع عشرة سنة ، ويتألف منها مجلدان أو أكثر ، وربما كان له غير ذلك من المؤلفات . فانه كثير الدرس والتحقيق ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبة الاهلية ، وفي مكتبته الخاصة مؤلفات كثيرة في التاريخ والسياسة العثمانية والمسألة الشرقية

ولما وصل وفد جمعية الاتحاد والترقي الى باريس سنة ١٨٩٤ كان رضا بك ساكنا في شارع مونج في بيت صغير (Appartement) في الطبقة السادسة فقصد اليه الوفد وذاكروه في انضمامه اليهم ، فتردد في بادئ الامر وقال اذا عزمت على شيء فانني لا أرجع عنه مطلقا . وكان أقدر الموجودين وأعرفهم بطرق الاصلاح ومواضع الخلل . لأن إصلاح مملكة عظيمة مشتملة على أمم مختلفة في الجنس والدين واللسان ، ووارثة للخلافة الاسلامية والدولة البيزنطية — ليس بالامر السهل ، ولا يشبه اصلاح مدرسة أو ادارة تلاميذ وانما يحتاج الى علوم ومعارف شتى ونظر واختبار ونفاذ بصيرة ، وليس ذلك في مقدور من درس سنتين أو أكثر في مدرسة طبية لا تدرس فيها العلوم السياسية والحقوقية ولا العلوم الشرقية التي هي موضوع بحث العلماء المستشرقين . فقبل أحمد رضا بك الانضمام الى الجمعية وصار رئيساً لفرع باريس ، ونشر جريدة « مشورت » بالتركية والفرنساوية ناطقة بمقاصد الجمعية

مماكسة المابين للاحرار في اوربا

أمَّ باريس من ذلك الحين كثيرون من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفراء ، ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات ، وادبوا مآدب وعقدوا اجتماعات سياسية . فانصرفت همم رجال المابين والسفارات العثمانية الى إبطال هذه النشرات واسترضاء اصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب ، حتى قيل لبعضهم « اطلب تُعط » كما ينقل عن الخلفاء في حكايات الف ليلة وليلة . وكان العطاء حاتميا

الثاني الى كاتب الشفرة (١) الى (الشيخ) الى (العابد) الى (الملاحمة) الى غني آغا الى لطفي آغا الى فهيم باشا الجبار العاتي ـ أولئك الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما دل على استبداد متقلب مذبذب حيران ، حتى لم يعد لاحد ثقة بالحكومة ، وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي . وأكثر رجال السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف اللغة الفرنساوية بله غيرها من لغات أوربا ، وهم في جهل مطبق بالسياسة . ولذلك كثر الخطأ السياسي وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل .

(لها بقية)

البلاد العربية والسكة الحجازية (*)

بلاد العرب أوشبه جزيرة العرب مساحتها مليون ومئة ألف ميل مربع، وعدد سكانها على أقل تقدير سبعة ملايين وعلى أكثره عشرة ملايين ، وهي من أخصب البلاد أرضا وأجودها تربة وأعظمها خيرا اذا اعتني بهـا وتوفرت وسائل الامن والراحة والعمران فيها . واليمن أجود بلاد العرب بقاعا وأكثرها سكانا واعظمها ثروة وخصبا، ولهذا كانت تسمى قديما (العربية السعيدة) الا انها محاطة بصحارى رملية منخفضة شديدة الحر قليلة المياه ، يظن السامع بها ان اليمن كلها على هـذا النمط : صحارى ورمال مع ان هذه الصحارى لا تمتد الى الداخل من السواحل الشرقية والغربية أكثر من خمسين إلى ستين ميـلا يجتازها المسافر في ثلاثة أو أربعة أيام حيث يرى سلسلة جبال الثراة وبلاد شحر وحضرموت وجبـل صعدة وصنعاء

---

(١) المنار : الشفرة في اللغة التركية هي المخاطبة بالارقام بطريقة لا يعرفها الا المتخاطبان وهي مأخوذة من كلمة (جفر) العربية

(*) بقلم رفيق بك العظم المورخ المشهور

من حزب تركيا الفتاة فخضعوا لاحكام الاستبداد جبرا وقهرا، وان كانوا غير راضين عنها ، وذاقوا عذابا شديدا بسبب غلاء أوربا وكثرة الانفاق فيها مع قلة ذات يدهم وفراغهم من نحو صناعة أو تجارة بأيديهم كما هي حال الارمن والبلغار ، الا ما كان من علمهم باللغة التركية أو العربية ومعاونة الاطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى . والاغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يساعدوهم بشيء ، الا بعض الامراء المصريين الذين نهجوا نهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة ، فانهم أمدوا بعضهم بالاموال وكانوا عونا لهم . اما الجمعيات الارمنية والمقدونية الانقلابية فان أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال وأيدوهم بكل ما في طوقهم ، وقد علمت مما تقدم ان ميزانية الجمعية الارمنية بلغت مليون فرنك فأين هذا من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ألا ان سبب خذلان العثمانيين لجمعياتهم هو موت النعرة الوطنية في نفوسهم وفقد الحماسة القومية وكونهم لم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون .

غرور المابين واستفحال الاستبداد

اظهرت الحرب اليونانية العثمانية فتوة الامة العثمانية وحميتها وسلامتها من عوارض المرض أو الهرم كما يصفها أعداؤها ، وظهر فيها من شجاعة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد النظام الحربي ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر وكفهم عن النهب والعبث بالآداب وغير ذلك من الافعال الهمجية ما يخلد لهم هذه المآثر في بطون التواريخ ، وابرز الجيش العثماني من الشجاعة العظيمة والصبر والقناعة المعجب والمعجز، وامتاز بالسلامة من الابتلاء بالمسكرات كما هي عليه عساكر الروس وغيرهم من عساكر أوربا

زاد غرور المابين واستبداده بعد خروج الدولة من ميدان الحرب فائزة منصورة ، وانتقل مركز ادارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلدز، وأصبح مجلس الوكلاء لا عمل له ، والنظار لا وظيفة لهم الا تنفيذ ما يقرر في السراي . على ان الالتفات والاقبال والتقريب والنفوذ كان ينتقل من الباشكاتب الى الكاتب

والثالثة تعز، لكي يتسنى بهذا التقسيم ادارة شؤون اليمن ادارة منتظمة تشرف بها الحكومة على أمور الرعية والبلاد اشرافا حقيقيا يضم اليه اطراف البلاد المتنائية و ينشر راية العدل والراحة والأمن على كل البلاد، وهذا العمل مهما استلزم من النفقات التي ستقوم بها خزانة الدولة فانه يعوض على الحكومة تلك النفقات اضعافا مضاعفة في بضع سنين . ولقد أجمع على لزوم تقسيم اليمن الى أربع أو ثلاث ولايات كل العارفين بأحوال اليمن والذين اختبروا حالها من اخواننا الاتراك، فلا مندوحة للحكومة عن هذا التقسيم اذا عزمت عزما اكيداً على اصلاح البلاد اليمانية وهي عازمة على ذلك ان شاء الله

(ثالثا) إصلاح مرفأ الحديدة وجعله مرسى امينا للسفن، ومد خط حديدي من الحديدة الى صنعاء، ثم تعميم السكة الحديدية في البلاد بالتدريج بقدر مايمكن مالية الحكومة لان سهولة المواصلات ضروري لبلاد متباعدة الارجاء يراد اصلاحها وتكثير موارد الثروة الزراعية والتجارية فيها، ولا سيما وان بلاد اليمن فيها كثير من المعادن والكنوز الارضية التي لايتيسر استخراجها والعمل فيها الا بسهولة المواصلات، ولقد عرفت اليمن قديما بغناها بمعدن الذهب و يظن بعضهم ان هذا المعدن النفيس فقد منها مع انه لم يزل موجودا بكثرة فيها، ولقد رأيت بعيني رأسي قطعا منه ممتزجة اجزاء ذهبها برمل متحجر كان استحضرها صديق لي من بعض اطراف اليمن لاجل تحليلها وتقدير النسبة بين الرمل والذهب فيها ليسعى بعد ذلك بتأليف شركة لاستخراجه فعاجلته المنون واصبح مطويا في التراب

ومما لاريب فيه ان السكة الحديدية الحجازية اذا امكن ايصالها الى القطر اليماني كانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب عامة وللدولة خاصة، فانها متى بلغت مكة ومد منها ناشط الى جدة سهل مدها الى الحديدة عن طريق القنفذة أو طريق آخر أقرب منها وهناك تتصل بخط الحديدة الذي يتصل بصنعاء، وبذلك تكون الدولة قد وصلت بين أقصى بلادها في الجنوب واقصاها في الشمال والغرب إذ تصل بين خط الاستانة والحجاز بخط برجيك المنوي مده من حلب . وفي هذا العمل الجليل من الفوائد الاقتصادية والسياسية مالا ينكر قدره ومنفعته ولاسيما بعد

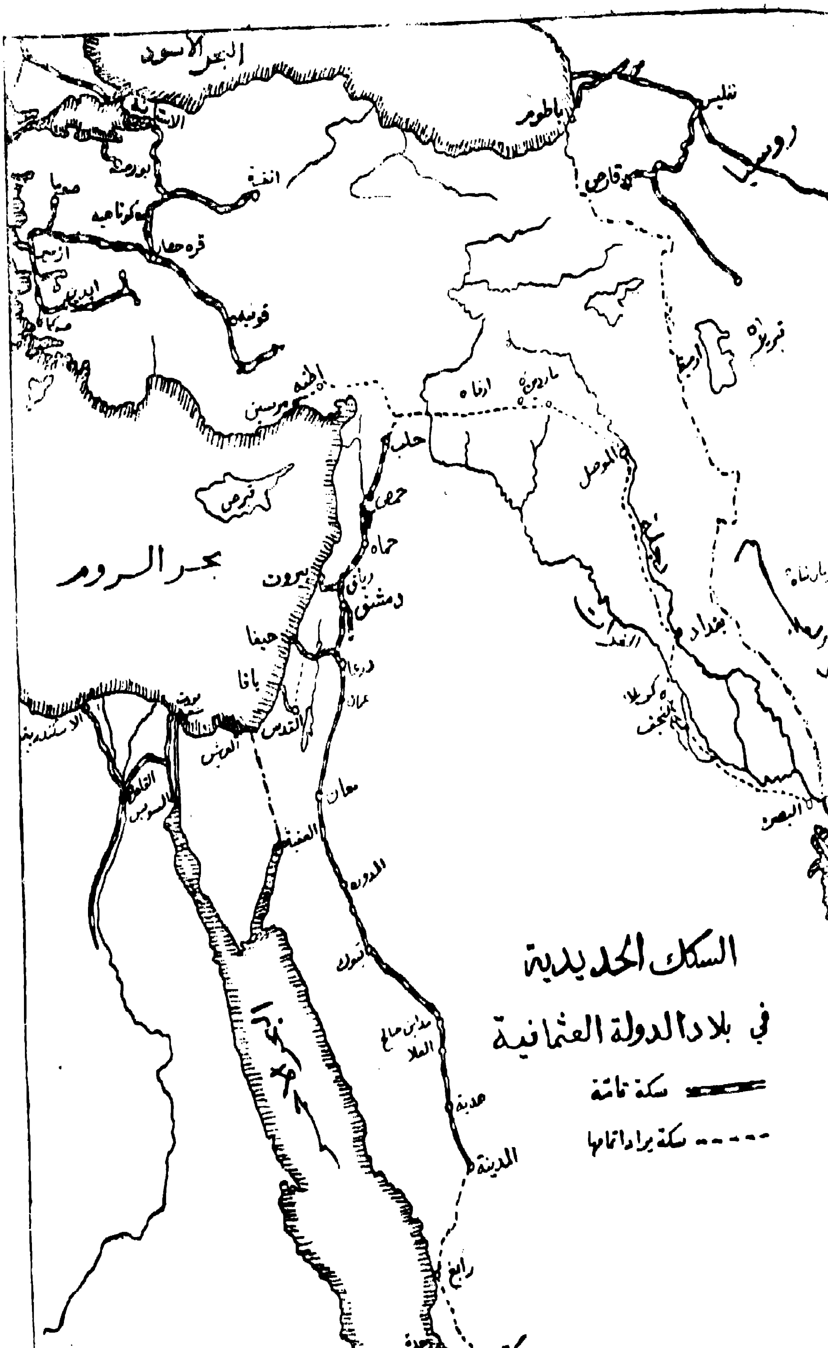
حيث الوديان الفسيحة المخصبة والسهول المكسوة بالخضرة والجبال ذات الينابيع الغزيرة والاشجار الباسقة

وسكان اليمن أهل نشاط وعمل متوفرون على الزرع والتجارة بقدر ما يتسع لهم المجال وتساعدهم الحال ومع هذا فان بلادهم مفتقرة الى إصلاح كثير وعناية من الحكومة كبيرة، لفقد الوسائل الحديثة في تعميم الري واستنبات أنواع الزرع وفقد الراحة والامن في أيام الحكومة الماضية التي كانت كلها أيام خصام ونزاع بين الحاكم والمحكوم له كادت تفضي الى خراب البلاد

ولو صرفت الحكومة الآن وجهتها الى اصلاح اليمن مع توفر أسباب العمران الطبيعية ثمة لكان لها منها مورد رزق عظيم يقدره بعضهم ببضعة عشر مليونا من الليرات ، وأهم أصول الاصلاح التي يحتاجها رقي البلاد وعمرانها وإثراء الخزينة والاهلين هي :

(أولا) إن مياه الامطار الغزيرة التي تنهمر في اليمن تكوّن مجاري وسيولا لا تصل الى البحر بل تغور في الرمال ، وأكثرها يتجمع في مخازن في باطن الارض على عمق أربعة أو ثلاثة أمتار ، فاذا تتبعت مظانّ هذه المخازن وحفرت فيها الآبار ثم استكثر من عمل الحياض والخزانات الكبيرة في الجبال وسفوحها جعلت السقيا عامة في أكثر اطراف اليمن وتحولت تلك الصحارى القاحلة الى جنات ناضرة حافلة بالزرع والضرع، و يساعدها على ذلك ما منحتها إياه الطبيعة من قوة الانبات والخصب ، وهي تصلح لكل أنواع النبات الذي ينبت في البلاد الحارة كالبن والقطن والنيلة وأنواع البهارات وغيرها ، ويمكن ان تزدرع في السنة ثلاث مرات ويؤخذ منها ثلاث غلات ، والبلاد الجبلية صالحة لاستنبات جميع أنواع النبات الذي ينبت في البلاد المعتدلة ، ناهيك بقطر عظيم كاليمن اذا بلغ نظام الري والزرع فيه مبلغه في الهند ومصر فانه يكون بلا ريب من اغنى البلاد العثمانية وأوسعها مزدرعا ومصدراً لثروة الحكومة والاهلين اذا أضيف الى ذلك بقية الاصلاح المطلوب

(ثانيا) ان تقسم ولاية اليمن الى ثلاث ولايات احداها صنعاء والثانية عسير



﴿ مستعارة من مجلة المقتطف الغراء ﴾

ان صار البحر الاحمر مزدحما لعدة دول اجنبية وكان من قبل بحيرة عثمانية

ويجدر بنا أن نطلب من رجال حكومتنا النظر فيما تقدم من الامور، وفي اصلاح شؤون بلاد العرب والتوفر على عمرانها . وقد يرون ان الدول الاجنبية تبذل مزيد الجهد في عمران مستعمراتها في أفريقيا على قلة سكانها وقلة الايدي التي تعمل فيها وضعف الامل في أن تكون تلك المستعمرات بكثرة سكانها وعمرانها والانتفاع من ثمراتها كمستعمراتها في آسيا وأمريكا وجزائر المحيط، فما أحرى الدولة العثمانية بأن تنافس الدول بقطر عظيم فسيح كثير السكان متوفرة فيه مصادر الثروة ووسائل العمران اذا أعطي كل العناية والالتفات ونال حظا من الاصلاح عظيما، ولاسيما في عصر الحكومة الدستورية التي نرجو أن تكون حكومة خير وسعادة على المملكة العثمانية جمعاء ان شاء الله

أما السكة الحديدية الحجازية التي نتمنى أن تكون خير واسطة لعمران شبه جزيرة العرب في مستقبل الايام اذا اتصلت باليمن فقد انتهي منها الآن قسم عظيم و بلغت المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام . وقد افتتح هذا الخط باحتفال عظيم في شهر اغسطس الماضي، والادوات التي تلزم لاتمام الخط الى مكة البالغ ثمنها نحو ثلاث مئة وخمسون الف ليرة كلها معدّة على ما نعلم، وطول الخط من دمشق الشام الى المدينة الف كيلومتر وثلاث مئة وكيلومتران يضاف اليه الخط من حيفا الى درعا وطوله مئة وواحد وستون كيلومترا، فيكون مجموع ما تم من الخط الى الآن الف كيلومتر وأربع مئة وثلاثة وستون كيلومترا بلغت نفقاته نحو ثلاثة ملايين ليرة عثمانية، وكانت نفقة الكيلومتر الواحد ما عدا آلات السكة نحو الف ليرة وثلاث مئة ليرة

وطول الخط من دمشق الى مكة ١٧٥١ كيلومترا وطوله الى جدة ١٨٣٠ كيلومترا

والخط يمر من الشام الى معان في سهول منبسطة وأراضي خصبة مبثوثة فيها القرى الآهلة بالسكان، الا ان حوران أكثر سكانا وعمرانا من معان وربما كانت أراضي معان أخصب من أراضي حوران

وأحسن البلاد التي يمر فيها الخط وأجودها هواء وأعلاها عن سطح البحر هي عمان فانها تعلو عن سطح البحر نحو ١٠٧٤ مترا وفيها من الآثار القديمة والخرائب العظيمة شيء كثير ومنها الملعب (Amphithéatre) الذي وجدوه في تلك الخرائب وخارطة سورية المرسومة على قطعة كبيرة من الحجر (بلاطة) وهي أعجب وأبدع ماروئي في اطلال عمان وخرائبها

وسكان معان وعمان أكثرهم من عرب البادية و يشتغل قليل منهم بالزراعة وفي معان بعض قرى لمهاجري القفقاس . ولو نشط العربان الذين في تلك الديار الى الاعمال في الارض ونشر الاصلاح جناحه على تلك الديار لكانت من أغنى البلاد السورية وأكثرها غلة وأجملها بقاعا . ولقد همّ كثيرمن الناس بابتياع الاراضي التي على جانبي الخط من الحكومة في معان وعمان لاحياء مواتها واستغلالها فأبت عليهم ذلك لصدور إرادة سلطانية تقضي بالمنع ، على أمل ان تضم تلك الاراضي الفسيحة الى الجفالك (المزارع) السلطانية أو يستأثر بها أفراد من المقربين ولم يكن شيء من ذلك الى الآن . فنرجو ان توفق الحكومة الحاضرة لإطلاق يد الناس في استعمار تلك البلاد بحيث لا تباع أرض إلا على شرط إصلاحها واستثمارها في برهة سنتين أو ثلاث سنين واذا مضت المدة ولم تصلح الارض وتستثمر ساغ للحكومة استردادها. وفي يقيننا ان كثيرا من أغنياء البلاد السورية يتقدمون الى إصلاح تلك الاراضي وإحيائها متى انتظمت أمور السكة الحديدية وانصرفت همة الحكومة الى عمران تلك الجهات ورفع راية الراحة والعدل والأمان على ربوعها

ومحطة عمان الآن هي من المحطات العظيمة في هذه الطريق وفيها معمل (ورشة) لاصلاح القواطر ومخازن للسكة الحديدية ، ويليها في العظم محطة تبوك والاراضي التي بعد عمان ومعان الى المدينة ليست خصبة بل هي صحارى وقفار الا العلا فانها قرية عامرة ذات ينابيع وأشجار وحدائق تزرع فيها أنواع البقول والفاكهة والنخيل وتجود في أرضها فواكه البلاد الحارة كالنخيل والموز والليمون ، وأهلها بارعون في فن الزراعة لان أكثرهم يذهبون الى دمشق ويزاولون فن

باب المراسلة والمناظرة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر واخبار الاحاديث والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*

(الكلمة السادسة)— في التواتر

أهم مايطعن به في وجوب التواتر فيما يعمل به في الدين مسألة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم الآحاد للتعليم وللحكم بين المسلمين وللملوك . فاعلم أن خبر الواحد — كما قلنا — لا يوجب اليقين ولا يجب العمل به إلا إذا أيدته قرائن أخرى قطعية، فهؤلاء الآحاد الذين كان يبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهات للتعليم ما كان يجب على الناس فيها ان يوقنوا بما يخبرونهم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يجوز عليهم الخطأ والنسيان كما أنه يجوز عليهم الكذب أو الارتداد. وإنما هؤلاء الناس الذين كانوا في تلك الجهات تحققوا أن رسول الله أرسل إليهم هؤلاء الرسل وأوجب عليهم إطاعتهم والاخذ عنهم، وقبل أن يحققوا ذلك لا تجب عليهم طاعتهم ولا الاخذ عنهم فهم في طاعتهم لهم وأخذهم عنهم بعد تيقنهم من أنهم مرسلون إليهم من قبل النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم مطيعون لله ولرسوله ولأولي الامر، فاذا قالوا لهم ان الرسول قال كذا فاعملوا به وجب عليهم أخذ هذا القول عنهم كما أمرهم الرسول ووجب عليهم العمل به لا لانهم أيقنوا أن الرسول حقيقة قاله ولكن لانهم أمروا بطاعة أولياء أمورهم فلا يجوز مخالفتهم أو رفض كلامهم إلا اذا علموا بكذبهم وحينئذ يرفعون الامر إلى رسول الله فيحكم بعزلهم عن تولي أمورهم وتسقط عنهم طاعتهم فيما يروونه عن رسول الله . وعليه فهؤلاء القوم ما كانوا عاملين بالظن و إنما هم مطيعون لامر يسمعونه من أولياء أمورهم

*) تابع لما نشر في (ص٨٦٦ ج٩ م١١) من مقالة الدكتور محمد توفيق افندي صدقي

الزراعة عملا في غوطتها ولا سيما في قرية جوبر المشهور أهلها بالبراعة في فن الزراعة. ثم يعودون الى بلدهم لاجل الاعمال في الارض . ولقد كان بعد المسافة بينهم و بين الشام يمنعهم من التوسع في إنشاء الحدائق والاكثار من زرع أنواع الفواكه والبقول والاشجار بها واما الآن فالأمر ليس كذلك ، ولو اعتنى أهل هذه القرية بزرع النخيل والموز واستكثروا من الجيد منهما لانتفعوا بذلك كثيرا لان دمشق محرومة من هذين الصنفين من الفاكهة لان جوّها لا يناسبهما في الشتاء لشدة البرد والصقيع

هذا ومن الضروري ان يمدّ ناشطمن هذه السكة الحديدية من معان الى العقبة وطول هذا الخط نحو ٩٠ كيلو مترا أو من المدور وهو أقصر مسافة من ذاك لان هذا الفرع يفيد الدولة من الوجهة العسكرية جدا ريثما يصل الخط الى اليمن

وكل من رأى خط السكة الحجارية لا يسعه الا شكر القائمين بالعمل فيه كمسير باشا ومختار بك و باقي المهندسين والعمال ولا سيما المشير كاظم باشا رئيس إنشاء الخط الذي بذل من الهمة في انجازه والعناية في شأنه مالا يستكثر على رجل عظيم مثله وأنا لنرجو بعد توليه منصب الولاية في الحجاز ان يساعد على اتمام هذا الخط ووصوله إلى مكة ثم اليمن بما في إمكانه ليكون شكر الامة له مضاعفا جزاه الله وكل العاملين لانجاز هذا الخط خير الجزاء

أما أحاديث الآحاد عنه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فهي تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا لأن رواتها ليسوا أولياء أمر المؤمنين حتى تجب طاعتهم من هذه الوجهة ولم يثق بهم الرسول ولم يعرفهم ولم يعينهم لهذا الامر ولم يقم رقيبا عليهم لا بالوحي ولا بأخبار الناس عنهم فالفرق بين الحالتين عظيم

أما رسله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك فالغرض من ذلك إلفات نظرهم إليه وتنبيههم للبحث في دعوته وتشويقهم للنظر في أمره وحالته وإلا فلا يمكن الايمان لاجلها إلا بعد التثبت منها والتحقق من أمر الدعوة والداعي فهي كالتمهيد للدعوة الحقيقية بوصول الدين اليهم متواترا على أيدي الناس كما حصل بعد وفاته

والخلاصة أن القرآن الشريف يذم العمل بالظن كثيرا فلا يمكن ان الله سبحانه وتعالى يلزم عباده المؤمنين بالعمل بما لا يوجب عندهم اليقين وإلا كان أمرا لهم بما يذم به غيرهم ويلومهم على اتباعه

وحيث أن أحاديث الآحاد من حيث هي لا تفيد اليقين كما بيناه في الكلمة الرابعة فلذا اشترطنا التواتر فيما يجب علينا الاخذ به في الدين فدليلنا على ذلك مبني على حكم العقل وما جاء به الكتاب العزيز

(الكلمة السابعة) — معنى السنة و بيان وجوب العمل بها

السنة في اللغة وفي اصطلاح السلف هي الخطة والطريقة المتبعة فسنته صلى الله عليه وسلم هي طريقته التي جرى عليها في أعماله واقتدى به أصحابه فيها وهي واجبة الاتباع حتما على كل من آمن به وصدقه صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بما جاء في الحث عن اتباع السنة في أقوال الصحابة والسلف رضوان الله عليهم جميعا كما لا يخفي على متأمل في أقوالهم ومن ذلك حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » أي عليكم بطريقتي وطريقة خلفائي الراشدين من بعدي فلانزاع في أن اتباع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الدين هي واجبة على جميع أتباعه المؤمنين أما أقواله صلى الله عليه وسلم التي لم تكن طريقة متبعة له ولا لاصحابه فهي موضوع بحثنا وهي المقصودة في مقالاتنا الاخيرة تلك التي رواها الآحاد وانفردوا بها ولو كانت واجبة الاتباع لعلمها الناس جميعا في عصره عليه السلام وجروا عليها في أعمالهم

بآذانهم فيأخذون به و يعملون به كما أمروا وسواء في ذلك أيقنوا أن الرسول قاله أولم يقله فالعهدة فيه على رواته

فان قيل إن لم يكن هؤلاء عاملين بالظن فالرسول نفسه عامل بالظن و إلا فكيف يوفق بأن هؤلاء القوم لا يبلغون عنه إلا ما يريدون؟ — قلت ان الرسول إن لم يعلم ذلك بطريق الوحي كما كان يخبره الوحي بحالات كثيرة مثل هذه عن اصحابه البعيدين عنه كما هو مشهور في سيرته فقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم من هؤلاء المبعوثين الصدق والايمان وقوة العقل والعلم بالدين وقد اختبرهم بنفسه زمنا طويلا حتى علم اخلاقهم وأميالهم وأحوالهم وسبر غورهم فهو يكاد يجزم بصدقهم واخلاصهم كما يجزم أحدنا — وإن كان نظره أضعف من نظر الرسول — بصدق صاحبه واخلاصه بعد معاشرته له زمنا طويلا في أحوال مختلفة . وان بقي في النفس أدنى شك في ذلك أو تجويز للخطأ أو النسيان عليهم فهؤلاء المبعوثون ما كانوا يذهبون الى جهات منقطعة عن المسلمين بل كان بينهم و بين المسلمين صلة وثيقة وعلاقة كبيرة فكان يأتي منهم الكثيرون الى المسلمين مرات عديدة في السنة للزيارة والتعارف والحج والتجارة وغير ذلك و يذهب إليهم المسلمون لمثل هذه الاغراض فاذا حاد المبعوثون عن شيء مما تلقوه عن رسول الله أو أخطأوا فيه وصل ذلك الى علم رسول الله في أقرب وقت فيصحح هذا الخطأ أو يعزلهم او يعاقبهم . فبالوحي و بثقته الاكيدة بمن أرسله بعد التحقق منه زمنا طويلا و باخبار الذاهبين اليهم والآتين من عندهم يكون الرسول واقفا على ما يبلغ عنه في تلك الجهات ومهيمنا عليه فان حصل خطأ أو كذب في شيء منه فالعاملون به مطيعون لاولياء أمورهم وليسوا عاملين بالظن ولا يلبث هذا الخطأ أو الكذب الا قليلا فيمنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب وقت . وهذه الحالة ضرورية في مبدأ الدعوة حتى يعم الدين تلك الجهات و يكون فيها وفي غيرها مشهورا مستفيضا متواترا فلا يتطرق لشيء منه بعد ذلك ريب أو شك وهي تشبه حالة التلاميذ مع معلمي المدارس وتلقيهم العلم عنهم وعملهم به فان الامة رقيبة عليهم فان أخطأوا في شيء أو دسوا عليهم أمرا فسرعان ما يصل الى علم الامة وأولياء أمورها فيتلافونه في أقرب وقت

والبعد عن العقل والتفكير كما عليه أكثر المسلمين اليوم ولذلك كان أصحابه يخالفونه في كثير من المسائل في حياته وكان عليه السلام يرجع عن رأيه لآرائهم ولذلك أمر بمشاورتهم وما قال أحد بأن من خالفه منهم خرج عن سنته فان سنته هي الشورى والتفكير ورعاية مصالح العباد وتحري العدل والانصاف وعدم الاستبداد بالرأي . وقد خالف أصحابه رضوان الله عليهم في حياته و بعد مماته بعض أقواله و بعض ما حكم به مراعاة للمصلحة ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا من ذلك كثيرا وقد وفيت هذا البحث في رسالة لي طويلة وفقنا الله لطبعها عن قريب

وسنته صلى الله عليه وسلم في الامور تعلم من نصوص الكتاب العزيز ومما تواتر بين المسلمين عنه قولا وعملا ومن مجموع ما روي عنه من المصادر المختلفة في المسائل المتعددة . فسنته معلومة للمسلمين باليقين وواجب اتباعها على جميع المؤمنين. وهذا هو المراد بما جاء في الكتاب الكريم من الامر باتباعه والاقتداء به والجري على منهجه والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم وهو أيضا المراد مما ورد عن أصحابه وعن سلف المسلمين من القول بوجوب اتباع السنة النبوية

وأما أخبار الآحاد التي لم يجر عليها العمل بلا انقطاع بين المسلمين فهي موضوع النزاع في كل عصر وجيل كما يتضح لك من الكلمة الآتية :

(الكلمة الثامنة) — آراء أئمة المسلمين في أخبار الآحاد وما قالوه فيها وكيفية معاملة الصحابة لها

(١) قال الامام أحمد بن حنبل ما معناه : إن الأحاديث الواردة في تفسير عبارات القرآن الشريف لا أصل لها . كما نقله عنه الحافظ السيوطي في الاتقان

(٢) وقال الامام الشافعي « إن نسخ القرآن بالحديث لا يجوز »

(٣) وقالت الظاهرية : إن تخصيص عموم القرآن بها غير جائز وأن العمل بها غير واجب

(٤) وقال جمهور الاصوليين « إنها ظنية »

(٥) وقال جمهور المسلمين « إنه لا يجوز الاخذ بها في العقائد »

وهذا هو أدل دليل على أنها لم تكن دينا عاما لجميع البشر بل هي خاصة لمن وجهت اليهم لاحوال خاصة وظروف مخصوصة أو انها كانت للارشاد والندب لا للوجوب ولذلك لم يكن اتباعها عاما بينهم . فهناك فرق عظيم بين لفظ (السنة) ولفظ (الاحاديث) ويجب على كل باحث في هذا الموضوع أن يدرك هذا الفرق جيدا حتى لا يقع في الخلط والخبط . وقد أدرك الامام مالك هذا الفرق فكان — رضي الله عنه — يقدم عمل اهل المدينة على الاحاديث ويرد منها ما خالف سنتهم التي ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو صحت أسانيدها وقد رد من ذلك مئات كثيرة

أما تسمية الاحاديث مطلقا بالسنة فهي من اصطلاح المتأخرين ولولا هذا الاصطلاح لما احتجنا في مقالاتنا الى تقييد لفظ السنة بقولنا (العملية) فان السنة لا تكون الا عملية وأما القول الذي يقال ولا يكون مبدأ يجري عليه العمل دائما فلا يسمى سنة عند المتقدمين

فاتباع سنة أي شخص هي الجري على منهجه والتزام طريقته ومبادئه وأصوله وليس معنى ذلك أن يتقيد المتبع بكل جزئية من جزئيات كلام المتبوع ، مثلا قد أكون متبعا لسنة الاستاذ الامام رضي الله عنه في تفسير القرآن الحكيم ومع ذلك أرى في بعض الآيات خلاف ما يرى ولا يخرجني ذلك عن كوني متبعا سنته فان سنته هي في ترك التقليد واستعمال العقل وعدم القول بالنسخ وتحري الحق والصواب لا في التزام كل قول من أقواله التزاما أعمى فكذلك ترك بعض أقواله صلى الله عليه وسلم في الامور الدنيوية المحضة وما حكم فيه بالرأي والاجتهاد وما خالف المصلحة في زمننا لا يخرج المسلم عن كونه متبعا سنته صلى الله عليه وسلم فان سنته هي في اتباع الحق والصواب وتجنب الضار ومراعاة المصالح كما دل عليه الكتاب العزيز وترادفت فيه الاخبار المتعددة المصادر المختلفة المبنى المتحدة المغزى وكما جرى عليه عمل كبار المسلمين وعقلاؤهم في كل زمان ومكان . فسنته صلى الله عليه وسلم هي في اتباع مبادئه الشريفة والجري على خطته ومنهجه وإطاعته فيما أوحي به إليه أو ما وافق الصواب والمصلحة من آرائه واجتهاداته وليست سنته في الجمود والتقليد

(٢٠) لم يعتن المسلمون بحفظها في صدورهم كما اعتنوا بحفظ القرآن الشريف فاذا كان هذا حال الاحاديث وما قاله المسلمون فيها وما عملوه بها فأي فائدة منها ترجون ؟ وأي ثقة بها تثقون ؟ وأي شيء خالفت فيه الاجماع أو ابتدعته حتى أرمى بالكفر أو المروق ؟ مع أن هذه المطاعن وأمثالها كثير لم يخل منها عصر من عصور المسلمين ولم تصدر إلا منهم · فيجب علينا أن نقدر أخبار الآحاد قدرها ولا يعمينا الجهل والتعصب عن حقيقة أمرها

أما قول حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي في الجواب عن بعض هذه المطاعن إن الصحابة اختلفوا في جمع القرآن وكتابته فهو لا يرد شبهة ولا يدحض حجة · فان القرآن الشريف من عهد رسول الله الى اليوم قد حفظ حفظا جيدا في الصدور لم يسبق له مثيل ولم يعرف عند أمة أخرى في كتبها · وكتب في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبأمر منه عليه السلام وباملائه على ما عرفوه إذ ذاك من أنواع القرطاس (كل ما يكتب عليه) ولم يختلف أحد منهم في وجوب كتابته ولم يمت عليه السلام الا بعد أن كانت جميع سوره مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في سطورهم المحفوظة عندهم وانما كان اختلافهم بعد وفاته عليه السلام في كيفية جمعه على طريقة لم يكونوا يعرفونها من قبل وما كانوا عهدوها وهي كتابته على صحف من الكاغد (كالورق الآن) مع ضم هذه الصحف بعضها الى بعض بالطريقة المعروفة اليوم فى عمل الكتب فان الكاغد وعمل ما نسميه الآن كتبا ما كان معروفا لهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وانما هو رقي فى الصناعة التابع لرقيهم في المدنية بعد وفاته عليه السلام ولو كانوا علموه من قبل لعملوا المصاحف في زمنه ولما اختلف في ذلك منهم اثنان (راجع مقالة تاريخ المصاحف المنشورة سابقا في المنار) · ولما لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الناس شيئا من لصناعات وغيرها من أمورهم الدنيوية التي يمكنهم أن يصلوا اليها بعقولهم وتدرجهم ، سلم المدنية واقتباسهم أشياء من الامم الاخرى الراقية فلذا لم يوح اليه عليه الصلاة لسلام بتعليمهم صناعة ما نسميه الآن ورقا وكتبا كما أنه لم يوح اليه بتعليمهم أي

(٦) وقال كثير من الأئمة كالقاضي عياض « إنه لا يجب الاخذ بها في المسائل الدنيوية المحضة ولو كانت موثوقا بها »

(٧) وقال جميع المحدثين « إن الموضوع منها كثير وتمييزه عسير وفي بعض الاحوال مستحيل » راجع ماذكرناه في الكلمة الرابعة

(٨) وقال أبو حنيفة وأضرابه من أهل الرأي والقياس « ان الصحيح منها قليل جدا » حتى أنه لم يأخذ إلا ببضعة عشر حديثا

(٩) وقال مالك رضي الله عنه « إن عمل أهل المدينة مقدم عليها » وكذلك أهل الرأي والقياس يقدمون القياس الجلي عليها

(١٠) أجمع جمهور المسلمين على عدم تكفير من أنكر أي حديث منها

(١١) إن تناقضها كثير ومعرفة ناسخها من منسوخها عسير أو مستحيل وكذلك اكثر اسباب قولها

(١٢) قام الدليل الحسي على ان الله لم يتكفل بحفظها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان

(١٣) لم يجمعها الصحابة ولم يتفقوا عليها

(١٤) لم يبلغوها إلى الامم بالتواتر مع علمهم بأن اتباع الظن غير جائز في الاسلام إلا لضرورة

(١٥) انهم نهوا عن كتابتها وأمروا باحراق ما كتبوه منها كما في الروايات التي صحت عندكم

(١٦) قد نهى بعضهم عن التحديث وكرهه وكذلك علماء التابعين

(١٧) كان أفاضلهم أقل الناس حديثا ويصدفون عنه ولو كان واجبا لما كان هذا حالهم

(١٨) من كان من الصحابة كثير الحديث ملوا منه ونهوه وزجروه كما فعل عمر بأبي هريرة وشكوا فيه وقالوا إنه يضع الشيء في غير موضعه ونسبوه للجنون كما في كتبكم

(١٩) إن أئمة المسلمين لم يتفقوا على الصحيح منها وما منهم من أحد إلا خالف في مذهبه كثيرا منها

اركان الكعبة علامة على الركن الذي يبتدأ منه بالطواف ليعرف الطائف كم مرة طاف بالبيت وليبتدئ الناس بالطواف من نقطة واحدة حفظا للنظام وتسهيلا للطائفين (١) وكذلك يأخذ علماء التاريخ كثيرا من حقائق تاريخ اليونان مثلا مما يجدونه عندهم من الاشعار والحكايات القديمة كالياذة (هو مير) فاذا كان هذا مايفعله العلماء في الاساطير فهل يستنكر مني أن استشهد لقوم بأحاديثهم الصحيحة المسلمة عندهم وهي التي يعولون عليها في مذاهبهم ؟ وماذا يكون قولهم إذا لم أؤيد مقالي بشيء من ذلك ؟ أما كانوا يقولون إنها محض رأي له غير مؤيد بشيء من النقول ولو كان صحيحا ما خلت أحاديثنا منه فانها تكاد لا تغادر شيئا (إني والله لفي حيرة من أمرهم ! !) على ان كثيرا مما أذكره في مقالاتي مروي عن كثير من الصحابة بالاسانيد المسماة عندهم صحيحة والروايات فيه مترادفة تكاد توجب اليقين والقول بأنها جميعا موضوعة لايكفي عند الباحثين في نشوء الروايات لارواء غلتهم و إشباع نهمتهم في العلم فلا بد إذاً من البحث والتنقيب . ولو رفض المسلمون الآن ما ألزمهم به من الآحاديث بعد تدوينهم لها في كتبهم واعتبارهم لها صحيحة أفما

(١) حاشية للكاتب — تقبيل الحجر الاسود هو كتقبيل آثار رجال التاريخ العظام احتراما لهم واجلالا لشأنهم وحبا فيهم كمن يقبل سيف نابليون أودواة شكسبير وقلمه ان وجدت ولكل أمة آثار موروثة عن رجالهم العظام و يقبلونها وهذا الحجر هو من آثار إبراهيم في بنائه الكعبة ومحفوظ بالتواتر في الامة العربية فلذا قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبل غيره من أركان الكعبة واتبعه المسلمون في ذلك إلى اليوم وإن لم يقل أحد منهم بوجوب ذلك ولم يذكر هذا الحجر في القرآن الشريف . ومن اعتقد أن شيئا من هذه الآثار يضر أو ينفع فقد خرج عن عقله وكفر بالله ورسله . ومن العجيب أن الافرنج يسمون تقبيلنا لهذا الحجر عبادة — مع أن التقبيل لا يسميه أحد في الدنيا عبادة — ولا يسمون سجودهم لصورهم وصلبانهم وقديسيهم وقديساتهم والخبز في قربانهم — لا يسمون ذلك عبادة لهذه الاشياء مع أنه شتان ما بين السجود والتقبيل فانظر وتعجب ! ! !

صناعة أخرى بل تركوا وشأنهم حتى يصلوا الى ذلك بمرور الزمان

والخلاصة أن القرآن محفوظ في الصدور مكتوب في السطور من عهد الرسول وبأمره لم يختلف فى ذلك أحد وإنما الاختلاف كان في مجاراة الترقي في الصناعة. وقد ترقت صناعة عمل المصاحف شيئا فشيئا كما ترقى كل شيء آخر حتى وصلت الى ما وصلت اليه في عصرنا الحالي

وأما كتابة الاحاديث فقد كتبت فيها مرات وأفاض القول فيها بعلمه الواسع استاذ المنار فلا حاجة للتكرار

(الكلمة التاسعة)— أسباب استشهادي بأحاديث الآحاد فى مقالاتي —

إعلم بأن من الحجج ما يسمى (بالاقناعي) وذلك ان تحتج على الخصم بما هو مسلم عنده كأن تحتج على النصراني ببعض مافي الانجيل الحالي وان كنت غير معتقده. فأنا أورد الاحاديث غالبا لا لاثبت معتقدي لنفسي بل لاقنع من لا يقنع الا بها ولست أعول في براهيني القطعية إلا على مايفيد اليقين فما اذكره من الاحاديث إما لاقناع المسلمين وإلزامهم بها اوالتكثير من الادلة بضم ضعيفها الى قويها ليقوى بها مع استعمال مبدأ الاستنتاج والنقد فيها .وقد اتبعت في ذلك خطة علماء التاريخ العصريين فانهم يؤيدون آراءهم في التاريخ القديم ببعض مايعثرون عليه من الروايات ولو كانت من الاساطير ويستنبطون منها مالا يستنبطه الجهلاء من الحقائق بعد ان يستنيروا في دياجير ظلماتها بمصابيح من نور العقل والعلم فانه قد جرت عادة الناس بتضمين حكاياتهم شيئا من حقائق التاريخ فيأتي أهل النظر والبحث فيعرفونها ويلتقطونها من وسط الخرافات ويتثبتون من صحة ماالتقطوه بالاقيسة المنطقية والقضايا العقلية فاذا أراد بعضهم ان يعرف مثلا أصل الحجر الاسود عندنا عمد الى رواياتنا فيه وحكها بمحك النقد والعقل فاذا سمع رواية « ان الله استودع الحجر أبا قبيس حين اغرق الله الارض زمن نوح عليه السلام وقال له اذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له فلما انتهى ابراهيم لمحل الحجر نادي ابوقبيس ابراهيم فجاء فحفر عنه فجعله في البيت » استنتج منها بعد ان يزيل قشورها واوهامها حقيقة هذا الحجر وهو ان اصله قطعة اخذها ابراهيم عليه السلام من احجار جبل ابي قبيس السوداء القريبة من الكعبة ووضعها في احد

يتضاءلان امام النصوص التاريخية ولا سيما اذا كان ثمة ما يجعل هذين الدليلين ينعكسان على غير مراد المؤلف فيكونان حجة عليه لا له . ونحن ننفي أولا هذين الدليلين ثم نأتي بأدلتنا الوجودية على آرامية النبط أما الدليل الاول فان تسمية اليونان لسكان الشمال العربي من جزيرة العرب بالعرب البترية هي تسمية جغرافية كما اننا نسمي ما وراء اسوان بالسودان مع ان أكثرهم عرب لا زنوج وكما نسمي الصحراء الشرقية من مصر الصحراء العربية مع ان سكانها من البشارية والبجاة لا يعرفون العربية. على ان جميع ما عرف من حروب القائد اليوناني انتيفونوس وابنه ديمتريوس أنه وجد حولهم قبائل يظاهرونهم ويستجيبون لصراخهم ويؤيد ذلك ما نقله حضرة العلامة المفضال جبر ضومط عن يوسفيوس (جزء ثالث . مجلد ٢٣ مقتطف) على ان سفر المكابيين من التوراة سماهم نبطا وجعل العرب احلافا لهم حينما استعان بهم يهوذا المكابي وهو كان معاصرا لهم أيضا

وأما الدليل الثاني — فان ماعثر عليه من اسماء الملوك العربية لا يثبت ان الشعب عربي فقد ثبت ان النبط في آخر أمرهم خضعوا للعرب وخصوصا قضاعة وان الملوك الذين عاصروا منهم ملوك اليونان هم عرب حكموا أمة النبط كما يستفاد من تاريخ يوسفيوس . وكما اننا لا نسمي الامم الهندية انجليزا لان امبراطور الهند انجليزي كذلك لا نسمي النبط عربا لان ملوكها في بعض الاحيان كانوا عربا على ان هذه الاسماء لم تكن خالية من التحريف والصبغة الآرامية والعبرية مع اننا عثرنا على كثير منها مكتوب بالخط النبطي نفسه لا اليوناني الذي هو مظنة التحريف واما كون لغة الكتابة عند النبط غير لغة التخاطب فهو مما لم يقم عليه دليل وما كان أحوج المؤلف الى ذكره لو وجده

أما أدلتنا على ان النبط ليسوا عربا وانهم خليط من الادوميين القدماء ومن الآراميين الذين جاءوا مع بختنصر ومن اليهود ومن العرب فهي :

(١) ماهو مشاع مستفيض عن العرب قبل الاسلام وبعده ان النبط غير العرب وانهم كانوا يعيرون العربي بأنه نبطي واعتبر كثير من الفقهاء ان نداء

يكونون متعسفين ؟ وكيف إذا يكون التميز عندهم بين الصحيح والضعيف والموضوع ؟ فاللهم اجعل العقل رائدنا . وأنر بصائرنا . واجعل كتابك هادينا ومرشدنا . ونبيك إمامنا وقدوتنا ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

الملامة

﴿ بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ﴾ (*)

لحضرة جرجي افندي زيدان

ذكرنا في مقالنا الآنف الامر الأول من الامور التي تؤخذ على المؤلف وهو « تردده أو انكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع . وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتماداً على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط » ومثلنا للشق الاول من هذا الامر وأدحضناه بما عرفه القراء . . والآن نمثل للثاني ونأتي على بقية الامور التي تؤخذ على المؤلف فنقول :

مثال الثاني — انه عند ما تكلم على دولة النبط في بطرا نقل عن التوراة وعن كاترمير الفرنسي وعن كوسين دي برسفال وعن آخرين ما يفيد أن الانباط ليسوا عربا وانهم آراميون اتوامن الشرق فأجلوا الادوميين عن بطرا واحتلوها ثم رفض كل هذه النصوص والآراء وغيرها من النصوص التي لم يذكرها مما جاء في السفر الاول من اسفار المكابيين وفي تاريخ يوسفيوس من غير ان يذكر برهانا واحدا على نقضها واستنبط هو بنفسه انهم عرب وذكر لذلك دليلين : الاول ان اليونان حينما ذكروهم سموهم عربا (ولعله يعني تقسيمهم جزيرة العرب إلى عرب برية في الشمال وسعيدة في الجنوب) والثاني ان أسماء ملوكهم عربية . وهما دليلان

(*) تابع لما نشر في ص ٦٨١ م ١١ من مقالة الشيخ أحمد الاسكندري

اكثر من خمس صفحات من كتابه مع تيقنه ان المكتوب من آثارهم ليس عربيا زعم بلا دليل ان لغة تخاطبهم غير لغة كتابهم ثم رجع وقال:

«على اننا لا نظن اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون هي نفس اللغة العربية التي عرفناها في صدر الاسلام ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء» هذا مع علمنا ان النبط دخلوا في حوزة الرومان في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد واننا نروي كثيرا من شعر العرب وامثالهم منذ القرن الرابع من الميلاد مما يظهر لنا تمام الاظهار ان هذه اللغة العربية الفصيحة باعرابها واشتقاقها وكثرة اساليبها التي لاتتناهى قد تكونت بهذه الصورة قبل ذلك بكثير أي وقت ما كان النبط نبطا بل قبل هذا الوقت ولاسيما اذا علمنا ان اللغة العربية هي لغة أهل بادية وهم أبعد الناس عن الانقلابات اللغوية كما يصرح بذلك حضرة المؤلف في أكثر من موضع من كتابه

(٦) ان النبط الذين كانوا في الشرق في صحراء الكوفة وعلى ضفاف الفرات وبقوا متميزين عن العرب الى ما بعد الاسلام بنحو مئة وخمسين سنة هم يشبهون نبط الشام من أكثر الوجوه بدليل أن ماوجد من آثارهم ومعبوداتهم وخطوطهم يدل على انهم من عنصر واحد واطلال تدمر والخط التدمري صنو النبطي تشهد بذلك فان كان نبط الشام خالطوا قضاعة فنبط العراق خالطوا لخما وجذاما او بكرا وتغلب وعبادا

ومن أمثلة الشق الثاني وهو تشبثه بتحقيق بعض الظنون الخ انه عندما تكلم على دول اليمن ذكر من بينها دولة زعم ان العرب لم تعرفها وهي أهل (معين) وقفى على أثر ذلك بأن استظهر انها أمة قديمة جدا تبتديء أخبارها منذ أربعين قرنا قبل الميلاد لعثورهم على أثر قديم من آثار بابل ذكر فيه بالخط المسماري « ان زام سين حمل على مغان وقهر ملكها معنيوم » واستنتج ان مغان هذه هي مغان طورسينا وأن الميم في «معنيوم» للتنوين وبالطبع يعتقد ان اللفظ حرف واختزل حتى صار (معينا) وكذلك نقل عن سفر الاخبار «أن الله أعان عزريا على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل وعلى المعونيين » أي المجاورين طبعا للفلسطينيين وكل هذه الحوادث حدثت في برية الشام والامة يمانية

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

العربي يا نبطي قذف وسب ناهيك بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاتكونوا كنبط السواد إذا سئل عن نسبه قال أنا من بلد كذا

(٢) إن لغتهم لغة خاصة بهم تخالف العربية وتنال حظا من الآرامية وحظا من العبرية وحظا من العربية . بل فيها كثير من اليونانية

(٣) إن جميع النصوص التاريخية من التوراة في إشارة أرميا وحزقيال وفي أسفار المكابيين ما يفيد ان النبط غير العرب وان الإله انتقم من الادوميين وضربهم بغارة بختنصر فدمر عليهم وأورث الارض من بعدهم الكلدانيين الذين جاءوا معه من بابل وان النبط كانوا في بعض أدوارهم احلافاً ليهوذا المكابي وانهم استأجروا جيوشا من العرب يظاهرونهم وهذا يدل على ان المستأجر غير الاجير

(٤) ما جاء في تاريخ يوسفيوس من ان النبط بقوا مستقلين عن العرب الى أيام الاسكندر مانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس بن سمعان أخي يوناتان ويهوذا المكابي اليهودي فانه بعد وفاة هذا الملك اخضعهم العرب وقام منهم عليهم عدة ملوك كانوا يسمون تارة ملوك النبط وتارة ملوك العرب وان كانت الجنسية متميزة بينهما و بقوا كذلك الى ان استولى عليهم الرومان سنة ١٠٥ م

(٥) حقق كل من كاترمير الفرنسي وكوسين دي برسفال وغيرهما من علماء الآثار ان سكان بطرا بعد الادوميين هم أمم نازحة من العراق و بابل ولا ينطبق ذلك إلا على زمن بختنصر اذ سكان بطرا قبل بختنصر لم يعرفوا إلا باسم الادوميين و بعده لم يعرفوا إلا باسم النبط مع انه من الثابت ان بختنصر أباد الادوميين تحقيقا لوعيد حزقيال وأرميا النبيين من ان الله ينزل عليهم بلاءه ويجعل جبال عيصو خرابا وميراثا لذئاب البرية وانه حارب العرب حتى كاد يفنيهم فلو كان النبط عربا لما استبقاهم فيها فظهر من ذلك أن الانباط بقايا القبائل الآرامية التي أسكنها بختنصر في بطرا ليكونوا حراسا ونقلة لتجارة بابل لان فتوحاته كانت كلها تجارية ثم امتزجوا بغيرهم من اليهود والعرب وما يرى في لغاتهم من الالفاظ العربية لا يربو على ما يوجد في العربية المضرية من الالفاظ العبرية

على ان المؤلف لما أحس بضعف دليله عن تبريره تلك الجلبة التي هاجها في

ومنها تناقضه في استظهار أن السبئيين حبشان ثم ذكر في صفحة (١٣٦) ان المعينيين القادمين من العراق نقلوا معهم حضارة العراق ونظام حكومته وقسموا اليمن الى محافد وقصور وطمعوا في جيرانهم واخضعوهم وانشئوا الدولة المعينية والسبئية والحميرية

ومنها تناقضه في ان المعينيين لم تعرفهم العرب مع انه نقل في صفحة (١١١) عن الهمداني في كتاب الاكليل ان « محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف الرحب مقتبلتان فمعين بين مدينة نشان و بين درب شراقة » وروى ان مالك بن حريم الدلاني يقول فيها

ويحمى الجوف مادامت معين ٭ بأسفله مقابلة عرادا

وفيها وفي براقش يقول فروة بين مسيك

أحل يحابر جدي عطيفا ٭ معين الملك من بين البنينا
وملكنا براقش دون أعلى ٭ وانعم اخوتي و بني ابينا

ومنها تناقضه في أن العرب لم يعرفوا دولة النبط في الشام ثم ذكر في عدة حوادث انهم عرفوها خصوصا في صفحة (٧٩) حيث نقل عن ابن خلدون وحمزة الاصفهاني معرفتها لنبط الشام وان بطوا كانت تسمي بعد الاسلام الرقيم ولهم فيها شعر هذا الى مناقضات كثيرة لا تسع سردها ولا تفصيلها هذه العجالة

الامر الثالث من الامور التي تؤخذ على المؤلف جسارته على وضع الاسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهار كتقسيماته أدوار تاريخ العرب وكتسميته الامة التي سماها استرابون اليوناني جرهيين بالقريبين نسبة الى قرية وهي إسم اليمامة قديما وهم الذين قال فيهم استرابون « انهم أغنى أهل الارض ويكثرون من آنية الذهب والفضة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة » فمتى كان أهل اليمامة أغنى أهل الارض ومتى كان لهم جدران تزين بالذهب والفضة والاحجار الكريمة؟!! أليس كلام استرابون أشبه بالخرافات التي تقال عن مدينة شداد بن عاد (إرم ذات العماد) التي يبكت حضرة جرجي افندي زيدان جهلة مؤرخينا على ذكرهم

هي شامية اذا ماستقلت وسهيل اذا استقل يماني

ولو كان الشبه بين لفظين يكفي ان يبنى عليه تاريخ أمتين لقد حق لنا ان نقول على التاريخ العفاء

ثم اقتضب الكلام ورأى رأيا أخيرا انهم من جالية الآراميين أتوا من العراق في هذه العصور السحيقة واستعمروا اليمن ثم اشكل عليه الامر بأن المعينيين لو كانوا من العراق لكتبوا بالخط المسماري مع ان آثارهم مكتوبة بالخط المسند المشتق من الفينيقي فلم يرحلا لهذا المشكل سوى ادعائه بانهم استبدلوا بالخط المسماري الخط الفينيقي لسهولة هذا الاخير في نظره !!! ولكن كل هذه العراقة في القدم لم تمنعه من وصفهم في موضع آخر انهم كانوا معاصرين للسبئيين الذين لم تبتدىء دولتهم على رأيه الا في القرن الثامن قبل الميلاد ونقل عن اليونان في صفحة (١١٦) ان هذه الامم وغيرها كانت متعاصرة وان عاصمتهم (مأرب) ثم يتشبث في موضع آخر بأن القحطانيين السبئيين كانوا بعد المعينيين أو انهم ورثتهم أو انهم حبشان أو انهم عمالقة جاءوا من مصر هذا الى اضطرابات وتناقضات توقع طالب التاريخ في حيرة وارتباك يهون عليه معهما نبذ كل هذه التخرصات والاعتقاد بأن كل هذه الامم كانت قبائل متجاورة في مخاليف متقاربة أعظمها مأرب

الامر الثاني من الامور التي تؤخذ على المؤلف — تناقض عبارات كتابه في عدة مواضع

منها ادعاؤه ان اسماء ملوك حمير لم يكن بينها اسماء عدنانية حتى قال في صفحة (١٦٦) لم نجد لذلك أثرا في الآثار المنقوشة ثم نقل في صفحة (١٥٩) اثرا عظيما لابرهة الحبشي وفيه يسمي ولاته من حمير واقيالهم يزيد وكبشة ومرة وثمامة وحنشا ومرثد كما تقدم

ومنها تناقضه في ان الجبائيين لم يعرفهم العرب بل عرفهم اليونان وحدهم ثم ذكر في صفحة (١٣٤) ان الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب قال «جبأ مدينة المفاخر وهي لآل الكرندي من بين ثمامة آل حمير الاصغر» مع ان اليونان لم يذكروهم بأكثر من انها قبيلة تجارية

الامر الخامس سوء التعبير من الوجهة الدينية في عبارات الكتاب كقوله في صفحة (١٠) أقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وأقربها إلى الصحة القرآن (؟)

الامر السادس من الامور التي تؤخذ على المؤلف انه أغفل مدة حكم الفرس على اليمن بعد ذي يزن فلم يذكر أحدا من عمالهم مع ان عمال كسرى استمروا يحكمون اليمن الى الاسلام فكان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ثم صارت اليمن الى الاسلام

الامر السابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف كثرة شكه وتردده وتناقضه في اكثر الحوادث حتي انه لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ويظهر ذلك ظهورا بينا في آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية

الامر الثامن من الامور التي تؤخذ على المؤلف تخريجه الاعلام تخريجا غريبا، قال ان اسم امرئ القيس يظنه محرفا عن مرقس ! ! وان اسم الحارث ربما كان ترجمة جيورجيوس واسم صخر ترجمة بطرس ! ! الخ ما ذكر من التخريج

الامر التاسع اختصاره التاريخ جدا وهو أحد العيوب التي عابها على مؤرخي العرب فلم يسلم هو منها والكمال لله وحده

آثار علمية أدبية

ترجمة الخنساء (*

هي السيدة تُماضِر الصحابية الشهيرة الجليلة بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سراة سُليم، كانت رضي الله عنها من شواعر العرب المشهود لهن بالتقدم، وإنما لقبت الخنساء تشبيها لها بالظبية لان الخنس من صفات الظباء وهو تأخر

---

*) خلاصة درس القاه على طلاب مدرسة القضاء الشرعي الشيخ محمد المهدي الاستاذ المشهور المدرس بمدرسة القضاء

لها! ولكنه لا يبكت استرابون بل لم يكتف بقوله حتى حرف لفظه (جرها) بلفظ (قرية) وجعل اهلها دولة لم تعرفها العرب وفتح بابا لها خاصا في كتابه ورسمها على المصور الجغرافي !!

الامر الرابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف ارتياب القارئ في تهجينه أخبار العرب في حوادث الفخر والغلبة كفتوحات شمر يرعش وأسعد ذي كرب في آسيا وأفريقس في أفريقيا وحسان بن تبع . وتصديقه خرافات استرابون وهيرودوت مع انهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . واقرأ ما نقله عن استرابون في صفحة (١٣٨) تتحقق صدق ماتقول وهذا نصه :

« وذكر استرابون ضربا من الاشتراكية عند أولئك العرب غريبا في بابه فبعد ان أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها وان رئيسها أكبر رجالها سنا قال : والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخل منهم اليها أولا ترك عصاه بالباب والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم وقد يأتون أمهاتهم ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت . كان لاحد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها ١٥ أخا كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم واحتالت على منعهم بعصي اصطنعتها تشبه عصيهم وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت إذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى فتضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها فيتوهم سائر الاخوة أنه لا يزال عندها وقد يجيئ أحد يتفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع فتبدل العصا الاولى بعصا مثل عصاه وهكذا . فاتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعا في ساحة ورأى أحدهم بباب أخته عصا وليس من إخوته أحد غائبا فظن فيها السوء فشكاها إلى أبيها ولما اطلع على عذرها برأها . هذه حكاية استرابون ولم نذكرها إلا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة » اه

يذكر هذه الحكاية هنا بالتفصيل ويعتذر بهذا العذر مع انه عند ما يقتضي المقام شيئا صحيحا تاريخيا عن العرب يدمجه ويجمل فيه ويحيل القارئ على الكتب الاخرى !!

سأحمل نفسي على حالة　فإما عليها واما لها
تهين النفوس وهون النفو　س يوم الكريهة أبقى لها
فان تك مرة أودت به　فقد كان يكثر تقتالها
فيوما تراه على هيكل　أخا الحرب يلبس سربالها
ويوما تراه على لذة　وعيش رضي فقد نالها
فخر الشوامخ من فقده　وزلزلت الارض زلزالها

وكقولها في صخر

الا ياصخر ان أبكيت عيني　فقد أضحكتني زمنا طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حي　فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل　رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقولها فيه

أعينيَّ جودا ولا تجمدا　ألا تبكيان لصخر ندى
ألا تبكيان الجريء الجميل　ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما　د ساد عشيرته امردا
اذا القوم مدوا بأيديهم　الى المجد مد اليهم يدا
فنال الذي فوق أيديهم　من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم　وان كان أصغرهم مولدا
وان ذكر المجد الفيته　تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقولها:

يا أم عمرو ألا تبكين معولة　على أخيك وقد أعلى به الناعي
فابكي ولا تسأمي نوحا(١) مسلبة　على أخيك رفيع الهم والباع
فقد فجعت بميمون نقيبته　جم المخارج ضرار ونفاع
فمن لنا ان رزئناه وفارقنا　بسيد من وراء القوم دفاع
قد كان سيدنا الداعي عشيرته　لا تبعدن فنعم السيد الداعي

(١) النوح جمع نائحة على غير قياس

الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الارنبة ، ويقال لها خناس على سبيل التمليح ، وقد كانت من أجمل نساء العرب وأفصحهن، نشأت عزيزة حرة لاتفتات عشيرتها عليها بأمر فرىها دريد بن الصِمة فارس هوَازن وسيد بني جُشَم وهي تهنأ بعيرا لها فانخلع لبه على كبر سنه وانصرف الى رحله وهو يقول :

حيوا تُماضِرَ واربعوا صحبي وقفوا فان وقوفكم حسبي
أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحب
ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالي أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب (١)
متحسرا نضخ الهناء به نضخ العبير بريطة العصب(٢)
فسليهم عني خناس إذا غض الجميع هناك ما خطبي

ثم غدا إلى أبيها فخطبها اليه فردته أحسن رد ثم طلب إلى أخيها معاوية ان يشفع له عندها فأبت بعد امتحانه وقالت : أأترك أولاد عمي كعوالي الرماح وأتزوج شيخا من بني جشم هامة (٣) اليوم أوالغد !! فألح عليها فقالت القصيدة التي مطلعها

أتكرهني هبلت على دريد وقد أصفحت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني حِبركي قصير الشبر من جشَم بن بكر(٤)

فهجاها دريد فقيل لها الا تجيبينه ؟ فقالت والله لا أجمع عليه أن أرده واهجوه ومن هنا تعلم مقدار أدبها وحريتها وعزتها عند قومها

وقد كانت في أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة فلما قتل شقيقها معاوية يوم حورة الاول سنة ٦١٢م وقتل أخوها لابيها صخر يوم كلاب سنة ٦١٥م في خبر بن طويلين، اكثرت من الشعر واجادت وأنسيت بهما من كان قبلهما وا كثرت المراثي ، وأجود مراثيها ماخلط فيه مدح بتفجيع فانه يكاد يكون الغاية من كلام المخلوقين ، كقولها في معاوية :

---

(١) الهناء : القطران ؛ والنقب : القطع المتفرقة من الجرب في جلد البعير

(٢) النضخ كنفح : الرش . والعبير اخلاط من الطيب والريطة هي الملاءة أو الثوب اللين الرقيق ، والعصب : ضرب من البرود (٣) الهامة طائر صغير يألف القبور (٤) الحبركي : القصير الرجلين الطويل الظهر . والشبر : الخير والعطاء

فقال حسان أنا والله أشعر منك ومن أبيك حيث اقول

لنـا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجـدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فا كرم بنا خالا وا كرم بنا ابنما

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك وانزرته في ثمانية مواضع، قال وكيف!! قالت قلت لنا الجفنات والجفنات مادون العشر فقللت العدد ، ولوقلت الجفان لكان ا كثر، وقلت الغر والغرة البياض في الجبهة،ولو قلت البيض لكانا كثر، وقلت يلمعن واللمع شي يأتي بعد الشيء ،ولو قلت يشرقن لكان ا كثر لان الاشراق ا كثر من اللمعان ،وقلت بالضحى ولو قلت بالدجى لكان ا كثر في المديح،لان الضيف بالليل ا كثر طروقا ، وقلت اسيافنا والاسياف دون العشرة ،ولو قلت سيوفنا لكان ا كثر، وقلت يقطرن فدللت على قلة القتل ولوقلت يسلن لـكان ا كثر لانصباب الدم ، وقلت دما والدماء ا كثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك!! فسكت حسان ولم يحر جوابا وقام منكسرا منقطعا ، وقد سـئل جرير من اشـعر الناس ؟ فقال انا لولا الخنساء ، قيل بم فضلتك ؟ قال بقولها

ان الزمان وما يفنى له عجب ابقى لنا ذنبا واستؤصل الراس
ان الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسـد الناس

وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعرا الا ظهر الضعف فيه فقيل له او كذلك الخنساء ؟ قال تلك غلبت الفحول

الخنساء في صدر الاسلام

اتفقت كلمة الرواة على ان السيدة تماضر الخنساء رضي الله عنها كانت صحابية، قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وقومها بنو سليم واسلمت معهم ، بيد انها لم تدع ما كانت عليه في الجاهلية من تسلبها (١) على ابيها واخويها ، وقد بلغ من وجدها على صخر انها عميت من البكاء ، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه اقبل بها بنو عمها عليه وقالوا يا أمير المؤمنين لو نهيتها ، فدخل عليها فوجدها على ماوصفت من تقريح ما ٓقيها، فقال لها ما اقرح ما ٓقي عينيك ياخنساء ؟ فقالت بكائي على السادات

(١) تسلبت المرأة لبست السلاب وهو الحداد والتسلب هو الإحداد على الميت

ورائيتها المشهورة التي تقول فيها

كأن لم يكونوا حمى يتقى ... اذ الناس اذ ذاك من عز بزا
هم منعوا جارهم والنسا ... ء يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح ... فبالبيض ضربا و بالسمر وخزا
وخيل تكدس بالدارعين ... وتحت العجاجة يجمزن جمزا
جززنا نواصي فرسانها ... وكانوا يظنون ان لن تجزا
فمن ظن ممن يلاقي الحروب ... بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى ... ونتخذ الحمد مجدا وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد ... ونلبس في الامن خزا وقزا

ورائيتها السائرة مسير الامثال

اغر ابلج تأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار
جلد جميل المحيا كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مسعار
حمال الوية هباط أودية ... شهاد اندية للجيش جرار
لا يمنع القوم ان سالوه خلعته ... ولا يجاوزه بالليل مرار

وقد فاخرتها سلمى الكنانية وكذلك هند بنت عتبة في عكاظ ففخرتهما في حديث مشهور

رتبة الخنساء بين الشعراء

اجمع علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قط قبل الخنساء ولا بعدها اشعر منها ولقد كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء فيجلس لشعراء العرب بعكاظ على كرسي فينشدونه ٬ فيفضل من يرى تفضيله ٬ فأنشدته الخنساء فأعجب بشعرها وقال لولا أن أبا بصير انشدني آنفا لفضلتك على شعراء الموسم . فاغتاظ حسان بن ثابت (رض) من تفضيل الاعشى على شعراء الموسم وقال للنابغة انا أشعر منك ومن أبيك ٬ فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن ان تقول

فانك كالليل الذي هو مدركي ... وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء انشديه فانشدته فقال مارأيت امرأة أشعر منك قالت ولا فحلا٬

فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة خلت بصخر امرأته فعذلتـه ، ثم قالت ان زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء ، فان كان لا بد من صلتها فأعطها أخس مالك فانما هو متلف ، والخيار فيه والشرار سيان ، فانشأ يقول :

والله لا أمنعها خيـارها　　وهي حصان قد كفتني عارها

ولو هلكت قددت خمـارها　　واتخذت من شعر صِدارها(١)

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه ، فلما هلك تخذت هذا الصـدار ، والله لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييت . وقد مكثت أكثر من أربعين سـنة وهي أحزن نساء العرب على فقيد ، غير أن الاسلام اجتث جاهليتها ووجهها الى رضوان الله وابتغاء مثوبته ، يشهد لذلك ما كان من خطبتها في بنيها الاربعة يوم القادسية سنة ١٦ هـ وذلك انه لما ضرب البعث على المسلمين لفتح فارس سارت مع بنيها الاربعة وحضرت الوقعة وأوصت أولادها من أول النهار فقالت : يا بني انكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الـكافرين ، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا) الآية فاذا أصبحتم غدا ان شاء الله سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى سياقها ، وجللت نارا على أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام خميسها ، تظفروا بالمغنم والكرامة ، في دار الخلود والمقامة . فقاتلوا حتى قتلوا رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك أجرى عليها أرزاق

(١) الصدار ثوب بلا كمين غير مشقوق تلبسه نساء العرب في الحزن ويصح أن يطلق على ما يسميه المصريون الصديري والشاميون الصدرية

من مضر ، فقال حتى متى ؟ اتق الله ان الذي تصنعين ليس من صنع الاسلام ، وانه لو خلد احد لخلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم اعضاء اللهب وحشو جهنم ، فقالت ذلك أطول بعويلي عليهم ، ثم استنشدها فأنشدته ارتجالا :

سقى جدثا اكناف غمرة (١) دونه — من الغيث ديمات الربيع ووابله
وكنت اعير الدمع قبلك من بكي — فأنت على من مات بعدك شاغله

فرق لها عمر وقال خلوا سبيل عجوزكم فكل امرئ يبكي شجوه

وقد رآها مرة تطوف بالبيت محلوقة تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها فوعظها وقال انه لا يحل لك لطم وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفت عن ذلك وقالت

هريقي من دموعك واستفيقي — وصبرا ان اطقت ولن تطيقي
بعاقبة فان الصبر خير — من النعلين والرأس الحليق

ولما لامتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقالت لها ان الاسلام قد هدم كل الذي تصنعين انشأت تقول :

الا يا صخر لا انساك حتى — أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخرا — واذكره بكل مغيب شمس
فلولا كثرة الباكين حولي — على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن — أسلي النفس عنه بالتأسي
فقد ودعت يوم فراق صخر — ابي حسان لذاتي وأنسي

فقالت عائشة ما دعاك الى هذا الا صنائع منه جميلة ، فقالت نعم ان لشعاري سببا ، وذلك ان زوجي كان رجلا متلافا للاموال ، يقامر بالقداح ، فاتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء ، فأراد أن يسافر فقلت له أقم وأنا آتي أخي صخرا ، فأتيته وشكوت اليه حالنا وقلة ذات اليد بنا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء ، فعدت اليه في العام المقبل أشكو اليه حالنا فعاد لي بمثل ذلك

(١) غمرة مكان والاكناف النواحي

خصوصية لركوبه والموسيقى الوطنية فوصل البلدة بكل احتفاء تحفه الاهل والاحباب إلى ان اقترب الجميع من سوق العطارين فتصدى كامل المقدم الذي كان ضرب صالح وأدهم رضا سابقاً ووقف امام الاستاذ وابتدره بضربة على رأسه بعصا فلم تصبه تماما فأراد أن يضربه ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي بيده وتمسك بالعصا حتى أخذها من كامل فما كان منه إلاّ ان أشهر مسدسين واخطر كلاًّ من يقترب منه بالموت العاجل فاقترب منه رجل لم تؤثر به تلك التهديدات وأراد ردعه فاطلق عليه عيارا ناريا فلم يصبه و بعد ذلك فرّ

وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك لدار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هناك

لم يهتم كما يجب من بيدهم أمر الضبط، الكدر عمومي من جراء ذلك، الاستاذ لم يبد عليه أثر كدر بل تحمل ذلك بصبر كما هي عادته . لم يبق أحد من الوجوه إلا وقد هرع للسلام عليه . أمور الحكومة ليست هي على ما يرام وقد استعفى أكثر أفراد الضبطية ، التفصيل بالوسطة »

فنهنئ صديقنا الاستاذ بسلامته ونطلب من الحكومة بكل إلحاح التحري على المعتدي ومجازاته أشد المجازاة تنكيلا له وارهابا لغيره (الاتحاد العثماني)

* * *

كتب إلينا من طرابلس أن حضرة العلامة السيد رشيد افندي رضا صاحب مجلة المنار وافى الفيحاء مساء الجمعة الماضي على انه قبل وصوله إلى الدار المعدة لنزوله هجم عليه أحد الاهالي وضربه بعصا على رأسه رغما عن شدة ازدحام الناس الملاقين حوله . ثم اطلق عياره الناري في الهواء وأخذ يطوف في الاسواق كأنه لم يأت شيئا مذكورا

نقول وهذه الحادثة السيئة غريبة في بابها ولا نظن الذي أقدم على هذا العمل الفظيع إلا مغرى مدفوعا بيد أعلى فعسى أولياء الامور ان يبحثوا ليقفوا على الحقيقة لكي يقطعوا تلك اليد أو يقيدوها على الاقل (لسان الحال)

* * *

أولادها الاربعة وكان لكل واحد مائتا درهم حتى قبض رضي الله عنه ، وكانت وفاة الخنساء زمن معاوية بالبادية سنه ٥٠ هجرية ٦٧٠ ميلادية

باب الأخبار والآراء

حادثة صاحب المجلة بطرابلس الشام

(أقوال الصحف فيها)

لم تكن الرسائل البريدية والبرقية التي وردت على منشئ هذه المجلة وهو في سياحته معلنة الاسف العظيم لوقوع حادثة الاعتداء بطرابلس — بأكثر مما ورد على إدارة المجلة من سائر انحاء القطر المصري ومن الشرق والغرب وسوريا أيضا والاستانة وكلها تبدي الاستياء الشديد والتعريض والتنديد وتهنئ صاحب هذه المجلة بسلامته مما كيد له وتعد نجاته عناية من الله بالعلم والاسلام واننا كما بدأنا الشكر للكاتبين الأولين نعيد الثناء عليهم وعلى الآخرين

وقد تناولت هذا الموضوع جرائد سوريا ومصر الكبرى باهتمام زائد وإلى القراء ما كتبته بهذا الشأن :

شاع أمس في الثغر انه بوصول الاستاذ السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الأغر إلى طرابلس تصدى له بعضهم وضربه بعصا فجرحه في رأسه ثم ابتدره باطلاق الرصاص فاخطأه فكان لهذا الخبر رنة أسف لدى الجميع ، وانا نبشر الكل بان الاستاذ في سلامة وعافية والحمد لله وهذا نص تلغراف تلقيناه في هذا الصباح من طرابلس بتفصيل الحادثة :

« وصل الاستاذ الرشيد مساء الجمعة فكان له استقبال حافل وعدد المستقبلين يربو على الخمسمائة شخص ، أرسلت شعبة جمعية الاتحاد والترقي العثماني عربة

المقدم هجم على حضرة العالم الفاضل السيد رشيد رضا صاحب المنار بينما كان جمهور عظيم يحتفل بقدومه وضربه بعصا على رأسه ولكن فضيلة الشيخ محمد كامل الرافعي تلقى العصا قبل ان تصيب السيد رشيداً بسوء . فكان للحادث وقع كبير وازداد على أثره ميل الجمهور الى السيد رشيد وكتبت لجنة الاتحاد والترقي في بيروت الى لجنة سلانيك تستشيرها في إعلان الاحكام العرفية في طرابلس بعد حادثة السجن وهذا الحادث الموجب للاسف . أما الجاني فالهمة مبذولة للقبض عليه وعلى من يظهر التحقيق اشتراكهم معه ولقد طلب والي بيروت قوة عسكرية من دمشق لاستخدامها عند الضرورة في توطيد الامن (الجريدة)

* * *

اتانا من غير مكاتبنا في طرابلس الشام ان حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصل اليها يوم الجمعة الماضي فاستقبله جمهور كبير من العلماء والاعيان ورجال جمعية الاتحاد والترقي على ظهر الباخرة ووقفت الناس على المرفإ لرؤيته واعدت له الجمعية عربة خصوصية ركب فيها والموسيقى تصدح امامه حتى قرب من دار الشيخ محمد كامل الرافعي ففجأه هناك شقي اسمه كامل بن عبد الرحمن المقدم بضربة عصا على رأسه ولكنها لم تكد تصيبه حتى تلقاها عنه العلامة الرافعي ونزعها من يد ذلك الشقي .فشهر هذا مسدسين وجعل يطلقهما على الجماهير التي حاولت صده ثم فر هاربا ولم يصب أحد بسوء والحمد لله .وظل حضرة الاستاذ مع ذلك ساكنا رابط الجأش كما ينتظر من امثاله من ذوي النفوس الكبيرة . وقد وردت الرسائل من انحاء سورية بتهنئته واستنكار فعلة ذلك الشقي. وقد طير البرق خبر ماجرى الى دولة والي بيرت وجمعية الاتحاد والترقي فيها فأرسل دولة الوالي وكيلا لمتصرفية طرابلس وطلب قوة عسكرية من دمشق بعدما ظهر احتياج طرابلس الى زيادة عساكرها وأوصى دولته بالقبض على الجاني الذي يقال انه فعل مافعل باغراء واحد من اقاربه .ولا يزال العلماء والوجهاء وكبار رجال الحكومة يؤمون منزل الشيخ الرافعي لتهنئة ضيفه الكريم بالقدوم والسلامة (المقطم)

* * *

كان حضرة الفاضل الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار في مصر قد

صرف حضرة العلاّمة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ١٢ سنة في القطر المصري بعيدا عن أهله ووطنه وأصاب أهله وذويه ما أصابهم من اضطهاد المعتدين كما يذكر اكثر قراء هذه الجريدة التي وقفت وقتئذ في وجه الظالمين وقفة طويلة. ولما أعلن الدستور سافر السيد رشيد الى طرابلس فمر ببيروت حيث قوبل مقابلة شائقة جديرة به وبعد الاقامة في بيروت اياما سافر الى طرابلس فوصل مساء الجمعة ٢٩ الماضي . فنزل لمقابلته على ظهر الباخرة جمهور من مشايخ طرابلس واعضاء جمعياتها وجمهور من أهالي القلمون .وكان في انتظاره على الرصيف خلق كثير ومعهم الموسيقى فاستقبلوه بكل اجلال وأعدت له في الترام عربة خاصة ركب معه خواص المحبين وهكذا سار موكب المقابلة بين عزف الموسيقى واطلاق البارود الى منزل فضيلة مضيفه الاستاذ الشيخ محمد الرافعي حيث توافد العلماء والوجهاء للسلام عليه . وحدث في في اثناء الطريق ان شقيا من أشقياء طرابلس المشهورين هجم على السيد رشيد بعصا وضربه بها فأصابت شطر رأسه ولم تؤلمه

فهجم الجمهور على ذلك الشقي كامل المقدم فأخذ باطلاق النار على الجمهور وفر هاربا وكان هذا العمل مدعاة للمغامرة بالسيد رشيد ووردت عليه تلغرافات التهنئة من والي بيروت وجمعية الاتحاد والترقي والوجهاء والاعيان والعلماء . وزاره القومندان واعرب عن اسفه وظهر ان الشقي مدفوع بأيدي اناس من الحساد ثم زار القومندان والضباط واعضاء نادي جمعية الاتحاد والترقي السيد رشيدا وطلبوا منه ان يحضر الاجتماع الذي عقد في النادي ففعل وألقى خطابا جميلا كان له احسن وقع

وقد اهتم والي بيرت بالاعتداء على السيد رشيد اهتماما عظيما فأرسل وكيلا لمتصرفية طرابلس وأمره بالقبض على الجاني فنحن اذا شكرنا أعيان طرابلس للحفاوة بعالم منهم هو فخر بلدهم بلا نزاع ولا جدال فانا نأسف لوجود انذال في تلك المدينة يحرضون السفاحين على ارتكاب مثل هذه الجنايات وأملنا ان يعاقب والي بيروت ذلك الشقي والذي أغروه عقابا صارما شديدا يكون عبرة لسواهم (الاهرام)

***

اعتداء ذميم — ورد كتاب من طرابلس ينبيء بأن أحد الاشقياء المدعو كامل

أمرا حلالا طيبا ، والحق الذي لامراء فيه ان الانسان مهما استكنه أحوال البشر فانه لا يحيط علما إلا بجزء يسير من كلٍ كبير ، وعليه فلا تثريب على من قال وهو يظن نفسه مصيبا ، بل على من فعل وهو يوقن انه مخطئ ،

أعلنت النمسا في السابع من اكتوبر الماضي انها ألحقت مقاطعتي بوسنه وهرسك بمملكتها وانهما صارتا بهذا الالحاق جزءا منها ! ! فقلب هذا الحادث كيان السياسة الأوربية وحول انظار الدولة الدستورية الجديدة إلى مايراد بها فصرفها عن القيام بالاصلاح الداخلي ، وكانت بلغاريا سبقتها فأعلنت استقلالها قبيل ذلك بيومين ، فكان هذا وما سبقه صادفا بالدولة العلية عن الاهتمام بما تقتضيه أحوال البلاد الداخلية بله الخارجية

توقع الناس من وراء هذا الانقلاب المفاجئ في عالم السياسة حربا ضروسا تشتعل جذوتها في (ترنوفو) ثم تمتد الى سائر أنحاء شبه جزيرة البلقان ، وتنبأ فريق بأن ذلك قد يحمل بعض دول أوربا الكبرى على خوض غمراتها ، فيكنّ اذ ذاك من جناتها وكماتها ، وفي ذلك من الويلات والمصائب مافيه . على ان هذا الفكر والذهاب اليه ليس من باب الحدس والتخمين ، ولولا حلم الدولة الدستورية الجديدة وأناة الامارة النزقة لحمّ الامر وجف القلم ، ولكنا الآن نكتب بدل هذه الكلمات اخبار الفلج والخذلان

عظم على العثمانيين صنع بلغاريا والنمسا واستغرب صدوره آخرون ، على أنه لامحل للغرابة فان بلغاريا تتحفز لهذا الامر منذ أمد بعيد ، و إنما دعاها الى التسرع ماتتوقعه من سيدتها (الدولة العلية) إذا هي استجمعت قواها ومضي عليها نصف عقد من الاعوام وهي دستورية حرة ، فانها اذ ذاك تخشى أن تعبث بحقوقها وتستهين بسيادتها فأسرعت الى اعلان استقلالها وهي تكاد لاتتوقع من وراء ذلك الا احتجاجا يتلوه سكوت ورضى ، لانها مستيقنة بأن رجال الدولة العقلاء لايرون من الصواب الدخول في حرب اقل مايخشي فيها من الخسار ان تنقلب الحال الى ما كانت عليه — لاقدر الله — وفي ذلك البلاء الجم والمصاب العمم

إن استقلال بلغاريا يتألم له العثماني الصادق ولكنه ليس مما يؤبه له في الحقيقة

سافر في الاسبوع الفائت إلى بيروت ومنها إلى وطنه طرابلس الشام بعد أن حالت الأحوال الماضية دون ذهابه إلى وطنه زمنا طويلا. وقرأنا اليوم في جريدتي الاتحاد العثماني والاحوال ما خلاصته ان حضرة الشيخ رشيد رضا وصل إلى طرابلس مساء الجمعة في ٢٥ الماضي فاحتفل باستقباله حتى إذا اقترب من سوق العطارين تصدى له كامل المقدم (وفي رواية الاحوال انه عبد القادر مؤذن) وابتدره بضربة على رأسه وضربة ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي ونزع العصا من يده فما كان من الرجل الا أن أشهر مسدسين ثم أطلق عيارا ناريا فلم يصب أحدا وأركن إلى الفرار وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك إلى دار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هناك وقد اتفقت الاحوال والاتحاد العثماني على تواني من بيدهم أمر الضبط في هذه الحادثة . والمؤيد يأسف لهذا الحادث و يستنكر هذا الاعتداء ويرجو أن يكون ناشئا عن تهوس فرد واحد فقط وأن يتمتع حضرة صاحب المنار بكل هناء وسرور في زيارته لوطنه (المؤيد)

الدولة العلية و بلغاريا والنمسا

ما أكثر العبر في أعمال البشر وما أقل المعتبرين ! إن الخطيئة التي يأتيها الفرد في بيئة عسى لا يشعر بها أحد أو الذنب الذي يصدر من بدوي في العراء لا يحس به سوى خليطه أو رهطه قد يصدر من أمة برمتها ، وتأتيه حكومة بعد تقريره في دار ندوتها ! ! وان ما يمر على الذاكرة من اشباه هذا ونظائره كثير جدا ولكن قل من يتدبر و يعي ، ذلك ان أعمال الافراد لا يلاحظها إلاّ علماء الاخلاق والاجتماع وهم أطباء النفوس والامم ، ولكن أعمال شعب بأسره مما لاسبيل إلى كتمانه واخفائه، بل هو مما يصل إلى كل حس و يقع تحت كل نظر

يقول الفلاسفة الاجتماعيون ان اقرار مجموع عاقل على الخطأ مستحيل ولكن هذا القول لا يصح على إطلاقه إلا اذا كان النهب والاختلاس في عرف الفلاسفة

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الفائق لصاحبها الحائز على الشهادة ديلوما ووسامات الامتياز من الدولة الثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بعملها الكيماوي

قرش أميري (أسماء الادوية وبيان منافعها)

١٢ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ويزيل الالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والنمش ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٠٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٠٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوى اللثة

٠٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنه والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرماتزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامه المسببه من فقر الدم

٠٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٠٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال الضعاف ويزيل العقد الخنازيرية

١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة به

٢٠ كبسول باريزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزيد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٠٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٠٥ مسحوق الشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويظهر تاماً لطيف الملمس من غير خطر

٠٥ نشوق صحي ضد الزكام ومزيل النوازل ومنعش للجسم

٠٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل المغص والمستودع السمومي بعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

فان بلغاريا قد استقلت فعلا في أيام حكومة الجواسيس الخائنين ، فليس من الكياسة ان يجعل استقلالها قولا من المصائب التى نزات بالعثمانيين ، على اننا ربما ننال شيئا من حقوقنا التي اغتصبتها من قبل بسبب هذا الاستقلال

الا أن صنع النمسا لهو شر صنع يقع أو يتصور ، وشر منه أقوالها بعد وقوعه ، ومن العجيب أن يكون القول انكى من العمل !

لم تكد هـذه الدولة النهمة تعلن الحاق هاتين المقاطعتين بمملكتها حتى قام العثمانيون من سائر النحل والملل في كل أرض يتبوأونها يعلنون استياءهم واستهجانهم عمل النمسا ، وعز عليهم أن تؤذيهم بالفعل وأن يؤذوها هم بالقول فصمموا على الاعراض عن مشترى سلعها ، وهـذه الحرب الاقتصادية — كما يسمونها — من أجمل ما تحارب به أمة عدوا لها ولا سيما إذا كان هذا العدو كالنمسا : أمـة تجارية بحتة . ومن دلائل الحياة في الامة العثمانية اجماعها على ذلك في جميع بلاد الدولة ، فقد كانت البواخر النمسية تغادر الاستانة كما تغادر بيروت ويافا واللاذقية وغيرها من دون ان تأخذ شيئا أو تعطي شيئا حتى أضبارات البريد ، وغلا كثيرون في ذلك فطفقوا يمزقون ما لديهم من الملابس النمسية على كونها — حال تمزيقها — ملكا لهم !!! وكان لمصر وغيرها من مدن القطر حظ من هذا العمل ، فكان لمجموع هذا الاعراض أو المقاطعة — كما يقولون — تأثير شديد في معامل النمسا ومصانعها حدا بالا كثرين من اصحابها الى مخاطبة حكومتهم ناعين عليها ذلك الالحاق ، الذي يخشى ان يؤدي الى إملاق أي إملاق ، فما كان من هذه الحكومة المنصفة (؟) الا أن أوعزت الى معتمدها في الاستانة بأن يحتج على حكومتها ! !! طالبا منها حمل رعيتها على نبذ المقاطعة ! ! !

هذا هو القول الذي قلنا عنه فيما تقدم انه انكى من العمل ! اليس من الاعاجيب ان تقرر النمسا في دارندوتها الحاق بوسنه وهرسك بمملكتها نهبا وسلبا من الدولة العلية جهارا وتحظر على الامة العثمانية أن تسير وراء ميولها ورغائبها ؟ ان من المتعذر على دولة مستبدة ان تحمل رعيتها على مشترى سلعة دون أخرى قسرا فكيف يكون ذلك ميسورا لحكومة دستورية ؟!! ان في هذا لمواطن للعبر ومواضع للتذكير فهل من معتبر أو مدكر !!

حسين وصفي رضا

(الجزء الحادي عشر) ذو القعدة ١٣٢٦ (المجلد الحادي عشر)

(قيمة الاشتراك)

عن سنة تدفع سلفا في القطر المصري والقطر السوداني ٦٠ قرشا و ١٨ فرنكا في البلاد الأجنبية ونصف الاشتراك على ثمن عشرين فرنكا للعدد ... والدفع سلفا)

المنار

١٣١٥

(تنبيه)

يجب ان يكون وصل الاشتراك موقعا عليه من منشئ المجلة ومختوما بختم الادارة

الاشتراك في المجلة يكون دائما من أول سنتها [المحرم] ومنتصفها [رجب]

(مجلة شهرية)

تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

سيسافر محمد أفندي رمضان وكيل المنار لتحصيل قيم الاشتراك من الوجهين القبلي والبحري [illegible] المشتركين [illegible] اخواننا المطالبين

دائرة معارف اسلامية

(مجلدات المنار)

٨٣٦٨ صفحة

ان مجلة المنار هي المجلة التي تبحث في العلل الروحية والأمراض الاجتماعية التي طرأت على المسلمين فرجعت بهم القهقرى وتبين مناشىء ذلك وأسبابه والطريقة التي يمكن باتباعها رجوع الاسلام الى مجده وجمع أهله بين مصالح الدنيا واعمال الدين كما تبحث في المشكلات الشرعية وفلسفة الدين تبحث أيضاً في شؤون الاجتماع والعمران وهي في النصف الثاني من سنتها الحادية عشرة والسنة الاولى منها يعاد طبعها الآن فالموجود من مجلداتها اليوم تسعة من الثاني الى العاشر مجلدة تجليدا افرنكيا وصفحاتها ٨٣٦٨ فهي عبارة عن دائرة معارف دينية اجتماعية وثمنها في مصر خمس مئة وخمسة وثمانون قرشا صاغا وفي البلاد الخارجية والعثمانية مئة وخمسون فرنكا وثمن كل مجلد على حدته من الثاني ومابعده الى السادس خمسة وسبعون قرشا وثمن كل واحد من المجلدات الباقية – من السابع الى العاشر – خمسة وأربعون قرشاً موقتا ماعدا أجرة البريد وتطلب بعنوان (ادارة المنار بمصر)

قيمة الاشتراك في المنار عن سنة كاملة

هي في مصر ٦٠ قرشاً صحيحاً وفي خارجها ١٨ فرنكا

الاسلام والنصرانية * مع العلم والمدنية

يصرح كثير من الكتاب المصريين بأن الدين عدو للعلم وتجرأ فريق منهم على أن يصم الدين الاسلامي بهذه الوصمة زاعما ان الدين المسيحي أكثر تساهلا وأرحب صدرا للعلم وأهله فكتب الاستاذ الامام حكيم الشرق والاسلام الشيخ محمد عبده رداً على هؤلاء الزاعمين الواهمين بين فيه طبيعة الدينين وتاريخ كل منهما مع العلم وكيف كان خلفاء الاسلام يجلون العلم وبنيه ويرفعون اقدار طلابه ومزاوليه كل ذلك مدعم بالشواهد التاريخية والاستقراء الفلسفي فكان أجمع كتاب في بابه وهو مطبوع طبعا ثانيا صحيحا بمطبعة المنار وثمنه في مصر خمسة قروش وأجرة البريد ٧ ملاليم وفي الخارج فرنك و٥ ,٧ سانتيما ويطلب من مكتبة المنار بمصر

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

﴿مصر الخميس ٣٠ ذي القعدة ١٣٢٦ — ٢٤ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٨﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

قد علم مما تقدم أن التوكل إنما يكون مع الاخذ بالاسباب وان ترك الاسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع ، أو فساد في العقل ، فالتوكل محله القلب ، والعمل بالاسباب محله الاعضاء والجوارح ، والانسان مسوق اليه بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها « لا تبديل لخلق الله » ومأمور به في الشرع قال تعالى (٦٧ : ١٥ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وقال (٤ : ٧١ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال (٨ : ٦٠ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل) وقال (٢ : ١٩٧ وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) — راجع تفسيرها — وقال لنبيه لوط عليه السلام (١١ : ٨١ فأسر بأهلك بقطع من الليل) وقال لنبيه موسى عليه السلام (٤٤ : ٢٣ فأسر بعبادي ليلا) وقال في الحكاية عن نبيه يعقوب لنبيه يوسف عليهما السلام (١٢ : ٥ قال يا بني لا تقصص رؤياك

وجاء ذكر التوكل في مقام ذكر الحرمان من الرزق أو من سعته كما جاء في مقام الصبر على إيذاء المعتدلين كقوله تعالى (٦٥: ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقوله في مقام وجوب نبذ الاغترار بسعة الرزق خشية الغفلة عن الآخرة (٤٢: ٣١ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)

وحسبنا هذه الآيات في هداية القرآن وتحقيقه في مقام الجمع بين الاسباب والتوكل

وأما الاحاديث الشريفة فأصح ماورد في التوكل منها حديث الذين يدخلون الجنة بغير حساب وقد رواه احمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عباس مرفوعا وقد روي بعده ألفاظ منها «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» رواه الشيخان معا عن عمران بن حصين والبخاري عن ابن عباس ومسلم عن ابي هريرة والطبراني عن خباب وكذا الدارقطني في الافراد وزاد بعد قوله: ولا يتطيرون. «ولا يعتافون» ذكره في كنز العمال. وانت ترى انه قرن التوكل بترك الاعمال الوهمية دون غيرها فهو لم ينف من الاعمال الا الاستشفاء بالرقية وهي ليست من الاسباب الحقيقية للشفاء وإنما يطلبها طلابها عند الجهل بالاسباب والعجز عنها على انها من المؤثرات الغيبية وإنما المطلوب شرعا وطبعا ونقلا وعقلا أن يطلب الشيء من سببه الحقيقي الذي يستوي فيه كل من تعاطاه — وإلا التطير وهو التيمن والتشاؤم بحركات الطير ونحوه الاعتياف وهو التفاؤل والتشاؤم بالالفاظ كقول الشاعر

ألا قدها جني فازددت وجدا   بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمي   على غصنين من غرب وبان

الى أن قال

فكان البان أن بانت سليمى   وفي الغرب اغتراب غير دان

والطيرة والعيافة من سنة الجاهلية التي نسختها السنة النبوية، لانهما من مفسدات الفطرة البشرية، وكذلك الرقية كانت معروفة في الجاهلية فكان اناس معروفون يرقون اللديغ — والا الكي بالنار وهو مما كانوا يتداوون به في الجاهلية وكان النبي صلى

على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) وقال حكاية عنه أيضا (١٢ : ٥ يابنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، ان الحكم إلا لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) فأمرهم بالحذر مع التنبيه على انه متوكل على الله، والتذكير بوجوب التوكل عليه فجمع بين الواجبين وبيّن انه لاتنافي بينهما ، ولا غناء للمؤمن عنهما ،

ذلك بأن الانسان إذا توكل ولم يستعد للامر ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الاسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عند مايخيب ويفوته غرضه فيكون ملوما شرعا وعقلا كما قال تعالى في مسألة الاسراف في المال (١٧ : ٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) واذا هو استعد وأخذ بالاسباب واعتمد عليها غافلا قلبه عن الله تعالى فانه يكون عرضة للجزع والهلع اذا خاب سعيه ولم ينل مراده فيفوته الصبر والثبات اللذان يهوّنان عليه الامر حتى لايدري كيف يستفيد من الخيبة ويتدارك أمره فيها ، وربما وقع في اليأس الذي لامطمع معه في فلاح ولا نجاح ، ولذلك قرن الله الصبر بالتوكل في عدة آيات من كتابه — قال تعالى حكاية عن الرسل عليهم السلام في محاجّة أقوامهم (١٤ : ١٢ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ذكروا ان الله هداهم سبله وهي سننه في الاسباب وانهم موطنون أنفسهم على الصبر لانهم متوكلون عليه تعالى . ووصف الذين هاجروا من بعدماظلموا بقوله (١٦ : ٤٢ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقال (٢٩ : ٥٨ نعم أجر العاملين ٥٩ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) لوصفهم بالعمل واسند اليهم الصبر والتوكل وقال لخاتم أنبيائه ورسله (٧٣ : ٩ فاتخذه وكيلا ١٠ واصبر على مايقولون) كما قال له (٣٣ : ٤٨ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا) فهنا قرن أمره بالتوكل بنهيه عن العمل بقول من لا يوثق بقوله لأنه يغش ولا ينصح كما انه قرنه بالامر بالمشاورة في الآية السابقة من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها أعني قوله « وشاورهم في الامر » وكل ذلك من اتخاذ الاسباب سلبا وإيجابا .

ولده صالح انه سأله عن التوكل فقال التوكل حسن ولكن ينبغي للرجل ان لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي ان يعمل حتى يغني أهله وعياله ولا يترك العمل . قال وسئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، و يقولون نحن متوكلون ، فقال هؤلاء مبتدعة . قال الخلال راوي ما ذكر وأخبرني المروزي انه قال لابي عبد الله ان ابن عيينة كان يقول هم مبتدعة فقال أبو عبدالله هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا . وروي عنه غير ذلك ولا سيما في الحث على الكسب وعدم توقع الصلة والنوال .

وقال أبو حفص عمر بن مسلم الحداد شيخ الجنيد في التصوف : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق ، كنت اكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ، ولا أستريح منه الى قيراط أدخل به الحمام . وقال الغزالي: الخروج عن سنة الله ليس شرطا في التوكل . واحفظ هذه العبارة عنه أو عن غيره بلفظ « ليس من التوكل الخروج عن سنة الله تعالى أصلا » وهذه أحسن وأصح . وقال في بيان أعمال المتوكلين عند الكلام عن الاسباب المقطوع بها « وذلك مثل الاسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما ان الطعام اذا كان موضوعا بين يديك وانت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد اليه سعي وحركة ، وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله . فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء — ثم قال — وكذلك لو لم نزرع الارض وطمعت في ان يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون ، وامثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه » ثم ذكر ان الاسباب التي لا تعد قطعية مطردة كالتزود للسفر لا يشترط تركها في التوكل ولكنه يجوز ويعد من أعلى التوكل . وكلامه في هذا الباب وأمثاله كالزهد والفقر لا يسلم من نقد وخطإ لمبالغته في الميل الى الانقطاع عن الدنيا والاقبال على الآخرة و « لن يشادَّ هذا الدين أحد الاغلبه » وقد تقدم ذكر انكار القرآن على من أرادوا أن يحجوا من غير زاد . وسنوفي هذا المقام حقه في تفسير « لا تغلوا في دينكم » . ولغلبة هذا الميل على أبي حامد رحمه الله تعالى راج عنده كثير من الاخبار والآثار

الله عليه وسلم يكرهه لأمته ويعده من الاسباب الضعيفة المؤلمة المستبشعة التي تنافي التوكل ولذلك قال « لم يتوكل من استرقى أو اكتوى » رواه احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني من حديث المغيرة ابن شعبة

ويلي هذا الحديث حديث «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصا وتروح بطانا » رواه احمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال الترمذي حسن صحيح وصححه الحاكم أيضا وأقره الذهبي وقد استدل به على ان التوكل يكون مع السعي لانه ذكر أن الطير تذهب صباحا في طلب الرزق وهي خماص البطون لفراغها وترجع ممتلئة البطون ولم يقل انها تمكث في أعشاشها وأوكارها فيهبط عليها الرزق من غير ان تسعى اليه

وفي الباب حديث الرجل الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأراد ان يترك ناقته وفي روايه انه قال أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال النبي (ص) « اعقلها وتوكل » رواه الترمذي من حديث أنس وانكره ابن القطان من هذا الطريق . وروي من حديث عمرو بن أميه الضمري باسناد جيد أخرجه ابن حبان في صحيحه وفيه ان الرجل قال ارسل ناقتي وأتوكل ؟ فذكره . ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب وجعلا القائل عمرا نفسه . ورواه ابن خزيمه والطبراني بلفظ «قيدها وتوكل»

وكلام السلف الصالح في ذلك كثير مستفيض . روي ان رجلا قال للامام أحمد (رح) أريد الحج على التوكل ، فقال له . فاخرج في غير القافلة ، قال لا ، قال : على جُرب (*) الناس توكلت . وقد تقدم ان قوله تعالى (٢ : ١٩٨ ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) نزل في مخطئة من قالوا مثل هذا القول . وقال عبد الله ابن الامام أحمد قلت لابي هؤلاء المتوكلون يقولون نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل . فقال : ذا قول ردئ خبيث ، يقول الله عز وجل « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » . وقال أيضا سألت أبي عن قوم يقولون نتكل على الله ولا نكتسب ، فقال ينبغي للناس كلهم ان يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، هذا قول انسان أحمق . وروي عن

(*) الجرب جمع جراب ككتب وكتاب والمراد ما فيها من الزاد

يحشر يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء » رواه الترمذي من حديث ابي سعيد وحسنه . ولابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر مرفوعا « التاجر الامين الصدوق المسلم مع الشهداء » قال الحاكم حديث صحيح . ويروى عن عمر (رض) أنه قال « لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقال أيضا « مامن موضع يأتيني الموت فيه أحب الي من موطن أتشوق فيه لاهلي ابيع وأشتري » ذكرهما في القوت والاحياء . وكان ابو بكر وعثمان وعبد الرحمن وطلحة (رض) تجارا حتي ان ابابكر لما استخلف أصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر وابو عبيدة فقالا أين تريد ، قال السوق ، قال ؟ تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال فمن أين أطعم عيالي ؟ فهل كان غير متوكل ؟ ثم إن الصحابة فرضوا له مايكفيه ليستغني عن الكسب ولم يقولوا له توكل على الله وهو يرزقك بغير عمل

وقد بلغ من توكل الصدّيق (رض) ان كان يسلي النبي (ص) يوم بدر ويخفف عنه ، ففي السيرة الهشامية عن ابن اسحق ان النبي (ص) عدّل الصفوف يوم بدر ثم رجع إلى العريش الذي بنوه له فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ورسول الله (ص) يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وأبو بكر يقول يانبي الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك . والحديث مروي في كتب الحديث وفي بعض الروايات ما ينبئ بان النبي صلى الله عليه وسلم كان يومئذ في مقام الخوف وان الصديق كان وادعا مطمئنا ولعله تكلف ذلك لتسليته (ص) وقد يتوهم ضعيف العلم انه ينبغي رفض هذه الرواية لعدم صحة معناها من حيث يدل على أن أبا بكر كان أشد توكلا وثقة بوعد الله من رسوله الاكرم صلى الله عليه وسلم والصواب ان هذه الدلالة غير صحيحة وانما يعلم بعد ما درجة النبي العليا في التوكل ودرجة صاحبه العالية فيه مما ورد في الهجرة الشريفة (٩ : ٤٠ ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

الواهية والموضوعة، بل راج عنده ما دونها من كلام جهلة المتصوفة وتخيلات الشعراء كقول الشاعر

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فانظر كيف ينسي الانسان ميله وحبه للشيء علمه وفقهه حتى يستحسن مايخالفهما والا فان جهالة هذا الشاعر لاتخفى على من دون ابي حامد علما وفقها، فان جريان قلم القضاء بما يكون لايقتضي كون الحركة والسكون سيين لان الواقع في كل زمان ومكان هو ماجرى به القضاء، ومنه نعلم ان سنة الله في الحركة غير سنته في السكون وسنن الله لاتتغير ولاتنقض، وكونهما كذلك يناقض كونهما سيين ، ولو كان قضاء الله تعالى كما زعم الشاعر الجاهل لما قال (٦٧: ١٥ فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه) ولما قال (٦٢: ١٠ فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) والمشي والانتشار في الارض من الحركة لامن السكون . وما جاء به من الجهل في البيت الثاني أبعد عن الصواب مما في البيت الاول، فانه قاس حياة الرجل العاقل القادر على حياة الجنين وسنة الله فيهما مختلفة كما هو معلوم بالضرورة، ولو صح هذا القياس لصح أيضا قياس الانسان على النبات من نجم وشجر فان غذاء الجنين اشبه بغذاء النبات منه بغذاء الحيوان. فاي الفريقين احق باسم الجنون ؟أمن يقول ان سنة الله في الجنين يتكون في بطن أمه كسنته في الرجل الذي بلغ أشدّه وجعل له الله رجلين يمشي بهما ويدين يبطش بهما وسمعا و بصرا يسمع بهما ويبصر ، وعقلا به يفكر ويدبر؟ أم من يقول ان سنته تعالى فيهما مختلفة ؟

هذا وان كل ماورد في الكسب حجة على كون التوكل لا ينافي العمل والسعي للدنيا، وقد تقدم ذكر بعض الآيات في ذلك ومنها قوله تعالى (١١: ٦٠ هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها)وقوله (١٥: ٢٠ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) وقوله (٧٨: ١١ وجعلنا النهار معاشا)ومن الاحاديث الشريفة قوله (ص) «خير الكسب كسب العامل اذا نصح » رواه احمد بسند حسن والبيهقي والديلمي وابن خزيمة بلفظ « كسب يد العامل »وقال الهيتمي رجاله ثقات. وقوله (ص) « التاجر الصدوق

نزلت هذه الآيات في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من سياق الحكم والاحكام المتعلقة بغزوة أُحُد. ولكن اخرج ابو داود والترمذي وابن جرير عن ابن عباس (رض) ان قوله تعالى ﴿ وما كان لنبي ان يغل ﴾ قد نزل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها . وقد ضعّف هذه الرواية بعض المفسرين وان حسنها الترمذي لان السياق كله في واقعة أحد ورجحوا عليها ما روي عن الكلبي ومقاتل من ان الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي (ص) فيه : نخشى ان يقول النبي (ص) «من أخذ شيئاً فهو له» وان لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر فقال النبي (ص) «أظننتم انا نغل ولا نقسم لكم» ولهذا نزلت الآية . وروى ابن ابي شيبة في المصنف وابن جرير مرسلا عن الضحاك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع فغنم (ص) غنيمة فقسم بين الناس ولم يقسم للطلائع فلما قدمت الطلائع قالوا قسم النبي (ص) ولم يقسم لنا فأنزل الله تعالى الآية . وقال الاستاذ الامام الصواب أن هذه الآية من متعلقات هذه الواقعة كالآيات التي قبلها وكثير مما يأتي بعدها

وأصل الغل الاخذ بخفية كالسرقة وغلب في السرقة من الغنيمة قبل القسمة وتسمى غلولا . قال الرماني وغيره : أصل الغلول من الغلل وهو دخول الماء في خلل الشجر وسميت الخيانة غلولا لانها تجري في الملك على خفاء من غير الوجه الذي يحل . ومن ذلك الغل للحقد والغليل لحرارة العطش والغلالة للشعار . أقول وتغلغل في الشيء دخل فيه واختفى في باطنه . والمعنى : ما كان من شأن نبي من الانبياء ولا من سيرته ان يغل لأن الله قد عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم . وهذا التعبير أحسن من قولهم : ما صح ولا استقام لنبي أن يغل أي يخون في المغنم . وقد تقدم بيان ما يفيده هذا التعبير من نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل لانه عبارة عن دعوى بدليل كأنه يقول هنا ان النبي لا يمكن ان يقع منه ذلك لانه ليس من شأن الانبياء ولا مما يقع منهم أو يجوز عليهم . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب «أن يُغَلّ» بالبناء للمفعول وهو من أغللته بمعنى وجدته

فهذا مقام التوكل وهذا أثره ، وما كان (ص) يوم بدر الا أعلى إيمانا وتوكلا لأنه كان يزداد كل يوم إيمانا وعلما بربه وبسننه في خلقه كما كان يدعوه بأمره (٢٠:١١٤ وقل رب زدني علما) وإنما ظهر (ص) في كل حال بما يليق بها ففي يوم الهجرة كان خارجا من قوم بالغوا في إيذائه وليس له من الاسباب ما يكفي لمقاومتهم ومدافعتهم والعرب كلها إلب واحد مع قومه عليه فكان المقام مقام التوكل الكامل لأنه مقام العجز عن الاسباب بالمرة ولذلك كان (ص) وادعا ساكنا وكان الصديق على رجائه وتوكله مضطربا ، وفي يوم بدر كان قادرا على اتخاذ الاسباب لمقاومة أولئك القوم الذين زحفوا عليه من مكة فكان التوكل فيه لا يصح الا بعد اتخاذ كل ما يمكن من الاسباب ولذلك لم يلجأ النبي (ص) الى الدعاء ومناشدة ربه المعونة والنصر الا بعد ان فعل كل ما أمكن من الاسباب مع المشاورة واتباع رأي أهل الخبرة ولعله كان يظن انه يجوز ان يكون بعض أصحابه مقصرا فيما يجب من الاسباب فيفوت النصر لذلك فلجأ الى الدعاء ويؤيد هذا انهم لما قصروا في الاسباب يوم أحد حل بهم وبه (ص) ما هو معلوم وقد ذكر مفصلا في تفسير آيات هذا السياق . والصديق (رض) عنه لم يصل علمه الى ما وصل اليه علم النبي (ص) في ذلك

(١٦١ : ١٥٥) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٢:١٥٦) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٣:١٥٧) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٤ : ١٥٨) لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلٰلٍ مُبِينٍ *

أغثني فأقول له لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك » قال بعض العلماء لا مانع من إمضاء هذا الاتيان على ظاهره وان غلّ الانسان بالعددالكثير من الابل والغنم والبقر والخيل والبغال والحمير والاشياء الصامتة فانها تكون يوم القيامة على رقبته مهما كثرت . وروى ابن أبي حاتم ان رجلا استشكل على أبي هريرة حديثه ذاك فقال أرأيت من يغل مئة بعير أو مئتي بعير كيف يصنع بها ؟ فأجابه أبو هريرة فذكر له مامعناه ان من كان ضرسه مثل جبل أحُد فانه يحمل مثل هذا . وهذا الحديث لا يصح وجعل بعض العلماء حديث حمل ما يغل به الغال على رقبته من باب التمثيل شبهت حال الغال بما يرهقه من أثقال ذنبه وفضيحته به مع فقد المعين والمغيث بمن يحمل ذلك عينه على عاتقه و يقصد أرجى الناس لإغاثته فيخذله و يتنصل من إغاثته . وما زال الناس يشبهون الاثقال المعنوية بالاثقال الحسية و يعبرون عنها بالحمل يقولون فلان حامل اثقال أهله أو اثقال البلد وفي التنزيل (٢٩ : ١٢ اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون ١٣ وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وليسئلنّ يوم القيامة عما كانوا يفترون) ومثله قوله تعالى (٣٥ : ١٨ ولا تزر وازرة وزر أخرى وان تُدعَ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولوكان ذا قربى) على ان حديث الشيخين لم يذكر فيه انه تفسير للآية

وقال الاستاذ الامام : فسروا الاتيان بما غل به الغال بأنه يحمله وكأنهم جعلوا الباء للمصاحبة وليس بمتعين وقد عدل عنه بعض المفسرين كأبي مسلم الاصفهاني وقال إنه على حد قوله تعالى حكاية عن لقمان (٣١ : ١١ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) فليس معنى « يأت بها الله » انه يحملها ولكن معناه انه يعلم بها

غالاً أي ما كان من شأن النبي ان يوجد غالاً أو بمعنى نسبته إلى الغلول أي ما كان لنبي ان يكون متهما بالغلول . أو من غُل أي ما كان لنبي ان يكون بحيث يسرق من غنيمته السارقون ويخونه العاملون وهذا أضعف مما قبله .

وذهب بعض المفسرين الى أن الغل اوالغلول المنفي هنا هو إخفاء شيء من الوحي وكتمانه عن الناس لا الخيانة في المغنم وان كان ما بعده عاما في كل غلول أو خاصا بالغنيمة فانه جيء به للمناسبة كما عهد في مناسبات القرآن وانتقاله من حكم إلى حكم أو خبر له حكمة . وذكروا انه نزل ردا على من رغب إلى النبي (ص) أن يترك النعي على المشركين قال الاستاذ الإمام : ومن مناسبة كون الغلّ بمعنى الكتمان وإخفاء بعض التنزيل ما تقدم من أمر الله تعالى نبيه (ص) في الآيات السابقة بمعاتبة من كان معه في أُحُد وتوبيخهم على ما قصروا وذلك مما يصعب تبليغه عادة لأنه يشق على المبلِّغ والمبلغ ، ومن أمره (ص) بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الامر على ما كان منهم وفي هذا إعلاء لشأنهم ومعاملة لهم بالمساواة في مثل هذه الشؤون ، وذلك مما عهد في طباع البشر ان يشق على الرئيس منهم ابلاغه للمرءوسين ، ويزاد على ما ذكره الاستاذ الامام ماتقدم في هذا السياق من قوله تعالى له « ليس لك من الامر شيء » عند ما لعن أبا سفيان ومن كان معه من رءوس المشركين . كأنه تعالى يقول اعلاما للناس بما يجب للانبياء عليهم السلام في أمر التبليغ ما كان من شأن نبي من الانبياء ان يكتم شيئا مما أمر بتبليغه وان كان مما يشق على الناس في حكم العادة ذكره وتبليغه

ثم قال ﴿ ومن يغلل يأت بما غل به يوم القيامة ﴾ أي وكل من يقع منه غل أو غلول فإنه يأتي بما غل به يوم القيامة . وقد ذهب الجمهور الى أن المراد بالاتيان بما يغل به الغال انه يجيء يوم القيامة حاملا له ليفتضح به ويكون مزيدا في عذابه هنالك وقد جاء في ذلك روايات مختلفة منها انه يكلف الاتيان به من النار لا انه يجيء به ومن هذه الروايات مالا يصح ، ولكن أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول الله

﴿ هم درجات عند الله ﴾ أي ان كلا من الذين يتبعون رضوان الله والذين يبوءون بسخطه درجات اوذوو درجات ومنازل عند الله أي في يوم الجزاء الذي ينسب اليه وحده لاينسب الى غيره فيه شيء لاحقيقة ولا مجازا كما قال (٤٠ : ١٥ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ١٦ يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار)

والذي في كتب التفسير المشهورة ان العندية هنا عندية علم وحكم أي هم أصحاب درجات في حكم الله و بحسب علمه بشؤونهم و بما يستحقون وكلا المعنيين صحيح ولا تنافي بينهما . وقالوا ان ذكر الدرجات من باب التغليب فتشمل الدركات فالدرجات مايرتقى عليه وهي للمرتقين من أهل الرضوان، والدركات مايتدلى فيه وهي للمتدلين من أهل السخط والخذلان ، كما قال في الاول (٢ : ٢٥٣ ورفع بعضهم درجات) وفي الثاني (٤ : ٤٥ ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار) قال الراغب : الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود والدرك اعتبارا بالحدور ولهذا قيل درجات الجنة ودركات النار ولتصور الحدور في النار سميت هاوية . (قال) والدرك (بسكون الراء)أقصى قعر البحر .والمعنى ان الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون هنا في العرفان والفضائل ، وفي الجهل والرذائل ، وما يترتب على ذلك أو يترتب عليه ذلك من الاعمال الحسنة والقبيحة . وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضا من الرفيق الاعلى في الدرجات العلى الذي كان يطلبه النبي صلى الله عليه وسلم من ربه في مرض موته الى الدرك الاسفل الذي ورد في سورة النساء وذكر آنفا . وهذه الدرجات لاتكون في الآخرة عطاء مؤتنفا وكيلا جزافا وإنما تكون أثرا طبيعيا لارتقاء الارواح وتدليها هنا بالاعمال ولذلك قال بعد ذكرها ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ فهو لا يغيب عنه شيء من اعمالهم ، وما لها من التأثير في تزكية نفوسهم ، التي يترتب عليها الفلاح في ارتقاء الدرجات ، وفي تدسيتها التي تترتب عليها الخيبة في هبوط الدركات ، (٩١ : ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها) فتحصيل الدرجات إنما يكون في هذه الدار، والتمتع بها يكون في دار القرار، أما الدرجات في الدنيا فقد

أثم العلم لا تخفى عليه مهما كانت مستترة لان من يأتي بالشيء لا بد ان يكون عالما به . والمعنى ان الاتيان بالشيء الذي يغله الغال هو عبارة — أو قال كناية — عن انكشافه وظهوره أي ان كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله تعالى مهما خفي ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بالشيء لذلك الشيء على حد قوله تعالى (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٨ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

أقول ولما كان الجزاء يترتب على علم الله بالاعمال واعلامه العاملين بها يوم الحساب قال بعد مامر ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ أي ثم انه بعد أن يأتي الغال بما غل ، كما يأتي كل عامل بما عمل ، فيتمثل لديه ، كأنه حاضر بين يديه ، ينظر اليه بعينيه ، (٣ : ٣٠ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) ومثقال الذرة من الخير والشر مرئيا مبصرا ، بعد هذا تنال جزاء ما كسبت مستوفى تاما لا تنقص منه شيئا ، (١٨ : ٤٩ وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها !! ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)

ثم رتب على ذكر الجزاء العام في آخر الآية قوله ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ أي جعل ما يرضيه من فعل وترك اماما له فجد واجتهد في الخيرات والاعمال الصالحات . واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات ، حتى زكت نفسه ، وارتقت روحه ، فوفي جزاءه الحسن ، وكان عند ربه في جنات عدن ، ﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ أي انتهى الى مباءته في الآخرة مصاحبا ومقترنا بغضب عظيم من الله عز وجل لتدسية نفسه بما خفي من الخطايا كالسرقة والغلول ، وتدنيسها بما ظهر منها كالسلب والنهب ، واهمال تطهيرها بالعبادات ، وعمل الخيرات ، ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ذلك المأوى الذي يأوي اليه ، وساء ذلك المنتهى الذي ينتهي اليه ، كلا انهما لا يستويان كما لا يستوي الظلمة والنور ، ولا الظل والحرور ، وقد جعل الخير تبعا للرضوان لان أسبابه اعلام هداية تتبع ولم يقل ذلك في الشرير لانه في ظلمة يبتدع ولا يتبع

في الآية شيء عن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى الا ماتراه قريبا في تفسير الآية التالية وهي

﴿ لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم ﴾ منّ عليهم غمرهم بالمنة وأثقلهم بالنعمة . قال الاستاذ الامام انتقل من نفي الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام ومن وصفه قبل ذلك بالرحمة واللين وأمره بالمشاورة الى التفرقة بين اصحابه الذين عاملهم هذه المعاملة الذين اتبعوا رضوان الله وبين من باء بسخط من الله وتفاوت درجاتهم في ذلك وقالوا ماقالوا مما دل على جهلهم وكفرهم بحرمانهم من هدايته — ولعله يعني من كان مع أبي سفيان في احد من الكافرين — ثم عاد الى ذكر منته تعالى على المؤمنين ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم . وقد كان ماتقدم من وصفه (ص) بالرحمة واللين وأمره بتلك المعاملة الحسنى وتنزيهه عن الغلول ثم وصفه بأوصاف أخرى أكد بها المنة أولها انه من أنفسهم أي من جنسهم أي العرب . ووجهة هذه المنة الخاصة ، التي لاتنافي في كونه «ص» رحمة عامة ، ان كونه منهم يزيد في شرفهم ويجعلهم أول المهتدين به ، لانهم أسرع الناس فهما لدعوته ، والنعمة العامة قد ذكرت في آيات أخرى كقوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ويمكن أن يستدل على هذا التخصيص بالعرب دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام التي تقدمت في سورة البقرة (٢ : ١٧٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) الخ الاوصاف المذكورة هنا . وذهب بعض المفسرين الى ان المراد بأنفسهم هنا البشر لا العرب . أقول وهذا القول ضعيف وان وجب الايمان بكون جميع الانبياء من البشر أما ضعفه فمن وجوه (احدها) ان المراد بالمؤمنين في الآية من كانوا متصفين بالايمان عند نزولها في عقب غزوة احد وهم من العرب (ثانيها) موافقة دعوة ابويه ابراهيم واسماعيل ، عليهم الصلاة والتسليم ، وإنما دعوا ان يكون النبي من ذريتهما وذرية اسماعيل هم العرب المستعربة كما هو مشهور (ثالثها) موافقة آية سورة الجمعة التي في معنى هذه الآية (٦٢ : ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) والاميون هم العرب (رابعها وخامسها) مايأتي قريبا في تفسير «ويعلمهم الكتاب» ومايأتي في تفسير وصفهم

وردفيها قوله تعالى (٤٣: ٣٢أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) وقوله تعالى (٦: ١٦٥وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) وليست هذه الدرجات بوسيلة ولا مقصد مما نحن فيه وإنما هي درجات ابتلاء

وأما درجات الآخرة فهي المرادة بقوله تعالى بعد ذكر توسيع الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض (١٧ : ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وأما وسائلها التي قلنا إن هذه آثارهاوهي المعارف والاعمال فمنها قوله عز وجل(٥٨: ١١يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) وقوله (١٢ : ٧٦نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) وقوله سبحانه (٦ : ٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه كلها درجات العلم والحجة. ومنهاقوله في ربط درجات العمل بدرجات الجزاء (٤: ٩٥وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما ٩٦ درجات منه ومغفرة ورحمة) ومنها بعد ذكر الجزاء (٦ : ١٣٢ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون) وقوله (٢٠: ٧٥ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى)

فحسبنا هذه الآيات مبينة لما قلناه من كون درجات الجزاء في الآخرة على حسب درجات الارتقاء بالعلم والعمل في الدنيا .وان هذه الدرجات لا يمكن ان يعلمها الا من أحاط بكل شيء علما .فلا يخفى عليه أثرما من آثار الاعمال في النفس ، ولا عاطفة من عواطف الايمان في القلب ،ولا حقيقة من حقائق العلم في العقل ،ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك ، فدرجات ارتقاء الارواح لها في علمه تعالى نظام دقيق أدق من نظام ميزان الحرارة والبرودة ومن ميزان الرطوبة ومن ميزان ثقل السائلات في درجاتها العليا والسفلى وما أشبه هذه الموازين الطبيعية التي تعرف بها سنن الله تعالى في الكون ،وإن سننه في نفوس الناس لا تقل عن سننه في غيرها نظاما واطرادا .وان بين عليا الدرجات وسفلاها درجة أدنى أهل النار عقوبة ،وأدنى أهل الجنة مثوبة ، ولهذا كله قال بعد ذكر الدرجات إنه بصير بما يعملون. وليس عندي

بالملكات الفاضلة ، فان من يعتقد ان وراء الاسباب الطبيعية ... المسببات منافع ترجى ومضار تخشى من بعض المخلوقات فيجب تعظيم ... والالتجاء اليها ليؤمن من ضرها وينال خيرها ويتقرب بها الى خالقها — من يعتقد ... يكون دائما أسير الاوهام ، وأخيذ الخرافات ، يخاف في موضع الامن ، ويرجو حيث يجب الحـذر والخوف ، وتتعدى قذارة عقله الى نفسه فتفسد اخلاقها ، وتدنس آدابها ، فتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل ، ولا تتم تزكية العـقل إلا بالتوحيد الخالص

قال الاستاذ أما تعليمهم الكتاب فمعناه ان هذا الدين الذي جاء به قد اضطرهم الى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الامية لانه دين حث على المدنية وسياسة الامم. أقول كان أول حاجتهم الى تعلم الكتابة وجوب كتابة القرآن وقد اتخذ عليه الصلاة والسلام كتبة للوحي وكتبوا له كتبا دعا بها الملوك والرؤساء الى الاسلام . وكان يأمرهم بتعلم الكتابة . ثم كان ذلك يكثر فيهم على قد نمو مدنيتهم وامتداد سلطتهم (قال) وأما الحكمة فهي أسرار الامور وفقه الاحكام و بيان المصلحة فيها والطريق الى العمل بها ذلك الفقه الذي يبعث على العمل أو المراد العمل الذي يوصل الى هذا الفقه في الاحكام . أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها لان هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب والعبادات وقدمت الشواهد الكثيرة على ذلك وسيأتي ما هو أكثر

﴿ وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ أي وانهم كانوا قبل بعثة النبي (ص) في ضلال بيّن واضح . وأي ضلال أبين من ضـلال قوم مشركين يعبدون الاصنام ويتبعون الاوهام أميين لا يقرءون ولا يكتبون فيعرفوا كنـه ضلالتهم ، وحقيقة جهالتهم ، فضلالهم أبين من ضلال أهل الكتاب ، كما هو ظاهر لأولي الالباب

في س ٦ ص ٨٠٧ من هذا الجزء كلمة « انشوق » وصوابها « أنسوق » فتصحح

بالضلال المبين . (سادسها) ان العرب هم الذين تلا عليهم النبي (ص) بلسانه آيات الله و باشر بنفسه تزكيتهم وتعليمهم وهم الذين حملوا دعوته الى غيرهم من الناس وقد نص العلماء على ان الايمان بكون النبي صلى الله عليه وسلم من العرب شرط في صحة الاسلام والايمان لا بد من تلقينه لكل من يدخل في هذا الدين ومن جحده بعد العلم به يكون مرتدا عن الاسلام . ثم صار ينشر الدعوة كل قوم قبلوها واهتدوا بها فصح قوله تعالى (٣٤ : ٢٨ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقوله (٢١ : ١٠٧ وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)

قال الاستاذ الامام : الآيات في قوله ﴿ يتلوعليهم آياته ﴾ هي الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته وتلاوتها عبارة عن تلاوة مافيه بيانها وتوجيه النفوس الى الاستفادة منها والاعتبار بها وهو القرآن كقوله عز وجل في أواخر هذه السورة (٣ : ١٩٠ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) وقوله في سورة البقرة (٢ : ١٦٤ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها و بث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) ومنها ما لم يذكر فيه كلمة « الآيات » كقوله تعالى (٩١ : ١ والشمس وضحاها ٢ والقمر اذا تلاها) الخ

الوصف الثالث والرابع قوله تعالى ﴿ ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ قال الاستاذ تزكيته اياهم هي تطهيرهم من العقائد الزائغة ووساوس الوثنية وادرانها والعقائد هي أساس الملكات ولذلك نقول ان العرب وغيرهم كانوا قبل بعثة محمد (ص) ملوثين في عقولهم ونفوسهم . أقول قد سبق عنه في تفسير آية البقرة (٢ : ١٢٩) ان المراد بالتزكية تربية النفوس وانه (ص) كان مربيا ومعلما وأراد بقوله ان العقائد أساس الملكات ان من لم يتزك عقله و يتطهر من خرافات الوثنية وجميع العقائد الباطلة لا تتزكى نفسه بالتخلي عن الاخلاق الذميمة ، والتحلي

ويجب ان نضيف الى هذا الاعتبار اعتبارا آخر أكبر منه شأنا وأعم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالامم الاخرى قد بدأت تتغير تماما وأذكر انني كنت أسمع وانا يافع ان الامم الآسيوية لاتقوم لها قائمة وانها ستبقى رازحة تحت اعباء الانحطاط والجمود ، وفي الغالب كانوا يلصقون التهمتين معا بها على مافيهما من التناقض اذ حينما توجد حركة تأخر لابد وأن تتبعها حركة تقدم . وقد كان من الامور التي لانزاع فيها ان الصين أمة جامدة وان اليابان أمة ليس لها الا مدنية سطحية وان الهند لايمكن أن تصلح شؤونها وكانوا يتهمون الاسلام بهذه التهم نفسها وان الذين هم في سن موافقة يذكرون ان الغربيين كانوا يرددون نظرية مؤداها ان المسلمين في جمود تام بسبب اعتقادهم في التوكل والقضاء والقدر ولست في حاجة الى القول بأن هذه التهم التي كانت تجسمها كبرياء الغربيين قد تبين فسادها فان المدافع التي أطلقت في موكدن دوت في أقاصي آسيا وأصبحت الامم التي كنا حكمنا عليها بالموت والجمود يقظة نامية سواء كانت في الصين أو الهند الصينية أو الهند الانكليزية أو في ايران التي أخذ أهلها يطلبون دستورا وها هي الاستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية انه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم وهو الامر الذي أصبح لابد منه الآن بعد ان تغيرت المسألة الشرقية ودخلت في طور جديد

واننا ازاء هذا الانقلاب الذي حصل لانجد بداً من التساؤل عن الجمود الذي وصفوا به الاسلام اذ قد يكون شبيها بتهمة الخمول التي ألصقوها باليابان ومالبثت أن أضمحلت وظهر بطلانها !!

واني لا أريد ان أذكر انتشار الاسلام لانه هو الدين الوحيد الذي ينتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وافريقية على حين ان الاديان الاخرى بقيت واقفة عند حد محدود لاتتجاوزه البتة وقد أصبحت هذه المسألة لانزاع فيها ولكن ماذا تقولون اذا أثبت لكم ان الاسلام شرع يطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها؟ ومن ذلك انه أنشأ بقوته الذاتية وبالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدي العظيم الممتد بين دمشق

الاسلام والمدنية الحديثة (*)

﴿ هل يتفقان ؟ ﴾

اني اخترت موضوع البحث في الاسلام لاول مرة في مؤتمر أفريقية الشمالية لسببين : الاول ان المسألة الاسلامية هي مركز دائرة جميع المسائل في أفريقية الشمالية وذلك لان هذه المسألة مهمة في أفريقية أكثر منها في البلاد الاسلامية الاخرى اذ كان بين الاسلام والنصرانية على شواطيء البحر الابيض المتوسط نضال قديم وما زال أثره باقيا في القلوب . والثاني لأننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين في تونس والجزائر ونحن مضطرون الى الاختلاط بأهلهما لارتباطنا معهم بمصالح دائمة

ان الهند الانكليزية فيها زهاء أربعين مليونا من المسلمين ولكن الانكليز لايختلطون بهم اختلاطا دائما وفي مصر وهي أكثر بلاد الاسلام مدنية لايختلط الانكليز كذلك بأهلها اختلاطا يفضي الى الاستعمار الحقيقي والاوربيون لايقطنون سوى المدن الكبيرة وليس لهم من العلاقات مع سكان القرى ما للمستعمرين منا مع العنصر الوطني في مستعمراتنا الافريقية على ان المسألة الاسلامية يجب أن تتقدم على غيرها من المسائل الاخرى التي يبحث فيها المؤتمر بقطع النظر عما تقدم .

لايكون الاستعمار موطد الاركان قائم البنيان الا اذا أمكننا الوصول الى طريقة تجعلنا على صفاء ووداد مع أهل الدين الاسلامي الذي يربط الامم المختلفة الاجناس والمشارب المنتشرة بين المحيط الاطلانطيقي وخليج قابس

(*) خطبة لموسيو رينيه ميليه القاها في مؤتمر أفريقية الشمالية المنعقد في باريس من عهد قريب ونشرت في المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فآثرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والانصاف

منها (والثانية) ان المتدينين لا يتبعون دائما ما ترمي اليه نصوص دينهم بل كثيرا ما يحيدون عنها ويأخذون بأقوال الفقهاء والشراح الذين يذهبون في أقوالهم كل مذهب فلا يكفي أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله

وهناك طريقة أخرى وهي الطريقة التاريخية :

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالاسلام هو في درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش

ان الذي ساعد الاسلام على الانتشار هو ماقرره الامبراطور بيزانطين في القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة وقد جر هذا القرار على الدولة البزنطية من المشاكل أعقدها .

ولقد كان الدين الروماني القديم دين حكومة أيضا ولكنه كان دينا يبتلع الديانات الاخرى بمعنى ان روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهة لروما . وبخلاف ذلك كانت الحال في بزنطية ومنذ اليوم الذي استخدم فيه الامبراطور السيف لنشر الدين انفتح في وجه الدولة البزنطية باب الآلام والهموم ولو أعدتم النظر في تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الامبراطرة متوفرين على توحيد الدين وموجهين اليه كل قوى الدولة وفي ذلك كان تضعضع ملكهم وانقراضه . فكم أهرقت دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية وكم من مقاطعة ضيعها الامبراطور على أثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقة » ! !

وان مسألة طبيعة المسيح أو مسألة الاقانيم التي نعتقدها الآن بكل سكينة واطمئنان قد سالت من أجلها دماء غزيرة ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة — هذا وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين انها غفلت عن احتياجاتها الاولية فاحترمت الصوامع ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية وعافتهم من دفع الضرائب

والمدينة المنورة الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلومترا!! وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا ان أهل الاسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن اذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟.

وان لفرنسا فائدة كبرى بالاشتراك في هذا البحث العظيم •

فاذا كانت مدنية الاسلام هي تلك المدنية الجامدة المزعومة فيجب علينا اذ ذاك أن نعامل هؤلاء المسلمين الذين نحن مرتبطون بهم بسياسة الضغط والشدة خلافا لما جبلنا عليه من انعطافنا لجميع الناس ازاء مايبدو من حركاتهم أو يظهر فيهم من روح الحروب الصليبية التي بقيت بكيفية غريبة كامنه في صدور المسلمين حتى البعدين عن الدين منهم (؟) ومن الامور المدهشة أن الانسان قد يلاقي في فرنسا أناسا مازالوا محافظين على بقية من أوهام الحروب الصليبية ضد المسلمين

وأما إذا اعتقدنا في الحركات التي تجلت في كل مكان عكس ذلك فمن الواجب أن نمد أيدينا بحرية الى شعوبنا الاسلامية ونقودها معنا في طريق المدنية وهذه النقطة هي التي أريد أن أبحث فيها اليوم أمامكم

ان امامنا طرقا لحل هذه المسألة الكبرى

فمنها الطريقة التي يمكنني أن أسميها الطريقة المباشرة وهي أن نفتح القرآن وكتب السنة ونستخلص منها النصوص التي تثبت أن المؤمنين الصادقين في كل عصر يهشون للعلوم ويقبلون عليها . منذ عهد غير بعيد جاءني كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد عبد السلام بن شعيب فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها انى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والاحاديث والآثار

هذه الطريقة تصلح لاقناع قومنا بان الاسلام يحث على العلم ولكن هناك عقبتين تقفان في سبيل نجاحها (الاولى) انني وزملائي الذين يدافعون عن الاسلام لسنا بحجة في تفسير الآيات والاحاديث واستخلاص المبادئ الاسلامية الصحيحة

حر بية وان خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع ان الحقيقة ان الفتوحات العر بية كانت على البغال الا ان العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد ثم انهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وأفريقية ونصف أسبانيا :

واذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الاعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم واني ليخيل إليَّ انه كانت على أبصار مسيحيي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الاشياء على حقائقها

وقد جاء العرب في الوقت نفسه بمبدأ في البحث جديد مبدأ يتفرع عن الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث .

ثم هل تعرفون بأي كتاب من كتب العهد العتيق كان يتعلق المسلمون ؟

كان اهتمامهم بكتاب ارسطو أكثر منه بخيالات أفلاطون، ثم كان كل اهتمامهم بكتاب ذلك الحكيم المدقق وواضع أساس العلم في الحقيقة ثم انهم مالوا الى الاشتغال بعلوم الطبيعة و برعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الاطباء — ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شعرا اذا وصفناه بانه أرضي فذلك لانه قريب من العقول يغذيها وينعمها وانه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة فأين هذه الحياة من تخبط الغرب المسيحي في تماثيله وأوهامه وانزوائه !!

هذا واني لا أطيل القول في الشيء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأوا عظيما في بغداد وقرطبة وانما يسرني ان أبحث في أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها

واليكم أول ما يتبادر الى ذهن الباحث النزيه وهو ان الاسلام أعطى أشهى ثمرة لما سرت اليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف وملئت جوانبها بالخلافات الدينية

إذًا فما هو الاسلام ؟ الاسلام دين جاء بخلاف كل ذلك فقد اعتاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد في كل الامور ولم يقرر شيئا من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب ولم يسن نظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر وقضى أيضا على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا و بالجملة فقد أتى الاسلام بنظام مضاد للنظام المسيحي في ذلك العهد ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحي

ثم ان الاسلام ارجع الدين الى حاله الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » و بذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاور بية والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البزنطية.

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين لا يطلبون منهم الا ضريبة يستعينون بها على اصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الاسلامية ولقد بلغ الامر بأحد الولاة الى تثبيط دخول الذميين في الاسلام بدلا من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لان اسلامهم يقلل من دخل بيت المال

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم ان تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة في الدولة البزنطية وانتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع انها لم تقلل من فساد الاخلاق — ويمكنكم ان تدركوا كيف ان التبعة الآسيوية اعتبرت ظهور الاسلام ايذانا بنجاتهم وسعادتهم ·

وأذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الاسلام كان الاساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون ايقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرونه هو ان طبيعة العرب طبيعة

قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول لاني أخشى أن تتهموني بعمل مقارنة تشوه سمعة العالم المسيحي وتظهره بمظهر مخجل

لبثت هذه المدنية التي أتت بالمدهشات والتي لايزال الناس في حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمان مئة سنة . فتح العرب الاندلس في سنة أو سنتين ثم لم تنتزع من أيديهم الا بعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو الى العجب؟ واذا أضفنا الى هذه المدة المئتين أوالثلاث مئة سنة التي اتسمت فيها دولة الاتراك وبلغت شأواً بعيداً من العظمة الحربية علمنا ان الدول الاسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً وهي مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية

ولكن ثمة أمرا يرتبط بالموضوع الذي نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ماجرى في القسطنطينية وما جاورها من شواطيء البحر الابيض وفي الاندلس من تعارف الاسلام والمسيحية وتآلفهما

ابتدأ هذا التعارف في الاندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الاسلامي ولا يفوتنكم أن مايرويه القصاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين في اسبانيا لا يطابق الحقيقة في جملته لانهم يمثلون «السيد» في قصة الفها (كورنيل) بطلا مقداما أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) في حين ان الحقيقة هي ان هذا البطل انما قدم نفسه لخدمة المسلمين وحارب في صفوفهم ومات وهو بين المسلمين يحارب اعداءهم . إن المستقرئ لاطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الاسلام في الاندلس يعلم ان الامراء المسيحيين كانوا يستشيرون اطباء المسلمين اذا أصابهم أو أصاب أبناءهم مرض وكثيرا ماكانوا يفدون الى قصور الخلفاء ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم فترون أيها السادة ان هذه العادات تناقض بتة مايرجف به القصاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين

لقد لزم مسلمو الاندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى في الدور الذي

ففي بغداد استفاد الاسلام قوته السياسية من تلك المدنية الفارسية التي قاومت عوادي الزمان والتي نشأ فيها من الفلاسفة والعلماء عـدد عظيم وكذلك في أسبانيا حصل تمازج بين الروح الاسلامية والروح اللاتينية وسأبين لكم الآن ان افتراق هاتين الروحين كان وبالا عليهما معا

كان الباحثون في الاسلام يعتقدون ان الدين نظام كامل لايتبدل ولايتغير فيكفي ان يدرس مستقلا عن كل عامل أجنبي عنه للوقوف على قيمته ولكن الحقيقة ان كل دين يستمد جل قوته من العوامل الاجنبية التي كان له معها شأن ومن مقدارقبول الدين نفسه لتأثير هذه العوامل . وان لي كلمة على دولة الاسلام في الاندلس التي فتحها مسلمو افريقية الشمالية : انظروا الى قرطبة تلك المدينـة التي سقطت الآن الى حضيض الهوان والفقر وانظروا اليها لما كانت في عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عددسكانها زهاء خمس مئة ألف نسمة وعددمساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مئة وثلاثة عشر ألفا عدا ثلاث مئة من الحمامات العامة ثم اذا أردتم أن تقفوا على اخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فاليكم صورة الوصية التي تركها عبد الرحمن الاول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقـد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الاسلام في اسبانيا:

«اعلم يابني ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء فاحمدالله على ان وهبنا ملك الاندلس ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة وخصوصا أولئك الذين وكل الله شؤونهم اليك ، وساوِ في حكمك وقضائك بين الفقراء والاغنياء ولا تولِّ أمور الناس الامن عرفت فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جندك بالشدة واللين معا ليكونوا حماة الدولة لاعونا للظلمة من الحكام . وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمعونتك ، لانهم مورد حياتنا واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك . . » الخ

اني أود أيها السادة أن أسمع مثل هذه الوصية من رئيس وزارتنا في زمننا هذا ولا أفكر في وصف ما كان يجري في بلادنا في القرن العاشر أي العصر الذي

سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع في الاكثر الى فقر أوربا واعوازها من الحاصلات التي تتبادلها مع تجار المشرق

هذا من جهة الماديات وأما من جهة العلوم والآداب فان أوربا لبثت ثلاث مئة سنة تقتبسهما من الأسلام وكانت المدنية الغربية تجني ثمارهما اليانعة

ولكن حادثين عظيمين أوقفا سير ذلك التيار الكهربائي الذي كان يحيط بالبحر الابيض المتوسط وهما: استيلاء الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واستيلاء الاسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢

فمن ذلك اليوم قامت حرب الاحقاد الدينية حتى انك ترى آثار التعصب الاسباني في تاريخ عرب الاندلس كالنقطة السوداء في الصحيفة البيضاء الناصعة ولاسيما في ذلك الوقت الذي حالف فيه الامير يوسف جماعة القسيسين. وفي رأيي ان تعصب الاسبانيين كان أفظع وأقل عذراً لانه جاء في زمن كانت القوة والعدد لهم. وان الاستيلاء على غرناطة الذي يفتخر به الاسبانيون والذي يحسبونه يجمل عصر فرديناند وايزابلا لم يكن في الحقيقة الا عملا وحشيا بربريا لم أعهد في التاريخ أقبح منه، خصوصا وان امارة غرناطة لم تكن لتهدد أسبانيا في شيء لاستيلائها على ما حواليها من الاراضي والمدن، وانما كانت غرناطة عروس أسبانيا وزينتها — ولا بد ان يكون الاكليروس الاسباني أو الطُليطلي رأى ان يمحق هذا الجمال ويزيل هذه المدنية البديعة خدمة للمسيحية والمسيحية بريئة منه.

والأدهى من ذلك ان المسيحيين كانوا أعطوا وعودا قبل الدخول ولكنهم أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها فتلذذوا بمنظرها وظنوا أنهم بعملهم هذا قد قضوا على دين المسلمين وآدابهم. ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا في المسيحية كافة ولما لم يجابوا إلى طلبهم جمعوهم زمرا زمرا وحبسوهم في غرف واسعة ورشوهم بالماء اشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم! — ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المتنصرين لا يزالون يفتنون طمعوا في أموالهم وصاروا يظلمونهم من آن لآخر. ومن ذلك ما وصل الينا من أوامر فيليب الثاني التي يحرم عليهم فيها لبس الثياب العربية واستعمال

اضمحلت فيه دولتهم وأخذ أمراء المسيحيين ينقصونها من أطرافها فاذا اتيح لاحدكم أن يتجول في انحاء اسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك وعلى بقايا ما شيدوه في دور اضمحلالهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار ان الاندلس كانت بلاد غنى ورفاهة حتى في دور تضعضع سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت في ذلك العهد أيضا بلاد تسامح وتساهل .

في هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوربا وكان كل من يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون الى تلك البلاد فارين من البلاد التي كان يحكمها الامراء المسيحيون وهي مهد القسوة والظلم هنالك يعاقب الامراء من يأسرونهم في ساحة الحرب بالقائهم الى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إرْباً إرْباً

لم يكن ذلك مقصورا على الاندلس بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية الى فتح القسطنطينية . فانكم تعلمون أيها السادة ان عظمة البندقية وجنوه في العصور الوسطى راجعة الى تجارتهما مع الشرق وتعلمون ما استفدناه من احتكاكنا بالمسلمين اذ ذاك فقد كان لنا كثير من البيوت التجارية في فلسطين وسوريا واليونان ولا يخفى كم ان من أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسري اليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى قلقت الكنيسة الكاثولكية على أبنائها من سريان روح الاسلام اليهم ونظرت بعين الخوف الى تنازع المبادىء الاسلاميـة والمسيحية وخصوصا الى مبدأ التسامح الذي كان آفتهم وعدوهم اللدود ! !

هذا وان هناك حقيقة يجب أن نبينها وهو انه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون أي من انتهاء الحرب الصليبية الى فتح القسطنطينية» في هذه الفترة التي تعارفت فيها المدنيتان المسيحية والاسلامية ــ كان الاسلام هو العنصر المؤثر والعالم الاوربي هو العنصر المتأثر ، فكانت أوربا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج اليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهة حتى لم يعد في امكانها ان تدفع ثمن كل ما تشتريه» ومن ذلك تعلمون ان سبب اندفاع امراء أوربا في

نعم ان براعة الاوربيين قد ظهرت في المسائل المادية فترقت العلوم والفنون والصناعات بين أيديهم · ثم انهم تحملوا المشاق وقاموا بالاعمال الجسام ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول اخوانهم في الجنس وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خطتهم الاولى وشرعوا يتلمسون خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الاهلين الاصليين ومعرفتها معرفة صادقة

فهذا التفسير التاريخي كاف لايقافكم على أسباب ارتقاء الاسلام تارة وأسباب أفول نجمه تارة ·

اني أيها السادة أتبع في بحثي هذا الطريقة التاريخية فلا أقصره على الوجهتين الدينية والفلسفية لاننا اذا قصرنا ابحاثنا على ذلك انسد أمامنا مجال البحث وعجزنا عن الوصول إلى حقائق الاشياء فجدير بنا اذن أن نتتبع الادوار التاريخية التي مر بها الدين لنعرف طبيعته واستعداده للارتقاء

ان لنا أن نحكم على بعض الاجناس من البشر بانها لا تقبل الارتقاء والمدنية ولكن اذا رأينا أمة كان لها في خلال العصور مدنية زاهية زاهرة فمن الظلم أن نحكم على تلك الامة بالسقوط الابدي وباستحالة يقظتها وارتقائها لان الامة التي أمكنها أن تنهض في وقت ما يمكنها أن تعيد عهد نهضتها في المستقبل

يقولون ان عقيدة القضاء والقدر هي السبب في استحالة ارتقاء المسلمين ويهمني أن أتناول في بحثي هذه المسألة التي طال عليها القدم والتي قال العلماء وكتبوا فيها كثيرا · أليس فيما يقولونه عن هذه العقيدة شيء صحيح ؟ وما هو تأثير تلك العقيدة التي يفهم الناس منها انها تحمل صاحبها على الاستسلام للحوادث من غير ان يبدي مقاومة ما ؟

الا ان مبدأ القضاء والقدر لم يختص به الاسلام بل قررته المسيحية بصفة أوضح وأجلى فاذا قلنا ان سبب انحطاط المسلمين تقرير دينهم لهذا المبدأ فماذا نقول عنه في المسيحية ؟

اللغة العربيـة والاستحمام في الحمامات العامة والسبب في هـذا الامر الاخير ان الكنيسة الاسبانية كانت ترى الاستحمام جرما لا يغفر !!!

ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش التي أمر فيليب الثاني بتهديمها حقدا منـه على المسلمين ومطاوعة لاعتقاد الكنيسة الاسبانية انها مأوى الشياطين !! · في هذه الحمامات كان العرب يتنظفون وبهـا يتطيبون مع اننا نلاقي مصاعب عظيمة في تعويد بني وطننا على عادة الاسـتحمام النافع وانكم تعلمون كيف طرد المسلمون المجبرون على التنصر من وطنهم سـنة ١٦١٠ ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها ·

وبذلك انقلب الاسـلام المتمدن بربريا نعم لما انفرد الاسـلام بنفسه بينما كانت أوربا تخطو خطوات واسعة وترقى درجات عالية أصبح كشجرات الزيتون المشوهة التي نراها في جبال تونس فهي غليظة الجزع ولكنها تثمر ثمارا غيرجيّدة

هذا ولا تظنوا ان أوربا لم تتأثر من مفارقة المدنية الاسلامية فانها بدأت تشعر اليوم بالنقص — ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت اليه أوربا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الاجنبية ؟

الا أنها في علاقاتها مع الاجانب عنها كانت فظة غليظة القلب ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الاسبانيين أمريكا لتتبينوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من أسبانيا ولقد ضاع رشـد الاسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الامم الاجنبية ·

ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الاخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ولرأيتم ان اتساع سلطة أوربا وانتشار نفوذها انما كان باسترقاق السود وتعذيبهم ولرأيتم ان غرضها إنما كان جمع المال لاتتحرج من اتيان الشر والاعتساف كل ذلك جاءها من مغادرة الاسلام لها وافتراقه عنها — ولقـد بلغ من غلوها فى الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الاحايين أنه لا يستقيم لها بلدالا اذا استأصلت أهله وأهلكتهم وهكذا فعلت انكلترا في أمريكا

الخلافة في صدر الاسلام : كان الخلفاء يقومون باعباء الخلافة كلها أو يسندونها كلها الى عمالهم في الولايات فلم يكونوا متبعين قاعدة تقسيم العمل في ادارة شوؤن الدولة كما هي الحال في الممالك الحديثة بل كان الامير أو القائد البعيد عن رئيسه ينوب عنه في جميع مظاهر سلطته وهو نظام كامل في عهد الفتوحات والحروب ولكنه مستحيل اذا جاء طور الحضارة وتشعبت الاعمال فلا يعود في امكان فرد واحد ان يمثل السلطة العليا التي أنابته في فروعها كافة

واذا أردتم ان تقفوا على اضرار هذا النظام فانظروا الى الطريقة المتبعة الآن في مراكش لجباية الاموال والضرائب تجدوا ان وظيفة الجباية أشق الوظائف وأصعبها فان قائد الجند هو الموكل بالجباية ولا يمثل السلطان الا بقيادته للجيش ولذلك لا يمكنه ان يجبي الاموال الا اذا سار بجيشه نحو القبائل فيصادف كثيرا من المشاق والمتاعب في سبيل القيام بوظيفة نقوم بها نحن على أسهل الطرق لما لدينا من مصالح منتظمة تقيد فيها الحسابات فلا يحدث في الجباية ارتباك وتعقيد البتة

إني أذكر ان سلطان مراكش السابق قضى حياته في الحروب الداخلية، قضاها على ظهر جواده متنقلا من قبيلة الى أخرى كل ذلك ليصل الى جباية الضرائب في حين ان الذين يقومون بهذه الوظيفة في بلادنا مثلا هم جباة من آحاد الناس يؤدونها وهم بمنجاة من التعب والنصب

فبالطرق النظامية التي نتبعها لا نحتاج في جباية الضرائب الى ازهاق الارواح بل يكفينا ان نتبع الوسائل النظامية التي تتكفل القوة العامة بحمايتها وتحقيق غايتها

هذا هو خطأ الاسلام في دائرة العمل على أن هذا الخطأ — ان صح ان نسميه كذلك – ليس مما لا يمكن تداركه فان تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادىء الاسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحيب ولذلك ترون المسلمين المستنيرين لا ينفرون من النظامات التي أنبتتها مدنيتنا بل ترونهم يقبلون عليها ولا يجدون من دينهم حرجا في اتباعها

أما في دائرة الفكر فينقص الاسلام أمر واحد لم يحرم منه في عهد عزه بل في

ان لكم ان تسألوني لماذا لم يؤثر هذا المبدأ في أبناء المسيحيه وإني أبدأ الجواب بقولي ان هذا المبدأ مبدأ الاستسلام للحوادث قد كان له أثر فعال في حياة المسيحيين فترة من الزمن ولكني أجيب عن هذا السؤال متبعا الطريقة التاريخية التي توخيتها في هذا البحث وهي ان كل دين لا يثمر ولا تبدو نتائجه من نفسه بل لا تظهر قيمته الا بعد ان ينتحله شعب من الشعوب

فالمسيحية ظهرت في ربوع الشام تلك البلاد الغنية الجميلة ولكن انتحلها اقوام أشداء بعيدون عن طور الحضارة في بلاد ذات هواء قاس تحدو بأهلها الى اجهاد أنفسهم فلم يأخذوا من المسيحية الا ما يلائم طبائعهم ويتفق مع اخلاقهم الشديدة، وكذلك كان الامر في الاسلام إذ لم يعرف المسلمون الاولون الاستسلام للحوادث، بل كانوا لا يتركون من يعتدي عليهم من غير أن يثأروا منه لانفسهم وتلك كانت حالهم في زمن الفتوحات فلما سرى اليهم الضعف والانحلال أصبحوا قوما جبريين يتركون المصائب تنزل بهم وتعمل فيهم ولا يقدرون على الخلاص منها مكتفين بالتسلي وقولهم « كل ذلك كان في الكتاب مسطورا » فالمبادئ الدينية تفسرها الامم بحسب ماتوحيه اليها طبائعها وأخلاقها فتأخذ اشكالا متباينة ولذلك تكون في عصر ما سببا في ارتفاع الامة وفي عصر آخر عاملا من عوامل انحطاطها

أفل نجم المدنية الاسلامية بعد ما أثمرت واينعت فترة طويلة من الزمن ولكن هذه المدنيـة تكفيها نفحة من نسيم الحياة الجـديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها

أيها السادة : اذا كان الاسلام قد أخطأ فخطؤه في تلك السذاجة التي اختص بها من دون الاديان والتي لم تأت على ما كان يقصد منها · لست ادري ان كان لنا أن نقول عن تلك الميزة انها خطأ فقـد كانت في العصور الوسطى نعمة على المسلمين الا انها انقلبت ضررا فيما بعد

ان الاسلام لم يتوسع في مبادئه وقواعده ولم يحللها تحليلا يتناول أصول الاشياء وفروعها سواء كان ذلك في دائرة الفكر أو في دائرة العمل · انظروا مثلا الى نظام

ولقد سبقني الى هذا الموضوع الذي أخطب فيه الآن أحد علماء المسجد الاكبر وأحد أعضاء هذه الجمعية فطفق يسرد الادلة على اتفاق الاسلام مع المدنية الحديثة وعلى مقتضى آرائه في هذا الموضوع رسمت الجمعية خطتها ولا تزال تسير بمقتضاها الى الآن

ولا يفوتني أن أذكر لكم الصعوبات التي يلاقيها القائمون بالحركة الاصلاحية من أنصار القديم فانه وان كان أهل الرأي والبصيرة من المسلمين يرون اتفاق الاسلام مع فضائل التمدن الغربي سهلا فان هناك فريقا كبيرا يطعن على هذه الحركة ويحاربها . فكر أعضاء هذه الجمعية في تجنب الاندفاع في قلب نظام التعليم القديم فلم ينشئوا دار الجمعية في مسجد الزيتونة بل تركوا المسجد على نظامه وأقاموا بجواره هذه الدار . و إنما تركوا المسجد حتى لا يثيروا عليهم سخط الجمهور

حييت الجمعية وانتشر مبدؤها بالرغم عن المعاكسات التي اعترضتها فى مبدأ أمرها لان كل اصلاح لا بد وأن يلاقي في طوره الاول معارضة ولقد كثر أعضاء هذه الجمعية وصار طلبة مسجد الزيتونة بعد أن يتلقنوا العلوم فيه على الطرق التقليدية يفدون إلى دار هذه الجمعية فيستنيرون بما يلقى فيها من العلوم الحديثة وان هذه الجمعية لا تزال في مهدها ولكن من المحقق أن سيكون لها في نهضة الاسلام يد طولى فيتحقق مبدأ القائلين : ان الاسلام لاينافي المدنية .

بقيت مسألة جديرة بان نبحث فيها وهي ما يتخوفه بعضنا من قرب احداق خطر تيقظ المسلمين بنا . واني معبر لكم عن آرائي في هذه المسألة بالصراحة التي سمعتموها في جميع النقط التي تناولها بحثي اليوم

ان هناك أمرا يجب أن نقف على حقيقته وهو هل نقدر على ايقاف تيار هذه النهضة الاسلامية وهل في وسعنا أن نقضي عليها ؟

اعلموا أيها السادة ان هذه النهضة اذا قويت وكلت بعد أن كنا محاربين لها فلا بد أن تنقلب علينا وتتجه ضدنا وتتم على مالا نرضاه ومالا يتفق مع صالحنا البتة

العصور الاخيرة وهي طريقة التحليل العلمي طريقة توزيع العلوم حتى يسهل على كل فريق ان ينبغ فيما انتدب له وانه يحضرني الآن مثال على ذلك :

كنت منذ عهد بعيد مشتغلا بالبحث عن حال المسلمين الفكرية وأدى بي البحث مرة الى محادثة بعض علماء المسجد الاكبر في تونس . اجتمعت بهم خفية لان المسلمين والفرنسيين كانوا لاينظرون بعين الارتياح الى التقرب بين زعماء كل من المدنيتين فقلت لاحد اولئك العلماء :

« كيف تفسرون ان كلياتكم كانت زاهية زاهرة في العصور الوسطى وانها أمدت أهل أوربا اذ ذاك بالعلوم والمعارف ثم اصبحنا الآن أعلى منكم كعبا في العلوم كافة — حاشا الدين — وسبقناكم في هذا الميدان بمراحل ؟

ان السبب الذي أراه هو أنكم متبعون الآن نفس الطريقة التي كنا نتبعها في القرون الوسطى ، انكم لاتتبعون نظام التقسيم في العلوم وتخصيص كل فريق بفرع منها بل يعمل كل منكم ،معتقدا أن في امكانه تحصيل العلوم كلها ، أما نحن فقد وصلنا الى درجة راقية في العلوم باتباعنا طريقة تحليل العلوم وتوزيعها وكما اننا أمكننا أن نخرج من حالنا السابقة فيمكنكم أنتم أيضا أن تخرجوا من حالكم الحاضرة الى حال أرقى منها باتباعكم هذه الطريقة نفسها »

لقد شاهدت بنفسي أيها السادة أهل تونس يقبلون على العلوم الحديثة وآنست فيهم صفات ومواهب ساعدتهم على الارتقاء في هذا المضمار . وكأن محادثتي مع علماء تونس وترغيبي إياهم في اتباع الطرق الحديثة لتحصيل العلوم دينية كانت أو غير دينية قد أثمرت وأتت بالنتيجة المبتغاة لانها حركة اصلاحية ابتدأت في تونس وسيكون لها مستقبل كبير

أسست في حاضرة تلك البلاد جمعية بمساعي بعض التونسيين النيرين دعوها الجمعية الخلدونية نسبة الى المؤرخ المغربي الشهير عبد الرحمن بن خلدون وقد وجهت اهتمامي الى تأسيسها وأخذت أساعدها ورغبت رؤساءها في أن يقصروها على الاعضاء المسلمين وكان غرضي من ذلك ان أثبت درجة استعداد الاسلام لتلقي العلوم الحديثة وكفاءة المسلمين لتلقين اخوانهم ثمار هذه العلوم

أيها السادة : ان مبــدأ التفريق بين عالم المادة وعالم ما وراء المادة قد تبيّنه المسلمون فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها مايناقض دينهم المشهور بالتسامح ولا أريد أن أتخذ من التونسيين برهانا على ذلك خشية أن يقال فيهم انهم انمــا يتبعون الخطة التي نوحيها اليهم والتي نقصد منها إفراغهم في قالب فرنسي يتفق مع أغراضنا الاستعمارية . بل أقول لكم انظروا إلى الاتراك وكيف وفقوا بين الدين وجنسيتهم العثمانية فأظهروا بذلك ان الحكومة الاسلامية قابلة لمبــدأ الجنسية وان مبدأ الدين فيها لا يمنعها من ان تصطحب مبادئ حكوماتنا الحديثة

ان الحكومات الاسلامية لسعة مبادئها قابلة للتشكل باشكال مختلفة وهذا التشكل هو الكفيل بارتقائها . اتذكرون أيها السادة ماقاله الاقدمون في المسيحية؟ قالوا انها اذا ارتبطت بشكل الحكومة الملكية ولم تتحول عنه كان في ذلك القضاء عليها وكذلك الحال في كل دين من الاديان فلو ان الاسلام اتخذ شكلا من اشكال الحكومات وظل باقيا عليــه لا يعدل فيه ولا يغــيره لمات موتة أبدية وافضى ذلك الى ضرره وضررنا .

واسمحوا لي ايها السادة ان أختم كلامي بتذكيركم بتلك الكلمة التي قالها مسيو جونار حاكم الجزائر العام تلك الكلمة التي املتها الحكمة والدربة وهي : « ليس المقصود من الفتوحات مجرد الاحتفاظ بالبلاد بل هناك ماهو اسمى غرضا من ذلك وهو الاحتفاظ بالقلوب والارواح » .

ليست نهضة الاسلام بالامر الهين وليست الجزائر وتونس هما البلدين اللذين ينهض فيهما الاسلام بل هناك مصر التي حدثتكم عنها والتي خطت خطوة كبرى في نهضتها وهناك كثير من البلاد الاخرى التي حيي فيها الاسلام حياة جديدة

على ان هناك اعتبارا أشرف من هذا الذي ذكرته لكم يدعونا الى أن لانظر بعين الكره والسخط الى يقظة المسلمين وهو ان هذه الحياة الجديدة التي ابتدأ يسري روحها في العالم الاسلامي من شأنها أن تقرب بين العالمين المسيحي والاسلامي وتوفق بين المدنيتين الغربية والشرقية

يقول بعضهم : اذا كنا نفرض أن المسلمين يسيرون في طريق المدنية الغربية سيرا حثيثا فلماذا نعتبر أن ستكون هناك مدنيتان ولماذا لا تفنى المدنية الاسلامية في جسم المدنية الغربية مادام المسلمون يأخذون العلوم عنا ولان العلوم هي أساس كل مدنية ؟ على اني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهم لان العلم له دائرة محدودة لا يتعداها وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لها تأثير كبير في أحوال الشعوب وهذه المعتقدات هي دائرة الدين

ان الذين يقفون على الحركة العلمية في بلادنا يعتقدون أن العلم يعترف بوجود دائرة مجهولة لا تزال بعيدة عن مداركه فقد ابتدأ الفلاسفة والعلماء يوضحون تلك الحقيقة الثابتة وهي أن العلم مهما اتسعت دائرته فلا يزال أمامه عالم غامض ومهما استجلى العلم من حقائق ذلك العالم فستظل دائرة المجهول أوسع بكثير من دائرة المعلوم .

انه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الاديان على النفوس مادام عالم ماوراء المادة مكتنفا بالمدهشات وعلى ذلك فلا أرى حدًّا لبقاء الدين الاسلامي ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد وأكثرها ملائمة للفطرة والذي سعد حظه بان امتد ظله على ضفاف البحر الابيض تحت سماء صافية الاديم لم تتلبد بالغيوم كما تلبدت سماء بلادنا في الزمن السالف فظل نوره متلألئا في تلك البلاد المتنائية الاطراف ولم تقدر الحوادث على اطفاء ذلك النور الرباني الساطع

هذه النظرية باطلة من عدة وجوه ولكنهم يحققونها بالقوة : هل يمكن ان تكون الامة كلها جاهلة أو سفيهة كالطفل أو المجنون فلا يوجد في سوادها الكثير أفراد يصلحون لتدبير أمرها ، وإقامة العدل والنظام فيها بالشورى دون هوى الرئيس ، و يكون ذلك الرئيس الذي يدعي حق الوصاية عليها ، والولاية على جميع مصالحها ، هو الحكم العدل ، والعاقل الرشيد ، يأخذه عن آبائه بحق الارث ، كما يرث عنهم الولاية والملك ، ؟

كلا إن ذلك أمر غير معقول ، وحكم استبدادي غير مقبول ، المشاهدة تنقضه ، والتاريخ يفنده ، فقد قرأنا في سير الغابرين ، ورأينا في حال الحاضرين ، ان اكثر الملوك والامراء المستبدين ، هم أعرق أفراد أممهم في الجهل ، وأوغلهم في أفن الرأي ، وأشدهم فسادا في الارض ،

أي قاض من قضاة العدل حكم بجنون الامة أو سفهها ، ووجوب نصب فرد من الافراد وصيا عليها ؟ أي شرع يبيح للوصي ان يتصرف في حال السفيه أ والقاصر تصرف المالك في ملكه ، ولمن كان في وصايته كثيرون ان يتبع في معاملتهم هواه ، فيمنع بعضهم من حقه ، ويعطي الآخر مالا يستحقه ، كما هو شأن الملوك والامراء المستبدين !!

ألا ان هؤلاء الادعياء في وصايتهم ، المعتدين في ولايتهم ، ليسيئون التصرف في ملك الامة وفي سياستها ، فهم قد جعلوا انفسهم أوصياء عليها بالقوة القاهرة ، و بالقوة القاهرة يمنعونها من التصرف معهم ومشاركتهم بالرأي ، بل يحولون بينها وبين معرفة ما تملك ، وما لها من حق الرأي والتصرف ، لتبقى عالة عليهم ، راضية ببقاء الامر فيهم ، ولهذا يمقت المستبدون العلم ويقاومونه اشد المقاومة ، وقد رأيتم ذلك في انفسكم فقد كنتم منذ اشهر تحرقون كتب العلم ، أو تدفنونها في حنادس الليل تحت الارض ، خوفا من زبانية الاستبداد أن تدمر على بيوتكم قبراها ، فتنزل العقاب الشديد بمن اقتناها ، على انهم كانوا يعاونون الذين يهربون السلاح ، ويساعدون الاشقياء على إفساد الامن وهضم الحقوق ، فقد كان كل ذنب مباحا أو متساهلا فيه عند حكومتنا الماضية الا ذنب العلم واقتناء الكتب والصحف الحرة ، التي كانوا يعبرون فيها بالاوراق المضرة ،

الخطبة الثانية (*

﴿ من خطبنا في الديار السورية ﴾

وهي من الخطب السياسية

أيها الاخوان الكرام

اقترحتم علي ان أقول شيئا في الدستور والاجتماع وماذا عسى ان أقول في موضوع قد تبارى فيه الخطباء الكثيرون من قبل فلم يدعوا لمن بعدهم مقالا ، ولم يغادروا لمن تأخرعنهم متردَّما ، فرب فكر فيه أريد ان ألقيه عليكم ، فيخطر في بالي انه قد وردعلى مسامعكم ،وجال في مجامعكم ، فيقف الفكر ،ويتلعثم اللسان ، ولكنني لم أحضر تلك المجامع ، ولم أسمع شيئا من تلك الاقوال ،فاذا قلت شيئا مما قيل من قبل ، فلي فيه شيء من العذر ، ورب مكرر يحلو ،ورب إعادة ، فيها افادة ،

المراد من الدستور ان يكون حكم الامة كأن تديره بيد من تختارمن أفرادها، لا بيد رئيس يستبد فيه برأيه ،ويتصرف فيها بهواه وارادته ،وان استبداد شخص واحد بأمة كبيرة لمن أعجب أمور البشر في طور الجهل والانحطاط

أتدرون ما هي القاعدة النظرية التي يبني عليها المستبدون هيا كل سلطتهم الجائرة؟ هي ان الامة كالمجنون أو السفيه أو الولد القاصر الذي لا يحسن التصرف في ملكه فلا بد له من وصي يقوم بمصالحه ، وولي يتولى تدبير أموره!!!

---

*) بعد وصولنا الى طرابلس جاء أمير الالاي عبد الحميد بك وكيل قومندان موقع طرابلس العسكري مع وفد من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ودعونا لزيارة نادي الجمعية فذهبنا معهم وهناك اقترحوا ان نلقي عليهم خطابا في الدستور والاجتماع فارتجلنا خطابا نثبت هنا ماتتذكر من مسائله ولعله معظم كلياتها ولا نزيد شيئا الا ان يكون في العبارة كزيادة السجع دون جوهر المعنى

على الدولة العلية ، وإعادة الدستور العثماني ، و إحياء القانون الاساسي ، فما هو رأيكم في هؤلاء المجتمعين ؟ ألا يقول اكثركم انهم مجانين (مجانين مجانين) بلى ولكن قد علمتم الآن علم اليقين ان هؤلا النفر هم الذين قوضوا تلك السلطة الظالمة ، وقضوا عليها قبل أن تقضي هي القضاء الاخير على الدولة العلية ، فما الذي أقدر ذلك العدد القليل ، على إسقاط حكومة مؤيدة بجيش عظيم ، ومال كثير ، وألوف كثيرة من الاعوان والانصار ، القابضين على زمام الاحكام ، كانت ترتعد من ظلمهم الفرائص ، وتضطرب لتصور استبدادهم القلوب ؟ إليس هو الاجتماع للمطالبة ، والتعاون على استبدال العدل بالظلم ، ؟ بلى ولو كان أولئك الانصار الاخيار من اليائسين ، كما كان اكثر العثمانيين ، لما نالت الامة العثمانية هذا النصر المبين ، الذي كان موضع إعجاب الناس أجمعين ، حتى قال كثير من ساسة أوربا وكتابها انه لم يسبق له نظير في تاريخ البشر ، لان المعهود في التاريخ أن هذه الغاية لا تنال الا بعد ثورات داخلية ،وحروب أهلية ، بين أنصار الاستبداد والظلم ، وطلاب الدستور والعدل ،

الآن قد خطر في بال كثير منكم اننا قد نلنا هذا النصر بسيوف جيوشنا ، لا بتدبير أفراد من جمعياتنا ، نعم اننا لولا جيشنا الباسل لما عملنا الآن شيئا، ولكن لا ننسى أن جيشنا قد كان منذ كان حامي السلطة الاستبدادية ونصيرها ، وعونها على قهر الامة وظهيرها ، فما عدا مما بدا ؟ أليس قد اتحد بعض ضباطه اهل العرفان والحمية ، بأولئك المجاهدين في سبيل العدل والحرية ، فكان العلم والرأي ، هما القائدين للجيش ؟ بلى

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني

نلنا الحرية والدستور وأصدر قاضي محكمة الاجتماع العليا حكمه ببطلان تلك الوصاية الاستبدادية ،والولاية القهرية ، واثبات رشد الامة وأهليتها للقيام بشؤونها والتصرف في ملكها ، ولكن هل رشدت الامة حقيقة وصارت أهلا للتصرف النافع الذي تحفظ به المصالح ؟ إن الحكم الصحيح في شأن الامة العثمانية عسير جدا . فانها على اختلاف شعوبها في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب متفاوتة تفاوتا عظيما

لماذا ؟ لانهم يعلمون ان الامة اذا عرفت حقوقها ، يوشك ان تجتمع فتطلبها من طريقها، واذاً يحرمون من التمتع بذلك السلطان المطلق ، والتصرف بتلك القناطير المقنطرة ، فقد قال حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني : العاقل لا يظلم ولاسيما اذا كان امة

ما هو الطريق الذي تسلكه الامم لاسترجاع حقوقها المغصوبة من الملوك المستبدين ؟ ألا إنه لهو الاجتماع والتعاون : الاجتماع الذي تسوق اليه المعرفة ، والتعاون الذي يدعو اليه الشعور بالحاجة ، ومن هنا ننتقل الى الكلام على الاجتماع والجمعيات

الاجتماع على الحق قوة لا تعلوها قوة ، بهذا قد جرت سنة الله في خلقه وقد ورد في الحديث الشريف « يد الله على الجماعة » وهذا أبلغ تمثيل لعظمة هذه القوة ، وأي شيء أعظم قوة ممن كانت كلاءة الله ظلا ممدودا فوقهم ، وسنته في النجاح صراطا مستقيما أمامهم ، ألا ترون أن الحكام المستبدين يطاردون الجمعيات ، ويخافون منها ما لا يخافون من الجيوش المنظمة ، والاساطيل المدرعة ، لعلمهم ان الحق لا يغالب اذا وجد نصيرا . قال الاستاذ الامام « إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه »

ماذا أقول في بيان قوة الجمعيات ؟ هي التي قوضت حصون الظلم ، ودمرت هيا كل الاستبداد ، وحررت الامم والشعوب من العبودية ، وشيدت فيها صروح العلم والمدنية ، وليس الشاهد والدليل على هذا ببعيد عنكم وانتم الآن في نادي شعبة للجمعية التي أسقطت سلطة الاستبداد في المملكة العثمانية ، وأدالت منها سلطة دستورية شورية ،

أرأيتم لو أن أحدا همس في آذانكم قبل ثلاثة أشهر وأنتم تئنون من ذلك الظلم الفاحش قائلا : ان نفرا من اخوانكم العثمانيين لا يتجاوزون عدد الانامل يجتمعون في حجرة لهم نوافذها مغلقة ، وستورها مسبلة ، يتخافتون بينهم في تدبير الحيل ، واتخاذ الوسائل ، لتقويض هيكل تلك السلطة الاستبدادية ، التي أوشكت ان تقضي

والدولة في خطر لا تؤمن عاقبته ، وإنما قلت ما قلت آنفا لانبه الافكار الى حقيقة حالنا وما يجب علينا في هذا الطور الجديد

الامة العثمانية في مجموعها مستعدة للحكم الدستوري فان فيها من الاحرار المرتقين في المعارف والاخلاق من جميع الشعوب من يرجى ان يقوم بهم هذا الحكم خير قيام ، ويؤمن عليه من عدوان الاستبداد ، ولكن ضعف استعداد الامة في كثير من البلاد يحملهم مشاق كثيرة في إقامة العدل، واصلاح حال الملك ،ومقاومة كيد المتقهقرين ، أعوان المستبدين الظالمين ،

لا تظنوا ان الاحرار الكرام الذين نلنا الدستور بسعيهم كانوا غافلين عن هذا ، كلا إنهم قد أعدوا له عدته فأخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها ان تكفل الدستور الذي كانت قابلة ولادته وأمه ومرضعه الى أن يبلغ أشده ويستوي ، فانشأت لها شعبا ولجانا في كل مركز من مراكز الولايات والألوية والاقضية في المملكة ، وجعلت لها أندية سياسية اجتماعية ولها في ذلك مقصدان :

المقصد الأول مراقبة الحكومة في سيرها لاجل ان تنفذ الشريعة والقوانين في دائرة الدستور، ويحفظ الامن ويقام العدل بقدر الاستطاعة والإمكان. والمقصد الثاني نفخ روح الحياة الدستورية في الامة وتحبيب الحرية اليها ببث الآراء والافكار النافعة فيها بالخطب والمحاورات ، وحثها على التربية الملية والتعليم العصري الذي يجعلها أمة دستورية بالطبع ، تأبى الاستبداد وتنفر منه كما تنفر من الاسقام والادواء. فحيا الله جمعية الاتحاد والترقي ، وانه يجب على الامة كلها ان تساعدها في سعيها فانه لا حياة لنا الا بالتربية الملية وتعلم الفنون العصرية . . .

في التربية والتعليم اللذين يؤهلان الامم للحرية والحكم الدستوري فتكون دستورية بطبيعتها لا مقودة الى الدستور بالسلاسل

إن مجموع الترك أرقى في هذه التربية من مجموع العرب، والارمن أرقى من الاكراد، والاستانة والولايات الاوربية، أرقى من الولايات الآسيوية، وولايات سورية وسط بين ولايات أوربا وبين العراق والحجاز واليمن، وانا نرى الاستعداد في سورية ضعيفا فماذا تقول فيما دونها ،فكرنا كثيرا ونحن في مصر لنختار من كل مدينة في سورية أفرادا من الاحرار الشجعان ليؤلفوا لنا شعبا لجمعية الشورى العثمانية فلم نعثر في أكثر المدن على من نثق بقبوله لدعوتنا ،ودخوله في جمعيتنا ،دخل في الجمعية رجلان من أهل بيروت كل منهما صديق للآخر.ولم يكاشف احدهما الآخر بذلك الا بعد إعلان الدستور ، وناهيكم بجرأة أهل بيروت

ان العاقل الراشد اذا منع التصرف في ماله بالقوة القاهرة وطال عليه الزمن وهو لا يعمل ثم أبيح له العمل وهو غير متمرن عليه يحار في كيفية التصرف ولا يسهل عليه ان يجري فيه على طريق السداد . وقد اهتدى الى هذا المعنى أحد أغنياء بلادنا العقلاء (المرحوم محمد باشا المحمد) فقسم ثروته الواسعة في حال حياته بينه و بين أولاده ليتمرنوا تحت مراقبته على إدارة تلك المزارع والضياع لئلا تفاجئهم الثروة فيعوزهم حسن إدارتها وحفظها ، وغفل عن ذلك كثير من الاغنياء فلم يأذنوا لاولادهم بالتصرف في ادارة ثروتهم ولا بالتمتع بما تستشرف له نفوسهم منها ، فلم يلبث أولئك الاولاد بعد موت والديهم إلا قليلا ، حتى أضاعوا جميع ما تركوه لهم إسرافا وتبذيرا، كما رأينا وشاهدنا في مصر كثيرا، واذا كانت ادارة الثروة الشخصية لا تصلح الا بالعلم والتمرن معا فكيف تكون ادارة الممالك وسياسة الامم ؟

لا يعجلن أحد بالاعتراض على هذا الكلام فيقول انه مؤيد للحكومة المطلقة التي اراحنا الله من شرها ، ومعارض للحكومة الدستورية التي امتلأت القلوب رجاء في خيرها ، معاذ الله أن أحتج لتلك الحكومة الظالمة بكلمة وأنا أعلم انها لو بقيت سنة أو سنتين ولم ينجح الاحرار بالوسيلة التي أخذوا بها في هذا العام لوقعت الامة

القارىء ان لقب بك توجيه جديد كلقب كونت أو مركيز عند الافرنج، وامتلأت دوائر الاستانة بالموظفين بلا تمييز في جدارتهم واستحقاقهم واضطلاعهم بالعمل الذي هم فيه، ولم يكن الغرض من التعيين التحري على موظف قادر على ايفاء الوظيفة حقها من العمل، بل ايجاد وظيفة وعمل للمقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم !! فزاد عدد الاعضاء في شورى الدولة عن المئتين، ونظامهم ان يكونوا سبعة وثلاثين عضوا، وكذلك مجلس المعارف ومجلس التفتيش والمعاينة الضاغط على حرية نشر الكتب وادخالها وهو الذي محا من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل: حرية، وطن، اختلال، انقلاب، جمعية، رشاد.... كما غيرت اسماء الموظفين من عبد الحميد وسلطاني ونحو ذلك الى اسماء اخر وبعضها حرفت وكتبت سلتاني، وامتلأت نظارة المعارف بالموظفين حتى قال ناظرها الاخير لما عرضوا عليه الميزانية: لولا وجود معاشات المعلمين لامكنني وضع الموازنة !! . فكانت معاشات المعلمين تضايقهم وهم يريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والاعضاء والكتاب والمفتشين، وزاد عدد اعضاء الجمعية الرسومية عن ثمانين عضوا، وكذلك مجلس الماليه والاوقاف والعسكريه والبحريه وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومه والمعيه الشاهانية، حتى ضاقت المجالس والاقلام بالموظفين وصار أكثرهم لايجد له كرسيا للجلوس عليه !!. وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم.

اختلال المالية وارهاق الفلاح

اختلت الموازنة المالية اختلالا عظيما ادى بها الى حجز نحو نصف رواتب الموظفين والعساكر ومخصصاتهم في كل سنة، واستفحل الظلم في جباية الاموال الاميرية وطرح الاعشار وتحصيل رسوم الاغنام، وتسابق الموظفون الى المزاودة بأعشار الاقضية والالوية، وعدوا ذلك فضيلة وسببا مشروعا للمكافأة والترقي، والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت اثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم، وقلما كان يمر على القرية شهر من دون ان يأتيها المعشرون وجباة الاموال الاميرية ونصيب المعارف ومصرف (بنك) الزراعة وادارة

الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

تفنن المابين في أكل الرشى ومنح الرتب والاوسمة

كان لرجال المابين في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرف ورقة وتورية بديعة، فلما أنشىء قضاء (بئر السبع) في تيه بني اسرائيل وعين له قائمقام في الاستانة قال له دولة الناظر حسبما افاد: « بالطه كيرمامش اورمانه كوندر يورم » أي اني أرسلك الى غابة لم تدخلها بلطة الحطاب . فذهب وحطب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة، ثم عين في محل آخر . وهذا مثال من الف بل آلاف أمثلة للارتكاب الذي أفسد اخلاق الامة وأخرها عن اللحاق بالامم المتمدنة، ويروي عنه الناس نوادر عجيبة واساطير غريبة تحتاج الى الجمع في كتاب او الافراغ في قالب قصصي، وبعدان كان تعيين الموظفين يكون بطلب الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب من المابين مباشرة!

تهافت الناس على احتجان الرتب مع لقب بك الذي لا وجود له في الحقيقة بين الالقاب الرسمية كوجود لقب باشا مثلاً ، وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم أفندي فكانوا عند توجيه الرتبة ينظرون اذا كان الاسم مقرونا بلقب بك صدرت الارادة السنية بموجبه ونشرت في التوجيهات الرسمية، فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع لقب في الطلب لتصدر بموجبه الارادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد، فتتناقلها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانية مع لقب بك لتوهم

---

*) تابع لما نشر في (ص ٧٤٣ ج ١٠ م ١١) من رسالة محمد روحي بك الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

واصابة الهدف ، ولا تساق سوق الجيش خوفا من الهيجان وحدوث الانقلاب !! مع ان دول أوربا ولا سيما المانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تقوم جيوشهن في كل سنة بمناورات حربيـة ، يحضرها الامبراطور نفسه مع أولاده وأسرته وجميع ضباط السفارات الاجنبية ، فيستطلعون أحوال الجند ويشوقونهم. وصار الاسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليـه لطول مكثه ، فصدأت آلاته بسبب عدم الاستعمال والجري في البحار ، واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الاسطول وشراء البواخر والمدرعات ، وصار الترقي في المراتب لا ينبي على القدم والاضطلاع والاستحقاق، بل على الالتماس والانتساب والرشوة، فكان الضابط يرتقي الى المراتب الكثيرة في أوجز مدة وقد يكون لا يعرف للجندية معنى حتى ولا احترام من فوقه في الرتبة، وكان الضباط يبيعون رواتبهم التي تبقى دينا عند الحكومة للسماسرة باثمان بخسة، حتى يبعث المئة قرش بأربعة قروش ! وبيع حلّة (بدله) العسكري التي تشتريها الدولة بمئات من القروش بعشرين قرشا .. أي ان المستحق للراتب والحلة كان يوقع على الورقة المؤذنة بالوصول اليه على القاعدة والاصول ، كأنه استلم الحلة من مخزن الالبسة أو قبض الراتب من صندوق الخزانة ! ثم يسلمها للسمسار فيعطيه هذا في مقابلها ما يتفقان عليه ، ثم يتفق السمسار مع المحاسبه جي ومن فوقه ويربحون الفرق ، ويقيدون ذلك في الدفاتر (ايراد ومصرف) كأنها جرت على القاعدة والاصول . وبهذا أصبح الضباط في حالة يرثى لهـا . وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو سـتة آلاف في قهوات الاسـتانة خلوا من العمل يتجولون في شوارعها وحاراتها !!

اشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين تعلموا في أوربا وخدموا الامة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان ، فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانوية بداعي ميلهم الى الافكار الحرة واعادة القانون الاساسي ، ولقد بلغ عدد الراجعين منهم الى الاستانة بعد حدوث الانقلاب ستين شخصا من الباشوات وأمراء العسكرية وخمس مئة ضابط ، ومنهم رجب باشا وفؤاد

الرسوم الستة أي الديون العمومية والاعانات المختلفة" وكان الظلم اشد على المسلمين منه على المسيحيين الذين كانوا يحتمون بأديارهم وبرؤسائهم الروحيين ، ولقد سمعت كثيرا من الفلاحين انهم اضطروا الى بيع أراضيهم وتزويج بناتهم ليأخذوا صداقهن و يعطوا للجباة مايطالبونهم به من الاموال الاميرية ! ! فصار الفلاح يتجنب زراعة الارض الا بقدر حاجته الضرورية . ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو مؤلف روح القوانين: «ان الاراضي يقل ايرادها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها » فاذا كان الفلاح حرا عمر الارض الموات وجعلها خصبة بعمله وحراثته ، واذا فقد الحرية أصبحت أرضه الخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد . وعليه فان مانشاهده اليوم في اوربا من العمران إنما هو نتيجة الحرية "فحيثما توجهت فيها لاترى الامروجا نضرة واشجارا وكروما مخضرة وانهارا جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على الاسراع بتحصيل الاموال والبعث بها الى الاستانة " وكان القائمون باداتها لا يدرون اين تنفق وكيف تصرف لعدم نشر الموازنة المالية (Budget) بخلاف ادارة الديون العمومية التي هي تحت مراقبة الاجانب فانها في غاية الانتظام والترقي " تزيد وارداتها في كل سنة فتدفع رواتب موظفيها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة ، وقد حدا ذلك الدولة الى العود الى الثقة المالية بهـا ، وأصبح أصحاب الديون في أوربا آمنين على أموالهم ، ولو حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فان قيمة أسهم الديون لا تتنزل إلا قليلاً ، واذا أردت المقايسة بين ادارة الديون العمومية و بين نظارة الماليـة فانظر إلى قرية من قري الالمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من الانتظام والعمران والترقي ، والى قرى الاهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المدقع والخراب — يتضح لك الفرق بين الادارتين

اختلال الادارة العسكرية بادارة الجواسيس لها

اختلت ادارة العساكر البرية والبحرية ، وأصبحت لا تمرن على التعليم الناري

الخصوصية أو تعليم الاولاد ولا سيما المسلمين في المدارس والبلاد الاجنبية، وحظرت تأسيس الجمعيات واطفأت حمية أرباب الهمم تذرعا بأنها تؤدي الى الثورة والانقلاب ! فكم نظر الولاة والمتصرفون شزرا الى مدرسة وطنية أسسها الفرد أو الى مدرسة سلطانية اسستها الجماعة أو الى شركة صناعية أو مالية عقدها الاهالي، وسرعان ما كانت تتعطل ويمحى أثرها ، وكم منعوا الآباء من ارسال أولادهم الى المدارس الاجنبية أو الى مدارس أوربا ، وكم اضطهدوهم من أجل ذلك !!

ليس ما أجرته الحكومة من مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح المرافيء التجارية وتطهير المستنقعات الا اجابة لطلب الشركات الاوربية وتوسط بعض المتنفذين للاستحصال علي امتيازاتها والاستفادة بما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية ، فمنح الامتياز كان من قبيل الانعام والاحسان لا يكاد يتم لصاحبه و يأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين كانوا عونا له في الحصول على الامتياز، و يبقى النصف الآخر ربحا صافيا له في مقابل اتعابه بالذهاب من المابين الى نظارة النافعة (الاشغال) والصدارة، وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم الى كبير القلم أو الدائرة، وكل زيارة تحتاج الى اكرام و(شوفة خاطر) !! . روى لي احدهم عن بعض النظار انه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديدية كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية ، وانه لم يقبل أخذ حوالة على المصرف (البنك) أو قوائم نقدية خوفا من ظهور الارتكاب ، واشترط ان يكون ذهباً عيناً ! قال الراوي فجاؤا بالمال وصفوه على منضدة كبيرة مرخمة عمدا عمدا وكان عدد كل عمود خمسين ليرة فكان ذلك ثمان مئة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية ملزوزة ، وللاصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب ، فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان مستلقيا على فراش الموت (تمامي ؟) يريد هل العدد تام فقيل له نعم ياسيدي تام، فاخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا !! . ولذلك كان فريق من الكبراء والموظفين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض رواتبه سلفا ، وويل لعمال الخزانة ان لم يدفعوها — وفريق يتضور جوعا وهو ينتظر رواتبه المتراكمة دينا عند

باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر عالي باشا. وأصبحت قيادة العساكر وادارة المدارس العسكرية بأيدي اناس لا كفاءة لهم وليس لهم عمل الا التجسس على أصحاب الافكار النيرة وابعادهم عن مركز الادارة، وكانوا يعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الاسلامية !!! فأصبح للتجسس والمراقبة دائرة من أعظم دوائر الدولة، لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الاحسانات والانعامات!!.

فكان الجواسيس ينظمون التقارير في كل حادثة ومسألة صغيرة كانت أو كبيرة، ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة ينبذها العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم، وما ذلك الا لاظهار خدمهم واثبات تيقظهم ومغالبتهم لنيل المكافأة، والمابين لا يكلف من تحقيق مضمون هذه التقارير لعله يجد في مئة كاذبة واحدا صحيحا، فاذا قالوا : « فلان له قصد سيئ بالخليفة » أو « له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة » أو « عنده أوراق ضارة » كانت كل واحدة من هذه التهم كافية للدمور على منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه أو حبسه أو عزله وابعاده، فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس بحقوق الخلافة الاسلامية، على انهم لم يتخذوا في الحقيقة سياسة اسلامية وهي المعبر عنها عند الافرنج بقولهم « بان اسلاميزم Panislamisme » كما توجد سياسة سلافية « بان سلافيزم Panslavisme » وسياسة جرمانية « بان جرمانيزم Pangermanisme » ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص للمصالح الاسلامية كما يوجد في باريس وبرلين وبطرسبرج أقلام ودوائر خاصة بدرس المسائل الاسلامية درسا تاريخيا علميا للوقوف على افكار المسلمين وهيئتهم الاجتماعية، وعلى أحوال العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها، ليكون الوزراء والموظفون على بصيرة ويقين من حقائق هذه المسائل الحيوية الاجتماعية . فقصدهم من السياسة الاسلامية انما هو أكل الحيات والتظاهر بالكرامات والتكبر على الناس والتشبه ببني العباس لم تباشر الحكومة أمرا جديا لعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعية والسير بها في معارج التمدن والرفاه، وتعليم رعاياها أصول الزراعة والتجارة وعقد الشركات والتعاون على ما فيه نفع البلاد، بل عاكست جميع المشروعات الوطنية فكانت لا تمكن من فتح المدارس

الامة اذا لم يقتصر بضغطه على ضعفائها واحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط ، بل شمل جميع افراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة الذين افنوا اعمارهم في تأييد دور الاستبداد وجمع الاموال والوزراء والموظفين كافة وجميع الاهالي ولا سيما في الاستانة ، حيث بطلت الافراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان ، وحرم على الناس الاجتماع للسمر والحديث ، كل ذلك خوفا من الانقلاب ، وصار لا يؤذن لاحد بالذهاب الى أوربا ولو كان مريضا ، كما انه لا يؤذن للضباط بالتوجه الى الاستانة أو المرور بها ، وصار كبار الموظفين لا بد لهم من إذن مخصوص وارادة سنية لحركاتهم الشخصية وافعالهم البيتية حتى زواج بناتهم وأولادهم !!!

دخلت يوما على السيد جمال الدين الافغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وكانت تأتيه مائدة من (المطبخ العامر) فقال : اية فائدة من هذا القصر والخدم والمائدة وانا اذا اشتهيت أكلة بفتك (شواء) أو نشر فكر في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لا استطيع . أيهنأ عيش الانسان بغير الحرية ؟ ولهذا فر الى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه الامير صباح الدين بك والامير لطف الله بك ، وفر الى مصر احمد جلال الدين باشا رئيس الجواسيس وكثيرون غيرهم

اتحاد الارمن والاتراك فى طلب الحرية

شكلت جمعية الانقلاب الارمنية بعد مذابح ساسون المتقدم ذكرها فرقة من الثائرين هجموا على البنك العثماني في الاستانة والقوافيه القنابل سنة ١٨٩٦ ليلفتوا بذلك نظر الحكومة العثمانية والدول الاوربية الى وجوب القيام بالاصلاحات واعطاء الحرية وتعميم المساواة بين جميع الاهالي بلا فرق في الدين والجنس ، ثم ألفوا لجانا (Comités) كثيرة أهمها لجنة سيروب التي قاومت ست سنوات في جبال ساسون ، ثم حوّلت الجمعية نظرها الى جهة قافقاسيا (القوقاز) الروسية بسبب اضطهاد أميرها البرنس غاليتزين للارمن التابعين لروسيا وتسليط التتر المسلمين عليهم ، مما أدى الى حدوث مذابح باكو وفظائعها وعدة وقائع ومقاتلات ، وتصدى الثوار لقتل الرؤساء والقواد والامراء والضباط

الحكومة من سبعة وثمانية أشهر في السنة ، وهي التي يعوّل عليها في الانفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية ، وكان ضباط العساكر مظلومين أكثر من سواهم فكانت رواتبهم وتعييناتهم - على قلتها - لا تعطى لهم ، وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ، ولقد كان ذلك من أعظم أسباب الانقلاب ، قال فيكتور هوكو: «ان الجوع يثقب في قلب الانسان ثقبا ويملؤه حقدا »

سقوط هيبة الحكومة في بلادها وفي الخارج

ان اختلال الادارة وتذبذ بها لم يبق للحكومة قاعدة مطردة ولا أصولا مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ، وانما اصبحت ذات قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها يناقض بعضها ، فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الامس ، وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الاشخاص والوقائع ، ولهذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية فتجرأن على تهديدها حتى في المسائل الحقيرة كمسألة تو بني دلوراندو التي أوجبت خروج الاسطول الفرنسي الى جزيرة مدللي (متلاين) ، فصرخ إذ ذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي قائلا : ماهذه السياسة الخرقاء ؟ انكم لم تحركوا ساكنا في المذابح الارمنية ولم تتداخلوا فيما توجب معاهدة برلين المداخلة فيه من طلب الاصلاح واجراء العدالة الانسانية ، والآن تتكبدون النفقات باحراق فحم الامة وارسال الاسطول لحماية نفرين من المرابين اقرضوا أموالهم على ان يكون ربحهم عشرين وثلاثين في المئة حتى أصبح مايطلب لهم عين السحت !.

وسقط اعتبارها أيضا في نظر رعاياها وصار اكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون ان يكونوا من رعيتها ، فكانوا يبتعدون بقدر الامكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها ، و بعضهم استبدل التابعية الاجنبية بالتابعية العثمانية

كان أرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين ينظرون الى هذه الاحوال بعيون الاسف والاستياء و يعتقدون ان مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه الا بتعليم الامة وتنوير ذهنها ، والرجوع في الاحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وان لم يكن كله من بنات افكاره . فكان الاستبداد ضاغطا على جميع افراد

السياسي ضروريا لمنع انقراض المملكة العثمانية ولتوقيف انحطاطها — تلك خلاصة المذاكرات والمناقشات التي جرت في المؤتمر

نهضة جمعية الاتحاد والترقي وانتشارها

وأما فرع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في أوربا فانه حدث الاختلاف فيه على الرياسة ، فانقسم إلى أحزاب وفارقه الكثيرون من اعضائه ، ولكن صاحب جريدة مشورت بقي ثابتا يتوفر على اصدار جريدته في أوقاتها وغيرها من المنشورات وكان الدكتور نظمي بك السلانيكي الاصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية من خير الاعوان له ، وقبل حدوث الانقلاب بأربع سنين كانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضعيفة عاجزة في حكم العدم ، ولذلك لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتدّوا بأن لتركيا الفتاة حزبا موجوداً ، بل كانوا يرون ان هناك بعض المتشردين ينشرون أوراقا قليلة الجدوى لتخويف المابين ونيل الوظائف والاحسان ، وكانوا يعدون أحمد رضا بك معاندا مصرا على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة الحقيقيين ، مفضلا ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية

تداخلت الدول الاوربية منذ أربع سنين في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها ، فزال منها بعض الظلم وتحسنت ادارتها تحقيقا لرغبة أوربا وخوفا من مداخلتها ، وسمحوا لاهالي تلك الولايات بقليل من الحرية ، فنفسوا بها عن صدورهم ونظروا في شؤونهم . وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم كوميته (Comité) فسموا الداخل فيها (كوميته جي) باضافة اداة النسبة التركية إلى كلمة كوميته الافرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم واوضاعهم ، وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من الحماسة والغيرة الوطنية مالا يقدر ولا يوصف . وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستميح رضاهم ، فعز ذلك على المسلمين من الترك والارناؤط سكان تلك الولايات ، واعتبروا باخوانهم في الممالك البلقانية المستقلة استقلالا كليا أو جزئيا كرومانيا والصرب والجبل الاسود واليونان والبلغار

الذين سببوا المذابح ، وكان قتل كل واحد منهم يكلف الجمعية الاموال والنفوس ، فقتل بليف مثلاً سبّب هلاك أربعة من اعضاء الجمعية وصرف مئتي ألف فرنك ، وكذلك القاء القنبلة في موكب صلاة الجمعة امام سراي يلديز فانه كلفهم خسائر جسيمة ، فعدلت الجمعية الارمنية بعد ذلك عن هذه الحركات ومالت الى الاتفاق مع تركيا الفتاة فعقدت مؤتمراً في ويانة حضره جماعة من الترك والارمن والمقدونيين والروم والكرد والعرب واليهود والارناؤط ، وكان الشارع في عقد هذا المؤتمر معلوميان افندي الارمني الشهير وقدتم اتفاقهم فيه على المسائل الآتية : (١) قلب الحكومة الحاضرة والسعي في تحقيق ذلك بجميع الوسائل (٢) تأسيس حكومة مقيدة دستورية لجميع رعايا المملكة العثمانية (٣) استعمال جميع الوسائل الانقلابية لتحقيق هذا المقصد . وذلك لان الحكومة المستبدة استعملت جميع الوسائل لخراب المملكة واطفاء نور العلم والحرية ، فأقفلت المدارس وحبست المعلمين ونفت التلاميذ ، وان الاماكن التي بقي فيها شيء من المدارس أنقصت التعليم فيها بايجاد مراقبة لم يسبق لها مثيل. وصارت الجرائد لا تنشر من الاخبار الا ما يؤذن لها بنشره بعد التحريف والتغيير أو الاختراع من جانب المراقب . وصارت التكاليف المستوفاة بلاعدالة لا تصرف على التعليم أو التبسط في الحضارة والعمران ، بل على الجواسيس والجرائد المويدة للظلمة المحبذة لاعمالهم ولاسيما في البلاد الاجنبية ، وذلك لإيهام الناس ومخادعة أوربا عن أحوال الممالك العثمانية .

فمنع العثمانيين من التجول والسفر ومنعهم من اخذ تذاكر الجواز (Passes-port) أوجبا تعطيل التجارة ، كما ان استيفاء التكاليف الاميرية بطريقة غير عادلة وفقدان الامن في البلاد وتراكم المحصولات وكثرة المراباة وفقدان وسائل الاختلاط كل ذلك كان سببا قويا في خراب الزراعة . فأصبحت البلاد التي كانت مزرعة الدنيا في عهد المدنيات السابقة خرابا ، وأراضيها قفرا بلقعا ، حتى هاجر منها أهلها الذين ولدوا فيها الى أمريكا وأوربا ومستعمرات أفريقيا ، ليفتشوا لهم عن قليل من الحرية والامن وأسباب المعيشة ، فالمهاجرة والقحط أكملا العمل الذي بدئ بالمذابح وانتج الخراب للبلاد وخلوها من السكان . فلجميع ما ذكر من الاسباب أصبح الانقلاب

حسن بك . فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هو عدم المركزية الادارية كما صرح به لا عدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن مختارية الادارة مثل حكومة كندا

ومرادهم بالتشبث الشخصي ان لا تكون الاهالي عالة على حكومتهم بل ان يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معايشهم حتى لا يكونوا متنظرين سيب الرزق من حكومتهم والانكباب على طلب الوظائف للتعيش منها ، لان السنة في الحكومات المستبدة ان ينتظر الأولاد دائما الاعانة من أسرهم والأسر من أرباب مجالسهم وأرباب المجالس من حكومتهم . ولكن الامم الانكلوسكسونية بعكس ذلك فان أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصناعة اللائقة بهم . فهذه خلاصة افكار هذا الحزب السياسي

نهاية الفساد والخراب في احوال الدولة

زاد البلاء في السنين الاخيرة وتعسر تدوير دولاب الحكومة مع اجهاد المأمورين أنفسهم في جره ، فحدث في الاذهان كدر من الامس وخوف من الغد ، واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة و بغض وحقد كامنان في النفوس ، وعلم المقربون انهم على وشك الانقراض ، فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال ، فتهالكوا على ادخار الاموال واقتناء العقار ، وأودع الدهاة منهم ثروتهم في مصارف أوربا وأمريكا ، وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ما أمكنهم . ولم يفكر الواحد منهم الا بنفسه وأولاده ثم بالاقرب فالاقرب من أسرته ، واستماتوا في سبيل الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب ، واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها ، ووجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العلمية على المشايخ ذوي التيجان والعمائم ، ومنحوا الراحة من الخدمة العسكرية هم ومن انتسب اليهم من الرفاعية في جميع المملكة فاصبحوا لا ينتظمون في سلكها ، فكانت هذه المنحة من غريب التناقض ، وكان اذا انصب الانعام على فرد أو أسرة انهمل كالغيث المتواصل وانصب

والبوسنه والهرسك ، فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم ، وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير ؟

ولا يقيم على ضيم يراد بهِ الا الاذلاّن عير الحي والوتد

مالنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه؟ ولما سألوا مشايخهم عن ذلك أجابوهم بان الاسلام يساعد ويحض على ذلك ، ووجدوا امامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا فيها باختيار وشوق وحمية ، عارفين بما ينتجه فعلهم من الفوائد المادية والمعنوية ، فتشكل لهذه الجمعية مركز في سلانيك وفروع عديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونية ، ولقد بلغ عدد اعضاء الجمعية في سلانيك وحدها سبعة آلاف شخص ، والجواسيس غافلون لا يدرون من أمرهم شيئا ، وكان جمهور الاهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقدون بانه سيصيب بلادهم ماأصاب كريد وولاية الروملي الشرقية والبوسنه والهرسك . . . الخ ، ولذلك كانوا في الباطن يتمنون نجاح الجمعية وان لم يقدروا على التظاهر بذلك .

الامير صباح الدين وسياسته

اكب الامير صباح الدين على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده فاستنار فكره، وجنح للحرية والاخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فأسس حزبا سياسيا يعرف بحزب (المشروطية وعدم المركزية مع التشبث الشخصي) ولسان حال الحزب جريدة (ترقي) التركية وقد تأسست سنة ١٩٠٦ ومحررها هو أحمد فضلي بك كاتب الجمعية . فعدم المركزية (Décentralisation) ينقسم إلى قسمين عدم مركزية سياسية مثل مستعمرة كندا الامريكية مع انكلترا . وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع اختصاص الولايات وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير اليه في المادة (١٠٨) من القانون الاساسي ، وجرى تطبيقه قبلا فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت ، وكان ذلك في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظرا للخارجية وقتل في واقعة جركس

المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك ، أو في المدارس الخصوصية التي اسستها طوائف الروم والارمن واليهود والبلغار ، فتعلمت النابتة الجديدة من الشبان والبنات اللغات الاجنبية ، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على مواضع الضعف في الدولة ، وادركوا محل الخلل ، وصار يتخرج في كل سنة في هذه المدارس عدد عظيم متشبعون بفكر الحرية ومتخلقون بالاخلاق الاوربية والحماسة الوطنية . فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالامر ، فضيقوا عليهم واضطهدوا هؤلاء الشبان اضطهادات كثيرة شتى كالنفي والحبس والمراقبة ودمور المنازل وتفتيش الاوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين ،

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز (يوليو) وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الاستياء كان هؤلاء الشبان وجميع العثمانيين مساعدين ومعضدين لحزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ، ولذلك لم تحصل معارضة ولا مقاومة من احد لان الجميع مستاؤن حتى المستبدين انفسهم والمستفيدين من الحال الماضية والوزراء الذين اودعوا السجن واسترد منهم ما أغتصبوه من الاموال لان كلا منهم كان يتطلب اكثر مما ناله ، ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث بصورة اخرى بعد تبدل السلطنة ولكان اذ ذاك مدهشا دمويا

انفجار بركان الحرية وحدوث الانقلاب فى ٢٤ تموز

تسنى لجمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك اخفاء أمرها مدة ولكن رائحتها فاحت بعد ذلك لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء ، فاحس بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم إلى المابين ، فأرسلت الجواسيس من الاستانة ، فقررت الجمعية اعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن ، وعينت فدائيين من اعضائها بالقرعة أو بالتراضي

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف اسرار الجمعية فذهب اذ ذاك الى الاستانة لعرض معلوماته ، ورجع منها نائلا الفي قرش ضما على راتبه فزاد اجتهاده وتحريه ، وطلب ثانية الى الاستانة وبينما كان على

كله في زرع ذاك الفرد اوالاسرة دون ان يفيض منه شيء على المزارع المجاورة ، ولهذا قال احد الفضلاء:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ونفس (ابي الضلال)لها فداء
انحييه وتقتلنا جميعاً لعمرك ان ذا لهو البلاء
فلا والله ماهذا بعدل ولكن انت تفعل ماتشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع ومزارعها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر ، و باعوا امتيازات الامور النافعة للاجانب فاضروا الدولة بذلك اضرارا جمة، وشرهت نفوسهم للعجب وتتلعت أعناقهم عظمة وكبرياء ·وزاد بهم الحرص والطمع حتى فقدوا جميع المزايا الانسانية ، فصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس ، ينقلب يوم سقوطه وابعاده عن منصب الدولة شيطانا رجيما ، كما ظهر من افعال فهيم باشا وهو منفي الى بروسه الذي أهلكه الاهالي فيها ضرباً بعد إعلان الحرية

كنا أشرنا الى هذه الحالات المنكرة المكدرة، والى قرب حدوث الانقلاب في مقالة عنوانها «حكمة التاريخ » نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصادر في ١٥ تموز (يوليو)سنة ١٩٠٣ بعد ان بدّل المراقب فيها وحرف كما أراد، ظنا منه أنها تخفى وربما خفيت على فطنته ودقت على فهمه ، ولكنها عندما بلغت الاستانة واطلع عليها الملدوغون صدر الامر بتعطيل الجريدة ، فكاد بركان الاستياء تنفجر منه فوهات في عدة جهات ،لأن بقاء الحال على ماذكر غير ممكن في القرن العشرين، خصوصا وان البلاد العثمانية متوسطة بين أوربا والشرق الاوسط والاقصى · ومما زاد اختلاطنا بالعالم المتمدن تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الاجنبية على ثغورنا ، ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا اصوات الفونوغراف ،وركوبنا الترام الكهربائي والحوافل والدراجات كل ذلك كان من دواعي اختلاط الامم وامتزاجها ، واصبحت المسافة بين الاستانة وباريس اقل من ستين ساعة بعد ان كانت تقطع في شهور وأعوام

نمت النابتة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكرية، أو في المدارس الاجنبية التي افتتحها الاوربيون والامريكيون في الشرق رغم منع الحكومة

صباحا ووجدوا اعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم الى الاجتماع في يوم الجمعة لاعلان القانون الاساسي والحرية ، فلم يتمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان أوليمبوس على الطوار (الرصيف) في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلا إما الحرية واما الموت !!. وأول من خطب على طَنَف (بلكون) فندق (أوليمبوس بلاس) غالب افندي بالتركية ثم مانويل قره صو باليهودية (الاسبانية) ثم روصو افندي بالفرنسية وسليمان افندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة (عصر) بالتركية وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصة (فوق العادة) بالبلغارية وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية ثم هتف الجميع « فليحي الوطن ، فلتحي الامة ، فلتحي الجمعية ، فليحي الجيش ، الحرية أو الموت » وأعدوا في تلك الليلة مأدبة ضربت فيها الموسيقى العسكرية على الانغام المرسيلية :

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé (1)

وكانت ترجمت بالتركية هكذا : «قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي »

وفي ليلة الجمعة وردت رسالة برقية إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونية بصدور الارادة السنية باعادة القانون الاساسي، فاجتمع الناس في سراي الحكومة ، واعلنت الحرية والقانون الاساسي رسمياً بحضور المفتش العام ومشير الفيلق الثاني ابراهيم باشا، وموظفي الحكومة والبلدية واعضاء الجمعية وابتدأ موسم الافراح والسرور .

الخلاصة واسباب الانقلاب بلاسفك دماء

حدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في

---

(١) المنار : هذا البيت من أبيات لحن الثورة الفرنسية وترجمته بالعربية ترجمة حرفية نظما هكذا :

هلموا يا بني الوطن ... فيوم المجد قد وافى

أهبة السفر اذ فوجئ بضربة من احد الضباط فذهب الى الاستانة مجروحا وحضر بعد ذلك الى سلانيك صادق باشا وماهر باشا وأمير اللواء يوسف باشا وبعض الياورية وعدة من موظفي الملكية ونظموا دفترا باسماء كثيرين من المتهمين بعضوية الجمعية ، وحبسوا ونفوا والقوا الرعب في قلوب الناس حتى كاد اليأس يستولي عليهم ، فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام اركان حرب والبيكباشي نيازي بك الارناؤطي بتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية (رسنه) وهي في الغرب الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلو مترا ولحق بهما كثيرون من الوطنين وانور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طلب الى الاستانة ووعد بمكافأة كبيرة ولكنه اختار نفع وطنه على منفعته الذاتية

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس فقلقت حكومة الاستانة قلقا عظيما وطلبت مفتي الالاي مصطفى افندي لتستفهم منه عن هذه الاحوال ، وضمت إلى معاشه خمس مئة قرش ! ! وبينما كان خارجا من الفندق للسفر الى الاستانة جرحه أحد الضباط بحضور جم غفير ، وهرب الجارح من دون ان يعارضه أحد من الحاضرين ولا أخبروا عن أشكاله وصفاته ، فندبت حكومة الاستانة للسفر الى (رسنه) الفريق الاول شمسي باشا قومندان (متروبجه) فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وتابورا من العساكر وحضر على القطار الى سلانيك ومنها الى مناستر وذهب تو إلى إدارة التلغراف لمخابرة المابين ، فخرج عليه أحد الضباط وقتله ، وامتنع من معه من الضباط والعساكر عن الزحف على (رسنه) ومقاتلة اخوانهم

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس الملكيين والعسكريين فقرر مجلس الوكلاء ارسال ثلاثين ألفا من عساكر الاناضول . ولما وصل منهم إلى سلانيك الثلاثة توابير الأول امتنعوا عن مقاتلة اخوانهم وانضموا اليهم أيضا ، فأحس المابين بأن سوق عسكر الاناضول الى الروملي إنماء لقوة الجمعية فأوقف ارسال بقية عساكر الاناضول الى سلانيك . ثم اجتمع في (فيرزو بك) عشرون ألفا من الارناؤط وذهب سبع مئة من رؤسائهم الى اسكوب لاعلان القانون الاساسي والحكومة المقيدة

وفي يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيك

الفاتح للروم وأقرّهم عليها والامتيازات الاجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الاجانب تفضلاً منهم واحسانا لا بحرب وغلبة فسيجري الاتفاق عليها بصورة حبية يرضى بها الجميع .

(٣) ان الافراد الذين عزلوا من وظائفهم وصودر ما استحوذوا عليه من الاموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بانهم ادخروا هذه الاموال الكثيرة من غير الوجوه المشروعة بل بأكل أموال الامة والدولة بالباطل ، كما يعترف الاذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته ، وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشيء أو لاعادة الادارة السابقة المستبدة ، وليس لهم عصبية تساعدهم على ذلك ان هم أرادوا أوحاولوا . وإن الامة بأجمعها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار ، نعم ان الموظفين الذين خدموا مدة ثم ألغيت وظائفهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب راتب التقاعد أو التوظيف في وظائف أخرى ، إذ لا يليق بشرف الامة ان تلقي على قارعة الطريق جماغفيرا قضوا حياتهم في خدمة الادارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما كانوا ينقدونه من الرواتب ، فان هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الاهالي المظلومين من شأنه ان يستعمل الشفقة والحنان أيضا في حق الظالمين لتتم سعادة الامة ولا يلحق بأحد ضرر ولا خسران .

والحاصل ان الفضل في حدوث الانقلاب العثماني من دون سفك دم ولا حصول اضطراب وقلاقل في المملكة انما هو للشريعة الاسلامية وما في احكامها من العدل والمساواة في الحقوق . ولهذا كان رد الفعل أو الرجعة (Réaction) في هذا الانقلاب غير محتمل بل هو مستحيل لعدم وجود اسباب معقولة أو مشروعة تحفز اليه ، بخلاف ما حدث في فرنسا وأمثالها إذ كان للقائمين برد الفعل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لاعادة الادارة السابقة . اه

المملكة كما حصل عند باقي الامم من الانكليز والفرنسيين والامريكان والمجر والروس وغيرهم، وفي ذلك قال بعض رجال السياسة : « لا تنبت الحرية مالم تسق بالدم » ولذلك أسباب كثيرة منها :

(١) ان الحكومة ليست حكومة مطلقة كما يظنها الناس ويسميها الافرنج (Théocratique) وانما هي مقيدة باحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالشورى ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة . فالانقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنسيين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الالهية ! ! ! حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا في سبيل استرجاعها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور .

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الامة العثمانية كما يوجد عند الفرنسيين للاشراف وللرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الاراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم، ولذلك قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنسي وحرمهم من حقهم المشروع على زعمهم واعتقادهم ، أما الانقلاب العثماني فلم يضيع لاحد حقا فان الحقوق التي كانت على الاراضي للدره بكوات (دره بكلر «*») المعروفين عند الافرنج باسم (Féodalité) وهي في المملكة العثمانية حقوق الزعامة ألغيت بعد التنكيل بالانكشارية في عهد السلطان محمود خان ، وأعطي لاصحاب هذه الحقوق ضمانة ورواتب استوفوها مدة حياتهم ومنهم من لا يزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزانة في كل سنة ، ووضع أخيرا قانون الاراضي الموافق لاحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعا وترتيبا كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق . فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع، وغير المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » اما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد

(*) المنار : يراد بكلمة (دره بكلر) في التركية أصحاب الزعامة والنفوذ الفعلي في المقاطعات وقد كانت بلاد الدولة معظمها على هذا النمط ولا سيما في الاناطول فان السلطة والنفوذ كانا في أيدي هذا الصنف من الناس

الاجتماع حتى في الاسرة فقد صار الاب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والاخ يفر من أخيه خوفا من تجسس بعضهم على بعض ، وحتى صار الاجتماع في الاعراس والمآتم مخوفا ومهددا في دار السلطنة !! منع الاستبداد الماضي ان يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة « المحاضر » وفرض عليهم ان يشكوا منفردين وان كان ما يشكون منه مشتركا بل منع شهادة التواتر الشرعية لانها لا تحصل إلا من جمع كثير . فالافراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم ان يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها ؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارتهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوّن الامة

فهذا اليوم هو العيد الوطني الاكبر العام لجميع العثمانيين فان ما عداه من الاعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والاجناس أو بعض الاديان والمذاهب، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، يحتفل به التركي والعربي والالباني والرومي والكردي والارمني ، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية ، وحيثما كانوا من البلاد الاجنبية ، يحتفلون به مجتمعين ممتزجا بعضهم ببعض لانه عيد الجميع

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة . أما ترون فيه الحاكم السياسي والاداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الاسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الامة من الزرّاع والصناع والتجار والعمال وتلاميذ المدارس (١) والبِشر يتدفق من وجوه الجميع لان العيد هو عيد الجميع

ثم انني أهنئ الامة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو انها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها بنفسها فان المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاؤن ويغيروا

(١) ذكرت هذه الاصناف مع الاشارة الى كل صنف من المتصرف الخ

افتتاح مجلس المبعوثان

﴿ ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ﴾

بطرابلس الشام (*

خلاصة الخطبة الاولى في ميدان التل

أيتها الامة العثمانية الكريمة

أهنئكِ بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين واني لاهنئك بأمر عظيم ، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة ، وما أحلى هذا القول في فمي ، وأحبه الى قلبي ، نعم في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الامة عليك ولم تكوني من قبله الا عبارة عن افراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة.

يطلق لفظ الامة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض افراده ببعض بقوانين ومصالح مشتركة .
فالاجتماع هو الاصل الذي يتحقق به معنى الامة المؤلفة من جمعيات بعضها أكبر من بعض أدناها الاسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه ، وأعلاها الامة التي هي منتهى ما يصل اليه الاجتماع .

هل يسوغ لنا ان ندعي اننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم ؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني

---

*) احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل امام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الاهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية أمام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ماقال

اني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيرا من البداية فاننا لا نستغني عن الدعاء ، في السراء ولا في الضراء ، ولكنني أدعو وأنا ممتلئ القلب بالأمل والرجاء ، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فان حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الامة الاول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا ملاما ، بل كان برداً وسلاما ،

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جدا ، ان ذلك المجلس لم يكن بسعي الامة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له ، وإنما هو من صنع مدحت باشا ابي الحرية و بعض اخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الاساسي ، و بسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هـذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقدا ، وفرق ما كان مجتمعا ، فكان ابطال « مجلس المبعوثان » أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب ، إذ لم يكن له من الامة عضد يؤيده ، ولا من الجيش نصير يحفظه و يعضده ، أطلقوا على ذلك المجلس لقب « أوت أفندم » (١) إذ قالوا ان الاعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقيه اليهم الحكومة بكلمة « أوت أفندم » فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندو به: اخرجوا واذهبوا الى بلادكم ، فوضعوا أيديهم على جباههم « إشارة الطاعة » قائلين « أوت أفندم » وولوا منصرفين ، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين ،

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها ؟ انها هددت المبعوثين ذوي الجرءة وأنذرتهم البطش بهم اذا لم يسرعوا بالسفر من الاستانة ، فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم ان يحدثوا هنالك تأليبا للناس ويحملوهم على المطالبة ببقاء مجلس الامة والمحافظة على القانون الاساسي ، على أن الامة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما

أما الآن فقد تغيرت الحال ، واستبدل الله أقواما بأقوام ، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الاساسي بسعي احرار الامة النابغين ، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين ،

(١) كلمة تركية معناها : نعم ياسيدي

ما يشاؤن لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة ، وليس له ولا للحكومة ان يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يعيدوا انتخابهم، وانما كان هذا من الامة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها فهي إذن الحاكم الاعلى وجميع الحكام من أعلاهم الى أدناهم مستأجرون لها بمالها لاجل ان يقوموا بما لا بد لها منه ولا غَناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها

في هذا اليوم نالت الامة هذا الشرف العظيم بالفعل ، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء، ولا يسمح لها ان تقول ولا ان تفعل الا ما يدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية

بقي ان تعلموا أيها الاخوان أن حكم الامة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الاجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الافراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه فان هذا هو عين الفوضى والخلل لا تصلح معه حال ، ولا يستقر نظام ، ونسأل الله ان يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا إلى ما فيه خير الملة والامة .

* * *

خلاصة الخطبة الثانية في نادي الجامعة العثمانية

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الامة ودوام الدستور: سمعت كثيرا من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم « الله يتم بالخير » فكان يسرني هذا الدعاء من جهة ويسوئني من جهة أخرى . يسرني لانه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله ان يفشل أو يصيبه كيد الكائدين ، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين، ويسوئني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء ، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء ، فان هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه ، ويسيل من الالسنة متدفقا عن القلوب ،

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات انصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فاذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الافاعي « ليفسدوا في الارض و يؤلبوا الاشقياء في ولاية البصرة على الدولة فان قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله ، فان لديها من الرجال من يأكلون أكلة الافاعي ، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي « كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي ،فسيحبط عمل المفسدين و يستقر الامن في جميع الولايات العثمانية عن قريب ان شاء الله تعالى

ومن الناس من يخاف ان يفشل مجلس الامة و يعجز المبعوثون عن القيام بما نيط بهم وعهد اليهم من مصالح الدولة والامة ، وانني أصيح بأعلا صوتي ان هذا الخوف في غير محله أيضا . ان المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وماقيل من ان جميع أعضائه أرادوا ان يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة «أوت أفندم » لخضوعهم لما يراد منهم — على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لودام فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الامة بالنسبة الى زمن المجلس الاول في الاستعداد والمعارف والافكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى انها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو — كما قال الاستاذ الامام — في عنفوانه « والظلم قابض على صولجانه « و يد الظالم من حديد ،والناس عبيد له أيّ عبيد

نعم ان مجلسنا الذي نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الاحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين ،وفيه عدد قليل من المعتدلين ،وكثير من رجال العلم والدين ، وانني أرجو- كما يرجو كثير من محبي الاعتدال - ان يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الامة كلها أقرب الى النفع وأبعد عن الخطر فانني أعرف كثيرا من احرارنا المتطرفين يميلون الى العجلة في الاصلاح، وقد يكون من المستعجل الزلل ،ومن تأنى نال ماتمني، والعجلة في طور الانتقال من حال الى حال لاتخلو من خطر أو ضرر فان خاب الامل (لاسمح الله)وضعف المجلس عن الاصلاح المطلوب

لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ماأصاب مدحت باشا واخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الامة ويموتان بموتهم. كلا إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد احرار الامة على نيل هذه الرغيبة ولولاه لم نصل الى هذه النعمة ، من غير خطر على الدولة والامة ، ومن ورائهما احرارنا المنبثون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها

تشهد أم أوربا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدها بأسا وثباتا في ميادين الجلاد حتى قال الجنرال مولتك القائد الالماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيس: اعطوني مئة الف جندي عثماني افتح بهم اوربا كلها. ولكنهم كانوا يقولون ان هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون. والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوف أن يقضوا على استبدادها حتى شتتت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الامة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا الى اخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الامة بروحه ويبذل دونها آخر نقطة من دمه ؟

كلا ان العارف بحال الدولة والجيش وبما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الامة لايخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم وإنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج ، كنا نخاف ان تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرنا الى الدخول في حرب لاتؤمن عاقبتها ، أما وقد لقينا من الدول الاجنبية ميلا وانعطافا عظيمين الا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة ، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الامة العثمانية ماجعلها تندم على مافعلت وتود إرضاء الدولة العلية

عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها ، واننا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الايام والسنين الى آخر الدهر ، اننا نهنيء أنفسنا بأن الامة قد صارت مذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها ، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها ؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والاخلاق التي تعتز بها الامم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها اهلا لان يَختار نواب الامة عن بصيرة أو يُختار هو بالاستحقاق

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه اليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح أمورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الاعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة . فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد اليهم بالصدق والاستقامة ، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك ، وأن نتولى نحن سائر الامور التي تحتاج اليها الامة كتربية الاولاد ، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد

قد تعودنا أن ننتظر كل اصلاح من الحكومة ولذلك اصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد ، وتمهد لهم الطرق ، وتمد لهم خطوط الحديد ، وان اتكال الامة على الحكومة في كل الامور العامة صار مذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض ، فبينا هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لامورها اذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزّه بالحكومة لزا ، وتلصقه بها الصاقا ، وان لم يكن مما يعمل مثله الحكام . فالحكومة على المعنى الاول افراد من الامة — في الغالب — تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الهيأة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها (أي الامة) وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارتهم لذلك ، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والامة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي غنمه ، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين الامرين !!!

انما فشل مجلس المبعوثين السابق لانه لم يكن من جانب الامة ولا كانت الامة كافلة له ولا عارفة قيمته ، ولم يكن المرحوم مدحت باشا واخوانه الذين وضعوا

الآن فان جمعية الاتحاد والترقي المباركة التي أخذت على نفسها كفالة الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني او تجتهد في جعل جميع الاعضاء أو اكثرهم من نابغي الامة ونحمد الله ان في أمتنا من النابغين ، من يشهد لهم بالفضل والعرفان ساسة الاوربيين ، ناهيكم بأولئك الكرام الذين احدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي ادهش عالم المدنية بما دل عليه من الحكمة والاعتدال

من الخطإ العظيم ان نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة ويرقي الامة في زمن قريب فان التدريج سنة الهية في الارتقاء ، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء ، و إننا واثقون — مع الاتكال على معونة الله وتوفيقه — بأن يكون لمجلسنا من الخدمة النافعة ، ما تقتضيه مصلحة الامة في حالها الحاضرة ، آمين

* * *

خلاصة الخطبة الثالثة في نادي جمعية الاتحاد

اننا منذ أعلن الدستور ، في فرح وسرور ، الى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد ، الذي هو للامة العثمانية اكبر عيد ،

كانت أسباب سرورنا في الاشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي ، سرورنا منذ اعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف ان نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش ، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدمر علينا فيها ليلا أو نهارا للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالاوراق الضارة أو « المظرة » ، سررنا بأننا صرنا أحرارا لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من اظهار استعدادنا في أي عمل من الاعمال ، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالا لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا — كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن الى اليوم معناها سلبي تفسر بلا لا لا

في هذا اليوم تبتدىء المنافع الايجابية فقد اجتمع وكلاء الامة الذين أنابتهم

للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة « بادشاهم جوق يشا » ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها ، وما ذلك الا ان العلم بسوء الادارة وما كان يجب ان تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم ان تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد . فاذا لم نجتهد في تعميم التعليم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فاننا نخاف ان لايكون لهم خلف وما الموجودون منهم بخالدين ، فاذا لم ينتجوا ويجيء بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فان النتاج والنماء هما ثمرة الحياة والمقصد منها

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية افراد من الاحرار الذين استنارت عقولهم بالافكار العصرية ، ومعرفة طرق ترقي الامم والغيرة على المصلحة العامة ، فيجب على الامة ان تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ماينبغي لها في هذا الطور الجديد

لست أعني باعتماد الامة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم ان لاتبالي بمدارس الحكومة . كلا ان الغرض الاول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الامة مايقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد ، وليس في وسع الحكومة ان تعلم جميع افراد الامة جميع مايحتاجون اليه وانما تقدم بذلك الامة نفسها

كيف تقوم الامة بذلك ؟ هل يعلم كل واحد نفسه ؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلمّ أعلمك ؟ لا لا ، وانما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات ، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات ، وحسبكم ان بعض الجمعيات عندنا قد اسقطت الحكومة الاستبدادية ، وأدالت منها حكومة دستورية ، فأي برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم ، وتلهجون بذكره بألسنتكم

لاينتشر العلم في هذا العصر الا بالجمعيات ، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم الا بالجمعيات ، ولا يقوم أمر من الامور العامة الا بالجمعيات فعلينا ان نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تنشئ لنا المدارس والكتاتيب ، وان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلا لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعتز بها الامة

انّ في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي

القانون الاساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون ان الاصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الامة وتعليمها حتى تصير أمة دستورية بالطبع لاتقبل الحكم الشخصي بحال من الاحوال ، ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج الى عشرات من السنين ، ورأوا الاخطار مهطعة الى الدولة ، وأعناق الدول الطامعة ممتدة اليها ، وبراثنها ناشبة باطراف جسمها ، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة ، فعملوا ماعملوا وألزموا السلطان بإعلان القانون الاساسي . ولا يشك عاقل في كون الإصلاح اذا جاء من جانب الحكومة، يكون أسرع من مجيئه من جانب الامة ، إذا هو ثبت ودام ، ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال ، بل هو مع جهل الامة من قبيل المحال ،

ان الإصلاح في الأمم لا يأتي الا بالتدريج وهو انما يكون أولا بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الامة من الامم الحية العزيزة القوية ، فيكون مثلهم فيها كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة ، وان من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير جيدة ويجيء الجيد بعد ذلك كشجرة التين فان أول ثمرها الذي نسميه (الدافور) لا يجدي ولا يفيد ، ولكنه يكون مبشرا بماوراءه . ولقد كان شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل (الدافور) من شجرة التين من حيث انهم كانوا مقدمة لصيرورة الامة العثمانية دستورية اذ تحقق ذلك من بعدهم ، ولم يتم في عهدهم ،

إن أول شيء يجب أن نوجه همتنا وعنايتنا اليه ، ونعول في حفظ شجرة الامة عليه ، هو التربية والتعليم ، اللذان يكثران فينا عدد النابغين ، فان الاحرار الذين قلبوا لنا الحال ، ونلنا بسعيهم هذه النعمة ، كلهم من ذوي التربية العالية ، الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك . وان جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولا في المدرسة الطبية العسكرية في الاستانة ثم كان لها تأسيس آخر منذ عهد قريب

اخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما ينذرها من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغا عظيما حتى ان الصائح بكلمة الدعاء

يخاطب بعضهم بعضا بالقول والكتابة بواسطة الاسلاك الكهربائية وبغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم ، ويتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية

ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ماوصلوا اليه من العزة والكرامة الا باطلاق العنان لجياد العقول ، في ميادين العلوم والفنون ، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعدادا للعلوم والاعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفيء نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا ان نظهر اسرار صنع الله وحكمه في خلقه ، ولا ان نتمتع بما سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به ، كما قال في كتابه الحكيم : (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً)

كان العالم منا إذا أراد ان يؤلف كتاباً نافعا قال نذير الاستبداد إياك ان تفعل فان مولانا لا يريد ذلك ، واذا حدثت محب الفلسفة نفسه بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك ان تفعل فان مولانا لا يحب ذلك ، واذا خطر في بال أحد ان يبحث في اسرار الخليقة ليخترع شيئا ينفع الامة اسرَّ له رسول الاستبداد : إياك ان تفعل فان مولانا لا يروق له ذلك ، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي أو عملي يرقي الامة في عقولها ونفوسها ، في دينها أو دنياها ، الاوجد الاستبداد له بالمرصاد ، وناله منه ماتعلمون من الاضطهاد ،

فالحرية ! هي تحرير البشر من هذه العبودية ، الحرية هي التي يكون بها البشر بشرا ، لاغنما ولا بقرا ، فالانتفاع من الحرية يجب ان يكون بتوجيه الاستعداد الانساني إلى العلوم والاعمال التي ترتقي بها الامة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد ، لا باتباع الشهوات ، واتيان الفواحش والمنكرات ، ولهذا كان الحكماء ومحبو الانسانية ينشدون الحرية ، ويبذلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم ، ولا غروَ فهم العالمون بالاسرار الالهية ، المودعة في الغرائز البشرية ، وبكونها لا تظهر الا في دائرة الحرية ،

كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل ، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده+ كثر فائدة وانمى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والزكاء وإن في بلادنا ماهو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين (دجلة والفرات) التي قال هيرودس ابو التاريخ انها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف الى مئتي ضعف أي ان الشنبل (كالاردب) من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل . أيجوز ان تبقى هذه الارض التي لا نظير لها خرابا لاينتفع منها بشيء (*

حسبنا من نعمة الدستور اننا صرنا احرار لايمنعنا مانع من الاستعداد ، ولا من العمل الذي نستغل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية ، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاما في الحرية فعنَّ لي في هذا المقام أن ازيد شيئا وجيزا على ماقالوا فان المجال ذو سعة

الحرية تقابل الرق والعبوديه فمعنى كوننا صرنا احرارا اننا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو اننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبوديه ، كان الحاكم قادرا على ان يمنعنا من التصرف في انفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزا عن ذلك . كان يمنعنا بالفعل ان نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والاعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا ان نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه ان يجعلنا رعية ويكون لنا كالراعي للبهائم ، صار يمكننا ان نكون اناسيَّ وبشرا يتمتعون بمزايا البشر.

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري ان استعداد الانسان لايعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن ان يكون ارتقاؤهم فيها متصلا ومستمرا ، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط وبين هؤلاء الذين

*) ذكرت لهم بعد الخطبة حكاية الملك المستبد الذي سمع صوت بومتين تتجاوبان فسأل وزيره عن ذلك وكان الوزير قد ضاق ذرعا باستبداده فقال له انه ذكر يخطب أنثى فسألته ان يمهرها بضيعة خربة فقال لها انني أعطيك في عهد هذا الملك مئة ضيعة أو بلدة من الخراب . قلت وهكذا كان الخراب عندنا بحيث تصير أرض الجزيرة مهرا للبوم وجبال مالطه تزرع بالتراب الذي ينقل من الخارج

باب التربية والتعليم

﴿ اصلاح التعليم الديني في الاستانة ﴾

هذا ملخص مطالب طلاب دار الفنون في الاستانة من نظارة المعارف وقد ذكرت جرائد الاستانة ان طلبهم قد أجيب :

١ — تدريس التفسير الشريف بتقرير معاني القرآن الحكيم الظاهرة وأسباب نزوله و بيان الناسخ والمنسوخ وتطبيق ذلك على القوانين الفلسفية

٢ — تدريس الحديث الشريف وان تكون مدة تدريس البخاري أربع سنين

٣ — تدريس أصول الحديث مع تراجم رواته وطرق أسانيده

٤ — تدريس أصول الفقه و بيان قواعده الكلية وتقرير تعاليمه وتفرعاته وتدريس الفروق في القواعد والاصول بين المذاهب الأربعة

٥ — تدريس الفقه مع بيان القواعد الفقهية والفروع ، ومأخذ ذلك من الادلة الشرعية الاربعة مع إيضاح الحكمة الشرعية في ذلك وفلسفة الاحكام

٦ — تدريس التاريخ الاسلامي

٧ — تدريس تواريخ الاديان المشهورة

٨ — تدريس السيرة النبوية بالتفصيل

٩ — تدريس التوحيد وذلك بان تنبذ طرق تدريس التوحيد القديمة ويلقى علم التوحيد إلقاءً عمليا يوافق الزمان والبيئة ، ويترك من علم الكلام الالوف من خرافات الفلسفة القديمة التي امتزجت به

١٠ — تدريس الدين الاسلامي وبقية الاديان : وذلك بتدريس المقابلات بين أصول الدين الاسلامي وقواعده وأصول باقي الاديان وقواعدها

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباء فأحب ان أزيد عليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها : يظن بعض الناس ان الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه . وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وانما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق — كما قال الخطيب السابق — فالغني والفقير ، والصعلوك والامير ، والعالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، كلهم سواء في الحقوق ليس لأحد ان يعتدي على أحد في نفسه ، ولا ماله ولا يراعي الحاكم أحدا منهم ويهضم الآخر

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضّل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه ، ودلت عليه سنته في خلقه ، وله في ذلك الحكمة البالغة ، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الانسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر اسرار الطبيعة ، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة ، ولما تيسر للبشر ان يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها

ان تفاوت الناس في العقول والاخلاق ، هو الذي مكنهم من القيام بما ترون من الآثار والاعمال ، فان اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلا لا بد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكيين كما انه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العملان من أشق الاعمال وأصعبها . أفرأيتم من كان مستعدا للاكتشاف والاختراع في العلوم وللسياسة والامارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الارض أو بأن يقذفه في النار ؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الاعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها ؟ كلا إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وانما يتقارب الناس ويتعاطفون بتعميم التربية والتعليم ، فنسأل الله أن يهدي الامة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم

فحيونا بإطلاق البارود والرصاص في الهواء فأجابهم من معنا بمثل تحيتهم بل بأحسن منها فلم أنكر عليهم ذلك لعلمي بأن العرف يقضي بتسجيل العار عليهم إذا لم يفعلوا. وكذلك فعلوا عند ما اشرفوا من رابية «ظهر الرويسات» على القلمون لإيذان من بقي فيها بقدومنا وعند ما وصلنا الى دارنا ايضا لانه من قبيل سلام المفارقة . وقد ذكرت هذا لانه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل وسيأتي ذكر شيء آخر في معناه

وكان من حفاوة أهل القلمون بي أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس الى القلمون وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضا . وقد راعني وأثر في نفسي رؤية الأولاد الصغار من بنين و بنات في الخامسة والسادسة فما فوق يتعسفون الطريق ويتسلقون الروابي بين الاشواك والحجارة ، تبعوا في ذلك آباءهم وأمهاتهم واخوتهم واخواتهم وكان النساء يغنين ويزغردن ولهن في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها . وقد ورد في هذا الباب ان النساء استقبلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة وهن يضربن بالدفوف وينشدن الاناشيد ومنها قولهن

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وكان فيمن خرج للقائنا مسافة نصف ساعة شيوخ وعجائز في عشر التسعين وعشر المئة من السن وهم صائمون وصحتهم جيدة بل مشى الى طرابلس اكثر من واحد من هؤلاء المعمرين . وأهل القلمون يعمرون لاعتدالهم في معيشتهم ورياضتهم الدائمة بالعمل في الارض مع جودة الهواء والماء فالخمر لا تدخل القلمون ولا يشربها أحد من أهلها والفاحشة غير معروفة فيها ولله الحمد والمنة ، وهاتان الكبيرتان هما افتك بصحة الناس من كل ما يأتيه الناس

سألت رجلا من هؤلاء الشيوخ (هو الحاج علي طوط) عن سنه فقال : أربع وسبعون سنة . وهو يواظب على صلاة الفجر في المسجد غلسا وربما يجيئه قبل

١١ — تعليم طرق الدفاع عن الدين الاسلامي قولاً وكتابة وأصول المباحثة فيه
١٢ — تعليم أصول التدريس والتعليم وعلم تربية الاطفال بطريقة نظرية وعملية
١٣ — تدريس الحكمة والفلسفة على الطريقة الجديدة
١٤ — تدريس علم الاخلاق نظريا وعمليا
١٥ — تدريس علم الروح
١٦ — تدريس التاريخ العام
١٧ — تدريس أصول الانشاء بالتركي والعربي
١٨ — ايضاح تشبث المسيحيين ولاسيما البروتستانت بنشر دينهم واساليبه
١٩ — تعليم القاء المواعظ والنصائح وأصول الخطابة على الطراز الجديد

باب الأخبار والآراء

رحلة صاحب المنار في سوريا

(٢)

القلمون

مكثت في طرابلس أسبوعا زارني في أثنائه أكثر أهل القلمون وأخذوا يستعجلونني بالخروج إليها فلما كان يوم الموعد الذي ضربته لهم انقسم أهلها شطرين أحدهما جاء طرابلس لأجل أن يكون معي وأكثر افراده من الشبان والكهول ، والآخر خرج لاستقبالنا مسافة ربع الطريق وثلثه ونصفه بين القلمون وطرابلس، وأكثره من الشيوخ والنساء والاطفال والمسافة كلها ساعة ونصف

كان عدد كثير من الشبان يحملون السلاح فطفقوا منذ خرجنا من طرابلس يطلقون بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فرغبت اليهم ان يكفوا عن ذلك فامتثلوا حتى اذا ما وصلنا الى الموضع المعروف بأبي حلقة الفينا فيه نفرا من شبان طرابلس

سحبا ولكنه لم يواظب وأعيانا أمره فا كتفيت منه بوعد مكذوب . وكان فيها رجال يسرقون الثمرات كثيرا وغيرها من المتاع قليلا ، فندر ذلك ندورا ، كأن لم يكن شيئا مذكورا ، وكان عمدتي في وعظهم وتعليمهم كتاب إحياء العلوم وكتاب الزواجر وشرح المنهاج فصار فيهم متفقهون في دينهم يستحضرون مالا يستحضره كثير من العلماء المدرسين وكلهم من الفعلة والفلاحين والصيادين

على هذا تركت القلمون عند ما سافرت الى مصر ولذلك قال أزهد الزاهدين وبقية السلف الصالحين ، العالم الأصولي السائح المعتبر الشيخ عبد الباقي الافغاني رحمه الله تعالى : لو بقي رشيد في بلده يعلم الناس ويرشدهم لكان خيرا له من الذهاب إلى مصر حيث لا يستطيع ان ينفع كما ينفع هنا . قال هذا عندما ذكر سفري له وهو لا يعلم ان قصدي بالسفر التصدي لإرشاد أعظم ، وتعليم أعم وأشمل ،

ولما عدت اليها في هذه الايام علمت انه قد فتن كثير من أهلها فتركوا الصلاة واتصل بعضهم بالذين اعتدوا على بيتنا من أشقياء طرابلس فأغراهم هؤلاء بقطع الاشجار وشهادة الزور وإضاعة الحقوق وكادوا يجذبونهم الى الخمر والفحشاء والقيادة . أغروهم بالمال وغروهم بأنهم يحمونهم من الحكومة وإن سلبوا ونهبوا وضربوا وقتلوا ، فسلسوا لهم وساعدوهم على نهب بيتنا ، وتقطيع الاشجار من بعض بساتيننا وكرومنا ، ونحمد الله ان كان هؤلاء المغرورون قليلين ، وأن كان أكثر الأهالي لهم ولمضليهم من الكارهين ، ونحمده أن جعل الشر أضعف من الخير

عدت الى هؤلاء الناس وهم قومي الذين أغار عليهم مالا أغار على سواهم وكنت أظن أن مالي من مثال الهداية والدين في نفوسهم قد صغر وتضاءل في هذه الفترة فاذا هو قد كبر وعظم حتى صار خياليا مقرونا بشيء من الخرافات فقد كان الرجال والنساء والاطفال يفدون على دارنا ليلا ونهارا ومعهم الضعفاء والمرضى والمُخدجون يلتمسون الشفاء مني باللمس والرُّقى وكتابة النشرات ومايعبرون عنه بالحرز والحجاب على ان في رجالهم من يعرف رأيي في ذلك فكنت اتلطف في بيان الحق لهم بقدر ما يسمح به المقام ويليق بحال المخاطب وأحثهم على المداراة الصحية والتداوي ومراجعة الاطباء عند الحاجة وقد سبق للمنار البحث في هذه المسائل والجمع بين الاحاديث

طلوع الفجر حتى في أوقات المطر والبرد كهذه الايام · ويمشي عدة ساعات في النهار وهو صائم · وسألت رجلا آخر (هو السيد عبد القادر علي) عن سنه فقال لا أدري ولكنه ذكر لي حكايات منها انه كان ملاَّحا في البحر فجاءه مرة علي طوط ليعمل معه عمل البحر فلم يقبله لانه صغير لا يستطيع ان يحرك المجذاف · فالظاهر من هذا انه يكبره بزهاء خمس عشرة سنة فهو قد ناهز العشرة الاولى بعد المئة أو جاوزها ولا يزال يصوم ويعمل في أرضه بالعزق وشيبه غير تام . فليعتبر بهذا بعض الشبان والكهول المتفرنجين في مصر وغيرها الذين يزين لهم الترف والتهاون بالدين ترك الصيام محافظة على الصحة !! ولو عقلوا لعلموا ان البطنة هي التي تفسد عليهم صحتهم حتى ان أكثرهم ليتناول الادوية والعقاقير والمياه المعدنية لاجل إصلاح المعدة والمعى وتسهيل الهضم وهم في سن الشباب فماذا تراهم يفعلون إن شاخوا ؟ على انه قلما يشيخ منهم أحد !

ومما يفيد ذكره في هذا الباب : باب الاعتبار بحال الناس في الدين ان أهل القلمون كانوا بهدي بيتنا أبعد مسلمي بلادنا عن البدع كما انهم أبعدهم عن المعاصي · ولما انتهى دور الارشاد فيهم إليّ رأيت عندهم من البدع انهم يوقدون السرج والشموع عند قبرين أحدهما قبر السيد محمد القصيباتي الحسني المشهور في المقبرة القديمة وهو أحد أجدادهم وأجدادنا من جهة الامهات وثانيهما قبر بني حديثا عند عُليقة على شاطئ البحر وكانوا يربطون بهذه العُليقة خرقا صغيرة يقتطعونها من ثيابهم الخلِقة يسمونها آثارا لأجل شفاء المرضى ، وكل من هذا وذاك معروف في جميع البلاد · فما زلت أنهاهم وأعظهم حتى تركوا البدعتين نساء ورجالا وصار من يزور القبور منهم يكتفي بالسلام على الموتى والدعاء لهم والتفكر في الموت والآخرة كما هو المأثور

وكان أكثر النساء من غير أسرتنا تاركات للصلاة وجاهلات بأحكامها وأحكام الطهارة وآداب الزوجية فجعلت لهنَّ مكانا أعظهن وأعلمهن به كما أعلم الرجال في المسجد فصلحت حالهن في زمن قريب وكنَّ أسرع امتثالا من الرجال · وكذلك كان يوجد رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدرس في المسجد فكنت اختلف اليهم في بيوتهم وأذكر انه استعصي واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه

شبان القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب ماهم فيه وقد قيل لي ان من الرسوم المعتادة في ذلك أنه لولم يخرج شبان القلمون للقائهم لمادخلوها لان ذلك يعدّ من الاهانة في عرفهم · وعند وصولهم الى دارنا تحلقوا أمامها وطفقوا يهزجرن و يطلقون العيارات النارية الى قريب من نصف الليل ثم انصرفوا مشيعين مشكورين وكان زعيمهم في هذا الاحتفال الامير علي عبد الرحمن الايوبي

وجميع الاناشيد التي هزجوا بها مناسبة لمقتضى الحال ولعل اكثرها ارتجالي فانه في الترحيب بالقادم (صاحب هذه المجلة)وفيها إطراء له بالاعمال السياسية والعلمية وقد ذكر بعض القوّالين المسلمين فيما أنشده عبارة معناها : لولاك يافلان لما ارتفع شأن الاسلام فأجابه رفيق له من النصارى بعبارة معناها انه ليس لكم وحدكم وانه قد طبع لنا الأنجيل يعني بذلك انجيل برنابا !!وقد أضحكتني هذه العبارة وأضحكت كل من سمع بها من العارفين بانجيل برنابا ·فحبذا هذه السذاجة مع هذا الاتفاق بين المسلمين والنصارى الذي حمدت عليه أهل ددّه حمدا جميلا (للرحلة بقية)

خطاب السلطان

﴿ في افتتاح مجلس المبعوثان ﴾

أيها الأعيان والنواب

• « بسبب الصعاب التي قامت في وجه انفاذ الدستور الذي وضعته موضع الاجراء عند ارتقائي العرش أوقف هذا القانون يومئذ الاضطرار الذي أشار اليه كبار الحكومة ، وأجل انفاذ القانون وارجيء عقد المجلس الى وقت يصل فيه الشعب الى الدرجة المرومة من التقدم بواسطة نشر التعليم العام ، وقفت عنايتي على ايجاد الرقي في جميع انحاء بلادي ، و بفضل نشر التعليم العام ارتقت درجة افهام جميع طبقات شعبنا و بناء على الرغبة التي أعلنت ولان هذه الرغبة تضمن في الحاضر والمستقبل خير بلادنا لم نتردد — رغم الذين كانوا على رأي مخالف — في اعلان الدستور

الواردة في الرقى كحديث إقرار الذين رقوا الملدوغ بسورة الفاتحة وحديث وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم لا يسترقون على أن إقناع النساء بلباب الحق في هذه المسائل عسير، ولا يتم ولو مع الارشاد في زمن قصير، ونسأل الله تعالى إن لا يجعلنا فتنة لانفسنا، ولا لمن يحسن الظن بنا،

قلت مرة لعبد الرحمن افندي الكوا كبي (رحمه الله) لو تيسر لنا ان نجعل بعض محبي الاصلاح المعتصمين بالكتاب والسنة شيوخا للطريق لامكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخا لطريقة من الطرق · فقال إننا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلا من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم الى طريق الدين السوي فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سبب الضلاله بدلا من ان يكون سببا لهدايتهم وخسرناه خسارة لا مطمع في رجوعها (راجع تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا » الآيات في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم أو في المنار)

عقدت في القلمون عدة مجالس للوعظ والتذكير قل من تخلف عنها من حاضري القرية فتاب الناس توبة يغلب على ظني ان اكثرهم صادق فيها ولا أخشى من الاصرار على الفساد الا على نفر قليل من الموالين لبعض الاشقياء الغرباء الذين أشرت اليهم فيما سبق من القول · وقد الفت لهم جمعية عنوانها قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وجعلت لها صلة بجمعية التعاون التي سعيت بتأسيسها في طرابلس

دده وسائر الكورة

بدأت الوفود تفد من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا اليها كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى وقد نزل معظم أهل « دده » – وهي على قمة الجبل بازاء القلمون على الساحل — بعد العشاء وهم يطلقون البارود من بنادقهم والرصاص من مسدساتهم ويهزجون بالاغاني فتلقاهم

مستحضرات نصوحي

التي اكتسبت الشهرة العظمى شرقاً وغرباً بتأثيرها الشافي لصاحبها الحائز على الشهادة ديلوما ووسامات الامتياز من الدولة العثمانية وتصديق مصلحة الصحة العمومية المصرية بعد التحليل بعملها الكيماوي

قرش أميري (أسماء الادوية وبيان منافعها)

١٢ اكسير نصوحي لتقوية المعدة وفقر الدم ومزيل للالام التي تحصل وقت الطمث

١٠ ماء الشباب يمنع الكلف والقشف ويكسب الجسم نعومة ولطافة

٠٦ قطران بلسمي للامراض الصدرية والسيلان الحاد والمزمن والمثانة والزكام

٠٥ دواء الاسنان يمنع التسوس ويسكن الالام بسرعة عجيبة ويقوي اللثة

٠٣ قطرة نصوحي تمنع الالتهابات المزمنه والرمد الحبيبي والصديدي وتعيد قوتها الحقيقية

١٢ حبوب نصوحي لتقوية الاعصاب وتمنع الشلل والرمايزم والرطوبة والصداع والدوخة والوخامه المسببه من فقر الدم

٠٥ حبوب صدرية لازالة السعال وخروج البلغم بسهولة من غير تعب

٠٥ حبوب ملينة تمنع الامساك الذي ينتج منه جميع الامراض المختلفة من غير مغص

١٠ يودوتنيك فوسفاتيه يستعمل لتقوية الاطفال المتفاوين ويزيل العقد الخنازيرية

١٠ زيت الحياة للشعر يطول ويطري الشعر ويمنع السقوط وتقصيفه والقشرة به

٢٠ كبسول بارزيان لتقوية الجسم والاعصاب وتزيد نشاط البدن خاصة

١٥ كبسول نصوحي للسيلان المزمن والحاد ويزيل الالتهابات التي تحصل في المجاري البولية عموما

٠٥ مسحوق الاسنان لاجل جلاء الاسنان ولتقوية اللثة ويمنع الرائحة الكريهة من الفم

٠٥ مسحوق الشعر يزيل الشعر في أربع دقائق بغاية السهولة ويظهر ناعماً لطيف اللمس من غير خطر

٠٥ لعوق صحي ضد الزكام ومزيل النوازل ومنعش للجسم

٠٣ دواء نصوحي لوقاية الكوليرا ومنع مكروباتها والبواسير الحديثة والمزمنة ويزيل المغص

والمستودع العمومي بعمله الكيماوي (بأجزخانة نصوحي) بشارع محمد علي بمصر

والعنوان على لسان البريد والبرق (نصوحي الكيماوي بمصر)

ثانية وأمرنا باجراء انتخابات جديدة . ودعونا مجلس المبعوثان للاجتماع . وعلى أثر تغيير طريقة الحكم الاداري اسندنا منصب الصدارة العظمى الى كامل باشا.

وبينا كان مجلس النظار المؤلف تحت رياسته عا كفا على تنظيم الحكومة الدستورية خرج أمير بلغاريا ووالي الروملي الشرقية عن حدود الامانة لسلطنتنا لسبب ما وأعلن استقلال بلغاريا وعلى أثر هذا العمل أخذت النمسا وهنغاريا أيضا بضم البوسنه والهرسك اللتين سلم اليها احتلالهما وقتيا بمعاهدة برلين. فابلغت اقرارها الى الباب العالي والى الدول . فهذان الحادثان العظيمان اللذان يخترقان حرمة المعاهدات ويمسان الصلات . سببا لنا اسفاً عظيماً

وعلى أثر اختراق حرمة المعاهدات سلمنا مجلس نظارنا مهمة عمل الواجب للدفاع عن حقوق حكومتنا . وانا نود في كل حال معاونة مجلس المبعوثان . وبما ان صلاتنا مع جميع الدول حسنة ووثيقة . فلنا الامل انه مع معاونة الدول صديقاتنا تحل المسائل السياسية

وانا نود من صميم الفؤاد تنظيم المالية ، وتسوية موازنة الميزانية ، ومواصلة تحسين حالة سلطنتنا وزيادة عدد المدارس لزيادة نشر التعليم العام ، وابلاغ جيشنا وبحريتنا درجة الكمال . وكذلك تنظيم الدوائر المختلفة التي وضعت مشروعات قوانين شتى متعرض على مجلس المبعوثان ومجلس الاعيان لإقرارها

وعلى أمل ان مبعوثانا سيبذلون كل جهدهم في هذه السبيل نعلن اليوم اذاً فتح مجلس المبعوثان

ومنتهى متمنانا سعادة الامة ونجاحها وأقصى رغبتنا وآكدها وعزيمتنا الثابتة التي لا تتغير ان تكون ادارة البلاد مطابقة للدستور

نسأل الله أن يحصر مجلس المبعوثان كل قواه في خدمة البلاد وخيرها

(المنار) : بعد ان تلا رئيس كتاب المابين هذا الخطاب نطق السلطان بهذه الجملة بصوت خافت «اني كثير السرور برؤيتكم مجتمعين امامي هنا واسأل الله ان يكلل أعمالنا بالنجاح والتوفيق » ولقد كان للخطبة وقع سيء في الاستانة وانتقدتها الصحف ثمة انتقادا شديدا

﴿ مكتبة المنار في طرابلس ﴾

أسسنا مكتبة للمنار في طرابلس الشام تباع فيها جميع مطبوعاتنا وغيرها من نفائس الكتب المطبوعة في مصر وسوريا وهي مستعدة لمعاملة من في الخارج وتلبية كل طلب . والمخابرة باسم مديرها : السيد صالح رضا بطرابلس الشام

﴿ الكامل للمبرد ﴾

هذا الكتاب من أنفس وأحفل وأنفع كتب الأدب واللغة يباع بمكتبتي المنار في مصر وطرابلس بثلاثين قرشا صاغا وأجرة البريد والتجليد ١٤ قرشا صاغا وثمنه في الخارج ١٢ فرنكا

﴿ مفكرة المعارف ﴾

أصبح ما يسمونه بالمفكرة ضروريا لكل انسان يريد ضبط أوقاته ومواعيده ومعرفة المواسم والاعياد السياسية والدينية أو تقييد سوانح أفكاره وخواطر نفسه على نحو ما تجري عليه الفرنجة وأحسن مفكرة صدرت في هذا العام مفكرة المعارف لصاحبها المتقن المتفنن نجيب افندي متري وثمنها ٤ قروش وتباع بمكتبة المعارف بالفجالة بمصر

من كان يريد أستاذاً ضليعاً باللغتين التركية والعربية والعلوم الشرعية فليطلبه من ادارة المنار

﴿ مفكرة سكر ﴾

زاد السيد علي سكر هذه المفكرة (Agenda) اتقانا في هذا العام وهذا النمط من المفكرات أي الكبيرة يحتاج اليه معظم أرباب الاعمال سواء في ذلك الزارع والتاجر والمحامي والصحافي فهي لاتفارق مكتب مستعملها بتة وهي مجلدة تجليدا متقنا وتباع بعشرة قروش بمكتبة صاحبها بشارع محمد علي